

نيسير الكريم المنان في سيرة

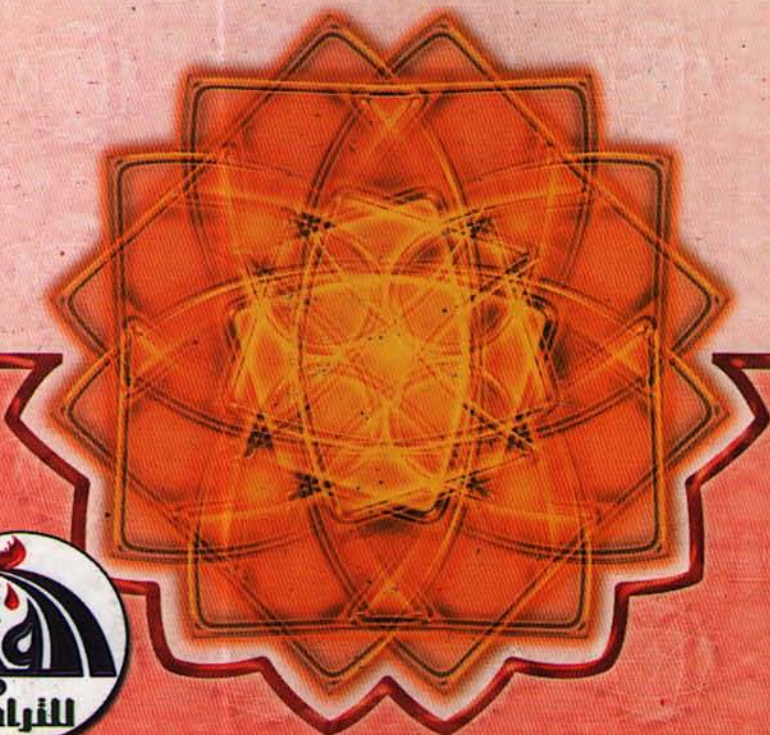
عثمان بن عفان

رضي الله
عنه

شخصيته وعصره

تأليف

دكتور علي محمد الصديقي



سيرة

3

منتدى اقراء الثقافى

www.iqra.forumarabia.com

تاریخ الخلفاء الراشدين (۳)

تيسير الكريم المتان فى سيرة

عَمَّارٌ بِرِغْفَارٍ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

شَخْصِيَّتِهِ وَعَصْرِهِ

تأليف

وَاللَّهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ الْفَضْلَ

الحمد لله

خلف الجامع الأزهر - القاهرة



﴿وقل رب زدني علما﴾

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

* الكتاب : عثمان بن عفان شخصيته وعصره

* المؤلف : علي محمد محمد الصلابي

* الطبعة : الثانية ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

* الناشر : دار الفجر للتراث - القاهرة

* رقم الإيداع : ٢٦٥٥ / ٢٠٠٤

دار الفجر للتراث

خلف الجامع الأزهر / القاهرة

تليفون: ٢٥١٤٧١٧٩ - تليفون وفاكس: ٢٥١٤٧٢٤٨



الإهداء

إلى العلماء العاملين.

والدعاة المخلصين.

وطلاب العلم المجتهدين.

وأبناء الأمة الغيورين.

أهدى هذا الكتاب سائلاً المولى عزَّ وجلَّ بأسمائه الحُسنى
وصفاته العُلى أن يكون خالصاً لوجهه الكريم.

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ
رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

المؤلف

على محمد محمد الصلابي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].
 ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

هذا الكتاب يتحدث عن شخصية عثمان بن عفان رضى الله عنه وعصره، وهو امتداد لما سبقه من كتب تحدثت عن الصديق والفاروق تبحث في دراسة عهد الخلفاء الراشدين؛ لكي نستخرج الدروس والعبر، ونستوعب السنن والقوانين الإلهية في حركة المجتمعات وبناء الدول ونهضة الشعوب، وتربية القادة، والأفراد العاملين لنشر دين الله بين الناس.

إن عودة الأمة لما كانت عليه في قيادتها للبشرية منوط بسيرها على هدى النبي ﷺ وخلفائه الراشدين، فقد أخبر الحبيب المصطفى ﷺ عن المراحل التاريخية التي تمر بها الأمة في مسيرتها في الحياة، فقال ﷺ: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله

أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها. ثم تكون ملكاً عاصاً فيكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها. ثم تكون خلافة على منهاج النبوة» (١).

إن معرفة عهد الخلافة الراشدة ومنهاج النبوة خطوة لا بد منها في تحقيق الأهداف التي تسعى الأمة لتحقيقها في هذه الحياة؛ فقد قال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى» (٢).

إن تاريخ عصر الخلفاء الراشدين ملئ بالدروس والعبر، وهى متناثرة في بطون الكتب والمصادر والمراجع سواء كانت تاريخية أو حديثية أو فقهية أو أدبية أو تفسيرية، فنحن في أشد الحاجة لجمعها وترتيبها وتوثيقها وتحليلها، فتاريخ الخلافة الراشدة إذا أحسن عرضه يغذى الأرواح، ويهذب النفوس، وينور القلوب، ويبني العقول، ويشحذ الهمم، ويقدم الدروس، ويسهل العبر، وينضج الأفكار، ويوضح معالم هذه الخلافة، وصفات قادتها، ونظام حكمها، وأخلاق جيلها وعوامل ازدهارها، وأسباب زوالها؛ فنستفيد من ذلك في إعداد الجيل المسلم الذي يتربى على منهاج النبوة وفقه الخلافة الراشدة، ونتعرف على حياة عصر من قال الله تعالى فيهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠] وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجْدًا﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال فيهم رسول الله ﷺ: «خير أمتى القرن الذى بعثت فيهم...» (٣).

وقال فيهم عبد الله بن مسعود: من كان مستأ فليستن بمن قد مات؛ فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا والله أفضل هذه الأمة، وأبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه،

(١) المسند (٢٧٣/٤)، والبزار رقم ١٥٨٨ رجاله ثقات.

(٢) سنن أبي داود (٢٠١/٤)، والترمذى (٤٤/٥)، حسن صحيح.

(٣) مسلم (١٩٦٣ - ١٩٦٤).

فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم^(١). فالصحابة قاموا بتطبيق أحكام الإسلام ونشروه في مشارق الأرض ومغاربها فعصرهم خير العصور، فهم الذين علّموا الأمة القرآن الكريم ورووا السنن والآثار عن رسول الله ﷺ، فتاريخهم هو الكثر الذي حفظ مدخرات الأمة في الفكر والثقافة والعلم والجهاد، وحركة الفتوحات والتعامل مع الشعوب والأمم، فتجد الأجيال في هذا التاريخ المجيد ما يعينها على مواصلة رحلتها في الحياة على منهج صحيح، وهدى رشيد، وتعرف من خلاله حقيقة رسالتها ودورها في دنيا الناس.

إن التاريخ الإسلامي أصبح غرضاً ومرمىً لسهام أعداء الإسلام على مختلف مذاهبهم وعقائدهم، يحاولون أن يوجدوا فجوة في الإسلام وتاريخه الزاهر، حتى يتسنى لهم عزل الأجيال عن الإسلام وعقيدته وشريعته وقيمه وتراثه العلمي، ولذلك يبذلون قصارى جهدهم لنفث السموم في المجتمع الإسلامي.

لقد حاول المستشرقون ومن قبلهم الروافض أن ينشروا كل رواية باطلة تنقص من شأن الصحابة الكرام، وتطعن في تاريخ الأمة المجيد، وتصور تاريخهم بأنه صراع على السلطة والسيادة والنفوذ، ولذلك يجب الحذر من كل رافضى كاذب، ومستشرق حاقد، وعلماني جاهل، وكل من سار على نهجهم، ولا بد من الدفاع المستميت عن تاريخنا الخالد، والهجوم الشجاع على مناهج الكذابين والمنحرفين، ويكون هذا الهجوم المبارك بقذائف الحق العلمية المملوءة بالحقائق الساطعة والأدلة القاطعة والبراهين الدامغة.

إن صياغة التاريخ الإسلامي بمنهج أهل السنة والجماعة ضرورة ملحة لأبناء الأمة، وقد بدأت أقلام الباحثين والكتاب تصوغ التاريخ من هذا المنظور وهم لم يبدؤوا من فراغ؛ لأن الله حمى دينه وحمى أمة الإسلام فقيض لتاريخ الصحابة من يحقق وقائمه ويصحح أخباره، ويكشف الستار عن الموضوعات والكذابين من ملفقى الأخبار،

(١) شرح السنة للبغوي (١/ ٢١٤ - ٢١٥).

ويرجع الفضل في ذلك الجهد العظيم إلى الله ثم أهل السنة والجماعة من أئمة الفقهاء والمحدثين الذين حفلت مصادرهم بالكثير من الإشارات والروايات الصحيحة التي تنقض وترد كل ما وضعه الملقون^(١).

هذا، وقد سرت على أصول منهج أهل السنة، فعكفت على المصادر والمراجع القديمة والحديثة، ولم أعتمد في دراسة عصر الخلفاء الراشدين على الطبرى وابن الأثير والذهبي وكتب التاريخ المشهورة فقط؛ بل رجعت إلى كتب التفسير، والحديث وشروحها، وكتب العقائد والفرق، وكتب التراجم والجرح والتعديل، وكتب الفقه، فوجدت فيها مادة تاريخية غزيرة يصعب الوقوف على حقيقتها في الكتب التاريخية المعروفة والمتداولة، وقد شرعت في هذا الكتاب بالحديث عن الخليفة الراشد عثمان ابن عفان رضى الله عنه الذى قال فيه رسول الله ﷺ: «وأصدقها حياءً عثمان»^(٢). وقال فيه رسول الله ﷺ في غزوة تبوك بعد تقديمه النفقة العظيمة: «ما ضرَّ عثمان بعد اليوم، ما ضرَّ عثمان بعد اليوم»^(٣)، وقد بشره رسول الله ﷺ بالجنة على بلوى تصيبه^(٤)، وحثَّ الناس عند وقوع الفتنة أن يكونوا مع عثمان وأصحابه، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «إني سمعت رسول الله يقول: «إنكم تلقون بعدى فتنة واختلافًا أو اختلافًا وفتنة، فقال له قائل من الناس: فمن لنا يا رسول الله؟ قال: عليكم بالأمين وأصحابه وهو يشير إلى عثمان»^(٥).

وقد كان الصحابة رضى الله عنهم في زمن النبى ﷺ لا يعدلون بأبى بكر أحدًا، ثم عمر، ثم عثمان، فعن ابن عمر رضى الله عنه قال: «كنا في زمن النبى ﷺ لا نعدل بأبى بكر أحدًا، ثم عمر، ثم عثمان، ثم نترك أصحاب النبى ﷺ لا نفاضل بينهم»^(٦).

(١) المنهج الإسلامى لكتابة التاريخ، د. محمد محزون، ص ٤.

(٢) فضائل الصحابة، لأبى عبد الله أحمد بن حنبل (٦٠٤/١) إسناده صحيح.

(٣) سنن الترمذى رقم ٣٧٨٥.

(٤) البخارى رقم ٣٦٩٥.

(٥) فضائل الصحابة (٥٥٠/١) إسناده صحيح.

(٦) البخارى، كتاب فضائل أصحاب النبى ﷺ رقم: ٣٦٩٨.

* وقد قال فيه الشاعر النميري:

عشية يدخلون بغير إذن على متوكلٍ أوفى وطابا
خليل محمد ووزير صدق ورابع خير من وطئ الترابا^(١)

* وقال فيه أبو محمد القحطاني:

لما قضى صديق أحمد نحيبه دفع الخلافة للإمام الثاني
أعنى به الفاروق فرق عثوة بالسيف بين الكفر والإيمان
هو أظهر الإسلام بعد خفائه ومحا الظلام وباح بالكتمان
ومضى وخلّى الأمر شورى بينهم فى الأمر فاجتمعوا على عثمان
من كان يسهر ليلة فى ركعة وترأف فيكمل ختمة القرآن

* إلى أن قال:

والويل للركب الذين سعوا إلى عثمان فاجتمعوا على العصيان^(٢)

إن حياة ذى النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه صفحة مشرقة فى تاريخ الأمة، وقد قمت بتتبع أخباره وحياته وعصره وقمت بترتيبها وتنسيقها وتوثيقها وتحليلها؛ لكي تصبح فى متناول أبناء أمتى على مختلف طبقاتهم من علماء ودعاة وخطباء، وساسة ومفكرين، وقادة جيوش، وحكام، وطلاب علم، وعامة الناس؛ لعلهم يستفيدون منها فى حياتهم، ويقتدون بها فى أعمالهم فيكرمهم الله بالفوز فى الدارين.

لقد تحدثت فى هذا الكتاب عن اسم ذى النورين ونسبه وكنيته وألقابه وأسرته، ومكانته فى الجاهلية، وإسلامه، وزواجه من رقية بنت رسول الله ﷺ، وابتلائه وهجرته للحبشة، وعن حياته مع القرآن الكريم وملازمته للنبي ﷺ وعن مواقفه فى

(١) البداية والنهاية (٢٠٦/٧).

(٢) نونية القحطاني، ص ٢١ - ٢٥.

غزوات رسول الله ﷺ ، وعن حياته الاجتماعية بالمدينة، ومساهمته الاقتصادية فى بناء الدولة، وتبعت أحاديث رسول الله ﷺ فى ذى النورين فيما ورد فى فضائله مع غيره، وما ورد عن رسول الله فى أخباره عن الفتنة التى يقتل فيها عثمان، وتكلمت عن مكانته فى عهد الصديق والفاروق، وبينت قصة استخلافه وما قام به عبد الرحمن ابن عوف من عمل عظيم فى إشرافه على إدارة الشورى، ورددت على الأباطيل الرافضية التى دست فى قصة الشورى، فأثبت بطلانها وزيفها بالحجج العلمية والبراهين القوية والأدلة المنطقية، وذكرت أقوال أهل العلم فى أحقية عثمان بالخلافة وانعقاد الإجماع على خلافته، وشرحت منهج عثمان رضى الله عنه فى نظام الحكم من خلال رسائله للولاة وأمرأه الجند وعامة الناس، ومواقفه فى الحياة، فقد وضع رضى الله عنه المرجعية العليا للدولة، وحق الأمة فى محاكمة الخليفة، وقواعد الشورى والعدل والمساواة والحريات وأهمية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى حياة المجتمعات، وقد أشرت إلى أهم صفات عثمان رضى الله عنه القيادية وذكرت تسع عشرة صفة من صفاته مع المواقف الدالة على تلك الصفات الرفيعة، والأخلاق الحميدة، وتحدثت عن المؤسسة المالية فبينت معالم السياسة المالية التى أعلنها عثمان عندما تولى الحكم، وأنواع النفقات العامة فى عهده، كصرف مرتبات الولاة، والجنود، والإنفاق على الحج، وتمويل إعادة بناء المسجد النبوى، وتوسعة المسجد الحرام، وإنشاء أول أسطول بحرى، وتحويل الساحل من الشعبية إلى جدة، وتمويل حفر الآبار، ورواتب المؤذنين، وأشرت إلى أثر تدفق الأموال على الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، وإلى حقيقة العلاقة بين عثمان وأقاربه والعطاء من بيت المال، وتكلمت عن مؤسسة القضاء وبعض الاجتهادات الفقهية لعثمان والتى أثرت فى المدارس الفقهية فيما بعد، وجمعت فتوحات عثمان المتناثرة فى كتب التاريخ، وقمت بترتيبها وتنظيمها وفق حركة الجيوش فى المشرق، وبلاد الشام، وفى الجبهة المصرية، والشمال الإفريقى، واستخرجت من حركة الفتوح دروساً وعبراً وفوائد، كتتحقق وعد الله للمؤمنين، وتطور فنون الحرب والسياسة، والاهتمام بحدود الدولة، والحرص على وحدة الكلمة فى مواجهة العدو، وجمع المعلومات عن الأعداء، وترجمت لبعض

قادة الفتوح، كالأنحاف بن قيس، وعبد الرحمن بن ربيعة الباهلي، وسلمان بن ربيعة، وحبيب بن مسلمة الفهري، وأشدت بأعظم مفاخر عثمان في توحيد الأمة على قراءة المصحف العثماني، ووضحت المراحل التي مرت بها كتابة القرآن الكريم، وتحدثت عن الباعث على جمع القرآن في عهده، واستشارته لجمهور الصحابة، وعن عدد المصاحف التي أرسلها إلى الأمصار، وفهم الصحابة لآيات النهي عن الاختلاف، وعن مؤسسة الولاة، وأقاليم الدولة في عهده، وسياسته مع الولاة وحقوقهم وواجباتهم، وأساليبه في متابعة ولاته ومراقبتهم والاطلاع على أخبارهم وبينت حقيقة ولاية عثمان رضي الله عنهم وماذا لهم وماذا عليهم، وحقيقة علاقة عثمان بأبي ذر، وابن مسعود وعمار بن ياسر رضي الله عنهم جميعاً، وفصلت أسباب فتنة مقتل عثمان وأهمية دراسة وقائع هذه الفتنة، وتحدثت عن كل سبب من الأسباب في فقرة مستقلة، كالرخاء وأثره في المجتمع، وطبيعة التحول الاجتماعي، ومجيء عثمان بعد عمر رضي الله عنهما، وخروج كبار الصحابة من المدينة، والعصبية الجاهلية، وتوقف الفتوحات، والورع الجاهلي، وطموح الطامحين، وتآمر الحاقدين، والتدبير المحكم لإثارة المآخذ ضد الخليفة الراشد المظلوم، واستخدام الأساليب والوسائل المهيجة للناس، وعن أثر السبئية في أحداث الفتنة، والخطوات التي اتخذها عثمان رضي الله عنه لمعالجتها، كإرسال لجان تحقيق وتفتيش، وإرساله لكل الأمصار كتاباً شاملاً بمثابة إعلان عام لكل المسلمين، ومشورته لولاة الأمصار وإقامة الحججة على المتمردين، والاستجابة لبعض مطالبهم، وبينت ضوابط التعامل مع الفتن من خلال فقه عثمان رضي الله عنه، كالتثبت، ولزوم العدل والإنصاف، والحلم والأناة، والحرص على ما يجمع، ونبد ما يفرق، ولزوم الصمت، والحذر من كثرة الكلام، واستشارة العلماء الربانيين، والاسترشاد بأحاديث رسول الله ﷺ في الفتن، ووصفت احتلال أهل الفتنة للمدينة، وحصارهم لعثمان ودفاع الصحابة عنه ورفضه لذلك، وذكرت مواقف الصحابة من مقتل عثمان رضي الله عنه وما ورد من أقوالهم في الفتنة.

إن هذا الكتاب يرهن على عظمة ذي النورين، ويثبت للقارئ الكريم بأنه كان

عظيمًا بإيمانه وبعلمه وبخلقه وبآثاره، وكانت عظمته مستمدة من فهمه وتطبيقه للإسلام وصلته العظيمة بالله وأتباعه لهدى الرسول الكريم ﷺ.

إن عثمان رضى الله عنه من الأئمة الذين يتأسى الناس بهديهم وبأقوالهم وأفعالهم فى هذه الحياة، فسيرته من أقوى مصادر الإيمان، والعاطفة الإسلامية الصحيحة والفهم السليم لهذا الدين، فلذلك اجتهدت فى دراسة شخصيته وعصره حسب وسعى وطاقتي، غير مدع عصمة، ولا متبرئ من زلة، ووجه الله الكريم لا غيره قصدت، وثوابه أردت، وهو المستول فى المعونة عليه، والانتفاع به، إنه طيب الأسماء، وسميع الدعاء.

هذا، وقد انتهيت من هذا الكتاب الساعة الثانية من فجر يوم الأربعاء بتاريخ ٨ من شهر ربيع الثانى لعام ١٤٢٣هـ الموافق ٢٠٠٢/٦/١٨م والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعل عملى لوجهه خالصًا، ولعباده نافعًا، وأن يثيبنى على كل حرف كتبت ويجعله فى ميزان حسناتى، وأن يثيب إخوانى الذين أعانونى بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الجهد المتواضع، ونرجو من كل مسلم يطلع على هذا الكتاب أن لا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

وقال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه

على محمد محمد الصلابي

الفصل الأول

ذو النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه
بين مكة والمدينة

المبحث الأول

اسمه ونسبه وكنيته وألقابه وصفته
وأسرته ومكانته فى الجاهلية

أولاً: اسمه ونسبه وكنيته وألقابه:

١ - هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى بن كلاب، ^(١) ويلتقى نسبه بنسب رسول الله ﷺ فى عبد مناف. وأمه أروى بنت كُرَيْز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى ^(٢)، وأمها أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب، وهى شقيقة عبد الله والد النبى ﷺ، ويقال إنهما ولدا توأماً حكاه الزبير بن بكار، فكان ابن بنت عمه النبى ﷺ، وكان النبى ﷺ ابن خال والدته، وقد أسلمت أم عثمان وماتت فى خلافة ابنها عثمان وأنه كان ممن حملها إلى قبرها ^(٣)، وأما أبوه فهلك فى الجاهلية.

٢ - كنيته: كان يكنى فى الجاهلية أبا عمرو، فلما ولد له من رقية بنت رسول الله غلام سماه عبد الله، واكتنى به، فكنّاه المسلمون أبا عبد الله ^(٤).

٣ - لقبه: كان عثمان رضى الله عنه يلقب بذى النورين وقد ذكر بدر الدين

(١) الطبقات، لابن سعد (٣/٥٣)، والإصابة (٤/٣٧٧)، رقم ٥٤٦٣.

(٢) التمهيد والبيان لمحمد يحيى الأندلسى، ص ١٩.

(٣) الخلافة الراشدة والدولة الأموية، د. يحيى اليحيى، ص ٣٨٨.

(٤) التمهيد والبيان، ص ١٩.

العيني^(١)، في شرحه على صحيح البخاري: أنه قيل للمهلب بن أبي صفرة^(٢): لم قيل لعثمان ذو النورين؟ فقال: لأننا لا نعلم أحداً أرسل سترًا على بنتي نبي غيره^(٣)، وقال عبد الله بن عمر بن أبان الجعفي: قال لي خالي حسين الجعفي: يا بني، أتدرى لم سُمي عثمان ذا النورين؟ قلت: لا أدري. قال: لم يجمع بين ابنتي نبي منذ خلق الله آدم إلى أن تقوم الساعة، غير عثمان، فلذلك سمي ذا النورين^(٤)، وقيل قد سمي بذى النورين؛ لأنه كان يكثر من تلاوة القرآن في كل ليلة في صلاته، فالقرآن نور وقيام الليل نور^(٥).

٤ - ولادته: ولد في مكة بعد عام الفيل بست سنين على الصحيح^(٦)، وقيل ولد في الطائف؛ فهو أصغر من رسول الله ﷺ بنحو خمس سنين^(٧).

٥ - صفته الخلقية: كان رجلاً ليس بالقصير ولا بالطويل، رقيق البشرة، كث اللحية عظيمها، عظيم الكراديس^(٨)، عظيم ما بين المنكبين، كثير شعر الرأس، يصفر لحيته، وقال الزهري: كان عثمان رجلاً مربعاً، حسن الشعر، حسن الوجه، أصلع، أرواح الرجلين^(٩)، أفتى^(١٠)، خدل الساقين^(١١)، طويل الذراعين قد كسا ذراعيه، جعد

(١) هو محمود بن أحمد بن موسى العيني، أبو محمد: من علماء التاريخ والحديث والفقه، له تأليف كثيرة، توفي ٨٥٥ هـ. انظر: شذرات الذهب (٧/٢٨٦). والضوء اللامع (١٠/١٣١).

(٢) هو المهلب بن أبي صفرة الأردى العقلي، من الأمراء الأبطال، غزا الهند في خلافة معاوية، وولى الجزيرة لابن الزبير، وحارب الخوارج في عهد عبد الملك بن مروان، ثم ولى خراسان من قبله سنة ٧٩ هـ وترجع شهرته إلى حرب الخوارج، توفي ٨٣ هـ. وفيات الأعيان (٥/٣٥٠)، سير أعلام النبلاء (٤/٣٨٣).

(٣) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٦/٢٠١).

(٤) سنن البيهقي ٧/٧٣، قال الدكتور عاطف لماضة: خبر حسن.

(٥) عثمان بن عفان ذو النورين - لمباس العقاد، ص ٧٩.

(٦) الإصابة (٤/٣٧٧) رقم ٥٤٦٤.

(٧) عثمان بن عفان، لصادق عرجون، ص ٥٤.

(٨) الكراديس: جمع كردوس، وهو كل عظيمين التقيا في مفصل.

(٩) تاريخ الطبري (٥/٤٤٠). وأرواح الرجلين: منفرج ما بينهما.

(١٠) أفتى: طويل الأنف مع دقة أرنبته، وحذب في وسطه.

(١١) خدل الساقين: أي ضمخ الساقين.

الشعر، أحسن الناس ثغراً، جُمته^(١) أسفل من أذنيه، حسن الوجه والراح أنه أبيض اللون، وقد قيل: أسمر اللون^(٢).

ثانياً، أسرته،

تزوج عثمان رضى الله عنه، ثمانى زوجات كلهن بعد الإسلام وهُنَّ: رقية بنت رسول الله ﷺ وقد أنجبت له عبد الله بن عثمان، ثم تزوج أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ بعد وفاة رقية، وتزوج فاختة بنت غزوان؛ وهى أخت الأمير عتبة ابن غزوان، وأنجبت لعثمان عبد الله الأصغر، وأم عمرو بنت جندب الأردية؛ وقد أنجبت لعثمان: عمراً، وخالدًا، وأبان، وعمر، ومريم، وتزوج فاطمة بنت الوليد بن عبد شمس بن المغيرة المخزومية؛ وأنجبت لعثمان: الوليد، وسعيدًا، وأم سعد، وتزوج أم البنين بنت عيينة بن حصن الفزارية؛ وأنجبت لعثمان عبد الملك وتزوج رملة بنت شيبه بن ربيعة الأموية؛ وأنجبت لعثمان، عائشة، وأم أبان، وأم عمرو، وقد أسلمت رملة، وبايعت رسول الله ﷺ، وتزوج نائلة بنت الفرافصة الكلبيّة وكانت على النصرانية وقد أسلمت قبل أن يدخل بها وحسن إسلامها^(٣).

وأما أبنائه فقد كانوا تسعة أبناء من الذكور من خمس زوجات وهم: عبد الله: وأمه رقية بنت رسول الله ﷺ ولد قبل الهجرة بعام ن، وأخذته أمّه معها عندما هاجرت مع زوجها عثمان إلى المدينة، وفي أوائل أيام الحياة فى المدينة نقره الديك فى وجهه قرب عينه، وأخذ مكان نقر الديك يتسع حتى طمر وجهه حتى مات فى السنة الرابعة للهجرة، وكان عمره ست سنوات^(٤). وعبد الله الأصغر: وأمه فاختة بنت غزوان. وعمرو: وأمه أم عمرو بنت جندب، وقد روى عن أبيه، وعن أسامة ابن زيد، وروى عنه على بن الحسين، وسعيد بن المسيب، وأبو الزناد وهو قليل الحديث

(١) جُمته: مجتمع شعر الرأس.

(٢) صفة الصفوة (١/٢٩٥)، صحيح التوثيق فى سيرة وحياة ذى النورين، ص ١٥.

(٣) تاريخ الطبرى (٥/٤٤١)، والتمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان، ص ١٩. والأمين ذو النورين، لمحمود شاكر، ص ٣٦٤.

(٤) الأمين ذو النورين، ص ٣٦٥، والتمهيد والبيان، ص ١٩.

وتزوج رملة بنت معاوية بن أبي سفيان، توفى سنة ثمانين للهجرة. وخالد: وأمه أم عمرو بنت جندب. وأبان: وأمه أم عمرو بنت جندب، كان إماماً في الفقه، يكنى أبا سعيد، تولى إمرة المدينة سبع سنين في عهد عبد الملك بن مروان، سمع أباه وزيد بن ثابت له أحاديث قليلة منها ما رواه عن عثمان: «من قال في أول يومه وليته: «بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم لم يضره ذلك اليوم شيء أو تلك الليلة». فلما أصاب أبانَ الفالجُ قال: إني والله نسيْتُ هذا الدعاء ليمضى فيَّ أمر الله^(١). ويعتبر من فقهاء المدينة في زمنه وقد توفى سنة خمس ومائة^(٢)، وعمر: وأمه أم عمرو بنت جندب. والوليد وأمه فاطمة بنت الوليد ابن عبد شمس بن المغيرة المخزومية. وسعيد: وأمه فاطمة بنت الوليد المخزومية تولى أمر خراسان عام ستة وخمسين أيام معاوية بن أبي سفيان. وعبد الملك: وأمه أم البنين بنت عيينة بن حصن، ومات صغيراً. ويقال: ولدت نائلة بنت الفرافصة ولدًا لعثمان سُمِّيَ عنبسة^(٣).

وأما بناته، فهن سبع من خمس نساء. مريم: وأمها أم عمرو بنت جندب، وأم سعيد. وأمها فاطمة بنت الوليد بن عبد شمس المخزومية. وعائشة وأمها رملة بنت شيبه بن ربيعة ومريم بنت عثمان وأمها نائلة بنت الفرافصة. وأم البنين؛ وأمها أم^(٤) ولد.

وأما شقيقة عثمان؛ فهي آمنة بنت عفان فقد عملت ماشطة في الجاهلية، ثم تزوجت الحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة المخزومي، وأسرت سرية عبد الله بن جحش الحكم بن كيسان، وفي المدينة أسلم وحسن إسلامه، وأقام عند رسول الله، حتى قتل يوم بئر معونة شهيداً، في بداية السنة الرابعة للهجرة، وبقيت آمنة بنت عفان في مكة على شركها حتى يوم الفتح، حيث أسلمت مع أمها وبقيت أخواتها،

(١) سنن الترمذي، كتاب الدعوات، رقم ٣٣٨٥، حديث صحيح.

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٥٣/٤). وتاريخ القضاء، ص ٣٠٨.

(٣) الأمين ذو النورين، ص ٣٦٩.

(٤) التمهيد والبيان، ص ٢٠.

وبايعت رسول الله ﷺ مع هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان على أن لا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن ولا يزنين^(١).

وأما إخوة عثمان من أمه فله ثلاثة إخوة وهم: الوليد بن عتبة بن أبي معيط، قتل أبوه يوم بدر صبراً وهو كافر وخرج الوليد مع أخيه عمارة بعد الحديبية لرد أختهما أم كلثوم التي أسلمت وهاجرت، فأبى رسول الله ﷺ ردها، وأسلم الوليد يوم الفتح. وعمارة بن عتبة؛ تأخر إسلامه، وخالد بن عتبة^(٢).

وأما أخواته من أمه فهن؛ أم كلثوم بنت عتبة بن أبي معيط، أسلمت بمكة، وهاجرت وبايعت رسول الله ﷺ، وهى أول من هاجر من النساء بعد أن عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد صلح الحديبية. وأم حكيم بنت عتبة، وهند بنت عتبة.

ثالثاً، مكانته في الجاهلية:

كان رضى الله عنه في أيام الجاهلية من أفضل الناس في قومه؛ فهو عريض الجاه ثرى، شديد الحياء عذب الكلمات، فكان قومه يحبونه أشد الحب ويوقرونه، لم يسجد في الجاهلية لصنم قط ولم يقترب فاحشة قط، فلم يشرب خمرًا قبل الإسلام وكان يقول: إنها تذهب العقل. والعقل أسمى ما منحه الله للإنسان، وعلى الإنسان أن يسمو به، لا أن يصارعه، وفي الجاهلية كذلك لم تجذبه أغاني الشباب ولا حلقات اللهو، ثم إن عثمان كان يتعفف عن أن يرى عورته^(٣)، ويرحم الله عثمان رضى الله عنه فقد يسر لنا سبيل التعرف عليه حيث قال: «ما تغنيت، ولا ثمنيت، ولا مست ذكرى بيمينى منذ بايعت بها رسول الله ﷺ، ولا شربت خمرًا في جاهلية ولا إسلام، ولا زنيت في جاهلية ولا في إسلام»^(٤).

(١) الأمين ذو النورين، ص ٣٤٦.

(٢) الأمين ذو النورين، ص ٣٥٤.

(٣) موسوعة التاريخ الإسلامى، لأحمد شلبى (١/٦١٨).

(٤) حلية الأولياء (١/٦٠، ٦١) الخبر صحيح.

وكان رضى الله عنه على علم بمعارف العرب فى الجاهلية ومنها الأنساب والأمثال وأخبار الأيام، وساح فى الأرض فرحل إلى الشام والحبشة وعاشر أقواماً غير العرب فعرف من أحوالهم وأطوارهم ما ليس يعرفه غيره^(١)، واهتم بتجارته التى ورثها عن والده، ونمت ثرواته وأصبح يعد من رجالات بنى أمية الذين لهم مكانة فى قریش كلها، فقد كان المجتمع المكى الجاهلى الذى عاش فيه عثمان يقدر الرجال حسب أموالهم، ويهاب فيه الرجال حسب أولادهم وإخوتهم، ثم عشيرتهم وقومهم، فقال عثمان مكانة مرموقة فى قومه، ومحبة كبيرة. ومن أطرف ما يروى عن حب الناس لعثمان لما تجمّع فيه من صفات الخير أن المرأة العربية فى عصره كانت تغنى لطفلها أغنية تحمل تقدير الناس له وثناءهم عليه، فقد كانت تقول:

أحبك والرحمن حب قریش لعثمان^(٢)

رابعاً: إسلامه:

كان عثمان قد ناهز الرابعة والثلاثين من عمره حين دعاه أبو بكر الصديق إلى الإسلام، ولم يعرف عنه تلك أو تلعث، بل كان سباقاً أجاب على الفور دعوة الصديق فكان بذلك من السابقين الأولين حتى قال أبو إسحاق: كان أول الناس إسلاماً بعد أبى بكر وعلى وزيد بن حارثة عثمان^(٣)، فكان بذلك رابع من أسلم من الرجال، ولعل سبقه هذا إلى الإسلام كان نتيجة لما حدث له عند عودته من الشام، وقد قصه رضى الله عنه على رسول الله ﷺ حين دخل عليه هو وطلحة بن عبيد الله فعرض عليهما الإسلام وقرأ عليهما القرآن، وأنبأهما بحقوق الإسلام ووعدهما الكرامة من الله فأمنّا وصدقا. فقال عثمان: يا رسول الله، قدمت حديثاً من الشام، فلما كنا بين معان والزرقاء ونحن كالنيام إذا منادٍ ينادينا: أيها النيام هبوا فإن أحمد قد خرج بمكة، فقدما فسمعنا بك^(٤)، لا شك أن هذه الحادثة ترك فى نفس صاحبها أثراً

(١) عبقرية عثمان، للعقاد، ص ٧٢.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامى (١/٦١٨).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩).

(٤) الطبقات، لابن سعد (٣/٥٥).

إيجابياً لا يستطيع أن يتخلى عنه، عندما يرى الحقيقة ماثلة بين عينيه، فمن ذا الذى يسمع بخروج النبى ﷺ قبل أن يصل إلى البلد الذى يعيش فيه حتى إذا نزل ووجد الأحداث والحقائق تنطق كلها بصدق ما سمع به ثم يتردد فى إجابة الدعوة؟ لا يستطيع الإنسان مهما كان مكابراً إلا أن يذعن للحق، ومهما أظهر الجفاء فإن ضميره لا يزال يتلجلج فى صدره حتى يؤمن به أو يموت فيتخلص من وخز الضمير، وتأنيه، ولم تكن سرعة تلبيته عن طيش أو حمق، ولكنها كانت عن يقين راسخ، وتصديق لا يتطرق إليه شك^(١)، فقد تأمل فى هذه الدعوة الجديدة بهدوء كعادته فى معالجة الأمور فوجد أنها دعوة إلى الفضيلة، ونبد للرديلة، دعوة إلى التوحيد وتحذير من الشرك، دعوة إلى العبادة وترهيب من الغفلة، ودعوة إلى الأخلاق الفاضلة، وترهيب من الأخلاق السيئة، ثم نظر إلى قومه، فإذا هم يعبدون الأوثان، ويأكلون الميتة، ويسيثون الجوار، ويستحلون المحارم من سفك الدماء وغيرها^(٢)، وإذا بالنبى محمد بن عبد الله ﷺ صادق أمين يعرف عنه كل خير، ولا يعرف عنه شر قط، فلم تعهد عليه كذبة، ولم تحسب عليه خيانة، فإذا هو يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى صلة الرحم، وحسن الجوار، والصلاة والصوم وألا يعبد غير الله^(٣)، فأسلم على يد أبى بكر الصديق، ومضى فى إيمانه قدماً، قوياً هادياً، وديعاً صابراً، عظيمًا راضيًا، عفواً كريماً، محسناً رحيماً، سخياً باذلاً، يواسى المؤمنين، ويعين المستضعفين، حتى اشتدت قناة الإسلام^(٤)، وفى إسلام عثمان قالت خالته سعدى بنت كريض:

هدى الله عثماناً بقولى إلى الهدى وأرشده والله يهدى إلى الحق
فتابع بالرأى السديد محمداً وكان برأى لا يصدُّ عن الصدق
وأنكحه المبعوث بالحق بنته فكان كبر مازج الشمس فى الأفق

(١) جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين، ص ٣٠٢.

(٢) انظر: مرويات العهد المكي، لعادل عبد الغفور (٢/ ٨٠٥).

(٣) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ٣٧).

(٤) عثمان بن عفان رضى الله عنه، لصادق عرجون، ص ٥٣.

فداؤك يا ابن الهاشميين مهجتي وأنت أمين الله أرسلت للخلق^(١)

خامساً، زواجه من رقية بنت رسول الله ﷺ،

فرح المسلمون بإسلام عثمان فرحاً شديداً وتوثقت بينه وبينهم عرى المحبة وأخوة الإيمان، وأكرمه الله تعالى بالزواج من بنت رسول الله ﷺ رقية: وقصة ذلك أن رسول الله ﷺ كان قد زوجها من عتبة بن أبي لهب، وزوج أختها أم كلثوم من عتيبة ابن أبي لهب، فلما نزلت سورة المسد: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۚ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ١-٥] قال لهما أبو لهب وأمهما أم جميل بنت حرب بن أمية (حمالة الحطب): فارقا ابنتي محمد. ففارقاهما قبل أن يدخل بهما كرامة من الله تعالى لهما، وهواناً لابني أبي لهب^(٢)، وما كاد عثمان بن عفان رضى الله عنه يسمع بخبر طلاق رقية حتى استطار^(٣)، فرحاً... وبادر فخطبها من رسول الله ﷺ فزوجها الرسول الكريم ﷺ منه، وزفتها^(٤) أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، وقد كان عثمان من أبهى قريش طلعة، وكانت هى تضاهيه قسامة وصباحة، فكان يقال لها حين زُفت إليه:

أحسن زوجين رأهما إنسان رقية، وزوجها عثمان^(٥)

وعن عبد الرحمن بن عثمان القرشى: أن رسول الله ﷺ دخل على ابنته وهى تغسل رأس عثمان، فقال: يا بنية أحسنى إلى أبي عبد الله، فإنه أشبه أصحابي بى خلقاً^(٦).

ظنت أم جميل بنت حرب زوجها أبو لهب أنهما بتسريح رقية وأم كلثوم رضى

(١) البداية والنهاية (٧/ ٢١٠).

(٢) ذو النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه، لمحمد رشيد رضا، ص ١٢.

(٣) كاد يطير من شدة الفرح.

(٤) زفتها: قدمتها إلى زوجها.

(٥) أنساب الأشراف، ص ٨٩.

(٦) رواه الطبراني ورجاله ثقات قاله الهيثمى، المجمع رقم ١٤٥٠٠.

الله عنهما، سيصيان من البيت المحمدى مقتلاً، أو سيوهنانه، ولكن الله - عز وجل - اختار لرقية وأم كلثوم الخير، ورد الشقيين أم جميل وأبا لهب بغيظهما لم ينالا خيراً، وكفى الله البيت النبوى شرهما، وكان أمر الله قدرًا مقدرًا^(١).

سادساً: ابتلاؤه وهجرته إلى الحبشة:

إن سنة الابتلاء ماضية فى الأفراد والجماعات والشعوب والأمم والدول، وقد مضت هذه السنة فى الصحابة الكرام وتحملوا من البلاء ما تنوء به الرواسى الشامخات، وبذلوا أموالهم ودماءهم فى سبيل الله، وبلغ بهم الجهد ما شاء الله أن يبلغ، ولم يسلم أشراف المسلمين من هذا الابتلاء، فقد أودى عثمان وعذب فى سبيل الله تعالى على يدى عمه الحكم بن أبى العاص بن أمية الذى أخذه فأوثقه رباطاً وقال له: أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث؟ والله لا أحلُّك أبداً حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين. فقال عثمان رضى الله عنه: والله لا أدعه أبداً ولا أفارقه. فلما رأى الحكم صلابته فى دينه تركه^(٢)، واشتد الإيذاء بالمسلمين جميعاً، وتجاوز الحد حيث قتل ياسر وزوجته سمية، والنبي يتألم أشد الألم ويفكر إلى أين يذهب المسلمون؟ ثم اهتدى رسول الله ﷺ إلى الحبشة حيث قال للمسلمين: «لو خرجتم إلى الحبشة، فإن بها ملكاً صالحاً لا يظلم عنده أحد»^(٣). وبدأت الهجرة والنبي ﷺ يتألم، وهو يرى الفئة المؤمنة تتسلل سراً^(٤) خارجة من مكة، ويركبون البحر، وخرج يمتطى بعضهم الدواب، والبعض يسير على الأقدام، وتابعوا السير حتى وصلوا ساحل البحر الأحمر، ثم أمروا عليهم عثمان بن مظعون، وشاءت عناية الله أن يجدوا سفينتين، فركبوا مقابل نصف دينار لكل منهم، وعلمت قريش فأسرعت فى تعقبهم إلى الساحل، ولكنهم كانوا قد أبحرت بهم السفينتان^(٥)، وكان ممن هاجر إلى

(١) دماء على قميص عثمان، د. إبراهيم المتاوى، ص ٨٤.

(٢) التمهيد والبيان، ص ٢٢.

(٣) الهجرة فى القرآن الكريم، ص ٢٩٠. والسيرة النبوية، لابن هشام (١/٤١٣).

(٤) دماء على قميص عثمان، ص ١٥. والطبقات (١/٢٠٤).

(٥) الطبقات (١/٢٠٤). وتاريخ الطبرى (٢/٦٩).

أرض الحبشة الهجرة الأولى والهجرة الثانية عثمان بن عفان ومعه فيهما امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ، وكان وصولهم للحبشة في شهر رجب من السنة الخامسة من البعثة، فوجدوا الأمن والأمان وحرية العبادة، وقد تحدث القرآن الكريم عن هجرة المسلمين الأوائل إلى أرض الحبشة قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجَرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١]. وقد نقل القرطبي - رحمه الله - قول قتادة - رحمه الله -: المراد أصحاب محمد ﷺ، ظلمهم المشركون بمكة وأخرجوهم حتى لحق طائفة منهم بالحبشة، ثم برأهم الله تعالى دار الهجرة، وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين^(١). وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. قال ابن عباس رضى الله عنهما: يريد جعفر بن أبي طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة^(٢)، وقد استفاد عثمان رضى الله عنه من هذه الهجرة وأضاف خبرة ودروساً لنفسه استفاد منها في مسيرته الميمونة ومن أهم هذه الدروس والعبر:

١ - أن ثبات المؤمنين على عقيدتهم بعد أن يتزل بهم الأشرار والضالون أنواع العذاب والاضطهاد، دليل على صدق إيمانهم وإخلاصهم في معتقداتهم، وسمو نفوسهم وأرواحهم، بحيث يرون ما هم عليه من راحة الضمير واطمئنان النفس والعقل، وما يأملونه من رضا الله - جل شأنه - أعظم بكثير مما ينال أجسادهم من تعذيب وحرمان واضطهاد؛ لأن السيطرة في المؤمنين الصادقين والدعاة المخلصين، تكون دائماً وأبداً لأرواحهم لا لأجسادهم، وهم يسرعون إلى تلبية مطلب أرواحهم من حيث لا يبالون بما تطلبه أجسامهم من راحة وشيخ ولذة، وبهذا تنتصر الدعوات وبهذا تتحرر الجماهير من الظلمات والجهالات^(٣).

٢ - وقد تعلم عثمان رضى الله عنه من هدى النبي ﷺ الشفقة على الأمة،

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٠/١٠٧).

(٢) المصدر نفسه (١٥/٢٤٠).

(٣) السيرة النبوية، للدكتور مصطفى السباعي، ص ٥٧.

وظهرت هذه الشفقة عندما تولى الخلافة وقبلها لما كان فى المجتمع المدنى فى عهدى النبى ﷺ ، وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما، فقد رأى بعينه وبصيرة قلبه شفقة النبى ﷺ على أصحابه، ورحمته بهم، وحرصه الشديد للبحث عن أمنهم وراحتهم، ولذلك أشار عليهم بالذهاب إلى الملك العادل الذى لا يظلم عنده أحد، فكان الأمر كما قال ﷺ ، فأمّنوا فى دينهم ونزلوا عنده فى خير منزل^(١) ، فالرسول ﷺ هو الذى وجّه الأنظار إلى الحبشة، وهو الذى اختار المكان الآمن لجماعته ودعوته؛ كى يحميها من الإبادة، وهذه تربية نبوية لقيادات المسلمين فى كل عصر أن تخطط بحكمة ويُعدّ نظر لحماية الدعوة والدعاة، وتبحث عن الأرض الآمنة التى تكون عاصمة احتياطية للدعوة، ومركزاً من مراكز انطلاقها فيما لو تعرض المركز الرئيسى للخطر، أو وقع احتمال اجتياحه، فجنود الدعوة هم الثروة الحقيقية، وهم الذين تنصب الجهود كلها لحفظهم وحمايتهم، دون أن يتم أى تفريط بأرواحهم وأمنهم، ومسلم واحد يعادل ما على الأرض من بشر خارجين عن دين الله وتوحيدة^(٢) .

٣ - وتعلم عثمان رضى الله عنه من هدى النبى ﷺ فى هجرة الحبشة أن الأخطار لا بد أن يتجنبها المقربون إلى القائد وأهله ورحمه، أما أن يكون خواص القائد فى منأى عن الخطر، ويدفع إليه الأبعدون غير ذوى المكانة، فهو منهج بعيد عن نهج النبى ﷺ^(٣) ، ولهذا لما تولى ذو النورين الخلافة كان أقرباؤه فى مقدمة الجيوش، فهذا عبد الله بن أبى سرح فى فتوحات إفريقية، وذاك عبد الله بن عامر فى فتوحات المشرق، وألزم معاوية أن يركب البحر ومعه زوجته وأن يكون فى مقدمة الجيوش الغازية، وسيأتى تفصيل ذلك بإذن الله عند حديثنا عن الفتوحات.

٤- كان عثمان - رضى الله عنه - أول من هاجر إلى الحبشة بأهله من هذه الأمة^(٤) ، قال: رسول الله ﷺ : «صحبهما الله، إن عثمان لأول من هاجر إلى الله

(١) الهجرة فى القرآن الكريم، ص ٣١٢.

(٢) التربية القيادية (١/٣٣٣).

(٣) المصدر نفسه (١/٣٣٣)، والسيرة النبوية للصّلى (١/٣٤٨).

(٤) الصواعق المرسلة (١/٣١٤).

بأهله بعد لوط»^(١).

ولما أشيع أن أهل مكة قد أسلموا، وبلغ ذلك مهاجرى الحبشة، أقبلوا حتى إذا دنوا من مكة، بلغهم أن ما كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلاً، فدخلوا فى جوار بعض أهل مكة، وكان فيمن رجع عثمان بن عفان وزوجه رقية رضى الله عنهما^(٢)، واستقر المقام به حتى أذن الله بالهجرة إلى المدينة، ومنذ اليوم الذى أسلم فيه عثمان لزم النبى ﷺ حيث كان، ولم يفارقه إلا للهجرة بإذنه، أو فى مهمة من المهام التى يندب لها، ولا يعنى أحد فيها غناه، شأنه فى هذه الملائمة شأن الخلفاء الراشدين جميعاً، كأنما هى خاصة من خواصهم رشحهم لها ما رشحهم بعد ذلك للخلافة متعاقبين^(٣)، لقد كان ذو النورين على صلة وثيقة بالدعوة الكبرى من سبتها الأولى، فلم يفته شىء من أخبار النبوة الخاصة والعامة فى حياة النبى ﷺ، ولم يفته شىء بعدها من أخبار الخلافة فى حياة الشيخين، ولم يفته بعبارة أخرى شىء مما نسميه اليوم بأعمال التأسيس فى الدولة الإسلامية^(٤).

(١) المعرفة والتاريخ (٢٦٨/٣) ضعيف الإسناد.

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام (١/٢٠٤).

(٣) عثمان بن عفان، للعقاد، ص ٨٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ٧٨.

المبحث الثاني

حياة عثمان رضى الله عنه مع القرآن الكريم

كان المنهج التربوي الذي تربى عليه عثمان بن عفان وكل الصحابة الكرام هو القرآن الكريم، المتزل من عند رب العالمين، فهو المصدر الوحيد للتلقى؛ لذلك حرص الحبيب المصطفى على توحيد مصدر التلقى وتفرد به، وأن يكون القرآن الكريم وحده هو المنهج الذي يتربى عليه الفرد المسلم والأسرة المسلمة والجماعة المسلمة، فكانت للآيات الكريمة التي سمعها عثمان رضى الله عنه من رسول الله ﷺ مباشرة أثرها في صياغة شخصية ذى النورين الإسلامية فقد طهرت قلبه، وزكت نفسه، وتفاعلت معها روحه فتحول إلى إنسان جديد بقيمه ومشاعره وأهدافه وسلوكه وتطلعاته^(١)، وقد تعلق عثمان رضى الله عنه بالقرآن الكريم، وحدثنا أبو عبد الرحمن السلمي كيف تعلمه من رسول الله ﷺ، وله أقوال تدل على حبه الشديد للعيش مع كتاب الله تعالى فعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن - كعثمان ابن عفان، وعبد الله بن مسعود وغيرهما - أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً، ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة^(٢)، وذلك أن الله تعالى قال: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩] وقد روى عثمان رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قوله: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»^(٣)، وقد عرض القرآن الكريم كاملاً على رسول الله ﷺ قبل وفاته، ومن أشهر تلاميذ عثمان في تعلم القرآن الكريم: أبو عبد الرحمن السلمي، والمغيرة بن

(١) السيرة النبوية، للصلاحي (١/ ١٤٥).

(٢) الفتاوى (١٣/ ١٧٧).

(٣) البخاري، فضائل القرآن رقم ٥٠٢٧.

أبى شهاب، وأبو الأسود، وزرّ ابن حبيش^(١)، وقد حفظ لنا التاريخ بعض أقوال عثمان رضى الله عنه فى القرآن الكريم حيث قال: لو ظهرت قلوبنا لما شبت من كلام الله عز وجل^(٢)، وقال: إني لأكره أن يأتى على يوم لا أنظر فيه إلى عهد الله^(٣) - يعنى المصحف - وقال: حُبّ إلى من الدنيا ثلاث: إشباع الجيعان، وكسوة العريان وتلاوة القرآن^(٤)، وقال: أربعة ظاهرين فضيلة وباطنهن فريضة: مخالطة الصالحين فضيلة والاقتداء بهم فريضة، وتلاوة القرآن فضيلة والعمل به فريضة، وزيارة القبور فضيلة والاستعداد للموت فريضة، وعيادة المريض فضيلة واتخاذ الوصية منه فريضة^(٥)، وقال رضى الله عنه: أضيع الأشياء عشرة: عالم لا يُسأل عنه، وعلم لا يعمل به، ورأى صواب لا يقبل، وسلاح لا يستعمل، ومسجد لا يُصلى فيه، ومصحف لا يُقرأ فيه، ومال لا ينفق منه، وخيل لا تُركب، وعلم الزهد فى بطن من يريد الدنيا، وعمر طويل لا يتزود صاحبه فيه لسفره^(٦). وكان رضى الله عنه حافظاً لكتاب الله، وكان حجره لا يكاد يفارق المصحف، ف قيل له فى ذلك فقال: إنه مبارك جاء به مبارك^(٧)، وما مات عثمان حتى خرق مصحفه من كثرة ما يديم^(٨) النظر فيه، وقالت امرأة عثمان يوم الدار: اقتلوه أو دعوه، فوالله لقد كان يحيى الليل بالقرآن فى ركعة^(٩)، وقد ذكر عنه أنه قرأ القرآن ليلة فى ركعة لم يصل غيرها^(١٠)، وقد تحقّق فيه قول الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آَنَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢٩].

(١) تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين للذهبي، ص ٤٦٧.

(٢) الفتاوى (١١/١٢٢)، والبداية والنهاية (٧/٢٢٥).

(٣) البداية والنهاية (٧/٢٢٥)، وفرائد الكلام، ص ٢٧٥.

(٤) إرشاد العباد للاستعداد ليوم المعاد، ص ٨٨.

(٥) المصدر نفسه، ص ٩٠. وفرائد الكلام، ص ٢٧٨.

(٦) المصدر نفسه، ص ٩١. وفرائد الكلام، ص ٢٧٨.

(٧) البيان والبيان (٣/١٧٧)، وفرائد الكلام، ص ٢٧٣.

(٨) يديم: يطيل. والبداية والنهاية (٧/٢٢٥).

(٩) البداية والنهاية (٧/٢٢٥).

(١٠) الخلافة الراشدة والدولة الأموية، ص ٣٩٧.

لقد تشرب عثمان رضى الله عنه بالمنهج القرآنى وتلمذ على يدى رسول الله ﷺ وعرف من خلال القرآن الكريم من هو الإله الذى يجب أن يعبد، وكان النبى ﷺ يغرس فى نفسه معانى تلك الآيات العظيمة، فقد حرص ﷺ أن يربى أصحابه على التصور الصحيح عن ربهم وعن حقه عليهم، مدركاً أن هذا التصور سيورث التصديق واليقين عندما تصفى النفوس وتستقيم الفطرة، فأصبحت نظرة ذى النورين إلى الله - عز وجل -، والكون والحياة والجنة والنار، والقضاء والقدر، وحقيقة الإنسان، وصراعه مع الشيطان مستمدة من القرآن الكريم وهدى النبى ﷺ .

* فالله سبحانه وتعالى متزه عن النقائص موصوف بالكمالات التى لا تنتهى فهو سبحانه (واحد لا شريك له، ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً).

* وأنه سبحانه حدد مضمون هذه العبودية، وهذا التوحيد فى القرآن الكريم (١)، وأما نظرته للكون فقد استمدّها من قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَكَفَرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْرَانَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ١٠ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ١١ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩ - ١٢] . وأما هذه الحياة مهما طالّت فهى إلى زوال، وأن متاعها مهما عظم فإنه قليل حقير، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ الْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤] .

وأما نظرته إلى الجنة، فقد استمدّها من خلال الآيات الكريمة، فأصبح هذا التصور رادعاً له فى حياته عن أى انحراف عن شريعة الله فىرى المتبوع لسيرة ذى النورين عمق استيعابه لفقه القدم على الله عز وجل، وشدة خوفه من عذاب الله

وعقابه، وسرى ذلك فى صفحات هذا البحث بإذن الله تعالى .

وأما مفهوم القضاء والقدر فقد استمدّه من كتاب الله وتعليم رسول الله ﷺ له، فقد رسخ مفهوم القضاء والقدر فى قلبه، واستوعب مراتبه فى كتاب الله تعالى، فكان على يقين بأن علم الله محيط بكل شيء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وأن الله تعالى قد كتب كل شيء كائن، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدُمُوا وَآثَارُهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

وأن مشيئة الله نافذة وقدرته تامة، قال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

وأن الله خالق كل شيء: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

وقد ترتب على الفهم الصحيح والاعتقاد الراسخ فى قلبه لحقيقة القضاء والقدر، ثمار نافعة ومفيدة ظهرت فى حياته وسراها بإذن الله تعالى فى هذا الكتاب، وعرف من خلال القرآن الكريم حقيقة نفسه وبنى الإنسان وأن حقيقة خلقه ترجع إلى أصلين: الأصل البعيد وهو الحلقة الأولى من طين، حين سواه ونفخ فيه الروح. والأصل القريب وهو خلقه من نطفة، قال الله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿ [السجدة: ٧-٩]. وعرف أن هذا الإنسان خلقه الله بيده، وأكرمه بالصورة الحسنة والقامة المعتدلة، ومنحه العقل والنطق والتميز وسخر له ما فى السموات والأرض، وفضله على كثير من خلقه، وكرمه بإرساله الرسل له، وأن من أروع مظاهر تكريم المولى - عز وجل - للإنسان أن

جعل له أهلاً لحبه ورضاه، ويكون ذلك باتباع النبي ﷺ الذي دعا الناس إلى الإسلام لكي يحيا حياة طيبة في الدنيا ويظفروا بالنعيم المقيم في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وعرف عثمان رضى الله عنه من خلال القرآن الكريم حقيقة الصراع بين الإنسان والشیطان وأن هذا العدو يأتي للإنسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله يوسوس له بالمعصية ويستثير فيه كوامن الشهوات، فكان مستعيناً بالله على عدوه إبليس وانتصر عليه في حياته، وتعلم من قصة آدم مع الشيطان في القرآن الكريم، أن آدم هو أصل البشر، وجوهر الإسلام الطاعة المطلقة لله، وأن الإنسان له قابلية للوقوع في الخطيئة، وتعلم من خطيئة آدم ضرورة توكل المسلم على ربه وأهمية التوبة والاستغفار في حياة المؤمن، وضرورة الاحتراز من الحسد والكبر، وأهمية التخاطب بأحسن الكلام مع الصحابة لقول الله تعالى: ﴿وَقُلْ لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

لقد أكرم المولى - عز وجل - عثمان بن عفان - رضى الله عنه - بالإسلام فعاش به وجاهد به من أجل نشره، واستمد أصوله وفروعه من كتاب الله وهدى النبي ﷺ، وأصبح من أئمة الهدى الذين يرسمون للناس خط سيرهم، ويتأسى الناس بأقوالهم وأفعالهم في هذه الحياة، ولا ننسى أن عثمان بن عفان كان من كتّاب الوحي لرسول الله ﷺ^(١).

(١) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضى الله عنه، ص ٢٢. والتبيين في أنساب القرشيين، ص ٩٤.

المبحث الثالث

ملازمته للنبي ﷺ في المدينة

إن الرافد القوى الذى أثر فى شخصية عثمان رضى الله عنه وصقل مواهبه، وفجر طاقته، وهذب نفسه هو مصاحبته لرسول الله ﷺ وتلمذه على يديه فى مدرسة النبوة، ذلك أن عثمان رضى الله عنه لازم الرسول ﷺ فى مكة بعد إسلامه كما لازمه فى المدينة بعد هجرته، فقد نظم عثمان نفسه، وحرص على التلمذة فى حلقات مدرسة النبوة فى فروع شتى من المعارف والعلوم على يدى معلم البشرية وهاديتها، والذى أدبه ربه فأحسن تأديبه، فحرص على تعلم القرآن الكريم، والسنة المطهرة من سيد الخلق أجمعين، وهذا عثمان يحدثنا عن ملازمته لرسول الله ﷺ فيقول:

«إن الله عز وجل بعث محمداً بالحق وأنزل عليه الكتاب فكنت ممن استجاب لله ولرسوله وآمن، فهاجرت الهجرتين الأوليين، ونلت صهر رسول الله، ورأيت هديه»^(١) لقد تربى عثمان رضى الله عنه على المنهج القرآنى وكان المربى له رسول الله ﷺ وكانت نقطة البدء فى تربية عثمان لقاءه برسول الله ﷺ، فحدث له تحول غريب واهتداء مفاجئ بمجرد اتصاله بالنبي ﷺ؛ فخرج من دائرة الظلام إلى دائرة النور، واكتسب الإيمان، وطرح الكفر، وقوى على تحمل الشدائد والمصائب فى سبيل الإسلام وعقيدته السمحة.

كانت شخصية رسول الله ﷺ تملك قوى الجذب والتأثير فى الآخرين، فقد صنعه الله على عينه، وجعله أكمل صورة لبشر فى تاريخ الأرض، والعظمة دائماً محب، وتحاط من الناس بالإعجاب، ويلتف حولها المعجبون يلتصقون بها التصاقاً بدافع الإعجاب والحب، ولكن رسول الله ﷺ يضيف إلى عظمتة تلك، أنه رسول الله،

(١) فضائل الصحابة، لأبى عبد الله أحمد بن حنبل (٥٩٧/١) إسناده صحيح.

متلقى الوحي من الله، ومبلغه إلى الناس، وذلك بعد آخر له أثره في تكييف مشاعر ذلك المؤمن تجاهه، فهو لا يحبه لذاته فقط كما يُحب العظماء من الناس، ولكن أيضاً لتلك النفحة الربانية التي تشمله من عند الله، فهو معه في حضرة الوحي الإلهي المكرم، ومن ثم يلتقي في شخص الرسول ﷺ البشر العظيم والرسول العظيم، ثم يصبحان شيئاً واحداً في النهاية، غير متميز البداية ولا النهاية، حب عميق شامل للرسول البشر أو للبشر الرسول ويرتبط حب الله بحب رسوله ويمتزجان في نفسه، فيصبحان في مشاعره هما نقطة ارتكاز المشاعر كلها، ومحور الحركة الشعورية والسلوكية كلها كذلك.

كان هذا الحب الذي حرك الرعيل الأول من الصحابة هو مفتاح التربية الإسلامية ونقطة ارتكازها ومنطلقها الذي تنطلق منه^(١)، لقد حصل لعثمان رضى الله عنه وللصحابة ببركة صحبتهم لرسول الله ﷺ وتربيتهم على يديه أحوال إيمانية عالية، ولقد تتلمذ عثمان رضى الله عنه على يدى رسول الله ﷺ، فتعلم منه القرآن الكريم والسنة النبوية، وأحكام التلاوة وتزكية النفوس قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ مَوَافِقٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وحرص على التبحر في الهدى النبوى الكريم خلال ملازمته لرسول الله ﷺ في غزواته وسلمه، وقد أمدته تلك المعاشة بخبرة ودربة ودراية بشئون الحرب ومعرفة بطباع النفوس وغرائزها، وفي الصفحات القادمة سنبين بإذن الله تعالى موافقه في المبادئ الجهادية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية مع رسول الله ﷺ في العهد المدني.

أولاً: عثمان رضى الله عنه في ميادين الجهاد مع رسول الله ﷺ،

شرع رسول الله ﷺ بعد استقراره بالمدينة في تثبيت دعائم الدولة الإسلامية فأخى بين المهاجرين والأنصار، فكل مهاجرى يتخذ أخاً له من الأنصار، فكان نصيب

(١) منهج التربية الإسلامية، لمحمد قطب، ص ٣٤، ٣٥.

عثمان بن عفان فى المؤاخاة أوس بن ثابت^(١)، ثم أقام النبى ﷺ المسجد، وأبرم المعاهدة مع اليهود، وبدأت حركة السرايا، واهتم بالبناء الاقتصادى والتعليمى والتربوى فى المجتمع الجديد، وكان عثمان رضى الله عنه من أعمدة الدولة الإسلامية، فلم يخل بمشورة أو مال أو رأى، وشهد المشاهد كلها إلا غزوة بدر^(٢).

١ - عثمان وغزوة بدر:

لما خرج المسلمون لغزوة بدر كانت زوجة عثمان السيدة رقية بنت رسول الله ﷺ مريضة بمرض الحصبة ولزمت الفراش، فى الوقت الذى دعا فيه رسول الله ﷺ للخروج للملاقاة القافلة وسارع عثمان رضى الله عنه للخروج مع رسول الله ﷺ، إلا أنه تلقى أمراً بالبقاء إلى جانب رقية رضى الله عنها لتمريرها، وامتل لهذا الأمر بنفس راضية وبقي إلى جوار زوجته الصابرة الطاهرة رقية ابنة رسول الله ﷺ إذ اشتد بها المرض، وطاف بها شبح الموت، كانت رقية رضى الله عنها تجود بأنفاسها وهى تتلهف لرؤية أبيها الذى خرج إلى بدر، ورؤية أختها زينب فى مكة، وجعل عثمان رضى الله عنه يرنو إليها من خلال دموعه، والحزن يعتصر قلبه^(٣)، وودعت نبض الحياة وهى تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ولحقت بالرفيق الأعلى، ولم تر أباه رسول الله ﷺ، حيث كان بيد مع أصحابه الكرام، يعلنون كلمة الله، فلم يشهد دفنها رضى الله عنها، وجُهِزَت رقية ثم حُمل جثمانها الطاهر على الأعناق، وقد سار خلفه زوجها عثمان وهو حزين، حتى إذا بلغت الجنازة البقيع، دفنت رقية هناك، وقد انهمرت دموع المشيعين وسوى التراب على قبر رقية بنت رسول الله ﷺ، وفيما هم عائدون إذا بزيد بن حارثة قد أقبل على ناقة رسول الله ﷺ يبشر بسلامة رسول الله ﷺ، وقتل المشركين، وأسر أبطالهم، وتلقى المسلمون فى المدينة هذه الأنباء بوجوه مستبشرة بنصر الله لعباده المؤمنين، وكان من بين المستبشرين وجه عثمان الذى لم يستطع أن يخفى آلامه لفقد رقية رضى الله عنها.

(١) الأمين ذو النورين، ص ٤٠.

(٢) الخلفاء الراشدون، عبد الوهاب التجار، ص ٢٦٩.

(٣) نساء أهل البيت، أحمد خليل جمعة، ص ٤٩١ - ٥٠٤.

وبعد عودة الرسول ﷺ علم ب وفاة رقية رضى الله عنها، فخرج إلى البقيع ووقف على قبر ابنته يدعو لها بالغفران^(١).

لم يكن عثمان بن عفان رضى الله عنه ممن تخلفوا عن بدر لتقاعس منه أو هروب ينشده كما يزعم أصحاب الأهواء ممن طعن عليه بتغيبه عن بدر، فهو لم يقصد مخالفة الرسول ﷺ؛ لأن الفضل الذى حازه أهل بدر فى شهود بدر طاعة للرسول ومتابعة له، حازه عثمان رضى الله عنه، حيث خرج فيمن خرج مع رسول الله فردّه ﷺ للقيام على ابنته فكان فى أجل فرض لطاعته لرسول الله بتخلفه عن بدر، وقد ضرب له بسهمه وأجره فشاركهم فى الغنيمة والفضل والأجر لطاعته لله ورسوله وانقياده لهما^(٢)، فعن عثمان بن عبد الله بن موهب قال: جاء رجل من مصر حج البيت فقال: يا ابن عمر إني سألك عن شيء فحدثني أنشدك الله بحرمة هذا البيت هل تعلم أن عثمان تغيب عن بدر فلم يشهدا؟ فقال: نعم، ولكن أما تغيبه عند بدر فإنه كانت تحت بنت رسول الله ﷺ فمرضت رضى الله عنها، فقال له رسول الله ﷺ: لك أجر رجل شهد بدرًا وسهمه^(٣)، وعن أبي وائل عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه قال: أما يوم بدر فقد تخلفت على بنت رسول الله وقد ضرب رسول الله لى فيها بسهم. وقال زائدة فى حديثه: ومن ضرب له رسول الله ﷺ فيها بسهم فقد شهد^(٤). وقد عد عثمان رضى الله عنه من البدرين بالاتفاق^(٥).

٢ - عثمان وغزوة أحد:

فى غزوة أحد منح الله - عز وجل - النصر للمسلمين فى أول المعركة، وأخذت سيوف المسلمين تعمل عملها فى رقاب المشركين، وكانت الهزيمة لا شك فيها، وقُتل أصحاب لواء المشركين واحدًا واحدًا ولم يقدر أحد أن يدنو من اللواء، وانهمزم

(١) دماء على قميص عثمان بن عفان رضى الله عنه، ص ٢٠.

(٢) كتاب الإمامة والرد على الرافضة، للأصبهاني، ص ٣٠٢.

(٣) البخارى رقم ٣٦٩٨.

(٤) الإمامة والرد على الرافضة، ص ٣٠٤.

(٥) عثمان بن عفان رضى الله عنه، لصادق عرجون، ص ٤٧.

المشركين، ولولت النسوة بعد أن كن يغنين بحماس ويضربن بالدقوف، فآلقين بالدقوف وأنصرفن مذعورات إلى الجبل كاشفات سيقانهن. ولكن مال ميزان المعركة فجأة، وكان سبب ذلك أن الرماة الذين أوكل إليهم النبي مكاناً على سفح الجبل لا يغادرونه مهما كانت نتيجة المعركة قد تخلوا إلا قليلاً عن أماكنهم، ونزلوا إلى الساحة يطلبون الغنائم لما نظروا المسلمين يجمعونها، وانتهر خالد بن الوليد قائد سلاح الفرسان القرشي فرصة خلو الجبل من الرماة، وقلة من به منهم، فكرّ بالخيـل ومعه عكرمة بن أبى جهل، فقتلوا بقية الرماة ومعهم أميرهم عبد الله بن جبير رضى الله عنه الذى ثبت هو وطائفة قليلة معه، وفى غفلة المسلمين، وأثناء انشغالهم بالغنائم أطبق خالد ومن معه عليهم، فأعملوا فيهم القتل، فاضطرب أمر المسلمين اضطراباً شديداً، وانهمزت طائفة من المسلمين إلى قرب المدينة منهم عثمان بن عفان ولم يرجعوا حتى انفض القتال، وفرقة صاروا حيارى لما سمعوا أن النبي ﷺ قد قتل، وفرقة ثبتت مع النبي ﷺ، أما الفرقة التى انهمزت وفرت فلقد أنزل الله فيها قرآناً يتلى إلى يوم القيامة قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٥٥) . غير أن أصحاب الأهواء لا يرون إلا ما تهوى أنفسهم، فلم يروا من المتراجعين، إلا عثمان رضى الله عنه، فكانوا يتهمونه دون سائر المتراجعين من الصحابة، وهل يبقى وحده؟ ولو فعل لخطر بنفسه^(١)، وبعد أن عفا الله عن المتراجعين فالحكم واضح جلى، لا لبس فيه ولا غموض، فلا مؤاخذه بعد ذلك على عثمان بن عفان رضى الله عنه؛ فيكفى أن الله عفا عنه بنص القرآن الكريم، وحياته الجهادية بمجموعها تشهد له على شجاعته رضى الله عنه.

٣- فى غزوة غطفان (ذى إمر):

ندب رسول الله ﷺ المسلمين للخروج إلى غطفان، فخرجوا فى أربعمائة رجل ومعهم بعض الجياد، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان رضى الله عنه،

(١) الأمين ذو النورين، ص ٤٩.

(٢) ذو النورين مع النبي ﷺ، د. عاطف لـمـاضـة، ص ٣٢.

فأصاب المسلمون رجلاً منهم (بذى القصة) يقال له جبار من بنى ثعلبة، فادخل على رسول الله ﷺ فأخبره من خبرهم، وقال: لن يلاقوك، لما سمعوا بمسيرك هربوا في رؤوس الجبال وأنا سائر معك، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فأسلم، وضمه رسول الله ﷺ إلى بلال، ولم يلاق رسول الله ﷺ أحداً، ثم أقبل رسول الله ﷺ إلى المدينة ولم يلقَ كيداً، وكانت غيبته إحدى عشرة ليلة^(١).

٤ - في غزوة ذات الرقاع:

بلغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من غطفان من ثعلبة وأنصار يريدون غزو المدينة، فخرج في أربعمائة من أصحابه حتى قدم صراراً، وكان رسول الله ﷺ قد استخلف على المدينة قبل خروجه عثمان بن عفان، ولقى المسلمون جمعاً فغيراً من غطفان، وتقارب الناس، ولم يكن بينهم حرب، وقد خاف الناس بعضهم بعضاً، حتى صلى رسول الله ﷺ بالناس صلاة الخوف ثم انصرف بالناس، وقد غاب عن المدينة خمسة عشر يوماً^(٢).

٥ - في بيعة الرضوان:

عندما نزل رسول الله ﷺ الحديبية رأى من الضرورة إرسال مبعوث خاص من جانبه إلى قريش يبلغهم فيها نواياه السليمة بعلم الرغبة في القتال، وحرصه على احترام المقدسات، ومن ثم أداء مناسك العمرة، والعودة إلى المدينة، فوقع الاختيار على أن يكون مبعوث الرسول ﷺ إلى قريش (خراش بن أمية الخزاعي) وحمله على جمل يقال له (الثعلب)، فلما دخل مكة عقرت به قريش وأرادوا قتل خراش فمنعهم الأحابيش، فعاد خراش بن أمية إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما صنعت قريش، فأراد رسول الله ﷺ أن يرسل سفيراً آخر بتليغ قريش رسالة رسول الله ﷺ، ووقع الاختيار في بداية الأمر على عمر بن الخطاب^(٣)، فاعتذر لرسول الله ﷺ عن الذهاب

(١) البروض الأنف (٣/١٣٧). والطبقات، لابن سعد (٢/٣٤، ٣٥).

(٢) الأمين ذو النورين، ص ٥٢، ٥٣.

(٣) غزوة الحديبية لأبي فارس، ص ٨٣.

إليهم، وأشار على رسول الله ﷺ أن يبعث عثمان مكانه^(١)، وعرض عمر رضى الله عنه رأيه هذا معزراً بالحجة الواضحة، وهى ضرورة توافر الحماية لمن يخالط هؤلاء الأعداء، وحيث إن هذا الأمر لم يكن متحققاً بالنسبة إلى عمر رضى الله عنه، فقد أشار على النبی ﷺ بعثمان رضى الله عنه؛ لأن له قبيلة تحميه من أذى المشركين حتى يبلغ رسالة رسول الله ﷺ^(٢)، وقال لرسول الله ﷺ: إني أخاف قريشاً على نفسى، قد عرفت عداوتى لها، وليس بها من بنى عدى من يمنعنى، وإن أحببت يا رسول الله دخلت عليهم^(٣)، فلم يقل رسول الله ﷺ شيئاً، قال عمر: ولكن أدلك يا رسول الله على رجل أعز بمكة منى، وأكثر عشيرة وأمنع، عثمان بن عفان، فدعا رسول الله ﷺ عثمان رضى الله عنه فقال: اذهب إلى قريش فخبرهم أننا لم نأت لقتال أحد، وإنما جئنا زواراً لهذا البيت، معظمين لحرمة، معنا الهدى، ننحره وننصرف، فخرج عثمان بن عفان رضى الله عنه حتى أتى بلدح^(٤)، فوجد قريشاً هناك فقالوا: أين تريد؟ قال: بعثنى رسول الله ﷺ إليكم، يدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، تدخلون فى دين الله كافة، فإن الله مظهر دينه ومعز نبيه، وأخرى تكفون وولى هذا منه غيركم فإن ظفروا بمحمد فذلك ما أردتم، وإن ظفر محمد كنتم بالخيار أن تدخلوا فيما دخل فيه الناس أو تقاتلوا وأنتم وافرون جامون، إن الحرب قد نهكتكم، وأذهبت بالأموال منكم... فجعل عثمان يكلمهم فيأتيهم بما لا يريدون ويقولون: قد سمعنا ما تقول ولا كان هذا أبداً، ولا دخلها علينا عنوة، فارجع إلى صاحبك فأخبره أنه لا يصل إلينا، فقام إليهم أبان بن سعيد بن العاص فرحب به وأجاره وقال: لا تقصر عن حاجتك، ثم نزل عن فرس كان عليه، فحمل عثمان على السرج وردفه وواءه، فدخل عثمان مكة، فأتى أشرافهم رجلاً رجلاً، أبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية وغيرهم ممن لقي ببلدح، ومنهم من لقي بمكة، فجعلوا يردون عليه: إن محمداً لا يدخلها علينا

(١) المغازى (٢/ ٦٠٠).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٦٠٠).

(٣) المغازى (٢/ ٦٠٠).

(٤) مكان قريب من مكة.

نبدأ^(١)، وعرض المشركون على عثمان رضى الله عنه أن يطوف بالبيت فأبى^(٢)، وقام عثمان بتبليغ رسالة رسول الله ﷺ إلى المستضعفين بمكة ويشرهم بقرب الفرج والمخرج^(٣)، وأخذ منهم رسالة شفعية إلى رسول الله ﷺ جاء فيها: اقرأ على رسول الله ﷺ منا السلام، إن الذى أنزله بالحديبية لقادر على أن يدخله بطن مكة^(٤)، وتسربت شائعة إلى المسلمين مفادها أن عثمان قتل، فدعا رسول الله ﷺ أصحابه إلى مبايعته على قتال المشركين ومناجزتهم، فاستجاب الصحابة وبايعوه على الموت^(٥)، سوى الجد بن قيس وذلك لنفاقه^(٦)، وفى رواية أن البيعة كانت على الصبر^(٧)، وفى رواية على عدم الفرار^(٨)، ولا تعارض فى ذلك لأن المبايعة على الموت تعنى الصبر وعدم الفرار^(٩)، وكان أول من بايعه على ذلك أبو سنان عبد الله بن وهب لأسدى^(١٠)، فخرج الناس بعده يبايعون على بيعته^(١١)، وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات، فى أول الناس، وأوسطهم، وآخرهم^(١٢)، وقال النبى ﷺ بيده اليمنى: (هذه يد عثمان) فضرب بها على يده^(١٣)، وكان عدد الصحابة الذين أخذ منهم ترسول المبايعة تحت الشجرة ألفاً وأربعمائة صحابى^(١٤)، وقد تحدث القرآن الكريم عن أهل بيعة الرضوان وورد فضلهم فى نصوص كثيرة من الآيات القرآنية، والأحاديث

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٩٠). والسيرة النبوية، لابن هشام (٣/ ٣٤٤).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٢٩٠).

(٣) زاد المعاد (٣/ ٢٩٠).

(٤) غزوة الحديبية لأبى فارس، ص ٨٥.

(٥) البخارى رقم الحديث ٤١٦٩.

(٦) السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية، ص ٤٨٦.

(٧) البخارى رقم ٤١٦٩.

(٨) مسلم رقم ١٨٥٦.

(٩) السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية، ٤٨٦.

(١٠) السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية، ٤٨٦.

(١١) السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية، ٤٨٦.

(١٢) زاد المعاد (٣/ ٢٩١).

(١٣) صحيح السيرة النبوية، ص ٤٠٤.

(١٤) السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية، ص ٤٨٢.

النبرية منها:

١ - قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْبَعُونَكَ إِنَّمَا يَأْبَعُونَ اللَّهَ بِدِ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْ أَجْرٍ أَعْظَمًا﴾ [الفتح: ١٠].

- قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَقُولُ بِعَذَابِهِ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧) لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٧، ١٨].

٣ - قال جابر بن عبد الله رضى الله عنه: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: «أنتم خير أهل الأرض» وكنا ألفاً وأربعمائة ولو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة^(١).

هذا الحديث صريح في فضل أصحاب الشجرة فقد كان من المسلمين إذ ذاك جماعة بمكة وبالمدينة وبغيرهما.. وتمسك به بعض الشيعة في تفضيل على عثمان؛ لأن علياً كان من جملة من خطب بذلك وعن بايع تحت الشجرة، وكان عثمان حينئذ غائباً، وهذا التمسك باطل؛ لأن النبي ﷺ بايع عنه، فاستوى معهم عثمان في الخيرة المذكورة، ولم يقصد في الحديث إلى تفضيل بعضهم على بعض^(٢).

وفي الحديبية ذكر للحب الطيرى اختصاص عثمان بعدة أمور منها: اختصاصه بإقامة يد النبي الكريمة مقام يد عثمان لما بايع الصحابة وعثمان غائب، واختصاصه بتبليغ رسالة رسول الله ﷺ إلى من بمكة أسيراً من المسلمين، وذكر شهادة النبي لعثمان بموافقة في ترك الطواف لما أرسله في تلك الرسالة^(٣)، فعن إياس بن سلمة

(١) مسلم (٣/١٤٨٥).

(٢) فتح الباري (٧/٤٤٣).

(٣) الرياض النضرة في مناقب العشرة، ص ٤٩٠، ٤٩١.

عن أبيه أن النبي ﷺ بايع عثمان إحدى يديه على الأخرى، فقال الناس: هنيئاً لأبي عبد الله الطواف بالبيت آمناً، فقال النبي ﷺ: لو مكث كذا ما طاف حتى أطوف^(١).

وقد اتهم عثمان ظلماً بأنه لم يبايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان وكان متغيباً عنها!! فهذه من الاتهامات التي ألصقت بعثمان في أحضان فتنة أريد بها تقويض أركان الخلافة خاصة^(٢)، وسيأتى تفصيل ذلك بإذن الله تعالى، وعن أنس قال: لما أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان بعثه رسول الله إلى أهل مكة، فبايعه الناس، فقال: إن عثمان في حاجة الله وحاجة رسوله فضرب بإحدى يديه على الأرض فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم^(٣).

٦ - شفاعة عثمان بن عفان في عبد الله بن أبي السرح في فتح مكة:

لما كان يوم فتح مكة اختبأ عبد الله بن سعد بن أبي السرح عند عثمان بن عفان، فجاء به حتى أوقفه على النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله بايع عبد الله، فرفع رأسه، فنظر إليه ثلاثاً، كل ذلك يأبى، فبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل على الصحابة فقال: «أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رأيته كففت يدي عن بيعته فيقتله؟! فقالوا: ما ندري يا رسول الله ما في نفسك، إلا أومأت إلينا بعينك قال: إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة الأعين»^(٤)، وجاء في رواية: لما كان يوم فتح مكة أمن رسول الله الناس إلا أربعة نفر، وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة: عكرمة ابن أبي جهل، وعبد الله بن خططل، ومقيس بن حُبابة^(٥)، وعبد الله ابن سعد بن أبي السرح^(٦)، فأما عبد الله فأدرك وهو متعلق بأستار الكعبة، فاستبق إليه سعيد بن حارث وعمار بن ياسر فسبق سعيد عماراً، وكان أشبَّ الرجلين، فقتله. وأما عكرمة

(١) المصدر نفسه، ص ٤٩١ وفي سننه ضعف.

(٢) ذو النورين مع النبي ﷺ، ص ٣٢.

(٣) سير السلف الصالحين (١/ ١٨١)، إسناده ضعيف، والحديث صحيح، سنن الترمذي رقم (٣٧٠٢).

(٤) الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ، ص ١٠٩.

(٥) أضواء البيان في تاريخ القرآن، لصابر أبي سليمان، ص ٧٩.

(٦) أضواء البيان في تاريخ القرآن، ص ٧٩.

فركب في البحر فأصابتهم ريح عاصف، فقال أصحاب السفينة: أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً ههنا، فقال عكرمة: والله لئن لم ينجني في البحر إلا الإخلاص لا ينجني في البر غيره، اللهم لك على عهد إن أنت عافيتني عما أنا فيه أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده، ولأجدنه عفواً كريماً، فجاء وأسلم، وأما عبد الله بن سعد ابن أبي السرح فإنه اختبأ عند عثمان بن عفان، فلما دعا رسول الله الناس إلى البيعة جاء به حتى أوقفه على النبي ﷺ ثم ذكر الباقي كما مر معنا^(١)، وعن عبد الله بن عباس قال: كان عبد الله ابن سعد بن أبي سرح يكتب لرسول الله ﷺ، فأزله الشيطان فلحق بالكفار، فأمر به رسول الله ﷺ أن يقتل يوم الفتح، فاستجار له عثمان، فأجاره رسول الله ﷺ^(٢)، وذكر ابن إسحاق سبب أمر رسول الله ﷺ بقتل سعد وشفاعة عثمان فيه فقال: وإنما أمر رسول الله ﷺ بقتله لأنه كان قد أسلم، وكان يكتب لرسول الله ﷺ الوحي، فارتد مشركاً راجعاً إلى قريش، ففرّ إلى عثمان بن عفان وكان أخاه للرضاعة، فغيبه حتى أتى به رسول الله ﷺ بعد أن اطمأن الناس وأهل مكة، فاستأمن له. قال ابن هشام: ثم أسلم بعد، فولاه عمر بن الخطاب بعض أعماله، ثم ولاه عثمان بن عفان بعد عمر^(٣).

٧- غزوة تبوك:

في العام التاسع الهجري ولى هرقل وجهه المتأمر صوب الجزيرة العربية متلمظاً برغبة شريرة في العدوان عليها والتهامها. وأمر قواته بالاستعداد وانتظار أمره بالزحف، وترامت الأنباء إلى الرسول ﷺ فنادى في أصحابه بالتهيؤ للجهاد، وكان الصيف حاراً يصهر الجبال، وكانت البلاد تعاني الجذب والعسرة، فإن قاوم المسلمون بإيمانهم وطأة الحر القاتل وخرجوا إلى الجهاد فوق الصحراء الملتهبة المتأججة، فمن أين لهم العتاد، والنفقات التي تتطلبها الجهاد...؟ لقد حض الرسول على التبرع، فأعطى كل قدر وسعه، وسارعت النساء بالحلى يقدمنه إلى رسول الله ﷺ يستعين به

(١، ٢) المصدر نفسه، ص ٨٠.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٤/٥٧، ٥٨).

فى إعداد الجيش . . بيد أن التبرعات جميعها لم تكن لتغنى أمام المتطلبات للجيش الكبير . . ونظر الرسول ﷺ إلى الصفوف الطويلة العريضة من الذين تهيئوا للقتال وقال: من يجهز هؤلاء، ويغفر الله له؟ وما كاد عثمان يسمع نداء الرسول ﷺ هذا حتى سارع إلى مغفرة من الله ورضوان، وهكذا وجدت العسرة الضاغطة (عثمانها المعطاء)^(١). وقام رضى الله عنه بتجهيز الجيش، حتى لم يتركه بحاجة إلى خطام أو عقال.

يقول ابن شهاب الزهري: قدّم عثمان لجيش العسرة فى غزوة تبوك تسعمائة وأربعين بعيراً، وستين فرساً أتم بها الألف، وجاء عثمان إلى رسول الله فى جيش العسرة بعشرة آلاف دينار صبهاً بين يديه، فجعل الرسول يقلبها بيده ويقول: ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم مرتين^(٢). لقد كان عثمان رضى الله عنه صاحب القدح المعلى فى الإنفاق فى هذه الغزوة^(٣)، وهذا عبد الرحمن بن حباب يحدثنا عن نفقة عثمان حيث قال: شهدت النبى ﷺ وهو يحث على جيش العسرة، فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله علىّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله، ثم حضّ على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله علىّ ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله، فأنا رأيت رسول الله يتزل عن المنبر وهو يقول: ما على عثمان ما عمل بعد هذه، ما على عثمان ما عمل بعد هذه^(٤)، وعن عبد الرحمن بن سمرة رضى الله عنه قال: جاء عثمان بن عفان إلى النبى ﷺ بألف دينار فى ثوبه حين جهز النبى ﷺ جيش العسرة، قال: فجعل النبى ﷺ يقلبها بيده ويقول: ما ضرّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم يرددها مراراً^(٥).

(١) فتح البارى (٦٧/٧). وخلفاء الرسول، ص ٢٥٠. والعشرة المبشرون بالجنة، محمد صالح عوض، ص ٥٣.

(٢) سنن الترمذى رقم ٣٧٨٥. وصحيح التوثيق، ص ٢٦.

(٣) السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية، ص ٦١٥.

(٤) سنن الترمذى رقم ٣٧٠٠.

(٥) سنن الترمذى رقم ٣٧٠٢.

إنه يبدو وكأنه الممول الوحيد للأمة الجديدة!! ومضى الرسول ﷺ على رأس جيشه حتى وصلوا موطنًا يُدعى تبوك في منتصف الطريق بين المدينة ودمشق، وهناك جاءت الأنباء مبشرة بأن هرقل الذى كان يعد العدة للزحف من دمشق، قد ثلم الله عزمه، وغادر دمشق نافضًا يديه من محاولته اليائسة بعد أن علم بخروج النبي وأصحابه إليه، ورجع الجيش بكل عتاده الذى أمده به عثمان، فهل استرجع من ذلك شيئًا؟ كلا.. وحشاه أن يفعل.. وقد ظل كما كان دومًا سريع التلبية لكل إيماءة من النبي ﷺ تعنى جديدًا من البذل، ومزيدًا من العطاء^(١).

ثانيًا: من حياته الاجتماعية في المدينة:

١ - زواجه من أم كلثوم سنة ٣هـ:

عرفت أم كلثوم رضى الله عنها بكنيتها، ولا يعرف لها اسم إلا ما ذكره الحاكم عن مصعب الزبيرى أن اسمها أمية، وهى أكبر سناً من فاطمة رضى الله عنها^(٢).

قال سعيد بن المسيب: تأيم عثمان من رقية بنت رسول الله ﷺ وتأيمت حفصة بنت عمر من زوجها، فمر عمر بعثمان، فقال: هل لك فى حفصة؟ وكان عثمان قد سمع رسول الله ﷺ يذكرها فلم يجبه، وذكر ذلك عمر للنبي ﷺ فقال: هل لك فى خير من ذلك؟ أتزوج حفصة، وأزوج عثمان خيراً منها: أم كلثوم^(٣)، وفى رواية البخارى: قال عمر: تأيمت حفصة بنت عمر من خنيس بن حذافة السهمي وكان من أصحاب رسول الله ﷺ فتوفى فى المدينة. فقال عمر: أتيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة بنت عمر، قال: فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة، فقال: سأنظر فى أمرى، فلبثت ليلتي، ثم لقيني فقال: قد بدا لى أن لا أتزوج يومى هذا. قال عمر: فلقيت أبا بكر الصديق، فقلت: إن شئت زوجتك حفصة بنت عمر، فصمت أبو بكر الصديق رضى الله عنه، فلم يرجع إلى شيئاً، فكنت عليه أوجد منى على عثمان

(١) خلفاء الرسول، ص ١٣٨. والعشرة المبشرون بالجنة، ص ٣١.

(٢) الدوحة النبوية الشريفة، فاروق حمادة، ص ٤٥، ٤٦.

(٣) مستترك الحاكم (٤/٤٩). والآثار لأبى يوسف رقم ١٩٥٧.

قلبت ليالى ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنكحها إياه فلقينى أبو بكر فقال: لعنت وجدت على حين عرضت على حفصة فلم أرجع إليك شيئاً؟ قال عمر: نعم. قال: فإنه لم يمنعنى أن أرجع إليك فيما عرضت على، إلا أنى كنت علمت أن رسول الله قد ذكرها، فلم أكن لأفشى سر رسول الله ﷺ، ولو تركها رسول الله قبلتها^(١).

وتروى أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق رضى الله عنها خبر زواج أم كلثوم من عثمان رضى الله عنه فتقول: لما زوج النبی ابته أم كلثوم قال لأم أيمن: هئنى ابتي أم كلثوم وزفيها إلى عثمان، وخففى^(٢) بين يديها بالدف، ففعلت ذلك، فجاءها النبي ﷺ بعد الثالثة فدخل عليها فقال: يا بُنية كيف وجدت بعلك؟ قالت: خير بعل^(٣)، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ وقف عند باب المسجد فقال: يا عثمان هذا جبريل أخبرنى أن الله قد زوجك أم كلثوم بمثل صداق رقية، وعلى مثل صحبتها، وكان ذلك سنة ثلاث من الهجرة النبوية، فى ربيع الأول، وبنى بها فى جمادى الآخرة^(٤).

٢ - وفاة عبد الله بن عثمان:

وفى جمادى الأولى سنة أربع من الهجرة مات عبد الله بن عثمان رضى الله عنه - من رقية بنت رسول الله ﷺ - وهو ابن ست سنين، فصلى رسول الله ﷺ عليه، ونزل حفرة والده عثمان^(٥)، وهذه محنة عظيمة تعرض لها عثمان، وما أكثر المحن فى حياة الدعاة إلى الله تعالى.

٣ - وفاة أم كلثوم رضى الله عنها:

ولم تزل أم كلثوم عند عثمان رضى الله عنهما إلى أن توفيت فى شعبان سنة تسع من الهجرة، بسبب مرض نزل بها، وصلى عليها رسول الله ﷺ، وجلس على

(١) البخارى، كتاب النكاح، رقم ٥١٢٢.

(٢) خفف: اضطرب وتحرك.

(٣) السيرة النبوية، لأبى شهبة (٢/ ٢٣١). ودماء على قميص عثمان، ص ٢٢.

(٤) سنن ابن ماجه رقم ١١٠ وفيه عثمان بن خالد وهو ضعيف.

(٥) الكامل، لابن الأثير (٢/ ١٣٠)، ودماء على قميص عثمان، ص ٢٢.

قبرها، وعن أنس بن مالك أنه رأى النبي ﷺ جالساً على قبر أم كلثوم، قال: فرأيت عينيه تدمعان، فقال: هل منكم رجل لم يقارف الليلة؟ فقال أبو طلحة: أنا قال فانزل في قبرها^(١)، وعن ليلى بنت قائف الثقفية قالت: كنت فيمن غسل أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ عند وفاتها، فكان أول ما أعطانا رسول الله ﷺ الحقو، ثم الدرع، ثم الخمار، ثم الملحفة، ثم أدرجت بعده في الثوب الآخر، قالت: ورسول الله ﷺ عند الباب ومعه كفنها يناولنا إياه ثوباً ثوباً^(٢)، وجاء عند ابن سعد أن علي بن أبي طالب، والفضل بن العباس، وأسامة بن زيد، قد نزلوا في حفرتها مع أبي طلحة وأن التي غسلتها هي أسماء بنت عميس، وصفية بنت عبد المطلب^(٣).

وقد تأثر عثمان رضي الله عنه وحزن حزناً عظيماً على فراقه لأم كلثوم، ورأى رسول الله ﷺ عثمان رضي الله عنه وهو يسير منكسراً وفي وجهه حزن لما أصابه، فدنا منه وقال: لو كانت عندنا ثالثة لزوجناكها يا عثمان^(٤)، وهذا دليل حب رسول الله ﷺ لعثمان، ودليل وفاء عثمان لنبيه وتوقيره، وفيه دليل على نفى ما اعتاده الناس من التشاؤم في مثل هذا الموطن، فإن قدر الله ماض وأمره نافذ ولا راد لأمره^(٥).

ثالثاً: من مساهمته الاقتصادية في بناء الدولة،

كان عثمان رضي الله عنه من الأغنياء الذين أغناهم الله - عز وجل - وكان صاحب تجارة وأموال طائلة، ولكنه استخدم هذه الأموال في طاعة الله - عز وجل - وابتغاء مرضاته وما عنده، وصار سبباً لكل خير ينفق ولا يخشى الفقر، وما أنفقه رضي الله عنه من نفقائه الكثيرة على سبيل المثال ما يأتي:

١ - بر رومة:

عندما قدم النبي ﷺ المدينة المنورة وجد أن الماء العذب قليل، وليس بالمدينة ما

(١) البخاري، كتاب الجنائز رقم ١٣٤٢.

(٢) سنن أبي داود رقم ٣١٥٧.

(٣) الطبقات، لابن سعد (٣٩/٨). والدوحة النبوية، ص ٤٨.

(٤) مجمع الزوائد للهيتمي (٨٣/٩)، إسناده حسن لما له من شواهد.

(٥) الخلفاء الراشدون، أعمال وأحداث. د. أمين القضاة، ص ٧٣.

يستعذب غير بئر رومة، فقال رسول الله ﷺ: من يشتري بئر رومة فيجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له في الجنة^(١). وقال ﷺ: من حفر بئر رومة فله الجنة^(٢).

وقد كانت رومة قبل قدوم النبي ﷺ لا يشرب منها أحد إلا بئمن، فلما قدم المهاجرون المدينة استنكروا الماء، وكانت لرجل من بنى غفار عين يقال لها رومة، وكان يبيع منها القربة بمد، فقال النبي ﷺ: (تبيعها بعين في الجنة؟) فقال: يا رسول الله، ليس لى ولا لعلالى غيرها. فبلغ ذلك عثمان رضى الله عنه فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم، ثم أتى النبي ﷺ فقال: أنجعل لى فيها ما جعلت له؟ قال: نعم. قال: قد جعلتها للمسلمين^(٣)، وقيل: كانت رومة ركية ليهودى يبيع المسلمين ماءها، فاشتراها عثمان بن عفان من اليهودى بعشرين ألف درهم، فجعلها للغنى والفقر وابن السبيل^(٤).

٢ - توسعة المسجد النبوى:

بعد أن بنى رسول الله ﷺ مسجده فى المدينة صار المسلمون يجتمعون فيه ليصلوا الصلوات الخمس، ويحضرُوا خطب النبي ﷺ التى يُصدر إليهم فيها أوامره ونواهيه، ويتعلمون فى المسجد أمور دينهم، وينطلقون منه إلى الغزوات ثم يعودون بعدها، ولذلك ضاق المسجد بالناس، فرغب النبي ﷺ من بعض الصحابة أن يشتري بقعة بجانب المسجد، لكى تزداد فى المسجد حتى يتسع لأهله، فقال ﷺ: من يشتري بقعة أكل فلان فيزيدها فى المسجد بخير له منها فى الجنة؟ فاشتراها عثمان بن عفان رضى الله عنه من صلب ماله^(٥) بخمسة وعشرين ألف درهم، أو بعشرين ألفاً ثم أضيفت للمسجد^(٦)، ووسع على المسلمين رضى الله عنه وأرضاه^(٧).

(١) صحيح النسائى، للألبانى (٧٦٦/٢).

(٢) أخرجه البخارى رقم ٢٧٧٨ معلقاً وهو صحيح لشواهده.

(٣) تحفة الاحوذى بشرح سنن الترمذى (١٠/١٩٦).

(٤) فتح البارى (٤٠٨/٥)، والحكمة فى الدعوة إلى الله، ص ٢٣١.

(٥) صحيح سنن الترمذى للألبانى (٢٠٩/٣)، رقم ٢٩٢١.

(٦) صحيح سنن النسائى (٧٦٦/٢).

(٧) أعلام المسلمين لحاليد البطار (٤١/٣).

٣- العسرة وعثمانها المعطاء:

عندما أراد رسول الله ﷺ الرحيل إلى غزوة تبوك حثَّ الصحابة الأغنياء على البذل لتجهيز جيش العسرة الذي أعدّه رسول الله ﷺ لغزو الروم، فأنفق الأموال من صحابة رسول الله ﷺ كل على حسب طاقته وجهده، أما عثمان فقد أنفق نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها^(١)، وقد تمّ بيانها عند حديثنا عن موقفه في غزوة تبوك.

(١) الحكمة في الدعوة إلى الله، ص ٢٣١.

المبحث الرابع

من أحاديث الرسول ﷺ في عثمان بن عفان

أولاً، فيما ورد في فضائله مع غيره:

١ - افتح له وبشره بالجنة على بلوى نصيبه:

عن أبي موسى رضى الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في حائط من حيطان المدينة، فجاء رجل فاستفتح، فقال النبي ﷺ: افتح له، وبشره بالجنة، ففتحت له فإذا هو أبو بكر، فبشرته بما قاله رسول الله ﷺ، فحمد الله، ثم جاء رجل فاستفتح، فقال النبي ﷺ: افتح له وبشره بالجنة، ففتحت له فإذا هو عمر، فأخبرته بما قال النبي ﷺ فحمد الله. ثم استفتح رجل، فقال لى: افتح له وبشره بالجنة على بلوى نصيبه، فإذا عثمان، فأخبرته بما قال رسول الله ﷺ، فحمد الله، ثم قال: الله المستعان^(١).

هذا الحديث تضمن فضيلة هؤلاء الثلاثة المذكورين وهم أبو بكر وعمر وعثمان وأنهم من أهل الجنة، كما تضمن فضيلة لأبي موسى، وفيه دلالة على جواز الثناء على الإنسان في وجهه إذا أمنت عليه الإعجاب ونحوه، وفيه معجزة ظاهرة للنبي ﷺ لإخباره بقصة عثمان والبلوى، وأن الثلاثة يستمرون على الإيمان والهدى^(٢).

٢ - اسكن أحد فليس عليك إلا نبى وصديق وشهيدان:

عن أنس رضى الله عنه قال: صعد النبي ﷺ أحداً، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرَجَفَ، فقال: اسكن أحد - أظنه ضربه برجله - فليس عليك إلا نبى وصديق وشهيدان^(٣).

(١) البخارى رقم ٣٦٩٥.

(٢) شرح النورى على صحيح مسلم (١٥/ ١٧٠ - ١٧١).

(٣) البخارى رقم (٣٦٩٧).

٣ - اهدأ فما عليك إلا نبى أو صديق أو شهيد:

عن أبى هريرة رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان على حراء، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، وطلحة، والزبير، فتحركت الصخرة، فقال رسول الله ﷺ: اهدأ فما عليك إلا نبى أو صديق أو شهيد^(١).

٤ - حياء عثمان رضى الله عنه:

عن يحيى بن سعيد بن العاص أن سعيد بن العاص أخبره أن عائشة زوج النبى ﷺ وعثمان حدثاه أن أبا بكر استأذن على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على فراشه لا بوس مِرطَ عائشة فأذن لأبى بكر وهو كذلك فقضى إليه حاجته ثم انصرف، ثم استأذن عمر فأذنه له وهو على تلك الحال فقضى إليه حاجته ثم انصرف، قال عثمان: ثم استأذنت عليه فجلس وقال لعائشة: اجمعى عليك ثيابك. فقضيت إليه حاجتى ثم انصرفت، فقالت عائشة: يا رسول الله ما لى لم أركَ فزعت لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما كما فزعت لعثمان؟ قال رسول الله ﷺ: إن عثمان رجل حَيٌّ، وإنى خشيت إن أذنت له على تلك الحال أن لا يبلغ إلى فى حاجته^(٢).

٥ - استحياء الملائكة من عثمان:

عن أبى سلمة بن عبد الرحمن أن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ مضطجعاً فى بيتى كاشفاً عن فخذه أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال فتحدث، ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك فتحدث، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله ﷺ وسوى ثيابه قال محمد - أحد رواة الحديث - ولا أقول ذلك فى يوم واحد - فدخل فتحدث، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهتَشْ له ولم تُبَالِه، ثم عمر فلم تهتَشْ له ولم تُبَالِه، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك! فقال: ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة^(٣)، قال المناوى: مقام عثمان مقام

(١) مسلم رقم ٢٤١٧.

(٢) مسلم رقم ٢٤٠٢.

(٣) مسلم رقم ٢٤٠١.

الحياء، والحياء فرع يتولد من إجلال من يشاهده ويعظم قدره، مع نقص يجده في النفس، فكأنه غلب عليه إجلال الحق تعالى، ورأى نفسه بعين النقص والتقصير، وهما من جليل خصال العباد المقربين، فعلت رتبة عثمان كذلك، فاستحيت منه خلاصة الله من خلقه، كما أن من أحب الله أحب أوليائه، ومن خاف الله خاف منه كل شيء^(١).

٦- أصدقها حياء عثمان:

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أرحم أمتى أبو بكر، وأشدّها في دين الله عمر، وأصدقها حياء عثمان، وأعلمها بالحلّال والحرام معاذ بن جبل، وأقرأها لكتاب الله أبي، وأعلمها بالفرائض زيد بن ثابت، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيد بن الجراح»^(٢).

ثانياً: إخبار رسول الله عن الفتنة التي يقتل فيها عثمان:

١ - من نجا من ثلاث فقد نجا:

عن عبد الله بن حوالة أن رسول الله ﷺ قال: من نجا من ثلاث فقد نجا، ثلاث مرات: موتى، والدجال، وقتل خليفة مصطبر بالحق معطيه^(٣).

ومعلوم أن الخليفة الذي قتل مصطبراً بالحق هو عثمان، فالقرائن تدل على أن الخليفة المقصود بهذا الحديث، هو عثمان بن عفان رضى الله عنه، وفي الحديث - والله أعلم - لفظة عظيمة إلى أهمية السلامة من الخوض في هذه الفتنة حسياً ومعنوياً، أما حسياً فذلك يكون في زمن الفتنة، من تحريض وتآليب وقتل وغير ذلك، وأما معنوياً فبعد الفتنة من خوض فيها بالباطل، وكلام فيها بغير حق، وبهذا يكون الحدث عامّاً للأمة، وليس خاصّاً بمن أدرك الفتنة^(٤).

(١) فيض القدير للمناوى (٣٠٢/٤).

(٢) فضائل الصحابة، للإمام أحمد (٦٠٤/١) إسناده صحيح.

(٣) المسند (٤١٩/٤) (٣٤٦/٥) تحقيق: أحمد شاكر.

(٤) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (٤٤/١).

٢ - يقتل فيها هذا المقتنع يومئذ:

عن ابن عمر قال: ذكر رسول الله ﷺ فتنة، فمرّ رجل، فقال: يقتل فيها هذا المقتنع يومئذ مظلوماً، قال: فنظرت، فإذا هو عثمان بن عفان^(١).

٣ - هذا يومئذ على الهدى:

عن كعب بن عجرة، قال: ذكر رسول الله ﷺ فتنة فقربها فمر رجل مقنع رأسه فقال رسول الله ﷺ: هذا يومئذ على الهدى، فوثبت فأخذت بضبعي عثمان، ثم استقبلت رسول الله ﷺ فقلت: هذا؟ قال: هذا^(٢).

٤ - نهيج فتنة كالصياصي، فهذا ومن معه على الحق:

عن مرة البهزي قال: كنت عند رسول الله ﷺ - وقال بهز من رواية الحديث - قال رسول الله ﷺ: نهيج فتنة كالصياصي، فهذا ومن معه على الحق. قال: فذهبت فأخذت بمجامع ثوبه، فإذا هو عثمان بن عفان رضى الله عنه^(٣).

٥ - هذا يومئذ وأصحابه على الحق والهدى:

عن أبي الأشعث قال: قامت خطباء بإيلياء في إمارة معاوية رضى الله عنه فتكلموا، وكان آخر من تكلم مرة بن كعب فقال: لولا حديث سمعته من رسول الله ﷺ ما قمت، سمعت رسول الله ﷺ يذكر فتنة فقربها فمر رجل مقنع فقال: هذا يومئذ وأصحابه على الحق والهدى، فقلت: هذا يا رسول الله؟ وأقبلت بوجهه إليه فقال: هذا، فإذا هو عثمان رضى الله عنه^(٤).

٦ - عليكم بالأمين وأصحابه:

عن أبي حبيبة أنه دخل الدار وعثمان محصور فيها، وأنه سمع أبا هريرة يستأذن عثمان في الكلام، فأذن له، فقام فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: إني سمعت

(١) فضائل الصحابة (١/ ٥٥١) إسناده حسن.

(٢) صحيح سنن ابن ماجه (١/ ٢٤).

(٣) المسند (٥/ ٣٣) له طرق تقويه.

(٤) فضائل الصحابة (١/ ٥٥٠) إسناده صحيح.

رسول الله يقول: إنكم تلقون بعدى فتنة واختلافًا، أو قال: اختلافًا وفتنة، فقال له قاتل من الناس: فمن لنا يا رسول الله؟ قال: عليكم بالأمين وأصحابه وهو يشير إلى عثمان بذلك^(١).

٧- فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه:

عن عبد الله بن عامر عن النعمان بن بشير عن عائشة قالت: أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان، فأقبل عليه رسول الله ﷺ، فلما رأينا رسول الله ﷺ أقبلت إحدانا على الأخرى، فكان من آخر كلامه كلمة أن ضرب بين منكيه وقال: يا عثمان إن الله - عز وجل - عسى أن يلبسك قميصًا، فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني، ثلاثًا^(٢).

٨- إن رسول الله ﷺ عهد إلى عهداً وإنى صابر نفسى عليه:

عن أبي سهلة عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: ادعوا لى بعض أصحابى، قلت: أبو بكر؟ قال: لا، قالت: قلت: عثمان؟ قال: نعم، فلما جاء قال: تنحى، فجعل يسأراً^(٣)، ولون عثمان يتغير، فلما كان يوم الدار وحصر قلنا: يا أمير المؤمنين ألا تقاتل؟ قال: لا، إن رسول الله ﷺ عهد إلى عهداً وإنى صابر نفسى عليه^(٤)، وهذا الحديث يبين شدة محبة رسول الله ﷺ لعثمان رضى الله عنه، وحرصه على مصالح الأمة بعده، فقد أخبره بأشياء تتعلق بهذه الفتنة التى ستتهى بقتله، وحرص عليه الصلاة والسلام على سرّيتها، حتى إنه لم يصل إلينا منها إلا ما صرح به عثمان رضى الله عنه أثناء الفتنة لما قيل له: ألا تقاتل؟ فقد قال: لا، إن رسول الله ﷺ عهد إلى عهداً، وإنى صابر عليه^(٥). ويظهر من قوله هذا أن النبى ﷺ قد أرشده إلى الموقف الصحيح، عند اشتعال الفتنة، وذلك أخذًا منه ﷺ بحجز الفتنة أن تنطلق. وفى بعض الروايات زيادة تكشف عن بعض مكنون هذه المسألة، فقد جاء فيها أن النبى ﷺ

(١) فضائل الصحابة (١/ ٥٥٠) إسناده صحيح.

(٢) فضائل الصحابة (١/ ٦٣١) إسناده صحيح.

(٣) من المسارة مفاعلة من السر: أى المناجاة.

(٤) فضائل الصحابة (١/ ٦٠٥) إسناده صحيح.

(٥) المصدر نفسه (١/ ٦٠٥) إسناده صحيح.

قال له: وإن سألوك أن تنخلع من قميص قمصك الله - عز وجل - فلا تفعل^(١)، ومضمون هذا العهد الذى ذكره عثمان رضى الله عنه يتعلق بالفتنة والوصية بالصبر فيها وعدم الخلع، وإن كان يفهم من هذه الأحاديث بأنه سيكون خليفة يوماً ما. ويبدو أن هناك وصايا، وإرشادات تتعلق بهذه الفتنة، انفرد بمعرفتها عثمان رضى الله عنه، وذلك محافظة من النبي ﷺ على السرية فيها، وما يبين ذلك أنه أمر عائشة رضى الله عنها بالانصراف^(٢)، عندما أراد الإصرار بها لعثمان رضى الله عنه، كما أنه أسرَّ إليه إصراراً، رغم خلو المكان من غيرهما، حتى تغير لونه، مما يدل على عظم المسرِّ به، وربط عائشة رضى الله عنها هذا الإصرار بالفتنة دليل واضح على أن هذه المسارة كانت حول الفتنة التى قتل فيها، كما أن الإصرار تضمن توجيهات منه ﷺ إلى عثمان ليقف الموقف الصحيح عند عرض الخلع، وأن النبي ﷺ لم يقتصر على الإخبار بوقوع الفتنة، فقد أخبر بذلك علانية فى أحاديث كثيرة كما تقدم، فإصراره يدل على أن هذا الإصرار تضمن أشياء أخرى زيادة على الإخبار عن وقوعها، ورغب عليه الصلاة والسلام بالمحافظة على سريتها لحكمة اقتضت ذلك - الله أعلم بها -، وهذا الحديث يفسر لنا جلياً سبب إصرار عثمان على رفض القتال أثناء الحصار، كما يفسر أيضاً سبب رفضه للتنازل عن الخلافة وخلعها عندما عرض القوم عليه ذلك، وهما موقفان طالما تساؤل الباحثون والمؤرخون عن السبب الذى أدى عثمان إليهما واستشكلوهما^(٣)، وحادث فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه، من ضمن حوادث كثيرة أخبر رسول الله فى حياته بأنها ستقع بالغيب فإن علم الغيب صفة من صفات الله - عز وجل -، ليست لأحد من خلقه، وإنما ذلك علم أطلعه الله عليه وأمره أن يبينه للناس^(٤)؛ قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَا سَكَّرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

[الأعراف: ١٨٨]

(١) فضائل الصحابة (١/٦١٣)، إسناده صحيح. والطبقات (٣/٦٦ - ٦٧).

(٢) فقد قال لها النبي ﷺ: (تنحى) ومعنى التنحى: الانصراف، الفيروزآبادى، القاموس المحيط

(٤/٣٩٦). ولسان العرب (١٥/٣١١).

(٣، ٤) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/٤٨).

المبحث الخامس

ذو النورين في عهد الصديق والفاروق

أولاً: في عهد الصديق،

١ - من أهل الشورى في مسائل الدولة العليا:

كان عثمان رضى الله عنه من الصحابة وأهل الشورى الذين يؤخذ رأيهم في أمهات المسائل في خلافة أبى بكر، فهو ثانى اثنين في الخطوة عند الصديق: عمر بن الخطاب للحزامة والشدايد، وعثمان بن عفان للرفق والأناة. وكان عمر وزير الخلافة لصديقية، وكان عثمان أمينها العام، وناموسها الأعظم وكتبتها الأكبر^(١)، وكان رأيهم مقدماً عند الصديق، فبعد أن قضى أبو بكر على حركة الردة، أراد أن يغزو الروم، وينطلق الجيش المجاهد إلى أطراف الأرض، فقام في الناس يستشيرهم، فقال الألباء ما عندهم، ثم استزادهم أبو بكر فقال: ما ترون؟ فقال عثمان: إني أرى أنك ناصح لأهل هذا الدين، شفيق عليهم، فإذا رأيت رأياً لعامتهم صلاحاً، فاعزم على إمضائه فإنك غير ظنين^(٢)، فقال طلحة والزبير وسعد وأبو عبيدة وسعيد بن زيد ومن حضر ذلك المجلس من المهاجرين والأنصار رضى الله عنهم: صدق عثمان! ما رأيت من رأى فأَمْضِهِ^(٣)، ولما أراد الصديق أن يبعث والياً إلى البحرين استشار أصحابه، فقال عثمان: أبعث رجلاً قد بعثه رسول الله إليهم فقدم عليه^(٤) بإسلامهم وطاعتهم، وقد عرفوه وعرفهم وعرف بلادهم - يعنى العلاء بن الحضرمي رضى الله عنه - فبعث 'الصديق العلاء إلى البحرين'^(٥).

(١) عثمان بن عفان رضى الله عنه، لصديق عرجون، ص ٥٨.

(٢) تاريخ دمشق، لابن عساكر (٢٣/٢ - ٦٥). وأبو بكر الصديق للصائبي، ص ٣٦٤.

(٣) أبو بكر الصديق للصائبي، ص ٣٦٤.

(٤) أى على النبی ﷺ.

(٥) كنز العمال (٦٢٠/٥) رقم: (١٤٠٩٣) وتاريخ الطبرى (١٢٢/٤). والقيود الواردة على سلطة

الدولة، عبد الله الكيلاني، ص ١٦٩.

ولما اشتد المرض بأبي بكر استشار الناس فيمن يحبون أن يقوم بالأمر من بعده، فأشاروا بعمر، وكان رأى عثمان في عمر: اللهم علمي به أن سريره خير من علانيته وأنه ليس فينا مثله^(١).

فقال أبو بكر: يرحمك الله، والله لو تركته ما عدت^(٢).

٢ - أزمة اقتصادية في عهد الصديق:

عن ابن عباس قال: قحط المطر على عهد أبي بكر الصديق، فاجتمع الناس إلى أبي بكر فقالوا: السماء لم تمطر، والأرض لم تُنبِت، والناس في شدة شديدة، فقال أبو بكر: انصرفوا واصبروا، فإنكم لا تُمسون حتى يُفرجَ الله الكريم عنكم. قال: فما لبثنا أن جاء أجراء عثمان من الشام، فجاءته مائة راحلة بُرأ - أو قال طعاماً - فاجتمع الناس إلى باب عثمان، فقرعوا عليه الباب، فخرج إليهم عثمان في ملأ من الناس فقال: ما تشاءون؟ قالوا: الزمان قد قحط: السماء لا تمطر، والأرض لا تُنبِت، والناس في شدة شديدة، وقد بلغنا أن عندك طعاماً، فبعنا حتى نوسع على فقراء المسلمين. فقال عثمان: حباً وكرامة، ادخلوا فاشتروا، فدخل التجار، فإذا الطعام موضوع في دار عثمان، فقال: يا معشر التجار كم تربحونني على شرائي من الشام؟ قالوا: للعشرة اثنا عشر، قال عثمان: قد زادوني. قالوا: للعشرة خمسة عشر. قال عثمان: قد زادوني. قال التجار: يا أبا عمرو ما بقي بالمدينة تجار غيرنا فمن زادك؟ قال: زادني الله - تبارك وتعالى - بكل درهم عشرة، أعندكم زيادة؟ قالوا: اللهم لا. قال: فإني أشهد الله أني قد جعلت هذا الطعام صدقة على فقراء المسلمين^(٣)، قال ابن عباس: فرأيت من ليلتي رسول الله ﷺ في المنام وهو على برذون أبلق^(٤) عليه حلّة من نور، في رجله نعلان من نور، ويده قصبة من نور،

(١) الكامل لابن الأثير (٧٩/٢)، الخلفاء الراشدون، لمحمود شاكر، ص ١٠١.

(٢) الكامل لابن الأثير (٧٩/٢).

(٣) الرقة والبيضاء، لابن قدامة، ص ١٩٠، والخلفاء الراشدون، لحسن أيوب، ص ١٩١. وشهيد الدار، لأحمد الخروف، ص ٢١.

(٤) الذي فيه سواد وبياض.

وهو مستعجل. فقلت: يا رسول الله قد اشتدَّ شوقى إليك وإلى كلامك فأين تُبادر؟ قال: يا ابن عباس، إنَّ عثمان قد تصدَّق بصدقة، وإنَّ الله قد قبلها منه وزوجَّه عروساً فى الجنة، وقد دُعينا إلى عرسه (١).

فهل يفتح الله تعالى آذان عبَّاد المال، ومحتكرى قوت العباد شحاً وجشعاً إلى صوت هذه العظمة العثمانية حتى تدلف إلى قلوبهم فتَهزها هزة الأريحية والعطف، وتوقظ فيها بواعث الرحمة والإحسان بالفقراء والمساكين، والأرامل واليتامى وذوى الحاجات من أهلى الفاقة والبؤس، الذين طحتهم أزمة الحياة واعتصرت دماءهم شراباً نذوى القلوب المتحجرة من الأثرياء؟ فما أحوج المسلمين فى هذه المرحلة من حياتهم إلى نفحة عثمانية فى إنفاق الأموال على الفقراء والمساكين والمحتاجين تسرى بينهم عاطفاً ومواساة وبرا وإحساناً (٢).

هذا موقف من مواقف الكرم والبرِّ لعثمان رضى الله عنه، فقد كان رضى الله عنه من أرحم الناس بالناس، فهو يقرأ قول رب الناس: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ﴾ [العلق: ٦] فيصدّه ذلك عن الطغيان، ويقرأ قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤] فيجعله ذلك من أبعد الناس عن لنفاق والمنافقين.

ويقرأ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] فيحمله ذلك على أن يكون من (٣): ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

(١) الرقة والبيكاه، ص ١٩٠.

(٢) عثمان بن عفان رضى الله عنه، لصديق عرجون، ص ٥٢.

(٣) شهيد الدار، ص ٢٢، ٢٣.

ثانياً، في عهد الخاروق،

كان عثمان ذا مكانة عند عمر، فكانوا إذا أرادوا أن يسألوا عمر عن شيء رمّوه بعثمان، ويعبد الرحمن بن عوف، وكان عثمان يسمى الرديف - والرديف بلسان العرب هو الذي يكون بعد الرجل، والعرب تقول ذلك للرجل الذي يرجونه بعد رئيس) وكانوا إذا لم يقدر هذان على عمل شيء ثلثوا بالعباس^(١).

وقد حدث ذات مرة أن خرج عمر بالناس وعسكر بهم بما يُدعى (صِراراً) فجاء عثمان فسأله: ما بلغك؟ ما الذي تريد؟ فنأدى عمر رضي الله عنه (الصلاة جامعة) ثم أخبر الناس عن عزمه في غزو العراق^(٢)، ولما ولي عمر الخلافة استشار وجوه الصحابة في عطائه من بيت مال المسلمين، فقال له عثمان: كل وأطعم^(٣). وعندما أرسل أبو عبيدة إلى عمر أن يقدم إلى بيت المقدس ليفتحه، فاستشار عمر الناس، فأشار عثمان بأن لا يركب إليهم ليكون أحقر لهم وأرغم لأنوفهم، وقال لعمر: فأنت إن أقمت ولم تسر إليهم رأوا أنك بأمرهم مستخف، ولقتالهم مستعد، فلم يلبثوا إلى السير حتى يتزلوا على الصغار ويعطوا الجزية^(٤)، وأشار على بالمسير، فهوى عمر ما قال على^٥ ليكون أخف وطأة على المسلمين في حصارهم^(٥).

لقد كانت مكانة عثمان رضي الله عنه في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كمكانة الوزير من الخليفة، وإن شئت فقل هي مكانة عمر من أبي بكر في خلافته، وقد صنع الله لأبي بكر بوزارة عمر لخلافته ما يصنعه لخير أهله، وصنع لعمر بوزارة عثمان لخلافته ما يصنعه لخير أهله؛ فقد كان أبو بكر أرحم الناس بالناس، وكان عمر أشدهم في الحق، فمزج الله رحمة الصديق بشدة عمر، فكانت منهما خلافة الصديق وسياسة العدل، وقوم الخزم. وكان عثمان رضي الله عنه أشبه بالصديق في رحمته،

(١) تاريخ الطبري (٨٣/٤)، المرتضى للندوي، ص ١٣١.

(٢، ٣) عثمان بن عفان رضي الله عنه، الخليفة الشاكر الصابر، ص ٦٣.

(٤) عثمان بن عفان رضي الله عنه، محمد حسين هيكل، ص ٤٧ - ٤٨ نقلاً عن السياسة المالية لعثمان ابن عفان رضي الله عنه، ص ٢٤.

(٥) عثمان بن عفان الخليفة الشاكر، ص ٦٣.

وكان عمر على سنته في شدته، فلما تولى بعد أبي بكر جعل الله له في وزارة عثمان خلافته عوضاً من رحمة الصديق ورفقه؛ فكان منهما تلك الأمثال المضروبة في أنظمة الحكم وسياسة الأمة أحكم سياسة وأعدلها، وقد عرف الناس هذه المكانة لعثمان في خلافة عمر، فهو الذي أشار على عمر بفكرة الديوان وكتابة التاريخ كما جاء في بعض الروايات.

١ - الديوان:

لما اتسعت الفتوحات وكثرت الأموال جمع عمر ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يستشيرهم في هذا المال؛ فقال عثمان: أرى مالاً كثيراً يسع الناس، وإن لم يُحصوا حتى يعرف من أخذ منهم ممن لم يأخذ خشيت أن يتشر الأمر، فأقر عمر رأى عثمان، وانتهى بهم ذلك إلى تدوين الدواوين^(١)

٢ - التاريخ:

جاء في بعض الروايات أن الذي أشار على عمر بجعل السنة الهجرية تبدأ بالمحرم هو عثمان؛ وذلك أنهم لما اتفقوا بعد مشاورات على جعل مبدأ التاريخ الإسلامي من هجرة النبي ﷺ؛ لأنها فرقت بين الحق والباطل - تعددت الآراء في أي الأشهر يجعل بداية للسنة، فقال عثمان: أرخوا من المحرم أول السنة، وهو شهر حرام، وأول الشهر في العدة، وهو منصرف الناس من الحج؛ فرضى عمر ومن شهدته من أصحابه رأى عثمان واستقر عليه الأمر، وأصبح مبدأ تاريخ الإسلام^(٢)

٣ - أرض الخراج:

كان عثمان رضى الله عنه عن أيدوا رأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه في عدم تقسيم أرض الفتوح على الفاتحين وإبقائها فيئاً للمسلمين وللذرية من بعدهم^(٣)

(١) تاريخ الطبري (٢٠٣/٥). وعثمان بن عفان رضى الله عنه، لصادق عرجون، ص ٦٠.

(٢) عثمان بن عفان رضى الله عنه لصادق عرجون، ص ٦٠.

(٣) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضى الله عنه، ص ٢٥.

٤ - حججه مع أمهات المؤمنين:

لما استخلف عمر بن الخطاب رضى الله عنه سنة ثلاث عشرة، بعث تلك السنة على الحج عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه، فحج بالناس، وحج مع عمر أيضاً آخر حجة حجها عمر سنة ثلاث وعشرين، وأذن عمر تلك السنة لأزواج النبي ﷺ في الحج، فحملن في الهودج، وبعث معهن عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، فكان عثمان يسير على راحلته أمامهن فلا يدع أحداً يدنو منهن، ويتزلن مع عمر كل منزل، فكان عثمان وعبد الرحمن يتزلان بهن في الشعاب، فيقبلانهن الشعاب، ويتزلان هما في أذل الشعب، فلا يتركان أحداً يمر عليهن^(١)

* * *

(١) طبقات ابن سعد (٣/١٣٤)، وأنساب الأشراف (١/٤٦٥، ٤٦٦). ومجلة البحوث الإسلامية،

الفصل الثانى

استخلاف ذى النورين ومنهجه فى الحكم وأهم صفاته الشخصية

المبحث الأول

استخلاف ذى النورين

أولاً، الفقه العمرى فى الاستخلاف،

استمر اهتمام الفاروق رضى الله عنه بوحدة الأمة ومستقبلها حتى اللحظات الأخيرة من حياته، رغم ما كان يعانيه من آلام جراحاته البالغة، وهى بلا شك لحظات خالدة، تجلّى فيها إيمان الفاروق العميق وإخلاصه وإثارته^(١)، وقد استطاع الفاروق فى تلك اللحظات الحرجة أن يبتكر طريقة جديدة لم يسبق إليها فى اختيار الخليفة الجديد وكانت دليلاً ملموساً، ومعلماً واضحاً على فقهه فى سياسة الدولة الإسلامية، لقد مضى قبله الرسول ﷺ ولم يستخلف بعده أحداً بنص صريح، ولقد مضى أبو بكر الصديق واستخلف الفاروق بعد مشاورة كبار الصحابة، ولما طلب من الفاروق أن يستخلف وهو على فراش الموت، فكر فى الأمر ملياً وقرر أن يسلك مسلكاً آخر يتناسب مع المقام؛ فرسول الله ﷺ ترك الناس وكلهم مقرر بأفضلية أبى بكر وأسبقتهم عليهم، فاحتمال الخلاف كان نادراً وخصوصاً أن النبى ﷺ وجه الأمة قولاً وفعلًا إلى أن أبى بكر أولى بالأمر من بعده، والصديق لما استخلف عمر كان يعلم أن عند الصحابة أجمعين قناعة بأن عمر أقوى وأفضل من يحمل المسئولية بعده، فاستخلفه بعد مشاورة كبار الصحابة ولم يخالف رأيه أحد منهم، وحصل الإجماع

(١) الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب للعائى، ص ١٦١.

على بيعة عمر^(١)، وأما طريقة انتخاب الخليفة الجديد فتعتمد على جعل الشورى في عدد محصور، وقد حصر ستة من صحابة رسول الله ﷺ كلهم يصلحون لتولى الأمر ولو أنهم يتفاوتون، وحدد لهم طريقة الانتخاب ومدته، وعدد الأصوات الكافية لانتخاب الخليفة، وحدد الحكم في المجلس والمرجح إن تعادلت الأصوات، وأمر مجموعة من جنود الله لمراقبة سير الانتخابات في المجلس وعقاب من يخالف أمر الجماعة ومنع الفوضى بحيث لا يسمحون لأحد بدخل أو يسمع ما يدور في مجلس أهل الحل والعقد^(٢)، وهذا بيان ما أجمل في الفقرات السابقة:

١ - العدد الذي حدده للشورى وأسماءهم:

أما العدد فهو ستة وهم: على بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والزيير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله رضى الله عنهم جميعاً. وترك سعيد بن زيد وهو من العشرة المبشرين بالجنة ولعله تركه لأنه من قبيلته بنى عدى^(٣)، وكان عمر رضى الله عنه حريصاً على إبعاد الإمارة عن أقاربه، مع أن فيهم من هو أهل لها، فهو يبعد قريبه سعيد بن زيد عن قائمة المرشحين للخلافة^(٤).

٢ - طريقة اختيار الخليفة:

أمرهم أن يجتمعوا في بيت أحدهم ويتشاوروا وفيهم عبد الله بن عمر يحضر معهم مشيراً فقط وليس له من الأمر شيء، ويصلى بالناس أثناء التشاور صهيب الرومى وقال له: أنت أمير الصلاة في هذه الأيام الثلاثة. حتى لا يولى إمامة الصلاة أحدًا من الستة فيصبح هذا ترشيحاً من عمر له بالخلافة^(٥)، وأمر المقداد بن الأسود، وأبا طلحة الأنصاري أن يرقبا سير الانتخابات^(٦).

(١) أوليات الفاروق، ص ١٢٢.

(٢) أوليات الفاروق، ص ١٢٤.

(٣) البداية والنهاية (١٤٢/٧).

(٤) الخلفاء الراشدون للخلالدى، ص ٩٨.

(٥) الخلافة والخلفاء الراشدون للبهنساوى، ص ٢١٣.

(٦) أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة، ص ٦٤٨.

٣ - مدة الانتخابات أو المشاورة:

حددها الفاروق رضى الله عنه بثلاثة أيام وهى فترة كافية وإن زادوا عليها، فمعنى ذلك أن شقة الخلاف ستسع، ولذلك قال لهم: لا يأتى اليوم الرابع إلا وعليكم أمير^(١).

٤ - عدد الأصوات الكافية لاختيار الخليفة:

أخرج ابن سعد بإسناد رجاله ثقات أن عمر رضى الله عنه قال لصهيب: صل بالناس ثلاثاً وليدخل هؤلاء الرهط فى بيت فإذا اجتمعوا على رجل فمن خالفهم قاضبوا رأسه^(٢)، فعمر رضى الله عنه أمر بقتل من يريد أن يخالف هؤلاء الرهط ويشق عصا المسلمين ويفرق بينهم، عملاً بقوله ﷺ «من أناكم وأمركم جميع على رجل منكم، يريد أن يشق عصاكم، أو يفرق جماعتكم فاقتلوه»^(٣).

وما جاء فى كتب التاريخ من أن عمر رضى الله عنه أمرهم بالاجتماع والتشاور، وحدد لهم أنه إذا اجتمع خمسة منهم على رجل وأبى أحدهم فليضرب رأسه بالسيف وإن اجتمع أربعة ورضوا رجلاً منهم وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما^(٤)، فهذه من الروايات التى لا تصح سنداً فهى من الغرائب التى ساقها أبو مخنف - الرافضى الشيعى - مخالفاً فيها النصوص الصحيحة وما عرف من سير الصحابة رضى الله عنهم، فما ذكر أبو مخنف من قول عمر لصهيب: وقم على رؤوسهم - أى أهل الشورى - فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم وأبى اثنان، فاضرب رؤوسهما^(٥): فهذا قول منكر وكيف يقول عمر رضى الله عنه هذا وهو يعلم أنهم هم الصفوة من أصحاب رسول الله ﷺ، وهو الذى اختارهم لهذا الأمر لعلمه بفضلهم وقدرهم^(٦)، وقد ورد عن ابن سعد أن

(١) الطبقات، لابن سعد (٣/٣٦٤).

(٢) الطبقات لابن سعد (٣/٣٤٢).

(٣) مسلم (٣/١٤٨٠).

(٤، ٥) تاريخ الطبرى (٥/٢٦٦).

(٦) مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى، د. يحيى اليحى ص ١٧٥

عمر قال للأنصار: أدخلوهم بيتاً ثلاثة أيام فإن استقاموا وإلا فادخلوا عليهم فاضربوا أعناقهم^(١)، وهذه الرواية منقطعة وفي إسنادها (سماك بن حرب) وهو ضعيف وقد تغير بآخرة^(٢).

٥ - الحكم في حال الاختلاف:

لقد أوصى بأن يحضر عبد الله بن عمر معهم في المجلس وأن ليس له من الأمر شيء، ولكن قال لهم: فإن رضى ثلاثة رجلاً منهم وثلاثة رجلاً منهم فحكموا عبد الله ابن عمر فأى الفريقين حكم له، فليختاروا رجلاً منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله ابن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، ووصف عبد الرحمن بن عوف بأنه مسدد رشيد؛ فقال عنه: ونعم ذو الرأي عبد الرحمن بن عوف مسدد رشيد له من الله حافظ فاسمعوا منه^(٣).

٦ - جماعة من جنود الله تراقب الاختيار وتمنع الفوضى:

طلب عمر أبا طلحة الأنصاري وقال له: يا أبا طلحة إن الله - عز وجل - أعز الإسلام بكم فاختر خمسين رجلاً من الأنصار فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم^(٤)، وقال للمقداد بن الأسود: إذا وضحتوني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلاً منهم^(٥).

٧ - جواز تولية المفضل مع وجود الأفضل:

ومن فوائد قصة الشورى: جواز تولية المفضل مع وجود الأفضل، لأن عمر جعل الشورى في ستة أنفس مع علمه أن بعضهم كان أفضل من بعض، ويؤخذ هذا من سيرة عمر في أمراءه الذين كان يؤمرهم في البلاد حيث كان لا يراعى الفضل في الذين فقط، بل يضم إليه مزيد المعرفة بالسياسة مع اجتناب ما يخالف الشرع منها،

(١) الطبقات لابن سعد (٣/٣٤٢).

(٢) مزيديات أبي مخنف في تاريخ الطبري، ص ١٧٦.

(٣) تاريخ الطبري (٥/٣٢٥).

(٤، ٥) المصدر نفسه (٥/٢٢٥).

فاستخلف معاوية والمغيرة بن شعبة وعمر بن العاص مع وجود من هو أفضل من كل^١ منهم في أمر الدين والعلم، كأبي الدرداء في الشام وابن مسعود في الكوفة^(٢)

٨ - جمع عمر بين التعيين وعدمه:

جمع عمر بين التعيين، كما فعل أبو بكر - أى تعيين المرشح - وبين عدم التعيين كما فعل الرسول ﷺ، فعين ستة وطلب منهم التشاور في الأمر^(٣)

٩ - الشورى ليست بين الستة فقط:

عرف عمر أن الشورى لن تكون بين الستة فقط، وإنما ستكون في أخذ رأى الناس في المدينة، فيمن يتولى الخلافة، حيث جعل لهم أمد ثلاثة أيام فيمكنهم من المشاورة والمناظرة لتقع ولاية من يتولى بعده عن اتفاق من معظم الموجودين حيثئذ ببلده التى هى دار الهجرة، وبها معظم الصحابة وكل من كان ساكنًا في بلد غيرها كان تبعًا لهم فيما يتفقون عليه، فما زالت المدينة حتى سنة ٢٣هـ مجمع الصحابة؛ بل لأن كبار الصحابة فيها، حيث استبقاهم عمر بجانبه ولم يأذن لهم بالهجرة إلى الأقاليم المفتوحة^(٤)

١٠ - أهل الشورى أعلى هيئة سياسية:

إن عمر رضى الله عنه أناط بأهل الشورى وحدهم اختيار الخليفة من بينهم، ومن المهم أن نشير إلى أن أحدًا من أهل الشورى لم يعارض هذا القرار الذى اتخذه عمر، كما أن أحدًا من الصحابة الآخرين لم يثر أى اعتراض عليه، ذلك ما تدل عليه النصوص التى بين أيدينا، فنحن لا نعلم أن اقتراحًا آخر قد صدر عن أحد من الناس فى ذلك العصر، أو أن معارضة ثارت حول أمر عمر، خلال الساعات الأخيرة من حياته، أو بعد وفاته، وإنما رضى الناس كافة هذا التدبير، ورأوا فيه مصلحة لجماعة المسلمين، وفى وسعنا أن نقول إن عمر قد أحدث هيئة سياسية عليا، مهمتها انتخاب رئيس الدولة، أو الخليفة، وهذا التنظيم الدستورى الجديد، الذى أبدعته عبقرية عمر

(١) المدينة النبوية فجر الإسلام والمصر الراشدى (٩٧/٢).

(٢) المدينة النبوية فجر الإسلام والمصر الراشدى (٩٧/٢).

لا يتعارض مع المبادئ الأساسية التي أقرها الإسلام، ولا سيما فيما يتعلق بالشورى؛ لأن العبرة من حيث النتيجة للبيعة العامة التي تجرى في المسجد الجامع. وعلى هذا لا يتوجه السؤال الذي قد يرد على بعض الأذهان وهو: من أعطى عمر هذا الحق؟ ما هو مستند عمر في هذا التدبير؟ ويكفى أن نعلم أن جماعة المسلمين قد أقرت هذا التدبير، ورضيت به، ولم يسمع صوت اعتراض عليه، حتى نتأكد أن الإجماع - وهو من مصادر التشريع - قد انعقد على صحته ونفاذه^(١)، ولا ننسى أن عمر خليفة راشد، كما ينبغي أن نؤكد أن أهل الشورى أعلى هيئة سياسية قد أقره نظام الحكم في الإسلام في العهد الراشدي، كما أن الهيئة التي سماها عمر، تمتعت بمزايا لم يتمتع بها غيرها من جماعة المسلمين، وهذه المزايا منحت لها من الله، وبلغها الرسول؛ فلا يمكن عند المؤمنين أن يبلغ أحد من المسلمين مبلغ هؤلاء العشرة، من التقوى والأمانة^(٢).

هكذا ختم عمر رضى الله عنه حياته ولم يشغله ما نزل به من البلاء ولا سكرات الموت عن تدبير أمر المسلمين، وأرسى نظاماً صالحاً للشورى لم يسبقه إليه أحد، ولا يشك أن أصل الشورى مقرر في القرآن الكريم والسنة القولية والفعلية وقد عمل بها رسول الله ﷺ وأبو بكر ولم يكن عمر مبتدعاً بالنسبة للأصل، ولكن الذي عمله عمر هو تعيين الطريقة التي يختار بها الخليفة وحصر عدد معين جعلها فيهم، وهذا لم يفعله الرسول ﷺ ولا الصديق رضى الله عنه، بل أول من فعل ذلك عمر ونعم ما فعل فقد كانت أفضل الطرق المناسبة لحال الصحابة في ذلك الوقت^(٣).

ثانياً، وصية عمر رضى الله عنه للخليفة الذي بعده:

أوصى الفاروق عمر رضى الله عنه الخليفة الذي سيخلفه في قيادة الأمة بوصية مهمة قال فيها: أوصيك بتقوى الله وحده لا شريك له، وأوصيك بالمهاجرين الأولين

(١) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامى، لطايف القاسمى (١/ ٢٢٧، ٢٢٨).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٢٩).

(٣) أوليات الفاروق، ص ١٢٧.

خيرًا أن تعرف لهم سابقتهم، وأوصيك بالأنصار خيرًا، فاقبل من محسنهم، وتجاوز عن مسيئهم، وأوصيك بأهل الأمصار خيرًا، فإنهم ردة العدو، وجباة الفئء، لا تحمل منهم إلا عن فضل منهم وأوصيك بأهل البادية خيرًا، فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام، أن تأخذ من حواشي أموالهم فتزد على فقرائهم، وأوصيك بأهل الذمة خيرًا، أن تقاتل من وراءهم، ولا تكلفهم فوق طاقتهم إذا أدوا ما عليهم للمؤمنين طوعًا، أو عن يد وهم صاغرون، وأوصيك بتقوى الله، والحذر منه، ومخافة مقتته أن يطلع منك على ريبة، وأوصيك أن تخشى الله في الناس، ولا تخشى الناس في الله، وأوصيك بالعدل في الرعية، والتفرغ لحوادثهم وشفورك، ولا تؤثر غنيهم على فقيرهم، فإن في ذلك بإذن الله سلامة قلبك، وحطًا لوزرك، وخيرًا في عاقبة أمرك حتى تفضي في ذلك إلى من يعرف سريرتك ويحول بينك وبين قلبك، وأمر أن تشتد في أمر الله، وفي حدوده ومعاصيه على قريب الناس وبعيدهم، ثم لا تأخذك في أحد الرافة، حتى تنتهك منه مثل جرمه، واجعل الناس عندك سواء، لا تبال على من وجب الحق، ولا تأخذك في الله لومة لائم، وإياك والمحابة فيما ولاك الله مما أفاء على المؤمنين، فتجور وتظلم، وتحرم نفسك من ذلك ما قد وسعه الله عليك، وقد أصبحت بمنزلة من منازل الدنيا والآخرة، فإن اقترقت لدنياك عدلاً وعفة عما بسط لك اقترفت به إيمانًا ورضوانًا، وإن غلبك الهوى اقترفت به غضب الله، وأوصيك ألا ترخص لنفسك ولا لغيرك في ظلم أهل الذمة، وقد أوصيتك، وخصصتك ونصحتك فابتغ بذلك وجه الله والدار الآخرة، واخترت من دلائلك ما كنت دالاً عليه نفسى وولدى، فإن عملت بالذى وعظمتك، وانتهيت إلى الذى أمرتك أخذت منه نصيبًا وافراً وحطاً وافياً، وإن لم تقبل ذلك، ولم يهملك، ولم تترك معاضم الأمور عند الذى يرضى به الله عنك، يكن ذلك بك انتقاصاً، ورأيك فيه مدخولاً، لأن الأهواء مشتركة، ورأس الخطيئة إبليس داع إلى كل مهلكة، وقد أضل القرون السالفة قبلك، فأوردتهم النار وبئس المورود، وبئس الثمن أن يكون حظ امرئ موالة لعدو الله، الداعى إلى معاصيه، ثم اركب الحق، وخض إليه القمترات، وكن واعظاً لنفسك، وأناشدك الله إلا ترحمت على جماعة المسلمين، وأجللت كبيرهم، ورحمت

صغيرهم، ووقرت عالمهم، ولا تضر بهم فيدلوا، ولا تستأثر عليهم بالفى فتغضبهم، ولا تحرمهم عطايهم عند محلها فتفقرهم، ولا تجمرهم فى البعوث فينقطع نسلهم، ولا تجعل المال دولة بين الأغنياء منهم، ولا تغلق بابك دونهم، فيأكل قويمهم ضعيفهم هذه وصيتى إليك، وأشهد الله عليك، وأقرأ عليك السلام^(١).

هذه الوصية تدل على بعد نظر عمر فى مسائل الحكم والإدارة، ونفصح عن نهج ونظام حكم وإدارة متكامل، فقد تضمنت الوصية أموراً غاية فى الأهمية، فحق أن تكون وثيقة نفيسة، لما احتوته من قواعد ومبادئ أساسية للحكم متكاملة الجوانب الدينية والسياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية يأتى فى مقدمتها:

١ - الحرص على تقوى الله وخشيته:

أ - الوصية بالحرص الشديد على تقوى الله، والخشية منه فى السر والعلن فى القول والعمل؛ لأن من اتقى الله وقاه، ومن خشيه صانه وحماه (أوصيك بتقوى الله وحده لا شريك له) (وأوصيك بتقوى الله والحذر منه.. وأوصيك أن تخشى الله).

ب - إقامة حدود الله على القريب والبعيد (لا تبال على من وجب الحق) (ولا تأخذك فى الله لومة لائم) لأن حدود الله نصت عليها الشريعة فهى من الدين، ولأن الشريعة حجة على الناس، وأعمالهم وأفعالهم تقاس بمقتضاها، وأن التغافل عنها إفساد للدين والمجتمع.

ج - الاستقامة (استقم كما أمرت) وهى من الضرورات الدينية والدنيوية التى يجب على الحاكم التحلى بها قولاً وعملاً أولاً، ثم الرعية (كن واعظاً لنفسك) (وابنغ بذلك وجه الله والدار الآخرة).

٢ - الناحية السياسية وتضمنت:

أ - الالتزام بالعدل؛ لأنه أساس الحكم، ولأن إقامته بين الرعية، تحقق للحكم قوة وهيبة ومتانة سياسية واجتماعية، وتزيد من هيبته واحترام الحاكم فى نفوس الناس

(١) الطبقات لابن سعد (٣/٢٣٩). والبيان والتبيين للجاحظ (٢/٤٦). والكامل فى التاريخ (٢/٢١٠). والخليفة الفاروق عمر بن الخطاب، للعائى، ص ١٧١، ١٧٢.

(وأوصيك بالعدل) (واجعل الناس عندك سواء).

ب - العناية بالمسلمين الأوائل من المهاجرين والأنصار؛ لسابقتهم في الإسلام، ولأن العقيدة وما أفرزته من نظام سياسي، قام على أكتافهم، فهم أهل وحملته وحماته (أوصيك بالمهاجرين الأولين خيراً، أن تعرف لهم سابقتهم، وأوصيك بالأنصار خيراً، فاقبل من محسنهم وتجاوز عن سيئهم).

٣ - الناحية العسكرية، وتضمنت:

أ - الاهتمام بالجيش وإعداده إعداداً يتناسب وعظم المسؤولية الملقاة على عاتقه لضمان أمن الدولة وسلامتها، والعناية بسد حاجات المقاتلين (التفرغ لحوائجهم وثغورهم).

ب - تجنب إيقاع المقاتلين لمدة طويلة في الثغور بعيداً عن عوائلهم وتلافياً لما قد يسببه ذلك من ملل وقلق وهبوط في المعنويات، فمن الضروري منحهم إجازات معلومة في أوقات معلومة يستريحون فيها ويجددون نشاطهم خلالها من جهة، ويعودون إلا عوائلهم لكي لا ينقطع نسلهم من جهة ثانية (ولا تجرهم في الثغور فينقطع نسلهم) (وأوصيك بأهل الأمصار خيراً، فإنهم رده العدو).

ج - إعطاء كل مقاتل ما يستحقه من فيء وعطاء، وذلك لضمان مورد ثابت له ولعائلته يدفعه إلى الجهاد، ويصرف عنه التفكير في شئونه المالية (ولا تستأثر عليهم بالفيء فتغضبهم ولا تحرمهم عطاياهم عند محلها فتفقرهم).

٤ - الناحية الاقتصادية والمالية، وتضمنت:

أ - العناية بتوزيع الأموال بين الناس بالعدل والقسطاس المستقيم، وتلافى كل ما من شأنه تجميع الأموال عند طبقة منهم دون أخرى (ولا تجعل الأموال دولة بين الأغنياء منهم).

ب - عدم تكليف أهل الذمة فوق طاقتهم إن هم أدوا ما عليهم من التزامات مالية للدولة (ولا تكلفهم فوق طاقتهم إذا أدوا ما عليهم للمؤمنين).

ج - ضمان الحقوق المالية للناس وعدم التفريط بها، وتجنب فرض ما لا طاقة لهم به (ولا تحمل منهم إلا عن فضل منهم) (أن تأخذ حواشى أموالهم فتد على فقرائهم)^(١).

هـ - الناحية الاجتماعية، وتضمنت:

أ - الاهتمام بالرعية، والعمل على تفقد أمورهم وسد احتياجاتهم وإعطاء حقوقهم من فء وعطاء (ولا تحرمهم عطاياهم عند محلها).

ب - اجتناب الأثرة والمحابة واتباع الهوى، لما فيها من أخطار تقود إلى انحراف الراعى، وتؤدى إلى فساد المجتمع واضطراب علاقاته الإنسانية (وإياك والأثرة والمحابة فيما ولاك الله) (ولا تؤثر غنيهم على فقيرهم).

ج - احترام الرعية وتوقيرها والتواضع لها، صغيرها وكبيرها، لما فى ذلك من سمو فى العلاقات الاجتماعية، تؤدى إلى زيادة تلاحم الرعية بقائدها وحبها له (وأناشدك الله إلا ترحمت على جماعة المسلمين، وأجللت كبيرهم ورحمت صغيرهم ووقرت عالمهم).

د - الانفتاح على الرعية، وذلك بسماع شكاواهم وإنصاف بعضهم من بعض وبعكسه تضطرب العلاقات بينهم ويعم الارتباك فى المجتمع (ولا تغلق بابك دونهم، فياكل قلوبهم ضعيفهم).

هـ - اتباع الحق، والحرص على تحقيقه فى المجتمع وفى كل الظروف، والأحوال، لكونه ضرورة اجتماعية لا بد من تحقيقها بين الناس، (ثم اركب الحق، وخض إليه الغمرات) (واجعل الناس عندك سواء، لا تبال على من وجب الحق).

و - اجتناب الظلم بكل صوره وأشكاله، خاصة مع أهل الذمة؛ لأن العدل مطلوب إقامته بين جميع رعايا الدولة مسلمين وذميين، لينعم الجميع بعدل الإسلام (وأوصيك ألا ترخص لنفسك ولا لغيرك فى ظلم أهل الذمة).

(١) الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب، للعاني، ص ١٧٤ - ١٧٥.

ز - الاهتمام بأهل البادية ورعايتهم والعناية بهم (وأوصيك بأهل البادية خيراً، فإنهم أصل العرب، ومادة الإسلام) ^(١).

ح - وكان من ضمن وصية عمر لمن بعده: ألا يُقرَّ لى عاملٌ أكثر من سنة، وأقروا الأشعرى أربع سنين ^(٢).

ثالثاً: منهج عبد الرحمن بن عوف في إدارة الشورى:

١ - اجتماع الرهط للمشاورة:

لم يكد يفرغ الناس فمن دفن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حتى أسرع رهط الشورى وأعضاء مجلس الدولة الأعلى إلى الاجتماع في بيت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها، وقيل إنهم اجتمعوا في بيت فاطمة بنت قيس الفهرية أخت الضحاك بن قيس؛ ليقضوا في أعظم قضية عرضت في حياة المسلمين - بعد وفاة عمر - وقد تكلم القوم وبسطوا آراءهم واهتدوا بتوفيق الله إلى كلمة سواء رضىها الخاصة والكافة من المسلمين ^(٣).

٢ - عبد الرحمن يدعو إلى التنازل:

عندما اجتمع أهل الشورى قال لهم عبد الرحمن بن عوف: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم. فقال الزبير: جعلت أمري إلى عليّ. وقال طلحة: جعلت أمري إلى عثمان. وقال سعد: جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف. وأصبح المرشحون الثلاثة على بن أبى طالب، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف. فقال عبد الرحمن: أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه والله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم في نفسه، فأسكت الشيخان: فقال عبد الرحمن بن عوف: أفتجعلونه إلى الله عليّ أن لا آلو غن أفضلكما؟ قالوا: نعم ^(٤).

(١) الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب، للعاني، ص ١٧٣ - ١٧٥.

(٢) عصر الخلافة الراشدة، ص ١٠٢.

(٣) عثمان بن عفان رضى الله عنه، لصادق عرجون، ص ٦٢، ٦٣.

(٤) البخارى، كتاب فضائل أصحاب النبى ﷺ رقم ٣٧٠٠.

٣ - تفويض ابن عوف بإدارة عملية الشورى:

بدأ عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه اتصالاته ومشاوراته فور انتهاء اجتماع المرشحين الستة صباح يوم الأحد، واستمرت مشاوراته واتصالاته ثلاثة أيام كاملة، حتى فجر يوم الأربعاء الرابع من المحرم، وهو موعد انتهاء المهلة التى حددتها لهم عمر، وبدأ عبد الرحمن بعلى بن أبى طالب، فقال له: إن لم أبايعك فأشر على، فمن ترشح للخلافة؟ قال على: عثمان بن عفان، وذهب عبد الرحمن إلى عثمان وقال له: إن لم أبايعك، فمن ترشح للخلافة؟ فقال عثمان: على بن أبى طالب... وذهب ابن عوف بعد ذلك إلى الصحابة الآخرين واستشارهم، وكان يشاور كل من يلقاه فى المدينة من كبار الصحابة وأشرافهم، ومن أمراء الأجناد، ومن يأتى للمدينة وشملت مشاورته النساء فى خدورهن، وقد أبدى رأيهن، كما شملت الصبيان والعبيد فى المدينة، وكانت نتيجة مشاورات عبد الرحمن بن عوف، أن معظم المسلمين كانوا يشيرون بعثمان بن عفان، ومنهم من كان يشير بعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما، وفى منتصف ليلة الأربعاء، ذهب عبد الرحمن بن عوف إلى بيت ابن أخته: المسور بن مخرمة، فطرق البيت، فوجد المسور نائماً^(١)، فضرب الباب حتى استيقظ فقال: أراك نائماً فوالله ما اكتحلت هذه الليلة بكبير نوم، انطلق فادع الزبير وسعدك فدعوتهما له: فشاورهما ثم دعانى فقال: ادع لى علياً فدعوته فتاجاه حتى ابهار^(٢) الليل ثم قام على من عنده... ثم قال: ادع لى عثمان فدعوته فتاجاه حتى فرق بينهما المؤذن بالصبح^(٣).

٤ - الاتفاق على بيعة عثمان:

وبعد صلاة صبح يوم البيعة (اليوم الأخير من شهر ذى الحجة ٢٣ هـ / ٦ نوفمبر ٦٤٤) وكان صهيب الرومى الإمام إذ أقبل عبد الرحمن بن عوف، وقد اعتم بالعمامة

(١) الخلفاء الراشدون، للخالدى، ص ١٠٦، ١٠٧.

(٢) ابهار: أى انتصف.

(٣) البخارى، كتاب الأحكام رقم ٧٢٠٧.

التي عممه بها رسول الله ﷺ؛ وكان قد اجتمع رجال الشورى عند المنبر، فأرسل إلى من كان حاضراً من المهاجرين والأنصار وأمراء الأجناد، منهم: معاوية أمير الشام، وعمير بن سعد أمير حمص، وعمرو بن العاص أمير مصر، وكانوا وافوا تلك الحجّة مع عمر وصاحبه إلى المدينة^(١).

وجاء في رواية البخاري: «... فلما صلى للناس الصبح، واجتمع أولئك الرهط عند المنبر، فأرسل إلى من كان حاضراً من المهاجرين والأنصار، وأرسل إلى أمراء الأجناد وكانوا وافوا تلك الحجّة مع عمر، فلما اجتمعوا تشهد عبد الرحمن ثم قال: أما بعد يا عليّ إني قد نظرت في أمر الناس، فلم أرهم يعدلون بعثمان، فلا تجعل على نفسك سبيلاً. فقال^(٢): أبايعك على سنة الله ورسوله والخليفتين من بعده، فبايعه الناس المهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد والمسلمون^(٣). وجاء في رواية صاحب التمهيد والبيان أن علي بن أبي طالب أول من بايع بعد عبد الرحمن بن عوف^(٤).

٥ - حكمة عبد الرحمن بن عوف في تنفيذ خطة الشورى:

نفذ عبد الرحمن بن عوف خطة الشورى بما دل على شرف عقله، ونبل نفسه، وإيثاره مصلحة المسلمين العامة على مصلحته الخاصة ونفعه الفردي، وترك عن طواعية ورضاً أعظم منصب يطمح إليه إنسان في الدنيا، ليجمع كلمة المسلمين؛ وحقق أول مظهر من مظاهر الشورى المنظمة في اختيار من يجلس على عرش الخلافة ويسوس أمور المسلمين؛ فهو قد اصطنع من الأناة والصبر والحزم وحسن التدبير ما كفّل له النجاح في أداء مهمته العظمى، وقد كانت الخطوات التي اتخذها كالآتي:

أ - بسط برنامج في أول جلسة عقدها مجلس الشورى في دائرة الزمن الذي حدده لهم عمر؛ وبذلك أمكنه أن يحمل جميع أعضاء مجلس الشورى على أن يدلّوا

(١) شهيد الدار، ص ٣٧.

(٢) قوله: فقال: «أى عبد الرحمن مخاطباً عثمان».

(٣) البخاري، كتاب الأحكام، رقم (٧٢٠٧).

(٤) التمهيد والبيان، (ص ٢٦).

برأيهم؛ فعرف مذهب كل واحد منهم ومروءة، فسار في طريقه على بيّنة من أمره.
ب - وخلع نفسه وتنازل عن حقه في الخلافة ليدفع الظنون ويستمسك بعروة الثقة الوثقى.

ج - أخذ في تعرف نهاية ما يصبو إليه كل واحد من أصحابه وشركائه في الشورى، فلم يزل يقلب وجوه الرأى معهم حتى انتهى إلى شبه انتخاب جزئى، فاز فيه عثمان برأى سعد بن أبى وقاص، ورأى الزبير بن العوام، فلاحته له أغلبية آراء الأعضاء الحاضرين معه.

د - عمد إلى معرفة كل واحد من الإمامين: عثمان، وعلى في صاحبه بالنسبة إلى وزنه من سائر الرهط الذين رشحهم عمر، فعرف من كل واحد منهما أنه لا يعدل صاحبه أحداً إذا فاته الأمر.

و - أخذ في تعرف رأى من وراء مجلس الشورى خاصة الأمة وذوى رأيها، ثم من عامتها وضعفائها، فرأى أن معظم الناس لا يعدلون أحداً بعثمان، فبايع له، وبايعه عامة الناس (١).

لقد تمكن عبد الرحمن بن عوف بكيافته وأمانته واستقامته ونسيانه نفسه بالتخلي عن الطمع في الخلافة والزهد بأعلى منصب في الدولة، أن يجتاز هذه المحنة، وقاد ركب الشورى بمهارة وتجرد، مما يستحق أعظم تقدير (٢).

قال الذهبي: ومن أفضل أعمال عبد الرحمن عزله نفسه من الأمر وقت الشورى، واختياره للأمة من أشار به أهل الحل والعقد، فنهض في ذلك أتم نهوض على جمع الأمة على عثمان، ولو كان محايياً فيها، لأخذها لنفسه، أو لولأها ابن عمه وأقرب الجماعة إليه سعد بن أبى وقاص (٣).

(١) عثمان بن عفان رضى الله عنه، لصديق عرجون، ص ٧٠، ٧١.

(٢) مجلة البحوث الإسلامية العدد ١٠، ص ٢٥٥.

(٣) سير أعلام النبلاء (١/٨٦).

وبهذا تحققت صورة أخرى من صور الشورى في عهد الخلفاء الراشدين: وهي الاستخلاف عن طريق مجلس الشورى ليعينوا أحدهم بعد أخذ المشورة العامة، ثم البيعة العامة^(١).

رابعاً، أباطيل رافضية دست في قصة الشورى،

هناك أباطيل شيعية وأكاذيب رافضية دست في التاريخ الإسلامي منها في قصة الشورى وتولية عثمان الخلافة، وقد تلفقها المستشرقون وقاموا بتوسيع نشرها، وتأثر بها الكثير من المؤرخين والمفكرين المحدثين، ولم يمحصوا الروايات ويحققوا في سندها وممتها، فانتشرت بين المسلمين.

لقد اهتم مؤرخو الشيعة الرافضة بقصة الشورى وتولية عثمان بن عفان الخلافة ودسوا فيها الأباطيل والأكاذيب، وألف جماعة منهم كتباً خاصة، فقد ألف أبو مخنف كتاب الشورى، وكذلك ابن عقدة، وابن بابويه^(٢)، ونقل ابن سعد تسع روايات من طريق الواقدي في خبر الشورى وبيعة عثمان وتاريخ توليه للخلافة^(٣)، ورواية من طريق عبيد الله بن موسى تضمنت مقتل عمر وحصره للشورى في السنة ووصيته لكل من على وعثمان إذا تولى أحدهما أمر الخلافة، ووصيته لصهيب في هذا الأمر^(٤).

وقد نقل البلاذري خبر الشورى وبيعة عثمان عن أبي مخنف^(٥)، وعن هشام الكلبي منها ما نقله عن أبي مخنف ومنها تفرد به^(٦)، وعن الواقدي^(٧)، وعن عبيد الله بن موسى^(٨)، واعتمد الطبري في هذه القصة على عدة روايات منها رواية أبي مخنف^(٩)،

(١) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٢٧٨.

(٢) الذريعة إلى تصانيف الشيعة (١٤/٢٤٦).

(٣) الطبقات الكبرى (٣/٦٣)، (٣/٦٧).

(٤) المصدر السابق (٣/٣٤٠).

(٥ - ٧) أنساب الأشراف (٥/١٨، ١٩).

(٨) المصدر السابق (٥/٦).

(٩) أثر التشيع على الروايات التاريخية، د. عبد العزيز نور، ص ٣٢١ وهو العملة في هذه الفقرة:

ونقل ابن أبي الحديد بعض أحداث قصة الشورى من طريق أحمد بن عبد العزيز الجوهري^(١)، وأشار إلى نقله عن كتاب (الشورى) للواقدي^(٢)، وقد تضمنت الروايات الشيعية عدة أمور مدسوسة ليس لها دليل من الصحة، وهي:

١ - اتهام الصحابة بالمحاباة في أمر المسلمين:

اتهمت الروايات الشيعية الصحابة بالمحاباة في أمر المسلمين، وعدم رضا على بأن يقوم عبد الرحمن باختيار الخليفة، فقد ورد عند أبي مخنف وهشام الكلبي عن أبيه وأحمد الجوهري أن عمر جعل ترجيح الكفتين إذا تساوتا بعبد الرحمن بن عوف، وأن علياً أحس بأن الخلافة ذهبت منه؛ لأن عبد الرحمن سيقدم عثمان للمصاهرة التي بينهما^(٣)، وقد نفى ابن تيمية أي ارتباط في النسب القريب بين عثمان وعبد الرحمن فقال: فإن عبد الرحمن ليس أخاً لعثمان ولا ابن عمه ولا من قبيلته أصلاً، بل هذا من بني زهرة وهذا من بني أمية، وينو زهرة إلى بني هاشم أكثر ميلاً منهم إلى بني أمية، فإن بني زهرة أحوال النبي ﷺ، ومنهم عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص الذي قال له النبي ﷺ: هذا خالي، فليرنى امرؤ خاله^(٤)، فإن النبي ﷺ لم يواخ بين مهاجري ومهاجري، ولا بين أنصاري وأنصاري، وإنما آخى بين المهاجرين والأنصار فأخى بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع الأنصاري^(٥)، وحديثه مشهور ثابت في الصحاح وغيرها، يعرفه أهل العلم بذلك^(٦)، وقد بنت الروايات الشيعية محاباة عبد الرحمن لعثمان للمصاهرة التي كانت بينهما، متعاسية أن قوة النسب أقوى من المصاهرة من جهة، ومن جهة أخرى تناسوا طبيعة العلاقة بين المؤمنين في الجيل الأول وأنها لا تقوم على نسب ولا مصاهرة، وأما كيفية

(١) شرح نهج البلاغة (٤٩/٩، ٥٠، ٥٨).

(٢) المصدر السابق (١٥/٩).

(٣) أثر التشيع على الروايات التاريخية، ص ٣٢٢.

(٤) صحيح سنن الترمذي (٢٢٠/٣) رقم ٤٠١٨.

(٥) البخاري، كتاب مناقب الأنصار رقم ٣٧٨٠.

(٦) منهاج السنة النبوية (٢٧١/٦ - ٢٧٢).

المصاهرة التي كانت بين عبد الرحمن وعثمان فهي أن عبد الرحمن تزوج أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط أخت الوليد^(١).

٢ - حزب أموى وحزب هاشمى:

أشارت رواية أبى مخنف إلى وقوع مشادة بين بنى هاشم وبنى أمية أثناء المباحة وهذا غير صحيح، ولم يرد ذلك برواية صحيحة ولا ضعيفة^(٢)، وقد انساق بعض المؤرخين خلف الروايات الشيعية الرافضية وبنوا تحليلاتهم الخاطئة على تلك الروايات فصوروا تشاور أصحاب الرسول ﷺ في تحديد الخليفة الجديد بصورة الخلاف العشائرى وأن الناس قد انقسموا إلى حزبين حزب أموى وحزب هاشمى، وهو تصور موهوم واستتاج مردود لا دليل عليه، إذ إنه ليس نابغاً من ذلك الجو الذى كان يعيشه أصحاب رسول الله حينما كان يقف المهاجرى مع الانتصارى ضد أبيه وأخيه وابن عمه وبنى عشيرته، وليس نابغاً من تصور هؤلاء الصحب وهم يضحون بكل شيء من حطام الدنيا فى سبيل أن يسلم لهم دينهم، ولا من المعرفة الصحيحة لهؤلاء النخبة من المبشرين بالجنة، فالأحداث الكثيرة التى رويت عن هؤلاء تثبت أن هؤلاء كانوا أكبر بكثير من أن ينطلقوا من هذه الزاوية الضيقة فى معالجة أمورهم فليست القضية قضية تمثيل عائلى أو عشائرى، فهم أهل شورى لمكانتهم فى الإسلام^(٣).

٣ - أقوال نسبت زوراً أو بهتاناً لعلى رضى الله عنه:

قال ابن كثير: وما يذكره كثير من المؤرخين كابن جرير وغيره عن رجال لا يعرفون أن علياً قال لعبد الرحمن خدعتنى، وإنك إنما وليته لأنه صهرى وليشاورك كل يوم فى شأنه، وأنه تلكا حتى قال عبد الرحمن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْبَعُونَكَ إِنَّمَا يَأْبَعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُورٌ بِهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفج: ١٠]، إلى غير ذلك من الأخبار المخالفة بما ثبت فى الصحاح فهي

(١) الطبقات الكبرى (٣/١٢٧).

(٢) مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى، ص ١٧٧، ١٧٨.

(٣) الخلفاء الراشدون، أمين القضاة، ص ٧٨، ٧٩.

مردودة على قائلها وناقليها والله أعلم، والمظنون من الصحابة خلاف ما يتوهم كثير من الرافضة وأغبياء القصاص الذين لا تميز عندهم بين صحيح الأخبار وضعيفها ومستقيمها وسقيمها ومبادهها وقريمها، والله الموفق للصواب^(١).

٤ - اتهام عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة:

وقد ذكر أبو مخنف في روايته في قضية الشورى عن عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة أنهما جلسا عند الباب، ورد سعد عليهما، فهذا يستغرب من رعاي الناس فضلاً عن الصحابة الكرام، وكيف يقول سعد لهما: تريدان أن تقولاً: حضرنا وكنا من أهل الشورى. وقد علم الناس أهل الشورى بأعيانهم واستفاض ذلك عندهم. وفي الحقيقة أن رواية أبي مخنف يناقض بعضها بعضاً وهي واضحة لمن تدبرها وقارنها بالأصول الصحيحة، وغرائبها أشهر من ذكرها، وقد أشار الدكتور يحيى الياحي إلى غاذج وأمثلة تكفي لإسقاط هذه الرواية وعدم الاعتبار بها^(٢). هذه بعض الإشارات العابرة ذكرتها للتنبيه والتحذير من تلك السموم المبتوثة في تراثنا التاريخي، والموروث الثقافي للأمة، فقد أثرت في رجال الفكر والقلم والتاريخ.

خامساً: أحقية خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه:

لا يشك مؤمن في أحقية خلافة عثمان رضى الله عنه وصحتها، وأنه لا مطعن فيها لأحد إلا ممن أصيب قلبه بزيغ، فنقم على أصحاب رسول الله ﷺ بسبب ما حل في قلبه من الغيظ منهم، وهذا لم يحصل إلا من الشيعة الرافضة الذين جعلوا رأس مالهم في هذه الحياة الدنيا هو سب الصحابة رضى الله عنهم وبغضهم، ولا قيمة لما يوجهونه من المطاعن على خلافة الثلاثة رضى الله عنهم لظهور بطلانها وأنها اقتراءات لا تصح، وقد جاء في جملة من النصوص القطعية الصحيحة والآثار الشهيرة التنبيه والإيماء إلى أحقية خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه، ومن ذلك^(٣):

(١) البداية والنهاية (١٥٢/٧).

(٢) مرويات أبي مخنف، ص ١٧٩.

(٣) عقيدة أهل السنة في الصحابة (٢/٦٥٦).

١ - قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]. وجه الاستدلال بهذه الآية على أحقية خلافة عثمان رضى الله عنه أنه من الذين استخلفهم الله في الأرض ومكن لهم فيها، وسار في الناس أيام خلافته سيرة حسنة؛ حيث حكم فيهم بالعدل وأقام الصلاة وآتى الزكاة وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، فهذه الآية تضمنت الإشارة إلى أحقية خلافته رضى الله عنه^(١).

٢ - قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُخْلَفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلَمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [التتخ: ١٦]. وجه الاستدلال بهذه الآية على أحقية خلافة عثمان رضى الله عنه هو أن الداعى لهؤلاء الأعرب داع يدعوهم بعد نبىه ﷺ وهو أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم، فأبو بكر دعاهم إلى قتال الروم والفرس والترك فوجبت طاعة هؤلاء الثلاثة رضى الله عنهم بنص القرآن، وإذا وجبت طاعتهم صحت خلافتهم، رضى الله عنهم وأرضاهم^(٢).

٣ - عن أبى موسى رضى الله عنه قال: إن النبى ﷺ دخل حائطا وأمرنى بحفظ باب الحائط، فجاء رجل يستأذن فقال: ائذن له ويشره بالجنة فإذا هو أبو بكر، ثم جاء آخر يستأذن فقال: ائذن له ويشره بالجنة، فإذا عمر، ثم جاء آخر يستأذن فقال: ائذن له ويشره بالجنة على بلوى تصيبه فإذا هو عثمان بن عفان^(٣). هذا الحديث فيه إشارة إلى ترتيب الثلاثة فى الخلافة، وإخبار عن بلوى تصيب عثمان، وهذه البلوى حصلت له رضى الله عنه وهى حصاره يوم الدار حتى قتل آنذاك مظلوماً، فالحديث علم من أعلام النبوة وفيه الإشارة إلى كونه شهيداً رضى الله عنه وأرضاه^(٤).

(١) عقيدة أهل السنة فى الصحابة (٢/ ٦٥٦).

(٢) الفصل فى الملل والأهواء والنحل (٤/ ١٠٩ - ١١٠).

(٣) البخارى رقم ٣٦٩٥.

(٤) عقيدة أهل السنة والجماعة فى الصحابة (٢/ ٦٥٧).

٤ - روى أبو داود - رحمه الله - بإسناده إلى جابر بن عبد الله أنه كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال: رأى الليلة رجل صالح أن أبا بكر نيط برسول الله، ونيط عمر بأبي بكر، ونيط عثمان بعمر، قال جابر: فلما قمنا من عند رسول الله ﷺ قلنا: أما الرجل الصالح فرسول الله ﷺ، وأما تنوط بعضهم ببعض فهم ولاه هذا الأمر الذى بعث الله به نبيه ﷺ^(١).

٥ - وروى أبو عبد الله الحاكم بإسناده إلى أبي هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنها ستكون فتنة واختلاف أو اختلاف وفتنة. قال: قلنا يا رسول الله: فما تأمرنا؟ قال: عليكم بالأمين وأصحابه وأشار إلى عثمان^(٢). وهذا الحديث فيه معجزة ظاهرة للنبي ﷺ الدالة على صدق نبوته؛ حيث أخبر بالفتنة التى حصلت أيام خلافة عثمان وكانت كما أخبر، كما تضمن الحديث التنبيه على أحقية خلافة عثمان، إذ إنه ﷺ أرشد الناس إلى أن يلزموه، وأخبر بأنه حين وقوع الفتنة والاختلاف فالحق مع أمير المؤمنين، وأمرهم بالالتفاف حوله وملازمته، لكونه على الحق، والخارجون عليه على الباطل أهل زيغ وهوى، وقد شهد له الرسول ﷺ بأنه سيكون مستمراً على الهدى لا ينفك عنه^(٣).

٦ - روى أبو عيسى الترمذى بإسناده إلى عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال: يا عثمان إنه لعل الله يقمصك قميصاً فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه لهم^(٤). ففى هذا الحديث الإشارة إلى الخلافة واستعارة القميص لها وذكر الخلع ترشيح، أى: سيجعلك الله خليفة، فإن قصد الناس عزلك، فلا تعزل نفسك عنها لأجلهم لكونك على الحق، وكونهم على الباطل^(٥).

٧ - وروى الترمذى بإسناده إلى أبي سهلة قال: قال لى عثمان يوم الدار: إن

(١) سنن أبي داود (٥١٣/٢).

(٢) المستدرک (٩٩/٣) ثم قال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٣) عقيدة أهل السنة والجماعة فى الصحابة (٢/٦٦٠).

(٤) فضائل الصحابة (١/٦١٣) إسناده صحيح.

(٥) الدين الخالص (٢/٤٤٦).

رسول الله ﷺ قد عهد إلى عهداً فأنا صابر عليه (١). فقله: قد عهد إلى عهداً، أى: أوصاني أن لا أخلع بقله: وإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه لهم، فأنا صابر عليه، أى: على ذلك العهد (٢).

٨ - وروى أبو عبد الله الحاكم بإسناده إلى أبي سهلة مولى عثمان عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: ادعوا لى - أو ليت عندى - رجلاً من أصحابى. قالت: قلت: أبو بكر. قال: لا. قلت: عمر. قال: لا. قلت: ابن عمك على. قال: لا. قلت: فعثمان: قال: نعم. قالت: فجاء عثمان فقال: قومى. قال: فجعل النبي ﷺ يسر إلى عثمان ولون عثمان يتغير. قال: فلما كان يوم الدار قلنا: ألا نقاتل؟ قال: لا، إن رسول الله ﷺ عهد إلى أمرأ فأنا صابر نفسى عليه (٣).

فهذا الحديث والذي قبله فيهما دلالة على صحة خلافته، فمن أنكر خلافته ولم يره من أهل الجنة والشهداء وأساء الأدب فيه باللسان أو الجنان، فهو خارج عن دائرة الإيمان وحيز الإسلام (٤).

٩ - ومما دل على صحة خلافته وإمامته ما رواه البخارى بإسناده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: كنا فى زمن النبي ﷺ لا نعدل بأبى بكر أحدًا، ثم عمر، ثم عثمان، ثم ترك أصحاب النبي ﷺ لا تفاضل بينهم (٥)، وفى هذا إشارة إلى أن الله - تعالى - ألهمهم والقى فى روعهم ما كان صانعهم بعد نبيه ﷺ من أمر ترتيب الخلافة (٦).

قال ابن تيمية: فهذا إخبار عما كان عليه الصحابة على عهد النبي ﷺ من تفضيل

(١) فضائل الصحابة (٦٠٥/١) إسناده صحيح. والترمذى (٢٩٥/٥).

(٢) تحفة الأحوذى (٢٠٩/١٠).

(٣) فضائل الصحابة (٦٠٥/١)، إسناده صحيح، والمستدرك (٩٩/٣) حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٤) الدين الخالص (٤٤٦/٣).

(٥) البخارى، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ رقم ٣٦٩٨.

(٦) عقيدة أهل السنة (٦٦٤/٢).

أبى بكر، ثم عمر، ثم عثمان، وقد روى أن ذلك كان يبلغ النبى ﷺ فلا ينكره، وحيثئذ فيكون هذا التفضيل ثابتاً بالنص، وإلا فيكون ثابتاً بما ظهر بين المهاجرين والأنصار على عهد النبى ﷺ من غير نكير، وبما ظهر لما توفى عمر فأنهم كلهم بايعوا عثمان بن عفان من غير رغبة ولا رهبة ولم ينكر هذه الولاية منكر منهم^(١).

وكل ما تقدم ذكره من النصوص فى هذه الفقرة أدلة قوية كلها فيها الإشارة والتنبيه إلى أحقية خلافة عثمان رضى الله عنه، وأنه لا مزية فى ذلك ولا نزاع عند المتمسكين بالكتاب والسنة والذين هم أسعد الناس بالعمل بهما وهم أهل السنة والجماعة، فيجب على كل مسلم أن يعتقد أحقية عثمان رضى الله عنه وأن يسلم تسليماً كاملاً للنصوص الدالة على ذلك^(٢).

سادساً: انعقاد الإجماع على خلافة عثمان:

أجمع أصحاب رسول الله ﷺ وكذا من جاء بعدهم عن سلك سبيلهم من أهل السنة والجماعة على أن عثمان بن عفان رضى الله عنه أحق الناس بخلافة النبوة بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ولم يخالف أو يعارض فى هذا أحد بل الجميع سلم له بذلك لكونه أفضل خلق الله على الإطلاق بعد الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما، وقد نقل الإجماع على أحقية عثمان رضى الله عنه بالخلافة بعد عمر رضى الله عنه طائفة من أهل العلم بالحديث وغيرهم، ومن تلك النقول^(٣):

١ - ما رواه ابن أبى شيبه بإسناده إلى حارثة بن مضرب، قال: حججت فى إمارة عمر، فلم يكونوا يشكون أن الخلافة من بعده لعثمان^(٤).

٢ - وروى أبو نعيم الأصبهاني بإسناده إلى حذيفة رضى الله عنه قال: إني لواقف مع عمر تمس ركبتي ركبته فقال: من ترى قومك يؤمرون؟ قال: إن الناس قد أسندوا

(١) منهاج السنة (٣/١٦٥).

(٢) عقيدة أهل السنة (٢/٦٦٤).

(٣) المصدر نفسه (٢/٦٦٥).

(٤) المصنف (١٤/٥٨٨).

أمرهم إلى ابن عفان^(١).

٣ - ونقل الحافظ الذهبي عن شريك بن عبد الله القاضي أنه قال: قبض النبي ﷺ فاستخلف المسلمون أبا بكر فلو علموا أن فيهم أحداً أفضل منه كانوا قد غشوا، ثم استخلف أبو بكر عمر فقام بما قام به من الحق والعدل، فلما احتضر جعل الأمر شورى بين ستة، فاجتمعوا على عثمان، فلو علموا أن فيهم أفضل منه كانوا قد غشونا^(٢).

فهذه النقول فيها بيان واضح في أن أصحاب النبي ﷺ قد اشتهر بينهم أولوية عثمان بالخلافة، وما زال عمر بن الخطاب رضى الله عنه حياً لما سبق من علمهم بعض النصوص المشيرة إلى أن تربيته سيكون في خلافة النبوة بعد الفاروق رضى الله عنه ولعلمهم أنه أفضل الناس على الإطلاق بعد أبي بكر وعمر رضى الله عنهما^(٣).

٤ - روى ابن سعد بإسناده إلى النزال بن سبرة رضى الله عنه قال؛ قال عبد الله بن مسعود حين استخلف عثمان: استخلفنا خير من بقى ولم نأله - أى لم نقصر في اختيار الأفضل - وفي رواية أخرى قال: أمرنا خير من بقى ولم نأل^(٤).

٥ - وقال الحسن بن محمد الزعفراني: سمعت الشافعي يقول: أجمع الناس على خلافة أبي بكر واستخلف أبو بكر عمر، ثم جعل الشورى إلى ستة على أن يولوها واحداً فولوها عثمان رضى الله عنهم أجمعين^(٥)، وقد نقل أبو حامد محمد المقدسي كلاماً عزاه للإمام الشافعي - رحمه الله - أنه قال: واعلموا أن الإمام الحق بعد عمر رضى الله عنه عثمان رضى الله عنه بجعل أهل الشورى اختيار الإمامة إلى عبد الرحمن بن عوف واختياره لعثمان رضى الله عنه، وإجماع الصحابة رضى الله عنهم وصوبوا رأيه فيما فعله، وأقام الناس على محجة الحق وبسط العدل إلى أن

(١) كتاب الإمامة والرد على الرافضة، ص ٣٠٦.

(٢) ميزان الاعتدال (٢/٢٧٣).

(٣) عقيدة أهل السنة (٢/٦٦٦).

(٤) الطبقات الكبرى (٣/٦٣).

(٥) مناقب الشافعي، للبيهقي (١/٤٣٤، ٤٣٥).

استشهد رضي الله عنه^(١).

٦ - وذكر ابن تيمية عن الإمام أحمد أنه قال: لم يجتمعوا على بيعة أحد ما اجتمعوا على بيعة عثمان^(٢).

٧ - وقال أبو الحسن الأشعري: وثبتت إمامة عثمان رضي الله عنه بعد عمر بعقد من عقد له الإمامة من أصحاب الشورى الذين نص عليهم عمر فاختروه ورضوا بإمامته وأجمعوا على فضله وعدله^(٣).

٨ - وقال عثمان الصابوني مبيّناً عقيدة السلف وأصحاب الحديث في ترتيب الخلافة بعد أن ذكر أنهم يقولون أولاً بخلافة الصديق ثم عمر قال: ثم خلافة عثمان رضي الله عنه بإجماع أهل الشورى وإجماع الأصحاب كافة ورضاهم به حتى جعل الأمر إليه^(٤).

٩ - وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمة الله تعالى عليه وعلى جميع العلماء المصلحين -: وجميع المسلمين بايعوا عثمان بن عفان لم يتخلف عن بيعته أحد... فلما بايعه ذوو الشوكة والقدرة صار إماماً، وإلا فلو قدر أن عبد الرحمن بايعه ولم يبايعه على ولا غيره من الصحابة أهل الشوكة لم يصير إماماً، ولكن عمر لما جعلها شورى في ستة: عثمان وعلى وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف، ثم إنه خرج طلحة والزبير وسعد باختيارهم وبقي عثمان وعلى وعبد الرحمن لا يتولى ويولى أحد الرجلين، وأقام عبد الرحمن ثلاثاً حلف أنه لم يغمض فيها بكبير نوم يشاور السابقين الأولين والتابعين لهم بإحسان يشاور أمراء الأجناد، وكانوا قد حجوا مع عمر ذلك العام، فأشار عليه المسلمون بولاية عثمان وذكر أنهم كلهم قدموا عثمان فبايعوه لا عن رغبة أعطاهم إياها ولا عن رهبة أخافهم بها، ولهذا قال غير واحد من السلف والأئمة كأبيوب السخيتاني وأحمد بن حنبل والدارقطني وغيرهم: من قدم علياً

(١) الرد على الرافضة، ص ٣١٩، ٣٢٠.

(٢) منهاج السنة (١٦٦/٣)، والسنة للخلال، ص ٣٢٠.

(٣) الإبانة عن أصول الديانة، ص ٦٨.

(٤) عقيدة السلف وأصحاب الحديث ضمن الرسائل المتبرية (١/١٣٩).

على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار، وهذا من الأدلة الدالة على أن عثمان أفضل لأنهم قدموه باختيارهم واشتوارهم^(١).

١٠ - وقال الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - حاكياً لإجماع الصحابة على خلافة عثمان رضي الله عنه: ويروى أن أهل الشورى جعلوا الأمر إلى عبد الرحمن ليجتهد للمسلمين في أفضلهم ليوليه فيذكر أنه سأل من يمكنه سؤاله من أهل الشورى وغيرهم، فلا يشير إلا بعثمان بن عفان حتى إنه قال لعلي: أرايت إن لم أولك بمن تشير به علي؟ قال بعثمان، وقال لعثمان رضي الله عنه: أرايت إن لم أولك بمن تشير به؟ قال بعلي بن أبي طالب، والظاهر أن هذا كان قبل أن ينحصر الأمر في ثلاثة، وينتزع عبد الرحمن منها لينظر الأفضل، والله عليه والإسلام ليجتهد في أفضل الرجلين فيوليه، ثم نهض عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يستشير الناس فيهما ويجمع رأى المسلمين برأى رؤوس الناس وأقيادهم جميعاً واشتاتاً، مثني وفرادي، ومجتمعين سرّاً وجهراً حتى خلص إلى النساء المخدرات في حجابهن، وحتى سأل الولدان في المكاتب، وحتى سأل من يرد من الركبان والأعراب إلى المدينة في مدة ثلاثة أيام لبليالها، فلم يجد اثنين يختلفان في تقدم عثمان بن عفان رضي الله عنه فسعى في ذلك عبد الرحمن ثلاثة أيام لبليالها لا يغتمض بكثير نوم إلا في صلاة ودعاء واستخارة وسؤال من ذوى الرأى عنهم، فلم يجد أحداً يعدل بعثمان بن عفان رضي الله عنه، فلما كان الليلة التي يسفر صباحها عن اليوم الرابع من موت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، جاء إلى منزل ابن أخته المسور بن مخرمة وأمره أن ينادى له علياً وعثمان رضي الله عنهما فتأداهما فحضرا إلى عبد الرحمن فأخبرهما أنه سأل الناس فلم يجد أحداً يعدل بهما أحداً، ثم أخذ العهد على كل منهما أيضاً لئن ولاء ليعدلين، ولئن ولى عليه ليسمعن وليطيعن، ثم خرج إلى المسجد وقد لبس عبد الرحمن العمامة التي عممه بها رسول الله ﷺ وتقلد سيفاً، وبعث إلى وجوه الناس من المهاجرين والأنصار، ونودى في الناس عامة الصلاة جامعة فامتأل المسجد

(١) منهاج السنة (١/١٣٤).

بالناس حتى غص بالناس، وتراص الناس وتراصوا حتى لم يبق لعثمان موضع يجلس فيه إلا فى أخريات الناس - وكان رجلاً حياً رضى الله عنه - ثم صعد عبد الرحمن ابن عوف منبر رسول الله ﷺ فوقف وقوفاً طويلاً ودعا دعاءً طويلاً لم يسمعه الناس ثم تكلم فقال: أيها الناس إنى سألتكم سرّاً وجهراً عن إمامكم فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين إما على، وإما عثمان فقم إلى يا على، فقام إليه فوقف تحت المنبر فأخذ عبد الرحمن بيده فقال: هل أنت مبايعى على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفعل أبى بكر وعمر؟ قال: اللهم لا. ولكن على جهدى من ذلك وطاقتى. قال: فأرسل يده وقال: قم إلى يا عثمان، فأخذ بيده وقال: هل أنت مبايعى على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وفعل أبى بكر وعمر؟ قال: اللهم نعم. قال: فرفع رأسه إلى سقف المسجد ويده فى يد عثمان وقال: اللهم اسمع واشهد، اللهم اسمع واشهد، اللهم اسمع واشهد، اللهم إنى قد جعلت ما فى رقبتي من ذلك فى رقبة عثمان. وقال: وازدحم الناس يبايعون عثمان حتى غشوه تحت المنبر قال: فقعد عبد الرحمن مقعد النبى ﷺ وأجلس عثمان تحته على الدرجة الثانية، وجاء الناس يبايعونه، وبايعه على بن أبى طالب أولاً، ويقال ثانياً^(١).

فهذه النقول المتقدم ذكرها للإجماع عن هؤلاء الأئمة كلها تفيد إفادة قطعية أن البيعة بالخلافة تمت لعثمان رضى الله عنه بإجماع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، ولم يخالف أو يعارض فى ذلك أحد^(٢).

سابعاً، حكم تقديم على عثمان رضى الله عنه:

الذى عليه أهل السنة أن من قدم علياً على أبى بكر وعمر فإنه ضال مبتدع، ومن قدم علياً على عثمان فإنه مخطئ ولا يضللونه ولا يبدعونه^(٣)، وإن كان بعض أهل العلم قد تكلم بشدة على من قدم علياً على عثمان بأنه قال: من قدم علياً على

(١) البداية والنهاية (٧/١٥٩ - ١٦١).

(٢) عقيدة أهل السنة والجماعة (٢/٦٧١).

(٣) مجموعة الفتاوى (٣/١٠١، ١٠٢).

عثمان فقد زعم أن أصحاب الرسول ﷺ خاتوا الأمانة حيث اختاروا عثمان على رضى الله تبارك وتعالى عنهما^(١).

وقال ابن تيمية: استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان، وإن كانت هذه المسألة - مسألة عثمان وعلى - ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة، لكن المسألة التي يضلل المخالف فيها هي مسألة الخلافة، وذلك أنهم يؤمنون بأن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم عليّ، ومن طعن في خلافة أحد هؤلاء الأئمة فهو أضل من حمار أهله^(٢).

وذكر أقوال أهل العلم في مسألة تفضيل عليّ على عثمان:

فقال: فيها روايتان:

إحدهما: لا يسوغ ذلك، فمن فضل عليّاً على عثمان خرج من السنة إلى البدعة، لمخالفته لإجماع الصحابة؛ ولهذا قيل: من قدّم عليّاً على عثمان، فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار، يروى ذلك عن غير واحد؛ منهم أيوب السخيتاني وأحمد بن حنبل والدارقطني.

والثانية: لا يُبدع من قدم عليّاً، لتقارب حال عثمان وعليّ^(٣).

(١) حقة من التاريخ، لعثمان الخميس، ص ٦٦

(٢) مجموعة الفتاوى (٣/١٠١، ١٠٢).

(٣) مجموعة الفتاوى (٤/٢٦٧).

المبحث الثانى

منهج عثمان بن عفان فى الحكم

عندما بويع عثمان رضى الله عنه بالخلافة قام فى الناس خطيباً فأعلن عن منهجه السياسى مبيناً أنه سيتقيد بالكتاب والسنة وسيرة الشيخين، كما أشار فى خطبته إلى أنه سيسوس الناس بالحلم والحكمة إلا فيما استوجبه من الحدود، ثم حذرهم من الركون إلى الدنيا والافتتان بحطامها خوفاً من التنافس والتباغض والتحاسد بينهم، مما يفضى بالامة إلى الفرقة والخلاف، وكان عثمان رضى الله عنه ينظر وراء الحجب ببصيرته النفاذة إلى ما سيحدث فى هذه الامة من الفتن بسبب الأهواء وتهالك الناس بعدما بويع^(١) فقال: «أما بعد، فإننى كلفت وقد قبلت، ألا وإنى متبع ولست بمبتدع، ألا وإن لكم على بعد كتاب الله وصنة نبيه ﷺ ثلاثاً: اتباع من كان قبلى فيما اجتمعتم عليه وسنتهم، ومن أهل الخير فيما تسنوا عن ملأ، والكف عنكم إلا فيما استوجبتم العقوبة، وإن الدنيا خضرة وقد شهيت إلى الناس ومال إليها كثير منهم، فلا تركنوا إلى الدنيا ولا تثقوا بها، فإنها ليست بثقة واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها»^(٢).

وأما قول بعض الناس بأن عثمان لما خطب أول خطبة أرتج عليه فلم يدر ما يقول حتى قال: أيها الناس، إن أول مركب صعب وإن أعش فستأتىكم الخطبة على وجهها، فهو شيء يذكره صاحب العقد^(٣)، وغيره من يذكر طرف الفوائد، وأن إسناده غير صحيح^(٤).

(١) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/٣٩٢).

(٢) تاريخ الطبرى (٥/٤٤٣).

(٣) المراد ابن عبد ربه الأندلسى، صاحب كتاب العقد الفريد، وهو كتاب فى طرق الأخبار والحكايات والنوادر، ولا يهتم بسند الخبر أو صحته.

(٤) خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه، د. السلمي ص ٣٤، ٣٥ والخبر من طريق الواقدي وهو متروك.

أولاً، كتب عثمان إلى عماله وولاته وأمراء الجند وعامة الناس،

أقرّ عثمان رضى الله عنه عمّال عمر رضى الله عنه، فلم يعزل منهم أحداً عاماً كاملاً أخذاً بوصية عمر رضى الله عنه، والناظر في الكتب التى بعث بها إلى الولاة وعمال المال وأمراء الأجناد يقف على النهج الذى أراد السير عليه وأخذ الأمة به^(١).

١ - أول كتاب كتبه عثمان إلى جميع ولاته:

أما بعد، فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة، ولم يخلقوا جباة، وليوشكن أنتمكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء. ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين فيما عليهم فتعطوهم مالهم، وتأخذوهم بما عليهم، ثم تتنوا بالذمة، فتعطوهم الذى لهم وتأخذوهم بالذى عليهم، ثم العدو الذى تتابون، فاستفتحوا عليهم بالوفاء^(٢).

والملاحظ أن عثمان رضى الله عنه أكد فى هذا الكتاب الموجه إلى ولاته فى الأمصار واجبههم نحو الرعية، وعرفهم أن مهمتهم ليست هى جمع المال، وإنما تتمثل فى رعاية مصالح الناس، ولأجل ذلك بين السياسة التى يسوسون بها الأمة، وهى أخذ الناس بما عليهم من الواجبات وإعطاؤهم حقوقهم فإذا كانوا كذلك صلحت الأمة، وإذا انقلبوا جباة ليس همهم إلا جمع المال انقطع الحياء وفقدت الأمانة والوفاء^(٣)، لقد كان فى كتاب عثمان للولاة: التركيز على قيم العدل السياسى، والاجتماعى، والاقتصادى بإعطاء ذوى الحقوق حقوقهم: وأخذ ما عليهم، وإعلاء شأن مبدأ الرعاية السياسية لا الجباية وتكثير الأموال^(٤).

ونبه على ما سيكون عند تغير الولاة من رعاة إلى جباة، بأن ذلك سبب فى تقلص

(١) تحقيق مواقف الصحابة (١/٣٩٣).

(٢) تاريخ الطبرى (٥/٢٤٤).

(٣) تحقيق مواقف الصحابة (١/٣٩٣).

(٤) الدولة الإسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين، لحمدى شاهين، ص ٢٤٦.

مكارم الأخلاق التى مثل لها بالحياء والأمانة والوفاء، وذلك أن بين الراعى والرعية خيطاً سامياً من العلاقات المتينة، ويؤكدده ويثبتته اتفاق الجميع على هدف واحد، وهو ابتغاء وجه الله تعالى، فالوالى يسعى لهذا الهدف بما يقدمه لإمامه من طاعة وولاء وأمانة ووفاء، ويبقى خلُق الحياء الذى أشار إليه عثمان يُظلُّ الجميع فيمنعهم من ارتكاب ما يُستقبح أو التعرض لجرح المشاعر والإيقاع فى الحرج. ثم يوصى عثمان ولاته بالعدل فى الرعية، وذلك بأخذ ما عليهم من الحقوق وبذل ما لهم من ذلك، ويشير إلى نقطة مهمة وهى أن الوفاء بالعهود من أهم أسباب الفتح والنصر على الأعداء، وقد بين التاريخ أثر هذا الخلق الرفيع فى تفوق المسلمين الإدارى والحربى^(١).

٢ - كتابه إلى قادة الجنود:

وكان أول كتاب كتبه إلى قادة الأجناد فى الفروج^(٢): أما بعد فإنكم حماة المسلمين وذادتهم، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا، بل كان على ملائمتنا، ولا يبلغنى عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله بكم، ويستبدل لكم غيركم، فانظروا كيف تكونون فإنى أنظر فيما ألزمنى الله النظر فيه والقيام عليه^(٣).

وفى هذا الكتاب لفت نظر إلى أن الأمور لن تتغير بتغير الخليفة؛ لأن الخلفاء ومن دونهم من الولاة يسرون على خط واحد، وهو القيام بمهمة تطبيق الإسلام فى واقع الحياة. وقوله: وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا بل كان على ملائمتنا. إشارة إلى أن حكم أولئك الخلفاء يقوم على الشورى، وذلك يترتب عليه أن جميع القضايا المهمة تكون معلومة بتفاصيلها عند أهل الحل والعقد، فإذا ذهب الحاكم وخلفه حاكم آخر سار على المنهج نفسه لوضوح الهدف لدى الجميع وقوله: «ولا تغيروا فيغير الله بكم» وعي لسنن الله تعالى فى هذا الكون، فمعية الله جل وعلا لأوليائه بالتوفيق والحماية والنصر مشروطة بلزومهم شريعته واستسلامهم لأمره، فإذا تغيروا فى ذلك

(١) التاريخ الإسلامى (١٢/٣٦٩).

(٢) الفروج: يعنى الأقاليم.

(٣) تاريخ الطبرى (٥/٢٤٤).

غير الله ما بهم واستبدل بهم غيرهم في الهيمنة والتمكين^(١)، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ﴾ [الرعد: ١١]. وذكرهم بأنه على علم بواجبه يؤديه ويقوم عليه ليتلاقى عمل الرعية وعمل الراعى في الشعور بالواجب والقيام به ويشعر كل فرد أنه يعمل لأتمته كما يعمل لنفسه^(٢).

٣ - كتابه إلى عمال الخراج:

وكان أول كتاب كتبه إلى عمال الخراج:

أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق، خذوا الحق وأعطوا الحق به، والأمانة الأمانة، قوموا عليها، ولا تكونوا أول من يُسَلَّبها، فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم، والوفاء الوفاء، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد، فإن الله خصم لمن ظلمهم^(٣).

خص في هذا الكتاب وزراء المال الذين يجيئون من أفراد الأمة لينفق في مصالحها العامة، فبين لهم أن الله لا يقبل إلا الحق، والحق قائم على الأمانة والوفاء، ثم ميز صنفين من الرعية، هما ضعيفاها: اليتيم والمعاهد فحضر على التجاوى عن ظلمهما؛ لأن الله هو المتولى حمايتهما^(٤)، ويذكرهم بأنهم إذا ظلموهم فإنهم معرضون لنقمة الله تعالى؛ لأنه خصم لمن ظلم هؤلاء المستضعفين، وفي هذا لفتة إلى جانب من جوانب عظمة الإسلام حيث يدعو إلى نصر المظلومين وإن كانوا من الكفار المعاهدين^(٥).

(١) التاريخ الإسلامي (١٢/ ٣٧٠).

(٢) عثمان بن عفان رضى الله عنه، لصاديق عرجون، ص ١٩٩.

(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٤٤).

(٤) عثمان بن عفان، رضى الله عنه، لصاديق عرجون، ص ١٩٨.

(٥) التاريخ الإسلامي (٢٠/ ٣٧١).

٤ - كتابه إلى العامة:

أما بعد، فإنكم إنما بلغتكم بالافتداء والاتباع، فلا تلفتكم الدنيا عن أمركم، فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداء بعد اجتماع ثلاث فيكم: تكامل النعم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن، فإن رسول الله ﷺ قال: الكفر في العجمة، فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا^(١).

وفى هذا الخطاب نلاحظ: أن عثمان رضى الله عنه رغب عامة الأمة في الاتباع، وترك التكلف والابتداء، وأنه حذرهم تغير الحال إذا اجتمعت لهم ثلاث خلال: تكامل النعم، الذى يبطر النفوس ويدفعها إلى الترف، ويصدّها عن الاجتهاد والعمل، ويصرفها إلى الفراغ والكسل، حتى تفتّر حيويتها وتخور عزائمها؛ وبلوغ أولادها من السبايا، وقد لمست الأمة فى تاريخها أثر هؤلاء فى المجتمع الإسلامى من الوجهة السياسية والاجتماعية والدينية؛ وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن، وإنما يريد عثمان بذلك ما فى طبائع الأعراب من جفاء وغلظ الأكباد فلا تبلغ هداية القرآن مكان الخير من أفئدتهم؛ وكذلك يريد ما فى الأعاجم من أخلاق موروثه، وعقائد متأصلة، وعادات قديمة تباعد بينهم وبين سنن القرآن فى الهداية، وقد ظهر أثر الأعراب فى فرقة الخوارج الذين كانت كثرتهم من أولئك الجفافة، فهم كانوا أقرأ الناس للقرآن، وأبعدهم عن هدايته، ثم ظهر فيمن عداهم أثر الأعاجم فيما ابتدعوه من مذاهب وتكلفوه من آراء كانت شركاً على المسلمين فى عقائدهم، ومنهم أكثر الفرق الضالة التى لعبت فى تاريخ الإسلام أخطر دور^(٢).

ثانياً، المرجعية العليا للدولة:

أعلن ذو النورين أن مرجعيته العليا لدولته كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والافتداء بالشيخين فى هديهما؛ فقد قال: ... ألا وإنى متبع ولست بمبتدع ألا وإن لكم على بعد كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ثلاثاً: اتباع من كان قبلى فيما اجتمعتم عليه وسنتهم^(٣).

(١) تاريخ الطبرى (٢٤٥/٥).

(٢) عثمان بن عفان رضى الله عنه، لصاقد عرجون، ص ١٩٩.

(٣) تاريخ الطبرى (٤٤٣/٥).

١ - فالمصدر الأول هو كتاب الله:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْغَائِبِينَ خَصِيماً﴾ [النساء: ١٠٥].

فكتاب الله تعالى يشتمل على جميع الأحكام الشرعية التى تتعلق بشئون الحياة، كما يتضمن مبادئ أساسية وأحكاماً قاطعة لإصلاح كل شعبة من شعب الحياة، كما بين القرآن الكريم للمسلمين كل ما يحتاجون إليه من أسس تقوم عليها دولتهم.

٢ - المصدر الثانى: السنة المطهرة:

الذى يستمد منها الدستور الإسلامى أصوله ومن خلالها يمكن معرفة الصيغ التنفيذية والتطبيقية لأحكام القرآن^(١).

٣ - الاقتداء بالشيخين:

قال رسول الله ﷺ: «اقتدوا بالذين من بعدى: أبى بكر وعمر»^(٢).

إن دولة ذى النورين خضعت للشرعية، وأصبحت سيادة الشريعة الإسلامية فيها فوق كل تشريع وفوق كل قانون، وأعطت لنا صورة مضيئة مشرقة على أن الدولة الإسلامية دولة شريعة، خاضعة بكل أجهزتها لأحكام هذه الشريعة، والحاكم فيها مقيد بأحكامها لا يتقدم ولا يتأخر عنها^(٣)، ففى دولة ذى النورين وفى مجتمع الصحابة، الشريعة فوق الجميع، يخضع لها الحاكم وللحكوم، وطاعة الخليفة مقيدة بطاعته لله، قال رسول الله ﷺ: «لا طاعة فى المعصية، إنما الطاعة فى المعروف»^(٤)، وهيمنة الشريعة على الدولة من خصائص الخلافة الراشدة، فحكومة الخلافة الراشدة تتميز عن الحكومات الأخرى بعدة خصائص منها:

* أن اختصاصات الحكومة (الخليفة) عامة، أى تقوم على التكامل بين الشئون

(١) فقه التمكن فى القرآن الكريم للصلاوى، ص ٤٣٢.

(٢) صحيح سنن الترمذى (٣/ ٢٠٠).

(٣) نظام الحكم فى الإسلام، ص ٢٢٧.

(٤) البخارى رقم ٧١٤٥.

الدنيوية والدينية.

* أن حكومة الخلافة ملزمة بتنفيذ أحكام الشريعة.

* أن الخلافة تقوم على وحدة العالم الإسلامى^(١).

ثالثاً، حق الأمة فى محاكمة الخليفة،

الأمر الذى لا شك فيه أن سلطة الخليفة ليست مطلقة، وإنما هى مقيدة بقيدين:

١ - ألا يخالف نصاً صريحاً ورد فى القرآن الكريم والسنة، وأن يكون الإجراء الذى يتخذه متفقاً - فضلاً عن ذلك - مع روح الشريعة ومقاصدها.

٢ - ألا يخالف ما اتفقت عليه الأمة الإسلامية أو يخرج على إرادتها.

وأساس ذلك أن الخليفة نائب عن الأمة، منها يستمد سلطانه، ويرجع إليها فى تحديد هذا السلطان ومدها، فالأمة تستطيع فى كل وقت أن توسع من هذا السلطان وأن تضيق منه أو تقيد بقيود كلما رأت فى ذلك مصلحة أو ضماناً لحسن القيام على أمر الله ومصلحة الأمة^(٢)، ويكون ذلك من خلال مجلس شورى الأمة، وقد أكد عثمان رضى الله عنه حق الأمة فى محاسبة الخليفة فى قوله: إن وجدتم فى كتاب الله أن تضعوا رجلى فى القيد فضعوا رجلى فى القيد^(٣)، وحينما أخذت طائفة عليه بعض أخطاء - فى زعمها - فى تصريحه لشئون الحكم وإسناد وظائفه، وتظاهرت عليه جموع منهم لمحاسبتة على أعماله، فأذعن رضوان الله عليه لرغبتهم، ولم ينكر عليهم هذا الحق، وأبدى استعداداً كريماً لإصلاح ما عسى أن يكون أخطأه التوفيق فى إبرامه^(٤).

(١) فقه الخلافة، للسنبورى، ص ٨٠.

(٢) الدولة والسيادة، د. فتحى عبد الكريم، ص ٢٦٨.

(٣) مسند الإمام أحمد الموسوعة الحديثية، رقم ٥٢٤.

(٤) الدولة والسيادة، ص ٣٧٩.

رابعاً، الشورى:

إن من قواعد الدولة الإسلامية حتمية تشاور قادة الدولة وحكامها مع المسلمين والنزول على رضاهم ورايهم وإمضاء نظام الحكم بالشورى قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لنت لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

وقد اتخذ عثمان رضى الله عنه في دولته مجلساً للشورى يتألف من كبار أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار^(١)، وقد طلب عثمان رضى الله عنه من العمال والقادة قائلاً: أما بعد فقوموا على ما فارقتم عليه عمر ولا تبدلوا، ومهما أشكل عليكم فردوه إلينا نجمع عليه الأمة ثم نرده عليكم^(٢)، فأخذ قاداته بذلك فكانوا إذا هموا بالغزو والتقدم فى الفتوحات الإسلامية استأذنوه واستشاروه، فيقوم هو بدوره بجمع الصحابة واستشارتهم للإعداد والإقرار والتنفيذ ووضع الخطط المناسبة لذلك ومن ثم يأذن لهم^(٣)، فقد قام عبد الله بن أبى سرح، بالكتابة إلى الخليفة عثمان رضى الله عنه طالباً منه أن يأذن له بأن يغزو أطراف إفريقية وذلك لقرب جزر الروم من المسلمين، فأجابه الخليفة عثمان إلى ذلك بعد المشورة وندب إليه الناس^(٤)، كما أن معاوية بن أبى سفيان حين أراد فتح جزيرة قبرص ورودس فعل الشيء نفسه فى استشارة القيادة العليا المركزية وطلب الإذن بالسماح له، ولم يأته الجواب إلا بعد انعقاد مجلس الشورى ويحثه فى الموضوع، ومن ثم السماح له^(٥)، وكان قادة الخليفة عثمان رضى الله عنه فى إدارتهم للمعارك الحربية يتشاورون فيما بينهم^(٦)، كما شاؤوا

(١) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٢٧٧/١).

(٢) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٢٧٧/١) نقلاً عن تاريخ الطبرى.

(٣) فتوح مصر، ص ٨٣.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٨٣.

(٥، ٦) الإدارة العسكرية (٢٧٨/١).

عثمان كبار الصحابة في جمع القرآن، وفي قتل عبيد الله بن عمر للهزمزان، وحول التدابير الكفيلة بقطع دابر الفتنة وفي مقام القضاء وغير ذلك من المواقف والأحداث التي سيأتي بيانها في محلها بإذن الله.

خامساً: العدل والمساواة:

إن من أهداف الحكم الإسلامي الحرص على إقامة قواعد النظام الإسلامي التي تساهم في إقامة المجتمع المسلم، ومن أهم هذه القواعد العدل والمساواة، فقد كتب ذو النورين إلى الناس في الأمصار، أن اتسمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، ولا يُذَلِّ المؤمن نفسه، فإني مع الضعيف على القوى ما دام مظلوماً إن شاء الله^(١)، فقد كانت سياسته تقوم على العدل بأسمى صوره، فقد أقام الحد على والي الكوفة الوليد بن عقبة (أخوه لأمه)، عندما شهد عليه الشهود بأنه شرب الخمر، وعزله عن الولاية بسبب ذلك، وسيأتي تفصيل هذه القصة بإذن الله، وقبوله بتولية أبي موسى الأشعري مكانه، لأن أهل الكوفة لم يوافقوا على تولية سعيد بن العاص خلفاً للوليد، وقد روى عنه أيضاً أنه غضب على خادم له يوماً فعرك أذنه حتى أودعه، ولم يستطع أن ينام ليلته آنذاك إلا بعد أن دعا خادمه إلى مضجعه وأمره أن يقتصر منه فيعرك أذنه، وقد أبى الخادم في بادئ الأمر، ولكن عثمان أمره ثانية في حزم فأطاعه^(٢).

سادساً: الحريات:

مبدأ الحرية من المبادئ الأساسية التي قام عليها الحكم في عهد الخلفاء الراشدين، ويقضي هذا المبدأ بتأمين وكفالة الحرية العامة للناس كافة ضمن حدود الشريعة الإسلامية وبما لا يتناقض معها، فقد كانت دعوة الإسلام لحرية الناس، جميع الناس دعوة واسعة وعريضة قلما تشتمل على مثلها دعوة في التاريخ، وفي عهد الخلفاء الراشدين كانت الحريات العامة المعروفة في أيامنا معلومة ومصونة^(٣)، كحرية العقيدة الدينية، وحرية التنقل، وحق الأمن، وحرمة المسكن، وحرية الملكية، وحرية الرأي.

(١) تاريخ الطبري (٤/٤١٤).

(٢) نظام الحكم في عهد الخلفاء الراشدين، حمد محمد الصمد، ص ١٤٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٥٧، ١٥٨.

سابعاً: الاحتساب:

اهتم أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه بالاحتساب بنفسه كما أسنده إلى غيره، فقد ثبت قيامه رضى الله عنه بالاحتساب فى مجالات عدة منها:

١ - إنكاره على لبس الثوب المعصفر:

ومن احتسابه رضى الله عنه أنه أنكر على محمد بن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه لبسه الثوب المعصفر، فعن أبى هريرة قال: راح عثمان رضى الله عنه إلى مكة حاجاً، ودخلت على محمد بن جعفر بن أبى طالب امرأته، فبات معها حتى أصبح، غدا عليه ردع^(١) الطيب، وملحفى معصفرة مقدمة^(٢)، فأدرك الناس بملل^(٣)، قبل أن يروحوا؛ فلما رآه عثمان رضى الله عنه انتهر وأقف، وقال: أتلبس المعصفر وقد نهى عنه رسول الله ﷺ^(٤).

٢ - إنكاره على قاصدات العمرة والحج وهن فى العدة:

ومن احتسابه رضى الله عنه أنه كان يرد النساء اللواتى كن يخرجن للعمرة أو الحج وهن فى العدة، فقد روى الإمام عبد الرزاق عن مجاهد قال: كان عمر وعثمان رضى الله عنهما يرجعان حواج ومعمترات من الجحفة وذى الحليفة^(٥).

٣ - أمره بذيح الحمام:

ومن احتسابه أنه منع الناس من الانشغال فى طيران الحمام^(٦)، لما بدءوا فيه مع سعة العيش، وأمرهم بذيحه، فقد روى الإمام البخارى عن الحسن قال: سمعت عثمان رضى الله عنه يأمر فى خطبته بقتل الكلاب وذبح الحمام^(٧).

(١) ردع: لطلخ وأثر.

(٢) مقدمة: مشبعة حمرة.

(٣) ملل: موضع بين مكة والمدينة.

(٤) المسند رقم ٥١٧. وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح. انظر: تعليقات الشيخ على المسند (١/٣٨٤).

(٥) المصنف رقم ١٢٠٧١.

(٦) تاريخ الطبرى (٥/٤١٥).

(٧) الأدب المفرد، باب ذبح الحمام، رقم ١٣٠٧.

٤ - احتسابه على اللعب بالنرد:

كان عثمان رضى الله عنه ينهى عن اللعب بالنرد وأمرهم بتحريقه أو كسره ممن كان فى بيته، فقد روى الإمام البيهقى عن زبيد بن الصلت أنه سمع عثمان بن عفان رضى الله عنه وهو على المنبر يقول: يا أيها الناس إياكم والميسر - يريد النرد - فإنها قد ذكرت لى أنها فى بيوت ناس منكم، فمن كان فى بيته، فليحرقها أو فليكسرها، وقال عثمان رضى الله عنه مرة أخرى وهو على المنبر: يا أيها الناس، إني قد كلمتكم فى هذا النرد، ولم أركم أخرجتموها، فلقد هممت أن أمر بحزم الخطب، ثم أرسل إلى بيوت الذين هم فى بيوتهم فأحرقها عليهم^(١).

٥ - إخراجه من يراه على شر أو يشهر سلاحاً من المدينة:

ومن احتسابه أيضاً أنه كان ينكر على من يراه على شر أو كان يحمل معه سلاحاً ويخرجه من المدينة، فعن سالم بن عبد الله رضى الله عنه قال: وجعل عثمان لا يأخذ أحداً منهم على شر أو شهر سلاح عصا فما فوقها إلا سيّره^(٢).

٦ - ضربه لمن استخف بعم النبي ﷺ:

ففى أيام خلافته ضرب رجلاً فى منازعة استخف فيها بالعباس بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ، فقيل له عن مبررات ضربه؟ فقال: نعم، أيفخم رسول الله ﷺ عمه وأرخص فى الاستخفاف به، لقد خالف رسول الله ﷺ من فعل ذلك ومن رضى به منه^(٣).

٧ - نهيه عن الخمر؛ لأنها أم الخبائث:

روى النسائى فى سننه والبيهقى فى سننه عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه قال: اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجلاً ممن خلا قبلكم يتعبد، فَعَلِقَتْهُ

(١) السنن الكبرى، كتاب الشهادات (٢١٥/١٠).

(٢) تاريخ الطبرى (٤١٦/٥) معظم هذه الفقرة أخذتها من كتاب الحسبة فى العصر النبوى والعهد الراشدى للدكتور فضل إلهى.

(٣) تاريخ الطبرى (٤١٧/٥).

امراً أغوته، فأرسلت إليه جاريتها، فقالت له: إنها تدعوك للشهادة، فانطلق مع جاريتها، فطفق كلما دخل باباً أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضیئة، عندها غلام وباطية خمر فقالت: والله ما دعوتك للشهادة، ولكن دعوتك لتقع على، أو تشرب من هذه الخمر كأساً، أو تقتل هذا الغلام، قال فاسقيني من هذا الخمر كأساً، فسقته كأساً، فقال: ريدوني، فلم يرم حتى وقع عليها وقتل الغلام، فاجتنبوا الخمر، فإنها والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر إلا ويوشك أن يخرج أحدهما صاحبه^(١).

٨- من خطب عثمان في المجتمع ومن حكمه:

أ- خطبة في الاستعداد ليوم المعاد:

يقول الحسن البصري رحمه الله: خطب عثمان بن عفان، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، اتقوا الله، فإن تقوى الله غُفِرَ، وإن أكيس الناس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، واكتسب من نور الله نوراً لظلمة القبر، وليخش عبد أن يحشره الله أعمى، وقد كان بصيراً، وقد يكفى الحكيم جوامعُ الكلم، والأصم ينادى من مكان بعيد، واعلموا أن من كان الله معه لم يخف شيئاً، ومن كان الله عليه فمن يرجو بعده^(٢).

وعن عثمان رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الجماء لتُقص من القراء يوم القيامة»^(٣).

ب- التذكير بمكارم الأخلاق:

قال عثمان رضي الله عنه: إنا والله صحبنا رسول الله ﷺ في السفر والخضر، فكان يعود مرضانا، ويشيع جنازتنا، ويغزو معنا، ويواسينا بالقليل والكثير، وإن ناساً يُعلمونني به عسى ألا يكون أحدهم رآه قط^(٤).

(١) سنن النسائي، كتاب الأشربة، موسوعة فقه عثمان، ص ٥٢.

(٢) صحيح التوثيق في سيرة وحياة ذي النورين، ص ١٠٧.

(٣) الموسوعة الحديثية في مسند أحمد رقم ٥٢٠.

(٤) صحيح التوثيق في سيرة وحياة ذي النورين، ص ١٠٧.

جـ - من حكمه التى سارت بين الناس:

* قال رضى الله عنه: لو طهرت قلوبنا ما شبعتم من كلام ريكم^(١).

* وقال رضى الله عنه: ما أسرّ أحد سريرة إلا أبداه الله تعالى على صفحات وجهه، وفلتات لسانه^(٢).

* إن الله لينعُ بالسلطان ما لا ينزع بالقرآن^(٣).

* وكان رضى الله عنه لا يقيم للدنيا وزناً، فقال فيها: «هم الدنيا ظلمة فى القلب، وهم الآخرة نور فى القلب»^(٤).

* ومن حكمه البالغة: يكفيك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك^(٥).

* وقال رضى الله عنه فى أيام الفتنة: أستغفر الله إن كنت ظلمتُ، وقد عفوتُ إن كنت ظلمتُ^(٦).

* ومن حكمه ومواعظه رضى الله عنه: إن لكل شيء آفة، ولكل نعمة عاهة، وإن آفة هذا الدين وعاهة هذه النعمة عيَّابون صغَّانون، يُرونكم ما تحبون، ويُسرُّون ما تكرهون، طغام مثل النعام^(٧).

* ولما قدم عبد الله بن الزبير بفتح إفريقية، أمره عثمان بن عفان رضى الله عنه، فقام خطيباً، فلما فرغ من كلامه، قال عثمان: انكحوا النساء على آبائهن وإخوتهن، فإنى لم أر فى ولد أبى بكر الصديق أشبه به من هذا^(٨)، وعبد الله بن الزبير أمه أسماء بنت أبى بكر، ويريد أن ابن الزبير كان شبيهاً بجده فى الشجاعة

(١) جامع العلوم والحكم، ص ٣٦٣.

(٢) فرائد الكلام للخلفاء الكرام، ص ٢٦٩.

(٣) الكامل فى اللغة والأدب (١/١٥٧).

(٤) الاستعداد ليوم المعاد، ص ٩.

(٥) مجمع الأمثال، للميداني (٢/٤٥٣).

(٦) تاريخ خليفة بن خياط، ص ١٧١.

(٧) مجمع الأمثال، للميداني (٢٠/٤٥٣).

(٨) البيان والتبيين (٢/٩٥).

والإقدام والفصاحة^(١).

* وقال رضى الله عنه: ما من عامل يعمل عملاً إلا كساه الله رداء عمله^(٢).

* وقال رضى الله عنه: إن المؤمن فى ستة أنواع من الخوف:

أحدها: من قبل الله تعالى أن يأخذ منه الإيمان.

والثانى: من قبل الحفظة أن يكتبوا عليه ما يفتضح به يوم القيامة.

والثالث: من قبل الشيطان أن يبطل عمله، والرابع من قبل ملك الموت أن يأخذه

فى غفلة بغتة، والخامس من قبل الدنيا أن يغتر بها وتُشغله عن الآخرة^(٣).

* وقال رضى الله عنه: وجدت حلاوة العبادة فى أربعة أشياء: أولها فى أداء

فرائض الله، والثانى فى اجتناب محارم الله، والثالث فى الأمر بالمعروف ابتغاء ثواب

الله، والرابع فى النهى عن المنكر اتقاء غضب الله^(٤).

٩ - عثمان رضى الله عنه والشعر والشعراء:

لم تذكر لنا المصادر والمراجع سوى التزر القليل عن علاقة عثمان رضى الله عنه مع

الشعر والشعراء، مع أن فترة خلافته كانت طويلة نسبياً، ومن هذا القليل تبين لنا أنه

كان ملتزماً بالمنهج العام للعقيدة الإسلامية التى وضّح معالمها الرسول ﷺ، والتى سلك

طريقها سلفه أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضى الله عنهم، ولا شك أن لكل

منهم شخصيته الأدبية المميزة، فقد اشتهر أبو بكر بمعرفة الأنساب، ويعلمه الوافر

وحسن مجالسته، ويروايته للشعر، واشتهر عمر بالحث على تعلم الشعر، وأنه لم

تكن تعرض له قضية إلا تمثل بيت شعر، أضف إلى ذلك أنه كان شاعراً، أما عثمان

ابن عفان رضوان الله عليه فلم يؤثر عنه ذلك الانغماس الكبير فى الشعر، أو تلك

العلاقة الحميمة مع الشعراء، وإذا كنا نعرف أن الشعراء كانوا يتهافون على أبواب

(١) فرائد الكلام، ص ٢٧١.

(٢) الزهد، للإمام أحمد، ص ١٨٥.

(٣) فرائد الكلام للخلفاء الكرام، ص ٢٧٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٧٨.

الأمراء طمعاً برضاهم وبإعطيتهم، فإننا نرى أن الشعراء أيام عثمان، يتزكون الحواضر ودار الخلافة ويؤثرون العودة إلى البداية^(١)، وقد ذكرت كتب الأدب والتاريخ بعض الأبيات نسبتها إلى عثمان أو كان يتمثل بها، ومن هذه الأبيات ما يروى أنه قال:

واعلم أن الله ليس كصنعه صنيع ولا يخفى على ملحد

وكان كثيراً ما ينشد أبياتاً قالها ويطيل ذكرها لا تعرف لغيره:

تفنى اللذائذ ممن نال صفوتها من الحرام ويبقى الإثم والعار

يلقى عواقب سوء من مغبتها لا خير في لذة من بعدها نار^(٢)

قال يوم دخل عليه الثائرون في بيته ليقتلوه:

أرى الموت لا يبقى عزيزاً ولم يدع لعاد ملاذاً في البلاد ومرتعاً^(٣)
وقال لما حوَّصر في داره:

يُبيتُ أهل الحصن والحصن مغلق ويأتي الجبال الموت شمراخها العلاء^(٤)
ويروى له أيضاً:

غنى النفس يُغنى النفس حتى يكفها وإن عَصَّها حتى يَضُرَّ بها الفقر

وما عسرة فاصبر لها إن لقيتها بكائنة إلا سيتبعها يسر

ونلاحظ في البيت الأخير، أنه يتضمن معنى قرآنياً، إن مع العسر يسراً، وهذا ليس غريباً على الخليفة المسلم، الذي نشأ وترعرع في أحضان محمد ﷺ فهو يعاقب على شعر الهجاء الذي يتعارض وأحكام الشريعة الإسلامية، ويشن على الشعر الحسن ويحب الاستماع إليه وكل ذلك ضمن المفاهيم الإسلامية^(٥).

(١) أدب صدر الإسلام، واضح الصمد، ص ٩٩.

(٢) شعراء الخلفاء، نبال تيسر الحماش، ص ٢٧.

(٣) البداية والنهاية (١٩٢/٧).

(٤) البداية والنهاية (١٩٢/٧).

(٥) أدب صدر الإسلام، واضح الصمد، ص ١٠٢.

وإذا كان الخليفة الراشد الثالث لم يهتم بالشعر، ولم يقرب إليه الشعراء، فإن مقتله من قبل الغوغاء فتح الباب على مصراعيه لازدهار الشعر السياسي الذي أصبح الأداة الصحافية الفاعلة في العصور الإسلامية المتلاحقة، فعند مقتله بكاه كثير من شعراء الصحابة ^(١). وسيأتي بيان ذلك بإذن الله.

* * *

(١) الأدب الإسلامي، د. نايف معروف، ص ١٩٠.

المبحث الثالث

أهم صفاته

إن شخصية ذى النورين تعتبر شخصية قيادية وقد اتصف رضى الله عنه بصفات القائد الربانى، ونجملها فى أمور ونركز على بعضها بالتفصيل؛ فمن أهم هذه الصفات: إيمانه العظيم بالله واليوم الآخر، والعلم الشرعى، والثقة بالله، والقُدوة والصدق، والكفاءة والشجاعة، والمروءة، والزهد، وحب التضحية، والتواضع، وقبول النصيحة، والحلم، والصبر، وعلو الهمة، والحزم، والإرادة القوية، والعدل، والقدرة على حل المشكلات، والقدرة على التعليم وإعداد القادة وغير ذلك من الصفات، ويسبب ما أودع الله فيه من صفات القيادة الربانية استطاع أن يحافظ على الدولة ويقمع الثورات التى حدثت فى الأراضى المفتوحة، ويتفعل بفضل الله وتوفيقه بالأمة نحو أهدافها المرسومة بخطوات ثابتة، ومن أهم تلك الصفات التى نحاول تسليط الأضواء عليها فى هذا المبحث هى:

أولاً: العلم والقدرة على التوجيه والتعليم؛

يعتبر عثمان رضى الله عنه من كبار علماء الصحابة فى القرآن الكريم والسنة النبوية، وسيأتى الحديث عن اجتهاداته الفقهية فى المجال القضائى والمالى والجهادى بإذن الله تعالى، وكان رضى الله عنه حريصاً على اتباع هدى النبى ﷺ وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما، فعن عروة بن الزبير، أن عبيد الله بن عدى بن الخيار أخبره، أن المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث قالوا له: ما يمنعك أن تكلم خالك يكلم أمير المؤمنين عثمان فى الوليد بن عقبة وقد أكثر الناس فيما فعل؟ قال عبيد الله: فاعترضت لأمير المؤمنين عثمان حين خرج إلى الصلاة فقلت له: إن لى إليك حاجة هى نصيحة. قال: قال: يا أيها المرء إني أعوذ بالله منك، قال: فانصرفت، فلما قضيت الصلاة جلست إلى المسور وابن عبد يغوث فحدثتهما بالذى

قلت لأمر المؤمنين، وقال لي، فقالا: قد قضيت الذي عليك، فبينما أنا جالس معهما جاءني رسول أمير المؤمنين عثمان، فقال لي: قد ابتلاك الله، فانطلقت حتى دخلت على عثمان، فقال: ما نصيحتك التي ذكرت لي آنفاً؟ قال: فتشهدت ثم قلت له: إن الله - عزَّ وجلَّ - بعث محمداً بالحق وأنزل عليه الكتاب، فكنت ممن استجاب لله ولرسوله ﷺ، ورأيت هديه وقد أكثر الناس في شأن الوليد، فحق عليك أن تقيم عليه الحد، قال: فقال لي: ابن أختي أدركت رسول الله ﷺ؟ قال: فقلت: لا، ولكن خلصَ إلى من علمه واليقين ما يخلص إلى العذراء في سترها. قال: فتشهد ثم قال: أما بعد فإن الله بعث محمداً بالحق، فكنت ممن استجاب لله ولرسوله وآمن بما بعث محمد ﷺ ثم هاجرت الهجرتين كما قلت، ونلت صهر رسول الله ﷺ وبايعت رسول الله ﷺ فوالله ما عصيته ولا غششته حتى توفاه الله، ثم استخلف بعده أبو بكر فبايعناه فوالله ما عصيته ولا غششته حتى توفاه الله، ثم استخلف عمر فوالله ما عصيته ولا غششته حتى توفاه الله، ثم استخلفني الله أفليس لي عليكم مثل الذي كان لهم علي؟ قال: فقلت: بلى، قال: فما هذه الأحاديث التي تبلغني عنكم؟ فاما ما ذكرت من شأن الوليد فسنأخذ فيه إن شاء الله بالحق، قال: فجلد الوليد أربعين سوطاً، وأمر علياً بجلده فكان هو يجلده^(١)، لقد لازم ذو النورين النبي ﷺ فاستفاد من علمه وهديه مما جعله من كبار علماء الصحابة رضي الله عنهم جميعاً، وكان رضي الله عنه قادراً على توجيه رعيته توجيهاً مفيداً، وتعليمهم واجباتهم ونقل آرائه النابعة من علمه وخبرته وتجاربه وممارسته إليهم حتى يرتقوا في مجال الدعوة والتربية والتعليم والجهاد والاستعداد للقاء الله - عزَّ وجلَّ -، ومن توجيهات عثمان رضي الله عنه ما تضمنته خطبة خلافته التي قال فيها بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ: إنكم في دار قلعة، وفي بقية أعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، فلقد أتيتم صبحتم أو مسيتم، ألا وإن الدنيا طويت على الغرور، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور، واعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها ومتعوا بها طويلاً، ألم

تلفظهم؟! ارموا الدنيا بالذى هو خير^(١)، فقال تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ۝٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٥، ٤٦].

ولقد كان المعنى الذى يدور حوله توجيه الخليفة الثالث رضى الله عنه فى هذه الخطبة هو الحوض على الإقبال على الله والزهد فى الدنيا، وهذا هو المناسب لخطبته فى ذلك الوقت الذى ألقى فيه الإسلام بجرانه فى أقطار المعمورة، وفتحت البلدان وأقبلت الدنيا بتعيمها، وبدأ الناس فى التنافس فيها وبخاصة غير أصحاب رسول الله ﷺ فكان المقال مناسباً للمقام^(٢)، وقد روى عثمان رضى الله عنه أحاديث عن رسول الله ﷺ انتفعت بها الأمة، فهذا أبو عبد الرحمن السلمى يحدثنا عن حديث سمعه من عثمان فعمل به، فعن سعد بن عبيدة عن أبى عبد الرحمن السلمى عن عثمان رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: خيركم من تعلم القرآن وعلمه^(٣)، قال: وأقرأ أبو عبد الرحمن فى إمرة عثمان حتى كان الحجاج، قال: وذاك الذى أقعدنى مقعدى هذا، وفى رواية عن شعبة قال أبو عبد الرحمن: فذاك الذى أقعدنى مقعدى هذا وكان يعلم القرآن^(٤)، وكان عثمان رضى الله عنه يروى أحاديث رسول الله ﷺ للمسلمين كل فى محله ومناسبته، ومن هذه الأحاديث:

١ - أهمية الوضوء:

توضأ عثمان على البلاط، ثم قال: لأحدثنكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، لولا آية فى كتاب الله ما حدثتكموه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من توضأ فأحسن الوضوء، ثم دخل فصلى، غفر له ما بينه وبين الصلاة الأخرى حتى يصليها»^(٥).

(١) البداية والنهاية (١٥٣/٧).

(٢) الكفاءة الإدارية فى السياسة الشرعية، للقادرى، ص ٩٣.

(٣) البخارى رقم ٥٠٢٨.

(٤) الخلافة الراشدة، د. يحيى اليحى، ص ٤٢٠، ٤٢١.

(٥) الموسوعة الحديثية مسند أحمد رقم ٤٠٠، إسناده صحيح..

٢ - اتباعه لرسول الله ﷺ في الوضوء:

عن حمران بن أبان عن عثمان بن عفان: أنه دعا بماء فتوضأ ومضمض واستنشق، ثم غسل وجهه ثلاثاً، وذراعيه ثلاثاً ثلاثاً، ومسح برأسه وظهر قدميه، ثم ضحك، فقال لأصحابه: ألا تسألوني عما أضحكني؟ فقالوا: مم ضحكت يا أمير المؤمنين؟ فقال: رأيت رسول الله ﷺ دعا بماء قريباً من هذه البقعة، فتوضأ كما توضأت ثم ضحك، فقال: ألا تسألوني ما أضحكني؟ فقالوا: ما أضحكك يا رسول الله؟ فقال: إن العبد إذا دعا بوضوء فغسل وجهه، حط الله عنه كل خطيئة أصابها بوجهه، فإذا غسل ذراعيه كان كذلك، وإن مسح برأسه كان كذلك، وإن طهر قدميه كان كذلك^(١).

٣ - كفارات الوضوء:

عن عثمان قال: قال رسول الله ﷺ: من أتم الوضوء كما أمره الله عز وجل، فالصلوات المكتوبات كفارات لما بينهن^(٢).

٤ - الوضوء وصلاة ركعتين ومغفرة الذنوب:

دعا عثمان بماء وهو على المقاعد، فسكب على يمينه فغسلها، ثم أدخل يمينه في الإناء فغسل كفيه ثلاثاً، ثم غسل وجهه ثلاث مرار، ثم مسح برأسه، ثم غسل رجليه إلى الكعبين ثلاث مرار، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يحدث نفسه فيهما، غفر الله له ما تقدم من ذنبه^(٣).

٥ - كلمة الإخلاص وكلمة التقوى:

قال عثمان رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقاً من قلبه إلا حُرِّم على النار. فقال له عمر بن الخطاب: أنا أحدثك ما هي؟ هي كلمة الإخلاص التي ألزمها الله - تبارك وتعالى - محمداً ﷺ وأصحابه،

(١) الموسوعة الحديثية مسند أحمد رقم ٤١٥ صحيح لغيره.

(٢) المصدر نفسه رقم ٤٠٦ إسناده صحيح.

(٣) المصدر نفسه رقم ٤١٨ إسناده صحيح.

وهي كلمة التقوى التى الأص^(١) عليها نبي الله ﷺ عمه أبا طالب عند الموت: شهادة أن لا إله إلا الله^(٢).

٦ - العلم بالله يدخل العبد الجنة:

عن عثمان بن عفان - رضى الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة»^(٣).

٧ - الحسنات والباقيات:

عن الحارث مولى عثمان قال: جلس عثمان يوماً وجلسنا معه، فجاءه المؤذن، فدعا بماء فى إناء، أظنه سيكون فيه مِدٌّ، فتوضأ، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئى هذا، ثم قال: ومن توضأ وضوئى هذا، ثم قال فصلّى صلاة الظهر، غفر له ما كان بينها وبين الصبح، ثم صلّى العصر غُفر له ما بينها وبين صلاة الظهر، ثم صلّى المغرب غُفر له ما بينها وبين صلاة العصر، ثم صلّى العشاء غُفر له ما بينها وبين صلاة المغرب، ثم لعله أن يبيت يتمرغ ليلته، ثم إن قام فتوضأ وصلّى الصبح غُفر له ما بينها وبين صلاة العشاء، وهُنَّ الحسنات يُذهبن السيئات. قالوا: هذه الحسنات، فما الباقيات يا عثمان؟ قال: هنَّ: «لا إله إلا الله، وصبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله»^(٤).

٨ - خطورة الكذب على رسول الله ﷺ:

عن عثمان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعمد على كذباً، فليتبوأ بيئاً فى النار»^(٥).

هذه بعض الأحاديث التى رواها عثمان عن رسول الله ﷺ، وتدل على علم

(١) الأص: أدلره عليها، وراوده فيها.

(٢) مستد أحمد رقم ٤٤٧ إسناده قوى.

(٣) مستد أحمد رقم ٤٦٤ إسناده صحيح.

(٤) مستد أحمد رقم ٥١٣ إسناده حسن.

(٥) مستد أحمد رقم ٥٠٧ إسناده صحيح.

عثمان وحرصه على الاستزادة من الهدى النبوي، وفقه الشريعة الغراء.

ثانيًا، الحلم:

إن الحلم ركن من أركان الحكمة، وقد وصف الله نفسه بصفة الحلم في عدة مواضع من القرآن الكريم، كقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥] وقد بلغ رضى الله عنه في حلمه وعفوه الغاية المثالية، وكان الخليفة الراشد عثمان بن عفان شديد الاقتداء في أقواله وأفعاله وأحواله برسول الله ﷺ وكانت له مواقف كثيرة تدل على حلمه، وضبطه لنفسه، ومن أوضح المواقف التي تدل على حلمه قصته في حصار الثائرين عليه حيث أمر من عنده من المهاجرين والأنصار أن ينصرفوا إلى منازلهم ويدعوه وكانوا قادرين على منعه، وكان حلمه مبنياً على شوقه إلى لقاء ربه، وإرادته حقن دماء المسلمين ولو بقتله^(١).

ثالثًا، السماحة:

عن عطاء بن فروخ مولى القرشيين: أن عثمان رضى الله عنه اشترى من رجل أرضاً فأبطأ عليه، فلقبه فقال: ما منعك من قبض مالك؟ قال: إنك غبتني فما ألقى من الناس أحداً إلا وهو يلومني، فقال: أودلك يمنعك؟ قال: نعم، قال: فاختر بين أرضك ومالك، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «أدخل الله الجنة رجلاً كان سهلاً مشرباً ويائعاً، وقاضياً ومقتضياً»^(٢). فهذا مثل رفيع في السماحة في البيع والشراء وهو يدل على ما جبل عليه عثمان رضى الله عنه من الكرم وعدم التعلق بالدنيا، فهو يستعبد الدنيا لخدمة مكارم الأخلاق التي من أهمها الإيثار، ولا تستعبده الدنيا، فتجعل منه أنانياً يؤثر مصالحه الخاصة وإن أضر بالناس^(٣).

(١) الكفاءة الإدارية، ص ٦٥.

(٢) مسند أحمد رقم ٤١٠ حسن لغيره.

(٣) التاريخ الإسلامي (١٧، ١٨ / ١٢٦).

رابعاً: اللين؛

امتن الله تعالى على رسوله ﷺ بأن رزقه صفة اللين رحمة منه به وبعباده .
قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

أفادت الآية الكريمة أن صفة اللين رحمة من الله يرزق بها من يشاء من عباده وأن الرسول ﷺ قد رزق هذه الصفة رحمة من الله به وبعباده الذين بعثه إليهم، ويفهم من الآية أن المتصف باللين يحبه الناس ويلتفتون حوله ويقبلون منه ما يأمرهم به أو ينهاهم عنه^(١)، فاللين من الصفات الطيبة التي اتصف بها عثمان رضى الله عنه، فكان رضى الله عنه ليناً على رعيته، عطوفاً على أمته يخاف أن يصاب أحد دون علمه فلا يتمكن من تلبية حاجته، وكان يتتبع أخبار الناس، فينصر الضعيف، ويأخذ الحق من القوى، رضى الله عنه .

خامساً: العضو؛

عن عمران بن عبد الله بن طلحة: أن عثمان بن عفان رضى الله عنه خرج لصلاة الغداة فدخل من الباب الذى كان يدخل منه، فزحمة الباب فقال: انظروا، فنظروا فإذا رجل معه خنجر أو سيف فقال له عثمان رضى الله عنه: ما هذا؟ قال: أردت أن أقتلك. قال: سبحان الله، ويحك علام تقتلنى؟ قال: ظلمنى عاملك باليمن، قال: أفلا رفعت ظلامتك إلىَّ فإن لم أنصفك - أو أعديك : على عاملى أردت ذلك منى؟ فقال لمن حوله: ما تقولون؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، عدو أمكنك الله منه، فقال: عبد همّ بذنب فكفّه الله عني، اتنى بمن يكفل بك، لا تدخل المدينة ما وليت أمر المسلمين، فأتاه برجل من قومه فكفل به فخلّى عنه^(٢)، فهذا تسامح كبير من أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه، حيث عفا عمن أراد قتله، والعفو عند المقدرة صفة من صفات الكمال فى الرجال، وهو دليل على التجرد من حظ النفس، وتقلص

(١) الكفاءة الإدارية، ص ٦٩ .

(٢) التاريخ الإسلامى (١٧، ١٨ / ٢٢) نقلاً عن تاريخ المدينة المنورة، ص ٢٧، ٢٨ .

الأنانية، وضعف الارتباط بالدنيا، وقوة الارتباط بالآخرة، وهذا الخلق إضافة إلى أنه عمل صالح يرفع من درجات صاحبه في الآخرة فإنه سياسة حكيمة في الدنيا، إذ إن هذا الرجل الذي أراد الاعتداء لو أنه قتل أو عوقب عقوبة بليغة لربما أحدث فتنة بإيغار صدور أفراد قبيلته واستعدادهم للانتقام إذا سنحت لهم الفرصة، لكن العفو عنه يجعل أفراد قبيلته وأبناء بلده يعذلون ويغفرونه على ما حاول الإقدام عليه، وبذلك تنطفئ الفتنة قبل تصاعدها، ويكسب صاحب العفو قلوب الناس وولاءهم^(١).

سادساً، التواضع،

قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

جعل المولى - عزَّ وجلَّ - صفة التواضع أول صفات عباده المؤمنين، ولقد كان الخليفة الراشد عثمان متصفاً بهذه الصفة وكانت هذه الصفة تنبع من إخلاصه لله سبحانه وتعالى، فعن عبد الله الرومي قال: كان عثمان بن عفان يأخذ وضوءه لنفسه إذا قام من الليل، ف قيل له: لو أمرت الخادم كفأك، قال: لا، الليل لهم يستريحون فيه^(٢)، فهذا مثل من اتصاف أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه بالرحمة، فهو مع كبير سنه وعلو منزلته الاجتماعية يخدم نفسه في الليل ولا يوقظ الخدم، وإن وجود الخدم من تسخير الله تعالى للمخدومين، وإن مما ينبغي للمسلم الذي سخر الله تعالى له من يخدمه أن يتذكر أن الخادم إنسان مثله له طاقة محدودة في العمل، وله مشاعر وأحاسيس فينبغي له أن يراعى مشاعره، وأن يسر له الراحة كاملة في النوم، وأن لا يشق عليه بعمل^(٣)، وكان رضي الله عنه من تواضعه واحترامه لعَمَّ النبي ﷺ إذا مر به وهو راكب نزل حتى يزول العباس احتراماً وتقديراً له^(٤).

(١) التاريخ الإسلامي (١٧، ١٨/٢٢).

(٢) فضائل الصحابة رقم ٧٤٢ إسناده صحيح وهو رواية أخرى.

(٣) التاريخ الإسلامي (١٧، ١٨/٢٢).

(٤) التبيين في أنساب القرشيين، ص ١٥٣.

سابعاً: الحياء والعفة:

الحياء من أشهر أخلاق عثمان رضى الله عنه وما أحلاها تلك الصفة النبيلة التى زينه الله بها، فكانت فيه منبع الخير والبركة، ومصدر العطف والرحمة، فقد كان رضى الله عنه من أشد الناس حياءً^(١)، فقد ذكر الحسن البصرى - رحمه الله - عثمان ابن عفان يوماً وشدة حيائه، فقال: إنه ليكون فى البيت، والباب عليه مغلق، فما يضع عنه ثوبه ليفيض عليه الماء، يمنعه الحياء أن يُقيم صلبه^(٢)، ومن حيائه رضى الله عنه: ما روته بُثانة، وهى جارية لامراته تقول: كان عثمان إذا اغتسل جثته بشيابه، فيقول لى: لا تنظرى إلى، فإنه لا يحل لك^(٣)، وقد وردت الأحاديث النبوية التى تحدثت عن حيائه وقد ذكرتها فى موضعها؛ وأما عن عفته وبعده عن مساوئ الأخلاق فحدث فى ذلك بما شئت ولا حرج، فإنه رضى الله عنه لم يعرف طريق الفحشاء فى الجاهلية ولا فى الإسلام، يقول عثمان رضى الله عنه: ما تغنيت، ولا تمنيت^(٤)، ولا مسستُ ذكرى يمينى منذ بايعت بها رسول الله ﷺ، ولا شربت خمرًا فى جاهلية ولا فى الإسلام، ولا زنيت فى جاهلية ولا فى إسلام^(٥).

ثامناً: كرمه:

كان عثمان رضى الله عنه من أكرم الأمة وأسخاها وله فى ذلك مواقف ومآثر لا تزال غرة فى جبين التاريخ الإسلامى، فقد مرّ معنا ما قام به فى غزوة تبوك، وشراؤه لبئر رومة وتصدقه به على المسلمين وتوسيعه للمسجد النبوى فى عهد النبى ﷺ وتصدقه بالقافلة المحملة بالخيرات فى عصر الصديق رضى الله عنه، وكان رضى الله عنه يعتق كل جمعة رقبة فى سبيل الله منذ أسلم فجميع ما أعتقه ألفان وأربعمائة رقبة تقريباً^(٦)

(١) عثمان بن عفان رضى الله عنه، لصادق عرجون، ص ٤٨، ٤٩.

(٢) صحيح التوثيق فى سيرة وحياة ذى النورين، ص ٤٣.

(٣) طبقات ابن سعد (٥٩/٣) خير لا بأس به.

(٤) تغنيت: من الفناء. تمنيت: من التمنى والكذب واختلاق الباطل.

(٥) صحيح التوثيق، ص ٤٤.

(٦) الصواعق المحرقة، لابن حجر الهيئى (٣٢٧/١).

وقد رُوي أنه كان له على طلحة بن عبيد الله - وكان من أجود الناس - خمسون ألفاً، فقال له طلحة يوماً: قد تهيأ مالك فاقبضه، فقال له عثمان: هو لك معونة على مروءتك^(١)، لقد كان سخاء عثمان وجوده صفة أصيلة في شخصيته الفذة رضى الله عنه، فقد وظف أمواله في خدمة دين الله فلم ييخل في تأسيس الدولة الإسلامية، والجهاد في سبيل الله تعالى، وخدمة المجتمع ابتغاء رضوان الله تعالى.

تاسعاً، شجاعته:

بعد عثمان رضى الله عنه من الشجعان والدليل على ذلك:

١ - خروجه للجهاد في سبيل الله، وحضوره المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ: وإذا أتهم بتخلفه عن بدر فقد سبق أن قلنا: إن ذلك كان بأمر من رسول الله ﷺ، ثم عدّه رسول الله ﷺ من الذين شهدوها، وأعطاه سهمه منها، ونال أجره - إن شاء الله - وليس بعد كلام رسول الله ﷺ كلام.

٢ - سفارة رسول الله ﷺ إلى قريش في الحديبية:

امتثل عثمان رضى الله عنه - كما مر معنا - طلب الرسول ﷺ وذهب إلى قريش، وهو يعرف ما أقدم عليه، غير أن رجولته وبطولته قد أبنا عليه إلا الامتثال والطاعة.

إن من يقبل السفارة في مثل تلك الظروف لشجاع عظيم، ويظل من الأبطال النواذر، صحيح أنها أمر من رسول الله ﷺ، ولكنها في الوقت نفسه شجاعة لا يمكن أن يقبل بها جبان بل رجل عادى^(٢).

٣ - الفداء بالنفس:

عندما حوَصِر رضى الله عنه في داره، طلب منه المارقون التنازل عن الخلافة لا خيار غيره، أو القتل، أو عزل ولاته وتسليم بعضهم فأصر على موقفه، مضحياً بنفسه من أن تصبح الخلافة بيد ثلة تُزيح من ترغب، وتُعين من تحب، أو تتزع

(١) البداية والنهاية (٧/٢٢٧).

(٢) الأمين ذو النورين، ص ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦.

الخلافة من صاحبها الذى اختارته الأمة، ويصبح ذلك قاعدة^(١)، فأصر على موقفه وهو يرى الموت فى سيوف المحاصرين، وإن الذى يقف هذا الموقف لهو الشجاع وإنه لصاحب حق، ولن يقف هذا الموقف رجل جبان أو محب للدنيا أبداً، فالحياة عند هؤلاء الجبناء أفضل من المكانة ومن الدنيا كلها^(٢)، ولكن هذا الإصرار العجيب والعزيمة النافذة، والشجاعة الفائقة من عثمان رضى الله عنه ثمرة إيمان قوى بالله - عزَّ وجلَّ - واليوم الآخر وقر فى قلبه، وجعله يستهين بكل شيء فى هذه الحياة حتى بالحياة نفسها^(٣).

٤ - المال:

إن الجهاد بالنفس اقترن مع الجهاد بالمال، وربما قدم عليه، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَفَضَلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

وهناك آيات كثيرة تقرن المال بالنفس، وإن الذى ينفق المال فى سبيل الله بسخاء إنما هو مجاهد وشجاع، وقد أنفق عثمان رضى الله عنه الكثير حتى قال رسول الله ﷺ: «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم» مرتين^(٤).

لقد كان عثمان رضى الله عنه شجاعاً لا يهاب الموت، جريئاً يواجه الباطل فى تحدٍّ سافر، حليماً لا يجهله حقد الحمقى^(٥).

عاشراً: الحزم:

إن صفة الحزم فى شخصية ذى النورين أصيلة، ونجد الصديق رضى الله عنه عندما عرض عليه الإسلام قال له: ويحك يا عثمان!! إنك رجل حازم، ما يخفى عليك

(١) الأمين ذو النورين، ص ١٩٧.

(٢) الأمين ذو النورين، ص ١٩٧.

(٣) جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين، محمد الوكيل، ص ٣٠٤.

(٤) سنن الترمذى رقم ٣٧٨٥.

(٥) جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين، ص ٣٠٤.

الحق من الباطل، ما هذه الأوثان التي يعبدوها قومنا^(١)، وفي سنة ٢٦هـ زاد عثمان في المسجد الحرام، ووسعه وابتاع من قوم وأبى آخرون، فهدم عليهم، ووضع الأثمان في بيت المال، فصيحوا بعثمان، فأمر بهم بالحبس، وقال: أتدرون ما جراكم على؟ ما جراكم على إلا حلمي، قد فعل هذا بكم عمر فلم تصيحوا به، ثم كلمه فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد، فأخرجوا^(٢)، ومن المواقف التي تدل على حزمه؛ حمايته لنظام الخلافة من الضياع، فلم يجب الخارجين إلى خلع نفسه من الخلافة، فكان بذلك يمثل الثبات واستمرار النظام؛ لأنه لو أجاب الخارجين إلى خلع نفسه لأصبح منصب الإمامة العظمى العوبة في أيدي المفتونين الساعين في الأرض بالفساد، ولسادت الفوضى واختل نظام البلاد، ولكان ذلك تسليطاً للرعا والغوغاء على الولاة والحكام، لقد كانت نظرة عثمان رضي الله عنه بعيدة الغور، فلو أجابهم إلى ما يريدون لسنّ بذلك سنّة، وهي كلما كره قوم أميرهم خلعه، ولألقى بأس الأمة بينها، وشغلها بنفسها عن أعدائها وذلك أقرب لضعفها وانهارها، على أنه لم يجد سوى نفسه يفدى بها الأمة، ويحفظ كيائها وبنائها من التصدع، ويدعم بهذا الفداء نظامها الاجتماعي، ويحمي سلطانها الذي تُساس به من أن تمتد إليه يد العث والفوضى، وما لا شك فيه أن هذا الصنع من عثمان كان أعظم وأقوى ما يستطيع أن يفعله رجل ألقى إليه الأمة مقاليدها، إذ لجأ إلى أهون الشرين وأخف الضررين ليدعم بهذا الفداء نظام الخلافة وسلطانها^(٣)، وسيأتى بيان ذلك في محله بإذن الله.

الحادية عشرة: الصبر

اتصف عثمان رضي الله عنه بصفة الصبر - ومن المواقف الدالة على هذه الصفة، ثباته في الفتنة، إذ كان موقفه إزاء تلك الأحداث التي أملت به وبالمسلمين المثل الأعلى لما يمكن أن يقدمه الفرد من تضحية وفداء في سبيل حفظ كيان الجماعة، وصون كرامة الأمة، وحقق دماء المسلمين، فقد كان بإمكانه أن يقي نفسه ويخلصها لو أنه

(١) عثمان بن عفان رضي الله عنه، لصادق عرجون، ص ٤٧.

(٢) تاريخ الطبري (٥/ ٢٥٠).

(٣) تحقيق مواقف الصحابة من الفتنة (١/ ٤٧٤).

أراد نفسه ولم يرد حياة الأمة، ولو كان ذاتياً ولم يكن من أهل الإيثار لدفع بمن هبّ للذود عنه من الصحابة وأبناء المهاجرين والانصار إلى نحور الخارجين المنحرفين عن طاعته، ولكنه أراد جمع شمل الأمة، فقلدها بنفسه صابراً محتسباً وقد أعلن عثمان رضى الله عنه أنه سيواجه الفتنة العارمة بالصبر الجميل^(١)، عمثلاً قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

إن عثمان رضى الله عنه كان قوى الإيمان بالله، كبير النفس، نقاذ البصيرة، نبيل الصبر، حيث فدى الأمة بنفسه، فكان ذلك من أعظم فضائله عند المسلمين^(٢)، قال ابن تيمية - رحمه الله -: ومن المعلوم بالتواتر أن عثمان كان من أكف الناس عن الدماء، وأصبر الناس على من نال من عرضه وعلى من سعى فى دمه، فحاصروه وسعوا فى قتله وقد عرف إرادته لقتله، وقد جاء المسلمون ينصرونه ويشيرون عليه بقتالهم، وهو يأمر الناس بالكف عن القتال، ويأمر من يطيعه أن لا يقاتلهم... وقيل له: تذهب إلى مكة؟ فقال: لا أكون من الخد فى الحرم، ف قيل له: تذهب إلى الشام؟ فقال: لا أفارق دار هجرتى، ف قيل له: فقاتلهم، فقال: لا أكون أول من خلف محمداً فى أمته بالسيف، فكان صبر عثمان حتى قُتل من أعظم فضائله عند المسلمين^(٣).

الثانية عشرة: العدل:

واتصف عثمان رضى الله عنه بصفة العدل، فعن عبيد الله بن عدى بن الحيار أنه دخل على عثمان رضى الله عنه وهو محصور فقال له: إنك إمام العامة، وقد نزل بك ما ترى، وهو ذا يصلى بنا إمام فتنة - عبد الرحمن بن عُدَيْس البلوى - وأنا أخرج من الصلاة معه، فقال له عثمان: إن الصلاة أحسن ما يعمل الناس، فإذا أحسن الناس فأحسن معهم، وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم^(٤)، وروى ابن شبة بإسناده؛ قال:

(١) سير الشهداء، للسختياني، ص ٥٧، ٥٨.

(٢) تحقيق مواقف الصحابة من الفتنة (١/٤٧٢).

(٣) منهاج السنة (٢/٢٠٢ - ٢٠٣).

(٤) البخارى رقم ٦٩٥.

دخل عثمان بن عفان على غلام له يعلف ناقة ، فرأى في علفها ما كره ، فأخذ بأذن غلامه فعرکہا ، ثم ندم ؛ فقال لغلامه : اقتص ؛ فأبى الغلام ، فلم يدعه حتى أخذ بأذنه فجعل يعرکہا ، فقال له عثمان : شد حتى ظن أنه قد بلغ منه مثل ما بلغ منه ، ثم قال عثمان رضى الله عنه : (واما لقصاص قبل قصاص الآخرة) ^(١).

الثالثة عشرة: عبادته:

كان عثمان رضى الله عنه من المجتهدين في العبادة ، وقد روى من غير وجه أنه صلى بالقرآن العظيم في ركعة واحدة عند الحجر الأسود ، أيام الحج ، وقد كان هذا من دأبه ^(٢) ، ولهذا روينا عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال في قوله تعالى : ﴿أَمِنْ هُوَ قَانَتْ آثَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ١٩] قال : هو عثمان بن عفان ^(٣) ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى : ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦] قال : هو عثمان ^(٤) ، وكان رضى الله عنه يفتح القرآن ليلة الجمعة ، ويختتمه ليلة الخميس ^(٥) ، وكان رضى الله عنه يصوم الدهر ويقوم الليل إلا هجعة من أوله ^(٦).

الرابعة عشرة: خوفه من الله ويكاؤه ومحاسبته لنفسه:

فقد جاء في إحدى خطبه : أيها الناس اتقوا الله فإن تقوى الله غنم ، وإن أكيس الناس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، واكتسب من نور الله نوراً لقبره ، وليخش أن يحشره الله أعمى وقد كان بصيراً ^(٧) ، وقد روى عنه قوله : لو أنى بين الجنة والنار ، لا أدري إلى أيتهما يؤمر بى لتمنيت أن أصير رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير .

(١) أخبار المدينة (٣/ ٢٣٦).

(٢) الطبقات الكبرى (٣/ ٧٦) ، وتاريخ الإسلام عهد الخلفاء ، الذهبي ، ص ٤٧٦ .

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٧).

(٤) المصدر نفسه (٢/ ٥٧٩).

(٥) علو الهمة (٣/ ٩٣).

(٦) صفة الصفوة (١/ ٣٠٢).

(٧) صحيح التوثيق ، ص ١٠٧ .

وكانت روحه ترتجف وعبراته تفيض عندما يذكر الآخرة، وعندما يتخيل نفسه وقد انشق قبره ونسل من جدته إلى العرض والحساب^(١)، فعن هانئ مولى عثمان، قال: كان عثمان إذا وقف على قبر بكى حتى تبطل لحيته، ف قيل له: تذكر الجنة والنار وتبكي من هذا؟ قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه»، قال: وقال رسول الله ﷺ: «والله ما رأيت منظرًا إلا والقبر أقطع منه»، قال: وكان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه، ثم قال: «استغفروا لأخيكم وسلوا له بالثبوت فإنه الآن يُسأل»^(٢)، وهذا من فقه القдом على الله الذى استوعبه عثمان رضى الله عنه وعاش به فى حياته، وما أحوجنا إلى هذا الفقه العظيم الذى به تحيا النفوس وتتفجر الطاقات.

الخامسة عشرة: زهده

اشتهر أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه بأثنه من أهل الغنى والثروة، ولكن مع هذه الشهرة فإنه قد رويت عنه أخبار تدل على أنه كان من الزاهدين فى الدنيا، فعن حميد بن نعيم؛ أن عمر وعثمان رضى الله عنهما دُعيا إلى طعام، فلما خرجا قال عثمان لعمر: قد شهدنا طعامًا لوددنا أننا لم نشهده، قال: لم؟ قال: إني أخاف أن يكون صنع مباهاة^(٣)، فهذا فقه من عثمان رضى الله عنه بمجالات السخاء الإسلامى، فالسخاء فى الإسلام لا يكون بالتفاخر بالكرم والتباهى بنوع الطعام أو كثرته، وإنما يكون ببذل المال من غير إسراف ولا خيلاء مع شكر المنعم - جل وعلا - والتواضع للناس، وهذه النظرة من عثمان تعتبر من التزهيد بالجاء الدنيوية، وهذا يدل على أنه كان من الزاهدين فى ذلك^(٤)، ومن زهد عثمان رضى الله عنه وتواضعه ما أخرجه الإمام أحمد من حديث ميمون بن مهران قال: أخبرنى الهمداني أنه رأى عثمان بن

(١) نظام الحكم فى عهد الخلفاء الراشدين، ص ٢٠٥.

(٢) فضائل الصحابة رقم ٧٧٣ إسناده حسن.

(٣) الزهد للإمام أحمد، ص ١٢٦.

(٤) التاريخ الإسلامى (١٧، ١٨ / ٤٨).

عفان على بغلة وخلفه غلامه نائل وهو خليفة^(١)، وكذلك ما أخرجه من حديث الهمداني قال: رأيت عثمان نائماً في المسجد في ملحفة ليس حوله أحد وهو أمير المؤمنين^(٢)، كما أخرج من حديث شرحبيل بن مسلم أن عثمان بن عفان رضى الله عنه كان يطعم الناس طعام الإمارة ويدخل إلى بيته فيأكل الخل والزيت^(٣).

فهذه أمثلة جلية من زهد أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه، وحينما يكون الزاهد متوسطاً في المعيشة فإن زهده لا يلفت النظر كثيراً ولا يثير العجب، ولكن حينما يكون غنياً فإن زهده يكون مدهشاً للمتأملين وعبرة للمعتبرين، ذلك لأن كثرة المال تغرى بالانصراف نحو الملذات والتوسع في النفقات، فلا بد ليكون الغنى زاهداً من استيعابه لفقه القلوم على الله حتى يكون مهيمناً على نفسه مذكراً لقلبه، فتكبر الآخرة في عينه وتصغر الدنيا في نفسه، وهكذا كان عثمان رضى الله عنه الذي كان من أعظم الأثرياء في الإسلام قد غلبت قوة إيمانه شهوته وهواه، فكان من أعظم الزاهدين وضرب من نفسه مثلاً لجميع الأغنياء بإمكان الجمع بين الغنى والزهد في الدنيا^(٤).

السادسة عشرة: الشكر

كان عثمان رضى الله عنه كثير الشكر لله تعالى باللسان والجان والأركان، دعى ذات يوم إلى قوم على رية فانطلق ليأخذهم فتفرقوا قبل أن يبلغهم، فأعتق رقبة، شكراً لله أن لا يكون جرى على يديه خزي مسلم^(٥).

السابعة عشرة: تفقد أحوال الناس

كان رضى الله عنه ودوداً رءوفاً يسأل عن أحوال المسلمين، ويتعرف مشكلاتهم، ويطمئن على غائبهم، ويواسي قادمهم، ويسأل عن مرضاهم، فقد روى الإمام أحمد

(١) (٢) الزهد، ص ١٢٧.

(٣) الزهد، ص ١٢٩.

(٤) التاريخ الإسلامي (١٧، ١٨/٤٩).

(٥) علو الهمة (٥/٤٨١).

عن موسى بن طلحة، قال: رأيت عثمان بن عفان وهو على المنبر، وهو يستخبر الناس يسألهم عن أخبارهم وأسعارهم^(١)، وروى ابن سعد في الطبقات عنه أيضاً قال: رأيت عثمان بن عفان يخرج يوم الجمعة عليه ثوبان أصفران، فيجلس على المنبر، فيؤذن المؤذن، وهو يتحدث يسأل الناس عن أسفارهم وعن قادمهم وعن مرضاهم^(٢)، وكان رضى الله عنه يهتم بشئون الرعية، ويصل ذوى الحاجة، ويفرض العطاء للمواليد من بيت المال^(٣)، فقد روى عن عروة بن الزبير قال: أدركت زمن عثمان وما من نفس مسلمة إلا ولها فى مال الله حق يعنى بيت المال^(٤).

الثامنة عشرة: تحديد الاختصاصات:

المراد بتحديد الاختصاص تقسيم وظائف العمل على العاملين، بحيث يكون كل موظف عالماً بالعمل الذى كلفه ليقوم به دون تقصير فيه، ولا يتجاوز به إلى عمل آخر مسند إلى سواه، وتقسيم الوظائف سنة كونية ربانية عمل بها الرسول ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده، ففى عهد عثمان رضى الله عنه وزعت الوظائف والأعمال على المسلمين كل فى ميدانه كما سيأتى بيانه بإذن الله، ففى مؤسسة القضاء، والمال، والجيش، وولاية الأمصار ظهرت الصفة القيادية فى تحديد الاختصاصات عند الخليفة الراشد عثمان رضى الله عنه، فقد تم تقسيم الأعمال وحددت قواعد بين العاملين كانت من أهم عوامل النجاح فى دولة الخلفاء الراشدين، وبذلك تعامل الخليفة الراشد عثمان مع الستين الكونية والشرعية فى تحديد الاختصاصات^(٥).

التاسعة عشرة: الاستفادة من أهل الكفاءات:

إن الإشادة بالأكفاء وإرشاد الأمة إلى احترامهم، وتكريمهم ووضعهم فى مواضعهم وعدم هضمهم حقوقهم، والاستفادة من طاقاتهم واختصاصاتهم، إن ذلك مما جعل

(١) فضائل الصحابة رقم ٨١٢ إسناده صحيح.

(٢) الطبقات (٥٩/٣).

(٣) تحقيق مواقف الصحابة (٣٩٦/١).

(٤) المصنف فى الحديث^٥ بن أبى شيبه (١٠٢٣/٣).

(٥) الكفاءة الإدارية، ص ١١٧.

أهل القرون المفضلة من سلف هذه الأمة يتألون العز والمجد والتمكين في هذه المعمورة^(١)، وقد ظهرت هذه الصفة في شخصية عثمان رضى الله عنه عندما استفاد من كفاءات زيد بن ثابت واللجنة التي عينت معه في جمع القرآن على حرف واحد.

هذه بعض الصفات التي لاحظتها في شخصية عثمان رضى الله عنه، وهي محل قدوة وأسوة لقادة المسلمين وعوامهم لمن يريد أن يتبع هدى النبي ﷺ والخلفاء الراشدين في هذه الحياة.

إن معرفة صفات الخلفاء الراشدين ومحاولة الاقتداء بهم، خطوة صحيحة لمعرفة صفات القادة الربانيين الذين يستطيعون أن يقودوا الأمة نحو أهدافها المرسومة بخطوات ثابتة، فمن أسباب التمكين لهذا الدين العمل على إيجاد قادة ربانيين، جرى الإيمان في قلوبهم وعروقهم وانعكست ثماره على جوارحهم وتفجرت صفات التقوى في أعمالهم وسكناتهم وأحوالهم، فالقيادة الربانية الحكيمة هي التي تسعى لتحكيم شرع الله، وتفجير طاقات الأمة وتوجيهها وهي التي تحتضن الإسلام وتنهجه قلباً وقالباً، وجوهرًا ومنظرًا، وعقيدة وشريعة، ودينًا ودولة، وهي التي تصبح ونسباً وهمها عقيدتها وأمتها، وهي التي تسعى بكل ما تملك لحل المشاكل التي تواجهها وتعمل بكل جهد وإخلاص للقضاء على عوائق التمكين الداخلية والخارجية.

(١) المصدر نفسه، ص ١٥٧.

الفصل الثالث

المؤسسة المالية والقضائية فى عهد عثمان رضى الله عنه

المبحث الأول

المؤسسة المالية

لما تولى عثمان رضى الله عنه الخلافة لم يغير من سياسة عمر المالية، وإن كان قد سمح للمسلمين باقتناء الثروات وتشييد القصور وامتلاك المساحات الشاسعة من الأراضى، فقد زالت عن المسلمين شدة عمر والتي كانت ترهبهم وتخيفهم، والتي كانت تحول دون الكثير مما يشتهون، وكان عهده عهد رخاء على المسلمين^(١).

أولاً: السياسة المالية التى أعلنها عثمان عندما تولى الحكم،

وجه عثمان رضى الله عنه كتاباً إلى الولاة، وكتاباً آخر إلى عمال الخراج، وأذاع كتاباً على العامة، وقد ذكرت نصوصها عند حديثي عن منهجه فى الحكم، وفى ضوء تلك النصوص نكون عناصر السياسة المالية العامة التى أعلنها ثالث الخلفاء الراشدين قد قامت على الأسس العامة التالية:

- * تطبيق سياسة مالية عامة إسلامية.
- * عدم إخلال الجباية بالرعاية.
- * أخذ ما على المسلمين بالحق لبيت مال المسلمين.
- * إعطاء المسلمين ما لهم من بيت مال المسلمين.

(١) مبادئ الاقتصاد الإسلامى، لسعاد إبراهيم صالح، ص ٢١٧.

* أخذ ما على أهل الذمة لبيت مال المسلمين بالحق، وإعطاؤهم ما لهم وعدم ظلمهم.

* تخلق عمال الخراج بالأمانة والوفاء.

* تفادى أية انحرافات مالية يسفر عنها تكامل النعم لدى العامة^(١).

ونفصل فيما يلي هذه الأسس:

١ - نية عثمان بن عفان تطبيق سياسة مالية عامة:

كما لا شك فيه أن الخليفة الثالث عثمان بن عفان عزم على تطبيق سياسة مالية عامة إسلامية، فقد بوع رضى الله عنه على أساس تطبيق حكم الله وسنة رسوله وسياسة الخلفيتين قبله، وقد طبق أبو بكر رضى الله عنه ما نزل به القرآن وما سنة رسول الله ﷺ فيما يتعلق بالسياسة المالية وغيرها من الأحكام، وقام عمر بتطوير المؤسسة المالية ونظم قواعدها وأرسى مبادئها وزاد موادها ورشد إنفاقها، ونهج عثمان طريقهم، واجتهد في بعض الأمور القابلة للاجتهاد، فنفذ حكم الله في الأرض في قضايا الأموال وغيرها، فأشرف على دفع الزكاة لبيت المال، وتوزيعها على مستحقيها. وأهل الكتاب في دفعهم الجزية لبيت مال الدولة الإسلامية يدخلون في ذمتها تحميمهم وتوفر لهم الأمان وتضفى عليهم سائر خدماتها العامة، والمجاهدون يغنمون الأموال ويرسلون خمسها لبيت مال المسلمين، ويقوم بيت المال بتوزيعها على اليتامى والمساكين وأبناء السبيل وغيرها من وجوه الإنفاق طبقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١] وغير ذلك من مصادر الدولة المعروفة، وقد تميزت المالية العامة في عهد ذي النورين والخلفاء الراشدين، بأنها مرتبطة بالإسلام وتطبيق تعاليمه وتحمي إراداته، ويساند الإنفاق العام فيها على نشر راية الإسلام وخير المسلمين وهى مرشدة للإنفاق لأن تعاليم الإسلام تمنع الإسراف وتجاربه والله لا يحب المرففين، وتمنع

(١) السياسة المالية لعثمان رضى الله عنه، قطب إبراهيم، ص ٦١.

السفهاء من التحكم فى الأموال، وهى مالية عامة خيرة؛ لأن بعض مواردها العامة توجه للبنية الضعيفة من الرعاية، وهى نقية من الدنس، ولا تتضمن مواردها كسباً من حرام؛ لأن الله لا يبارك الكسب الحرام.

٢ - عدم إخلال الجباية بالرعاية:

ينبه عثمان بن عفان رضى الله عنه فى كتابه للولاة أن جباية أموال بيت المال كادت تطفى على الواجب الأول للولاة وهو رعاية الرعية، وذلك أن الجباية أحد واجبات الرعية المكلف بها رئيس الدولة الإسلامية فلا يصح أن تطفى على سائر الواجبات^(١)، وقد استببط الفقهاء من الهدى النبوى والعهد الراشدى تكاليف الرعاية أى واجبات الخليفة لتحقيق رعاية الأمة كما يلى:

قال الماوردى: والذى يلزمه من الأمور العامة عشرة أشياء:

أحدها: حفظ الدين على أصوله المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمة.

والثانى: تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بين المتنازعين؛ حتى تعم النصفة فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم.

والثالث: حماية البيضة والذب عن الحريم؛ ليتصرف الناس فى المعاش ويتشربوا فى الأسفار آمنين من تغرير بنفس أو حال.

والرابع: إقامة الحدود لتحصان محارم الله تعالى عن الانتهاك، وتحفظ حقوق عباده من إتلاف واستهلاك.

والخامس: تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة، حتى لا تظفر الأعداء بغرة يتهكون فيها محرماً أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دماً.

والسادس: جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة إليه حتى يسلم أو يدخل الذمة، ليقام بحق الله تعالى فى إظهاره (الإسلام) على الدين كله.

(١) السياسة المالية لعثمان رضى الله عنه، ص ٦٢.

والسابع: جباية الفئء والصدقات على ما أوجبه نصاً واجتهاداً، من غير خوف ولا عسف.

والثامن: تقدير العطايا وما يستحق من بيت المال من غير سرف ولا تقتير، ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير.

والناسع: استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوض إليهم من الأعمال ويكله إليهم من الأموال؛ لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة والأموال بالأمناء محفوظة.

والعاشر: أن يباشر بنفسه مشاركة الأمور وتصفح الأحوال؛ لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة، ولا يعوّل على التفويض تشاغلاً بلذّة أو عبادة^(١)، ويبيجاز فإن واجبات الخليفة تنفرع عن شرطى عقد البيعة وهما حراسة الدين وسياسة الدنيا^(٢) اللذين هما مهمة الرسول ﷺ الذى هو خليفته، وإن كان الماوردى والفراء المتعاصران قد تطابقت تحديداتهما لواجبات الإمام، فإنما ذلك اجتهاد منهما حسب حاجة الأمة في عصرهما، ولا ينبغي أن تقتصر حقوق الأمة على ما عدده عالم من علمائها أو أكثر مهما بلغ من فضل وسعة علم ومهما كانت نظيرته للموضوع شاملة هذا إن كان العالم معاصراً، فكيف إن كانت آرائه واجتهاده قد سبقنا بقرون^(٣)، ولذا فينبغى أن تحدد واجبات الإمام بناءً على الشرطين العامين لصحة عقده وهما حراسة الدين وسياسة الدنيا، وينبغى أن تقوم لجان من علماء الأمة بتحديد ذلك لاهل زمانهم^(٤).

هذه بعض تكاليف الرعاية كما أوردها الفقهاء، وهى قابلة للتطوير بما يلائم تطور الأزمان والعصور بحيث لا يخالف التطوير نصاً من نصوص القرآن أو حكماً من أحكام الدين^(٥).

(١) الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص ١٦، ١٧.

(٢) مقدمة ابن خلدون، ص ١٩١.

(٣) الخلافة بين التنظير والتطبيق، محمد المرداوى، ص ٦٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٦٧.

(٥) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضي الله عنه، ص ٦٣.

٣ - أخذ ما على المسلمين بالحق لبيت مال المسلمين:

عمال الخراج نواب عن الدولة فى استثناء حقوق بيت المال، فإذا ما أخذوا ما على المسلمين بالحق أدوا واجبه المنوط بهم، وإذا غالوا فى جباية حقوق بيت المال، ظلموا الممولين وألحقوا بهم الضرر وحملوهم فوق ما يطيقون، والرسول ﷺ يحذر من المغالاة فى استثناء حقوق بيت المال، فقد نهى عن جباية كرائم الأموال فى الزكاة، وأمر بالتخفيف فى استثناء زكاة الثمر^(١).

٤ - إعطاء المسلمين ما لهم من بيت المال بالحق:

عطاء بيت المال للمسلمين إما أن يكون مباشراً كصرف الزكاة للمستحقين لها وما يقضى به نظام الأعطيات من توزيع فائض الأموال على المسلمين، أو يكون العطاء العام غير مباشر يتمثل فى الخدمات العامة التى تؤديها الدولة للرعية، وهذه يتفق عليها من بيت مال المسلمين، وفى كلا العطاءين ينبغى أن يتسم العطاء بالحق، فلا يجوز فى العطاء المباشر أن تخالف الأسس التى تحددت لوضعه محابة لبعض الأفراد أو حرماناً أو نقصاناً للبعض الآخر دون مبرر، ولا يجوز أن يتأخر العطاء عن مواعده بسبب تعقد الإجراءات أو كثرة الحجب التى تحجب أرباب الظلامات عن الوصول لمن بيدهم أمر العطاء لبحث ظلامتهم من تأخير العطاء أو قلته أو عدم وصوله إليهم، ولا يجوز فى العطاء غير المباشر المتمثل فى الخدمات العامة التى تؤديها الدولة للشعب أن تكون المنفعة لفرد معين، بل يجب أن يعود نفعها على الأمة جمعاء^(٢).

٥ - عدم ظلم أهل الذمة وأخذ ما عليهم لبيت المال بالحق، وإعطاؤهم حقوقهم بالحق كذلك:

لا يجوز ظلم أهل الكتاب عند أخذ الجزية منهم؛ لأن أهل الكتاب من الذميين الذين يقيمون فى الدولة الإسلامية وهم فى ذمتها ورعايتها ما داموا يؤدون الجزية، وقد أوصى بهم رسول الله ﷺ فقد ولى عبد الله بن أرقم على جزية أهل الذمة،

(١) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضى الله عنه، ص ٦٤.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٦٦.

فلما ولي عنه ناداه فقال: «ألا من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته أو انتقصه أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة»^(١). واستناداً لذلك فقد أوصى بهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين موته: أوصى الخليفة من بعدى بأهل الذمة خيراً، أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم^(٢).

فإذا أدى عمال الجزية الذميين أو كلفوهم فوق طاقتهم أو عذبوهم، أو أخذوا الجزية من الشيخ الكبير الذى لا شئ له ولا يستطيع العمل، أو أخذوها من الذمى الذى أسلم، كان هذا لوناً من ألوان الظلم الذى نبه الخليفة الثالث فى كتابه عمال الخراج بعدم ارتكابه مستنداً فى ذلك لتعاليم الرسول ﷺ^(٣).

هذا وعلاوة على الجزية يؤدى أهل الذمة الذين يزرعون أرض الخراج، وهى التى آلت للدولة الإسلامية كغنيمة نتيجة للفتح الإسلامى، ما يستحق عليها من خراج لبيت مال المسلمين، ويجب أن يراعى عمال الخراج الحق فى تحديد قيمته المستحقة على الأراضى التى يزرعها أهل الذمة، وذلك بمراعاة العوامل التى تحكم تحديده؛ لأن إغفالها كلها أو بعضها يوقع الظلم بأهل الذمة الذين يزرعونها وهذه العوامل أربعة:

- * ما يختص بالأرض من جودة يزكو بها زرعها أو رداءة يقل بها ريعها.
- * ما يختص بالزراع من اختلاف أنواعه من الحبوب والثمار فمنها ما يكثر ثمنه ومنها ما يقل ثمنه فيكون الخراج بحسبه.
- * ما يختص بالسقى والشرب لأن ما التزم المثلثة فى سقيه التواضع والدوالى لا يحتمل من الخراج ما يحتمله سقى السيوح والأمطار.
- * أن لا يستقصى فى وضع الخراج غاية ما تحمله ليجعل فيها لأرباب الأرض بقية يجبرون بها فى التوائب والجوائع^(٤).

هذا، وإذا كانت الدولة الإسلامية قد أبرمت عهداً أو عقدت صلحاً مع أهل

(١) المنتخب من السنة، ص ٢٦١.

(٢) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضى الله عنه، ص ٦٧.

(٣، ٤) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضى الله عنه، ص ٦٧.

الكتاب، فواجب الدولة الإسلامية وعمالخراجها أن يلتزموا بما ورد بها من شروط، ومنها الشروط التي تحدد قيمة ما يدفعونه من جزية أو خراج؛ لأن المسلمين إذا أبرموا عقدًا أو عهدوا عهدًا التزموا بالوفاء بالعقود والعهود (١).

٦ - عدم ظلم اليتيم:

لليتيم حقوق في المال العام بنصوص القرآن الكريم، فهو من المستحقين لأموال الزكاة إن كان فقيرًا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

ولليتيم نصيب في خمس الغنائم تطبيقًا لقوله جل وعلا: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ أَمْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١]، ولليتيم نصيب في عطاء بيت المال فقد كان يفرض للأطفال عمومًا ومنهم يتامى الأطفال، وإذا كان اليتيم غنيًا فيؤدي الزكاة المفروضة على أمواله إذا توفرت، وواجب المصدق أن يأخذ الزكاة بالحق والعدل حتى لا يذهب ظلمه بمال اليتيم أو جزء منه بغير وجه حق (٢).

٧ - تخلق عمال الخراج بالأمانة والوفاء:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيمًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

طالب الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه عمال الخراج أن يتحلوا بالأمانة وهي صفة لازمة لجميع من يشتغلون بالأموال العامة، وإذا لم تتوفر فيهم هذه الصفة جاروا على حقوق بيت المال، وجاروا على المولدين، وانتكست العلاقة بين

(١) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضي الله عنه، ص ٦٧.

(٢) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضي الله عنه، ص ٦٨.

بيت المال والممولين، والقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة تنبه وتحض على التزام الأمانة، وطالب الخليفة عثمان كذلك عمال الخراج بأن يتحلوا بالوفاء، وقد ورد الوفاء مطلقاً في كتاب الخليفة فيشمل: الوفاء لبيت المال بمراعاة أخذ حقوقه كاملة من الرعية، والوفاء للممولين بعدم ظلمهم بالمغالة في تحديد الفرائض المالية المطلوبة منهم، والوفاء لأهل الذمة بالرفق وحسن المعاملة وتطبيق ما تضمنته شروط الصلح معهم من جزية وخراج دون زيادة^(١).

٨ - أثر تكامل النعم على مسار الأمة:

لم يرد عثمان بن عفان رضى الله عنه أن يترك العامة دون تبصيرهم، فحذرهم من أن تجذبهم الدنيا إلى ملاذها ومتاعها، وخشى أن أمر الأمة صائر إلى الابتداع بعد أن توفرت لهم ثلاث وهى: تكامل النعم، ويلوغ أولاد السبايا، وقراءة الأعاجم^(٢)، فعثمان رضى الله عنه أدرك أن تكامل النعم لدى البعض سيميل بأولى النعم عن المسار السليم؛ لأن تكامل النعمة بزيادة الأموال لدى أفراد الرعية قد يفسدهم بسبب ما ينفقونه على الترف والفساد^(٣)، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦٦]

٩ - المقارنة بين السياسة العمرية والعثمانية:

هذه السياسة المالية التى أعلنتها ذو التورين تكاد تتفق مع السياسة العامة المالية التى نفذها الفاروق حين ولى أمر المسلمين، فقد أعلن ونفذ: أن المال العام لا يصلحه إلا خلال ثلاث، أن يؤخذ بالحق ويعطى فى الحق ويمنع فى الباطل^(٤)، فالسياسة العمرية والعثمانية فى المال تتبعان من مشكاة واحدة وهى مشكاة الإسلام ومبادئه وأصوله وقواعده^(٥).

(١) المزجج نفسه، ص ٦٩.

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٤٥).

(٣) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضى الله عنه، ص ٧٠.

(٤) السياسة المالية لعمر بن الخطاب، قطب إبراهيم محمد، ص ٢٣ وما بعدها.

(٥) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضى الله عنه، ص ٧٦.

ثانياً: توجيهات عثمانية توضح للناس قواعد زكاتهم:

قال عثمان رضى الله عنه: هذا شهر زكاتكم فمن كان عليه دين فليؤده حتى تخرجوا زكاة أموالكم، ومن لم تكن عنده لم تطلب منه، حتى يأتى بها تطوعاً، ومن أخذ منه حتى يأتى هذا الشهر من قابل، قال إبراهيم بن سعد: أراه يعنى شهر رمضان^(١)، وقال أبو عبيد: وقد جاءنا فى بعض الأثر أن هذا الشهر الذى أراد عثمان هو المحرم^(٢). وبهذا القول أكد عثمان رضى الله عنه المبادئ التالية:

أ - مبدأ سنوية الزكاة؛ إذ يشترط لأداء الزكاة ما عدا زكاة الزروع حولان الحول، ويظهر ذلك من قول عثمان: أن من أخذ منه لا يؤدى زكاة عن أمواله حتى يأتى نفس الشهر فى السنة التالية فلا تتكرر عليه الزكاة فى عام واحد.

ب - إذا أخذنا بقول أبى عبيد أن الشهر الذى قصده عثمان هو شهر المحرم، فكأنه أراد أن تكون السنة المالية الإسلامية مطابقة للسنة الهجرية، فعلى المسلمين بعد مرور سنة هجرية كاملة على ما لديهم من أموال أن يسددوا ما عليها من زكاة فى أول السنة الهجرية التالية وهو شهر المحرم إذا توفرت شروطها.

ج - ويدعو عثمان بن عفان رضى الله عنه الناس إلى حساب وعاء الزكاة، فيطلب منهم أداء ما عليهم من ديون حتى تؤخذ الزكاة على الباقي^(٣)؛ ولعل عثمان أراد أن يستحث الناس على أداء ما عليهم من ديون وفاء منهم للدائنين وتسهيلاً لحساب المال الخاضع للزكاة، وحتى يقطع بجدية الدين وعدم تطرق الصورية إليه^(٤).

د - يقول عثمان رضى الله عنه: ومن لم تكن عنده لم تطلب منه حتى يأتى بها تطوعاً. وبذلك يفتح عثمان بن عفان الدعوة إلى التطوع فقد يرى بعض المسلمين أنه لا يستحق عليهم زكاة ومع ذلك يرون التطوع بأداء صدقات من أموالهم يؤدونها لبيت

(١) الأموال، لأبى عبيد، ص ٥٣٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٣٥.

(٣) السياسة المالية لعثمان رضى الله عنه، ص ٧٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٧٦.

المال، فيقبلها منهم ويضمها إلى موارد الزكاة وتصرف الدولة منها على نفس مصارف الزكاة^(١)، وقد يكون قول عثمان رضى الله عنه: ومن أخذنا منه لم نأخذ منه حتى يأتينا بها تطوعاً، أنه يقصد أن لا يجبى بيت المال صدقة الذهب والفضة إلا إذا أتى بها صاحبها لبيت المال، وأما الصدقة التي يكره الناس عليها ويجاهدون على منعها فهي صدقة الماشية والحرث والنخل، وبذلك يكون عثمان قد ترك لأصحاب الأموال أداء الزكاة على ما يعرف بالأموال الباطنة، وهى أموال الذهب والفضة والتجارة، ولا يقبلها منهم إلا إذا أتى بها صاحبها تطوعاً^(٢)، يقول فى ذلك أبو عبيد: ألا ترى أن رسول الله ﷺ قد كان يبعث مصدقيه إلى الماشية فيأخذونها من أربابها بالكره منهم والرضا، وكذلك كانت الأئمة بعده، وعلى منع صدقة الماشية قاتلهم أبو بكر، ولم يأت عن النبي ﷺ ولا عن أحد بعده أنهم استكروهوا الناس على صدقات الصامت، إلا أن يأتوا بها غير مكرهين، وإنما هى أماناتهم يؤدونها فعليهم فيها أداء العين والدين لأنها ملك أيمانهم وهم مؤمنون عليها، وأما الماشية فإنها حكم يحكم بها عليهم، وإنما تقع الأحكام فيما بين الناس على الأموال الظاهرة وهى فيما بينهم وبين الله على الظاهرة والباطنة جميعاً^(٣).

١ - رأيه فى زكاة دين الدائن:

عن السائب بن يزيد أن عثمان كان يقول: إن الصدقة تجب فى الدين الذى لو شئت تقاضيته من صاحبه، والذى هو ملىء تدعه خيأ أو مصانعة فيه الصدقة^(٤).

وعن عثمان رضى الله عنه قال: زكه - يعنى الدين - إذا كان عند الملىء^(٥).

فمن هذين القولين لعثمان بن عفان يبين أن الصدقة واجبة على الدين للدائن على المدين الملىء ويستطيع أن يحصل من المدين على دينه، ولكن يستجى أن يذكر المدين

(١) المصدر نفسه، ص ٧٧.

(٢) الأموال، لأبى عبيد، ص ٥٣٧.

(٣، ٤) الأموال، لأبى عبيد، ص ٥٣٧.

(٥) المنتخب من السنة (٣٠١/٦).

به أو أن الدائن يدع دينه للمدين مصانعة له، والمصانعة تعنى سكوت الدائن عن المطالبة بدينه نظير منفعة يحصل عليها من المدين^(١).

٢- اقتراضه من مصارف الزكاة وإنفاقه للمصالح العامة:

أخذ عثمان رضى الله عنه من أموال الزكاة، فأنفق منها في الحرب وفي غير الحرب على المرافق العامة، فأنفق على الجهاد على أن يرد ذلك إذا اتسع المال لرده، ومن حق الإمام أن يقترض من مصرف لمصرف، لا يخالف بذلك الدين ولا يغير سنة موروثة ما دام مضمماً على أن يرد على أموال الصدقة ما أخذ منها^(٢)، وتذهب بعض الآراء إلى أن أحد مصارف الزكاة وهو مصرف في سبيل الله يعطى للغزى في سبيل الله من أموال الزكاة؛ لأن انقطاعه للجهاد أقعده عن العمل والكسب، وليس هذا من باب التشجيع على البطالة فهذا الصنف قد أثر مصلحة الإسلام على مصلحة نفسه، وترك العمل لشخصه يعمل في مجال أرحب وأوسع وهو العمل لإعلاء كلمة الله ونشر دينه في المعمورة، ويرى بعض العلماء جواز صرف الزكاة في المنافع العامة وما تقتضيه حاجات الأمة^(٣).

٣- الإنفاق من الزكاة على الطعام للفقراء وأبناء السبيل:

سنّ عثمان رضى الله عنه سنة جديدة، فكان يضع الطعام في المسجد في رمضان، وقال: للمتعب الذي يتخلف في المسجد وابن السبيل والمعتري^(٤)، والخليفة عثمان رضى الله عنه بذلك يكرم المسلمين من بيت المال، وفي ذلك اقتداء بالرسول ﷺ الذي كان أجود الناس وأجود ما يكون في رمضان، وهذه السنة التي استنها عثمان ترغب المسلمين في الاعتكاف في المساجد، ما دام أكلهم معداً، وفي ذلك تشجيع على إحياء سنة الرسول الكريم ﷺ في الاعتكاف^(٥).

(١) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضى الله عنه، ص ٧٩.

(٢) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضى الله عنه ص ٨٠.

(٣) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضى الله عنه، ص ٨١.

(٤) تاريخ الطبرى (٢٤٥/٥). والمعتري: الفقير، المعترض للمعروف بدون سؤال.

(٥) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضى الله عنه، ص ٨٢، ٨٣.

٤ - إنشاء منازل للضيافة من أموال الزكاة:

بلغ عثمان أن أبا سمال الأسدى ومعه نفر من أهل الكوفة ينادى مناد لهم إذا قدم الميار^(١)، أن من كان من القبائل ليس لقومهم بالكوفة منزل فمنزله على أبى سمال، فاتخذ عثمان بعض الدور كمنازل للضيافة، يتزل بها الغرباء عن ليس لهم منزل، ومن هذه الدور منزل عبد الله بن مسعود فى هذيل، وكان الأضياف يتزلون داره فى هذيل إذا ضاق عليهم ما حول المسجد^(٢).

٥ - العطاء من بيت المال لكل مملوك:

ما زاد عثمان رضى الله عنه على يده أن رد على كل مملوك بالكوفة من فضول الأموال ثلاثة من كل شهر يشعون بها من غير أن ينقص مواليتهم من أرزاقهم^(٣)، والغالب على أن مصدر هذه الأموال التى ورعها عثمان على كل مملوك هو أموال الزكاة، باعتبار أن لهم فيها نصيباً لأنهم أحد الثمانية مصارف التى حددتها آية الزكاة وهى مصرف: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ [التوبة: ٦٠]^(٤).

ثالثاً، خمس الغنائم:

بدأ الجهاد فى عهد الرسول ﷺ واستمر فى عهد أبى بكر وعمر، وكذلك فى عهد الخليفة عثمان بن عفان، وكانت نتيجة ذلك انتشار الإسلام واتساع رقعة الدولة الإسلامية، وكانت فتوحات عهد عثمان كبيرة حققت غنائم كثيرة إلى بيت المال منها: الخمس، كما أنه أكل إلى بيت المال جزية من أثر البقاء على دينه من أهل الكتاب ولم يحارب، فهناك ارتباط إذاً بين بيت المال والفتوحات الإسلامية، فقد قام بيت المال فى عهد عثمان بتمويل هذه الفتوحات سواء بما كان يدفعه للجنود من مرتبات أو لشراء الأسلحة والعتاد بجانب التطوع بالأموال والأنفس، وإذا تحقق النصر فرضت الجزية

(١) الميار: جمع مائر، وهو جالب الميرة، والميرة: الطعام.

(٢) تاريخ الطبرى (٥/٢٧٣).

(٣) تاريخ الطبرى (٥/٢٧٥).

(٤) السياسة المالية لعثمان، ص ٨٤.

على من لم يسلم من أهل الكتاب والخراج على الأرض التى أخذت عنوة، وإذا أسلم أهل البلاد سددوا الزكاة إذا بلغت أموالهم نصاباً وتوفرت شروطها باعتبارها من أركان الإسلام ولا يكمل إسلام المسلم إلا بأدائها، وهذه كلها تساهم فى زيادة الإيرادات العامة للدولة الإسلامية، وأحل الله للمسلمين غنائم الحرب ويوزع أربعة أخماسها بين الفاتحين والخمس الباقي يؤول لبيت مال المسلمين^(١).

وفيما يلى بعض المسائل التى أسفر عنها تطبيق السياسة المالية العامة فى عهد عثمان ابن عفان بشأن خمس غنائم الفتوحات:

١ - لم يسهم للصبي من الغنائم فى عهد عثمان بن عفان:

عن نعيم بن المهري قال: شهدت فتح الإسكندرية فى المرة الثانية، فلم يسهم لى حتى كاد أن يقع بين قومي وبين قريش منازعة، فقال بعض القوم: أرسلوا إلى بصرة الغفارى وعقبة بن عامر الجهنى، فإنهما من أصحاب رسول الله ﷺ فأسألوهما عن هذا، فأرسلوا إليهما فسالوهما، فقالا: انظروا فإن كان أنبت^(٢)، فأسهموا له، فنظر إلى بعض القوم فوجدوني قد أنبت فأسهموا لى^(٣).

ومعنى ذلك أنه لا يسهم للصبي ولا للمرأة، إنما يرضخ لهم أى يعطون شيئاً قليلاً لمساعدتهم فى غزوات المسلمين، وهذا ما كان يطبق فى عهد رسول الله ﷺ^(٤).

٢ - السلب للقاتل فى عهد عثمان كما كان فى عهد رسول الله ﷺ:

السلب هو ما كان على القاتل فى الحرب وما كان من سلاح وما كان نحته من فرس، وقد قضى رسول الله ﷺ بالسلب للقاتل، فعن أبى قتادة أن رسول الله ﷺ قال يوم حنين: من قتل قتيلاً له بيته فله سلبه^(٥)، ومفاد هذا الحديث أنه لا يستحق

(١) السياسة المالية لعثمان، ص ٨٦، ٨٧.

(٢) أنبت أى ظهر شعر فى وجهه.

(٣) فتوح مصر وأخبارها، ص ١٢١.

(٤) السياسة المالية لعثمان، ص ٩٣.

(٥) البخارى، كتاب المغازى، رقم ٤٣٢٢.

للقاتل في السلب إلا بعد أن يقيم البيعة على أنه هو الذي قتله، حتى إذا تنازع اثنان كل منهما يدعى أنه قتله فالسلب لمن يقيم البيعة منهما^(١).

وقد حدث بعد انتفاض الإسكندرية وجاءت الروم وعليهم منويل الخصى وأرسوا بالإسكندرية وتركهم عمرو حتى يسبروا إليه فيصيرون من مروا به في البلاد فيخزي الله بعضهم ببعض، فخرجوا من الإسكندرية ومعهم من نقض من أهل القرى، فجعلوا ينزلون القرية فيشربون خمورهم، ويأكلون أطعمتها ويتهبون ما مروا به، فلم يعرض عمرو حتى بلغوا نقيوس فلقوهم في البر والبحر، فحاربوا بالشاب ثم خرجوا من البحر، فاجتمعوا هم والذين في البر واستمروا في حرب الشاب، وبرز بطريق من جاء من أرض الروم على فرس له عليه سلاح مذهب فدعا إلى البراز، فبرز له رجل من زبيد يقال له (حومل) يكنى أبا مذجح، فاقتلا طويلاً يرمحين يتطاردان، ثم ألقي البطريق الرمح وأخذ السيف وألقى (حومل) رمحه وأخذ بسيفه، وجعل عمرو يصيح: أبا مذجح فيجيبه: لبيك. والناس على شاطئ النيل في البر على تعبتهم وصفوفهم، فتجاولا ساعة بالسيفين، ثم حمل عليه البطريق فاحتمله، ثم أخذ (حومل) خنجرًا كان في منطقتة أو في ذراعه فضرب به نحر عدوه، فأوتر قوته فأثبتته، ورفع عليه فأخذ سلبه، ثم مات (حومل) بعد ذلك بأيام - رحمة الله عليه - ثم شد المسلمون حتى ألحقوه بالإسكندرية ففتح الله عليهم وقتل منويل الخصى^(٢).

٣ - قيمة الغنائم ونصيب بيت المال في أحد فتوحات عثمان:

من حديث عبد الملك بن مسلمة عن غيره قال: غزونا مع عبد الله بن سعد إفريقية فقسم بيننا الغنائم بعد إخراج الخمس، فبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار للفرس ألفا دينار ولفارسه ألف دينار وللراجل ألف دينار، فقسم لرجل من الجيش توفي بذات الحمام فدفع لأهله بعد موته ألف دينار^(٣)، ومن حديث لعثمان بن صالح وغيره قال: فكان جيش عبد الله بن سعد ذلك عشرين ألفاً، ومن المعروف أن يؤول الخمس

(١) السياسة المالية لعثمان، ص ٩٣.

(٢) فتوح مصر وأخبارها، ص ١١٩، ١٢٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٥.

ليبت المال استناداً إلى قول الله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ أَمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَتَقُونَ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١] وقد رفع نصيب الرسول ﷺ وذو القربى في عهد أبي بكر رضي الله عنه بعد وفاة الرسول ﷺ ووجه إلى السلاح والكراع وسأيره عمر بن الخطاب رضي الله عنه من بعده في التطبيق وكذا عثمان بن عفان رضي الله عنه، والأربعة أخماس الباقية من الغنائم توزع على الفاتحين بنسبة ٣ للفارس وفرسه، و١ للراجل، فمن الحديثين السابقين يمكن حساب قيمة الخمس الذي آل لبيت المال وكذلك قيمة الغنائم كلها، فبافتراض أن الفوارس عشر الجيش الذي بلغ عشرين ألفاً وأن الباقين من الراجلين يكون الحساب كالآتي:

$$٢٠٠٠ \text{ فارس} \times ٣٠٠٠ \text{ دينار} = ٦٠٠٠,٠٠٠ \text{ دينار}$$

$$١٨٠٠٠ \text{ رجل} \times ١٠٠٠ \text{ دينار} = ١٨٠٠٠,٠٠٠ \text{ دينار}$$

مجموع ما خص المحاربين = ٢٤ مليون دينار وهو ما يمثل أربعة أخماس قيمة الغنائم، ويكون نصيب بيت المال خمس الغنائم أي = ٦ مليون دينار، ويكون مجموع ما غنمه المسلمون = ٣٠ مليون دينار^(١).

٤ - الإنفاق العام من خمس الغنائم:

ينفق خمس الغنائم طبقاً لنص الآية للرسول ﷺ ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ بحق الخمس لكل منهم، وأن بعد موت الرسول ﷺ آل نصيبه ونصيب ذو القربى إلى بيت المال لينفق منها على الكراع والسلاح، وقد استفاد الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه نصيب رسول الله ﷺ وذو القربى الذي آل إلى بيت المال على الإنفاق على الكراع والسلاح لكثرة الفتوحات التي تمت في عهده وما استلزمته من أسلحة وخيول^(٢).

(١) السياسة المالية لعثمان بن عفان، ص ٩٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٧.

٥ - نجاح السياسة المالية في تمويل فتوحات الإسلام في عهد عثمان:

من ضمن التحديات التي واجهها عثمان رضى الله عنه انتكاس بعض البلاد المفتوحة، واستطاع عثمان رضى الله عنه إجبار البلاد التي نقضت العهد على الالتزام بعهودها مع الدولة الإسلامية والانصياع لحكمها، وفي ضوء ما تم من فتوحات جديدة فإنه يمكن القول إن تنفيذ السياسة المالية فيما يتعلق بهذه الفتوحات قد أسفر عن قيام المالية العامة في عهد عثمان بن عفان بالمطلوب منها، سواء من ناحية تمويلها لهذه الفتوح، أو بما حققته الانتصارات من غنائم كثيرة حصل بيت المال على نصيب منها، أو من موارد أخرى وهى زكاة من أسلم من أهل الأمصار وجزية من أبى الإسلام من أهل الكتاب وخراج أراضيهم^(١).

رابعاً: الإيرادات العامة من الجزية في عهد عثمان رضى الله عنه:

١ - استقرار المسائل الفنية للجزية في عهد عثمان رضى الله عنه:

استقرت أحكام الجزية وقواعدها ونظام تطبيقها وتحصيلها في عهد عمر بن الخطاب، ولذلك كان دور بيت المال في عهد عثمان أن يتلقى ما يتم تحصيله من جزية بعد الانفاق على قيمتها، وأن تقرر الدولة ما تم عقده من صلح في عهود سابقة أو إقرار صلح جديد، وأن تتكفل الدولة لمن أدوا الجزية بالحقوق التي تترتب على هذا الأداء^(٢).

٢ - نماذج مما آل لبيت المال من إيرادات الجزية:

١ - غزا الوليد بن عقبة في إمارته على الكوفة في عهد عثمان أذربيجان وصالح أهلها على ثمانمائة ألف درهم حبسوها عند وفاة عمر فوطئهم بالجيش وانقادوا له وقبض منهم المال^(٣).

(١) السياسة المالية لعثمان، ص ٩٩.

(٢) السياسة المالية لعثمان، ص ١٠٣.

(٣) تاريخ الطبرى (٢٤٦/٥).

ب - لما وجه عثمان عبد الله بن سعد إلى إفريقية كان الذى صالحهم عليه بطريق إفريقية جرجير ألف دينار وخمسمائة ألف دينار وعشرين ألف دينار، وكان الذى صالحهم عليه عبد الله ثلاثمائة قنطار ذهب (ولعل ذلك يعادل المبلغ الأول)^(١).

ج - صلح قبرص وقع على جزية سبعة آلاف دينار يؤدونها إلى المسلمين^(٢).

د - صالح سعيد بن صالح أهل جرجان وكان يجيئون أحياناً مائة ألف ويقولون: هذا صلحتنا، وأحياناً مائتى ألف وأحياناً ثلاثمائة ألف^(٣).

هـ - غلب عبد الله بن عامر على نيسابور وخرج إلى سرخس، فأرسل إليه أهل مرو يطلبون الصلح، فبعث إليهم ابن حاتم الباهلى فصالح مرزبان مرو على ألفى ألف، وقال آخر صالحهم على ستين ألف درهم^(٤).

و - سار الأحنف بن قيس إلى بلخ فحاضرهم فصالحه أهلها على أربعمائة ألف، فرضى منهم بذلك واستعمل ابن عمه وهو أسيد بن المتشمس ليأخذ منهم ما صالحوه عليه^(٥).

٣ - عثمان بن عفان ينفذ كتاب الرسول ﷺ لأهل نجران:

كان النبی ﷺ قد أقر أهل نجران على شروط اشترطها عليهم واشترطوها هم، وكتب لهم بذلك كتاباً يوضح هذه الشروط، ومنها دفعهم الجزية ومقدارها، ثم جاءوا بعد الرسول ﷺ فكتب لهم أبو بكر رضى الله عنه كتاباً بهذه الشروط، ثم جاءوا من بعد أن استخلف عمر رضى الله عنه إليه وكان عمر قد أجلاهم عن نجران اليمن وأسكنهم بنجران العراق؛ لأنه خافهم على المسلمين وكتب لهم كتاباً^(٦)، فلما قبض

(١) تاريخ الطبرى (٢٥٥/٥).

(٢) المصدر نفسه (٢٦١/٥).

(٣) المصدر نفسه (٢٦١/٥).

(٤) المصدر نفسه (٣١٨/٥).

(٥) تاريخ الطبرى (٣٠٧/٥).

(٦) الخراج، لأبى يوسف، ص ٧٤.

عمر رضى الله عنه واستخلف عثمان بن عفان رضى الله عنه أتوه إلى المدينة، فكتب لهم إلى الوليد بن عقبة وهو عامله الكتاب التالى: «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عثمان أمير المؤمنين إلى الوليد بن عقبة سلام الله عليك، فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد؛ فإن الأسقف والعاقب وسراة أهل نجران الذين بالعراق، أتونى فشكوا إلى وأرونى شرط عمر لهم، وقد علمت ما أصابهم من المسلمين، وإنى قد خفت عنهم ثلاثين حلة من جزيتهم، وتركتها لوجه الله تعالى جل ثناؤه، وإنى وفيت لهم بكل أرضهم التى تصدق عليهم عمر عقبى مكان أرضهم باليمن، فاستوص بهم خيراً. فإنهم أقوام لهم ذمة، وكانت بينى وبينهم معرفة، وانظر صحيفة كان عمر كتبها لهم فأوفهم ما فيها، وإذا قرأت صحيفتهم فاردها عليهم والسلام»^(١)، وكان ذلك فى النصف من شعبان سنة سبع وعشرين^(٢).

ومما سبق يتضح:

أ - أن عثمان رضى الله عنه أوفى بعهد الرسول ﷺ وعهد صاحبيه رضى الله عنهما من بعده، وأن ذلك ينبع من مبدأ عام فى الإسلام وهو أن من عقد عقداً أو عهد عهداً، أو وعد وعداً أوفى به.

ب - خفف عثمان عنهم الجزية ووفى لهم بكل أرضهم، وطلب من عامله الوليد ابن عقبة أن يوفى لهم بما ورد فى كتاب عمر رضى الله عنه وأن يستوصى بهم خيراً لأنهم أقوام لهم ذمة^(٣).

٤ - أهل الكتاب فى ذمة المسلمين ما داموا يؤدون الجزية:

بعد انتصار عمرو بن العاص فى الإسكندرية وكان قد جمع من القرى أثناء الحرب ما أصاب أهل القرى، فجاءه أهل القرى ممن لم يكن نقض فقالوا: قد كنا على صلحتنا وقد مر علينا هؤلاء اللصوص (أى الروم) وأخذوا متاعنا ودوابنا وهو قائم بين

(١) الخراج، لأبى يوسف، ص ٧٤.

(٢) السياسة المالية لعثمان، ص ١٠٥.

(٣) السياسة المالية لعثمان، ص ١٠٥.

يديك، فرد عليهم عمرو ما كان لهم من متاع عرفوه وأقاموا عليه البيعة، وقال بعضهم لعمرو: ما حل لك ما صنعت بنا، كان لنا أن نقاتل عنا لأننا في ذمتك، ولم ننقض فأما من نقض فأبعده الله^(١)، فانظر كيف كان نظام الجزية يرتب حقوقاً تمسكوا بها وهي حمايتهم نظير ما يدفعون، بالرغم من أنهم لا يشتركون في الدفاع عن البلاد مع المسلمين، وإنما يدفعونها نظير حقوق يحصلون عليها من الدولة الإسلامية، ومن هذه الحقوق حق الحماية وحق الرعاية، وقد أقرهم عمرو بن العاص على هذه الحقوق ورد إليهم أموالهم^(٢).

٥ - مشاركة أهل الذمة في الأعباء العامة في عهد عثمان:

ومما يذكر بشأن فتح الإسكندرية الثاني في خلافة عثمان بن عفان عما يتصل بالجزية أن صاحب إخوانا وكان اسمه (طلما) قدم على عمرو بن العاص، فقال: أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فنصبر لها؟

فقال عمرو وهو يشير إلى ركن كنيسة: إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم، وإن خفف عنا خففنا عنكم، فغضب صاحب إخوانا فخرج إلى الروم فقدم بهم فهزمهم الله وأسر فأتى به إلى عمرو، فقال له الناس: اقتله، فقال: لا. وقيل: إن عمرًا لما أتى به سوره وتوجه وكساه برنس أرجوان، وقال له: اتنا بمثل هؤلاء فرضى بأداء الجزية، فقيل لطلما: لو أتيت ملك الروم. فقال: لو أتيت لقتلني وقال: قتلت أصحابي^(٣).

وعندما نحلل قول عمرو بن العاص: إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم وإن خفف عنا خففنا عنكم، نستنتج بعض المبادئ للسياسة المالية في عهد عثمان بالنسبة لغير المسلمين منها:

أ - أهل الذمة يساهمون في بيت مال المسلمين بما يؤدونه من جزية، فهم خزانة لبيت المال يحصل منها بيت المال على نصيبه في أموالهم على هيئة جزية.

(١)، (٢) المصدر نفسه، ص ١٠٦.

(٣) فتوح مصر وأخبارها، ص ١٠٢.

ب - أن هذا النصيب فى أموال أهل الذمة يتحدد فى ظل الأعباء الملقاة على الدولة، فإن كبر هذا العبء ارتفعت قيمة الجزية وإن خف هذا العبء خفت قيمة الجزية.

ج - هذا التحول فى قيمة الجزية ارتفاعاً وانخفاضاً مع أعباء الحكم ينبثق من مبدأ المشاركة المالية من مواطنى الدولة فى الأعباء، بحيث يساهم كل على قدر طاقته وبما يحقق العدالة فى توزيع الأعباء، وفى ظل الوصايا التى أوصى بها الرسول الكريم ﷺ بحسن معاملة أهل الذمة عامة^(١).

خامساً: الإيرادات العامة من الخراج والعشور فى عهد عثمان؛

١ - الخراج:

امتدت فتوحات الإسلام فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه، ونتج عن هذه الفتوحات أن دخلت الأرض الزراعية للبلاد المفتوحة فى حوزة الدولة الإسلامية، وكان عمر رضى الله عنه قد اعتبرها فيئاً للمسلمين وأبقى عليها أهلها من أهل الكتاب الذين آثروا الإبقاء على دينهم يزرعونها ويؤدون عنها خراج الأرض لبيت مال المسلمين، وقد ساهم خراج هذه الأراضى فى زيادة إيرادات بيت المال فى عهد عثمان رضى الله عنه بسبب امتداد الفتوحات الإسلامية فى عصره^(٢).

٢ - عشور التجارة:

استقر نظام العشور فى عهد الفاروق على الأسس والقواعد التى وضعها عمر رضى الله عنه، وفى عهد عثمان بن عفان يبدو بصفة عامة أن إيرادات بيت المال زادت من عشور التجارة؛ نتيجة لزيادة رقعة الدولة الإسلامية بسبب الفتوحات التى تمت فى عهده، ونتيجة لزيادة الثروات لدى البعض مما زاد القوة الشرائية بصفة عامة خصوصاً فى السنوات الأولى فى عهد عثمان بن عفان التى اتسمت بالاستقرار، وزيادة القوة الشرائية تزيد الطلب على السلع وزيادة الطلب على السلع تدعو إلى

(١) السياسة المالية لعثمان، ص ١٠٧.

(٢) السياسة المالية لعثمان، ص ١١٣.

تنشيط استيرادها وخضوعها لعشور التجارة متى توفرت شروط الإخضاع، ومن العوامل التي أدت إلى زيادة حصيلة عشور التجارة في عهد عثمان بن عفان ارتفاع الأسعار، وارتفاع أسعار السلع يؤدي بالتالى إلى زيادة حصيلة عشور التجارة منها؛ لأنها ضريبة قيمة تؤخذ بنسبة معينة على قيمة السلعة، وليست نوعية تؤخذ من نوع السلعة^(١).

سادساً: سياسة عثمان بن عفان فى إقطاع الأرض:

مضى أبو بكر رضى الله عنه فى تطبيق السياسة النبوية فى إقطاع الأراضى للناس طلباً لاستصلاحها فقد أقطع الزبير بن العوام أرضاً مواتاً ما بين الجرف وقناة^(٢)، وأقطع مجاعة بن مرارة الحنفى الخضرمة (قرية كانت باليمامة)^(٣)، وأراد إقطاع الزبرقان بن بدر، ثم عدل عن ذلك لاعتراض عمر رضى الله عنه، كما أراد إقطاع عيينة بن حصن الفزارى والأقرع بن حابس التميمى أرضاً سبخة (ليس فيها كلاً ولا منفعة) أراد استصلاحها ثم عدل عن ذلك أخذاً برأى عمر فى عدم الحاجة لتأليفهما على الإسلام، «إن رسول الله ﷺ كان يتألفكما والإسلام يومئذ ذليل، وإن الله - عزَّ وجلَّ - قد أعز الإسلام، فاذهبا فاجهدا جهدكما، ومن الواضح أن اعتراض عمر ليس على مبدأ الإقطاع لاستصلاح الأراضى، بل على أشخاص بعينهم لا يرى تأليفهم على الإسلام، وقد توسع عمر رضى الله عنه فى إقطاع الأرض لغرض استصلاحها جرياً على السياسة النبوية، فقد أعلن: يا أيها الناس من أحيا أرضاً ميتاً فهي له^(٤)، وهناك آثار ضعيفة تؤكد انتزاع عمر رضى الله عنه ملكية الأرض المقطعة إذا لم يتم استصلاحها^(٥)، وتحدد رواية ضعيفة لذلك ثلاث سنوات من تاريخ الإقطاع، وقد ثبت إقطاع عمر رضى الله عنه لخوان بن جبير أرضاً مواتاً، وللزبير بن العوام أرض العقيق جميعها، ولعللى بن أبى طالب أرض ينبع، فتدقق فيها الماء

(١) السياسة المالية لعثمان، ص ١٢٣.

(٢) الطبقات الكبرى، لابن سعد (١٠٤/٣).

(٣) عصر الخلافة الراشدة، للعمري، ص ٢٢٢.

(٤، ٥) عصر الخلافة الراشدة، للعمري، ص ٢٢١.

الغزير، فأوقفها على^١ رضي الله عنه صدقة على الفقراء^(١)، ولما تولى عثمان رضي الله عنه الخلافة توسع في الإقطاع، وخاصة في المناطق المفتوحة، حيث ترك عدد من الملاك أراضيهم فارين، فصارت صوافي تقوم الدولة باستثمارها، فأقطع عثمان رضي الله عنه منها حقوقاً من بوارها^(٢)، ولكن الإمام أحمد يرى أنه أقطع من السواد أيضاً، وما لا شك فيه أن الصوافي قد يقع كثير منها في أرض السواد. وعلى أية حال فإن الإقطاع من الصوافي رفع غلتها من تسعة آلاف درهم (٩٠٠٠ درهم) سنوياً في خلافة عمر رضي الله عنه إلى خمسين مليون درهم (٥٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم) في خلافة عثمان رضي الله عنه، مما يدل على نجاح سياسته في إدارة الصوافي، وتذكر المصادر قائمة بأسماء الذين أقطعهم عثمان رضي الله عنه، ومعظمهم ليسوا من قریش، ومعظم الروايات في إقطاع عثمان رضي الله عنه ضعيفة وهي بالجملة تثبت توسعه في الإقطاع، ومن المفيد ذكر أسماء المقطعين وهم:

* عبد الله بن مسعود الهذلي (أرض بين نهري بيل وبين السواد).

* عمار بن ياسر العنسي (استينيا).

* خباب بن الارت التميمي (صعني - قرية بالسواد).

* عدی بن حاتم الطائي (الروحاء - قرية من قرى بغداد على نهر عبس).

* سعد بن أبي وقاص الزهري القرشي (قرية هرمز بئر فارس).

* الزبير بن العوام.

* أسامة بن زيد الكلبي.

* سعيد بن زيد العدوي القرشي.

* جرير بن عبد الله البجلي (أرض على شاطئ الفرات).

* ابن هبار.

(١) عصر الخلافة الراشدة للعمرى، ص ٢٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٢٣.

* طلحة بن عبيد الله التميمي القرشي (النشاستبح) ضبعة بالكوفة.

* وائل بن حجر الحضرمي (أرض توالى قرية زرارة بالكوفة).

* خالد بن عرفطة القضاعي (أرض عند حمام أعين بالكوفة).

* الأشعث بن قيس الكندي (طيزنا باز - موضع بين الكوفة والقادسية).

* أبو مربد الحنفي (أرض بالأهواز على نهر تيرى).

* نافع بن الحارث بن كلدة الثقفي (قطيعة بشط عثمان بالبصرة).

* أبو موسى الأشعري (قطيعة بحمام عمرة).

* عثمان بن أبي العاص الثقفي (شط عثمان بالبصرة).

ويبدو أن جلاء أهل هذه الأراضي عنها صيرها مواتاً، وأقطعها عثمان رضى الله عنه لإحيائها، ويبدو أن معاوية بن أبي سفيان أقطع قطائع في سواحل الشام لتعميرها وإعدادها لمواجهة هجمات الروم، وكذلك أقطع قطائع بأنطاكية بأمر عثمان، وأخرى بقالقلا^(١)، وأما إقطاعه فذك لمروان بن الحكم فلم يعرف من طريق صحيحة، وقيل إن الذى أقطع فذك لمروان هو معاوية بن أبي سفيان^(٢).

إن سياسة عثمان فى إقطاع الأراضي ساهم فى زيادة موارد بيت مال المسلمين بما يؤديه الجميع من زكاة على أموالهم إذا توافرت شروطها، وقد نجح مشروع عثمان فى إقطاع الأرض بدليل زيادة إيراد الدولة من أملاكها الخاصة فى العراق إذ بلغت خمسين ألف ألف درهم بعد أن كانت ٩٠٠,٠٠٠ درهم فى عهد الفاروق^(٣).

سابعاً: سياسة عثمان فى حمى الأرض،

وهى أراضي خصصت لرعى الإبل والخيول التى تملكها الدولة، وقد استمرت حماية وادى النقيع فى خلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما حيث كان النبى ﷺ قد حماه

(١) عصر الخلافة الراشدة، ص ٢٢٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٢٥.

(٣) السياسة المالية لعثمان، ص ١١٨.

للخيل^(١)، وطوله ثمانون كيلو متراً، ويبدأ جنوب المدينة بـ ٤٠ كيلو متراً^(٢)، وقد كثرت المناطق المحمية في خلافة عمر رضي الله عنه لكثرة ما تملكه الدولة من الإبل والخيل المعدة للجهاد، ومن ذلك حمى الزبدة لنعم الزكاة، وعين عليه مولاه هني وأوصاه بالسماح لأصحاب الإبل القليلة بالرعى فيه دون الأغنياء، وحمى أرضاً في ديار بني ثعلبة رغم احتجاجهم على ذلك فقد أجابهم: البلاد بلاد الله تحمي لنعم مال الله^(٣). ونهج عثمان نهج من سبقه في الحمى بسبب اتساع الدولة وازدياد الفتوحات في عهده، وقد اقتصر في الحمى على صدقات المسلمين لحمايتها، وعلى هذا فإن عثمان رضي الله عنه زاد في الحمى لما زادت الرعية، وإذا جاز أصله للحاجة إليه جازت الزيادة لزيادة الحاجة^(٤).

ولما كان أبو بكر وعمر قد حميا دون أن ينكر عليهما أحد ذلك، فإن عثمان وسع الحمى لكثرة إبل الصدقة وماشيتها وكثرة الخصومات بين رعاة ماشية الصدقة فلا اعتراض على فعله^(٥)، بل ما فعله أبو بكر وعمر وعثمان في الحمى قد اشتهر بين الصحابة، فلم ينكر عليهم منكر، ويعتبر ذلك إجماعاً^(٦)، وقد حكى الإجماع ابن قدامة^(٧).

ثامناً، أنواع النفقات العامة في عهد عثمان؛

١ - نفقات الخليفة:

كان عثمان رضي الله عنه لا يأخذ من بيت مال المسلمين شيئاً، فقد كان أكثر قريش مالاً وأجدهم في التجارة فكان يتفق على أهله ومن حوله من ماله الخاص.

(١) صحيح سنن أبي داود للألباني (٥٩٥/٢).

(٢) عصر الخلافة الراشدة، ص ٢٢٥، ٢٢٦.

(٣) الطبقات (٣٢٦/٣) والأثر صحيح.

(٤، ٥) نظام الخلافة في الفكر الإسلامي، د. مصطفى حلمي، ص ٧٨.

(٦) نظام الأراضي في صدر الدولة الإسلامية، ص ١٦٩.

(٧) المغني (٥٨١/٥).

٢ - صرف مرتبات الولاية من بيت المال:

فى عهد عثمان رضى الله عنه كانت الدولة الإسلامية مقسمة إلى ولايات وكان على كل ولاية وال يعينه الخليفة يأخذ مرتبه من بيت المال ويدير شئون الولاية طبقاً لأحكام الشريعة الإسلامية، وإذا لم يعين الخليفة ممثلاً له على بيت مال الولاية، فإنه يدخل فى اختصاص والى الإشراف على جباية موارد الولاية وهى الجزية والخراج وعشور التجارة يتفق منها على شئون الولاية، والفائض يرسله إلى بيت مال المسلمين فى المدينة، أما الزكاة التى تحصل من أغنياء الولاية فكانت تصرف على فقرائهم^(١).

٣ - الإنفاق من بيت المال على مرتبات الجند:

كان بيت المال يدفع مرتبات للجند علاوة على ما يحصلون عليه من نصيب فى الغنائم، وكان جند كل ولاية يحصلون على مرتباتهم من بيت مال الولاية، فمثلاً بالنسبة لجند مصر كتب عثمان بن عفان إلى عبد الله بن سعد والى مصر الكتاب التالى لصرف مرتبات الجند المرابطين فى الإسكندرية: قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالإسكندرية وقد نقصت الروم مرتين، فألزم الإسكندرية رابطتها ثم أجر عليهم أرزاقهم وأعقب بينهم فى كل ستة أشهر^(٢).

٤ - الإنفاق العام على الحج من بيت المال:

كان الإنفاق العام على الحج فى عهد عثمان رضى الله عنه من بيت المال، وكانت كسوة الكعبة من القباطى وهو ثياب من كان من نسيج مصر^(٣).

٥ - تمويل إعادة بناء المسجد النبوى من بيت المال:

كلم الناس عثمان بن عفان أول ما تولى الخلافة أن يزيد فى مسجد الرسول ﷺ، إذ كان يضيق بالناس فى صلاة الجمعة بسبب امتداد الفتح وزيادة سكان المدينة زيادة عظيمة، فاستشار عثمان أهل رأى فأجمعوا على هدم المسجد وبنائه وتوسيعه فصلى

(١) السياسة المالية لعثمان، ص ١٣٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٤٠، ١٤١.

عثمان الظهر بالناس ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إني قد أردت أن أهدم مسجد رسول الله ﷺ وأزيد فيه، وأشهد أنني سمعت رسول الله يقول: «من بنى مسجدًا بنى الله له بيتًا في الجنة»^(١)، وكان لي فيه سلف وإمام سبقني وتقدمني عمر بن الخطاب كان قد زاد فيه وبنائه، وقد شاورت أهل الرأي من أصحاب رسول الله ﷺ، فأجمعوا على هدمه وبنائه وتوسيعه، فحسن الناس يومئذ ذلك ودعوا له، فأصبح فدعا العمال ويأشر ذلك بنفسه^(٢).

٦ - تمويل توسعة المسجد الحرام من بيت المال:

كانت الكعبة أيام الرسول ﷺ قائمة وليس حولها إلا فناء ضيق يصلي الناس فيه، وظل المسجد كذلك في خلافة أبي بكر، وفي عهد عمر وسع المسجد فاشترى دورًا حول الكعبة وهدمها وأدخلها في بيت الله الحرام وأحاطها بجدار قصير وأدخل إنارة المسجد ليلاً، وذلك لأن المسجد كان قد ضاق بالحجاج الذين يأتون لأداء فريضة الحج بعد أن امتدت فتوحات الإسلام، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، فلما ضاق المسجد ثانية في عهد عثمان احتذى بمثل عمر وأضاف إلى الكعبة دورًا اشتراها وأحاطها بجدار قصير لا يرتفع إلى قمة الرجل كما فعل عمر من قبل^(٣)، كما كان الولاة يبنون المساجد في ولايتهم ويتفقون عليها من بيت مال الولاية، كما حدث عند بناء مسجد الرحمة بالإسكندرية، ومسجد في إصطخر في فتوحات المشرق^(٤).

٧ - الإنفاق على إنشاء أول أسطول بحري:

ساهم بيت مال المسلمين في إنشاء أول أسطول بحري في الإسلام في عهد عثمان، وسيأتي دور هذا الأسطول في الفتوحات الإسلامية بإذن الله تعالى عند حديثنا عن الفتوحات^(٥).

(١) المسند رقم ٤٣٤ إسناده صحيح.

(٢) البداية والنهاية (٦٠/٧)، وتاريخ الطبري (٢٦٧/٥).

(٣) تاريخ الطبري (٢٥٠/٥)، وذو النورين، محمد رشيد، ص ٢٥.

(٤) السياسة المالية لعثمان بن عفان، ص ١٤٧، ١٤٨.

(٥) السياسة المالية لعثمان بن عفان، ص ١٤٨.

٨ - الإنفاق على تحويل الساحل من الشعية إلى جدة:

فى سنة ست وعشرين هجرية كلم أهل مكة عثمان رضى الله عنه أن يحول الساحل من الشعية، وهى ساحل مكة قديماً فى الجاهلية، إلى ساحلها اليوم وهى جدة لقربها من مكة، فخرج عثمان إلى جدة ورأى موضعها وأمر بتحويل الساحل إليها، ودخل البحر واغتسل فيه وقال: إنه مبارك، وقال لمن معه ادخلوا البحر للاغتسال ولا يدخل أحد إلا بمئزر، ثم خرج من جدة من طريق عسفان إلى المدينة وترك الناس ساحل الشعية فى ذلك الزمان واستمرت جدة بندراً إلى الآن لمكة المشرفة^(١).

٩ - تحويل حفر الآبار من بيت مال المسلمين:

ومن الأعمال التى مولها بيت مال المسلمين فى عهد عثمان حفر بئر للشرب بالمدينة وتسمى بئر أريس وهى على ميلين من المدينة وكان ذلك فى سنة ثلاثين هجرية، وحدث أن قعد عثمان على رأس البئر وكان بأصبعه خاتم رسول الله، فانسل الخاتم من أصبعه فوقع فى البئر، فطلبوه فى البئر، ونزحوا ما فيها من الماء فلم يقدرُوا عليه، فجعل فيه مالاً عظيماً لمن جاء به، واغتم لذلك غمّاً شديداً، فلما يش من العثور على الخاتم صنع خاتماً آخر مثله من فضة على مثاله وشبهه ونقش عليه (محمد رسول الله) فجعله فى أصبعه حتى قتل، فلما قتل ذهب الخاتم من يده فلم يدر من أخذه^(٢).

١٠ - الإنفاق على المؤذنين من بيت المال:

كان عثمان رضى الله عنه أول من رزق المؤذنين من بيت المال، قال الإمام الشافعى: «قد أرزق المؤذنين إمام هدى عثمان بن عفان»^(٣)، وقد جعل عثمان رضى الله عنه على الأذان جعالة، ولا يستأجر استجاراً^(٤).

(١) ذر النورين عثمان بن عفان، محمد رشيد، ص ٢٦.

(٢) البداية والنهاية (١٦١/٧). وتاريخ الطبرى (٢٨٤/٥).

(٣، ٤) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص ١٤.

١١ - تمويل أهداف الإسلام العليا:

يتضح من دراسة النفقات العامة السابقة من بيت المال أنها ساهمت في تمويل الأهداف العليا للدولة الإسلامية، فضلاً عن الإنفاق العام على إدارة الدولة ومصالح الرعية، ثم الإنفاق على نشر الإسلام كي تكون كلمة الله هي العليا، وتم تمويل إنشاء أول أسطول بحرى للدولة الإسلامية، كما تم تعمير بيوت الله بالإنفاق على إقامة المساجد وتجديدها ورزق المؤذنين، والولاة، والقضاة، والجند، وعمال الدولة، كما تم الصرف على رحلات الحج إلى بيت الله الحرام، وكسوة الكعبة، وهى قبلة الإسلام والمسلمين، كما أن بيت مال المسلمين قدم أمواله لحفر الآبار ليشرب منها الغادى والرائح من مواطنى الدولة الإسلامية. ومن مصادر الدولة كالزكاة، وخمس الغنائم تم تمويل شرائح المجتمع الضعيفة فى الدولة الإسلامية وهم الفقراء والمساكين واليتامى ومساندة الغرباء وأبناء السبيل وفك الرقاب^(١).

تاسعاً: استمرار نظام الأعطيات فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه:

استمر نظام الأعطيات فى عهد عثمان رضى الله عنه، كما كان فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقد اعتمد السابقة فى الدين أساساً للعطاء وكتب بذلك لواليه على الكوفة بقوله: أما بعد ففضل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد، وليكن من نزلها بسببهم تبعاً لهم، إلا أن يكونوا ثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء، واحفظ لكل منزلته وأعظمهم جميعاً بقسطهم من الحق، فإن المعرفة بالناس بها يصاب العدل^(٢)، وحين اتسعت الفتوحات الإسلامية فى عهده كثرت موارد الدولة المالية مما أدى ذلك بالخليفة عثمان رضى الله عنه أن يتخذ له الخزائن^(٣)، فانعكس ذلك بدوره على العطاء فزاد فى أرزاق الجند بمقدار مائة درهم لكل منهم، فهو أول خليفة زاد الناس فى العطاء واستن به الخلفاء من بعده فى الزيادة^(٤)، قال

(١) السياسة المالية لعثمان بن عفان، ص ١٥٠.

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٨٠).

(٣) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٢/ ٣٦ - ٦٨). والتجوم الزاهرة (١/ ٨٧).

(٤) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٤٥).

الحسن: وشهدت منادى عثمان ينادى: يا أيها الناس اغدوا على كسوتكم فيأخذون الحلل، واغدوا على السمن والعسل قال الحسن: أرزاق دارّة وخير كثير وذات بين حسن، ما على الأرض مؤمن يخاف مؤمناً إلا يودّه وينصره ويألفه^(١)، واهتم الخليفة عثمان بأمور الثغور والمراقبة فيها فكان يأمر قاداته بإجراء الأرزاق والعطاء ومضاعفته للجند المرابطين^(٢).

عاشراً: أثر تدفق الأموال على الحياة الاجتماعية والاقتصادية،

فى عهد عثمان كثر الخراج وأتاه المال من كل وجه، فاتخذ له الخزان وأثر ذلك بدوره فى الأثر الاقتصادى والاجتماعى، فعن أبى إسحاق أن جده مر على عثمان فقال له: كم معك من عيالك يا شيخ؟ قال معى كذا، قال: قد فرضنا لك فى خمس عشرة - يعنى ألفاً وخمسمائة - وفرضنا لعيالك مائة مائة^(٣)، وعن محمد بن هلال المدينى قال: حدثنى أبى عن جدتى أنها كانت تدخل على عثمان فافتقدها يوماً فقال لاهله: ما لى لا أرى فلانة؟ فقالت امرأته: يا أمير المؤمنين ولدت الليلة غلاماً فقالت: فأرسل إلى بخمسين درهماً وشقيقة سبلانية ثم قال: هذا عطاء ابنك وهذه كسوته، فإذا مرت به سنة رفعناه إلى مائة^(٤)، كما وسع رضى الله عنه على غيال أهل العوالى بالمدينة المنورة فى القوت والكسوة^(٥)، وحين قام القائد قطن بن عمرو الهلالي بإعطاء الجيش الذى برفقته وعدده أربعة آلاف جندى أربعة آلاف درهم كتشجيع لهم، استكثر ذلك والى البصرة عبد الله بن عامر وكتب بالخبر إلى الخليفة عثمان رضى الله عنه فأجازها، وقال: ما كان معونة فى سبيل الله فجائز. فصارت الجائزة اسم للعطية^(٦).

(١) مجمع الزوائد (٩/٩٣، ٩٤). وفصل الخطاب فى مواقف الأصحاب، ص ٥٢.

(٢) فتوح مصر، ص ١٩٢، وفتوح البلدان للبلانرى (١/١٥٢، ١٥٧).

(٣) الإدارة العسكرية (٢/٧٦٨).

(٤) المصدر نفسه (٢/٧٦٩).

(٥) الطبقات (٣/٣٩٨).

(٦) الأوائل، للعسكرى (٢/٢٦، ٢٧).

وقام عثمان بتوريث عطاء الجندى الإسلامى لورثته من بناته وزوجاته، فقد قال الزبير بن العوام للخليفة عثمان بعدما مات عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: أعطنى عطاء عبد الله، فعيال عبد الله أحق به من بيت المال فأعطاه خمسة عشر ألفاً^(١).

هذا وقد نشطت الحركة الزراعية والصناعية والتجارية في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان، وبسبب ما من الله به على المسلمين من فتوح، أصبح أهل المدينة خاصة والمسلمون عامة في نعمة ويسار، وكان يقترن بهذا الثراء ضروب واسعة من الحضارة لم تعرفها الجزيرة العربية قبل الفتوحات الكبيرة، لقد اطلع المسلمون على ما عند الأمم الأجنبية واقتبسوا منهم، وبدأ هذا الاقتباس يتسع في خلافة عثمان، فبنى بعض الصحابة الدور والمنازل الكبيرة، وساهم الأجانب الذين سبوا في الفتوح في تطوير الحياة الاجتماعية والاقتصادية^(٢).

الحادية عشرة: عثمان وأقاربه والعطاء من بيت المال:

اتهم عثمان رضى الله عنه من قبل الغوغاء والخوارج بإسرافه في بيت المال وإعطائه أكثره لأقاربه، وقد ساند هذا الاتهام حملة دعائية باطلة قادها السبئيون والشيعة الروافض ضده، وتسريت في كتب التاريخ وتعامل معها بعض المفكرين والمؤرخين على كونها حقائق، وهى باطلة لم تثبت لأنها مختلفة، والذي ثبت من إعطائه أقاربه أمور تعد من مناقبه لا من المثالب فيه:

١ - إن عثمان رضى الله عنه كان ذا ثروة عظيمة وكان وصولاً للرحم^(٣) يصلهم بصلات وفيرة، فنقم عليه أولئك الأشرار، وقالوا بأنه إنما كان يصلهم من بيت المال، وعثمان قد أجاب عن موقفه هذا بقوله: وقالوا إني أحب أهل بيتي وأعطيهم.. فأما حبي لهم فإنه لم يمل معهم إلى جور، بل أحمل الحقوق عليهم... وإما إعطاؤهم فإنني إنما أعطيهم من مالى، ولا أستحل أموال المسلمين لنفسى ولا لأحد من الناس، وقد كنت أعطى العطية الكبيرة الرعية من صلب مالى أزمان رسول الله ﷺ وأبى بكر

(١) الإدارة العسكرية (٢/ ٧٧٠).

(٢) الحضارة العربية الإسلامية، د. وضاح الصمد، ص ١١٤.

(٣) فصل الخطاب في مواقف الأصحاب، ص ٨٢.

وعمر وأنا يومئذ شحيح حريض، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي^(١)، وفنى عمري وودعت الذى لى فى أهلى قال الملحدون ما قالوا^(٢)؟ وكان عثمان قد قسم ماله وأرضه فى بنى أمية وجعل ولده كبعض من يعطى، فبدأ بنى أبى العاص فأعطى آل الحكم رجالهم عشرة آلاف، فأخذوا مائة ألف، وأعطى بنى عثمان مثل ذلك، وقسم فى بنى العاص وفى بنى العيص وفى بنى حرب^(٣)، فهذه النصوص وغيرها مما اشتهر عنه، وما صح من الأحاديث فى فضائله الجمة تدل على أن كل ما قيل فيه من إسرافه فى بيت المال وإففاق أكثره على نفسه وأقاربه وقصوره حكايات بدون زمام ولا خطام. ومع براءة عثمان مما نُسب إليه، إلا أن بعض العلماء ذهبوا إلى أن سهم ذوى القربى هو لقراءة الإمام^(٤)، قال تقي الدين ابن تيمية: إن سهم ذوى القربى ذهب بعض الفقهاء إلى أنه لقراءة الإمام كما قال الحسن وأبو ثور، وأن النبى ﷺ كان يعطى أقاربه بحكم الولاية فذوى القربى فى حياة النبى ﷺ ذوى قرياه، وبعد موته هم ذوى قربى من يتولى الأمر بعده، وذلك لأن نصر ولى الأمر والذب عنه متعين وأقاربه ينصرونه ويذبون عنه ما لا يفعله غيرهم، وقال: وبالجملعة فعامة من تولى الأمر بعد عمر كان يخص بعض أقاربه إما بالولاية أو بمال^(٥).

وقال: إن ما فعله عثمان فى المال له ثلاثة مآخذ: أحدها: أنه عامل عليه والعامل يستحق مع الغنى، والثانى: أن ذوى القربى هم ذوو قربى الإمام، والثالث: أن قرابة عثمان كانوا قبيلة كبيرة كثيرة ليسوا مثل قبيلة أبى بكر وعمر، فكان يحتاج إلى إعطائهم، وولايتهم أكثر من حاجة أبى بكر وعمر إلى تولية أقاريهما وإعطائهم... وهذا مما نقل عن عثمان بن عفان رضى الله عنه الاحتجاج به^(٦).

٢ - جاء فى تاريخ الطبرى أن عثمان لما أمر عبد الله بن سعد بن أبى سرح بالزحف من مصر على تونس لفتحها قال له: إن فتح الله عليك بإفريقية فلك مما أفاء

(١) جاوزت أعمارهم.

(٢، ٣) تاريخ الطبرى (٣٥٦/٥).

(٤) فصل الخطاب فى مواقف الأصحاب، ص ٨٣.

(٥) منهاج السنة (١٨٧/٣، ١٨٨).

(٦) منهاج السنة (١٣٧/٣). والدولة الأموية، لحمدى شاهين، ص ١٦٣.

الله على المسلمين خمس الخمس من الغنيمة نفلًا، فخرج بجيشه حتى قطعوا أرض مصر وأوغلوا في أرض إفريقية وفتحوها وسهلها وجبالها، وقسم عبد الله على الجند ما أفاء الله عليهم وأخذ خمس الخمس وبعث بأربعة أخماسه إلى عثمان مع ابن وثيمة النضرى، فشكا وفد من كان معه إلى عثمان ما أخذه عبد الله، فقال لهم عثمان: إنما أمرت له بذلك فإن سخطتم فهو رد. قالوا: إنا نسخطه. فأمر عثمان عبد الله أن يرده فرد^(١)، وقد ثبت في السنة تنفيل أهل الغنائم والبأس في الجهاد^(٢).

٣ - وكان قد بقي من الأخماس والحيوان - في فتح إفريقية - ما يشق حمله إلى المدينة فاشترى مروان بمائة ألف درهم، ونقد أكثرها وبقيت منه بقية، وسبق إلى عثمان مبشرًا بالفتح، وكانت قلوب المسلمين في غاية القلق خائفة من أن يصيب المسلمين نكبة من أمر إفريقية، فوهب له عثمان ما بقي جزاء بشارته، وللإمام أن يعطى البشير ما يراه لائقًا بتعبه وخطر بشارته، هذا هو الثابت في عطية عثمان لمروان وما ذكره من إعطائه خمس إفريقية فكذب^(٣)، لقد كان عثمان رضى الله عنه شديد الحب لأقاربه، ولكن ذلك لم يمل به إلى غشيان محرم أو إساءة السيرة والسياسة في أمور المال أو غيرها، وإنما دست في كتب التاريخ أكاذيب باطلة كان خلفها الدعاية السبئية والشيعة الرافضية الظالمة ضد عثمان رضى الله عنه.

إن سيرة عثمان رضى الله عنه في أقاربه تمثل جانبًا من جوانب الإسلام الكريمة الرحيمة لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢٣]، وقوله جل ثناؤه: ﴿وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦]، كما أنها تمثل جانبًا عمليًا من سيرة المصطفى ﷺ فقد رأى من رسول الله ﷺ وعلم من حاله ما لم ير أو يعلم غيره من متفديه، وعقل من الفقه ما لم يعقله مثله من جمهرة الناس، وكان مما رأى شدة حب رسول الله ﷺ لأقاربه وبره بهم وإحسانه إليهم وقد أعطى عمه العباس ما لم يعط أحدًا عندما ورد

(١) تاريخ الطبرى (٥/٢٥٣).

(٢) (٣، ٢) فصل الخطاب في مواقف الأصحاب، ص ٨٤.

عليه مال البحرين^(١)، وولى علياً وهو ابن عمه وصهره، ولعثمان وسائر المؤمنين فى رسول الله ﷺ أعظم القدوة^(٢).

يقول ابن كثير - رحمه الله -: وقد كان عثمان رضى الله عنه، كريم الأخلاق ذا حياة كثير، وكرم غزير، يؤثر أهله وأقاربه فى الله، تاليفاً لقلوبهم من متاع الدنيا الفانى لعله يرغبهم فى إثارة ما يبقى على ما يفى، كما كان النبى ﷺ يعطى أقواماً ويدع آخرين إلى ما جعل فى قلوبهم من الهدى والإيمان؛ وقد تعنت عليه بسبب هذه الخصلة أقوام كما تعنت بعض الخوارج على رسول الله ﷺ فى الإيثارة^(٣)، فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: بينما رسول الله ﷺ يقسم غنيمة بالجرعانة^(٤)، إذ قال له رجل: اعدل، فقال: «شقيت إن لم أعدل»^(٥). ويحتج عثمان رضى الله عنه لبره أهل بيته وقربته مخاطباً مجلس الشورى بقوله: أنا أخبركم عنى وعماء وليت، إن صاحبى اللذين كانا قبلى ظلما أنفسهما ومن كان منهما سبيل احتساباً، وإن رسول الله ﷺ كان يعطى قرابته، وأنا فى رهط أهل عيلة وقلة معاش، فبسطت يدي فى شيء من ذلك لما أقوم به فيه فإن رأيتم ذلك خطأ فردوه^(٦).

وقد رد ابن تيمية - رحمه الله - على من اتهم عثمان بتفضيله أهله بالأموال الكثيرة من بيت المال فقال: وكان يؤثر أهله بالأموال الكثيرة من بيت المال حتى إنه دفع إلى أربعة نفر من قریش زوجهم بناته أربعمائة ألف دينار، ودفع إلى مروان ألف ألف دينار - مليون دينار - فالجواب يقال: أين النقل الثابت بهذا؟

نعم كان يعطى أقاربه ويعطى غير أقاربه أيضاً، وكان يحسن إلى جميع المسلمين، وأما هذا القدر الكثير فيحتاج إلى نقل ثابت، ثم يقال ثانياً: هذا من الكذب البين، فإنه لا عثمان ولا غيره من الخلفاء الراشدين أعطوا أحداً ما يقارب هذا المبلغ^(٧).

(١) البخارى، كتاب الجزية.

(٢) (٣، ٢) البداية والنهاية (٢٠١/٧).

(٤) ماء بين الطائف ومكة. وهى إلى مكة أقرب.

(٥) البخارى، كتاب فرض الخمس.

(٦) الطبقات الكبرى (١٩٠/٣).

(٧) منهاج السنة (١٩٠/٣).

المبحث الثاني

المؤسسة القضائية وبعض الاجتهادات الفقهية

يعتبر عهد ذى النورين امتداداً للعهد الراشدى الذى تتجلى أهميته بصلته بالعهد النبوى وقربه منه، فكان العهد الراشدى عامة، والجانب القضائى فيه خاصة، امتداداً للقضاء فى العهد النبوى، مع المحافظة الكاملة والتامة على جميع ما ثبت فى العهد النبوى، وتطبيقه بحذافيره وتنفيذه بنصه ومعناه، وتظهر أهمية العهد الراشدى فى القضاء بأمرين أساسيين:

* المحافظة على نصوص العهد النبوى فى القضاء، والتقيد بما جاء فيه، والسير فى ركابه، والاستمرار فى الالتزام به.

* وضع التنظيمات القضائية الجديدة لترسيخ دعائم الدولة الإسلامية الواسعة ومواجهة المستجدات المتنوعة^(١).

استطاع الفاروق بتوفيق الله ثم عبقريته الفذة أن يطور مؤسسة القضاء للدولة الإسلامية، وأصبحت لها قواعد ونظم، استفاد منها الخليفة الراشد عثمان رضى الله عنه فى تعيين القضاة وأرزاقهم، واختصاصهم القضائى، ومعرفة صفات القاضى، وما يجب عليه، ومصادر الأحكام القضائية، والأدلة التى يعتمد عليها القضاة، كما أنه أصبحت هناك سوابق قضائية من الصديق والفاروق استفاد منها القضاة فى عهد عثمان رضى الله عنه.

عندما تولى عثمان رضى الله عنه الخلافة كان على قضاء المدينة يومئذ: على بن أبى طالب، وزيد بن ثابت، والسائب بن يزيد رضى الله عنهم، ويذكر بعض الباحثين أن عثمان لم يترك لأحد من هؤلاء القضاة الاستقلال بالفصل فى قضية من

(١) تاريخ القضاء فى الإسلام، للزحلى، ص ٨٣، ٨٤.

القضايا، كما كان الحال في عهد عمر رضى الله عنه، بل كان ينظر في الخصومات بنفسه، ويستشير هؤلاء وغيرهم من الصحابة فيما يحكم به، فإن وافق رأيهم رأيه أمضاه، وإن لم يوافق رأيهم رأيه نظر في الأمر بعد ذلك، وهذا يعنى أن عثمان رضى الله عنه قد أعفى القضاة الثلاثة في المدينة من ولاية القضاء وأبقاهم مستشارين له في كل شجار يرفع إليه مع استشارة آخرين، ويرى بعضهم أنه لم يثبت نص صريح يفيد الإعفاء، وغاية ما ورد في ذلك يدل على أن عثمان رضى الله عنه قد أقر قضاة عمر بالمدينة، ولكنه تحمل عنهم النظر في كثير من القضايا الكبيرة مع استشارتهم فيها، ومنشأ هذا الخلاف تعارض الروايات الواردة في ذلك:

* روى البيهقي في سننه، ووكيع في أخبار القضاة واللفظ له عن عبد الرحمن بن سعيد، قال: أخبرني جدى، قال: رأيت عثمان بن عفان في المسجد، إذ جاء الخصمان قال لهذا: اذهب فادع علياً، وللآخر: اذهب فادع طلحة بن عبيد الله، والزبير وعبد الرحمن، فجاءوا فجلسوا، فقال لهما: تكلما، ثم يقبل عليهما فيقول: أشيروا عليّ، فإن قالوا ما يوافق رأيه أمضاه عليهما، وإلا نظر، فيقومون مسلمين، ولا يعلم أن عثمان بن عفان استعمل قاضياً بالمدينة، إلى أن قتل رضى الله عنه.

جاء في تاريخ الطبرى عند الحديث على أعمال عثمان: وكان على قضاء عثمان يومئذ زيد بن ثابت، وهذا يشعر بأن عثمان أبقى زيداً على ولاية القضاء، ويستلزم الإذن له بالفصل في الخصومات، وما دام الجمع بين النصين ممكناً، فإن الأخذ به أولى من الأخذ بأحد النصين في غير المرجح، ويجمع بين النصين بأن عثمان أبقى قضاة المدينة للفصل في بعض الخصومات، ولكن بعضها الآخر من معضلات القضايا جعله خاصاً به، مع استشارة أصحابه فيها، ومنهم قضاته^(١).

وكان عثمان رضى الله عنه يعين القضاة على الأقاليم حيناً، مثل تعيينه كعب بن سور على قضاء البصرة، ويترك القضاء للوالى حيناً آخر مثل طلبه من واليه على البصرة أن يقوم بالقضاء بين الناس إضافة إلى عمل الولاية، وذلك بعد عزل كعب بن

(١) النظم الإسلامية (٣٧٨/١) وقائع ندوة أبو ظبى ١٤٠٥ هـ.

سور، وكذلك كان يعلى بن أمية والياً وقاضياً على صنعاء^(١)، ويلاحظ أن بعض الولاة كانوا يختارون قضاة بلدانهم بأنفسهم، ويكونون مسئولين أمامهم ما يشير إلى ازدياد نفوذ الولاة في خلافته من القضاة^(٢)، والمأثور عن عثمان كتبه ورسائله إلى أمراء الأمصار، وإلى أمراء الأجناد بالشغور، وإلى عامة المسلمين، وهذا يدعو إلى غلبة الظن بأنه جعل القضاء من اختصاص الولاة يتولونه بأنفسهم، أو يعينون له من يستطيع القيام به^(٣)، ففي الوقت الذي نجد فيه مراسلات كثيرة بين عمر وقضاة الأمصار نجد ندرة في المراسلات في عهد عثمان بينه وبين أولئك القضاة^(٤).

* ابن عمر يعتذر عن القضاء:

قال عثمان لابن عمر: اقض بين الناس. قال: لا أقضي بين اثنين ولا أؤمّ رجلين، أما سمعت النبي ﷺ يقول: «من عاذ بالله فقد عاذ بمعاذ؟» قال عثمان: بلى. قال: فإنّي أعوذ بالله أن تستعملني، فأعفاه، وقال: لا تُخبر بهذا أحداً^(٥).

* دار القضاء:

تذكر بعض كتب التاريخ أن من مآثر ذى النورين اتخاذه داراً للقضاء، كما يظهر ذلك من رواية رواها ابن عساكر عن أبي صالح مولى العباس، قال: أرسلني العباس إلى عثمان أدعوه فأتيته في دار القضاء إلى آخر الحديث، فإذا صح فيكون عثمان هو أول من اتخذ في الإسلام داراً للقضاء، وقد كان الخليفان قبله يجلسان للقضاء في المسجد كما هو مشهور^(٦).

* أشهر القضاة في خلافة عثمان:

١ - زيد بن ثابت (المدينة).

(١) عصر الخلافة الراشدة، ص ١٤٣.

(٢، ٣) النظم الإسلامية (١/٣٧٨).

(٤) الولاية على البلدان (٢/٩٢).

(٥) مسند الإمام أحمد رقم ٤٧٥ حسن لغيره.

(٦) أشهر مشاهير الإسلام (٤/٧٤٠).

٢ - أبو الدرداء (دمشق).

٣ - كعب بن سور. (البصرة).

٤ - أبو موسى الأشعري (البصرة بالإضافة إلى ولايته).

٥ - شريح (الكوفة).

٦ - يعلى بن أمية (اليمن).

٧ - ثمامة (صنعاء).

٨ - عثمان بن قيس بن أبي العاص (مصر) ^(١).

هذا وقد ترك الخليفة الراشد أحكاماً فقهية في مجال القصاص، والجنايات والحدود والتعزير والعبادات والمعاملات كان لها الأثر الواضح في المدارس الفقهية الإسلامية، وهذه بعض الأحكام التي أصدرها عثمان أو أفتى بها:

أولاً: فيما يتعلق بالقصاص والحدود والتعزير:

١ - أول قضية واجهت عثمان رضى الله عنه: قضية قتل:

أول قضية حكم فيها عثمان رضى الله عنه قضية عبيد الله بن عمر، وذلك أنه غدا على ابنة أبي لؤلؤة قاتل عمر، فقتلها، وضرب رجلاً نصرانياً يقال له جفينة بالسيف فقتله، وضرب الهرمزان الذى كان صاحب تستر فقتله، وكان قد قيل إنهما مالا أبا لؤلؤة على قتل عمر فالله أعلم ^(٢)، وكان عمر قد أمر بسجنه ليحكم فيه الخليفة من بعده، فلما ولي عثمان وجلس للناس كان أول ما تحوكم إليه فى شأن عبيد الله، فقال على: ما من العدل تركه، وأمر بقتله، وقال بعض المهاجرين: أيقتل أبوه بالأسس ويقتل هو اليوم؟ فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين قد برأك الله من ذلك، قضية لم تكن فى أيامك فدعها عنك، فودى ^(٣) عثمان رضى الله عنه أولئك القتلى من

(١) عصر الخلافة الراشدة، ص ١٥٩، ١٦٠.

(٢) البداية والنهاية (٧/ ١٥٤).

(٣) ودى: وقع دية القتلى.

ماله؛ لأن أمرهم إليه، إذ لا وارث لهم إلا بيت المال، والإمام يرى الأصلح في ذلك، وخلق سبيل عبيد الله^(١)، وقد جاءت رواية في الطبري تفيد بأن القماذبان بن الهرمزان قد عفا عن عبيد الله، فعن أبي منصور، قال سمعت القماذبان يحدث عن قتل أبيه، قال: كانت العجم بالمدينة يستروح بعضها إلى بعض، فمر فيروز بأبي، ومعه خنجر له رأسان، فتناوله منه، وقال: ما تصنع بهذا في هذه البلاد؟ فقال: آتس به، فرآه رجل، فلما أصيب عمر، قال: رأيت هذا مع الهرمزان، دفعه إلى فيروز، فأقبل عبيد الله فقتله، فلما ولى عثمان دعاني فأمكنني منه، ثم قال: يا بني، هذا قاتل أبيك، وأنت أولى به منا، فاذهب فاقتله، فخرجت به وما في الأرض أحد إلا معي، إلا أنهم يطلبون إليّ فيه، فقلت لهم: ألى قتله؟ قالوا: نعم، وسبوا عبيد الله. فقلت: أفلكم أن تمنعوه؟ قالوا: لا، وسبوه. فتركته لله ولهم، فاحتملوني، فوالله ما بلغت المنزل إلا على رؤوس الرجال وأكفهم^(٢)، ولا يوجد تعارض بين هذه الرواية والرواية الأخرى التي تذكر أن الخليفة عثمان عفا عن عبيد الله بن عمر وتحمل هو الدية الشرعية لورثة الهرمزان، لأنه يوجد في فهم جميع الصحابة حق لابن الهرمزان في القصاص، وقد استجاب لرجائهم له في العفو على النحو السالف ذكره، كما أن عفو الخليفة يرجع إلى سلطة التحقيق في الجريمة والحكم فيها هو للخليفة وليس لابن المقتول، فيكون عبيد الله قد اعتدى على حق الخليفة، ومن ثم فرواية العفو منه تنصرف إلى العفو بسبب هذا الحق، وهذه المخالفة من عبيد الله حيث أضاع على الدولة أمراً مهماً هو معرفة الخلايا التي تتصل بالجريمة من الجناة والأشخاص والجهات التي كانت خلف هذه المؤامرة، كما ينصرف العفو من الخليفة إلى من ليس لهم ولى وهم جفينة وابنة المجوسى القاتل، ولا يوجد خلاف في الروايات والمصادر التاريخية على أن الخنجر الذى قتل به عمر بن الخطاب كان بيد الهرمزان وجفينة قبل الحادث، وقد شاهد ذلك اثنان من الصحابة وهما عبد الرحمن بن عوف وعبد الرحمن بن أبى بكر، ورواية عبد الرحمن بن أبى بكر تفيد أن القاتل أبا لؤلؤة كان مع هذين

(١) البداية والنهاية (١٥٤/٧).

(٢) تاريخ الطبري (٢٤٣/٥) إسناده لا يصح.

الشريكين يتناجون ثلاثهم، فلما باغتهم سقط الخنجر من بينهم، وبعد قتل عمر وجدوا أنه نفس الخنجر الذي وصفه الشاهدان^(١)، وبالتالي فالهرمزان وجفينة يستحقان القتل، أما ابنة أبي لؤلؤة الذي قتل نفسه ليخفي المشتركين معه، فهذه قتلت خطأ ولا يقتل فيها أحد، وقد رأى عبيد الله أنها من المشاركين في القتل حيث كانت تخفي السلاح لأبيها^(٢).

٢ - قتل اللصوص:

إن شباباً من شباب أهل الكوفة - في ولاية الوليد بن عقبة - نقبوا على ابن الحيسمان الخزاعي، وكاثروه، فنذر بهم، فخرج عليهم بالسيف، فلما رأى كثرتهم استصرخ، فقالوا له: اسكت، فإنما هي ضربة حتى نريحك من روعة هذه الليلة - وأبو شريح الخزاعي مشرف عليهم - فصاح بهم وضربوه فقتلوه، وأحاط الناس بهم فأخذوهم، وفيهم زهير بن جندب الأردى ومورع بن أبي مورع الأسدي، وشبيل بن أبي الأردى، في عدة فشهد عليهم أبو شريح وابنه أنهم دخلوا عليه، فمنع بعضهم بعضاً من الناس، فقتله بعضهم، فكتب فيهم إلى عثمان، فكتب إليه في قتلهم، فقتلهم على باب القصر في الرَّحبة. وقال في ذلك عمر بن عاصم التميمي:

لا تأكلوا أبداً جيرانكم سرّاً أهل الزعارة في ملك ابن عفان
وقال أيضاً:

إن ابن عفان الذي جربتم فطم اللصوص بمحكم الفرقان
ما زال يعمل بالكتاب مهيمناً في كل عنق منهم وبنان^(٣)

٣ - رجل قتل تاجراً لماله:

كان ذلك في خلافة عثمان وكانت العقوبة: القتل قصاصاً^(٤).

(١) الطبقات الكبرى (٣/ ٣٥٠ - ٣٥٥).

(٢) الخلافة والخلفاء الراشدون، ص ٢١٨، ٢١٩.

(٣) تاريخ الطبري (٥/ ٢٧٢).

(٤) عصر الخلافة الراشدة، ص ١٥٣.

٤ - عقوبة الساحر:

حدث في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه أن جارية لحفصة سحرتها، فاعترفت الجارية بذلك، فأمرت حفصة بها عبد الرحمن بن زيد فقتلها، فأنكر ذلك عليها عثمان، فقال ابن عمر: ما تنكر على أم المؤمنين من امرأة سحرتها واعترفت؟ فسكت عثمان، وعثمان لم ينكر على حفصة القتل، ولكنه أنكر عليها الافتئات على حق الإمام في إقامة الحدود، فإن أمر الحدود إلى الإمام، وهذا ما يدل عليه قول ابن عمر: ما تنكر على أم المؤمنين من امرأة سحرتها واعترفت؟ يعنى أن القضاء فيها واضح، وأن استحقاقها القتل لا تدفعه شبهة^(١).

٥ - جنابة الأعمى:

الأعمى قائده كالآلة، يتحرك بأمره، وهو مع مُجالسه غفل، يتحرك وهو قد يتردى في حركته أو يتضرر، فلا يتوقع أنه يتحاشى إضرار غيره بحركته وهو لا يراه، ولذلك فإنه إذا ما جنى على قائده أو مَنْ جالسه دُونَ قصد فجنيته هدر، قال عثمان ابن عفان: أيما رجل جالس أعمى فأصابه الأعمى بشيء، فهو هدر^(٢).

٦ - جنابة المقتلين على بعضهما:

قد يقع شجار بين الأشخاص فيجنى كل واحد من المتشاجرين على صاحبه، فإن حصل شيء من هذا فالواجب القصاص؛ لأن هذه الجنابة جنابة عمد، إذ الظاهر أن كل واحد منهما حريص على أن ينال من صاحبه، قال عثمان بن عفان رضى الله عنه: إذا اقتتل المقتلان فما كان بينهما من جراح فهو قصاص^(٣).

٧ - الجنابة على الحيوان:

إذا وقعت الجنابة على الحيوان فالواجب فيها الضمان بالقيمة، فعن عقبة بن عامر قال: قتل رجل في خلافة عثمان بن عفان كلباً لصيد لا يعرف مثله في الكلاب،

(١) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص ١٦٩، ١٧٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٩٩.

(٣) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص ١٠٠.

فقوم بشماعة درهم، فألزمه عثمان تلك القيمة، وأغرم رجلاً ثمن كلب قتله عشرين بغيراً^(١).

٨ - الجناية على الصائل:

إذا صال شخص على مال شخص آخر أو على نفسه أو على عرضه فقتله المصول عليه أثناء اعتدائه قدمه هدر، فقد روى ابن حزم في المحلى أن رجلاً رأى مع امرأته رجلاً فقتله، فارتفع إلى عثمان، فأبطل دمه^(٢).

٩ - استتابة المرتد وحده:

لا يقام الحد على المرتد حتى يستتاب ثلاثاً، فإن أصرّ على رده قُتل، وحدث أن أخذ عبدُ الله بن مسعود بالكوفة رجلاً ارتدوا عن الإسلام وأخذوا يُعشّون حديث مسيلمة الكذاب، فكتب فيهم إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان، فكتب عثمان إليه: أن اعرض عليهم دين الحق وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فمن قبلها وبرئ من مسيلمة فلا تقتله، ومن لزم دين مسيلمة فاقتله، فقبلها رجال منهم فتركوا، ولزم دين مسيلمة رجال فقتلوا^(٣).

١٠ - إنى قتلت فهل لى من توبة؟

قال رجل لعثمان: يا أمير المؤمنين إنى قتلت فهل لى من توبة؟ فقرأ عليه عثمان من أول سورة غافر: ﴿حَمْدٌ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ^(١) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿ غافر: ١-٣ ﴾، ثم قال له: اعمل ولا تيأس^(٤)، والجدير بالذكر أن التوبة من الآثام إذا ارتكبت في حق العباد، لا بد فيها من أداء الحقوق لأصحابها أو تنازلهم عنها^(٥).

(١) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص ١٠٢.

(٢) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص ١٠٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٥٠.

(٤) سنن البيهقي (١٧/٨).

(٥) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص ٩٣.

١١ - حد الخمر:

المعروف أن رسول الله ﷺ قد عاقب الحر إذا شرب الخمر بأربعين جلدة، ضربه القوم بالنعال وأطراف الثياب امتهاً له، وكذلك أبو بكر، وكذلك عمر في أول خلافته، ثم لم يلبث أن زاد العقوبة بمشورة من الصحابة إلى ثمانين جلدة، لما رأى الناس يتحاقدون هذه العقوبة ولا يرتدعون بها، أما عثمان بن عفان فقد ثبت عنه أنه جلد الحر أربعين جلدة، وثبت عنه أنه جلد ثمانين جلدة، ولم يكن ذلك منه عن تشه أو هوى، ولكنه فرق بين الشاربين فلم يعاقب من كان شربه زلّةً منه عقوبة من أدمن شربها، فجعل عقوبة من كان شربه لها أول مرة، وكانت منه زكة أربعين جلدة، وجعل عقوبة من اعتاد شربها ومن أدمن عليها ثمانين جلدة، وكأنه كان يجعل الأربعين الأولى حداً، والأربعين الثانية تعزيراً^(١).

١٢ - إقامة الحد على أخيه من أمه: الوليد بن عقبة:

عن حصين بن المنذر، قال: شهدت عثمان بن عفان، وأتى بالوليد فشهد عليه رجلاً، أحدهما حرمان، أنه شرب الخمر، وشهد آخر أنه رآه يتقياً، فقال عثمان: إنه لم يتقياً حتى شربها، فقال: يا عليّ قم فاجلده، فقال عليّ: قم يا حسن فاجلده، فقال الحسن: ولّ حارّها من تولى قارّها^(٢)، فكأنه وجد عليه، فقال يا عبد الله بن جعفر قم فاجلده، فجلده وعلى يعدّ، حتى بلغ أربعين، فقال: أمسك، ثم قال: جلد النبي ﷺ أربعين، وأبو بكر أربعين، وعمر ثمانين، وكل سنة، وهذا أحب إليّ^(٣)، ويؤخذ من هذا الحديث بأن سلف عثمان رضي الله عنهم نفذوا هذا الحد، وبأن للمنفيذ أو المأمور أن ينيب عنه غيره، ويؤخذ منه - أيضاً - قوة عثمان في الحق وأنه لا تأخذه في الله لومة لائم، فالوليد بن عقبة بن أبي معيط أخوه لأمه^(٤)، وتنفيذ الأحكام الشرعية هو أحب أعمال الشرطة^(٥).

(١) موسوعة فقه عثمان بن عفان ص ٩٣.

(٢) أي: ولّ شدتها وأوساخها من تولى هنيئها ولذاتها.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم، كتاب الحدود (٢١٦/١١).

(٤) ولاية الشرطة في الإسلام، د. نمر الحميداني، ص ١٠٥.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٠٤.

١٣ - سرقة الغلام:

لا يقام حد السرقة إلا إذا كان السارق بالغاً عاقلاً مختاراً عالماً بالتحريم، وقد أتى لعثمان بغلام سرق، فقال: انظروا إلى مؤثره، فنظروا فلم يجدوه أنبت، فلم يقطعه^(١).

١٤ - الحبس تعزيراً:

استعار ضابى بن الحارث البرجمى فى زمان الوليد بن عقبة من قوم من الأنصار كلباً يدعى قرحان، يصيد الطباء، فحبسه عنهم، فنافره الأنصارىون واستغاثوا عليه بقومه فكاثروه، فانتزعوه منه، وردوه على الأنصار، فهاجمهم وقال فى ذلك:

تَجَشَّمْ دُونِي وَفَدَّ قَرْحَانُ خُطَّةً تَضَلُّ لَهَا الرُّجْنَاءُ وَهِيَ حَسِيرُ
فَبَاتُوا شَبَاعًا نَاعِمِينَ كَأَنَّمَا حَبَاهُمْ بَيْتُ الْمَرْزِيَّانِ أَمِيرُ
فَكَلْبِكُمْ لَا تَرَكُوا فَهُوَ أُمُّكُمْ فَإِنْ عَقُوقِ الْأَمْهَاتِ كَبِيرُ

فاستعدوا عليه عثمان، فأرسل إليه، فعزره وحبسه كما كان يصنع بالمسلمين، فاستقل ذلك، فما زال فى الحبس حتى مات فيه^(٢).

١٥ - حد القذف بالتعريض:

كان عثمان رضى الله عنه يقيم حد القذف بالتعريض به، فقد قال رجل لآخر: «يا ابن شامة الودرة» - يعرض له بزنا أمه - فاستعدى عليه عثمان بن عفان، فقال الرجل: إنما عنيت كذا وكذا، فأمر به عثمان فجلد الحد - أى حد القذف - ولم يلتفت إلى تفسير مراده مما قال^(٣).

١٦ - عقوبة الزنا:

إذا ثبت الزنا على رجل أو امرأة وكان حراً محصناً، فإنه يعاقب بالرجم بالحجارة

(١) صحيح التوثيق، ص ٧٧. وموسوعة فقه عثمان، ص ١٧١.

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٤٢٠).

(٣) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص ٢٤٧.

حتى الموت، وقد رنت امرأة محصنة في عهد عثمان بن عفان فقضى عثمان برجمها، ولم يحضر رجمها (١)

١٧ - التعزير بالنفي والطرْد:

بلغ عثمان أن ابن الحبكة النّهدي يعالج نيرنجاً - قال محمد بن سلمة: إنما نيرج - أخذ كالسحر وليس به - فأرسل إلى الوليد بن عقبة ليسأله عن ذلك، فإن أقر به فأوجعه، فدعا به فسأله، فقال: إنما هو رفق وأمر يعجب منه، فأمر به فعزّر، وأخبر الناس خبره وقرأ عليهم كتاب عثمان، إنه قد جدّ بكم، فعليكم بالجد، وإياكم والهزّال، فكان الناس عليه، وتعجبوا من وقوف عثمان على مثل خبره، فغضب فنفر في الدين نفروا، فضرب معهم، فكتب إلى عثمان فيه، فلما سیر إلى الشام من سیر، سیر كعب بن ذى الحبكة ومالك بن عبد الله - وكان دينه على دينه - إلى دُنياوند فقال في ذلك كعب بن ذى الحبكة للوليد:

لعمري لئن طردتني ما إلى التي	طمعت بها من سقطتي لسيل
رجوت رجوعي يا ابن أدوى ورجعتي	إلى الحقّ دهرًا غال ذلك غول
وإنّ اغترابى في البلاد وجفوتى	وشتمى في ذات الإله قليل
وإن دُعائي كلّ يوم وليلة	عليك بدُنياوندكم لطويل (٢)

١٨ - دفع الناس عن جنازة العباس:

عن عبد الرحمن بن يزيد أنه قال: لما أتى بجنازة العباس بن عبد المطلب إلى موضع الجنائز تضايق الناس فتقدموا به إلى البقيع، ولقد رأيتنا يوم صلّينا عليه بالبقيع، وما رأيت مثل ذلك الخروج على أحد من الناس قط، وما يستطيع أحد أن يدنو من سريره، وغلب عليه بنو هاشم، فلما انتهوا إلى اللحد ازدحموا عليه، فأرى عثمان اعتزل ويحث الشرطة يضربون الناس عن بنى هاشم، حتى خلص بنو هاشم

(١) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ١٦٤.

(٢) تاريخ الطبري (٤١٩/٥).

فكانوا هم الذين نزلوا في حفرفته ودلّوه في اللحد^(١)، وهذا يدل على كثرة رجال الشرطة آنذاك، ويعتبر عثمان رضي الله عنه لدى بعض المؤرخين^(٢)، أول من اتخذ صاحب شرطة من الخلفاء، وقد أسند هذه المهمة في المدينة إلى الصحابي الجليل المهاجر بن قنفذ بن عمير القرشي^(٣)، وهذا يدل على عنايته بها، وأن صيتها قد ذاع في عهده، وفي الكوفة كان عبد الرحمن الأسدي على شرطة سعيد بن العاص (واليها لعثمان)، كما كان نصير بن عبد الرحمن على شرطة فغاوية بن أبي سفيان (والى عثمان على الشام)^(٤).

وفي الحقيقة لا يعلم خليفة في الإسلام بعد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما بقيم الحدود على القريب والبعيد، والشريف والوضيع والغني والفقير، ولا يبالي، ويعطى كل ما يطلب منه من إصلاح أو حقوق كعثمان رضي الله عنه وكفاه فخراً أن ينتمى لحكم الخلافة الراشدة^(٥).

ثانياً: في العبادات والمعاملات:

١ - إتمام عثمان الصلاة بمبنى وعرفات:

في حج عام ٢٩هـ، صلى عثمان رضي الله عنه بمبنى أريحا، فأتى آت عبد الرحمن ابن عوف، فقال: هل لك في أخيك؟ قد صلى بالناس أريحا، فصلى عبد الرحمن بأصحابه ركعتين، ثم خرج حتى دخل على عثمان، فقال له: ألم تصل في هذا المكان مع رسول الله ﷺ ركعتين؟ قال: بلى، قال: أفلم تصل مع أبي بكر ركعتين؟ قال: بلى، قال: أفلم تصل مع عمر ركعتين؟ قال: بلى، قال: ألم تصل صدراً من خلافتك ركعتين؟ قال: بلى، قال: فاسمع مني يا أبا محمد^(٦)، إنني أخبرتك أن بعض

(١) الطبقات (٤/٣٢).

(٢) تاريخ خليفة بن خياط، ص ١٧٩.

(٣) ولاية الشرطة في الإسلام، ص ١٠٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٠٦.

(٥) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (١/٤٠٩).

(٦) أبو محمد كنية عبد الرحمن بن عوف، ص ٢٦٨.

من حج من أهل اليمن وجفاة الناس قد قالوا في عامنا الماضي: إن الصلاة للمقيم ركعتان، هذا إمامكم عثمان يصلي ركعتين، وقد اتخذت بمكة أهلاً، فرأيت أن أصلي أربعاً لخوف ما أخاف على الناس، وأخرى قد اتخذت بها زوجة، ولي بالطائف مال، فربما اطلعته فأقمت فيه بعد الصلوة، فقال عبد الرحمن بن عوف: ما من هذا شيء لك فيه عذر، أما قولك: اتخذت أهلاً، فزوجتك بالمدينة تخرج بها إذا شئت وتقدم بها إذا شئت، إنما تسكن بسكنائك، وأما قولك: ولي مال بالطائف، فإن بينك وبين الطائف مسيرة ثلاث ليال وأنت لست من أهل الطائف، وأما قولك: يرجع من حج من أهل اليمن وغيرهم فيقولون: هذا إمامكم عثمان يصلي ركعتين وهو مقيم، فقد كان رسول الله ﷺ ينزل عليه الوحي والناس يومئذ الإسلام فيهم قليل، ثم أبو بكر مثل ذلك، ثم عمر، فضرب الإسلام بجرائه، فصلى لهم عمر حتى مات ركعتين. فقال عثمان: هذا رأى رأيته، فخرج عبد الرحمن فلقى ابن مسعود، فقال: أبا محمد، غير ما يعلم؟ قال: لا، قال: فما أصنع؟ قال: اعمل أنت بما تعلم، فقال ابن مسعود: الخلاف شر، قد بلغني أنه صلى أربعاً فصليت بأصحابي أربعاً، فقال عبد الرحمن بن عوف: قد بلغني أنه صلى أربعاً فصليت بأصحابي ركعتين، وأما الآن فسوف يكون الذي تقول - يعني نصلي معه أربعاً^(١).

إن عثمان صنع ما صنع من إتمام الصلاة في منى وعرفات، شفقة على ضعفاء المسلمين أن يفتنوا في دينهم، فقد أبدى لفعله سبباً معقولاً حينما سأله عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه وعما دعاه إليه، فلما أطلعه عثمان رضي الله عنه على وجهة نظره، أخذ عبد الرحمن بقوله وأتم الصلاة بأصحابه، وكذلك صنع عبد الله بن مسعود وغيره من جمهور الصحابة، فتابعوه ولم يخالفوه؛ لأنه إمام راشد تجب متابعتة فيما لم يخرج عن حدود الشريعة المطهرة، ولو كان فيما جاء به عثمان أدنى شبهة لمخالفة نص شرعي ما أمكن مطلقاً جمهور الصحابة أن يتابعوه^(٢)، والذي أبداه عثمان في تحاوره مع عبد الرحمن بن عوف واحتج به لرأيه معقول المعنى، ولو تأمل

(١) تاريخ الطبري (٢٦٨/٥).

(٢) عثمان بن عفان، إصادق عرجون، ص ١٩٢.

فيه نظار في أسرار الدين وحكم الشريعة لرأى أن إتمام الصلاة الذى انتهى إليه رأى عثمان أرجح حيثئذ من قصرها، وقد حدث من الأمور ما لم يكن على عهد النبي ﷺ وأبى بكر وعمر، فخاف عثمان أن يفتن الناس فى صلاتهم، ولا سيما جفاة الأعراب فى مضاربتهم، ومن بعدت بلادهم فى أطراف الأرض، وقد لا يتصل بهم من أهل العلم من يعلمهم ويرشدهم، فأراد عثمان بما صنع حسم هذا الشر المخوف على كثير من ضعفاء المسلمين، وقد بالغ عثمان رضى الله عنه فى إبعاد الشبهة عن نفسه، فقال: إنه اتخذ بمكة أهلاً، وله بالطائف مال ربما نظر إليه وأقام فيه بعد انتهاء الموسم، فيكون حيثئذ مقيماً، ففرضه الإتمام، وذلك منه رضى الله عنه من دقيق النظر فى الدين، وفهم أسرارِهِ وحكمه (١).

وقد رأى جماعة من الصحابة إتمام الصلاة فى السفر منهم: عائشة، وعثمان، وسلمان وأربعة عشر من أصحاب رسول الله ﷺ (٢)، فعثمان رضى الله عنه لم يوجب القصر فى السفر، وإنما كان يجتهد كما رآه فقهاء المدينة ومالك والشافعى وغيرهما. ثم إنها مسألة اجتهادية ولذلك اختلف فيها العلماء فقوله فيها لا يوجب تكفيراً ولا تفسيقاً (٣)، وأما قول ابن مسعود - رضى الله عنه - الخلاف شر (٤)، وفى رواية: إني أكره الخلاف (٥)، فقيه ترشيد لنا وتذكير على استحباب الخروج من الخلاف فى مسائل الاجتهاد، ويحسن بالمسلم أن يستحضرها ويحاول أن يقلل الخوض والجدال فى الفروع المختلف فيها (٦)، إذ الظروف المحيطة بتنا... لا تساعدنا على إضاعة مزيد من الوقت الثمين فى الجدل والخلاف عما يجب أن نفعله لمواجهة التحديات الخطيرة (٧) كما أن فى فعل ابن مسعود وابن عوف رضى الله عنهما من الصلاة خلف عثمان بياناً لحرص الصحابة على الاجتماع والوحدة، وهذا خلق عظيم من أخلاق جيل النصر...

(١) المصلى نفسه، ص ١٩٤.

(٢) كتاب الإمامة والرد على الرافضة للأصبهاني، ص ٣١٢.

(٣) الرياض النضرة، ص ٥٦٦.

(٤) تاريخ الطبرى (٢٦٨/٥).

(٥) القواعد الفقهية للنووي، ص ٣٣٦.

(٦) فقه الأولويات، لحمد الوكيلى، ص ١٦٩.

(٧) الفكر الإسلامى بين المثالية والتطبيق، كامل الشريف، ص ٢٩.

٢ - زاد الأذان الثاني يوم الجمعة:

قال رسول الله ﷺ: «عليكم بستی وستة الخلفاء الراشدين من بعدی»^(١)، وهذه الزيادة من سنة الخلفاء الراشدين، ولا شك أن عثمان من الخلفاء الراشدين ورأى مصلحة أن يزداد هذا الأذان؛ لتثنية الناس عن قرب وقت صلاة الجمعة بعد أن اتسعت رقعة المدينة، فاجتهد في هذا ووافقه جميع الصحابة واستمر العمل به لم يخالفه أحد حتى في زمن علي وزمن معاوية وزمن بني أمية وبني العباس إلى يومنا هذا فهي سنة بإجماع المسلمين^(٢)، ثم هو له أصل في الشرع، وهو الأذان الأول في الفجر فقام عثمان هذا الأذان عليه^(٣). لقد سن عثمان ذلك أخذًا من سنة الرسول ﷺ وأذانه الذي شرعه في الفجر قبل دخول الوقت لينبه النائم ويستعد اليقظان ومريد الصيام، فهو مستن بسنة الرسول ﷺ وأخذ من طريقته، وقد اختلف أهل العلم: هل أوقعه قبيل دخول الوقت كما هو الحال في الأذان الأول من الفجر أم أوقعه في الوقت؟ ويميل الحافظ إلى أن وقوعهما كان إعلامًا بالوقت، قال في فتح الباري: وتبين أن عثمان أحدثه لإعلام الناس بدخول وقت الصلاة قياسًا على بقية الصلوات فالحق الجمعة بها وأبقى خصوصيتها بالأذان بين يدي الخطيب. وفيه استنباط معنى من الأصل لا يطله، وأما ما أحدث الناس قبل وقت الجمعة من الدعاء إليها والذكر والصلاة على النبي ﷺ فهو في بعض البلاد دون بعض، واتباع السلف الصالح أولى^(٤)، وأما الذين قالوا إنه أحدث قبيل دخول الوقت، قالوا: لأن الغرض منه الإعلام بالجمعة والسعي إليها على غرار الأذان الأول في الفجر، فلو كان بعد دخول الوقت لما أدى المعنى المطلوب إلا بتأخير الجمعة بعض الشيء وهو خلاف السنة، وبه يُستغنى عما أحدثه الناس في التذكير والذكر وغيرهما عما أشار إليه الحافظ ولم ينكره إلا بقوله: «واتباع السلف الصالح أولى»^(٥).

(١) سنن أبي داود، كتاب السنة رقم ٤٦٠٧. وسنن الترمذي، كتاب العلم رقم ٢٦٧٦.

(٢) حقة من التاريخ، عثمان الخميس، ص ٨٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٨٩.

(٤) فتح الباري (٤/٣٤٥).

(٥) السنة والبذعة، لعبد الله باعلوي الحضرمي، ص ١٣٢، ١٣٣.

٣ - اغتساله كل يوم منذ أسلم:

كان عثمان بن عفان يغتسل كل يوم منذ أسلم^(١)، وقد صلى ذات يوم الصبح بالناس وهو جنب دون أن يدري، فلما أصبح رأى في ثوبه احتلاماً، فقال: كبرتُ والله إنني لأراني أجنبُ ولا أعلم، ثم أعاد الصلاة^(٢)، ولم يُعد من صلى خلفه^(٣).

٤ - سجود التلاوة:

كان عثمان بن عفان رضي الله عنه يرى أن سجود التلاوة يجب على المكلف التالي للقرآن، وعلى الجالس لسماع القرآن، أما من سمعه من غير قصد فليس عليه سجود التلاوة، فقد مر رضي الله عنه بقاص، فقرأ القاص سجدة ليسجد معه عثمان، فقال عثمان: إنما السجود على من استمع، ثم مضى ولم يسجد^(٤)، وقوله: على من استمع: يعني على من قصد السماع، وقال رضي الله عنه: إنما السجدة على من جلس لها^(٥)، وروى عن عثمان أن الحائض إذا استمعت السجدة تومئ بها إيماءً، ولا تتركها، ولا تسجد لها سجود الصلاة^(٦).

٥ - صلاة الجمعة في السواحل:

قال الليث بن سعد: كل مدينة أو قرية فيها جماعة أمروا بالجمعة، فإن أهل مصر وسواحلها كانوا يجمعون الجمعة على عهد عمر، وعثمان بأمرهما، وفيهما رجال من الصحابة^(٧).

٦ - استراحة عثمان في الخطبة:

عن قتادة أن النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان كانوا يخطبون يوم الجمعة، حتى

(١) فضائل الصحابة رقم ٧٥٦ إسناده حسن.

(٢) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص ١٩٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٩٢.

(٤) الخلافة الراشدة، والدولة الأموية، د. يحيى اليحيى، ص ٤٤٤.

(٥، ٦) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص ١٦٨.

(٧) فتح الباري (٢/٤٤١).

شق القيام على عثمان، فكان يخطب قائماً ثم يجلس، فلما كان معاوية خطب الأولى جالساً، والأخرى قائماً^(١)؛

٧ - جعل القنوت قبل الركوع:

قال أنس: إن أول من جعل القنوت قبل الركوع - أى دائماً - عثمان، لكى يذكّر الناس الركعة^(٢).

٨ - أعلم الناس بأحكام الحج:

يقول محمد بن سيرين: كانوا يرون أن أعلم الناس بالمناسك عثمان بن عفان ثم عبد الله بن عمر رضى الله عنهما^(٣).

٩ - النهى عن الإحرام قبل الميقات:

لما فتح عبد الله بن عامر خراسان قال: إن هذا نصر من الله لا بد لى من أن أشكره عليه، ولاجعلن شكرى لله أن أخرج من موضعى هذا - خراسان - محرماً، فأحرم من نيسابور، وخلف على خراسان الأحنف بن قيس، فلما قضى عمرته أتى عثمان بن عفان، وذلك فى السنة التى قتل فيها، فقال له عثمان: لقد غررت بعمرتك حين أحرمت من نيسابور^(٤).

١٠ - سفر المعتدة للحج والعمرة:

المعروف أن المعتدة لا تبيت إلا فى بيتها، ولا تسافر إلا بعد انتهاء عدتها؛ لأن سفرها يقتضى مبيتها فى غير بيتها، والحج لا يخلو من سفر، ولذلك فإن عثمان كان يرى أن المعتدة لا يلزمها الحج ما دامت فى العدة، وكان رضى الله عنه يرجع المعتدة حاجة أو معتمرة من الجحفة وذى الحليفة^(٥).

(١) الخلافة الراشدة، ليجمى البجى، ص ٤٤٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٤٤. وفتح البارى (٥٦٩/٢).

(٣) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص ١١٢.

(٤) سنن البيهقى (٣١/٥). وموسوعة فقه عثمان بن عفان، ص ١٧.

(٥) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص ١١٢.

١١ - النهي عن متعة الحج:

نهى عثمان رضي الله عنه عن المتعة أو الجمع بينهما ليعمل بالأفضل لا ليُطِلَّ المتعة. ولا يخفى على عثمان ومن دونه أن من أراد الإحرام فهو مخير بين الأفراد، والقران، والتَّعَتُّع، ولكنه رضي الله عنه رأى الأفراد أفضل من الاثنين، فعن مروان ابن الحكم، قال: شهدت عثمان وعلياً رضي الله عنهما وعثمان ينهى عن المتعة وأن يُجمع بينهما، فلما رأى على ذلك أهلَّ بهما ليك بعمره وحجة، وقال: ما كُنْتُ لأدع سنة النبي ﷺ لقول أحد^(١)، ولم ينكر عثمان على على ذلك منه؛ لأن علياً رضي الله عنه كان يخشى أن يحمل غيره النهي على الإبطال والتحريم، وإنما قال: ما كنت لأدع سنة رسول الله ﷺ لقول أحد، ليظهر جواز ذلك وأنها سنة ماضية، وكلاهما مجتهد مأجور^(٢)، وفي الحديث من الفوائد الظاهرة: مناظرة العلماء ولاية الأمر بقصد إشاعة العلم ومناصرة المسلمين، وسعة صدر الولاية، لاجتهاد العلماء في المسائل التي يتسع معها الاجتهاد، وأن للمجتهد لا يجبر مجتهداً آخر باتباعه لسكوت عثمان عن على، وفيه أن العلم يسبق القول والعمل^(٣).

١٢ - أكل لحم الصيد:

لا يجوز للمحرم أن يأكل من الصيد الذي صاده هو، أو صاده غيره من الحلال^(٤)، فعن عبد الرحمن بن حاطب أنه اعتمر مع عثمان بن عفان في ركب، فلما كان بالروحاء قدم لهم لحم طير - يعاقيب - فقال عثمان: كلوا، وكره أن يأكل منه، فقال عمرو بن العاص: أناكل مما لست منه أكلاً؟! قال عثمان: لست في ذلك مثلكم، إنما صيدت لي، وأميتت باسمي، أو قال: من أجلي^(٥). وقد تكرر ذلك من عثمان مرة أخرى، كما روى عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: رأيت عثمان بن عفان بالمرج وهو محرم في يوم صائف قد غطي وجهه بقطيفة أرجوان، ثم أتى بلحم صيد

(١) البخاري، كتاب الحج رقم ١٥٦٣.

(٢، ٣) شهيد الدر عثمان بن عفان، ص ٨٦.

(٤) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص ٢٠.

(٥) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص ٢٠.

فقال لأصحابه: كلوا، فقالوا: ألا نأكل أنت؟ قال: إني لست كهيتكم، إنما صيد من أجلى^(١)

١٣ - كراهية الجمع بين القرابة في الزواج:

أخرج الخلال من طريق إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه عن أبي بكر وعمر وعثمان أنهم كانوا يكرهون الجمع بين القرابة مخافة الضغائن^(٢).

١٤ - في الرضاة:

روى عبد الرزاق عن ابن جريج عن ابن شهاب قال: فرق عثمان بين ناس تناكحوا بقول امرأة سوداء أرضعتهم^(٣)

١٥ - في الخلع:

عن الربيع بنت معوذ قالت: كان بيني وبين ابن عمي كلام، وكان زوجها، قالت: فقلت له: لك كل شيء وفارقني، قال: قد فعلت. فأخذ والله كل شيء حتى فراشي، فبحث عثمان وهو محصور، فقال: الشرط أملك، خذ كل شيء حتى عقاص رأسها^(٤)، وفي رواية اختلعت من زوجي بما دون عقاص رأسي فأجاز ذلك عثمان^(٥)

١٦ - يجب الإحداد على المعتدة لوفاة زوجها:

ومن الإحداد ترك الزينة، وترك المبيت في غير البيت الذي توفي فيه زوجها إلا لضرورة، ويجوز لها أن تخرج نهاراً لقضاء حاجتها، ولكنها لا تبني في المساء إلا في بيتها^(٦)، فعن فريضة بنت مالك بن سنان أخت أبي سعيد الخدري أنها جاءت إلى

(١) سنن البيهقي، (١٩١/٥). وموسوعة فقه عثمان بن عفان، ص ٢٠.

(٢) الخلافة الراشدة، د. يحيى اليحيى، ص ٤٤٩.

(٣) الفتح (١٨/٥).

(٤) الطبقات (٤٤٨/٨).

(٥) الخلافة الراشدة، د. يحيى اليحيى، ص ٤٤٩.

(٦) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص ٢٤٤.

رسول الله ﷺ، فأخبرته أن زوجها خرج في طلب أعبد له، فقتلوه بطرف القُدوم، فسألت رسول الله أن أرجع إلى أهلى فإن زوجى لم يتركنى فى مسكن يملكه ولا نفقة، قالت: فقال رسول الله ﷺ: نعم، قالت: فانصرفت، حتى إذا كنت فى الحجرة نادانى رسول الله ﷺ أو أمر بى فنوديتُ فقال: (كيف قلت؟) فرددت عليه القصة التى ذكرت له من شأن زوجى، فقال: امكثى فى بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله، قالت: فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرًا، قالت: فلما كان عثمان بن عفان أرسل إلى، فسألنى عن ذلك؟ فأخبرته، فاتبعه وقضى به^(١)، ولذلك كان عثمان يتشدد فى أمر مبيت المرأة المعتدة خارج بيتها، فقد حدث أن امرأة توفى عنها زوجها زارت أهلها فى عدتها، فضربها الطلق، فأتوا عثمان فسألوه فقال: احملوها إلى بيتها وهى تطلق^(٢).

١٧ - لا تنكحها إلا نكاح رغبة:

جاء رجل إلى عثمان فى خلافته وقد ركب، فسأله، فقال: إن لى إليك حاجة يا أمير المؤمنين، فقال له عثمان: إنى الآن مستعجل فإن أردت أن تركب خلفى حتى تقضى حاجتك، فركب خلفه، فقال: إن لى جارًا طلق امرأته فى غضبه، ولقى شدة، فأردت أن أحسب بنفسى ومالى فأتزوجها ثم أبتنى بها ثم أطلقها فترجع إلى زوجها الأول، فقال له عثمان: لا تنكحها إلا نكاح رغبة^(٣).

١٨ - طلاق السكران:

كان عثمان بن عفان رضى الله عنه يرى أن كل ما يتكلم به السكران فهو هدر، فلا تصح عقوده، ولا فسوخته، ولا إقراره، ولا يقع طلاقه؛ لأنه لا يعى ما يقول ولا يريد ما يقول، ولا إلزام لغير إرادة^(٤)، قال عثمان رضى الله عنه: ليس لسكران ولا مجنون طلاق^(٥).

(١) المصدر نفسه، ص ٢٢٤. والموطأ (٥٩١/٢).

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٢٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٨١.

(٤) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص ٥٣. والفتاوى (٧٢/١٤).

(٥) الفتاوى (٦١/٣٣). وموسوعة فقه عثمان بن عفان، ص ٥٣.

١٩ - هبة الوالد لولده:

إذا نحل الأب ولده نحلة، كان عليه أن يشهد على هذه الهبة، فإذا أشهد عليها اعتبر هذا الإشهاد قبضاً لها، وصح أن تبقى بعد ذلك في يد الأب، فقد ورد عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قوله: من نحل ولداً له صغيراً لم يبلغ أن يجوز نحلة، فأعلن ذلك وأشهد عليه فهي جائزة وإن وليها أبوه^(١)، وأما إذا لم يشهد ولم يسلمه للولد فهي هبة غير لازمة، قال عثمان رضى الله عنه: ما بال أقوام يعطى أحدهم ولده العطية، فإن مات ولده قال: مالى وفى يدي، وإن مات هو قال: وهبته، لا يثبت من الهبة إلا ما حازه الولد من مال أبيه^(٢).

٢٠ - الحجر على السفية:

كان عثمان بن عفان رضى الله عنه يرى الحجر على السفية، فقد حدث أن اشترى عبد الله بن جعفر أرضاً بمبلغ ستين ألف دينار، فبلغ ذلك على بن أبى طالب، فقرّر على أن الأرض لا تساوى هذا المبلغ من المال، وأن عبد الله بن جعفر قد غبن فيها غبناً فاحشاً، بل إنه قد تصرف تصرفاً أخرق، وأعرب أنه سيتوجه نحو أمير المؤمنين عثمان بن عفان ليطلب منه الحجر على عبد الله بن جعفر لسفهه وإساءته التصرف في ماله، فأسرع عبد الله بن جعفر إلى الزبير - وكان تاجراً حاذقاً - وقال له: إنى ابتعت بيعاً كذا وكذا، وإن علياً يريد أن يأتى عثمان فيسأله أن يحجر علىّ، فقال له الزبير: فانا شريكك في البيع، وأتى علىّ عثمان بن عفان فقال له: إن ابن أخى اشترى سبعة وستين ألفاً ما يسرنى أنها لى بنعلّى، فاحجر عليه، وقال الزبير لعثمان: أنا شريكه في هذا البيع، فقال عثمان بن عفان لعلى بن أبى طالب: كيف أحجر على رجل في بيع شريكه فيه الزبير^(٣)؟ يعنى أننا لا نستطيع أن نحكم على جعفر بالسفه لتصرف تصرفه شريكه فيه الزبير؛ لأن الزبير لا يمكن أن يشارك في تصرف تجارى أخرق لحذقه بالتجارة^(٤).

(١) سنن البيهقي (٦/ ١٧٠). وموسوعة فقه عثمان بن عفان، ص ٢٨٨.

(٢) الفتاوى (١٥٤/ ٣١).

(٣) سنن البيهقي (٦/ ٦٦١). وموسوعة فقه عثمان بن عفان، ص ١١٩.

(٤) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص ١١٩.

٢١ - الحجر على المفلس:

كان عثمان بن عفان رضى الله عنه يرى الحجر على المفلس، وإذا حُجر على مفلس اقتسم الدائتون ماله بنسبة ديونهم، لكن إن وجد بعض دائنيه سلعة التي باعه إياها بعينها عنده، جاز له أن يفسخ البيع ويأخذ سلعته^(١)، فهو أحق بها من غيره^(٢)

٢٢ - تحريم الاحتكار:

كان عثمان بن عفان رضى الله عنه يمنع الاحتكار وينهى عنه^(٣)، ويظهر أن عثمان ابن عفان كان كسلفه عمر بن الخطاب لا يفرق في تحريم الاحتكار بين الطعام وغيره؛ لأن نهيهِ عن الاحتكار كان عاماً، خاصة أن ما ورد عن رسول الله في تحريم الاحتكار منه ما هو مطلق في كل شيء، ومنه ما هو مقيّد - عند الجمهور - لعدم التعارض بينهما، بل يبقى المطلق على إطلاقه^(٤)

٢٣ - ضوال الإبل:

روى مالك أنه سمع ابن شهاب يقول: كانت ضوال الإبل في زمن عمر بن الخطاب، إيلاً مرسلّة تتأجج لا يمسه أحد، حتى إذا كان زمن عثمان بن عفان أمر بتعريفها ثم تباع، فإذا جاء صاحبها أعطى ثمنها^(٥)، وقد كان فعل عمر تبعاً لحديث الصحيحين عن زيد بن خالد الجهني رضى الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فسأله عما يلتقطه، فقال: أعرف عفاصها ووكاءها^(٦) ثم عرفها سنة، فإن جاء صاحبها وإلا فشأنك بها، قال: فضالة الغنم يا رسول الله؟ قال: هي لك، أو لأخيك أو للذئب، قال: فضالة الإبل؟ قال: ما لك ولها، معها سقاؤها وحذاؤها ترد الماء وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها^(٧)

(١) سنن البيهقي (٤٦/٦).

(٢) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص ١١٩.

(٣) موطأ مالك (٦٥١/٢).

(٤) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص ١٥.

(٥) موطأ مالك، ص ٦٤٨ - ٦٤٩، طبعة دار الآفاق الجديدة.

(٦) العفاص: الرعاء الذي تحفظ فيه النفقة. والوكاء: الحيط الذي يتربط به.

(٧) البخاري، كتاب اللقطة رقم ٢٤٢٧، ٢٤٢٨، ٢٤٢٩.

وقد رأى الأستاذ الحجوى أن هذا الاجتهاد من عثمان بن عفان رضى الله عنه مبنى على المصلحة المرسله؛ لأنه رأى الناس مدوا أيديهم إلى ضوال الإبل، فجعل راعياً يجمعها، ثم تباع قياماً بالمصلحة العامة^(١)، غير أن الأستاذ عبدالسلام السليمانى رد على هذا القول بقوله: غير أنه من الصعب التسليم بمقالة الأستاذ الحجوى على إطلاقها؛ لأن المصلحة المرسله هي التي لم ينص الشارع لا على اعتبارها ولا على إلغائها، في حين أن النبي ﷺ قد نص على حكم ضوال الإبل في الحديث المذكور أعلاه، فهي إذن مصلحة معتبرة نص عليها النبي بنفسه، فلا يصح أن يقال إن ما فعله عثمان من بيع ضوال الإبل يعد مصلحة مرسله، فالمصلحة المرسله لا تكون في مقابلة النص.

والذى يظهر لنا أن اجتهاد عثمان في هذه القضية بنى على المصلحة العامة فعلاً لكنها ليست مصلحة مرسله، وأن هذه القضية من القضايا القابلة للاجتهاد، والتي يمكن أن يتغير حكمها بتغير الأزمنة والأحوال وبالنظر إلى ما يحقق مصلحة أصحاب ضوال الإبل؛ لأن علة الحكم فيها - على ما يظهر - هي المحافظة على هذه الإبل إما بأعيانها أو في شكل ثمنها وكلا الأمرين مصلحة، ولا شك أن سيدنا عثمان بصنيعة هذا كان هدفه تحقيق المصلحة العامة؛ لأنه رأى أن ترك الإبل على حالها كما كان الأمر في عهد النبي ﷺ وإلى زمن عمر يعرضها لضاياع بعد أن تغيرت أخلاق الناس، وأصبحوا يمدون أيديهم لضوال الإبل، فرأى أن يقطع الطريق عليهم بما فعل، وهو اجتهاد سليم، وحكم (سديد) بلا ريب^(٢).

٢٤ - توريث المرأة المطلقة في مرض الموت:

طلق عبد الرحمن بن عوف زوجته وهو مريض فورثها عثمان منه بعد انقضاء مدة عدتها، وقد روى أن شريحاً كتب إلى عمر بن الخطاب في رجل طلق امرأته ثلاثاً وهو مريض، فأجاب عمر أن ورثها ما دامت في عدتها، فإن انقضت عدتها فلا

(١) الفكر الإسلامى (١/ ٢٤٥).

(٢) الاجتهاد في الفقه الإسلامى، ص ١٤٣، ١٤٤.

ميراث لها، فبعد أن اتفقا على أن طلاق المريض مرض الموت لا يزيل الزوجية كسب موجب للإرث، جعل عمر حداً لذلك وهو العدة، بينما لم يجعل عثمان حداً لذلك، وقال: ترث مطلقها سواء مات في العدة أو بعدها، وليس في المسألة نص يرجع إليه، والباعث على الحكم هو معاملة الزوج بنقيض قصده؛ لأن الزوج بطلاقه في مرض الموت يعتبر فاراً من توريث زوجته^(١).

٢٥ - توريث المطلقة ما لم تنقض عدتها:

قال عثمان بن عفان: إذا مات أحد الزوجين قبل الحيضة الثالثة للمطلقة ورث الحي منهما الميت^(٢)، ولا يمنع التوارث بينهما طول فترة العدة كما إذا حاضت المعتدة حيضة أو حيضتين ثم ارتفعت حيضتها، فقد طلق حبان بن منقذ امرأته وهو صحيح، وهي ترضع ابنته، فمكثت سبعة عشر شهراً لا تحيض، يمنعها الرضاع أن تحيض، ثم مرض حبان بعد أن طلقها سبعة أشهر أو ثمانية، فقليل له: إن امرأتك ترث، فقال: احملوني إلى عثمان، فحملوه إليه، فذكر له شأن امرأته، وعنده على بن أبي طالب وزيد بن ثابت، فقال لهما عثمان: ما تريان؟ فقالا: نرى أنها ترثه إن مات، ويرثها إن ماتت، فإنها ليست من القواعد من النساء اللاتي يثنى من الحيض، وليست من الأبكار اللاتي لم يحضن، ثم هي على عدة حيضها ما كان من قليل أو كثير، فرجع حبان إلى أهله فأخذ ابنته، فلما فقدت الرضاع حاضت حيضة، ثم حاضت أخرى، ثم توفي حبان قبل أن تحيض الثالثة، فاعتدت عدة الوفاة وورثت زوجها حبان بن منقذ^(٣).

٢٦ - توريث الحمل:

إذا سببت امرأة من الكفار ومعهما طفل تحمله مدعية أنه ولدها - وهو ما يسمى به (الحميل) - فإنها لا تصدق بدعواها، ولا يجرى التوارث بينها وبينه إلا إذا أقامت

(١) تاريخ التشريع الإسلامي، للخضري، ص ١١٨. ونشأة الفقه الاجتهادي، محمد السائس، ص ٢٧.

والاجتهاد في الفقه الإسلامي، ص ١٤٢.

(٢) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص ٢٨.

(٣) سنن البيهقي (٤١٩/٧). وموسوعة فقه عثمان بن عفان، ص ٢٩.

البينة على أنه ابنها، وقد استشار عثمان في ذلك أصحاب رسول الله ﷺ، فأبدى كل منهم رأيه، وقال عثمان آنئذ: ما نرى أن نورث مال الله إلا بالبينات. وقال: لا يُورث الحميل إلا بينة^(١).

هذه بعض اجتهادات ذي النورين أثرت في المؤسسة القضائية في مجال القصاص والحدود والجنايات والتعزير، كما أنه ساهم في تطوير المدارس الفقهية الإسلامية باجتهاداته الدالة على سعة اطلاعه وغزارة علمه وعمق فهمه واستيعابه لمقاصد الشريعة الغراء، فهو خليفة راشد، أعماله تسترشد بها الأمة في مسيرتها الطويلة لنصرة دين الله تعالى وإعزازه.

(١) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص ٢٨.

الفصل الرابع

الفتوحات فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه

• تمهيد:

شجع خبر مقتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه أعداء الإسلام وخصوصاً فى بلاد الفرس والروم على الطمع فى استرداد ملكهم، فبدأ يزدجرد ملك الفرس يخطط فى العاصمة التى يقيم فيها وهى مدينة (فرغنة) عاصمة سمرقند، وأما زعماء الروم فقد تركوا بلاد الشام وانتقلوا إلى القسطنطينية العاصمة البيزنطية، وبدءوا فى عهد عثمان فى البحث عن الوسائل التى تمكنهم من استرداد ملكهم وكانت بقايا جيوش الروم فى مصر قد تحصنوا بالإسكندرية فى عهد عمر بن الخطاب فطلب عمرو بن العاص منه أن يأذن بفتحها، وكانت معززة بتحصينات كثيرة وكانت المجانيق فوق أسوارها وكان هرقل قد عزم أن يباشر القتال بنفسه ولا يتخلف أحد من الروم؛ لأن الإسكندرية هى معقلهم الأخير^(١)، وفى عصر عثمان تجمع الروم فى الإسكندرية وبدءوا يبحثون عن وسيلة لاسترداد ملكهم فيها، حتى وصل بهم الأمر إلى نقض الصلح واستعانوا بقوة الروم البحرية^(٢)، فأملوهم بثلاثمائة سفينة بحرية تحمل الرجال والسلاح، ولقد واجه عثمان ذلك كله بسياسة تسم بالحسم والعزم وتمثلت فى الخطة الآتية:

١ - إخضاع المتمردين من الفرس والروم وإعادة سلطان الإسلام إلى هذه البلاد.

٢ - استمرار الجهاد والفتوحات فيما وراء هذه البلاد لقطع المدد عنهم.

٣ - إقامة قواعد ثابتة يربط فيها المسلمون لحماية البلاد الإسلامية.

٤ - إنشاء قوة بحرية عسكرية لافتقار الجيش الإسلامى إلى ذلك^(٣).

(١) الخلافة والخلفاء الراشدون، ص ٢٢١.

(٢) جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين، ص ٣٢٤.

(٣) الخلافة والخلفاء الراشدون، ص ٢٢٢.

كانت معسكرات الإسلام ومسالحه في عهد عثمان هي عواصم أقطاره الكبرى؛ فمعسكر العراق الكوفة والبصرة، ومعسكر الشام في دمشق، بعد أن خلع الشام كله لمعاوية بن أبي سفيان، ومعسكر مصر وكان مركزه الفسطاط، وكانت هذه المعسكرات تقوم بحماية دولة الإسلام ومواصلة الفتوحات، ونشر الإسلام^(١)

(١) عثمان بن عفان، لصديق عرجون، ص ١٩٩، ٢٠٠.

المبحث الأول

فتوحات عثمان فى المشرق

أولاً: فتوحات أهل الكوفة، أذربيجان ٢٤هـ،

كانت مغازى أهل الكوفة الرى وأذربيجان وكان يربط بهما عشرة آلاف مقاتل: ستة آلاف بأذربيجان، وأربعة آلاف بالرى، وكان جيش الكوفة العامل أربعين ألف مقاتل، يغزو كل عام منهم عشرة آلاف، فيصيب الرجل غزوة كل أربعة أعوام، ولما أخلص عثمان رضى الله عنه الكوفة للوليد بن عقبة انتفض أهل أذربيجان، فمنعوا ما كانوا قد صالحوا عليه حذيفة بن اليمان أيام عمر، وثاروا على واليهم عقبة بن فرقد، فأمر عثمان الوليد أن يغزوهم، فجهز لهم قائده سلمان بن ربيعة الباهلى، وبعثه مقدمة أمامه فى طائفة من الجند، ثم سار الوليد بعده فى جماعة من الناس، فأسرع إليه أهل أذربيجان طالبين الصلح على ما كانوا صالحوا عليه حذيفة، فأجابهم الوليد وأخذ طاعتهم، وبث فيمن حولهم السرايا وشن عليهم الغارات، فبعث عبد الله بن شبيب الأحمسي فى أربعة آلاف إلى أهل موقان والبير والطيلسان، فأصاب من أموالهم وغنم وسبى، ولكنهم تحرزوا منه فلم يفلحهم، ثم جهز سلمان الباهلى فى اثنى عشر ألفاً إلى أرمينية فأخضعها وعاد منها ملء اليدين بالغنائم، وانصرف الوليد بعد ذلك عائداً إلى الكوفة^(١)، ولكن أهل أذربيجان تمردوا أكثر من مرة فكتب الأشعث بن قيس والى أذربيجان إلى الوليد بن عقبة، فأمدّه بجيش من أهل الكوفة وتبع الأشعث الثائرين وهزمهم هزيمة منكرة فطلبوا الصلح فصالحهم على صلحهم الأول، وخاف الأشعث أن يعيدوا الكرة فوضع حامية من العرب وجعل لهم عطايا وسجلهم فى الديوان، وأمرهم بدعوة الناس إلى الإسلام، ولما تولى أمرها سعيد بن العاص عاد أهل أذربيجان وتمردوا على والى الجديد، فبعث إليهم جرير بن عبد الله

(١) تاريخ الطبرى (٢٤٦/٥).

البحلى فهزمهم وقتل رئيسهم، ثم استقرت الأمور بعد أن أسلم أكثر شعبها وتعلموا القرآن الكريم، وأما الرى فقد صدر أمر الخليفة عثمان رضي الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى فى وقت ولايته على الكوفة، وأمره بتوجيه جيش إليها لتمردها، فأرسل إليها قريظة بن كعب الأنصارى فأعاد فتحها^(١).

ثانياً، مشاركة أهل الكوفة فى إحباط تحركات الروم،

عندما انتهى الوليد بن عقبة من مهمته فى أذربيجان وعاد إلى الموصل، جاءه أمر من الخليفة عثمان نصه: «أما بعد، فإن معاوية بن أبى سفيان كتب إلى يخبرنى أن الروم قد أجلبت^(٢) على المسلمين بجموع عظيمة، وقد رأيت أن يمدهم إخوانهم من أهل الكوفة، فإذا أتاك كتابى هذا، فابعث رجالاً ممن ترضى نجاته وبأسه وشجاعته وإسلامه فى ثمانية آلاف أو تسعة آلاف أو عشرة آلاف إليهم من المكان الذى يأتيك فيه رسولى^(٣)، والسلام» فقام الوليد فى الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد أيها الناس، فإن الله قد أبلى المسلمين فى هذا الوجه بلاءً حسناً، ورد عليهم بلادهم التى كفرت، وفتح بلاداً لم تكن افتتحت، وردهم سالمين غانمين مأجورين، فالحمد لله رب العالمين، وقد كتب إلى أمير المؤمنين يأمرنى أن أندب منكم ما بين العشرة الآلاف إلى الثمانية الآلاف، تمدون إخوانكم من أهل الشام فإنهم قد جاشت عليهم الروم، وفى ذلك الأجر العظيم، والفضل المبين، فانتدبوا رحمكم الله مع سلمان بن ربيعة الباهلى، فانتدب الناس، فلم يمض ثالثة حتى خرج ثمانية آلاف رجل من أهل الكوفة، فمضوا حتى دخلوا أهل الشام إلى أرض الروم، وعلى جند أهل الشام حبيب بن مسلمة بن خالد الفهري، وعلى جند أهل الكوفة سلمان بن ربيعة الباهلى فشنوا الغارات على أرض الروم، فأصاب الناس ما شاءوا من سبى وملثوا أيديهم من المغنم، وافتتحوا بها حصوناً كثيرة^(٤)، وفى جهاد الوليد وغزوه

(١) الخلافة والخلفاء الراشدون، ص ٢٢٤.

(٢) أجلبت: تجمعت للحرب.

(٣) تاريخ الطبرى (٢٤٧/٥).

(٤) تاريخ الطبرى (٢٤٧/٥).

يقول بعض الرواة: رأيت الشعبي جلس إلى محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة، فذكر محمد غزوة مسلمة بن عبد الملك، فقال الشعبي: كيف لو أدركتم الوليد وغزوه وإمارته، إن كان ليغزو فينتهى إلى كذا وكذا، ما قصر ولا انتقض عليه أحد حتى عزل من عمله^(١)

ثالثاً: غزو سعيد بن العاص طبرستان، ٣٠هـ:

غزا سعيد بن العاص من الكوفة سنة ثلاثين يريد خراسان ومعه حذيفة بن اليمان وناس من أصحاب رسول الله ﷺ، ومعه الحسن والحسين وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير، وخرج عبد الله ابن عامر من البصرة يريد خراسان، فسبق سعيداً ونزل أبرشهر، وبلغ نزوله أبرشهر سعيداً. فقتل سعيد قوميس، وهى صلح، صالحهم حذيفة بعد نهاوند، فأتى جرجان، فصالحوه على مائتى ألف، ثم أتى طميس، وهى كلها من طبرستان جرجان، وهى مدينة على ساحل البحر، وهى فى تخوم جرجان، فقاتله أهلها حتى صلى صلاة الخوف، فقال لحذيفة: كيف صلى رسول الله ﷺ؟ فأخبره، فصلى بها سعيد صلاة الخوف، وهم يقتلون، وضرب يومئذ سعيد رجلاً من المشركين على جبل عاتقه، فخرج السيف من تحت مرفقه، وحاصره، فسألوا الأمان، فأعطاهم على ألا يقتل منهم رجلاً واحداً، ففتحوا الحصن، فقتلهم جميعاً إلا رجلاً واحداً، وحوى ما كان فى الحصن، فأصاب رجل من بنى نهد سوطاً عليه قفل، فظن فيه جواهر، وبلغ سعيداً، فبعث إلى النهدي، فأتاه بالسوط، فكسروا قفله، فوجدوا فيه سوطاً، ففتحوه، فإذا فيه خرقة صفراء وفيها أيران: كُفيت وورد^(٢)، وعندما قفل سعيد إلى الكوفة، مدحه كعب بن جعيل فقال:

فنعم الفتى إذ جال جيلان دونه وإذا هبطوا من دسّتي ثم أبهرا
تعلم سعيد الخير أن مطيتي إذا هبطت أشفقت من أن تُعقرا

(١) عثمان بن عفان، لصديق عرجون، ص ٢٠١.

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٧٠).

كَأَنَّكَ يَوْمَ الشَّعْبِ لَيْثٌ خَفِيَّةٌ تَحَرَّدَ مِنْ لَيْثِ الْعَرِينِ وَأَصْحَرَا
تَسُوسُ الَّذِي مَا سَاسَ قَبْلَكَ وَاحِدٌ ثَمَانِينَ أَلْفًا دَارِعِينَ وَحُرًّا^(١)

رابعاً: هروب ملك الفرس (يزدجرد) إلى خراسان؛

قدم ابن عامر البصرة ثم خرج إلى فارس فافتتحها، وهرب يزيدجرد من وجوز - وهي أردشير خُرَّة - في سنة ثلاثين، فوجه ابن عامر في أثره مجاشع بن مسعود السلمي، فاتبه إلى كرمان، فنزل مجاشع السيرجان بالعسكر، وهرب يزيدجرد إلى خراسان^(٢).

خامساً: مقتل (يزدجرد) ملك الفرس ٣١هـ:

اختلف في سبب ذكر قتله كيف كان، قال ابن إسحاق: هرب يزيدجرد من كرمان في جماعة سيرة إلى مرو، فسأل من بعض أهلها مالا فمنعوه وخافوه على أنفسهم، فبعثوا إلى الترك يستفزونهم عليه، فأتوه فقتلوا أصحابه، وهرب هو حتى أتى منزلاً رجل ينقر الأرحاء^(٣)، على شط المرغاب^(٤)، فأوى إليه ليلاً، فلما نام قتله^(٥)، وجاء في رواية عند الطبري: . . . بل سار يزيدجرد من كرمان قبل ورود العرب إليها، فأخذ على طريق الطبسين وقهمستان، حتى شارب مرو في زهاء أربعة آلاف رجل، ليجمع من أهل خراسان بجمعاً، ويكر إلى العرب ويقاتلهم، فلقاه قائدان متباغضان متحاسدان كانا بمرو، يقال لأحدهما براز والآخر سنجان، ومنحاه الطاعة، وأقام بمرو، وخص براز فحسده ذلك سنجان، وجعل براز يبغي سنجان الغوائل، ويوغل صدر يزيدجرد عليه، وسعى سنجان حتى عزم على قتله، وأفشى ما كان عزم عليه من ذلك إلى امرأة من نسائه كان براز واطأها، فأرسلت إلى براز بنسوة زعمت بإجماع

(١) تاريخ الطبري (٢٧١/٥).

(٢) المصدر نفسه (٢٨٨/٥).

(٣) الأرحاء: جمع رحاء، وهي الطاحون.

(٤) المرغاب: نهر بمرو.

(٥) تاريخ الطبري (٢٩٥/٥).

يزدجرد على قتل سنجان، وفشا ما كان عزم عليه يزدجرد من ذلك، فنذر^(١) سنجان، وأخذ حذره، وجمع جمعاً كنجوا أصحاب براز، ومن كان مع يزدجرد من الجند، وتوجه نحو القصر الذي كان يزدجرد نازله، وبلغ ذلك براز، فنكص عن سنجان لكثرة جموعه، ورعب جمع سنجان يزدجرد وأخافه، فخرج من قصره متكرراً، ومضى على وجهه راجلاً لينجو بنفسه، فمشى نحواً من فرسخين حتى وقع إلى رحا فدخل بيت الرحا، فجلس فيه كالاً^(٢) لغباً^(٣)، فرآه صاحب الرحا ذا هيئة وطرة وبرزة كريمة، ففرش له، فجلس وأتاه بطعام فطعم، ومكث عنده يوماً وليلة، فسأله صاحب الرحا أن يأمر له بشيء، فبذل له منطقة مكللة بجوهر كانت عليه، فأبى صاحب الرحا أن يقبلها، وقال: إنما كان يرضيني من هذه المنطقة أربعة دراهم، كنت أطعم بها وأشرب، فأخبره أنه لا ورق معه، فتملقه صاحب الرحا، حتى إذا غفا قام إليه بفأس له فضرب بها هامته فقتله، واحتز رأسه، وأخذ ما كان عليه من ثياب ومنطقة، وألقى جيفته في النهر الذي كان تدور بمائه رحاه، وبقر بطنه، وأدخل فيه أصولاً من أصول طرفاء^(٤)، كانت نابتة في ذلك النهر لتجس جثته في الموضع الذي ألقاه فيه، فلا يسفل فيعرف ويطلب قاتله وما أخذ من سلبه، وهرب على وجهه^(٥)، وجاء في رواية... وجاءت الترك في طلبه فوجدوه قد قتله وأخذ حاصله، فقتلوا ذلك الرجل وأهل بيته، وأخذوا ما كان مع كسرى، ووضعوا كسرى في تابوت وحملوه إلى إصطخر^(٦).

وقد ذكر الطبري حديثين مطولين، وأحدهما أطول من الآخر يتضمن ضرورياً من الاضطرابات تقلب فيها، وأنواعاً من الدوائر دارت عليه حتى كانت منيته آخرها^(٧).

(١) نذر: علم.

(٢) كالاً: متعباً.

(٣) لغباً: متعباً أشد التعب.

(٤) طرفاء: شجر.

(٥) خلافة عثمان، للسلمي، ص ٥٧.

(٦) تاريخ الطبري (٢٩٧/٥).

(٧) الاكتفاء، للكلاعي (٤١٧/٤).

وقد قال يزدجرد لمن أراد قتله في بعض الروايات: ألا يقتلوه، وقال لهم: ويحكم، إنا نجد في كتبنا أن من اجتراً على قتل الملوك عاقبه الله بالحريق في الدنيا، مع ما هو قادم عليه، فلا تقتلونني وانتوا بي إلى الدهقان، أو سرحوني إلى العرب، فإنهم يستحيون مثلي من الملوك^(١). وكان ملك يزدجرد عشرين سنة، منها أربع سنين في دعة، ويأقي ذلك هارياً من بلد إلى آخر، خوفاً من الإسلام وأهله، وهو آخر ملوك الفرس في الدنيا على الإطلاق^(٢)، فسبحان ذي العظمة والملكوت، الملك الحق الحي الدائم الذي لا يموت، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون^(٣)، وقد قال رسول الله ﷺ في ملوك الفرس والروم: «إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، والذي نفسي بيده لتنفق كنوزهما في سبيل الله»^(٤).

سادساً: تعاطف النصاري مع (يزدجرد) بعد مقتله:

بلغ قتل يزدجرد رجلاً من أهل الأهواز كان مطراناً على مرو، يقال له إيلباء، فجمع من كان قبله من النصاري، وقال لهم: إن ملك الفرس قد قتل، وهو ابن شهریار بن كسرى، وإنما شهریار ولد شیرين المؤمنة التي قد عرفتم حقها وإحسانها إلى أهل ملتها من غير وجه، ولهذا الملك عنصر في النصرانية مع ما نال النصاري في ملك جده كسرى من الشرف، وقبل ذلك في مملكة ملوك من أسلافه من الخير، حتى بنى لهم بعض البيع، وسدد لهم بعض ملتهم، فينبغي لنا أن نحزن لقتل هذا الملك من كرامته بقدر إحسان أسلافه وجدته شیرين إلى النصاري، وقد رأيت أن أبني له ناووساً^(٥)، وأحمل جثته في كرامة حتى أوارئها فيه، فقال النصاري: أمرنا لأمرك أيها المطران تبع، ونحن لك على رأبك هذا مواطنون، فأمر المطران فبنى في جوف بستان

(١) المصدر نفسه (٤/٤١٨). وتاريخ الطبري (٥/٢٠٣).

(٢) خلافة عثمان، د. محمد السلي، ص ٥٧.

(٣) الاكتفاء للكلاعي (٤/٤١٩).

(٤) مسلم في الفتى رقم ٢٩١٨ - ٢٩١٩.

(٥) الناووس: حجر منقور تجمل فيه جثة الميت.

المطارنة بمرور ناووساً، ومضى بنفسه ومعه نصارى مرو حتى استخرج جثة يزدجرد من النهر وكفنها، وجعلها فى تابوت، وحمله من كان معه من النصارى على عواتقهم حتى أتوا به الناووس الذى أمر بينائه له وواروه فيه، وردموا بابه^(١).

سابعاً، فتوحات عبد الله بن عامر ٣١هـ:

فى هذه السنة ٣١ هـ شخص عبد الله بن عامر إلى خراسان ففتح أبرشهر وطوس ويبيورد ونسا حتى بلغ سرخس، وصالح فيها أهل مرو، وقد جاء فى رواية عن السَّكَن بن قتادة العُربى، قال: فتح ابن عامر فارس ورجع إلى البصرة، واستعمل على إصطخر شريك بن الأعور الحارثى، فبنى شريك مسجد إصطخر، فدخل على ابن عامر رجل من بنى تميم كنا نقول: إنه الأحنف - ويقال: أوس بن جابر الجُشمى جُشم تميم - فقال له: إن عدوك منك هارب، وهو لك هائب، والبلاد واسعة، فسر فإن الله ناصرك، ومعز دينه، فتجهز ابن عامر، وأمر الناس بالجهاز للمسير، واستخلف على البصرة زياداً، وسار إلى كرمان، ثم أخذ إلى خراسان، فقوم يقولون: أخذ طريق أصبهان، ثم صار إلى خراسان، واستعمل على كرمان مجاشع ابن مسعود السُّلمى، وأخذ ابن عامر على مفازة وأبر، وهى ثمانون فرسخاً، ثم سار إلى الطَّبَسِين يريد أبرشهر، وهى مدينة نيسابور، وعلى مقدمته الأحنف بن قيس، فأخذ إلى قُهِستان، وخرج إلى أبرشهر فلقى الهباطلة، وهم أهل هَراة، فقاتلهم الأحنف فهزمهم، ثم أتى ابن عامر نيسابور^(٢)، وجاء فى رواية: نزل ابن عامر على أبرشهر فغلب على نصفها عنوة، وكان النصف الآخر فى يد كَنارى، ونصف نسا وطوس، فلم يقدر ابن عامر أن يجوز إلى مرو، فصالح كَنارى، فأعطاه ابنه أبا الصلت بن كَنارى وابن أخيه سليماً رهناً، ووجه عبد الله بن خازم إلى هَراة، وحاتم ابن النعمان إلى مرو، وأخذ ابن عامر ابنى كَنارى، فصار إلى النعمان بن الأفقم النصرى فأعتقهما^(٣)، وفتح ابن عامر ما حول مدينة أبرشهر، كطوس ويبيورد، ونسا

(١) تاريخ الطبرى (٣٠٤/٥).

(٢) المصدر نفسه (٣٠٥/٥).

(٣) تاريخ الطبرى (٣٠٦/٥).

وحمران، حتى انتهى إلى سرخس، وسرح ابن عامر الأسود بن كلثوم العدوي - عدى الرباب - إلى بيهق، وهو من أبرشهر، بينهما وبين أبرشهر ستة عشر فرسخاً، ففتحها وقتل الأسود بن كلثوم؛ وكان فاضلاً في دينه، وكان من أصحاب عبد الله بن عامر العنبري، وكان ابن عامر يقول بعدما أخرج من البصرة: ما آسى من العراق على شيء إلا على ظماء الهواجر، وتجاوب المؤذنين، وإخوان مثل الأسود بن كلثوم^(١)، واستطاع ابن عامر أن يتغلب على نيسابور، وخرج إلى سرخس، فأرسل إليه أهل مرو يطلبون الصلح، فبعث إليهم ابن عامر حاتم بن النعمان الباهلي، فصالح برار مرزيان مرو على ألفي ألف ومائتي ألف^(٢).

ثامناً: غزو الباب وبلنجر سنة اثنتين وثلاثين،

كتب عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى سعيد بن العاص: أن اغز سلمان الباب، وكتب إلى عبد الرحمن بن ربيعة وهو على الباب: إن الرعية قد أبطرت كثيراً منهم البطنة، فقصر، ولا تقتحم بالمسلمين، فإنني خاش أن يبتلوا، فلم يزجر ذلك عبد الرحمن عن غايته، وكان لا يقصر عن بلنجر، فغزا سنة تسع من إمارة عثمان حتى إذا بلغ بلنجر، حصروها ونصبوا عليها المجانيق والعرادات^(٣)، فجعل لا يدنو منها أحد إلا اعتوه أو قتلوه، فأسرعوا في الناس^(٤)... ثم إن الترك اتعدوا يوماً، فخرج أهل بلنجر، وتوافقت إليهم الترك فاقتتلوا، فأصيب عبد الرحمن بن ربيعة - وكان يقال له ذو النور - وانهزم المسلمون ففرقوا، فأما من أخذ طريق سلمان بن ربيعة فحماء حتى خرج من الباب، وأما من أخذ طريق الخزر وبلادها، فإنه خرج على جيلان وجرجان وفيهم سلمان الفارسي وأبو هريرة، وأخذ القوم جسد عبد الرحمن فجعلوه في سقط، فبقى في أيديهم، فهم يستسقون به إلى اليوم ويستنصرون به^(٥).

(١)، (٢) المصدر نفسه (٣٠٧/٥).

(٣) العرادة: آلة حربية كالمنجنيق ترمى بالحجارة للرمل البعيد لذلك الحصون.

(٤) تاريخ الطبري (٣٠٨/٥).

(٥) تاريخ الطبري (٣٠٩/٥).

١ - مقتل يزيد بن معاوية:

غزا أهل الكوفة بلنجر سنين من إمارة عثمان لم تتم^(١) فيهن امرأة، ولم يتم فيهن صبي من قتل، حتى كان سنة تسع - من خلافة عثمان - قبل المزاخفة بيومين رأى يزيد بن معاوية أن غزاه جيء به إلى خبائه، لم ير غزاه أحسن منه حتى لف في ملحفته، ثم أتى به قبر عليه أربعة نفر لم ير قبراً أشد استواء منه ولا أحسن منه حتى دفن فيه، فلما تفادى الناس على الترك رمى يزيد بحجر، فهشم رأسه، فكأنما زين ثوبه بالدماء زينة، وليس بتلطخ، فكان ذلك الغزال الذي رأى^(٢)، وكان يزيد رقيقاً جميلاً - رحمه الله -، وبلغ ذلك عثمان، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! انتكث أهل الكوفة، اللهم تب عليهم وأقبل بهم^(٣).

٢ - ما أحسن حمرة الدماء في بياضك:

كان عمرو بن عتبة يقول لقباء عليه أبيض: ما أحسن حمرة الدماء في بياضك، فأصيب عند الالتحام مع العدو بجراحة، فرأى قباء كما اشتهى وقتل^(٤).

٣ - ما أحسن لمع الدماء على الثياب:

كان القرشع يقول: ما أحسن لمع الدماء على الثياب، فلما كان يوم المزاخفة قاتل القرشع حتى خرّ بالحراب، فكأنما كان قباؤه ثوباً أرضه ببيضاء ووشيه أحمر، وما زال الناس ثوباً حتى أصيب، وكانت هزيمة الناس مع مقتله^(٥).

٤ - إن هؤلاء يموتون كما تموتون:

كان الترك - في تلك المعركة - قد اختفوا في الغياض^(٦)، وكانوا قد خافوا

(١) لم تتم امرأة: لم تفقد زوجها.

(٢) تاريخ الطبري (٣١٠/٥) أى في نومه.

(٣) المصدر نفسه (٣١١/٥).

(٤) المصدر نفسه (٣١٠/٥).

(٥) تاريخ الطبري (٣١٠/٥).

(٦) الغياض: جمع غيضة، وهى المواضع التى يكثر فيها الشجر ويلتف.

المسلمين، واعتقدوا أن السلاح لا يعمل فيهم! واتفق أن تركياً اختفى في غيضة ورشق مسلماً بسهم فقتله، فنادى في قومه، إن هؤلاء يموتون كما تموتون، فلم تخافوهم؟ فاجترأ الترك على المسلمين وخرجوا عليهم من مكانهم وأوقعوا بهم، واشتد القتال، فثبت عبد الرحمن حتى استشهد^(١).

٥ - صبراً آل سلمان:

جاء في رواية أخرى: حين استشهد عبد الرحمن، أخذ الراية أخوه سلمان بن ربيعة الباهلي وقاتل بها، ونادى مناد (صبراً آل سلمان!) فقال سلمان: أوترى جَزَعًا؟! وخرج سلمان ومعه أبو هريرة الدوسي على جيلان^(٢)، فقطعوها إلى جُرجان^(٣) منسحباً من معركة خاسرة^(٤)، بعد أن دفن أخاه عبد الرحمن بنواحي بلنجر^(٥)، وبهذا الانسحاب أنقذ سلمان بقية باقية من جيش أخيه^(٦).

وقد رجح هذه الرواية محمود شيث خطاب وقال: إن الانسحاب أشبه بقتال المسلمين يومئذ، وذلك في حالة اشتداد الضغط عليهم من العدو وتكبدهم خسائر فادحة بالآرواح، والانسحاب هو من أجل الانحياز إلى فئة من المسلمين، ليعيدوا الكرة ثانية على عدوهم، وقد جاء سلمان بن ربيعة مدداً لعبد الرحمن بأمر عثمان بن عفان، فليس من المعقول أن يبقى ومدده في (الباب)، وليس من المعقول أن يتركه أخوه عبد الرحمن هناك وهو يخوض معركة قاسية شرسة، يكون فيها القائد بأمر الحاجة إلى الجندي الواحد، فكيف يترك عبد الرحمن جيشاً كاملاً على رأسه أخوه دون أن يستفيد منه في المعركة؟

إن المؤرخين القدامى كانوا يستعملون تعبير: (الهزيمة)، وهم يريدون بها تعبير

(١) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، محمود خطاب، ص ١٥١

(٢) جيلان: اسم لبلاد كثيرة من وراء طبرستان.

(٣) جرجان: مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان.

(٤) تاريخ الطبري (٣٠٩/٥). وقادة الفتح الإسلامي في أرمينية، ص ١٥١

(٥) معجم البلدان (٢٧٨/٢).

(٦) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، ص ١٥١

الانسحاب؛ ذلك لأن أكثرهم مدنيون لا يفرقون بين هذين التعبيرين: (الهزيمة) ترك ساحة القتال بدون نظام ولا قيادة فهو كارثة، و (الانسحاب) ترك ساحة القتال وفق خطة مرسومة بقيادة واحدة فهو - أي الانسحاب - صفحة من صفحات القتال، الهدف منه إعادة الكرة على العدو بعد إكمال متطلبات المعركة عددًا وعددًا، وعسى ألا يقع المؤرخون المحدثون في مثل هذا الخطأ في التعبير، فلا يفرقون بين (الهزيمة)، و(الانسحاب)؛ لأن الفرق بين التعبيرين شاسع بعيد (١).

تاسعاً: أول اختلاف وقع بين أهل الكوفة وأهل الشام ٣٢هـ،

لما قتل عبد الرحمن بن ربيعة استعمل سعيد بن العاص على ذلك الفرع سلمان بن ربيعة، وأمدهم عثمان بأهل الشام عليهم حبيب بن مسلمة، فتنازع حبيب وسلمان على الإمرة، وقال أهل الشام: لقد هممنا بضرب سلمان، فقال في ذلك الناس: إذا والله نضرب حبيباً ونحبسه، وإن أبيتم كثرت القتلى فيكم وفينا حتى قال في ذلك رجل من أهل الكوفة وهو أوس بن مغراء:

إن تضربوا سلمان نضرب حبيبكم وإن ترحلوا نحو ابن عفان نرحلُ

وإن تقسطوا فالثغر ثغر أميرنا وهذا أمير في الكتائب مُقبلُ

ونحن ولادة الثغر كنا حماته ليألى نرمى كل ثغر ونُكَل (٢)

وتغلب المسلمون على الفتنة بتوفيق الله، ثم بوجود أمثال حذيفة بن اليمان الذي كان على الغزو بأهل الكوفة، فقد غزا ذلك الثغر ثلاث غزوات، فقتل عثمان رضي الله عنه في الثالثة (٣).

عاشراً: فتوحات ابن عامر سنة اثنتين وثلاثين،

وفيها فتح ابن عامر مرو الروذ، والطارقان، والفارياب، والجورجان، وطُخارستان، فقد بعث ابن عامر الأحنف بن قيس إلى مرو روذ، فحصر أهلها، فخرجوا إليهم

(١) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، ص ١٥٢، ١٥٣.

(٢) تاريخ الطبري (٣١١/٥). والبداية والنهاية (١٦٦/٧).

(٣) تاريخ الطبري (٣١١/٥).

فقاتلوهم، فهزموهم المسلمون حتى اضطروهم إلى حصنهم، فأشرفوا عليه، وقالوا: يا معشر العرب، ما كنتم عندنا كما نرى، ولو علمنا أنكم كما نرى لكنا لنا ولكم حال غير هذه، فأمهلونا ننظر يومنا، وارجعوا إلى عسكركم، فرجع الأحنف، فلما أصبح غاداهم وقد أعدوا له الحرب، فخرج رجل من العجم معه كتاب من المدينة، فقال: إني رسول فأمونني، فأمنوه، فإذا رسول من مرزيان مرو ابن أخيه وترجمانه، وإذا كتاب المرزيان إلى الأحنف، فقرأ الكتاب، قال: فإذا هو إلى أمير الجيش، إنا نحمد الله الذي بيده الدول، يغير ما شاء من الملك، ويرفع من شاء بعد الذلة، ويضع من شاء بعد الرفعة: إنه دعاني إلى مصالحتك وموادعتك ما كان من إسلام جدى، وما كان رأى من صاحبكم من الكرامة والمنزلة، فمرحبا بكم وأبشروا، وأنا أدعوكم إلى الصلح فيما بينكم وبيننا، على أن أؤدى إليكم خراجا ستين ألف درهم، وأن تُقرُّوا بيدي ما كان ملك الملوك كسرى أقطع جد أبى حيث قتل الحية التى أكلت الناس، وقطعت السبيل من الأرضين والقرى بما فيها من الرجال، ولا تأخذوا من أحد من أهل بيتى شيئا من الخراج ولا تخرج المرزبة^(١) من أهل بيتى إلى غيركم، فإن جعلت ذلك لى خرجتُ إليك، وقد بعثت إليك ابن أخى ماهك ليستوثق منك. فكتب إليه الأحنف: بسم الله الرحمن الرحيم، من صخر بن قيس أمير الجيش إلى باذان مرزيان مرو روذ ومن معه من الأساورة والأعاجم. سلام على من اتبع الهدى، وآمن واتقى، أما بعد، فإن ابن أخيك ماهك قدم على، فنصح لك جهده، وأبلغ عنك، وقد عرضت ذلك على من معى من المسلمين، وأنا وهم فيما عليك سواء، وقد أجبناك إلى ما سألت وعرضت على أن تؤدى عن أكرتك^(٢) وفلاحيك والأرضين التى ذكرت أن كسرى الظالم لنفسه أقطع جد أبيك لما كان من قتله الحية التى أفسدت الأرض وقطعت السبيل، والأرض لله ولرسوله يورثها من يشاء من عباده، وإن عليك نصرة المسلمين وقتال عدوهم بمن معك من الأساورة، إن أحب المسلمون ذلك وأرادوه، وإن لك على ذلك نصرة المسلمين على من يقاتل من وراءك من أهل

(١) المرزبة: الرئاسة عند العجم. والمرزيان: الرئيس المقدم فيهم.

(٢) الأكره: جمع أكار: الحراك.

ملكك، جار لك بذلك متى كتاب يكون لك بعدى، ولا خراج عليك ولا على أحد من أهل بيتك من ذوى الأرحام، وإن أنت أسلمت واتبعت الرسول كان لك من المسلمين العطاء والمنزلة والرزق وأنت أخوهم، ولك بذلك ذمتى وذمة أبى وذمم المسلمين وذمم آبائهم، شهد على ما فى هذا الكتاب جزء بن معاوية - أو معاوية بن جزء السعدى، وحمزة بن الهرماس، وحميد بن الحيار المازنيان، وعياض بن ورقاء الأسيدى، وكتبه كيسان مولى بنى ثعلبة يوم الأحد من شهر المحرم، وختم أمير الجيش الأحنف بن قيس، ونقش خاتم الأحنف: نعبد الله^(١).

الحادية عشرة: القتال بين جيش الأحنف وأهل طخارستان والجوزجان والطلالقان والفاريان،

صالح ابن عامر أهل مرو، ويعث الأحنف فى أربعة آلاف إلى طخارستان فأقبل حتى نزل موضع قصر الأحنف من مرو رود، وجمع له أهل طخارستان، وأهل الجوزجان والطلالقان والفاريان، فكانوا ثلاثة زحوف، ثلاثين ألفاً، وأتى الأحنف خبرهم وما جمعوا له، فاستشار الناس فاختلفوا فينبى قائل: نرجع إلى مرو، وقائل: نرجع إلى أبرشهر، وقائل: نقيم نستمد، وقائل: نلقاهم فتنجزهم؛ فلما أمسى الأحنف خرج يمشى فى العسكر، ويستمع حديث الناس، فمر بأهل خباء ورجل يوقد تحت خزيرة^(٢)، أو يعجن، وهم يتحدثون ويذكرون العدو، فقال بعضهم: الراى للأمير أن يسير إذا أصبح حتى يلقى القوم حيث لقيهم - فإنه أرعب لهم - فيناجزهم. فقال صاحب الخزيرة أو العجين: إن فعل ذلك فقد أخطأ وأخطأتم أئامرونه أن يلقى حد العدو مصحراً فى بلادهم، فيلقى جمعاً كثيراً بعدد قليل، فإن جالوا جولة اصطلمونا^(٣)، ولكن الراى له أن ينزل بين المرغاب والجبل، فيجعل المرغاب عن يمينه والجبل عن يساره، فلا يلقاه من عدوه وإن كثروا إلا عدد أصحابه، فرجع الأحنف وقد اعتقد ما قال، فضرب عسكره، وأقام فأرسل إليه أهل مرو أن يقاتلوا معه،

(١) تاريخ الطبرى (٣١٦/٥).

(٢) الخزيرة: الحساء من الدسم والدقيق.

(٣) اصطلمونا: اقتلناه من أصله.

فقال: إني أكره أن أستنصر بالمشركين، فأقيموا على ما أعطيناكم، وجعلنا بيننا وبينكم، فإن ظفرونا فنحن على ما جعلنا لكم، وإن ظفروا بنا وقتلوكم فقاتلوا عن أنفسكم؛ فوافق المسلمون صلاة العصر، فعاجلهم المشركون فناهضوهم، فقاتلوهم وصبر الفريقان حتى أمسوا والأحنف يتمثل بشعر ابن جؤية الأعرجي:

أحق من لم يكره المنية حَزَرٌ^(١) ليس له ذرية^(٢)

وجاء في رواية: . فقاتلهم حتى ذهب عامة الليل، ثم هزمهم الله، فقتلهم المسلمون حتى انتهوا إلى رَسْكَن - وهي على اثني عشر فرسخًا من قصر الأحنف - وكان مرزبان مرو قد تربص بحمل ما كانوا صالحوه عليه، لينظر ما يكون من أمرهم، فلما ظفر الأحنف سرح رجلين إلى المرزبان، وأمرهم ألا يكلماه حتى يقبضاه، ففعلوا؛ فعلم أنهم لم يصنعوا ذاك به إلا وقد ظفروا، فحمل ما كان عليه^(٣)، وبعث الأحنف الأقرع بن حابس في جريدة خيل^(٤)، إلى الجوزجان حيث بقية كانت بقيت من الزحوف الذين هزمهم الأحنف، فقاتلهم، فجال المسلمون جولة، فقتل فرسان من فرسانهم، ثم أظفر الله المسلمين بهم فهزموهم وقتلوهم فقال كثير النهشلي:

سقى مزنُ السحاب إذا استَهَلَّتْ^(٥) مصارع فتية بالجوزجان
إلى القصرين من رُسْتاقٍ خُوط أقادهمُ هناك الأقرعان^(٦)

الثانية عشرة: صلح الأحنف مع أهل بلخ ٣٢ هـ:

سار الأحنف من مرو الروذ إلى بلخ فحاصروهم، فصالحه أهلها على أربعمئة ألف، فرضى منهم بذلك، واستعمل ابن عمه، وهو أسيد بن الشمس ليأخذ منهم

(١) الحزور: الغلام القوى.

(٢، ٣) تاريخ الطبري (٣١٧/٥)

(٤) جريدة الخيل: كنية الخيل التي لا رجالة فيها

(٥) استهلَّت السحابة: امطرت واشتد مطرها

(٦) تاريخ الطبري (٣١٨/٥)

ما صالحوه عليه، ومضى إلى خَارِزَمٍ، فأقام حتى هجم عليه الشتاء، فقال لأصحابه: ما تشأمون؟ فقالوا: قد قال عمرو بن معد يكرب:

إذا لم تستطع أمراً فدعه وجاهزه إلى ما تستطيع

فأمر الأحنف بالرحيل، ثم انصرف إلى بلخ، وقد قبض ابن عمه ما صالحهم عليه وكان وافق وهو يجيئهم المهرجان، فأهدوا إليه هدايا من آنية الذهب والفضة ودنانير ودراهم ومتاع وثياب، فقال ابن عم الأحنف: هذا ما صالحناكم عليه؟ قالوا: لا، ولكن هذا شيء نصنعه في هذا اليوم بمن وكينا نستعطفه به، قال: وما هذا اليوم؟ قالوا: المهرجان، قال: ما أدري ما هذا؟ وإني لأكره أن أردّه، ولعله من حقى، ولكن أقبضه وأعزله حتى أنظر فيه، فقبضه، وقدم الأحنف فأخبره، فسألهم عنه، فقالوا له: مثل ما قالوا لابن عمه، فقال: أتى به الأمير، فحملة إلى ابن عامر، فأخبره عنه، فقال: أقبضه يا أبا بحر، فهو لك، قال: لا حاجة لي فيه، فقال ابن عامر: ضمه إليك يا مسمار، فضمه القرشي وكان مضماً^(١).

الثالثة عشرة: لأجعلن شكرى لله على ذلك أن أخرج محرمًا معتمرًا من موقفى هذا؛

ولما رجع الأحنف إلى ابن عامر قال الناس لابن عامر: ما فتح على أحد ما قد فتح عليك، فارس وكرمان وسجستان وعامة خراسان! قال: لا جرم، لأجعلن شكرى لله على ذلك أن أخرج مُحْرَمًا معتمرًا من موقفى هذا، فأحرم بعمرة من نيسابور، فلما قدم على عثمان لأمه على إحرامه من خراسان، وقال: ليتك تضبط ذلك من الوقت الذى يحرم منه الناس^(٢).

الرابعة عشرة: هزيمة (قارن) في خراسان؛

لما رجع ابن عامر من الغزو استخلف قيس بن الهيثم على خراسان، فأقبل قارن في جمع من الترك، أربعين ألفًا، فالتقاء عبد الله بن خازم السلمي في أربعة آلاف،

(١) تاريخ الطبرى (٣١٩/٥).

(٢) البداية والنهاية (١٦٧/٧). وتاريخ الطبرى (٣١٩/٥).

وجعل لهم مقدمة ستمائة رجل، وأمر كلاً منهم أن يجعل على رأس رُمحه ناراً، وأقبلوا إليهم في وسط الليل فيبتوهم، فثاروا إليهم، فناوشتهم المقدمة، فاشتغلوا بهم، وأقبل عبد الله بن خازم بمن معه من المسلمين فأحاطوا بهم، فولى المشركون مدبرين، واتبعهم المسلمون يقتلون من شاءوا، وقُتلَ قارنَ فيمن قُتل، وغنموا سبياً كثيراً، وأموالاً جزيلة، ثم بعث عبد الله بن خازم بالفتح إلى ابن عامر فرضى عنه، وأقره على خراسان، وذلك أنه كان قد احتال على الوالي السابق قيس بن الهيثم السلمي حتى أخرجته من خراسان، ثم تولى حرب قارن، فلما هزمه وغنم عسكره، رضى عليه ابن عامر، وأقره على ولاية خراسان^(١).

وهكذا تصدى الخليفة الراشد عثمان لحركات التمرد في المشرق وواصل فتوحاته ولم تفت تلك الثورات في عضد المسلمين، ولم تنل من عزم الخليفة الذي كان كفتاً لها، حيث واجهها بالعزم والرأى، والسرعة في تصريف الأمور، وتسيير النجذات، وإسناد كل عمل إلى من يحسنه، كما يظهر من تتبع الأحداث في تاريخ الطبرى، وابن كثير والكلاعى، بما لا يدع شكاً في أن اختيار عثمان للقادة الذين قاموا بهذه الانتصارات وتطويق هذه القلاقل كان اختياراً موفقاً، مع العلم بأن أعباء الجهاد كانت أشق وأكبر وأحرج إلى التوجيه الناجز، لامتداد خطوط القتال، وتعدد الفتن، وتباعد المسافات بين البلدان، إن علاج تلك المضكلات التي فاجأت عثمان رضى الله عنه بعد ولايته، وتصدى لها بالعزم والسادد والسرعة والحيلة والأناة للدليل على قوة شخصيته ونفاذ بصيرته، وكان له بعد ذلك أكبر الفضل - بعد الله - في تثبيت مهابة الدولة بعدما أصابها الوهن والتخلخل عند مقتل - عمر رضى الله عنه - وكانت ثمرات تلك اللوفقات الرائعة:

أ - إخضاع المتمردين وإعادة سلطة المسلمين عليهم.

ب - إردباد الفتوحات الإسلامية إلى ما وراء البلاد؛ المتمردة منعاً لارتداد الهارين إليها واتباع الفتن والدسائس من قبلها.

(١) المصدر نفسه (١٦٧/٧).

ج - اتخاذ المسلمين قواعد ثابتة يربط فيها المسلمون لحماية البلاد التي خضعت للمسلمين.

فهل كانت تلك الفتوحات العظيمة والسياسة الحكيمة والضبط للأقاليم يمكن أن تتحقق لو كان عثمان رضى الله عنه ضعيفاً غير قادر على اتخاذ القرار^(١)؟ كما يزعم من وقع وتورط في روايات الرفض والنشيع والاستشراق ومن سار على نهجهم السقيم.

الخامسة عشرة: من قادة فتح بلاد المشرق في عهد عثمان: الأحنف بن قيس؛

كانت الفتوحات في عهد عثمان رضى الله عنه عظيمة، فرأيت من المناسب أن نسلط الأضواء على بعض قادة الفتح في عهد عثمان رضى الله عنه، وبما أنني تحدثت عن فتوح المشرق، فلا بد إذن من إعطاء صورة مشرقة عن أحد قادة تلك الفتوح، فاخترت:

الأحنف بن قيس؛

١ - نسبه وأهله:

هو أبو بحر الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين بن حنظل بن عباد التميمي^(٢)، واسمه الضحاك. وقيل: صخر^(٣)، وأمه حبة بنت عمرو بن قُرط الباهلية^(٤)، كان أخوها الأخطل بن قُرط من الشجعان، وقد قال الأحنف مفاخرًا بخاله هذا: ومن له خال مثل خالي^(٥)؟

(١) تحقيق مواقف الصحابة (١/٤٠٨، ٤٠٩).

(٢) جمهرة أنساب العرب، ص ٢١٧. وطبقات ابن سعد (٧/٩٥).

(٣) قادة فتح السند وأفغانستان، محمود خطاب، ص ٢٨٥.

(٤) جمهرة أنساب العرب، ص ٢١٢.

٢ - حياته:

كان من سادات التابعين وأكابرهم، وسيداً مطاعاً في قومه^(١)، وسيد أهل البصرة^(٢)، وكان موضع ثقة الناس جميعاً بمختلف طبقاتهم وأهوائهم وميولهم، وكان أحد الحكماء الدهاء العقلاء^(٣)، ذا دين وذكاء وفصاحة^(٤)، وكان سيد قومه موصوفاً بالعقل والدهاء والعلم والحلم، يضرب بحلمه المثل، وقد قال فيه الشاعر:

إذا الأبصار أبصرت ابن قيس ظللن مهابة منه خشوعاً^(٥)

وقال عنه خالد بن صفوان: كان الأحنف يفر من الشرف، والشرف يتبعه^(٦)، وإليك بعض صفاته التي أثرت فيمن حوله:

١ - حلمه:

كان الأحنف حليماً يضرب بحلمه المثل، سئل عن الحلم، ما هو؟ فقال: الذل مع الصبر، وكان يقول إذا عجب الناس من حلمه: إني لأجد ما تجدون، ولكني صبور ما تعلمت الحلم إلا من قيس بن عاصم المنقري^(٧)؛ لأنه قتل ابن أخ له بعض بنيه، فأتى القاتل مكتوفاً يقاد إليه، فقال: ذعرتم الفتى! ثم أقبل على الفتى فقال: بشس ما فعلت: نقصت عددك وأوهنت عضدك وأشمت عدوك وأسأت لقومك. خلوا سبيله واحملوا إلى أم المقتول ديتة فإنها غريبة! ثم انصرف القاتل وما حل قيس حبوته ولا تغير وجهه^(٨)، وقال رجل للأحنف: علّمني الحلم يا أبا بحر. فقال: هو الذل يا ابن أخي، أفتصبر عليه؟! وقال: لست حليماً ولكنني أتحالم^(٩). ومن أخبار حلمه، أن رجلاً شتمه فسكت عنه، وأعاد الرجل فسكت عنه، وأعاد فسكت عنه، فقال

(١) قادة فتح السند وأفغانستان، ص ٢٨٥.

(٢) الإصابة (١٠٣/١). وأسد الغابة (٥٥/١).

(٣) قادة فتح السند وأفغانستان، ص ٣٠٤.

(٤) تهذيب ابن عساكر (١٣/٧).

(٥) الاستيعاب (١٢٩٤/٣).

(٦) وفيات الأعيان (١٨٨/٢).

(٧) قادة فتح السند وأفغانستان، ص ٣٠٦.

الرجل: والهفاه: ما يمنعه من أن يرد على إلا هوانى عنده^(١). وكان يقول: من لم يصبر على كلمة سمع كلمات، ورب غيظ قد تجرعه مخافة ما هو أشد منه^(٢)، ولكن حلمه كان حلم القوى القدير لا حلم العاجز الضعيف، فقد قاتل في بعض المواطن قتالاً شديداً، فقال له رجل: يا أبا بحر أين الحلم؟ فقال: عند الحى^(٣).

ب - عقله:

كان الأحنف عاقلاً راجح العقل، قال مرة: من كان فيه أربع خصال ساد قومه غير مدافع: من كان له دين يحجزه، وحسب يصونه، وعقل يرشده، وحياء يمنعه^(٤).

وقال: العقل خير قرين، والأدب خير ميراث، والتوفيق خير رفيق^(٥). وقال: ما ذكرت أحداً بسوء بعد أن يقوم من عندي، وكان يقول إذا ذكر عنده رجل: دعوه يأكل رزقه ويأتى عليه أجله^(٦)، وشكا ابن أخيه وجع الضرس، فقال: ذهب عيني منذ ثلاثين سنة ما ذكرتها لأحد^(٧)، وقال: ما نازعني أحد فوقى إلا عرفت له قدره، ولا كان دوني إلا رفعت قدرى عنه، ولا كان مثلى، إلا تفضلت عليه^(٨).

ج - علمه:

كان عالماً ثقة مأموناً قليل الحديث، وقد روى عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وأبى ذر الغفارى^(٩)، وروى عنه الحسن البصرى وعروة بن الزبير وغيرهما^(١٠)، وقد كان من الفقهاء البارزين أيام معاوية.

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢ - ٤) قادة فتح السند وأفغانستان، ص ٣٠٦، يعنى بها: تركته فى الدار.

(٥) تهذيب ابن عساکر (١٩/٧).

(٦) المصدر نفسه (٢١/٧).

(٧) المصدر السابق نفسه (١٦/٧).

(٨) قادة فتح السند وأفغانستان، ص ٣٠٧.

(٩) طبقات ابن سعد (٩٣/٧).

(١٠) قادة فتح السند وأفغانستان، ص ٣٠٨.

د - حكمته:

كان حكيمًا ينطق بالحكمة والموعظة الحسنة، سئل عن المروءة، فقال: التقى والاحتمال، ثم أطرق ساعة، وقال:

وإذا جميل الوجه لم يأت الجميل فما جماله؟!
ما خير أخلاق الفتى إلا تقاه واحتماله

وسئل عن المروءة، فقال: العفة في الدين، والصبر على النوائب، وبر الوالدين، والخلم عند الغضب، والعفو عن المقدرة^(١).

وقال: رأس الأدب آلة المنطق، ولا خير في قول إلا بفعل، ولا منظر إلا بمخبر، ولا في مال إلا بجود، ولا في صديق إلا بوفاء، ولا في فقه إلا بورع، ولا في صدقة إلا بنية^(٢).

وقال: أحى المعروف بإماتة ذكره^(٣)، وقال: كثرة الضحك تذهب الهيبة، وكثرة المزاح تذهب المروءة، ومن لزم شيئًا عرف به^(٤)، وقال: جنبوا مجلسنا الطعام والنساء، فإنني لأبغض الرجل يكون وصافًا لفرجه ويطنه، وإن المروءة أن يترك الرجل الطعام وهو يشتهي^(٥).

وقال: السؤدد مع السواد. يريد: من لم يطر له اسم على السنة العامة بالسؤدد، لم ينفعه ما طار له في الخاصة^(٦).

هـ - بلاغته:

كان فصيحًا مفوهًا^(٧)، خطب مرة فقال بعد حمد الله والثناء عليه: يا معشر الأرد

(١) قادة فتح السند وأفغانستان، ص ٣٠٨.

(٢) تهذيب ابن عساكر (١٩/٧ - ٢٠).

(٣) البداية والنهاية (٣٣١/٧).

(٤) وفيات الأعيان (١٨٧/٢).

(٥) المصدر نفسه (١٨٨/٢).

(٦ - ٧) قادة فتح السند وأفغانستان، ص ٣٠٩.

وربيعة: أنتم إخواننا في الدين، وشركاؤنا في الصهر وأشقاؤنا في النسب، وجيراننا في الدار، ويدنا على العدو، والله لأزد البصرة أحب إلينا من تميم الكوفة، ولأزد الكوفة أحب إلينا من تميم الشام، فإن استشرف شأن حسد صدوركم ففي أحلامنا وأموالنا سعة لنا ولكم (١).

لقد كان حاضر البديهة قوى الحجة منطقياً، جاء الأحنف إلى قوم يتكلمون في دم، فقال: احكموا! فقالوا: نحكم بديتين! فقال: ذلك لكم، فلما سكتوا قال: أنا أعطيكم ما سألتهم، غير أني قائل لكم شيئاً: إن الله - عزَّ وجلَّ - قضى بدية واحدة، وإن النبي ﷺ قضى بدية واحدة، وأنتم اليوم طالبون وأخشى أن تكونوا غداً مطلوبين، فلا يرضى الناس منكم إلا بمثل ما ستتم لأنفسكم!، فقالوا: نردها دية واحدة (٢).

وسمع الأحنف رجلاً يقول: ما أبالي أمدحت أم ذممت، فقال له: لقد استرحت من حيث تعب الكرام (٣).

و- إشارته:

كان الأحنف يحب لغيره ما يحبه لنفسه، بل كان يؤثر غيره على نفسه بالخير والمعروف، ويرضى نفسه الرضية المطمئنة إلى ما أصاب غيره بجهده من خير، فعندما جاء الأحنف إلى عمر رضي الله عنه في المدينة، عرض أمير المؤمنين عليه جائزة، فقال: يا أمير المؤمنين والله ما قطعنا الفلوات ودأبنا الروحات، والعشيات للجوائز، وما حاجتي إلا حاجة من خلفي، فزاده ذلك عند عمر خيراً (٤).

ز- أمانته:

كان الأحنف أميناً غاية الأمانة وقد مر بنا عندما استعمل ابن عمه على أهل بلخ وقد قبض ابن عمه ما صالحوه عليه من آتية الذهب والفضة ودنانير ودراهم وفتاع

(١) قادة فتح السند وأفغانستان، ص ٣٠٩.

(٢، ٣) وفيات الأعيان (٢/ ١٨٨).

(٤) تهذيب ابن عساکر (٧/ ١٢).

وثياب، فقال ابن عمه لهم: هذا ما صالحناكم عليه؟ فقالوا: لا!! ولكن هذا شيء نضعه في هذا اليوم بمن ولينا نستعطفه به، قال: وما هذا اليوم؟ قالوا: المهرجان^(١). فقال: ما أدري ما هذا، وإنني لأكره أن أردّه، ولعله من حقي ولكن أقبضه وأعزله حتى أنظر، فقبضه وقدم الأحنف فأخبره فسألهم عنه، فقالوا مثل ما قالوا لابن عمه، فقال: آتني به الأمير، فحمله على عبد الله بن عامر فأخبره عنه فقال: أقبضه يا أبا بحر فهو لك، فقال الأحنف: لا حاجة لي فيه^(٢)، لقد كان يتخرج حتى من الهدايا وكان يكتفي بسهمه من الغنائم^(٣).

ح - أناته:

كان الأحنف شديد الأناة، لا يقدم على عمل إلا بعد أن يحسب له ألف حساب، قيل له: يا أبا بحر: إن فيك أناة شديدة، فقال: قد عرفت من نفسي عجلة في أمور ثلاثة: في صلاتي إذا حضرت حتى أصليها، وجنازتي إذا حضرت حتى أغيبها في حفرتها، وابتني إذا خطبها كفيئها حتى أزوجه^(٤).

ط - ورعه:

كان الأحنف مؤمناً ورعاً قوياً بالإيمان، فقد سارع إلى اعتناق الإسلام أول ما بلغته الدعوة الإسلامية، وأسلم قومه بإشارته^(٥)، وبسط حمايته القوية الآمنة على الدعوة الأولين^(٦)، وثبت على عقيدته عندما ارتد أكثر قومه وأكثر العرب بعد وفاة النبي ﷺ، وجاهد للدفاع عنها ونشرها حق الجهاد وأبلى في ذلك أعظم البلاء. قال الحسن البصري عنه: ما رأيت شريف قوم أفضل منه^(٧). قال الأحنف: حبسني عمر

(١) المهرجان: أحد أعياد الفرس.

(٢) تاريخ الطبري (٣١٩/٥).

(٣) قادة فتح السند وأفغانستان، ص ٣١٣.

(٤) طبقات ابن سعد (٩٦/٧).

(٥) شذرات الذهب (٧٨/١).

(٦) قادة فتح السند وأفغانستان، ص ٣١٤.

(٧) البداية والنهاية (٣٣١/٧).

ابن الخطاب عنده بالمدينة سنة، يأتي كل يوم وليلة، فلا يأتيه عنى إلا ما يحب^(١)، فكتب عمر بعد نجاح الأحنف في الاختبار العمري - وما أصعبه وأدقه من اختبار - معه كتباً إلى الأمير على البصرة، يقول: الأحنف سيد أهل البصرة^(٢)، وكتب إلى أبي موسى الأشعري أن يشاور الأحنف ويسمع منه^(٣)، وقال له عمر بعد أن حبسه حولاً عنده: يا أحنف! قد بلوتك وخبرتكَ، فلم أر إلا خيراً، ورأيت علانيتك حسنة، وأنا أرجو أن تكون سريرتك مثل علانيتك^(٤).

لقد كان الأحنف رجلاً صالحاً كثير الصلاة بالليل، وكان يسرج المصباح ويصلى ويكي حتى الصباح، وكان يضع أصبعه في المصباح ويقول لنفسه: إذا لم تصبر على المصباح، فكيف تصبر على النار الكبرى^(٥)، وقيل له: إنك تكثر الصوم وإن ذلك يرق المعدة. فقال: إنى أعده لسفر طويل^(٦)، واستعمل الأحنف على (خراسان)، فلما أتى فارس أصابته جنابة في ليلة باردة فلم يوقظ أحداً من غلمانه ولا جنده وانطلق يطلب الماء، فأتى على شوك وشجر حتى سالت قدماء دمًا، فوجد الثلج، فكسره واغتسل^(٧)، وكان قلّ ما خلا إلا دعا بالمصحف، وكان النظر في المصاحف خلقاً في الأولين^(٨)، وكان في دعائه: اللهم إن تغفر لى فأنت أهل ذاك، وإن تعذبنى فأنا أهل ذاك^(٩)، ومن دعائه اللهم هب لى يقيناً تهوّن به على مصيبيات الدنيا^(١٠). ومروث به جنازة فقال: رحم الله من أجهد نفسه لمثل هذا اليوم^(١١)، وكان يقول: عجبت لمن

(١) (٢) قادة فتح السند وأفغانستان، ص ٣١٤.

(٣) تهذيب ابن عساكر (١٢/٧).

(٤) طبقات ابن سعد (٩٤/٧).

(٥) البداية والنهاية (٣٣١/٧).

(٦) طبقات ابن سعد (٩٤/٧). وقادة فتح السند وأفغانستان، ص ٣١٥.

(٧) المصنوع نفسه (٩٤/٧).

(٨) طبقات ابن سعد (٩٥/٧).

(٩) قادة فتح السند وأفغانستان، ص ٣١٥ ترجمة الأحنف لخصتها من هذا الكتاب القيم مع الرجوع لبعض المصادر.

(١٠، ١١) تهذيب ابن عساكر (١٦/٧).

يجرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبر^(١).

هذه بعض صفات شخصية الأحنف استحوذ بها على ثقة الناس به وحبهم وتقديرهم له، وهذه الصفات تجعل من يتحلى بها شخصية قوية نافذة يندر وجودها بين الناس في كل زمان ومكان، وقلما يوجد بها الدهر إلا نادراً^(٢)، لقد كان الأحنف من قادة الفتوحات في عهد عثمان رضي الله عنه وقد تميز في قيادته لجيوش الفتح لبلاد المشرق بقدرته على إعداد الخطط الصحيحة الناجحة وإعطاء القرارات السريعة الصائبة، كما كان لشجاعته الشخصية وإقدامه أثر كبير في وضع تلك الخطط والقرارات في حيز التنفيذ، لقد كان يبذل قصارى جهده في إعداد خططه العسكرية وإعطاء ذوى رأى، بل يتجول سرّاً في الليل بين عامة رجاله يسمع أحاديثهم، فإذا وجد رأياً سديداً يبدونه فيما بينهم، سارع إلى العمل به، لا يهمنه أن يأخذ الحكمة من أى وعاء، وقد كان هذا القائد الميداني في عهد عثمان يقاتل عدوه بسيفه وعقله معاً، فقد كان على جانب عظيم من الشجاعة والإقدام، حتى إنه كان يستأثر بالخطر دون رجاله ويؤثرهم بالراحة والأمن؛ كما كان على جانب عظيم من الدهاء، فيوفر بدهائه على قواته كثيراً من الجهود والمشقات^(٣).

لقد كان الأحنف رجلاً في أمة، وأمة في رجل... إنه سيد أهل المشرق المسمى بغير اسمه، كما كان يقول عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(٤).

(١) البداية والنهاية (٣٣١/٧).

(٢) قادة فتح السند وأفغانستان، ص ٣١٦.

(٣) قادة فتح السند وأفغانستان ص ٣٢٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٢٢.

المبحث الثاني

الفتوحات في الشام

أولاً: فتوحات حبيب بن مسلمة الفهري:

مر بنا أن الروم أجلبت على المسلمين بالشام بجموع عظيمة أول خلافة عثمان، فكتب عثمان إلى الوليد بن عقبة بالكوفة أن يمد إخوانه بالشام، فأمدهم بثمانية آلاف عليهم سلمان بن ربيعة الباهلي، فظفر المسلمون بعدوهم بعد أن غزوه في أرض الروم فأسروا منهم وغنموا، وكان تحالف الروم والترك قد تجمع لملاقاة المسلمين الذين غزوا أرمينية من الشام، وكان على المسلمين حبيب بن مسلمة وكان صاحب كيد لعدوه، فأجمع أن يُبَيِّت قائدهم الموريان - أى يباغته ليلاً - فسمعت امرأته أم عبد الله بنت يزيد الكلبيّة يذكر ذلك، فقالت: فأين موعذك؟ قال: سرادق الموريان أو الجنة.. ثم بيّتهم فغلبهم، وأتى سرادق الموريان فوجد امرأته قد سبقته إليه^(١)، وواصل حبيب جهاده وانتصاراته المتوالية في أرض أرمينية وأذربيجان ففتحها إما صلحاً أو عنوة^(٢).

لقد كان حبيب بن مسلمة الفهري من أبرز القادة الذين حاربوا في أرمينيا البيزنطية، فقد أباد جيوشاً بأكملها للعدو، وفتح حصوناً ومدناً كثيرة^(٣)، كما غزا ما يلي ثغور الجزيرة العراقية من أرض الروم فافتتح عدة حصون هناك، مثل شمشاط وملطية وغيرها، وفي سنة ٢٥ هـ غزا معاوية الروم فبلغ عمورية فوجد الحصون التي بين أنطاكية وطرسوس خالية فجعل عندها جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة، وواصل قائده قيس بن الحر العبسي الغزو في الصيف التالي، ولما فرغ هدم بعض الحصون القريبة من أنطاكية كي لا يفيد منها الروم^(٤).

(١) تاريخ الطبري (٢٤٨/٥).

(٢) الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، لحمدى شاهين، ٢٥٢.

(٣) حروب الإسلام في الشام في عهود الخلفاء الراشدين، ص ٥٧٧.

(٤) الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، ص ٢٥٣.

ثانياً: أول من أجاز الغزو البحري، عثمان بن عفان،

كان معاوية بن أبي سفيان وهو أمير الشام يلح على عمر بن الخطاب في غزو البحر، ويصف له قرب الروم من حمص ويقول: إن قرية من قرى حمص يسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم، حتى كان ذلك يأخذ بقلب عمر، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص، صف لي البحر وراكبه، فإن نفسي تنازعني إليه، فكتب إليه عمرو: إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، إن ركن خرق القلب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة، هم كدود على عود؛ إن مال غرق، وإن نجا برق، فلما قرأ عمر بن الخطاب كتاب عمرو بن العاص كتب إلى معاوية أن لا، والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً، وتالله لمسلم أحب إليَّ مما حوت الروم فإياك أن تعرض لي وقد تقدمت إليك وقد علمت ما لقي العلاء مني، ولم أتقدم إليه في ذلك^(١)، ولكن الفكرة لم تبرح نفس معاوية، وقد رأى في الروم ما رأى، فطمع في بلادهم وفي فتحها، فلما تولى الخلافة عثمان عاود معاوية الحديث وألح به على عثمان، فرد عليه عثمان رضي الله عنه قائلاً: «أن قد شهدت ما رد عليك عمر - رحمه الله - حين استأذنته في غزو البحر» ثم كتب إليه معاوية مرة أخرى يهون عليه ركوب البحر إلى قبرص، فكتب إليه: «فإن ركبت معك امرأتك فاركبه مأذوناً وإلا فلا»^(٢)، كما اشترط عليه الخليفة عثمان رضي الله عنه أيضاً بقوله: «لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم، خيرهم فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه»^(٣)، فلما قرأ معاوية كتاب عثمان نشط لركوب البحر إلى قبرص، فكتب لأهل السواحل يأمرهم بإصلاح المراكب وتقريبها إلى ساحل حصن عكا فقد رمه ليكون ركوب المسلمين منه إلى قبرص^(٤).

(١) تاريخ الطبري (٥/٢٥٨).

(٢) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (٢/٥٣٨).

(٣) تاريخ الطبري (٥/٢٦٠).

(٤) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (٢/٥٣٨).

ثالثاً، غزوة قبرص،

أعد معاوية المراكب اللازمة لحمل الجيش الغازى، واتخذ ميناء عكا مكاناً للإقلاع، وكانت المراكب كثيرة وحمل معه زوجته فاختة بنت قرظة، كذلك حمل عبادة بن الصامت امرأته أم حرام بنت ملحان معه فى تلك الغزوة^(١).

وأم حرام هذه هى صاحبة القصة المشهورة، عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطمعه، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها رسول الله ﷺ يوماً فأطعمته، ثم جلست تفلئ من رأسه فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك، فقالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟

قال: «ناس من أمتى عرضوا على غزاة فى سبيل الله، يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسرة - أو مثل الملوك على الأسرة». قالت: فقلت: يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم، فدعا لها، ثم وضع رأسه فنام، ثم استيقظ وهو يضحك، قالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟

قال: «ناس من أمتى عرضوا على فى سبيل الله»، كما قال فى الأولى. قال: «أنت من الأولين». فركبت أم حرام بنت ملحان البحر فى رمن معاوية، فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت^(٢).

ورغم أن معاوية لم يجبر الناس على الخروج، فقد خرج معه جيش عظيم من المسلمين^(٣)، مما يدل على أن المسلمين قد هانت فى أعينهم الدنيا بما فيها، فأصبحوا لا يعبثون بها بالرغم من أنها قد فتحت عليهم أبوابها، فصاروا يرفلون فى نعيمها.

إن المسلمين قد تربوا على أن ما عند الله خير وأبقى، وأن الله اصطفاهم لنصرة دينه وإقامة العدل ونشر الفضيلة، والعمل على إظهار دين الله على كل ما عداه وهم

(١) البداية والنهاية (١٥٩/٧).

(٢) البخارى رقم (٢٨٧٧).

(٣) جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين، ص ٣٥٦.

يعتقدون أن هذه المهمة هي رسالتهم الحقيقية، وأن الجهاد في سبيل الله هو سبيل الحصول على مرضاة الله، فإن هم قصروا في مهمتهم، وقعدوا عن أداء واجبهم فسيملك الله عنهم نصره في الدنيا، ويخرمهم مرضاته في الآخرة، وذلك هو الخسران المبين، من أجل هذا هرعوا مع معاوية وتسابقوا إلى السفن يركبونها، ولعل حديث أمر حرام قد ألم بخواطيرهم فدفعهم إلى الخروج للغزو في سبيل الله تصديقاً لحديث رسول الله ﷺ، وكان ذلك بعد انتهاء فصل الشتاء في سنة ثمان وعشرين من الهجرة (٦٤٩م)^(١).

وسار المسلمون من الشام وركبوا من ميناء عكا متوجهين إلى قبرص، ونزل المسلمون إلى الساحل، وتقدمت أم حرام لتركب دابتها، فنفرت الدابة وألقت أم حرام على الأرض فاندقت عنقها فماتت^(٢)، وترك المسلمون أم حرام بعد دفنها في أرض الجزيرة عنواناً على مدى التضحيات التي تقدمها في سبيل نشر دينهم، وعرف قبرها هناك بقبر المرأة الصالحة^(٣).

واجتمع معاوية بأصحابه وكان فيهم: أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري، وأبو الدرداء، وأبو ذر الغفاري وعبادة بن الصامت، ووائل بن الأسقع، وعبد الله بن بشر المازني، وشداد بن أوس بن ثابت، والمقداد بن الأسود، وكعب الأحبار بن ماته، وجبير بن نفير الحضرمي^(٤).

وتشاوروا فيما بينهم، وأرسلوا إلى أهل قبرص يخبرونهم أنهم لم يغزوهم للاستيلاء على جزيرتهم^(٥)، ولكن أرادوا دعوتهم لدين الله ثم تأمين حدود الدولة الإسلامية بالشام، وذلك لأن البيزنطيين كانوا يتخللون من قبرص محطة يستريحون فيها إذا غزوا ويتمنون منها إذا قل زادهم، وهي بهذه المثابة تهدد بلاد الشام الواقعة تحت رحمتها، فإذا لم يطمئن المسلمون على مسألة هذه الجزيرة لهم وخضوعها

(١) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين، ص ٣٥٦.

(٢) البداية والنهاية (١٥٩/٧).

(٣ - ٥) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين، ص ٣٥٧.

لإرادتهم، فإن وجودها كذلك سيظل شوكة في ظهورهم وسهمًا مسددًا في حدودهم، ولكن سكان الجزيرة لم يستسلموا للغزاة ولم يفتحوا لهم بلادهم، بل تحصنوا في العاصمة ولم يخرجوا لمواجهة المسلمين، وكان أهل الجزيرة ينتظرون تقدم الروم للدفاع عنهم، وصدهجوم المسلمين عليها (١)

رابعاً: الاستسلام وطلب الصلح:

تقدم المسلمون إلى عاصمة قبرص (قسنطينا) وحاصروها وما هي إلا ساعات حتى طلب الناس الصلح، وأجابهم المسلمون إلى الصلح، وقدموا للمسلمين شروطاً، واشترط عليهم المسلمون شروطاً، وأما شرط أهل قبرص فكان في طلبهم ألا يشترط عليهم المسلمون شروطاً تورطهم مع الروم لأنهم لا قبل لهم بهم، ولا قدرة لهم على قتالهم، وأما شروط المسلمين فهي:

- ١ - ألا يدافع المسلمون عن الجزيرة إذا هاجم سكانها محاربون.
- ٢ - أن يدل سكان الجزيرة المسلمين على تحركات عدوهم من الروم.
- ٣ - أن يدفع سكان الجزيرة للمسلمين سبعة آلاف ومائتي دينار في كل عام.
- ٤ - أن يكون طريق المسلمين إلى عدوهم عليهم.
- ٥ - ألا يساعدوا الروم إذا حاولوا غزو بلاد المسلمين، ولا يطلعوهم على أسرارهم (٢).

وعاد المسلمون إلى بلاد الشام، وأثبتت هذه الحملة قدرة المسلمين على خوض غمار المعارك البحرية بجدارية، وأعطت المسلمين فرصة المران على الدخول في معارك من هذا النوع مع العدو المتربص بهم سواء بالهجوم على بلاد الشام أو على الإسكندرية (٣).

(١) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين، ص ٣٥٧.

(٢) تاريخ الطبري (٢٦١/٥).

(٣) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين، ص ٣٥٨، ٣٥٩.

خامساً: عبد الله بن قيس قائد الأسطول الإسلامي في الشام،

استعمل معاوية بن أبي سفيان على البحر عبد الله بن قيس الجاسي حليف بني فزارة، فغزا خمسين غزاة ما بين شاتية وصائفة في البحر، ولم يفرق فيه أحد ولم ينكب، وكان يدعو الله أن يرزقه العافية في جنده، وألا يبتليه بمصاب أحد منهم، ففعل، حتى إذا أراد أن يصيبه وحده، خرج في قاربه طليعة، فانتهى إلى المرفأ من أرض الروم، وعليه سؤال يعترُونَ^(١) بذلك المكان، فتصدق عليهم، فرجعت امرأة من السؤال إلى قريبها، فقالت للرجال: هل لكم في عبد الله بن قيس؟ قالوا: وأين هو؟ قالت: في المرفأ، قالوا: أي عدوة الله، ومن أين تعرفين عبد الله بن قيس؟ فوبختهم، وقالت: أنتم أعجز من أن يخفى عبد الله على أحد، فساروا إليه، فهجموا عليه، فقاتلوه وقتلهم، فأصيب وحده، وأفلت الملاح حتى أتى أصحابه، فجاءوا حتى أرقوا، والخليفة منهم سفيان بن عوف الأزدي، فخرج فقاتلهم، فضجر وجعل يعبث بأصحابه ويشتهم، فقالت جارية عبد الله: واعبد الله، ما هكذا كان يقول حين يقاتل! فقال سفيان: وكيف كان يقول؟ قالت: الغمرات ثم ينجلينا فترك ما كان يقول، ولزم: الغمرات ثم ينجلينا، وأصيب في المسلمين يومئذ، وذلك آخر زمان عبد الله بن قيس الجاسي^(٢)، وقيل لتلك المرأة التي استشارت الروم على عبد الله بن قيس: كيف عرفته؟ قالت: كان كالتاجر، فلما سأله أعطاني كالمملك، فعرفت أنه عبد الله بن قيس^(٣).

وهكذا حينما أراد الله تعالى أن يمنَّ بالشهادة على هذا القائد العظيم أتاحت له وهو في وضع لا يضر بسمعة المسلمين البحرية، حيث كان وحده يتطلع ويراقب الأعداء، فكانت تلك الكائنة الغريبة التي أبصرت غورها تلك المرأة الذكية من نساء تلك البلاد، حيث رأت ذلك الرجل يظهر في مظاهره الخارجية بمظهر التجار العاديين، ولكنه يعطى عطاء الملوك، فلقد رأت فيه أمارات السيادة مع بساطة مظهره فعرفت أنه قائد المسلمين الذي دوَّخ المحاربين في تلك البلاد، وهكذا كانت سماحة

(١) يعترُونَ: يعترضون للناس دون أن يسألوهم.

(٢، ٣) تاريخ الطبري (٥/ ٢٦٠).

ذلك القائد وسخاؤه البارز حتى مع غير المسلمين سبيًا في كشف أمره، ومعرفة مركزه، ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً، فيتم بذلك الهجوم عليه وظفره بالشهادة، وهكذا يضرب قادة المسلمين المثل العليا بأنفسهم لتتم الإنجازات الكبرى على أيديهم، وليكونوا قدوة صالحة لمن يخلفهم، فقد قام هذا القائد الملهم بمهمة الاستطلاع بنفسه ولم يكل الأمر إلى جنوده، وفي انفراده بهذه المهمة مظنة للتورط مع الأعداء والهلاك على أيديهم، ولكنه مع ذلك يغامر بنفسه فيتولى هذه المهمة، ثم نجده يتخلق بأخلاق الإسلام العليا حتى مع نساء الأعداء وضَعَفَتْهُم فيمد إليهم يد الحنان والعطف، ويسخو لهم بالمال الذي هو من أعز ما يملك الناس، ونجده قبل ذلك مع جنده رفيقًا صبورًا، لا معنّفًا، ولا مستكبرًا، وإذا ادلهمت الخطوب تفاعل بانكشاف الغمة ولم يلجأ إلى لوم أصحابه وتعنيفهم، ولم يهيمن عليه الارتباك الذي يفسد العمل، ويعجّل بالخلل والفوضى، وأما خليفته سفيان الأزدي فلعله وقع فيما وقع فيه من الارتباك والاشتغال بطرح اللائمة على جنده لكونه حديث العهد بأمر القيادة، ولكن مما يُحفظ له أنه لما نبّهته جارية عبد الله بن قيس إلى ذلك الأسلوب الحكيم الذي كان أميره ينتهجه في القيادة سارع في التأسى به في ذلك، ولم يحمله التكبر على عدم سماع كلمة وإن صدرت من جارية مغمورة، وهذا مثل من أمثلة التجرد من هوى النفس، هذا الخلق العظيم الذي كان غالبًا في الجيل الأول، وبه تم إنجاز الفتوحات العظيمة، ونجاح الولاة والقادة في إدارة أمور الأمة، فلله در أبناء ذلك الجيل: ما أبلغ ذكرهم، وما أبعد غورهم وما أعظم وطأتهم في الأرض على الجبارين، وما أعذب لمساتهم في الأرض على المستضعفين والمساكين^(١).

سادسًا: القبارصة ينقضون الصلح:

في سنة اثنتين وثلاثين هجرية، وقع سكان قبرص تحت ضغط رومي عنيف أجبرهم على إمداد جيش الروم بالسفن ليغزوا بها بلاد المسلمين، وبذلك يكون القبرصيون قد أخلوا بشروط الصلح، وعلم معاوية بخيانة أهل قبرص فعزم على

(١) التاريخ الإسلامي (١٢/٤٠٢).

الاستيلاء على الجزيرة ووضعها تحت سلطان المسلمين، فقد هاجم المسلمون الجزيرة هجوماً عنيفاً فقتلوا وأسروا وسلبوا، هجم عليها جيش معاوية من جهة، وعبد الله ابن سعد من الجانب الآخر، فقتلوا خلقاً كثيراً، وسبوا سبياً كثيرة وغنموا مالا جزيلاً^(١)، وتحت ضغط القوات الإسلامية اضطر حاكم قبرص أن يستسلم للفاتحين ويلتمس منهم الصلح فأقرهم معاوية على صلحهم الأول^(٢)، وخشى معاوية أن يتركهم هذه المرة بغير جيش يربط في الجزيرة، فيحميها من غارات الأعداء ويضبط الأمن فيها حتى لا تتمرد على المسلمين؛ فبعث إليهم اثني عشر ألفاً من الجنود ونقل إليهم جماعة من بعلبك، وبنى هناك مدينة وأقام فيها مسجداً، وأجرى معاوية على الجنود أرزاقهم وظل الحال على ذلك، الجزيرة هادئة والمسلمون آمنون من هجمات الروم المفاجئة، ولاحظ المسلمون أن أهل قبرص ليس فيهم قدرات عسكرية، وهم مستضعفون أمام من يغزوهم، وأحس المسلمون أن الروم يغلبونهم على أمرهم، ويسخرونهم لمصالحهم فأروا أن من حقهم عليهم أن يحموهم من ظلم الروم، وأن يمنعوهم من تسلط البيزنطيين، وقال إسماعيل بن عياش: أهل قبرص أذلاء مقهورون يغلبهم الروم على أنفسهم ونسائهم فقد يحق علينا أن نمنعهم ونحميهم^(٣).

سابعاً: ما أهون الخلق على الله إذا هم عصوه

وقد جاء في سياق هذه الغزوة المذكورة خبر أبي الدرداء رضي الله عنه حينما نظر إلى سبي الأعداء فبكى، ثم قال: ما أهون الخلق على الله إذا هم عصوه، فانظر إلى هؤلاء القوم بينما هم ظاهرون قاهرون لمن ناوهم، فلما تركوا أمر الله - عزَّ وجلَّ - وعصوه صاروا إلى ما ترى^(٤)، وجاء في رواية: فقال له جبير بن نفير: أتبكي وهذا يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: ويحك إن هذه كانت أمة قاهرة لهم ملك، فلما ضيعوا أمر الله صيرهم إلى ما ترى، سلط الله عليهم السبي، وإذا سلط على قوم

(١) جولة تاريخية، ص ٣٥٩، ٣٦٠.

(٢) البلاذري، ص ١٥٨.

(٣) جولة تاريخية، ص ٣٦١.

(٤) التاريخ الإسلامي (١٢/٣٩٦).

السبى فليس لله فيهم حاجة، وقال: ما أهون العباد على الله تعالى إذا تركوا أمره^(١). إن ما تفوه به أبو الدرداء، يعتبر مثلاً للبصيرة النافذة والفقه فى أمر الله تعالى، فهذا الصحابى الجليل يبكى حسرة على هؤلاء الذين أعمى الله بصائرهم فلم ينقادوا لدعوة الحق فباءوا بهذا المصير المؤلم حيث تحولوا من الملك والعزة إلى الاستسلام والذلة؛ لإصرارهم على لزوم الباطل والتكبر على الخضوع لدعوة الحق، ولو أنهم عقلوا وتدبروا لكان فى دخولهم فى الإسلام بقاء ملكهم وعمران ديارهم والظفر بحماية دولة الإسلام وإن هذا التفكير العميق من أبى الدرداء مظهر من مظاهر الرحمة والعطف تفتحت عنه نفسه الزكية، فتشكل ذلك فى الظاهر على هيئة دموع تتحدر من عيني هذا الرجل العظيم، ليعبر عما يجول فى نفسه من نظرات الحنان والرحمة والأسى على مصير تلك الأمة التى اجتمع لها البقاء على الضلال والمآل السيئ بزوال الملك والوقوع فى الذل والهوان، وإنه بقدر ما يفرح المسلم بدخول الناس فى الإسلام، فإنه يحزن من رؤية الكافرين وهم يعيشون فى ضلال مع إدراكه ما ينتظرهم من العذاب الاليم المؤبد فى الآخرة، فكيف إذا أضيف إلى ذلك وقوعهم فى الأسر والتشرد وتعرضهم للقتل فى الحياة الدنيا^(٢).

ثامناً: عبادة بن الصامت يقسم غنائم قبرص،

قال عبادة بن الصامت لمعاوية رضى الله عنهما: شهدت مع رسول الله ﷺ فى غزوة حنين والناس يكلمونه فى الغنائم، فأخذ وبرة من بعير وقال: «ما لى مما أفاء الله عليكم من هذه الغنائم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم». فاتق الله يا معاوية واقسم الغنائم على وجهها، ولا تعط منها أحداً أكثر من حقه، فقال له معاوية: قد وليتك قسمة الغنائم، ليس أحد بالشام أفضل منك ولا أعلم، فاقسمها بين أهلها واتق الله فيها. فقسمها عبادة بين أهلها وأعانته أبو الدرداء وأبو أمامة^(٣).

(١) البداية والنهاية (٧/١٥٩).

(٢) التاريخ الإسلامى (١٢/٣٩٧).

(٣) الرياض النضرة، ص ٥٦١.

المبحث الثالث

فتوحات الجبهة المصرية

أولاً: ردع المتمردين في الإسكندرية:

كبر على الروم خروج الإسكندرية من أيديهم، وظلوا يتحينون الفرص لإعادتها إلى حوزتهم، فراحوا يحرضون من بالإسكندرية من الروم على التمرد والخروج على سلطان المسلمين، ذلك لأن الروم كانوا يعتقدون أنهم لا يستطيعون الاستقرار في بلادهم بعد خروج الإسكندرية من ملكهم^(١)، وصادف تحريض الروم لأهل الإسكندرية هوى في نفوس سكانها فاستجابوا للدعوة وكتبوا إلى قسطنطين بن هرقل يخبرونه بقلّة عدد المسلمين، ويصفون له ما يعيش فيه الروم بالإسكندرية من الذل والهوان^(٢)، وكان عثمان رضي الله عنه قد عزل عمرو بن العاص رضي الله عنه عن مصر، وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبي السرح، وفي أثناء ذلك وصل منويل الخصى قائد قوات الروم إلى الإسكندرية لإعادتها وتخليصها من يد المسلمين، ومعه قوات هائلة يحملهم في ثلاثمائة مركب مشحونة بكل ما يلزم هذه القوات من السلاح والعتاد^(٣).

علم أهل مصر بأن قوات الروم قد وصلت إلى الإسكندرية، فكتبوا إلى عثمان يلتمسون إعادة عمرو بن العاص ليواجه القوات الغازية فإنه أعرف بحربهم، وله هبة في نفوسهم، فاستجاب الخليفة لطلب المصريين، وأبقى ابن العاص أميراً على مصر^(٤)، ونهب منويل وجيشه الإسكندرية، وغادروها بعد أن تركوها قاعاً صفصفاً، ليعيثوا فيما حولها من القرى ظلماً وفساداً، وأمهلهم عمرو بن العاص ليمعنوا في الإفساد، وليشعر المصريون بالفرق الهائل بين حكامهم من المسلمين، وحكامهم من

(١) الكامل، لابن الأثير.

(٢ - ٤) جولة تاريخية، ص ٣٣٥.

الروم، ولتمتلئ قلوب المصريين على الروم حقداً وغضباً فلا يكون لهم من حبهـم والعطف عليهم أدنى حظ، وخرج منوئل بجيشه من الإسكندرية يقصد مصر السفلى دون أن يخرج إليهم عمرو أو يقاومهم أحد، وتخوف بعض أصحابه، وعمرو كان له رأى آخر، فقد كان يرى أن يتركهم يقصدونه، ولا شك أنهم سينهبون أموال المصريين، وسيرتكبون من الحماقات في حقهم ما يملأ قلوبهم حقداً عليهم وغضباً منهم، فإذا نهض المسلمون لمواجهةهم عاونهم المصريون على التخلص منهم، وحدد عمرو سياسته هذه بقوله: دعهم يسيروا إلى، فإنهم يصيبون من مروا به، فيخزي بعضهم ببعض^(١).

وقد صدق حدس عمرو، وأمعن الروم في إفسادهم ونهبهم وسلبهم، وضح المصريون من فعالهم، وأخذوا يتطلعون إلى من يخلصهم من شر هؤلاء الغزاة المفسدين^(٢).

وصل منوئل إلى نقيوس: واستعد عمرو للقاءه، وعبا جنده، وسار بهم نحو عدوه الشرس، وتقابل الجيشان عند حصن نقيوس على شاطئ نهر النيل واستبسل الفريقان أيما استبسال، وصبر كل فريق صبراً أمام خصمه عما زاد الحرب ضراوة واشتعالاً، ودفع بالقائد عمرو إلى أن يمعن في صفوف العدو، ويقدم فرسه بين فرسانهم، ويشهر سيفه بين سيوفهم، ويقطع به هامات الرجال وأعناق الأبطال، وصاب فرسه سهم فقتله، فترجل عمرو وانضم إلى صفوف المشاة، ورآه المسلمون فأقبلوا على الحرب بقلوب كقلوب الأسود لا يهابون ولا يخافون قعقة السيوف^(٣)، وأمام ضربات المسلمين وهنت عزائم الروم وخارت قواهم، فانهزموا أمام الأبطال الذين يريدون إحدى الحسينين، وقصد الروم في فراهم الإسكندرية لعلهم يجدون في حصونها المنية وأسوارها الشاهقة ما يوارى عنهم شبح الموت الذي يلاحقهم^(٤).

(١) جولة تاريخية، ص ٣٣٦. وعثمان بن عفان، هيكـل، ص ٦٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٣٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٣٨.

(٤) البلاذري، ص ٦٩.

وخرج المصريون بعد أن رأوا هزيمة الروم يصلحون للمسلمين ما أفسده العدو الهارب من الطرق، ويقيمون لهم ما دمره من الجسور، وأظهر المصريون فرحتهم بانتصار المسلمين على العدو الذي انتهك حرمتهم واعتدى على أموالهم وممتلكاتهم، وقدموا للمسلمين ما ينقصهم من السلاح والمثونة^(١).

ولما وصل عمرو إلى الإسكندرية ضرب عليها الحصار ونصب عليها المجانيق وظل يضرب أسوار الإسكندرية حتى أوهنها وألح عليها بالضرب، حتى ضعف أهلها وتصدعت أسوارها، وفتحت المدينة الحصينة أبوابها، ودخل المسلمون الإسكندرية، وأعملوا سيوفهم في الروم يقتلون المقاتلين، ويأسرون النساء والذرية وهرب من نجا من الموت لاجئين إلى السفن ليفروا بها عائدين من حيث أتوا، وكان منويل في عداد القتلى، ولم يكف المسلمون عن القتل والسبي حتى أمر عمرو بذلك لما توسط المسلمون المدينة، ولما لم يكن هناك من يقاوم أو يتصدى لهم^(٢)، ولما فرغ المسلمون أمر عمرو ببناء مسجد في المكان الذي أوقف فيه القتال وسماه مسجد الرحمة^(٣)، وعادت إلى العاصمة العتيقة طمأنيتها، وعادت السكينة إلى قلوب المصريين فيها، فرجع إليها من كان قد فر منها أمام الزحف الرومي رهيب، وعاد بنيامين بطريق القبط إلى الإسكندرية بعد أن فر مع الفارين، وأخذ يرجو عمراً ألا يسئ معاملته القبط لأنهم لم ينقضوا عهدهم، ولم يتخلوا عن واجبهم، ورجاه كذلك ألا يعقد صلحاً مع الروم، وأن يدفنه إذا مات في كنيسة يحسن^(٤).

وجاء المصريون من كل حذب وصوب إلى عمرو يشكرونه على تخليصهم من ظلم الروم، ويطلبون منه إعادة ما نهبوا من أموالهم ودوابهم معلنين ولاءهم وطاعتهم فقالوا: إن الروم قد أخذوا دوابنا وأموالنا ولم نخالف نحن عليكم وكنا على الطاعة، فطلب منهم عمرو أن يقيموا البيعة على ما ادعوا، ومن أقام بيعة وعرف من له بعينه رده^(٥) عليه، وهدم عمرو سور الإسكندرية وكان ذلك في ذلك سنة ٢٥ هـ،

(١ - ٣) جولة تاريخية، ص ٣٣٨.

(٤، ٥) المصدر نفسه، ص ٣٤٠.

وأصبحت الإسكندرية آمنة من جهاتها كلها رغم هدم سورها، فقد كان شريقها فى قبضة المسلمين وكذلك جنوبها، وأما غربها فقد أمنه عمرو بن العاص بفتح برقة وزويلة وطرابلس الغرب وصالح أهل هذه البلاد على الجزية، فكانوا يدفعونها طائعين، وأما شمالها فكان فى قبضة الروم، وقد تلقنوا درساً على يد المسلمين لم يترك لهم فرصة للتفكير فى العودة، وحتى لو فكروا فى العودة فهيئات أن يدخلوها وليس لهم فيها نصير ولا معين، وقوات المسلمين تراقب البحر بكل يقظة واهتمام^(١).

ثانياً، فتح بلاد النوبة،

كان عمرو بن العاص قد شرع فى فتح بلاد النوبة بإذن من الخليفة عمر، فوجد حرباً لم يتدرب عليها المسلمون وهى الرمى بالنبال فى أعين المحاربين حتى فقدوا مائة وخمسين عيناً فى أول معركة، ولهذا قبل الجيش الصلح، ولكن عمرو بن العاص رفض للوصول إلى شروط أفضل^(٢)، وعندما تولى ابن سعد ولاية مصر غزا النوبة فى عام إحدى وثلاثين هجرية، فقاتله الأساود من أهل النوبة قتالاً شديداً، فأصيبت يومئذ عيون كثيرة من المسلمين، فقال شاعرهم:

لم تر عين مثل يوم دُمقلة والخيل تعدو بالدروع مثقلة^(٣)

فسأل أهل النوبة عبد الله بن سعد المهادنة، فهادنهم الهدنة بقيت إلى ستة قرون^(٤)، وعقد لهم عقداً يضمن لهم استقلال بلادهم ويحقق للمسلمين الاطمئنان إلى حدودهم الجنوبية، ويفتح النوبة للتجارة والحصول على عدد من الرقيق فى خدمة الدولة الإسلامية، وقد اختلط المسلمون بالنوبة والبجة، واعتنق كثير منهم الإسلام^(٥).

(١) جولة تاريخية، ص ٣٤١.

(٢) الخلافة والخلفاء الراشدون، ص ٢٢٩.

(٣) قادة الفتح لبلاد المغرب (١/٦١، ٦٢، ٦٣).

(٤) الخلافة والخلفاء الراشدون، ص ٢٢٩.

(٥) قادة الفتح لبلاد المغرب (١/٦١، ٦٢، ٦٣).

ثالثاً، فتح إفريقية:

كان من مقاصد حملة عمرو بن العاص رضي الله عنه لبرقة وطرابلس وبقية مناطق ليبيا فتح البلاد وإزالة الطاغوت الروماني عن قلوب العباد حتى تتضح لهم السبل، وتفرق لهم الطرق، وتصبح حرية الاختيار في تناول تلك الشعوب، وبعد تلك الحملة المباركة التي كانت سبباً في دخول ذلك النور إلى تلك المناطق المظلمة بعبادة الأصنام والتقرب إليها بالقرابين، واتخاذ الأنداد والأرباب من البشر من دونه سبحانه وتعالى، وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وعن حملة عبد الله بن سعد على إفريقية^(١)، يقول الدكتور صالح مصطفى: «وفي سنة ٢٦هـ/٦٤٦م عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر، واستعمل عليها عبد الله بن سعد رضي الله عنه وكان عبد الله بن سعد يبعث جرائد الخيل كما كانوا يفعلون أيام عمرو بن العاص فيصيبون من أطراف إفريقية ويغنمون^(٢)، وكانت جرائد الخيل تقصد إفريقية - تونس - تمهيداً لفتحها، ومعرفة وضعها، فكان حال هذه الجرائد أشبه ما يكون بكتائب الاستطلاع التي تعتبر مقدمة الجيش وعيونه، فلما اجتمعت عند عبد الله بن سعد معلومات كافية عن إفريقية من ناحية مداخلها ومخارجها، وقوتها وعنادها، وموقعها الجغرافي الاستراتيجي، كتب حينئذ إلى الخليفة الراشد عثمان بن عفان يخبره بهذه المعلومات المهمة عن إفريقية، يستأذن بناء على تلك المعلومات بفتحها، فكان له ما طلب، يقول الدكتور صالح مصطفى: ولما استأذن عبد الله بن سعد الخليفة عثمان بن عفان في غزو إفريقية، جمع الصحابة واستشارهم في ذلك، فأشاروا عليه بفتحها، إلا أبا الأعور سعيد بن زيد، الذي خالفه متمسكاً برأى عمر بن الخطاب في ألا يغزو إفريقية أحد من المسلمين، ولما أجمع الصحابة على ذلك، دعا عثمان للجهاد، واستعدت المدينة عاصمة الخلافة الإسلامية لجمع المتطوعين، وتجهيزهم، وترحيلهم إلى مصر، لغزو إفريقية تحت قيادة عبد الله بن سعد، وقد ظهر الاهتمام بأمر تلك الغزوة جلياً فهذا يتضح من الذين خرجوا إليها من كبار الصحابة، ومن خيار شباب

(١) الشرف والتسامي بحركة الفتح الإسلامي، للصلاحي، ص ١٨٩.

(٢) ليبيا من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية، ص ٤٩.

آل البيت، وأبناء المهاجرين الأوائل وكذلك الأنصار، فقد خرج في تلك الغزوة الحسن والحسين، وابن عباس وابن جعفر، وغيرهم.

هذا وقد خرج من قبيلة مهرة وحدها في غزوة عبد الله بن سعد ستمائة رجل، ومن غنث سبعمائة رجل، ومن فيدعان سبعمائة رجل، وعندما بات الاستعداد تاماً خطب عثمان فيهم، ورجبهم في الجهاد، وقال لهم: لقد استعملت عليكم الحارث بن الحكم إلى أن تقدموا على عبد الله بن سعد فيكون الأمر إليه، وأستودعكم الله، ويقال: إن عثمان رضى الله عنه قد أعان في هذه الغزوة بألف بعير يحمل عليها ضعفاء الناس، وعندما وصل هذا الجيش إلى مصر، انضم إلى جيش عبد الله بن سعد، وتقدم من الفسطاط تحت قيادة عبد الله ذلك الجيش الذى يقدر بعشرين ألفاً يخترق الحدود المصرية الليبية، وعندما وصلوا إلى برقة انضم إليهم عقبة بن نافع الفهري، ومن معه من المسلمين، ولم يواجه الجيش الإسلامى أية صعوبة أثناء سيرهم في برقة، وذلك لأنها ظلت وفيه لما عاهدت المسلمين عليه من الشروط زمن عمرو بن العاص، حتى إنه لم يكن يدخلها جابى الخراج، وإنما كانت تبعث بخراجها إلى مصر في الوقت المناسب، وما يؤكد بقاء برقة على عهدا لعمر بن العاص، ما ذكر، أنه سُمعَ يقول: قعدت مقعدى هذا، وما لأحد من قبض مصر على عهد إلا أهل أنطابلس^(١)، فإن لهم عهداً يوفى لهم به، كما أن عبد الله بن عمرو بن العاص كان يقول: ولولا ما لى بالحجاز لتزلت برقة، فما أعلم منزلاً أسلم ولا أعزل منها^(٢).

وهكذا انطلقت هذه الحملة المباركة نحو إفريقية، وكان ذلك بعد انضمام قوات عقبة بن نافع إليها، إلا أن عبد الله بن سعد قائد الحملة ما فتئ يرسل الطلائع والعيون في جميع الاتجاهات لاستكشاف الطرق وتأمينها، ورصد تحركات العدو وضبطها، تحسباً لأى كمين، أو مباغنة تطرأ على حين غفلة، فكان من نتائج تلك الطلائع الاستطلاعية أن تم رصد مجموعات من السفن الحربية تابعة للإمبراطورية الرومانية، حيث كانت هذه السفن الحربية قد رست في ساحل ليبيا البحرى بالقرب

(١) أنطابلس: برقة.

(٢) ليبيا من الفتح العربى حتى انتقال الخلافة الفاطمية، ص ٣٩.

من مدينة طرابلس، فما هي إلا برهة من الزمن حتى كان ما تحمله هذه السفن غنيمة للمسلمين، وقد أسروا أكثر من مائة من أصحابها، وتعتبر هذه أول غنيمة ذات قيمة أصابها المسلمون في طريقهم لفتح إفريقية^(١)، وواصل عبد الله بن سعد السير إلى إفريقية، وبث طلائعه وعيونه في كل ناحية، حتى وصل جيشه إلى مدينة سبيلطة بأمان، وهناك التقى الجمعان، جيش المسلمين بقيادة عبد الله بن سعد، وجيش جرجير حاكم إفريقية، وكان تعداد جيشه يبلغ حوالي مائة وعشرين ألفاً، وكان بين القائدين اتصالات مستمرة، ورسائل متبادلة، فحواها عرض الدعوة الإسلامية على جرجير ودعوته للدخول في الإسلام، ويستسلم لأمر الله سبحانه، أو أن يدفع الجزية، ويبقى على دينه خاضعاً لسيادة الإسلام، ولكن كل تلك العروض رفضها وأصر واستكبر هو وجنوده؛ وضاق الأمر بالمسلمين فنشبت المعركة بين الجمعين، وحمل الوطيس بينهما لعدة أيام، حتى وصل مدد بقيادة عبد الله بن الزبير، وكانت نهاية هذا المستكبر الطاغى جرجير على يديه^(٢).

ولما رأى الروم الذين بالساحل ما حل بجرجير وأهل سبيلطة، غارت أنفسهم وتجمعوا، وكاتب بعضهم بعضاً في حرب عبد الله بن سعد إياهم، فخافوه وراسلوه، وجعلوا له جعلاً على أن يرحل بجيشه، وألا يعترضوه بشيء، ووجهوا إليه ثلاثمائة قنطار من الذهب في بعض الروايات، وفي البعض الآخر مائة قنطار، جزية في كل سنة على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم، فقبل ذلك منهم، وقبض المال، وكان في شرط صلحهم أن ما أصاب المسلمون قبل الصلح فهو لهم، وما أصابوه بعد الصلح رده عليهم، وانصرف راجعاً بعد أن أقام بإفريقية سنة وثلاثة أشهر، أو سنة وشهراً في رواية أخرى^(٣).

وعندما وصل عبد الله بن سعد إلى طرابلس وافته المراكب فحمل فيها أثقال جيشه، وقصد هو وأصحابه مصر سالمين، ووجه إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه

(١) الشرف والتسامي بحركة الفتح الإسلامي، ص ١٩١.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩٣، البداية والنهاية (١٥٨/٧).

(٣) الشرف والتسامي بحركة الفتح الإسلامي، ص ١٩٤.

الأموال التى معه من الخمس وغيره، ومن المرجح أن تكون السفن التى وافته فى طرابلس من السفن التى غنمها المسلمون فى سورية وإسكندرية، إذ يذكر إرشيبالد: أنه قد سهل على العرب بفضل استيلائهم على دور الصناعة البيزنطية فى الإسكندرية وسورية سليمة أن تكون لديهم سفن حربية، إما حاضرة، وإما سهلة الإنشاء^(١)، بيد أن هناك روايات تنص على عودة عبد الله بن سعد لإفريقية بعد وصوله إلى مصر، وذلك حين نقض أهلها العهد، وكان ذلك فى سنة ثلاث وثلاثين، فانتصر عليهم، وقام بتثبيت دعائم النظام الإسلامى هناك، وأقر أهلها على الإسلام أو الجزية^(٢).

رابعاً: بطول عبد الله بن الزبير فى فتح إفريقية،

انقطع خبر المسلمين فى إفريقية عن عثمان رضى الله عنه فسير إليهم عبد الله بن الزبير فى جماعة ليأتيه بأخبارهم، فسار مجداً ووصل إليهم وأقام معهم، ولما وصل كثر الصباح والتكبير فى المسلمين، فسأل جرجير عن الخبر ف قيل قد أتاهم عسكر ففت ذلك فى عضده، ورأى عبد الله بن الزبير قتال المسلمين كل يوم من بكرة إلى الظهر، فإذا أذن الظهر عاد كل فريق إلى خيامه، وشهد القتال من الغد فلم ير ابن سعد معهم، فسأل عنه ف قيل: إنه سمع منادى جرجير يقول: من قتل عبد الله بن سعد فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتى، وهو يخاف، فحضر عنده وقال له: تأمر منادياً ينادى: من أتانى برأس جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده، ففعل ذلك فصار جرجير يخاف أشد من عبد الله^(٣)، ثم إن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله ابن سعد: إن أمرنا يطول مع هؤلاء وهم فى أمداد متصلة وبلادهم لهم ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم، وقد رأيت أن نترك غداً جماعة سالحة من أبطال المسلمين فى خيامهم متأهين، ونقاتل نحن الروم فى باطن العسكر إلى أن يضمجروا ويملوا، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ركب من كان فى الخيام من

(١) ليبيا من الفتح العربى حتى انتقال الخلافة الفاطمية، ص ٤٦.

(٢) الشرف والتسامى بحركة الفتح الإسلامى، ص ١٩٤.

(٣) التاريخ الإسلامى (١٢/٣٨٨).

المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ونقصدهم على غرة فلعل الله ينصرنا عليهم، فأحضر جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم فوافقوه على ذلك، فلما كان الغد فعل عبد الله ما اتفقوا عليه، وأقام جميع شُجعان المسلمين في خيامهم، وخبولهم عندهم مسرجة، ومضى الباقون فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالاً شديداً، فلما أذن بالظهر همّ الروم بالانصراف على العادة، فلم يمكنهم ابن الزبير وألح عليهم بالقتال حتى أتعبهم، ثم عاد عنهم والمسلمون، فكل الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تعباً، فعند ذلك أخذ عبد الله بن الزبير من كان مستريحاً من شجعان المسلمين وقصد الروم فلم يشعروا بهم حتى خالطهم وحملوا حملة رجل واحد وكبروا فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون، وقُتل جرجير، قتله ابن الزبير، وانهزم الروم وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأخذت ابنة الملك جرجير سبية، ونزل عبد الله ابن سعد المدينة وحاصرها حتى فتحها ورأى فيها من الأموال ما لم يكن في غيرها فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف دينار، ولما فتح عبد الله مدينة سبيطة بث جيوشه في البلاد فبلغت قفصة فسبوا وغنموا وسير عسكرياً إلى حصن الأجم، وقد احتفى به أهل تلك البلاد فحصره وفتحها بالأمان فصالحه أهل إفريقية - كما مر معنا - ونفل عبد الله بن الزبير ابنة الملك وأرسله ابن سعد إلى عثمان بالبشارة بفتح إفريقية^(١)

هذا ولقد كان لعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما موقف عظيم في البطولة والشجاعة وقد ذكره الحافظ ابن كثير - رحمه الله - حيث قال: لما قصد المسلمون وهم عشرون ألفاً إفريقية، وعليهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وفي جيشه عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، صمد إليهم ملك البربر جرجير في عشرين ومائة ألف وقيل في مائتي ألف، فلما تراءى الجمعان أمر جيشه فأحاطوا بالمسلمين هالة، فوقف المسلمون في موقف لم ير أشنع منه ولا أخوف عليهم منه.

قال عبد الله بن الزبير: نظرت إلى الملك جرجير من وراء الصفوف وهو راكب

(١) الكامل لابن الأثير (٤٥/٣ - ٤٦).

على بردون، وجاريتان تظلاله بريش الطواويس، فذهبت إلى عبد الله بن سعد بن أبى سرح فسألته أن يبعث معى من يحمى ظهري، وأقصد الملك، فجهز معى جماعة من الشجعان، فأمر بهم فحموا ظهري وذهبت حتى خرقت الصفوف إليه، وهم يظنون أنى فى رسالة إلى الملك، فلما اقتربت منه أحس منى الشر، ففرَّ على بردونه فلحقته فصفعته برمحي، وذففت - يعنى أجهزت - عليه بسيفي، وأخذت رأسه فنصبته على رأس الرمح وكبرت، فلما رأى ذلك البربر فَرَّقُوا وَفَرُّوا كَفَرَارِ الْقَطَا، واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون فغنموا غنائم جمّة وأموالاً عظيمة، وسبيًا عظيمًا، وذلك ببلد يقال له: (سيطة) على يومين من القيروان.

قال ابن كثير: فكان هذا أول موقف اشتهر فيه أمر عبد الله بن الزبير رضى الله عنه وعن أبيه وأصحابهما أجمعين^(١).

إن ما قام به ابن الزبير نوعٌ من الطموح نحو المعالي المحفوفة بالأهوال، بدون تدرج سابق، لقد كان عمره آنذاك سبعًا وعشرين سنة، ولم يُذكر له قبل ذلك مواقف بطولية من نوع المغامرات، فكيف أقدم على هذه المغامرة الهائلة التى يغلب على الظن أو يكاد يقرب من اليقين فى عرف الناس العاديين أن فيها الهلاك؟

إن الاحتمالات التى يمكن أن ترد فى مثل هذه المغامرة أن يدور فى خلد المغامر أمران:

١ - أن ينجح فى هجومه فيقضى على ملك البربر، ويتفرق جنده كما هى عادة الكفار، وفى ذلك نصر مؤزر للمسلمين، وكفاية لهم عن خوض معركة شرسة قد تخوف منها المسلمون.

٢ - أن يتقبله الله شهيدًا، وفى ذلك الوصول إلى أسى الأمانى، وأبلغ الدرجات التى يطمح إليها الصالحون ويتنافسون على بلوغها، كما أن فى ذلك من إرهاب الكفار وإثارة الرعب فيهم الشيء الكثير، حيث سيتوقع الكفار أن المسلمين الذين سبقاتلونهم كلهم من هذا النوع الجريء الفتاك، إذ إنه يكفى المغامر شجاعة أن يقذف

(١) البداية والنهاية (٧/١٥٨).

بنفسه في أتون المعركة الملتهب، إنه لا يقدم على هذه الوثبة العالية إلا العظماء الذين يتصورون الجنة من وراء تلك الوثبة ويشتاقون للعيش فيها، ولقد كان ابن الزبير عندما وثب تلك الوثبة متجرداً من علائق الدنيا وأثقالها المثبطة، طامحاً إلى ما أعده الله تعالى للمجاهدين في سبيله على قدر طاقتهم سواء انتصروا على أعدائهم أو نالوا الشهادة^(١).

وقد جاء في هذا الخبر أن البربر بعدما قتل ملكهم فروا من جيش المسلمين كفرار القطا، وأن المسلمين تبعوهم يقتلون ويأسرون منهم من غير مقاومة، وإن هذا الخبر دليل على أن الله تعالى مع أوليائه المؤمنين، وأنه يقبض لهم إذا صدقوا ما يخلصهم من الشدائد، وينقذهم من المآرق، فإن المسلمين قد وقعوا في معضلة كبرى حيث أحاط بهم أعداؤهم الذين يفوقونهم ست مرات في العدد أو أكثر، وكان على المسلمين أن يقاتلوهم من كل جانب، وهو أمر عسير على جيش صغير بالنسبة لكثرة عدوه، كما جاء في قول الراوى: فوقف المسلمون في موقف لم ير أشنع منه ولا أخوف عليهم منه، فقبض الله لهم هذا البطل المغوار الذي أقدم على مغامرة نادرة المثال، فأنقذ الله به ذلك الجيش الإسلامي من عسرة كان يعاني منها^(٢).

ولا ننسى موقف الأبطال الذين كانوا مع عبد الله بن الزبير يحمون ظهره، فإنهم قد شاركوه في تلك المخاطرة، ولئن لم يذكر التاريخ أسماءهم فإن عملهم الفدائي قد بقى مخلداً في الدنيا برفع ذكر هذه الأمة حينما تفاخر بأبطالها، وفي الآخرة بما ينتظرون من وعد الله للمجاهدين الصادقين^(٣).

هذا وقد قدم المسلمون الغالى والرخيص في فتوحات إفريقية واستشهد منهم الكثير، ومن توفى منهم غازياً بإفريقية في خلافة عثمان أبو ذؤيب الهذلى وكان شاعراً مشهوراً، وهو الذى قال:

وإذا المنية أنشبت أظفارها الفيت كل تيمة لا تنفع

(١) التاريخ الإسلامى (١٢/ ٣٩٠).

(٢ - ٣) المصدر نفسه، (١٢/ ٣٩٢).

وتجلى للشامتين أريهم أنى لرب الدهر لا أنضعع^(١)

خامساً: معركة ذات الصواري

أصيب الروم بضربة حاسمة فى إفريقية، وتعرضت سواحلهم للخطر بعد سيطرة الأسطول الإسلامى على سواحل المتوسط من رودس حتى برقة، فجمع قسطنطين بن هرقل أسطولاً بناء الروم من قبل، فخرج بألف سفينة، لضرب المسلمين ضربة يثأر بها لخسارته المتوالية فى البر، فأذن عثمان رضى الله عنه لصعد العدوان، فأرسل معاوية مراكب الشام بقيادة بسر بن أرطاة، واجتمع مع عبد الله بن سعد بن أبى السرح فى مراكب مصر، وكانت كلها تحت إمرته، ومجموعها مائتا سفينة فقط، وسار هذا الجيش الإسلامى، وفيه أشجع المجاهدين المسلمين ممن أبلوا فى المعارك السابقة، فقد انتصر هؤلاء على الروم من قبل فى معارك عديدة، فشوكة عدوهم فى أنفسهم محطمة، لا يخشونه ولا يهابونه، على الرغم من قلة عدد سفنهم إذا قيست بعدد سفن عدوهم، خرج المسلمون إلى البحر وفى أذهانهم وقلوبهم إعزاز دين الله وكسر شوكة الروم، ولقد كان لهذه المعركة التاريخية أسباب منها:

- ١ - الضربات القوية التى وجهها المسلمون إلى الروم فى إفريقية.
- ٢ - إصابة الروم فى سواحلهم الشرقية والجنوبية بعد أن سيطر المسلمون بأسطولهم عليها.
- ٣ - خشية الروم من أن يقوى أسطول المسلمين فيفكروا فى غزو القسطنطينية.
- ٤ - أراد قسطنطين بن هرقل استرداد هبة ملكه بعد الخسائر المتتالية براً وعلى شواطئه فى بلاد الشام ومصر وساحل برقة.
- ٥ - كما أراد الروم خوض معركة ظنوا أنها مضمونة النتائج، كى تبقى لهم السيطرة فى المتوسط، فيحافظوا على جزره، فينطلقوا منها للإغارة على شواطئ بلاد العرب.

(١) تاريخ الإسلام للذهبي، عهد الخلفاء الراشدين، ص ٣٥٩.

٦ - محاولة استرجاع الإسكندرية بسبب مكانتها عند الروم، وقد ثبت تاريخياً مكاتبة سكانها لقسطنطين بن هرقل ملك الروم.
هذه بعض أسباب معركة ذات الصواري^(١).

* أين وقعت هذه المعركة؟

وهذا السؤال لم يجد المؤرخون له جواباً موحدًا، فالمراجع العربية لم تحدد مكانها، باستثناء مرجع واحد - على ما نعلم - صرح بالمكان بدقة، وآخر قال: اتجه الروم إليه.

* في (فتح مصر وأخبارها)^(٢)، ذكر الكتاب خطبة عبد الله بن سعد بن أبي سرح وقال: قد بلغني أن هرقل قد أقبل إليكم في ألف مركب ... ولم يحدد مكان المعركة.

* (الطبرى)^(٣)، في أخبار سنة ٣١ هـ، ربط حدوث ذات الصواري بما أصاب المسلمون من الروم في إفريقية، وقال: فخرجوا في جمع لم يجتمع للروم مثله قط.
* ولم يذكر (الكامل في التاريخ)^(٤)، مكان الموقعة أيضاً، ولكنه ربط سبب وقوعها بما أحرره المسلمون من نصر في إفريقية بالذات.

* وفي (البداية والنهاية)^(٥): فلما أصاب عبد الله بن سعد بن أبي سرح من أصاب من الفرنج والبربر ببلاد إفريقية، حميت الروم واجتمعت على قسطنطين بن هرقل، وساروا إلى المسلمين في جمع لهم لم ير مثله منذ كان الإسلام، خرجوا في خمسمائة مركب وقصدوا عبد الله بن سعد بن أبي سرح في أصحابه من المسلمين ببلاد المغرب.

(١) ذات الصواري، شوقي أبو خليل، ص ٦٠، ٦١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦١.

(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٩٠).

(٤) الكامل في التاريخ (٣/ ٥٨) طبعة البابى الحلبي القاهرة.

(٥) البداية والنهاية (٧/ ١٦٣).

* (تاريخ الأمم الإسلامية)^(١)، لم يذكر مكان الموقعة أيضاً^(٢)، وزجج الدكتور شوقى أبو خليل أن المعركة كانت على شواطئ الإسكندرية وذلك للأسباب التالية:

- كتاب (النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة) يذكر صراحة: غزوة ذات الصوارى فى البحر من ناحية الإسكندرية^(٣).

- تاريخ ابن خلدون يذكر^(٤): ثم بعث - ابن أبى السرح - السرايا ودوخ البلاد فأطاعوا وعاد إلى مصر، ولما أصاب ابن أبى السرح من إفريقية ما أصاب، ورجع إلى مصر خرج قسطنطين بن هرقل غازياً إلى الإسكندرية فى ستمائة مركب.

- ربطت المراجع العربية التى لم تحدد موقع المعركة، بين حدوث المعركة وبين ما خسره الروم فى شمال إفريقية بالذات.

- الأسطول الرومى صاحب ماض عريق، فهو سيد المتوسط قبل ذات الصوارى، فهو أجراً على مهاجمة السواحل الإسلامية، ولذلك رجح الدكتور شوقى أبو خليل مجيء الأسطول الرومى إلى شواطئ الإسكندرية؛ لاستعادتها بسبب مكانتها عند الروم ومكاتب أهلها للملكهم السابق، وهو بذلك يقضى أيضاً على الأسطول الفتى فى مهده، الذى شرع العرب فى بنائه بمصر، فبقى للروم السيطرة والسطوة فى مياه المتوسط وجزره.

- المراجع الأجنبية تعرف ذات الصوارى بموقعة (فونيكة)، وفونيكة هو ثغر يقع غرب مدينة الإسكندرية، بالقرب من مدينة مرسى مطروح فهى تحدد الموقع تماماً^(٥).

* أحداث المعركة:

قال مالك بن أوس بن الحدثان: كنت معهم - فى ذات الصوارى - فالتقينا فى

(١) (٢٩/٢)، للشيخ الحضرى.

(٢) ذات الصوارى، ص ٦٢.

(٣) النجوم الزاهرة (١/ ٨٠).

(٤) تاريخ ابن خلدون (٢/ ٤٦٨).

(٥) ذات الصوارى، ص ٦٤.

البحر، فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط، وكانت الريح علينا - أى لصالح مراكب الروم - فأرسلنا ساعة، وأرسلوا قريباً منا، وسكتت الريح عنا، قلنا للروم: الأمن بيننا وبينكم، قالوا: ذلك لكم، ولنا منكم^(١)، كما طلب المسلمون من الروم: إن أحببتم نزل إلى الساحل فنقتل، حتى يكتب لأحدنا النصر، وإن شئتم فبالبحر.

قال مالك بن أوس: فتحروا نخرة واحدة، وقالوا: بل الماء، الماء، الماء. وهذا يظهر لنا ثقة الروم بخبرتهم البحرية، وأملهم في النصر لممارستهم أحواله وفنونه، مرنوا عليه فأحكموا الدراية بثقافته وأنوائه، فطمعوا بالنصر فيه، خصوصاً وأنهم يعلمون حدثان عهد المسلمين به^(٢).

بات الفريقان تلك الليلة في عرض البحر، وموقف المسلمين حرج، فقال القائد المسلم لصحبه: أشيروا على؟ فقالوا: انتظر الليلة بنا لترتب أمرنا ونختبر عدونا، فبات المسلمون يصلون ويدعون الله - عَزَّ وَجَلَّ - ويذكرونه، ويتعجبون، فكان لهم دوى كدوى النحل على نغمات تلاطم الأمواج بالمراكب، أما الروم فباتوا يضربون النواقيس في سفنهم وأصبح القوم، وأراد قسطنطين أن يسرع في القتال، ولكن عبد الله بن سعد بن أبي سرح، لما فرغ من صلاته إماماً بالمسلمين للصبح، استشار رجال الرأي والمشورة عنده، فاتفق معهم على خطة رائعة: فقد اتفقوا على أن يجعلوا المعركة بريّة على الرغم من أنهم في عرض البحر، فكيف تم للمسلمين ذلك؟ أمر عبد الله جنده أن يقتربوا من سفن أعدائهم فاقتربوا حتى لامست سفنهم سفن العدو، فنزل الفدائيون، أو - رجال الضفادع البشرية في عرفنا الحالي - إلى الماء، وربطوا السفن الإسلامية بسفن الروم، ربطوها بحبال متينة، فصار ١٢٠٠ سفينة في عرض البحر، كل عشرة أو عشرين منها، متصلة مع بعضها فكانها قطعة أرض ستجرى عليها المعركة، وصَفَّ عبد الله بن سعد المسلمين على نواحي السفن يعظّم ويأمرهم بتلاوة القرآن الكريم، خصوصاً سورة الأنفال، لما فيها من معاني الوحدة والثبات والصبر^(٣).

(١) تاريخ الطبري (٥/٢٩٢).

(٢) ذات الصواري، ص ٦٦.

(٣) ذات الصواري، ص ٦٧.

ويدأ الروم القتال، فهم في رأيهم قد ضمنوا النصر عندما قالوا: بل الماء، الماء، وانقضوا على سفن المسلمين بدافع الأمل بالنصر، مستهدفين توجيه ضربة أولى حاسمة يحطمون بها شوكة الأسطول الإسلامي، فنقض الروم صفوف المسلمين المحاذية لسفنهم، وصار القتال كيفما اتفق وكان قاسياً على الطرفين، وسالت الدماء غزيرة، فاصطبغت بها صفحة الماء، فصار أحمر وترامت الجثث في الماء وتساقت فيه، وضربت الأمواج السفن حتى ألجأتها إلى الساحل، وقتل من المسلمين الكثير، وقتل من الروم ما لا يحصى، حتى وصف المؤرخ البيزنطي (ثيوفانس) هذه المعركة بأنها كانت يرموكاً ثانية على الروم^(١)، ووصفها الطبري بقوله: إن الدم كان غالباً على الماء في هذه المعركة^(٢)، حاول الروم أن يغرقوا سفينة القائد المسلم عبد الله بن أبي السرح، كي يبقى جند المسلمين دون قائد، فتقدمت من سفينة سفينة رومية، ألقت إلى سفينة عبد الله السلاسل لتسحبها، وتنفرد بها، ولكن علقمة بن يزيد الغطيفي أنقذ السفينة والقائد، بأن ألقي بنفسه على السلاسل وقطعها بسيفه^(٣).

وصمد المسلمون رغم كل شيء، وصبروا كعادتهم في معاركهم، فكتب الله - عزَّ وجلَّ - لهم النصر بما صبروا، واندحر ما تبقى من الأسطول الرومي، وكاد الأمير قسطنطين أن يقع أسيراً في أيدي المسلمين، كما ذكر ابن عبد الحكم، لكنه تمكن من الفرار لما رأى قوته تنهار وجثث جنده على سطح الماء تلقى بها الأمواج إلى الساحل، لقد رأى أسطوله الذي تأمل فيه خيراً ونصراً وإعادة كرامة، يغرق قطعة بعد قطعة، ففر مدبراً والجراحات في جسمه، والحسرة تأكل فؤاده، يجر خيبة وفشلاً، فوصل جزيرة صقلية^(٤). وألقت به الريح هناك، فسأله أهلها عن أمره، فأخبرهم فقالوا: شمت النصرانية، وأفنت رجالها، لو دخل المسلمون لم نجد من يردهم^(٥)، فقتلوه، وخلوا من كان معه من في المراكب^(٦).

(١) ذات الصواري، ص ٦٧.

(٢) تاريخ الطبري (٢٩٣/٥).

(٣) ذات الصواري، ص ٦٨.

(٤) تاريخ ابن خلدون (٤٦٨/٢).

(٥) المصدر نفسه (٤٦٨/٢).

(٦) ذات الصواري، ص ٦٨.

✽ نتائج ذات الصواري:

١ - كانت ذات الصواري أول معركة حاسمة في البحر خاضها المسلمون، أظهر فيها الأسطول الفتى الصبر والإيمان والجلد والفكر السليم، بما تفتق عنه الذهن الإسلامي من خطة جعلت المعركة صعبة على أعدائهم، فاستحال عليهم اختراق صفوف المسلمين بسهولة، كما استخدم المسلمون خطاطيف طويلة يجرون بها صواري وشرع سفن الأعداء، الأمر الذي انتهى بكارثة بالنسبة للروم.

٢ - كانت ذات الصواري حداً فاصلاً في سياسة الروم إزاء المسلمين، فأدركوا فشل خططهم في استرداد هيبته، أو استرجاع مصر أو الشام، وانطلق المسلمون في عرض هذا البحر، الذي كان بحيرة رومية، وانتهى اسم (بحر الروم) إلى الأبد واستطاع المسلمون فتح قبرص وكريت وكورسيكا وسردينيا وصقلية وجزر البليار، ووصلوا إلى جنوة ومرسيليا.

٣ - قتل قسطنطين، فتولى ابن قسطنطين الرابع من بعده، وكان حدثاً صغير السن، مما جعل الظروف مواتية لقيام حملة بحرية وبرية إسلامية تستهدف عاصمة روما (القسطنطينية) فيما بعد.

٤ - الإعداد الروحي قبل المعركة، أو ما يسمى بالتوجيه المعنوي في أيامنا هذه، له قيمته في تحقيق النصر، حيث تتجه القلوب إلى الله بصدق، فهذا المؤمن الذي بات ليله في تهجد وذكر، يستمد العون من الله، من عظمته وعزته، بعد أن هيا الأسباب، يلقي الأعداء بروح عالية لا يهاب الموت، فالله أكبر من كل شيء، وهذه المعارك التي نصف أحداثها التاريخية، هي وصفة طيبة نعرضها للتطبيق والنهج، لنستفيد منها في حياتنا، فحياة الصحابة ما هي إلا للقدوة، وسيرة للأتباع^(١).

٥ - أصبح البحر المتوسط بحيرة إسلامية، وصار الأسطول الإسلامي سيد مياه البحر المتوسط، وهذا الأسطول ليس للتسلط والقرصنة، بل للدعوة إلى الله وكسر شوكة المشركين، ونشر الحضارة المثبقة عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

(١) ذات الصواري، ص ٧١، ٧٢.

٦ - عكف المسلمون على دراسة علوم البحرية، وصناعة السفن، وكيفية تسليحها، وأسلوب القتال من فوقها، وعلوم الفلك المتصلة بتسييرها فى البحار ومعرفة مواقعهم على المصورات البحرية المختلفة - فيما بعد - فعرفوا الأسطرلاب (البوصلة الفلكية) وطورها إلى المدى الذى استفاد منه بعد ذلك البحارة الغربيون أمثال كرسطوف كولومبس، أمريكو فيسبوشى فى اكتشافاتهم^(١).

٧ - لقد كانت هذه المعركة مظهرًا من مظاهر تفوق العقيدة الصحيحة الصلبة على الخبرة العسكرية والتفوق فى العدد والعدد، فلقد كان الروم هم أهل البحر منذ القدم، وقد مروا بتجارب طويلة فى الحروب البحرية، بينما كان المسلمون حديثى عهد بركوب البحر والقتال البحرى، ولكن الله - تعالى - أعلى المسلمين عليهم برغم التفوق المذكور؛ لأنه سبحانه قد سخر أولئك المؤمنين لنشر دينه وإعلاء كلمته فى الأرض، وإن مما يُشاد به فى هذه المعركة قوة قائدها عبد الله بن سعد بن أبى سرح ورباطة جأشه، ومقدرته الجيدة على إدارة الحروب، وهى بعد ذلك لون من ألوان بسالة المسلمين واستقتالهم فى الحروب فى سبيل إعزاز دينهم ورفع شأن دولتهم^(٢).

سادساً: أهم الدروس والعبر والفوائد فى فتوحات عثمان رضى الله عنه:

١ - تحقيق وعد الله للمؤمنين:

قال ابن كثير فى حديثه عن عثمان بن عفان رضى الله عنه: ... ففتح الله على يديه كثيراً من الأقاليم والأمصار، وتوسعت المملكة الإسلامية، وامتدت الدولة المحمدية، وبلغت الرسالة المصطفوية فى مشارق الأرض ومغاربها، وظهر للناس مصداق قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ

(١) ذات الصوارى، ص ٧٦.

(٢) التاريخ الإسلامى (١٢/٤٠٧).

كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣] وقوله ﷺ: «إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله»^(١). وهذا كله تحقق وقوعه وتأكد وتوطد في زمان عثمان رضي الله عنه^(٢).

٢ - التطور في فنون الحرب والسياسة:

كانت الحروب تنشأ بين الشعوب من أجل قطعة من الأرض، يراد تملكها أو بسبب اعتداء يقع على بلد أو قبيلة، ولكنها في عهد النبوة والعهد الراشدي أصبحت بسبب المبادئ فالمسلمون يريدون أن تكون عقيدتهم هي السائدة والمهيمنة في الأرض، فاصطدمت بعقائد فاسدة ومنحرفة كعقائد المشركين والمجوس، على أن هذا لم يكن كل شيء في التطور الحربي، بل نجد لونا جديداً آخر وهو ما كان يعرضه المجاهدون المسلمون على أعدائهم من: الإسلام أو الجزية أو المناجزة ونتج عن تلك الفتوح سياسة فذة أرضت جميع الشعوب، إلا من كان في قلبه حقداً على العدل والمساواة ممن كانت تحدثهم نفوسهم بالفتن والعصيان، وهؤلاء اضطروا المسلمين أحياناً إلى الشدة معهم والتنكيل بهم^(٣).

٣ - بدء التجنيد الإلزامي في عهد عمر رضي الله عنه واستمراره في عهد عثمان رضي الله عنه:

كانت معركة القادسية من أسباب اتخاذ الفاروق لقرار التجنيد الإلزامي، فقد أمر عماله على الأقاليم بإحضار - كل فارس ذي نجدة أو رأى أو فرس أو سلاح، فإن جاء طائعاً وإلا حشروه حشراً وقادوه مقاداً، واستعجلهم في ذلك بحزمه المشهور قائلاً: لا تدعوا أحداً إلا وجهتموه إلى، والعجل العجل^(٤)، وكان عمر يفكر في التجنيد الإلزامي الموقوف للجهاد، فلما دون الديوان، ورتب للمسلمين أرزاقهم

(١) مسلم، كتاب الفتن، رقم ٢٩١٨ - ٢٩١٩.

(٢) البداية والنهاية (٧/٢١٦).

(٣) عصر الخلفاء الراشدين، د. عبد الحميد بخيت، ص ٢١٦.

(٤) إتمام الوفاء، ص ٧٠.

السنية، خرجت فكرته إلى حيز الوجود، واقتترنت نشأة الديوان بنشأة التجنيد النظامى الرسمى، وحُدِّدت للجنود النظاميين عطاياهم ورواتبهم من بيت مال المسلمين، وعندما أذن عثمان لمعاوية بالغزو بحراً أمره أن يخير الناس ولا يكرههم، حتى لا يذهب أحد إلى هذا الضرب من الغزو إلا طائِعاً مختاراً، أما التجنيد برّاً لإتمام حركة الفتوح فقد ظل في عهده إلزامياً على أصحاب الرواتب والأرزاق من الجنود النظاميين^(١).

٤ - اهتمام عثمان بحدود الدولة الإسلامية:

ترتب على توسع الدولة الإسلامية في عهد عثمان رضى الله عنه الاستمرار في سياسة تحصين الثغور للحفاظ على حدود الدولة الإسلامية من مهاجمة الأعداء سواء كان ذلك بشحنها بالجنود المرابطين أو بناء الحاميات الدفاعية المختلفة بها، فكان أول كتاب كتبه عثمان بن عفان رضى الله عنه في خلافته لأمراء الأجناد في الثغور لحماية حدود الدولة الإسلامية، قوله: أما بعد فإنكم حماة المسلمين وذادتهم وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا بل كان على ملأ منا ولا يلغنى عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون، فإنى أنظر فيما أكرمنى الله النظر فيه، والقيام عليه^(٢)، وتسهلاً وتيسيراً للعملية الإدارية جمع الخليفة عثمان رضى الله عنه لمعاوية بن أبى سفيان الشام والجزيرة، وولاية ثغورهما في إدارة موحدة، وكلفه بغزو ثغر شمشاط بنفسه أو أن يولى ذلك من يرتضيه من كبار قواده من أصحاب الخبرة والشجاعة الراغبين في الجهاد والحرب مع الروم^(٣)، كما كتب أيضاً لمعاوية بن أبى سفيان أن يلزم ثغر أنطاكية قوماً وأن يقطعهم القطائع به ففعل ذلك^(٤)، وكان رضى الله عنه يهتم بأمر الثغور ويبحث من يستعلم له عن بعضها^(٥)،

(١) النظم الإسلامية، لصبحى الصالح، ص ٤٨٩.

(٢) تاريخ الطبرى (٢٤٤/٥).

(٣) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (٤٦٦/٢).

(٤) فتوح البلدان (١٧٥/١).

(٥) الخراج، لابن قدامة، ص ٤١٣.

وعندما غزا معاوية بن أبي سفيان عمورية وجد الحصون التي فيها بين ثغر أنطاكية وثر طرسوس خالية من مقاتلة الروم، فجعل بها جماعة من جند الشام والجزيرة وقسرين وأمرهم بالوقوف عندها لتحمل ظهره أثناء انسحابه وانصرافه من غزواته، ثم أغزى بعد ذلك بسنة أو سنتين يزيد بن الحر العبسي^(١) الصائفة وأمره بفعل الشيء نفسه، وكانت ولاية الصوائف والشواتي إذا دخلوا بلاد الروم فعلوا ذلك حيث يخلفون بها جنداً كثيفاً إلى خروجهم من أرض العدو^(٢)، وقد أبلى معاوية بن أبي سفيان في أثناء إدارته للسواحل الشامية وفي تحصينها بلاءً حسناً^(٣).

وكتب عثمان رضي الله عنه لعبد الله بن سعد بن أبي السرح يأمره بالحفاظ على ثغر الإسكندرية بإلزام الجند المراقبة به وأن يجري عليهم أرزاقهم وأن يعقب بين المرابطين من أجل أنه لا يضر بهم التججير فقال له: قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بالإسكندرية وقد نقضت الروم مرتين فألزم الإسكندرية مرابطيها ثم أجر عليهم أرزاقهم وأعقب بينهم في كل ستة أشهر^(٤)، وكان من عادة قادة الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه إذا تقدموا في الفتوح واستولوا على حصون العدو قاموا بترميمها كمن سبقهم من القادة، ثم إسكانها جند المسلمين من المرابطين بالإضافة إلى استحداثهم لتحصينات دفاعية جديدة، فمن تلك الحصون التي قام بترميمها معاوية بن أبي سفيان حصون الفرات وهي سميساط^(٥)، وملطية^(٦)، وشمشاط، كمخ^(٧)، وقاليقلا^(٨)، وهي حصون استولى عليها المسلمون عند فتحهم لأرمينية في عهد عثمان رضي الله عنه وقاموا بترميمها وإسكانها الجند^(٩).

(١) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (٢/٤٦٧).

(٢، ٣) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (٢/٤٦٧).

(٤) فتوح مصر، ص ١٩٢.

(٥) سميساط: مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات.

(٦) ملطية: من بلاد الروم مشهورة مذكورة تناخم الشام وهي للمسلمين.

(٧) كمخ: مدينة بالروم بينها وبين أرزنجان يوم واحد. معجم البلدان (٤/٤٧٩).

(٨) قاليقلا: بأرمينية العظمى من نواحي خلاط ثم من نواحي منازجرد.

(٩) من تاريخ التحصينات، لمحمد عبد الهادي، ص ٤٣٤.

ففى قالقلا قام القائد حبيب بن مسلمة الفهرى بإسكان ألفى رجل وأقطعهم بها القطائع وجعلهم مرابطين بها^(١)، وقد كلف الخليفة عثمان رضى الله عنه القائد حبيب ابن مسلمة بأن يقيم بثغور الشام والجزيرة لإدارتها وحمايتها^(٢)، وعندما فتح البراء بن عازب رضى الله عنه ثغر قزوين رتب فيهم خمسمائة رجل من جند المسلمين، وعين عليهم قائداً وأقطعهم أرضاً وضياعاً لا حق فيها لأحد فعمروا وأجروا أنهارها وحفروا آبارها^(٣)، وحين فتح سعيد بن العاص طميسة^(٤)، جعل بها مرابطة من ألفى رجل وعين عليهم قائداً^(٥)، إلى غير ذلك من التحصينات التى أنشئت بالثغور فى إدارة الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه والتى كانت تشحن بالجند لحماية حدود الدولة الإسلامية^(٦)، وعنى الخليفة عثمان رضى الله عنه فى إدارته بأمر الصوائف والشواتى حيث عمل على تسييرها وتسهيل أمرها فى كل عام وكان يتولاها كبار قادته وولاته أمثال معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه الذى بنى جسراً بمنبج^(٧)، لمرور الصوائف عليه فلم يكن قبل إذ. وقد فوض الخليفة عثمان رضى الله عنه واليه معاوية فى غزو الروم وتولى قيادة الصائفة من يختاره، فولى معاوية سفيان بن عوف الذى لم يزل على الصوائف فى عهد عثمان رضى الله عنه، ولم تقتصر حملات الصوائف والشواتى على الحدود البرية بل شملت كذلك البحر فى عهد عثمان رضى الله عنه^(٨).

٥ - قسمة الغنائم بين أهل الشام والعراق:

استطاع حبيب بن مسلمة أن يهزم الروم فى أرمينية قبل وصول مدد الوليد بن عقبة من الكوفة، وغنم أهل الشام غنائم كثيرة، وبعد وصول مدد أهل الكوفة اختلفوا فى

(١) فتوح البلدان (١/ ٢٣٤).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٢٤١).

(٣) الإدارة العسكرية (٢/ ٤٦٩).

(٤) طميسة: بلدة من سهول طبرستان.

(٥) الإدارة العسكرية (٢/ ٤٦٩).

(٦) المصدر نفسه (٢/ ٤٧٠).

(٧) منبج: بلد قديم.

(٨) الإدارة العسكرية (٢/ ٤٧٠).

أمر الغنائم مما جعل حبيباً يكتب بذلك إلى معاوية رضى الله عنه، فكتب معاوية إلى الخليفة عثمان رضى الله عنه يخبره بذلك فحكم عثمان بن عفان رضى الله عنه على أهل الشام أن يقاسموا أهل العراق ما غنموا من تلك الغنائم، فلما ورد كتاب الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه على حبيب بن مسلمة قراه على جند أهل الشام، فقالوا: السمع والطاعة لأمر المؤمنين، ثم إنهم قاسموا أهل العراق وغنموا^(١).

٦ - الحرص على وحدة الكلمة في مواجهة العدو:

في عهد عثمان رضى الله عنه استخلف عبد الله بن عامر على خراسان قيس بن الهيثم السلمى، حيث خرج منها فجمع (قارن) جمعاً كثيراً من ناحية الطبيين وأهل بادغيس وهراة وقسعتان فأقبل في أربعين ألفاً فاستشار قيس بن الهيثم عبد الله بن خازم قائلاً له: ما ترى؟ قال: أرى أن تخلى البلاد فإني أميرها ومعى عهد من ابن عامر، إذا كانت حرب بخراسان فأنا أميرها - وأخرج كتاباً قد افتعله عمداً - فكره قيس مشاغبه وخلاه والبلاد^(٢)، أحب قيس بن الهيثم بفعله هذا أن يجمع الكلمة بدلاً من تفريقها حتى لا يحدث الفشل والوهن للجنود، فتكون الهزيمة وقد تم النصر للمسلمين على الأعداء بحمد الله^(٣).

٧ - شرط ما يحتاج إليه الجنود في بنود الصلح:

في عهد عثمان رضى الله عنه زادت الفتوحات الإسلامية اتساعاً مما جعل قاداته يشترطون في بعض عهودهم للصلح بأن تكون من المواشى والطعام والشراب لإعداد ما يحتاج إليه الجيش من زاد وتموين وميرة حتى تساعد في فتوحاتهم، فلا يتكلفون عناء حمل الميرة من القيادة المركزية ويستغنون عن طلبها؛ ليكونوا على الحرب أوفر وعلى منازلة العدو أقدر^(٤).

(١) الفتوح ابن أعمش (١/٣٤١، ٣٤٢).

(٢، ٣) الإدارة العسكرية (١/١٨٩) نقلاً عن تاريخ الطبرى.

(٤) تاريخ اليعقوبى (٢/١٦٦، ١٦٧).

٨ - جمع المعلومات عن الأعداء:

استمرت الفتوحات الإسلامية في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه وكان رضى الله عنه يهتم بالأخبار ويتقصاها بنفسه^(١)، وسار قاداته على منوال من سبقهم من القادة بالاعتناء بأمر العيون وتقصى أخبار العدو^(٢)، كما أنهم جعلوها شرطاً من شروط المعاهدات بينهم وبين المعاهدين حيث طلبوا منهم بأن ينصحوا وينذروا المسلمين بسير عدوهم إليهم ومعاونتهم بأن يكونوا عليهم جواسيس وإبلاغ المسلمين بتحركاتهم^(٣).

٩ - عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى من قادة الفتوح فى عهد عثمان:

كان عبد الرحمن قائداً عقدياً من الطراز الرفيع، وكان لتمسكه الشديد بعقيدته موضع ثقة رؤسائه ومرؤوسيه على حد سواء، بالإضافة إلى شجاعته وإقدامه وعلمه بأمور الدين؛ لذلك بقى قائداً لمنطقة (باب الأبواب) ووالياً عليها منذ وفاة سُرَاقَة بن عمرو حتى استشهد، ولم يعزل من منصبه على الرغم من تبدل الخلفاء وتغير الولاة والقادة فى الكوفة مرجع عبد الرحمن المباشر، وكان عبد الرحمن يؤمن بوسائل حرب الفروسية الشريفة، فلا يخون ولا يغدر ولا يضرب من الخلف^(٤)، وكان لسيرته الحسنة فى منطقة (باب الأبواب) وجنوب بحر الخزر وغربه أثرٌ أبقى أثره فى استقرار الأمور واستتباب الأمن والنظام فى تلك الربوع، فأصبحت تلك المناطق قاعدة أمامية لنشر الإسلام والفتح شمالاً، فثبت الإسلام فى تلك الأصقاع النائية فى وجه مختلف المحن والتيارات منذ أربعة عشر قرناً حتى اليوم^(٥)، ومن مواقفه الخالدة التى سطرها على صفحات التاريخ، عندما خرج بالناس حتى قطع (الباب) فقال له الملك شهريار: ماذا تريد أن تصنع؟ قال: أريد (بَلَنْجَر) والترك. قال: إنا لنرضى منهم أن يدعونا من دون (الباب) قال عبد الرحمن: لكننا لا نرضى منهم ذلك حتى نأتيهم فى ديارهم.

(١) الطبقات (٥٩/٣).

(٢، ٣) الإدارة العسكرية (٤٠٣/١).

(٤) قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية، ص ١٥٥.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٥٦.

وتالله إن معنا لأقواماً لو يأذن أميرنا في الإمعان لبلغت فيهم (الرّدم)^(١)، قال الملك: وما هو؟ فأجابه عبد الرحمن: أقوام صحبوا رسول الله ﷺ، ودخلوا في هذا الأمر بنية، كانوا أصحاب حياء وتكرم في الجاهلية، فازداد حياؤهم وتكرمهم، فلا يزال هذا الأمر دائماً لهم، ولا يزال النصر معهم حتى يغيّرهم من يغلبهم، وحتى يلفتوا عن حالهم^(٢)، وقد غزا عبد الرحمن (بلنجر) غزاة في عهد عمر بن الخطاب، فقال الترك: ما اجتراً علينا إلا ومعه الملائكة فمنعهم من الموت، فهرب منه الترك وتحصنوا فرجع بالغنيمة والظفر، بعد أن بلغ بخيله (البيضاء) على رأس مائتي فرسخ من (بلنجر)، وعادوا ولم يقتل منهم أحد^(٣). ومن الواضح أن معنويات المسلمين كانت عالية جداً، لتتابع انتصاراتهم، ولتمسكهم بدينهم، كما أن معنويات الأمم التي حاربوها كانت منهارة؛ لأن المسلمين غلبوا الأمم التي قاتلوها، لذلك هرب الأتراك من المسلمين وتحصنوا، فلم يحدث قتال فعلي في هذه الغزوة، فلم يسقط من المسلمين شهيد^(٤)، لقد كان عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي على جانب عظيم من التقوى والخلق الكريم، وكان تصرفه مع المغلوبين، له الأثر في استتباب الأمن واستقرار النظام وانتشار الإسلام، فقد كان وفياً غاية الوفاء أميناً غاية الأمانة، فقد أرسل ملك (الباب) رسولاً إلى ملك (الصين) مع هدايا - وذلك قبل أن يفتح المسلمون بلاده - فعاد الرسول من رحلته بعد فتح المسلمين لتلك البلاد، وكان مع الرسول العائد هدايا من ملك الصين، بينها ياقوتة حمراء ثمينة، وكان ملك (الباب) حين عودة رسوله في مجلس عبد الرحمن، فتناول الملك من رسوله تلك الياقوتة ثم ناولها عبد الرحمن، ولكن عبد الرحمن ردها فوراً إلى الملك بعد أن نظر إليها، فهتف الملك متأثراً، وقال: «لهذه - يعني الياقوتة - خير من هذا البلد - أي باب الأبواب - وإيم الله لأنتم أحب إلّى حكاماً من آل كسرى، فلو كنتُ في سلطانهم، ثم

(١) الرّدم: قيل سد الصين.

(٢) الكامل لابن الأثير (٢٩/٣ - ٣٠). وتاريخ الطبري (١٤٦/٥).

(٣) تاريخ الطبري (١٤٦/٥).

(٤) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، ص ١٥٠.

بلغهم خبرها، لانتزعوها مني!!! وإيم الله، لا يقوم لكم شيء ما وفيتم ووفى ملككم الأكبر^(١).

كان من حق ملك مدينة (الباب) وما حولها أن يعجب أشد العجب ويدهش أشد الدهشة بأمانة القائد المسلم ووفائه، فقد عاش هذا الملك عمره كله في دوامة عنيفة من الخيانة وفي جو مشحون بالغدر، فلما رأى أمانة المسلمين المثالية ووفاءهم المطلق، لم يتمالك نفسه أن نسى ملكه المضاع وملوكه الغابرين، فعبّر عن شعوره بكلمات خارجة من أعماق قلبه إعجاباً بما يرى ويسمع من أمانة ووفاء^(٢).

كان عبد الرحمن يعلم أن الاستيلاء على الياقوتة التي لا تقدر بثمن ليس من حقه شخصياً ولا من حق بيت مال المسلمين، فكانت تلك الياقوتة والتراب عنده سيان؛ فقد كان عبد الرحمن كريماً مضيافاً، شهماً غيوراً، ورعاً تقياً، متفهماً في الدين تقياً، لا يملك شيئاً من حطام الدنيا على الرغم من أنه قضى أكثر عمره غازياً ووالياً، وقد استشهد في عام اثنين وثلاثين للهجرة في منطقة (بلنجر)^(٣)، ويعتبر عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي من قادة الفتح في عهد عثمان رضى الله عنه، وقد كانت له صحة وقد أسلم متأخراً.

١٠ - سلمان بن ربيعة الباهلي من قادة الفتح في عهد عثمان:

كان هذا الصحابي الجليل أول من قضى بالكوفة، فقد بعثه عمر بن الخطاب رضى الله عنه قاضياً بالكوفة قبل شريح، فلما ولى سعد بن أبي وقاص الكوفة الولاية الثانية في أيام عثمان بن عفان استقضى سلمان أيضاً، وقد شهد القادسية فقضى بها، ثم قضى بـ (المدائن)، وليس كل إنسان يصلح للقضاء خاصة في أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أو يصلح لأهل الكوفة التي كانت حينذاك تعجّ برجال العرب وكبار الصحابة من جهة، وبأخلاق شتى من أمم وأقوام وقبائل مختلفة من جهة

(١) تاريخ الطبرى (١٤٨/٥).

(٢) قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية، ص ١٥٤.

(٣) قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية، ص ١٥٤.

أخرى، وهذا دليل على غزارة علم سلمان بالدين الخفيف واستقامته وعدله وتدينه، وتمتعه بعقلية راجحة متزنة، وشخصية قوية نافذة، مما جعله موضع ثقة الناس جميعاً، كما أنه تولى المقاسم في فتح (المدائن) وفي غزوة (الباب) أيضاً، مما يدل على تمتعه بالنزاهة المطلقة، كان رجلاً صالحاً يحج كل سنة، روى عنه بعض كبار التابعين، وكان مثلاً نادراً للخلق القويم، كريماً مضيافاً شهماً غيوراً وفيّاً صادقاً محباً للخير، يحب للناس ما يحب لنفسه، ولم يترك حين استشهاده ديناراً ولا داراً، بعد أن عاش كل حياته مجاهداً وقاضياً وأميراً.

وقد كان متفوقاً على زملائه في الصفات القيادية، فعندما بعث عثمان بن عفان رضي الله عنه كتاباً إلى الوليد بن عقبة عامله على الكوفة، يأمره به أن يرسل نجدة من أهل الكوفة إلى أهل الشام بقيادة رجل ممن تُرَضَى نَجْدَتُهُ وبأسه وشجاعته وإسلامه، لم يتردد الوليد لحظة في اختيار سلمان لهذا الواجب البالغ الخطورة، فاختاره من بين عدد كبير من القادة أصحاب الفتوح والأيام الذين كانوا معه أو كانوا في الكوفة، ذلك لأن سلمان كان حقاً مثلاً رائعاً من أمثلة النجدة والبأس والشجاعة بالإضافة إلى ورعه وتقواه، لقد كان شجاعاً مقداماً سريعاً إلى النجدة خبيراً بفنون الحرب لممارسته الطويلة لها وله تجارب طويلة في قيادة الرجال، وكان أبصر بالمضارب من الجازر بمفاصل الجزور^(١)، مما يدل على أنه كان من الرماة الماهرين، وكان ماهراً في الفروسية، خبيراً بالخيال، وكان يلي الخيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان عمر قد أعد في كل مصر من أمصار المسلمين خيلاً كثيرة معدة للجهاد، وكان في الكوفة أربعة آلاف فرس، فإذا داهم العدو الثغور الإسلامية، ركبها المسلمون المجاهدون وساروا مجدين لقتاله^(٢)، وكان سلمان يتولى الخيل بالكوفة^(٣).

وكان شجاعاً في فروسية، قال سلمان: «قتلت بسيفي هذا مائة مستلثم^(٤)، كلهم

(١) تهذيب ابن عساکر (٦/٢١٠). وتاريخ الطبری (٥/٣٠٩).

(٢) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، ص ١٦٩.

(٣) أسد الغابة (٢/٣٢٧).

(٤) المستلثم: الجندي الذي لبس عدته وأصبح جاهزاً للقتال.

يعبد غير الله، ما قتلت رجلاً منهم صبراً^(١).

إنه لا يقتل حتى عدوه الكافر بالله - الذى يعبد غير الله - لا يقتله فى ساحة القتال صبراً، بل يُنذره ثم يصاله مصالاة الأنداد، ويقتله عندما يجد فرصة لقتله، فلا يكون هذا القتل غدرًا، ولا يكون صبراً^(٢)، لقد كان مثلاً للمجاهد الصادق المحتسب، الذى يجاهد لتكون كلمة الله هى العليا، لا يبالى على أى جنب كان فى الله مصرعه، وأخيراً سقط مخرجاً بدمائه ولم يسقط السيف من يده، إنه قدوة حسنة لكل جندى ولكل قائد فى ماضيه المشرف المجيد، وفى أعماله الفذة الخالدة^(٣)، هذا وقد استشهد سنة اثنتين وثلاثين هجرية أو سنة ثلاث وثلاثين هجرية^(٤)، «الفقيه المحدث، القاضى العادل، الأمين النزى، الإدارى الحازم، الفارس المغوار، البطل الشهيد، القائد الفاتح سلمان بن ربيعة الباهلى»^(٥).

١١ - حبيب بن مسلمة الفهرى من قادة الفتوح فى عهد عثمان:

كان حبيب على صغر سنه يتنقل من ساحة عمليات إلى ساحة عمليات أخرى، فاتحاً مرة، ومدداً مرة أخرى، وكان النصر حليفه فى كل معركة خاضها، قدم على النبى ﷺ وهو بالمدينة غارياً، وكان يومئذ صغيراً، وشهد غزوة تبوك تحت لواء الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، وبهذه الغزوة بدأ جهاده وهو يناهز العشرين من عمره القصير^(٦)، وحين رآه عمر بن الخطاب صلب العود وقوى البدن، جربه تجربة عملية ليرى أى نوع من الرجال هو، فعرض عليه خزائن المال وخزائن السلاح، فاختار السلاح وعفاً عن المال، وتفضل السلاح على المال من مزايا القائد الذى يتغلغل حب الجندية فى أعماق نفسه، وقد تولى قيادة كردوس فى معركة (اليرموك) الحاسمة وهو ابن أربع وعشرين سنة، مما يدل على ظهور سماته القيادية مبكراً وهو فى ريعان الشباب، وولاه عمر بن الخطاب رضى الله عنه عجم (الجزيرة) إدارياً

(١) الاستيعاب (٢/ ٦٣٣).

(٢) قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية، ص ١٧٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٧١.

(٤) قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية، ص ١٧٢.

(٥) كان عمره يوم تولى منصب قيادة منطقة الجزيرة وإدارتها ٢٨ سنة.

وقائداً، وليس من السهل أن يولى عمر كل إنسان مثل هذا المنصب الرفيع؛ لأن عمر كان يلتزم بصفات معينة في القائد قل أن تتوفر في الرجال، وأخيراً ولاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه (أرمينية) و (أذربيجان)، وهى مناطق شاسعة وقيادة مهمة للغاية، نظراً لشدة شكيمة أهلها ولبعدها عن قواعد المسلمين الرئيسية والمتقدمة^(١)، ومارس القيادة والإدارة في عهد عثمان رضي الله عنه، ولقد كان شجاعاً غاية الشجاعة، مقداماً غاية الإقدام: لما توجه لقتال (الموريان) كان فى ستة آلاف، وكان (الموريان) فى سبعين ألفاً، فقال حبيب لمن معه: إن يصبروا وتصبروا فأنتم أولى بالله منهم، وإن يصبروا وتجزعوا فإن الله مع الصابرين، ولقيهم ليلاً، فقال: اللهم أجّل لنا قمرها، واحبس عنا مطرها، واحقن دماء أصحابي، واكتبهم شهداء، ففتح الله له^(٢)، فكان من أسباب انتصاره على عدوه بالإضافة إلى عامل الإيمان هو الهجوم الليلي الذى باغت به العدو وجعل معنوياته تنهار ثم يولى الأدبار^(٣)، وكان مثلاً شخصياً حياً لرجال من الشجاعة والإقدام، فقد كان يقود رجاله من الأمام: يقول لهم: اتبعونى، ولا يبقى فى الخطوط الخلفية مؤثراً السلامة والعافية، وحين عزم أن يبيت (الموريان) سمعته امرأته يذكر ذلك، فقالت له: وأين الموعد؟ قال: سرادق موريان أو الجنة، وبيت حبيب عدوه وقتل من صادفه فى طريقه؛ فلما أتى السرادق، وجد امرأته قد سبقته إليها^(٤)؛ فلم يكن وحده بطلاً يضرب لرجال بأعماله البطولية أروع الأمثال، بل كانت امرأته بطلة يقتفى الأبطال آثارها فى التضحية والفداء^(٥)، وكان يستشير رجاله ويتقبل مشورتهم، وكان لا يستأثر بالرأى دونهم، بل كان ينتصت ليتلقف آراء رجاله، ويطبق ما رآه حسناً، وينفذ ما يجده صواباً، بالإضافة إلى عقد مؤتمرات الشورى قبل المعارك وفى أثنائها وبعدها، فقد سمع يوماً أحد رجاله يقول: لو كنت ممن يسمع حبيب مشورته، لأشرت عليه بأمر يجعل الله فيه لنا وله نصراً وفرجاً إن شاء الله، واستمع حبيب لقوله، فقال أصحابه: وما مشورتك؟ فقال: أشير عليه أن

(١) تولى (أرمينية) و(أذربيجان) وعمره ثلاث وثلاثون سنة.

(٢) تهذيب ابن عساكر (٣٧/٤).

(٣) قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية، ص ١٨٩.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) المصدر السابق نفسه.

ينادى بالخيول فيقدمها، ثم يرتحل بعسكره فيتبع خيله، وتوافيه الخيل فى جوف الليل وينشب القتال، ويأتيهم حبيب بسواد عسكره مع الفجر، فيظنون أن المدد قد جاءهم، فيرعبهم الله، فيهزمهم بالرعب^(١)، ونادى حبيب بالخيول، فوجهها بليلة مقمرة مطيرة، ثم ارتحل وراء خيوله، ولكنه عاد إلى عدوه فى السحر، فحمل وحمل أصحابه، فانهزم العدو وأصابوا غنائم كثيرة^(٢).

كان حبيب صاحب كيد، يفكر ويُقدِّر ثم يستشير رجاله ويستطلع ساحة القتال ويحصل على المعلومات المستفيضة عن العدو، ثم يبنى بعد ذلك خطته العسكرية على هدى وبصيرة.

إن أعمال حبيب الجهادية خطط مدبرة، ولم تكن خططاً ارتجالية، لذلك رافق النصر أعلامه فى أخطر ساحات القتال فى الفتح، وبالإضافة إلى تلك المزايا أو قبلها، كان حبيب مؤمناً حقاً صادق الإيمان، وكان إذا لقي عدواً أو ناهض حصناً يحب أن يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم^(٣).

لقد كان حبيب قائداً فذاً، جمع مزايا القائد الفذ: الطبع الموهب، والعلم المكتسب، والتجربة العملية^(٤)، والثقة بالله القوى العزيز.

إن حبيب بن مسلمة أسدى للفتح الإسلامى خدمات لا تُنسى، فهو بدون شك من ألمع قادة الفتح فى عهد عثمان رضى الله عنه، وقد توفى هذا القائد الفذ سنة اثنتين وأربعين هجرية، فكان عمره يوم توفى أربعاً وخمسين سنة قمرية، وكانت حياته قليلة فى تعداد السنوات، كثيرة فى تعداد جلائل الأعمال، قصيرة فى عمر الزمن، باقية آثارها على مرّ الدهور وتوالى السنين والقرون، رضى الله عن الصحابى الجليل، الإدارى الحازم، السياسى المحنك، القائد الفاتح، حبيب بن مسلمة الفهري^(٥).

(١) تهذيب ابن عساکر (٣٧/٤).

(٢) قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية، ص ١٩٠.

(٣) تهذيب ابن عساکر (٣٧/٤).

(٤) قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية، ص ١٩٢.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٨٧.

المبحث الرابع

أعظم مفاخر عثمان جمع الأمة على مصحف واحد

أولاً: المراحل التي مرت بها كتابة القرآن الكريم:

١ - المرحلة الأولى: في العهد النبوي:

ثبت بالدليل القاطع أن رسول الله ﷺ كان يأمر بكتابة القرآن الذي ينزل عليه، وثبت أنه كان له كاتب أو كتاب يكتبون الوحي، حتى شهر زيد بن ثابت بلقب (كاتب النبي ﷺ) لاختصاصه بكتابة الوحي، ويؤيد البخاري في كتاب (فضائل القرآن) (باب كتاب النبي ﷺ) وذكر فيه حديثين:

الأول: أن أبا بكر رضي الله عنه قال لزيد: إنك كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ^(١).

والثاني: عن البراء قال: لما نزلت: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ [النساء: ٩٥] قال النبي ﷺ: «ادعُ لي زيدا وليجئ باللوح والدواة والكف، أو الكف والدواة»^(٢). وكان النبي ﷺ يكتب القرآن في مكة أيضاً قبل الهجرة، وعن كتب له عبد الله بن سعد بن أبي السرح ثم ارتد، ثم أسلم عام الفتح، وله في ذلك قصة مشهورة - قد ذكرتها - والمعروف أن الخلفاء الراشدين الأربعة كانوا كتبة، فلعلهم كانوا يكتبون القرآن في مكة، وما يدل على أن القرآن كان مكتوباً في مكة قصة إسلام عمر ابن الخطاب ودخوله على أخته، ويدها صحيفة فيها سورة طه، وقد أعلم الله تعالى في القرآن الكريم بأنه - أي القرآن - مجموع في الصحف في قوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ [البينة: ٢]، وقد توفي رسول الله ﷺ، والقرآن كله مكتوب،

(١) البخاري، كتاب فضائل القرآن، رقم ٤٩٨٦.

(٢) البخاري، كتاب تفسير القرآن، رقم ٤٥٩٣.

لكنه غير مجموع في موضع واحد، وكان مكتوباً على العُصْب واللخاف ومحفوظاً في صدور الرجال، ومع حفظه في الصحف وفي الصدور، كان جبريل يعرض القرآن على النبي ﷺ كل عام مرة، فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه^(١).

ويحتمل أن النبي ﷺ لم يجمع القرآن في مصحف، لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته، فلما انقضى نزوله بوفاة ﷺ، ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك، وفاء لوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة للمحمدية^(٢).

٢ - المرحلة الثانية: في عهد أبي بكر رضى الله عنه:

كان من ضمن شهداء المسلمين في حرب اليمامة كثير من حفظة القرآن، وقد نتج عن ذلك أن قام أبو بكر رضى الله عنه بمشورة عمر بن الخطاب رضى الله عنه بجمع القرآن حيث جمع من الرقاع والعظام والسعف ومن صدور الرجال^(٣)، وأسند الصديق هذا العمل العظيم إلى الصحابي الجليل زيد بن ثابت الأنصاري رضى الله عنه، يروى زيد بن ثابت رضى الله عنه فيقول: بعث إلى أبو بكر رضى الله عنه لمقتل أهل اليمامة^(٤)، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضى الله عنه: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر^(٥) يوم اليمامة بقراء القرآن، وإنني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن^(٦) كلها، فيذهب كثير من القرآن، وإنني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟! فقال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدرى للذي شرح له صدر عمر، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: وإنك رجل شاب عاقل،

(١) البخارى، كتاب فضائل القرآن، رقم ٤٩٩٨.

(٢) المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدى، ص ٢٤٠ نقلاً عن فتح البارى (١٢/٩).

(٣) حروب الردة وبناء الدولة الإسلامية، لأحمد سعيد، ص ١٤٥.

(٤) يعنى وقعة يوم اليمامة ضد مسيلمة الكذاب وأعوانه.

(٥) استحر: كثر واشتد.

(٦) أى في الأماكن التى يقع فيها القتال مع الكفار.

(٧) يحتمل أن يكون إنما لم يجمع القرآن في المصحف.

ولا تنهكم^(١)، وقد كنت تكتب الرحي لرسول الله ﷺ، ففتبع القرآن فاجمعه^(٢)، قال زيد: فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان بأثقل عليّ مما كلفني به من جمع القرآن، ففتبع القرآن من العصب^(٣)، واللخاف^(٤)، وصدور الرجال، والرقاع، والأكثاف^(٥)، قال: حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدّها مع أحد غيره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، حتى خاتمة براءة، وكانت الصحف عند أبي بكر في حياته حتى توفاه الله، ثم عمر في حياته حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهم^(٦).

• ونستخلص من المرحلة الثانية في جمع القرآن بعض النتائج:

- أن جمع القرآن الكريم جاء نتيجة الخوف على ضياعه نظراً لموت العديد من القراء في حروب الردة، وهذا يدل على أن القراء والعلماء كانوا وقتئذٍ أسرع الناس إلى العمل والجهاد لرفع شأن الإسلام والمسلمين بأفكارهم وسلوكهم وسيوفهم، فكانوا خير أمة أخرجت للناس ينبغي الاقتداء بهم لكل من جاء بعدهم.

- أن جمع القرآن تم بناءً على المصلحة المرسلة، ولا أدل على ذلك من قول عمر لأبي بكر - حين سأله: كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟: إنه خير، وفي بعض الروايات أنه قال له: إنه والله خير ومصلحة للمسلمين، وهو نفس ما أجاب به أبو بكر زيد بن ثابت حين سأل نفس السؤال، وسواء صحت الرواية التي جاء فيها لفظ المصلحة أو لم تصح؛ فإن التعبير بكلمة خير، يفيد نفس المعنى، وهو مصلحة المسلمين في جمع القرآن، مبنياً على المصلحة المرسلة أول الأمر، ثم انعقد الإجماع

(١) هذه الصفات التي جعلت زيداً يتقدم على غيره في هذا العمل.

(٢) أي: من الأشياء التي عندك وعند غيرك.

(٣) العصب: هو جريد النخيل.

(٤) اللخاف: جمع لخفة: وهي صفائح الحجارة.

(٥) الرقاع: جمع رقعة وهي قطع الجلود، الأكثاف: جمع كثف وهو العظم الذي للبعير أو الشاة.

(٦) البخاري رقم ٤٩٨٦.

على ذلك بعد أن وافق الجميع بالإقرار الصريح أو الضمني، وهذا يدل على أن المصلحة المرسله يصح أن تكون سنداً للإجماع بالنسبة إلى من يقول بحجيتها كما هو مقرر في كتب أصول الفقه.

- وقد اتضح لنا من هذه الواقعة كذلك كيف كان الصحابة يجتهدون في جو من الهدوء يسوده الود والاحترام، هدفهم الوصول إلى ما يحقق الصالح العام للجماعة المسلمين، وأنهم كانوا ينقادون إلى الرأي الصحيح وتشرح قلوبهم له بعد الإقناع والاعتناع، فإذا اقتنعوا بالرأي دافعوا عنه كما لو كان رأيهم منذ البداية، وبهذه الروح أمكن انعقاد إجماعهم حول العديد من الأحكام الاجتهادية^(١).

• ما المقومات الأساسية لزيد بن ثابت للقيام بهذه المهمة؟

اختار أبو بكر رضي الله عنه زيد بن ثابت لهذه المهمة العظيمة، وذلك لأنه رأى فيه المقومات الأساسية للقيام بها وهي:

- أ - كونه شاباً، حيث كان عمره ٢١ سنة، فيكون أنشط لما يطلب منه.
- ب - كونه أكثر تأهيلاً، فيكون أوعى له، إذ مَنْ وهبه الله عقلاً راجحاً، فقد يسر له سبيل الخير.
- ج - كونه ثقة، فليس هو موضعاً للتهمة، فيكون عمله مقبولاً، وتركز إليه النفس، ويطمئن إليه القلب.
- د - كونه كاتباً للوحي، فهو بذلك ذو خبرة سابقة في هذا الأمر، وعارسة عملية له، فليس غريباً عن هذا العمل، ولا دخيلاً عليه^(٢).

هـ - ويضاف لذلك أنه أحد الأربعة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ، فعن قتادة قال: سألت أنس بن مالك رضي الله عنه: من جمع القرآن على عهد النبي ﷺ؟ قال: أربعة كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت،

(١) الاجتهاد في الفقه الإسلامي، عبد السلام السليمانى، ص ١٢٧.

(٢) التفوق والتجربة على نهج الصحابة، حمد العجمي، ص ٧٣.

وأبو زيد^(١)، وأما الطريقة التي اتبعها زيد في جمع القرآن فكان لا يثبت شيئاً من القرآن إلا إذا كان مكتوباً بين يدي النبي ﷺ، ومحفوظاً من الصحابة، فكان لا يكتفى بالحفظ دون الكتابة، خشية أن يكون في الحفظ خطأ أو وهم، وأيضاً لم يقبل من أحد شيئاً جاء به إلا إذا أتى معه شاهدان يشهدان أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ، وأنه من الوجوه التي نزل بها القرآن^(٢)، وعلى هذا المنهج استمر زيد رضي الله عنه في جمع القرآن حذراً متبثاً مبالغاً في الدقة والتحري^(٣).

• الفرق بين المكتوب في العهد النبوي، وعهد الصديق:

الفرق بين المكتوب في العهد النبوي، وما كتب في عهد أبي بكر، أن القرآن كان مكتوباً في العهد النبوي، مفرقاً في الصحف والألواح والعُصْب، والكرانيف والقصب، وأدوات أخرى، ولم تكن مجموعة سورة في خيط واحد... وأما الذي تم في أيام أبي بكر، فهو كتابة القرآن في صحف كل سورة أو سور في صحيفة مرتبة آياته على ما حفظوه عن رسول الله ﷺ، فكانت مهمة زيد بن ثابت، أن يكتب ما كان مكتوباً في العهد النبوي في صحف، كل سورة في صحيفة مرتبة فيها الآيات ترتيباً توقيفياً^(٤).

٣- المرحلة الثالثة في جمع القرآن: في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه:

• الباعث على جمع القرآن في عهد عثمان:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قدم على عثمان رضي الله عنه، وكان يُغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٣١).

(٢) التفوق والنجاة على نهج الصحابة، ص ٧٤.

(٣) الانشراح ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق، ص ٣٦٠.

(٤) المدينة فجر الإسلام والعصر الراشدي (٢/ ٢٤١).

إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصُّحف ننسخُها في المصاحف ثم نردّها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرّهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، ردّ عثمان رضى الله عنه الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كلِّ أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق^(١).

ويؤخذ من هذا الحديث الصحيح أمورٌ منها:

أ - أن السبب الحامل لعثمان رضى الله عنه على جمع القرآن مع أنه كان مجموعاً مرتباً في صحف أبي بكر الصديق، إنما هو اختلاف قراء المسلمين في القراءة اختلافاً أوشك أن يؤدي بهم إلى أخطر فتنة في كتاب الله تعالى، وهو أصل الشريعة، ودعامة الدين، وأساس بناء الأمة الاجتماعية والسياسية والخلقية، حتى إن بعضهم كان يقول لبعض: إن قراءتى خير من قراءتك فأفزع ذلك حذيفة، ففزع فيه إلى خليفة المسلمين وإمامهم، وطلب إليه أن يدرك الأمة قبل أن تختلف فيستشري بينهم الاختلاف، ويتفاقم أمره، ويعظم خطبه، فيمس نص القرآن، وتحرف عن مواضعها كلماته وآياته، كالذى وقع بين اليهود والنصارى من اختلاف كل أمة على نفسها في كتابها.

ب - أن هذا الحديث الصحيح قاطع بأن القرآن الكريم كان مجموعاً في صحف ومضموماً في خيط، وقد اتفقت كلمة الأمة اتفاقاً تاماً على أن ما في تلك الصحف هو القرآن كما تلقته عن النبي ﷺ في آخر عرضة على أمين الوحي جبريل عليه السلام؛ وأن تلك الصحف ظلت في رعاية الخليفة الأول أبي بكر الصديق، ثم انتقلت بعده إلى رعاية الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، ثم لما عرف عمر حضور أجله ولم يول عهده أحداً معيناً في خلافة المسلمين، وإنما جعل الأمر شورى في الرّهط المصطفين بالرضا من رسول الله ﷺ، أوصى بحفظ الصحف عند ابنته حفصة أم

(١) البخارى، كتاب فضائل القرآن رقم ٤٩٨٧.

المؤمنين رضي الله عنها، وأن عثمان اعتمد في جمعه على تلك الصحف، وعنها نقل مصحفه (الرسمي) وأنه أمر أربعة من أشهر قراء الصحابة إتقاناً لحفظ القرآن ووعياً لحروفه وأداء لقراءاته وفهماً لإعرابه ولغته: ثلاثة قرشيين، وواحد أنصاريًا، وهو زيد ابن ثابت صاحب الجمع الأول في عهد الصديق بإشارة الفاروق، وفي بعض الروايات أن الذين أمرهم عثمان أن يكتبوا من الصحف اثنا عشر رجلاً، فيهم أبي بن كعب، وآخرون من قریش والأَنْصار^(١).

جـ - ونأخذ من هذا: أن الفتوحات في عهد عثمان كانت بإذن وأمر من الخليفة، وأن القرار العسكري يصدر من المدينة، وأن الولايات الإسلامية كلها كانت خاضعة لأمر الخليفة عثمان في عهده، بل يدلُّ على أن هناك إجماعاً من الصحابة والتابعين في جميع الأقاليم على خلافة عثمان، وقدم حذيفة بن اليمان إلى المدينة، لرفع اختلاف الناس في قراءة القرآن، يدل على أن القضايا الشرعية الكبرى، كان يُستشار فيها الخليفة في المدينة، وأن المدينة ما زالت دار السنة ومجمع فقهاء الصحابة^(٢).

ثانياً: استشارة جمهور الصحابة في جمع عثمان:

جمع عثمان رضي الله عنه المهاجرين والأنصار، وشاورهم في الأمر، وفيهم أعيان الأمة، وأعلام الأئمة، وعلماء الصحابة وفي طليعتهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعرض عثمان رضي الله عنه هذه العضلة على صفوة الأمة وقادتها الهادين المهديين، ودارسهم أمرها ودارسوه، وناقشهم فيها وناقشوه، حتى عرف رأيهم وعرفوا رأيه؛ فأجابوه إلى رأيه في صراحة لا تجعل للريب إلى قلوب المؤمنين سبيلاً، وظهر للناس في أرجاء الأرض ما انعقد عليه إجماعهم، فلم يعرف قط يومئذ لهم مخالف، ولا عرف عند أحد تكبر، وليس شأن القرآن الذي يخفى على آحاد الأمة فضلاً عن علمائها وأئمتها البارزين^(٣).

(١) عثمان بن عفان، لصديق عرجون، ص ١٧١.

(٢) المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدي (٢/٢٤٤).

(٣) عثمان بن عفان، لصديق عرجون، ص ١٧٥.

إن عثمان رضى الله عنه لم يتدع فى جمعه المصحف، بل سبقه إلى ذلك أبو بكر الصديق رضى الله عنه، كما أنه لم يصنع ذلك من قبل نفسه إنما فعله عن مشورة للمصحابة رضى الله عنهم، وأعجبهم هذا الفعل وقالوا: نعم ما رأيت، وقالوا أيضاً: قد أحسن - أى فى فعله فى المصاحف^(١).

وقد أدرك مصعب بن سعد صحابة النبى ﷺ حين مَشَقَّ^(٢) عثمان رضى الله عنه المصاحف فرأهم قد أعجبوا بهذا الفعل منه^(٣)، وكان على رضى الله عنه ينهى من يعيب على عثمان رضى الله عنه بذلك ويقول: يا أيها الناس لا تغلوا فى عثمان، ولا تقولوا له إلا خيراً - أو قولوا خيراً - فوالله ما فعل الذى فعل - أى فى المصاحف - إلا عن ملأ منا جميعاً أى الصحابة... والله لو وليت لفعلت مثل الذى فعل^(٤).

وبعد اتفاق هذا الجمع الفاضل من خيرة الخلق على هذا الأمر المبارك، يتبين لكل متجرد عن الهوى، أن الواجب على المسلم الرضا بهذا الصنيع الذى صنعه عثمان رضى الله عنه وحفظ به القرآن الكريم^(٥).

قال القرطبى فى التفسير: وكان هذا من عثمان رضى الله عنه بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وجلة أهل الإسلام وشاورهم فى ذلك، فانفقوا على جمعه بما صح وثبت من القراءة المشهورة عن النبى ﷺ وأطراح ما سواها، واستصوبوا رأيه، وكان رأياً سديداً موفقاً^(٦).

ثالثاً: الفرق بين جمع الصديق وجمع عثمان رضى الله عنهما،

قال ابن التين: الفرق بين جمع أبى بكر وجمع عثمان أن جمع أبى بكر كان لحشيته أن يذهب شيء من القرآن بذهاب حملته؛ لأنه لم يكن مجموعاً فى موضع

(١) فتنة مقتل عثمان بن عفان (٧٨/١).

(٢) مشق هو: الحرق (لسان العرب: ٣٤٤/١٠).

(٣) التاريخ الصغير للبخارى (٩٤/١) إسناده حسن لغيره.

(٤) فتح البارى (١٨/٩) إسناده صحيح.

(٥) فتنة مقتل عثمان بن عفان (٧٨/١).

(٦) الجامع لأحكام القرآن (٨٨/١).

واحد، فجمعه في صحائف مرتباً لآيات سورة على ما وقفهم عليه النبي ﷺ، وجمع عثمان كان لما كثر الاختلاف في وجوه القراءة، حتى قرأوه بلغاتهم على اتساع اللغات، فأدى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعض، فخشى من تفاقم الأمر في ذلك، فنسخ تلك المصحف في مصحف واحد مرتباً لسوره، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش محتجاً بأنه نزل بلغتهم، وإن كان قد وسع في قراءته بلغة غيرهم دفعاً للحرَج والمشقة في ابتداء الأمر، فرأى أن الحاجة قد انتهت، فاقتصر على لغة واحدة، وقال القاضي أبو بكر الباقلاني: لم يقصد أبو بكر في جمع نفس القرآن بين لوحين، إنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي ﷺ، وإلغاء ما ليس كذلك، وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير ولا تأويل أثبت مع تنزيل، ولا منسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه، خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتي بعد.

وقال الحارث المحاسبي: المشهور عند الناس أن جامع القرآن عثمان، وليس كذلك، إنما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد على اختيار وقع بينه وبين من شاهده من المهاجرين والأنصار، لما خشى الفتنة عند اختلاف أهل العراق والشام في حروف القراءات، فأما قبل ذلك، فقد كانت المصاحف بوجوه القراءات المطلقات على الحروف السبعة التي أنزل بها القرآن، فأما السابق إلى جمع الجملة فهو الصديق، وقد قال علي رضي الله عنه: لو وليت لعملت بالمصاحف التي عمل بها عثمان^(١).

وقال القرطبي: فإن قيل: فما وجه جمع عثمان الناس على مصحفه، وقد سبقه أبو بكر إلى ذلك وفرغ منه؟ قيل له: إن عثمان رضي الله عنه لم يقصد بما صنع جمع الناس على تأليف المصحف، ألا ترى كيف أرسل إلى حفصة: أن أرسلني إلينا بالمصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، وإنما فعل ذلك عثمان لأن الناس اختلفوا في القراءة، لتفرق الصحابة في البلدان، واشتد الأمر في ذلك وعظم اختلافهم وتشبههم ووقع بين أهل الشام والعراق ما ذكره حذيفة رضي الله عنه^(٢).

(١) عثمان بن عفان، لصديق عرجون، ص ١٧٨.

(٢) الجامع لاحكام القرآن (١/٨٧).

رابعاً: هل المصاحف العثمانية مشتملة على جميع الأحرف السبعة؟

ذهب الشيخ المحقق صادق عرجون - رحمه الله - إلى أن: صحف الصديق التي كانت أصلاً للمصحف الإمام بإجماع المسلمين لم تكن جامعة للأحرف السبعة التي وردت صحاح الأحاديث بإنزال القرآن عليها، بل كانت على حرف منها، هو الذى وقعت به العرضة الأخيرة، واستقر عليها الأمر فى آخر حياة رسول الله ﷺ، وإنما كانت الأحرف السبعة أولاً من باب التيسير على الأمة، ثم ارتفع حكمها لما استفاض القرآن وتمازج الناس وتوحدت لغاتهم؛ قال الإمام الطحاوى: إنما كانت السعة للناس فى الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم؛ لأنهم كانوا أميين، لا يكتب إلا القليل منهم، فلما كان يشق على كل ذى لغة أن يتحول إلى غيرها من اللغات، ولو رام ذلك لم يتهياً له إلا بمشقة عظيمة - وسّع لهم فى اختلاف الألفاظ إذا كان المعنى متفقاً، فكانوا كذلك حتى كثر منهم من يكتب، وعادت لغاتهم إلى لسان رسول الله ﷺ، فقدروا بذلك على تحفظ ألفاظه، فلم يسعهم حينئذ أن يقرءوا بخلافها، قال ابن عبد البر: فبان بهذا أن تلك السبعة الأحرف إنما كانت فى وقت خاص لضرورة دعت إلى ذلك، ثم ارتفعت تلك الضرورة، فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف، وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد^(١)، وقال الطبرى: إن القراءة على الأحرف السبعة لم تكن واجبة على الأمة، وإنما كان جائزاً لهم ومرخصاً لهم فيه، فلما رأى الصحابة أن الأمة تفرق وتختلف إذا لم يجتمعوا على حرف واحد - أجمعوا على ذلك إجماعاً شائعاً، وهم معصومون من الضلالة^(٢). وهذا الحرف الذى كتبت به صحف الإجماع القاطع ونقل عنه المصحف الإمام - جامع لقراءات القرآن السبعة وغيرها، مما يقرأ به الناس ونقل متواتراً عن رسول الله ﷺ؛ لأن الأحرف الواردة فى الحديث غير هذه القراءات^(٣)، قال القرطبي: قال كثير من علمائنا كالداودى وابن أبى صفرة وغيرهما: هذه القراءات السبع التى تنسب لهؤلاء القراء السبعة ليست هى الأحرف السبعة التى اتسعت الصحابة فى القراءة بها، وإنما هى راجعة إلى حرف

(١ - ٣) عثمان بن عفان، لصديق عرجون، ص ١٨٠.

واحد من تلك السبعة، وهو الذي جمع عليه المصحف^(١)، وأقرب الآراء إلى الفهم - عند ظننا - في معنى الأحرف إنما هو الرأي القائل بأنها هي أفصح لغات العرب وأشهرها، وهي مبنوثة في القرآن كله، وإليه ذهب القاسم بن سلام، وابن عطية في جماعة من الأجلاء، وإليه يرجع نحو سبعة أقوال مما ذكره السيوطي في الإتيان في معنى الأحرف^(٢).

خامساً: عدد المصاحف التي أرسلها عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار:

لما فرغ عثمان رضي الله عنه من جمع المصاحف أرسل إلى كل أفق بمصحف، وأمرهم أن يحرقوا كل مصحف يخالف المصحف الذي أرسله إلى الآفاق، وقد اختلفوا في عدد المصاحف التي فرقها في الأمصار: ف قيل: إنها أربعة، وهو الذي اتفق عليه أكثر العلماء، وقيل: إنها خمسة، وقيل: إنها ستة، وقيل: إنها سبعة، وقيل: ثمانية، أما كونها أربعة ف قيل: إنه أبقى مصحفاً بالمدينة وأرسل مصحفاً إلى الشام ومصحفاً إلى الكوفة ومصحفاً إلى البصرة، وأما كونها خمسة فالأربعة المتقدم ذكرها، والسادس اختلف فيه، ف قيل: جعله خاصاً لنفسه، وقيل: أرسله إلى البحرين، وأما كونها سبعة، فالسبعة المتقدم ذكرها والسابع أرسله إلى اليمن، وأما كونها ثمانية فالسبعة المتقدم ذكرها، والثامن كان لعثمان يقرأ فيه وهو الذي قتل وهو بين يديه^(٣)، وبعث رضي الله عنه مع كل مصحف من يرشد الناس إلى قراءته بما يحتمله رسمه من القراءات مما صح وتواتر، فكان عبد الله بن السائب مع المصحف المكي، والمغيرة بن شهاب مع المصحف الشامي، وأبو عبد الرحمن السلمي مع المصحف الكوفي، وعامر بن قيس مع المصحف البصري، وأمر زيد بن ثابت أن يقرئ الناس بالمدينة^(٤).

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/٧٩).

(٢) الإتيان للسيوطي (١/١٤٤ - ١٤٨).

(٣) أضواء البيان في تاريخ القرآن، ص ٧٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٧٨.

سادساً، موقف عبد الله بن مسعود من مصحف عثمان؛

لم يثبت أن ابن مسعود رضى الله عنه خالف عثمان فى ذلك، وكل ما روى فى ذلك ضعيف الإسناد، كما أن هذه الروايات الضعيفة التى تتضمن ذلك تثبت أن ابن مسعود رضى الله عنه رجع إلى ما اتفق عليه الصحابة رضى الله عنهم فى جمع القرآن، وأنه قام فى الناس وأعلن ذلك^(١)، وأمرهم بالرجوع إلى جماعة المسلمين فى ذلك، وقال: إن الله لا يترزع العلم انتزاعاً، ولكن يترعه بذهاب العلماء، وإن الله لا يجمع أمة محمد ﷺ على ضلالة، فجامعهم على ما اجتمعوا عليه، فإن الحق فيما اجتمعوا عليه. . وكتب بذلك إلى عثمان^(٢)، وقد ورد عن ابن كثير رجوع ابن مسعود إلى الوفاق^(٣)، وأكد الذهبى ذلك فقال: وقد ورد أن ابن مسعود رضى وتابع عثمان والله الحمد^(٤). ولا يلتفت إلى ما كتبه طه حسين فى قضية المصحف وعلاقة عثمان مع ابن مسعود وما ساقه بأسلوب مسموم، فيه أفكار أخذها من أساتذته المستشرقين^(٥) والذين اعتمدوا على روايات ضعيفة ورافضية فى تشويه علاقة الصحابة ببعضهم رضى الله عنهم جميعاً.

إن ابن مسعود رضى الله عنه الذى ترك صلاة القصر فى منى خشية من الخلاف والفتنة ومتابعة للخليفة، هل يتوقع منه أن يصعد المنبر، ويحرض الناس على الخلاف، وهو القائل: إن الخلاف شر^(٦).

إن مؤرخى الروافض زوروا روايات ونسبوا لابن مسعود وموقفه من عثمان رضى الله عنهما، وأظهروا - فى تلك الأكاذيب - الصحابة قوماً متنازعين متباغضين، متعتين متفاحشين فى القول، وهى روايات ساقطة لا تثبت أمام النقد الهادئ

(١) فتنة مقتل عثمان بن عفان (١/٧٨).

(٢) فتنة مقتل عثمان بن عفان (١/٧٩).

(٣) البداية والنهاية (٧/٢٢٨).

(٤) سير أعلام النبلاء (١/٣٤٩).

(٥) الفتنة الكبرى (١/١٥٩).

(٦) فتنة مقتل عثمان بن عفان (١/٨٠).

الموضوعي، ويرفضها الذوق المؤمن والعقل الفطن^(١)، وقد زعمت الرافضة كذباً وزوراً؛ بأن ابن مسعود كان يطعن على عثمان ويكفره ولما حكم عثمان ضربه حتى مات، وهذا كذبٌ بينٌ على ابن مسعود، فإن علماء النقل يعلمون أن ابن مسعود ما كان يكفر عثمان، بل لما بويع عثمان بالخلافة، صار عبد الله بن مسعود من المدينة إلى الكوفة ولما وصل إليها، حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإن أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب مات - فلم نَرِ يوماً أكثر نشيجاً من يومئذ - وإنا اجتمعنا أصحاب محمد، فلم نال عن خيرنا ذى فوق، فبايعنا أمير المؤمنين عثمان فبايعوه^(٢)، وهذه الكلمات الواضحات أكبر دليل على تلك المكانة الرفيعة لعثمان بن عفان في قلب ابن مسعود وعند جميع الصحابة، أولئك الذين مدحهم الله تعالى ورضى عنهم، وهم خير من فقه قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]. فقول عبد الله بن مسعود صدق لا يعدو الحقيقة، كما أنه نابع عن قناعته وصادره عن محض إرادته؛ ما قاله خوفاً ولا خشية، ولم يقذف به هكذا رخيصاً للاستهلاك والتفجير، أو ليحور مكانة ومنصباً في الخلافة الجديدة، وإذا فمن بدهيات الأمور وأوليائها أن ليس ثمة حقد أو بغضاء في قلب أحدهما على الآخر، وإذا حدث شيء فإنما هو من أجل الحق وصالح المسلمين^(٣)، ويندرج تحت فقه النصيحة وآدابها وتأديب الخليفة لرعيته، وأما ما زعم الروافض ومن سار على نهجهم من أن عثمان ضرب ابن مسعود حتى مات، فهذا كذب باتفاق أهل العلم، قال أبو بكر بن العربي: وأما ضربه لابن مسعود ومنعه عطاءه فزور^(٤)، فلا وجه للرافضة بالطعن على عثمان بقصة ابن مسعود هذه فإنه لم يضربه عثمان ولم يمنعه عطاءه، وإنما كان يعرف له قدره ومكانته، كما كان ابن مسعود شديد الالتزام بطاعة إمامه الذي بايع له وهو يعتقد أنه خير المسلمين وقت البيعة^(٥).

(١) عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عبد الستار الشيخ، ص ٣٣٥.

(٢) طبقات ابن سعد (٦٣/٣).

(٣) عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عبد الستار الشيخ، ص ٣٢٤.

(٤) العواصم من القواصم، ص ٦٣.

(٥) عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام (١٠٦٦/٣).

سابعاً، فهم الصحابة لآيات النهى عن الاختلاف:

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فالصراط المستقيم هو القرآن والإسلام والقطرة التي فطر الله الناس عليها، والسبل هي الأهواء والفرق والبدع والمحدثات، قال مجاهد: ﴿وَلَا تَّبِعُوا السُّبُلَ﴾، يعنى: البدع والشبهات والضلالات (١).

ونهى الله - سبحانه وتعالى - هذه الأمة عما وقعت فيه الأمم السابقة من الاختلاف والتفرق من بعد ما جاءتهم البينات وأنزل الله إليهم الكتب، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]

ونهى الأمة أن تكون من المشركين، الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، فقال عز من قائل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٠) مُبِين إِلَيْهِ وَأَتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَרَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٠، ٣٢]

وأخبر - سبحانه وتعالى - أن الرسول ﷺ برىء من الذين يفرقون دينهم ويكونون شيعاً وأحزاباً (٣)، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩]

ويظهر من قصة جمع القرآن في عهد عثمان رضى الله عنه مدى فهم الصحابة رضى الله عنهم لآيات النهى عن الاختلاف، حيث إن الله نهى عن الاختلاف وحذر منه، فلعمق فهمهم لهذه الآيات ارتعد حذيفة رضى الله عنه عندما سمع بوادر الاختلاف في قراءة القرآن، فرحل فوراً إلى المدينة النبوية، وأخبر عثمان رضى الله عنه، بما رأى وبما سمع، فسرعان ما قام عثمان يخطب الناس؛ يحذرهم من مغبة هذا

(١) تفسير مجاهد، ص ٢٢٧.

(٢) دراسات في الأهواء والفرق والبدع، ناصر العقل، ص ٤٩.

الخلاف، ويشاور الصحابة رضي الله عنهم في الحل لهذه المحنة التي بدأت بالظهور، وفي مدة قصيرة يحسم الأمر ويغلق باب الخلاف الذي كاد أن يفتح، بجمع الصحف ونسخها في مصحف واحد من المصادر الموثوقة جداً، ويغلق باب الفتنة هذا فرح المسلمون، بينما اغتاط المنافقون الذين كانوا قد استبشروا بيوادر الخلاف التي كانوا ينتظرونها بفارغ الصبر، ويسعون إلى تحقيقها، ولما حسم الخلاف، ولم يجد أولئك طريقاً إلى استنهاضه، ازداد حقدهم على عثمان رضي الله عنه، وسعوا في التشنيع عليه وتصوير حسنة هذه سيئة، وتلمسوا في سبيل إثبات ذلك خيوط العنكبوت الواهية، ليطعنوا فيه ويسوغوا خروجهم عليه بها، مظهريين للناس أن هذه الحسنة سيئة تستوجب الخروج عليه^(١).

إن الصحابة رضي الله عنهم لم يتركوا كل قارئ على قراءته الصحيحة، بل جمعوهم على قراءة واحدة، فاجتمع شملهم وتوحد صفهم، وهذا درس عظيم نستلهمه من دراستنا لتاريخ عهد الخلفاء الراشدين، الحافل بالعبر والدروس ومواطن القدوة^(٢).

قال رسول الله ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولأه الله أمركم»^(٣).

إن طريق الاعتصام بحبل الله أن نلتزم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهذا الأصل من أكاد الأصول في هذا الدين العظيم، يقول ابن تيمية - رحمه الله -: وهذا الأصل العظيم: وهو الإسلام، وما عظمت وصية الله تعالى به في كتابه، وما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم، وما عظمت به وصية النبي ﷺ، في مواطن عامة وخاصة^(٤).

ولذلك أمر الله تعالى ورسوله ﷺ بكل ما يحفظ على المسلمين جماعتهم

(١) فتنة مقتل عثمان بن عفان (١/٨٢).

(٢) المصدر نفسه (١/٨٣).

(٣) مسند أحمد (١/٢، ٢٦).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٢/٣٥٩).

وآلفتهم، ونهيا عن كل ما يعكر صفو هذا الأمر العظيم.

إن ما حصل من فرقة بين المسلمين وتدابير وتقاطع وتناحر، بسبب عدم مراعاة هذا الأصل وضوابطه، مما ترتب عليه تفرق في الصفوف، وضعف في الاتحاد، وأصبحوا شيعاً وأحزاباً كل حزب بما لديهم فرحون^(١).

إن وحدة المسلمين واجتماعهم مطلب شرعي، ومقصد عظيم من مقاصد الشريعة، بل من أهم أسباب التمكين لدين الله تعالى، ونحن مأمورون بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر، فلا بد من تضافر الجهود بين الدعاة، وقادة الحركات الإسلامية، وبين علماء المسلمين، وطلبة العلم لإصلاح ذات البين إصلاحاً حقيقياً لا تلفيقياً، لأن أنصاف الحلول تفسد أكثر مما تصلح، قال الشيخ عبد الرحمن السعدى - رحمه الله - الجهاد نوعان: جهاد يقصد به صلاح المسلمين، وإصلاحهم في عقائدهم وأخلاقهم وآدابهم، وجميع شئونهم الدينية والدنيوية، وفي تربيتهم العلمية، وهذا النوع هو الجهاد وقوامه، وعليه يتأسس النوع الثانى، وهو جهاد يقصد به دفع المعتدين على الإسلام والمسلمين من الكفار والمنافقين والملحدون وجميع أعداء الدين ومقاومتهم، وهذا نوعان: جهاد بالحجة والبرهان واللسان، وجهاد بالسلح المناسب في كل وقت وزمان^(٢)، ثم أفرد فصلاً بعنوان: الجهاد المتعلق بالمسلمين بقيام الألفة واتفاق الكلمة^(٣)، وبعد أن ذكر الآيات والأحاديث الدالة على وجوب تعاون المسلمين ووحدتهم، قال: فإن من أعظم الجهاد السعى في تحقيق هذا الأصل في تأليف قلوب المسلمين واجتماعهم على دينهم ومصلحتهم الدينية والدنيوية^(٤).

ولذلك نرى أن الأخذ بالأسباب نحو تأليف قلوب المسلمين وتوحيد صفهم من أعظم الجهاد؛ لأن هذه الخطوة مهمة جداً في إعزاز المسلمين وإقامة دولتهم، وتحكيم شرع ربهم، وهذا من فقه الخلفاء الراشدين، ويتجلى في أبهى صورة في جمع عثمان رضى الله عنه للأمة على مصحف واحد.

(١) تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين، للصلاوى، ص ٣٠٧.

(٢ - ٤) وجوب التعاون بين المسلمين، ص ٥.

الفصل الخامس

مؤسسة الولاية في عهد عثمان رضى الله عنه

المبحث الأول

أقاليم الدولة في عهد عثمان وسياسته مع الولاية

أولاً: مكة المكرمة:

توفي عمر بن الخطاب رضى الله عنه وواله على مكة خالد بن العاص بن هشام ابن المغيرة المخزومي^(١)، وقد أبقاه عثمان رضى الله عنه فترة من الوقت يصعب تحديدها ثم قام بعزله، ولم ترد أخبار عن سبب ذلك، إضافة إلى صعوبة تحديد أهم أعماله، وقد قام عثمان رضى الله عنه بعد عزله بتولية على بن ربيعة بن عبد العزى، ثم قام عثمان رضى الله عنه بعد ذلك بتولية مجموعة من الأمراء على مكة يصعب تحديد فترات ولايتهم منهم عبد الله بن عمرو الحضرمي، الذي كان أحد عمال عثمان على مكة، كما أن النصوص تثبت أن عثمان رضى الله عنه قد أعاد خالد بن العاص ابن هشام على مكة مرة أخرى، وتؤكد بعض المصادر أن عثمان توفي وخالد على مكة، فقام على رضى الله عنه بعزله وتولية غيره^(٢)، وهذه الرواية على ما يبدو أثبت من الروايات التي تذكر أن عبد الله بن الحضرمي هو الوالى على مكة حين قتل عثمان^(٣)، وقد تميزت مكة في عهد عثمان بالهدوء المستمر رغم ما وقع في بعض الأمصار من فتنه في أواخر عهد عثمان^(٤).

(١) تجميع أسماء الصحابة، ص ١٥١.

(٢) الولاية على البلدان، (١/١٦٦).

(٣) نهاية الأرب للنويري (٢/٢٧).

(٤) الولاية على البلدان (١/١٦٧).

ثانياً، المدينة النبوية،

تعد المدينة المنورة من أهم المدن الإسلامية فى عهد عثمان، وبها مركز الخلافة، وإليها وفد الوفود من مختلف الأمصار، والأجناد الإسلامية، ويقام بها كثير من شيوخ الصحابة من المهاجرين والأنصار، وبذلك تكتسب أهمية خاصة، وقد كان عثمان بحكم خلافته مقيماً بها ويفقد أحوالها حتى إنه كان يسأل عن أسعار المواد الغذائية وعن أخبار الناس^(١)، وكان عثمان رضى الله عنه إذا سافر إلى الحج يستخلف أحد الصحابة على المدينة حتى يرجع، وكثيراً ما كان يستخلف زيد بن ثابت رضى الله عنه^(٢)، وكان فى المدينة بيت مال وديوان للأعطيات كغيرها من الأمصار، وتعتبر المدينة من أكثر الأمصار الإسلامية هدوءاً خلال عصر عثمان سوى ما حدث فى أيامه الأخيرة من اضطراب الأحوال فيها بعد وصول جيوش الفتنة وحصار عثمان وخروج بعض كبار الصحابة منها^(٣).

ثالثاً، البحرين واليمامة،

توفى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعلى البحرين عثمان بن أبى العاص الثقفى فأقره عثمان عليها فترة من الوقت، وتدل الروايات على أن عثمان بن أبى العاص كان على ولاية البحرين بعد مبايعة عثمان بثلاث سنين أى سنة ٢٧هـ بدليل مشاركته بجيشه مع جيش البصرة فى بعض الفتوح^(٤)، ويبدو أن التعاون الذى بدأ بين ولاية البحرين وولاية البصرة فى عهد عمر أخذ يشتد ويقوى فى عهد عثمان، خصوصاً بعد تولية (عبد الله بن عامر بن كريز)^(٥) على البصرة، حيث أصبح عامل البحرين أحد القواد التابعين لعبد الله بن عامر والى البصرة، كما أن النصوص التاريخية تفيد

(١) تاريخ المدينة (٣/ ٩٦١، ٩٦٢).

(٢) (٣، ٢) الولاية على البلدان (١/ ١٦٨، ١٦٩).

(٤) البحرين: كانت تطلق على المناطق التى تشمل إمارات الخليج العربى والجزء الشرقى من المملكة العربية السعودية عدا الكويت، أما اليمامة، فكانت فى بلاد نجد.

(٥) تاريخ خليفة بن خياط، ص ١٥٩ والولاية على البلدان (١/ ١٦٩).

(٦) الطبقات لابن سعد (٥/ ٤٤).

تبعية ولاية البحرين للبصرة - إلى حد ما - واندماجها معها بحيث أصبح ابن عامر يعين العمال عليها من قبله^(١)، ويؤكد أحد الباحثين هذا التعاون في قوله: وفي زمن الخليفة عثمان بن عفان ألحقت البحرين بالبصرة عندما أصبحت الأخيرة قاعدة لفتوح فارس وجنوب إيران، فصار ولايتها تابعين لأمير البصرة، وقد عزز هذا صلة البصرة بالبحرين ووثقها^(٢)، وقد ذكر من ولاية عثمان على البحرين: مروان بن الحكم، وعبد الله بن سوار العبدي، وقد توفي عثمان وعبد الله على البحرين^(٣)، وقد كان للبحرين في أيام عثمان دور كبير في بعث الأجناد لفتوح شرق فارس، كما كان لواليتها عثمان بن أبي العاص دور كبير في تلك الفتوح^(٤).

وقد كانت الأوضاع داخل البحرين مستقرة حتى وفاة عثمان، وأما اليمامة فقد كانت في عهد عمر رضي الله عنه تابعة لولاية البحرين وعمان إلى حد كبير، بل إن والي البحرين هو الذي كان يبعث عليها الأمراء أحياناً، أما في عهد عثمان رضي الله عنه فالذي يبدو أن اليمامة كان عليها والٍ من قبل عثمان مباشرة، وقد ورد ذكره في أحداث الفتنة بعد مقتل عثمان مباشرة، إذ وصلته بعض الكتب في تلك الفترة من غضبوا لمقتل عثمان^(٥).

رابعاً: اليمن وحضرموت:

توفي عمر رضي الله عنه وعامله على اليمن (يعلى بن منيّة) وكان في طريقه إلى المدينة بناء على طلب عمر، إذ جاءه كتاب من عثمان يخبره بوفاة عمر وبيعة الناس لعثمان واستعماله من قبل عثمان على صنعاء، فاستمر على صنعاء إلى وفاة عثمان رضي الله عنه^(٦)، وكان على مدينة الجند عبد الله بن ربيعة الذي استمر والياً عليها طيلة عهد عثمان رضي الله عنه^(٧)، ويبدو أن هناك ولاية آخرين كانوا على بقية مدن

(١) الولاية على البلدان (١/ ١٦٩).

(٢) البحرين في صدر الإسلام، عبد الرحمن بن النجم، ص ١٤١.

(٣) (٥ - ٣) الولاية على البلدان (١/ ١٧٠).

(٤) تاريخ الطبري (٥/ ٤٤٢).

(٥) تاريخ خليفة بن خياط، ص ١٧٩.

اليمن، ولكن المصادر الرئيسية ركزت على هذين الواليين في الغالب، كما أن المصادر لم تفصل القول في أحداث اليمن خلال عصر عثمان، كما يقل إيرادها للمراسلات بين عثمان وولاياته في اليمن سوى ما ذكره من أوامر عامة مرسله لكافة الولاة^(١)، وقد اشتهر عن أهل اليمن خلال عصر عثمان طاعتهم وانقيادهم لولاتهم؛ يدل على ذلك ما روى من أن عثمان رضى الله عنه بعث رجلاً ثقيفاً إلى اليمن فلما عاد سأله عثمان عن أهلها، فقال: رأيت قوماً ما سئلوا أعطوا حقاً كان أو باطلاً^(٢)، ومن المعروف أن العديد من القبائل اليمنية هاجرت خلال الفتوح في أيام عمر بن الخطاب إلى الأمصار الإسلامية الجديدة سواء في العراق أو مصر أو الشام، وبالتالي فإن صلات اليمن وأهلها بهذه الأمصار كانت مستمرة، كما أن الهجرات - ولو بشكل فردي من اليمن إلى بقية الأمصار - لم تتوقف طيلة عهد عثمان، حيث نجد لأناس من يهود اليمن دوراً خطيراً في أحداث الفتنة التي قامت أواخر عهد عثمان، واستشهد فيها عثمان رضى الله عنه، وعلى رأس هؤلاء الوالغين في الفتنة (عبد الله بن سبأ)، وبعد مقتل عثمان رضى الله عنه ترك اليمن عدد من ولاتها وقدموا إلى الحجاز للمشاركة فيما يجرى من أحداث ومنهم يعلى بن منية وعبد الله بن ربيعة^(٣).

خامساً، ولاية الشام؛

حينما جاء عثمان إلى الخلافة، كان معاوية رضى الله عنه والياً على معظم الشام فأقره عثمان عليها^(٤)، كما أقر بعض الولاة الآخرين على ولاياتهم كاليمن والبحرين ومصر وغيرها من الولايات، وقد تطورت الأحداث وضمت إلى معاوية بعض المناطق الأخرى حتى أصبح معاوية هو الوالى المطلق لبلاد الشام، بل أصبح أقوى ولاية عثمان، وأشداهم نفوذاً، وقد كان في بداية خلافة عثمان ولاية آخرون منهم، عمير بن سعد الأنصاري وكان على حمص، وبنافس معاوية بن أبي سفيان في المكانة لدى

(١) الولاية على البلدان (١/١٧١).

(٢) تاريخ اليمن السياسى فى العصر الإسلامى، لحسن سليمان، ص ٧٩.

(٣) تاريخ الطبرى (٥/٤٤٢).

(٤) تاريخ خليفة بن خياط، ص ١٥٥.

عثمان رضى الله عنه إلا أن عميراً مرض مرضاً أعياه عن القيام بأعباء الولاية، فطلب من الخليفة عثمان أن يعفيه، فأعفاه وضم ولايته إلى معاوية بن أبى سفيان، وبذلك زاد نفوذ معاوية، فامتد إلى حمص التى ولى عليها من قبله عبد الرحمن بن خالد بن الوليد^(١)، كما توفى علقمة بن محرز، وكان على فلسطين فضم عثمان ولايته إلى ولاية معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه، فاجتمعت الشام لمعاوية بعد ستين من خلافة عثمان رضى الله عنه، وأصبح الوالى المطلق فيها طيلة السنوات الباقية من خلافة عثمان حتى توفى عثمان وهو عليها كما هو معروف^(٢)، وقد كانت فترة ولاية معاوية على الشام مليئة بالأحداث، كانت الشام من أهم مناطق الجهاد، ومع أن الشام فى داخلها قد استقرت أوضاعها وسادها الإسلام وقلت محاولات الروم إثارة الفلاقل فيها، إلا أن الشام كانت متاخمة لأرض الروم وبالتالي كان المجال مفتوحاً أمام معاوية للجهاد فى تلك النواحي، وقد تحدثنا عنها فيما مضى، وقد كان لمعاوية ثقله السياسى فى الدولة الإسلامية أواخر خلافة عثمان رضى الله عنه، إذ كان ضمن الولاة الذين جمعهم عثمان ليستشيرهم، حين بدأت ملامح الفتنة تلوح فى الأفق، كما ظهرت له آراء خاصة فى هذا الاجتماع وجهها إلى عثمان^(٣)، وسيأتى الحديث عنها بإذن الله تعالى.

سادساً، أرمينية:

بدأت الجيوش الإسلامية بالتوجه إلى أرمينية لأول مرة فى عهد عثمان رضى الله عنه، حيث توجه أول جيش إسلامى إلى تلك المنطقة من بلاد الشام - وهى من أقرب الولايات إليها - يقوده حبيب بن مسلمة الفهرى وقوامه حوالى ثمانية آلاف مقاتل، واستطاع هذا الجيش أن يفتح العديد من المواقع فى أرمينية، إلا أنه أحس بالخطر نتيجة تجمع حشود من الروم لمساعدة الأرمن فى حروبهم ضد المسلمين، فطلب المساعدة من الخليفة الذى أمر بتسيير جيش من الكوفة قوامه ستة آلاف رجل تقريباً،

(١) تاريخ الطبرى (٥/٤٤٢).

(٢) تاريخ الطبرى (٥/٤٤٣).

(٣) الولاية على البلدان (١/١٧٦).

ويقوده سلمان بن ربيعة الباهلى^(١)، وقد حدث نزاع بعد ذلك بين حبيب بن مسلمة وسلمان بن ربيعة، وقف الخليفة عثمان عليه، فقام بالكتابة إلى القوم وحل المشكلة التى بينهما^(٢)، ويبدو أن سلمان بن ربيعة تولى قيادة الجيوش الإسلامية حيث كتب إليه عثمان بإمرته على أرمينية^(٣)، ثم توغل سلمان بن ربيعة فى أرمينية ثم بلاد (الحزر)^(٤) فاتحاً ومتصراً، حتى وقعت معركة حامية بين جيشه وقوامه عشرة آلاف رجل وجيش ملك الحزر وقوامه ثلاثمائة ألف رجل - كما تقول الروايات - فقتل سلمان وجميع جنوده، وقد كتب عثمان رضى الله عنه إلى حبيب بن مسلمة أن يسير مرة أخرى إلى بلاد أرمينية فاتحه بجيشه، وقام بفتح المواقع مرة بعد أخرى وثبت أقدام المسلمين فيها، وعقد بعض المعاهدات مع أهل البلاد^(٥)، ثم رأى عثمان رضى الله عنه أن يوجهه إلى ثغور الجزيرة لخبثته بها وقدرته عليها، وعين مكانه على أرمينية حذيفة ابن اليمان بالإضافة لولايته على أذربيجان، حيث قام بعدة غزوات نحو بلاد الحزر من أرمينية^(٦)، وبعدما يقرب من سنة عزله عثمان، وولى على أرمينية المغيرة بن شعبة رضى الله عنه، حتى توفى عثمان وهو عليها وعلى أذربيجان فى الوقت نفسه^(٧)، وتعد هذه الولاية إضافة جديدة أضافها عثمان إلى الدولة الإسلامية ولم تكن فتحت قبله، وقد لقي المسلمون عناء شديداً فى فتحها وتنظيمها وضبط أمورها^(٨).

سابعاً، ولاية مصر:

كان والى مصر فى خلافة عمر بن الخطاب هو عمرو بن العاص الذى حكمها ما يقرب من أربع سنوات^(٩)، وتوفى عمر وهو وال عليها، وقد أقره عثمان بن عفان فى

(١) الطبقات (٦/١٣١).

(٢) الخراج وصناعة الكتابة، قدامة بن جعفر، ص ٣٢٦.

(٣) الفتوح ابن أعثم (٢/١١٢).

(٤) الحزر: بلاد الترك فى آسيا الوسطى وهى الآن فى جنوب روسيا.

(٥، ٦) الولاية على البلدان (١/١٧٧).

(٧) تاريخ الحقيقى (٢/١٦٨). والولاية على البلدان (١/١٧٧).

(٨) الولاية على البلدان (١/١٧٧).

(٩) النجوم الزاهرة (١/٧٧).

بداية خلافته فترة من الوقت، وكان يساعده في عمله في بعض نواحي مصر عبد الله ابن أبي السرح^(١)، الذي كان مصاحباً لعمر بن العاص منذ أيام فتوحه في فلسطين حيث كان من ضمن قواده واشترك معه في فتح مصر^(٢)، وقد عينه عمر على بعض صعيد مصر بعد فتحها^(٣)، ويبدو أن عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد بن أبي السرح حدث بينهما خلاف في وجهات النظر فوفد عمرو بن العاص على عثمان بعد مبايعته بالخلافة، وطلب منه عزل عبد الله بن سعد عن ولاية الصعيد، فرفض عثمان ذلك وذكر له أن عمر هو الذي ولي ابن أبي السرح، وأنه لم يأت بما يوجب العزل، فأصر عمرو على عزله، وأصر عثمان على عدم موافقته، ونتيجة لإصرار كل من الطرفين على رأيه - رأى عثمان أن من الأصح عزل عمرو عن مصر وتولية عبد الله ابن أبي السرح مكانه، وهذا ما حدث بالفعل^(٤)، وفي هذه الظروف قام الروم بالإغارة على الإسكندرية والاستيلاء عليها وقتلوا جميع من فيها من المسلمين، فرأى أمير المؤمنين تعيين عمرو على جيوش مصر لفتح الإسكندرية من جديد والقضاء على جيش الروم، وتمّ ذلك فعلاً^(٥)، وقد فصلت أحداثه في حديثي عن الفتوحات، ثم إن عثمان أراد أن يعيد عمرًا على ولاية أجناد مصر وحربها، وأن يجعل عبد الله بن سعد على الخراج، إلا أن عمرو رفض ذلك، وتكاد الأخبار تنذر عن ولاية عمرو في مصر خلال عهد عثمان رضي الله عنه سوى ما ورد من دوره في الجهاد، سواء في رد الروم وطردهم من الإسكندرية وتثبيت الأمن في أنحاء مصر، أو في قضايا الخراج التي دارت فيها بين عثمان وبين عمرو خلافات في الرأي^(٦)، وبعد عزل عمرو بن العاص عن مصر مرة أخرى أو عن ولاية الإسكندرية على أرجح الآراء، وبعد رفضه ما اقترحه عثمان رضي الله عنه من ولايته على الأجناد وولاية ابن أبي السرح على الخراج، أقر عثمان عبد الله بن أبي السرح مرة أخرى على مصر، وأصبح هو الوالي

(١)، (٢) سير أعلام النبلاء (١/٢٣).

(٣) ولاية مصر للكندی، ص ٣٣. وفتح مصر وأخبارها، ص ١٧٣.

(٤) الولاية على البلدان (١/١٧٨).

(٥) المصدر نفسه (١/١٧٨، ١٧٩).

(٦) الولاية على البلدان (١/١٧٩)، وفتح البلدان، ص ٢١٧.

الرسمى لمصر، والمدير الفعلى لولاية مصر بأجنادها وخراجها ومختلف شئونها^(١)، وقد كانت ولاية مصر فى أول أمرها هادئة مستقرة إلى أن تمكن مشيرو الفتنة من أمثال عبد الله بن سبأ من الوصول إليها وإثارة الناس فيها، فكان لهم وللمتأثرين بهم دور كبير فى مقتل عثمان رضى الله عنه^(٢)، وسيأتى بإذن الله تعالى تفصيل ذلك.

ثامناً: ولاية البصرة:

استشهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وواليه على البصرة أبو موسى الأشعري، وكان المجتمع البصرى فى تلك الفترة قد بدأ يشهد تغيرات أساسية فى بنيتها السكانية والاجتماعية، حيث أصبحت البصرة من أكبر المعسكرات الإسلامية إذ هاجر إليها العديد من القبائل وقام جندها بفتح الكثير من المواقع، وبالتالي اكتسبت أهمية خاصة فى بداية عهد عثمان^(٣)، وقد انشغل الناس بأمورهم الخاصة إضافة إلى الأمور العامة من جهاد وغيره، وبالتالي فإن الولاية على مثل هذه المنطقة وكذلك ما يتبعها من أقاليم أخرى تعتبر مهمة ليست باليسيرة وتتطلب دراية خاصة بإدارة أحوال تلك الولاية، ولعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يحس بمقدرة أبى موسى الخاصة على إدارة تلك الولاية، حيث أوصى الخليفة من بعده أن يترك أبى موسى فى الولاية من بعده أربع سنوات بعد وفاته^(٤)، وقد كانت فترة ولاية أبى موسى للبصرة فترة جهاد وكفاح برز فيها دور أهل البصرة، كما برز فيها أبو موسى رضى الله عنه بفتح العديد من المواقع فى بلاد فارس، إضافة إلى تثبيته لأقدام المسلمين فى المواقع المفتوحة سابقاً والتي حاول أهلها الانتفاض بعد وفاة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقام أبو موسى بغزوهم وتثبيت الإسلام فى تلك الربوع^(٥)، وبالإضافة إلى دور أبى موسى فى الفتوح فإنه قام بدور مهم فى تنظيم الرى وحفر القنوات والأنهار فى

(١) الولاية على البلدان (١/١٧٩).

(٢) المصدر نفسه (١/١٨٦).

(٣) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة، صالح العلى، ص ١٤١.

(٤) سير أعلام النبلاء (٢/٣٩١). والولاية على البلدان (١/١٨٦).

(٥) الولاية على البلدان (١/١٨٧).

البصرة أثناء ولايته زمن الخليفة عثمان، وقد قام بحفر قناة لجلب مياه الشرب إلى البصرة اعتمد عليها الناس بعد ذلك في شربهم، كما بدأ في مشاريع لحفر قنوات أخرى، إلا أن عزله عن الولاية حال دون إتمامها^(١)، فقام خليفته عبد الله بن عامر بإتمامها^(٢)، ولم تستمر ولاية أبي موسى على البصرة طويلاً إذ قام عثمان بعزله سنة ٢٩هـ كما ترجح معظم الروايات - وعين مكانه عبد الله بن عامر بن كريز^(٣)، ويورد المؤرخون عدة روايات حول عزل أبي موسى، نستخلص منها أن هناك مشكلة قامت بين أبي موسى وبين جند البصرة اختلف في سببها، وقد قدمت مجموعة من أهل البصرة إلى عثمان تحرضه على عزل أبي موسى قائلين له: ما كل ما نعلم نحب أن تسألنا عنه فأبدلنا سواه، قال عثمان: من تحبون؟ فقالوا في كل أحد عوضاً عنه، وطلب قوم من عثمان أن يولى عليهم قرشياً^(٤)، فعزل عثمان أبا موسى وولى مكانه عبد الله بن عامر، وهنا تتجلى لنا حكمة أبي موسى وسعة صدره وطاعته لأمر الخليفة، وأنه لم يكن يحرص على الولاية كما يظن البعض، فحينما بلغه عزله وتولية عبد الله بن عامر مكانه، صعد المنبر وأتى على عبد الله بن عامر - وكان شاباً صغيراً عمره ٢٥ سنة - وكان مما مدحه به أبو موسى قوله: قد جاءكم غلام كريم العمات والخالات والجذات في قریش يفيض عليكم المال فيضاً^(٥).

لقد استطاع عثمان رضي الله عنه في تلك الظروف الصعبة التي تمر بها ولاية البصرة أن يعين قائداً جديداً يستجيب له الأجناد، وبالتالي توحدت صفوفهم أمام الأعداء، فضلاً عن أن هذا العزل تكريمٌ لأبي موسى من أن يهان من قبل بعض العوام ممن تأثروا بالغوغاء وأفكار المتمردين المنحرفة عن حملوا في نفوسهم كراهيته والتشهير به والتفوا عليه^(٦)، وقد كانت ولاية البصرة تمر بظروف صعبة حينما تولى

(١، ٢) الولاية على البلدان (١/١٨٧).

(٣) تاريخ الطبري (٥/٢٦٤).

(٤) تاريخ الطبري (٥/٢٦٤).

(٥) المصدر نفسه (٥/٢٦٦). وسير أعلام النبلاء (٣/١٩).

(٦) الولاية على البلدان (١/١٨٩).

ابن عامر، مما دفع عثمان رضى الله عنه إلى إجراء تغيير أساسى فى إدارة الولاية، إذ إنه ضم أجناد البحرين وعمان إلى ابن عامر فى البصرة حتى يعطيه سلطة أقوى للوقوف أمام التحديات التى تواجهه فى تلك الفترة، وقد كان لهذا الدمج أثره الكبير على قوة ابن عامر ونفوذه، كما أنه أثر من ناحية أخرى على البصرة نفسها، حيث أصبحت إحدى العواصم الإسلامية المستقرة، وزادت هجرة القبائل إليها أكثر من ذى قبل^(١)، وبالتالي زادت أعباء الولاية سواء فى الديوان أو فى تنظيم مختلف شئون الولاية الإدارية والمالية والأمنية وغيرها، وقد كانت لولاية البصرة واجنادها ولابن عامر نفسه فتوح عظيمة بدأت بعد ولايته مباشرة، وانتهت قبيل مقتل أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه^(٢)، وقد تمّ بيانها عند حديثنا عن فتوحات عثمان رضى الله عنه، وقد اكتسبت البصرة أيام ابن عامر مكانة خاصة بن الولايات الإسلامية لفتت نظر الخليفة عثمان رضى الله عنه نتيجة فتوحها وتوسعها فى مختلف المجالات فأصبحت مركزاً إدارياً مرموقاً^(٣)، وتدار منها العديد من المناطق الإسلامية، وكان ابن عامر مسؤولاً عن توزيع الأمراء فى مختلف المناطق التابعة لولايته، باتفاق مسبق مع الخليفة عثمان رضى الله عنه وبالتالي كانت مسؤولياته عظيمة، وقد قام ابن عامر بتوزيع الأمراء على المناطق التابعة له بمجرد أن تولى الإمارة حيث اختار بعض القواد والأمراء وعيّنهم على تلك المناطق، ومن أهمها عُمان والبحرين وسجستان وخراسان وفارس والأهواز، بما فى هذه المناطق من مدن مختلفة ومناطق شاسعة^(٤)، وكان يجرى تنقلات بين هؤلاء الأمراء والعمال من وقت لآخر تبعاً للمصلحة فى ذلك، كما اشتهرت البصرة فى أيامه ببيت مالها الذى زاد دخله فى أيامه وكثرت مصروفاته، وكان المسئول عن بيت المال فى أيام عمر، زياد بن أبى سفيان وقد كان يلى بعض المشاريع من حفر للأنهار وغيرها نيابة عن ابن عامر^(٥)، وفى ولاية ابن عامر ضربت

(١) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة، ص ١٤١.

(٢) الولاية على البلدان (١٨٩/١).

(٣) المصدر نفسه (١٩٣/١).

(٤) نهاية الأرب (٤٣٣/١٩).

(٥) الولاية على البلدان (١٩٤/١).

الدرهم في أنحاء فارس التابعة لولايته، وعليها ألفاظ عربية في الفترة من سنة ٣٠ هـ حتى ٣٥ هـ^(١)، وقد كان ابن عامر محبوباً لأهل البصرة عموماً منذ قدومه إليها، ورغم ما أثير حوله من أن عثمان ولّاه لأنه قريب له، إلا أن أهل البصرة تمسكوا به^(٢)، ومن خلال هذا العرض تبين أن ولاية البصرة في عهد عثمان انحصرت في رجلين هما أبو موسى الأشعري وعبد الله بن عامر، ولقد كان لكلا الواليين دوره الرئيسى في ضبط أمور البصرة وما يتبعها^(٣).

تاسعاً: ولاية الكوفة:

كان على ولاية الكوفة حين بويج عثمان بالخلافة المغيرة بن شعبة رضى الله عنه وكان قد تولى في أواخر عهد عمر رضى الله عنه^(٤)، وقد قام عثمان رضى الله عنه بعزل المغيرة عن الكوفة وتعيين سعد بن أبى وقاص مكانه، وقد ذكر في سبب العزل أنه كان بوصية من عمر رضى الله عنه حيث أوصى الخليفة من بعده أن يستعمل سعداً نظراً لأن عمر عزله عن الكوفة في أواخر خلافته، وقال: إني لم أعزله عن سوء ولا خيانة وأوصى الخليفة بعدى أن يستعمله^(٥)، تولى سعد بن أبى وقاص على الكوفة وكان قرار التعيين مشتركاً بين سعد بن أبى وقاص وعبد الله بن مسعود، سعد على الصلاة والجند، وابن مسعود على بيت المال^(٦)، وقد كان سعد بن أبى وقاص صاحب خبرة في ولاية الكوفة وله معرفة تامة بأمورها وسكانها وثغورها وأجنادها؛ نظراً لأنه كان مؤسسها في عهد عمر، كما أنه وليها عدة سنوات، فكان أخبر الناس بها وأعلمهم بأحوالها^(٧)، ومن الأعمال التى قام بها سعد أثناء ولايته في عهد عثمان على الكوفة قيامه بزيارة بعض الثغور التابعة للكوفة ومنها (الرى) وترتيب أمورها

(١) الدرهم الإسلامية، وداد على الفزاز، ص ١٤.

(٢) الولاية على البلدان (١/١٩٤).

(٣) المصدر نفسه (١/١٩٥).

(٤ - ٥) تاريخ الطبرى (٥/٢٣٩).

(٦) تاريخ الطبرى (٥/٢٥٠). والولاية على البلدان (١/١٩٦).

(٧) عثمان بن عفان، لصديق عرجون، ص ١٠٥. والولاية على البلدان (١/١٩٦).

وضبطها سنة ٢٥هـ^(١)، وكذلك قيامه بتعيين بعض الأمراء والعمال الجدد في (همدان) وما حولها، ولم تطل فترة ولاية سعد بن أبي وقاص على الكوفة إذ حدث بينه وبين عبد الله بن مسعود خلاف، وكان ابن مسعود على بيت المال، فاقترض منه سعد شيئاً من الأموال إلى أجل، فجاء الأجل ولم يكن عند سعد ما يسدّ به ذلك القرض، فجاء ابن مسعود يطالبه بتسديد ذلك القرض فاشتدا في الكلام واجتمع حولهما الناس، فقرر عثمان عزل سعد وإبقاء ابن مسعود، فكانت عقوبة سعد العزل وعقوبة ابن مسعود الإقرار في العمل كما يقول الطبري^(٢)، وهذه القصة تدلنا على تورع كلا الصحابيّن، وتدل على حاجة سعد إلى المال، وعدم وجود ما يكفيه، وأنه - لذلك اضطر إلى الاقتراض من بيت المال، كما تدل على اجتهاد عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في حفظ أموال المسلمين وإصراره على استرداد القرض من سعد وإلى الكوفة وحاكمها، وكانت ولاية سعد على الكوفة سنة وشهراً^(٣)، وبعد عزل سعد ولي عثمان على الكوفة الوليد بن عقبة بن أبي معيط الذي كان قبل تعيينه على الكوفة قد عمل قائداً لجيش من جيوش أبي بكر في الأردن، ثم عمل لعمر على عرب الجزيرة^(٤)، وفي أواخر خلافة عمر وأوائل خلافة عثمان كان الوليد أحد قواد أجناد الكوفة، وقام بالجهاد في العديد من المواقع قائداً لتلك الأجناد^(٥)، فكان قبل تعيينه على ولاية الكوفة صاحب خبرة بالكوفة وأجنادها وثغورها ومختلف شئونها، وكعادة الخلفاء الراشدين في تفضيل أصحاب الخبرة في المنطقة على غيرهم عند الحاجة إلى تعيين ولاية جدد، فقد وقع اختيار عثمان رضي الله عنه على الوليد بن عقبة لولاية الكوفة، وكثير ممن كتبوا عن تعيين عثمان رضي الله عنه للوليد سواء من المتقدمين أو من المتأخرين حاولوا اتهام عثمان في هذا التعيين، فهم يقولون: إن عثمان استعمل على

(١) الولاية على البلدان (١/١٩٧).

(٢) تاريخ الطبري (٥/٢٥١).

(٣) تاريخ الطبري (٥/٢٥٠).

(٤) المصدر نفسه (٥/٢٥١).

(٥) الولاية على البلدان (١/١٩٨).

الكوفة أخاه لأمه الوليد بن عقبة^(١)، وهذا فيه غمز مباشر لعثمان رضى الله عنه^(٢)، وفى بداية ولاية الوليد كان يشترك معه عبد الله بن مسعود، حيث كان والياً على بيت المال إلا أن خلافاً حدث بين الوليد وعبد الله بن مسعود على أمر يتعلق بأموال الدولة، ورفع النزاع إلى عثمان ليفصل فيما يراه فرأى عثمان رضى الله عنه أن من المصلحة توحيد الولاية وبيت المال فى يد الوليد وعزل عبد الله بن مسعود، وقد اعتقد أن المصلحة تقتضى ذلك الضم^(٣)، وقد بقى الوليد بن عقبة فى الكوفة محبوباً من أهلها، ليس على داره باب^(٤)، يستقبل الناس فى مختلف الأوقات ليحل مشكلاتهم، ويقوم بالواجبات الملقاة عليه، إلى أن وقعت بعض الحوادث فى الكوفة أوجدت بعض الحاقدين عليه بسبب موقفه الحارم فى قضية ابن الحيسمان الخزاعى الذى قتله مجموعة من شباب الكوفة، فأقام الوليد بن عقبة بأمر من عثمان رضى الله عنه حد القصاص على هؤلاء الشباب المعتدين، ومنذ تلك الحادثة أخذ أولياء هؤلاء المجرمين وأقاربهم يروجون الشائعات عن الوليد بن عقبة، ويحاولون جاهدين أن يتصيدوا أخطاء الوليد ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، واستطاع أولئك المتورون تلفيق قضية ضد الوليد، وهى دعوى شربه الخمر، التى سببت إقامة الحد عليه وعزله عن ولاية الكوفة، وهذا ما أراده المتآمرون^(٥)، وسيأتى تفصيل قضية شرب الوليد بن عقبة للخمر عند حديثنا عن ولاية عثمان رضى الله عنه بإذن الله تعالى.

وبعد عزل الوليد أرسل عثمان إلى أهل الكوفة كتاب جاء فيه: من عبد الله عثمان أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة، سلام أما بعد فإنى استعملت عليكم الوليد بن عقبة حتى تولت منعه واستقامت طريقته، وكان من صالحى أهله وأوصيته بكم ولم أوصكم به، فلما بذل لكم خيره وكف عنكم شره، وغلبتكم علانيته طعتم به فى

(١) الولاية على البلدان (١/١٩٨).

(٢) انظر: الاتهامات التى ألغها طه حسين فى كتابه الفتنة الكبرى (١/٩٤).

(٣) عثمان بن عفان، لصادق مرجون، ص ١٠٨.

(٤) تاريخ الطبرى (٥/٢٥١).

(٥) الولاية على البلدان (١/٢٠١).

سريرته والله أعلم بكم وبه، وقد بعثت عليكم سعيد بن العاص أميراً^(١)، وكانت شكاية أهل الكوفة للوليد وعزله حلقة في سلسلة طويلة من الشكايات والعزل من قبل بعض أهل الكوفة لأمرائهم^(٢)، وقد غضب الكثير من أهل الكوفة لعزل الوليد، وبعد عزل عثمان رضى الله عنه للوليد عن ولاية الكوفة عين بعده سعيد بن العاص سنة ٣٠هـ الذى كان مقيماً في المدينة فاتجه إلى الكوفة، ورافقه وفد من أهل الكوفة الذين قدموا على عثمان في شكاية الوليد، وكان فيهم الأشتر النخعي وغيره^(٣)، فلما وصل سعيد الكوفة، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: والله لقد بعثت إليكم، وإنى لكاره ولكنى لم أجد بُدّاً إذ أمرت أن أتممر، إلا أن الفتنة قد أطلعت خطمها وعينها والله لأضربن وجهها حتى أقمعها أو تعينى، وإنى الرائد نفسى اليوم ثم نزل عن المنبر^(٤)، ومن خلال هذه الخطبة يتبين لنا معرفة سعيد ببدايات الفتنة وإرهاصات التي بدأت تظهر في الكوفة قبل ولايته، وتهديده لأصحاب الفتنة وعزمه على القضاء على الفتنة التي استشعر بدايتها في الكوفة^(٥)، واستطاع سعيد بن العاص أن ينظم أمور ولايته ويعين الأمراء والولاة في مختلف الثغور التابعة للكوفة ويضبط أمورها^(٦)، وقام بغزوات ناجحة تم ذكرها عند حديثنا عن الفتوحات في عهد عثمان، ثم بدأت الفتنة تطل برأسها في الكوفة سنة ٣٣هـ، وسيأتى الحديث عنها بإذن الله تعالى بالتفصيل، ودبر الأشتر النخعي مؤامرة ضد سعيد بن العاص وانخدع بها بعض عوام الكوفة فقاموا مع الأشتر في رفض ولاية سعيد والطلب من عثمان إبداله بغيره، ولم يكن سعيد سوى وال من الولاة الذين سبق لأهل الكوفة أن اعترضوا عليهم وطلبوا عزلهم قبل ذلك كسعد بن أبى وقاص والريد بن عقبة وغيرهم، وكان طلب خلعه مقروناً بثورة حمل الفوغاء فيها السلاح، وهى سابقة خطيرة في تاريخ الكوفة

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٨٠).

(٢) الولاية على البلدان (١/ ٢٠٦).

(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٨٠).

(٤) المصدر نفسه (٥/ ٢٨٠).

(٥) الولاية على البلدان (١/ ٢٠٧).

(٦) الولاية على البلدان (١/ ٢٠٨).

بل وفي تاريخ الدولة الإسلامية كلها، وليس فيها سبب حقيقى، وإنما السبب الحقيقى هو تطور الأوضاع والتغير الذى طرأ على نفوس الناس بتأثير دعاة الفتنة والخروج على عثمان، وقد أصدر الخليفة عثمان رضى الله عنه أمراً بتولية أبى موسى الأشعرى على الكوفة وعزل سعيد بن العاص بناء على طلب بعض أهل الكوفة، وقد استهل أبو موسى ولايته بخطبة أمام أهل الكوفة قال فيها: أيها الناس لا تنفروا فى مثل هذا ولا تعودوا لمثله، الزموا جماعتكم والطاعة وإياكم والعجلة اصبروا فكأنكم^(١) بأمرى. قالوا: فصل بنا. قال: لا إلا على السمع والطاعة لعثمان بن عفان، قالوا: على السمع والطاعة لعثمان^(٢)، وقد كتب عثمان إلى أهل الكوفة: بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد فقد أمرت عليكم من اخترتم وأعفينكم من سعيد، والله لأفرشنكم عرضى ولأبذلن لكم صبرى ولاستصلحنكم بجهدى، فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يعصى الله فيه إلا سألتهم، ولا شيئاً كرهتموه لا يعصى الله فيه إلا استعفيتهم منه، أنزل فيه عندما أجبتهم حتى لا يكون لكم على حجة^(٣).

وقد استمر أبو موسى رضى الله عنه والياً على الكوفة حتى قتل عثمان رضى الله عنه^(٤)، وهكذا نجد أن ولاية الكوفة فى خلافة عثمان رضى الله عنه قد تولى عليها خمسة ولاة ابتداء بالمغيرة بن شعبة وانتهاء بأبى موسى الأشعرى، وقد حفلت فترة الولاية لكل من هؤلاء الخمسة بالعديد من الحوادث التى برزت على ساحة الأحداث، وكان لها تأثير مباشر على مسيرة الدولة الإسلامية، وقد نمت الفتنة فى الكوفة واشتهر عن أهلها تسلطهم على ولاتهم ورفضهم لهم فى كثير من الأحيان مهما استرضوهم، فقد شكوا سعد بن أبى وقاص، وشكوا الوليد بن عقبة، وطرودوا سعيد بن العاص، ولعلنا نتذكر هنا أنهم أتعبوا عمر قبل عثمان حتى قال فيهم: من عذيرى من أهل الكوفة.

وقد كان لبعض أهل الكوفة دور مباشر ورئيسى فى مقتل الخليفة عثمان رضى الله

(١) المراد اصبروا فإن معكم أميراً الآن إن سمعتم وأطعتم.

(٢) تاريخ الطبرى (٣٣٩/٥).

(٣، ٤) المصدر نفسه (٣٤٣/٥).

عنه، وجدير بالذكر أنه كانت هناك بعض الولايات المتفرعة من ولاية الكوفة كطبرستان، وأذربيجان، وبعض المناطق الأخرى شمالي بلاد فارس^(١)، وما يؤيد ارتباطها بالكوفة أن ولاية الكوفة ومنهم سعيد بن العاص هم الذين كانوا يتولون الفتوح في نواحيها، كما كانوا يؤدبون أهلها في حال عصيانهم، وقد لعبت هذه الولايات الفرعية دوراً مرتبطاً بدور الكوفة أيضاً إلى حد كبير^(٢).

ومن خلال العرض السابق للولايات الإسلامية في عهد عثمان يتبين لنا أن هناك ولايات تمتعت بالاستقرار طيلة عهد عثمان رضى الله عنه، ومنها الولايات الواقعة في بلاد العرب كالبحرين واليمن ومكة والطائف وغيرها، كما تمتعت الشام بالاستقرار أيضاً طيلة خلافة عثمان رضى الله عنه، أما البصرة فقد شغل أهلها بالفتوح مع واليهم عبد الله بن عامر، وأما مصر والكوفة فقد حدث فيهما الاضطراب في أواخر خلافة عثمان وبالتالي ولدت فيهما الفتنة، وأقدم أناس من أهلها على غزو المدينة وعلى قتل الخليفة عثمان رضى الله عنه بدلاً من غزو أعداء الإسلام^(٣).

(١) الولاية على البلدان (١/٢١٣).

(٢) المصدر نفسه (١/٢١٣).

(٣) المصدر نفسه (١/٢١٤).

المبحث الثانى

سياسة عثمان مع الولاية وحقوقهم وواجباتهم

أولاً، سياسة عثمان مع الولاية:

تولى عثمان رضى الله عنه الخلافة فى بداية سنة ٢٤هـ، وكان ولاية عمر رضى الله عنه ينتشرون فى الأمصار الإسلامية، وقد أقرهم عثمان فى ولاياتهم عامًا كاملاً، ثم باشر بعد ذلك العزل والتعيين فى هذه الأمصار بمقتضى سلطته وحسب ما يراه فى مصلحة المسلمين، ولعل عثمان فى ذلك قد اتبع وصية عمر رضى الله عنه التى أوصى فيها: أن لا يقر لى عامل أكثر من سنة وأقروا الأشعرى أربع سنين^(١)، وكان عثمان رضى الله عنه فى سياسته مع الولاية يعتمد على مشورة الصحابة فى كثير من تصرفاتهم، كما أنه قام بضم بعض الولايات إلى بعضها لما يراه فى مصلحة المسلمين، ولذلك قد حدد الولاية إلى حد ما فى بعض المناطق فقد ضم البحرين إلى البصرة، كما ضم بعض ولايات الشام إلى بعضها الآخر نتيجة لوفاء بعض الولاة أو طلبهم الإعفاء من العمل، وقد كان عثمان رضى الله عنه دائم النصح لولائه بالعدل والرحمة بين الناس فكان أول كنه إلى ولاته بعد مبايعته خليفة للمسلمين: أما بعد فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة وإن صير هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة، ولا يكونوا رعاة، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء، ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم ما لهم وتأخذوهم بما عليهم، ثم تشنوا بالذمة فتعطوهم الذى لهم وتأخذوا بالذى عليهم، ثم العذر الذى تتابون فاستفتحوا بالوفاء^(٢). ونحن نرى من هذا أن عثمان حدد لولائه معالم السياسة التى يجب أن يسيروا عليها، من

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٩١).

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٤٤).

إعطاء الحقوق للمسلمين، ومطالبتهم بما عليهم من واجبات، وإعطاء أهل الذمة حقوقهم ومطالبتهم بما عليهم من واجبات، وبإلوفاء حتى مع الأعداء وبالعادل فى ذلك كله، وأن لا يكون همهم جباية المال^(١)، كما كان عثمان رضى الله عنه يكتب إلى عماله ببعض التعليمات الخاصة فى الأمور المستجدة التى تتعلق بإداراتهم للولايات، إضافة إلى كتبه العامة والتى كان يصدر فيها تعليمات محددة يلتزم بها الجميع، ومن ذلك إلزامه الناس فى الولايات بالمصاحف التى كتبت فى المدينة على ملأ من الصحابة، حيث أرسل مصاحف إلى كل من الكوفة والبصرة ومكة ومصر والشام والبحرين واليمن والجزيرة - بالإضافة - إلى مصحف المدينة^(٢)، وقد أمر عثمان بجمع المصاحف الأخرى وإحراقها وذلك بموافقة الصحابة فى المدينة، كما ورد ذلك عن على رضى الله عنه^(٣)، كما كان عثمان رضى الله عنه حريصاً على أن يتنافس الأمراء فيما بينهم فى الجهاد وفتح بلدان جديدة، فقد كتب إلى عبد الله بن عامر فى البصرة، وإلى سعيد بن العاص فى الكوفة يقول: أيكما سبق إلى خراسان فهو أمير عليها، مما دفع ابن عامر إلى فتح خراسان وسعيد بن العاص إلى فتح طبرستان^(٤)، وقد كان عثمان يشترط بعض الشروط على الولاة أحياناً ليضمن أن يكون تصرفهم فى صالح المسلمين، ومثال ذلك أن معاوية بن أبى سفيان كتب إلى عثمان يهون عليه ركوب البحر إلى قبرص، فكتب إليه عثمان: فإن ركبت البحر ومعك امرأتك، فاركبه مأذوناً لك وإلا فلا. فركب البحر وحمل امرأته^(٥).

ثانياً: أساليب عثمان رضى الله عنه لمراقبة عماله والاطلاع على أخبارهم:

اتبع عثمان رضى الله عنه عدة أساليب لمراقبة عماله والاطلاع على أخبارهم، من ذلك:

- (١) الولاية على البلدان (١/٢١٥).
- (٢) تاريخ المدينة (٣/٩٩٧).
- (٣) المصدر نفسه (٣/٩٩٥، ٩٩٦).
- (٤) تاريخ البقومى (٢/١٦٦).
- (٥) الولاية على البلدان (١/٢١٦). والخراج وصناعة الكتابة، ص ٣٠٦.

١ - حضوره لموسم الحج:

كان عثمان يحرص على الحج بنفسه ويلتقى بالحجاج ويسمع شكاياتهم، ونظلمهم من ولايتهم، كما أنه طلب من العلماء أن يوافوه في كل موسم، وكتب إلى الأمصار أن يوافيه العمال في كل موسم ومن يشكوهم^(١)، وكان ذلك استمراراً لما كان عليه الحال أيام عمر من لقاء سنوى بين الخليفة والولاية والرعية^(٢).

٢ - سؤال القادمين من الأمصار والولايات:

وتعتبر هذه الطريقة من أيسر الطرق حيث إنها لا تكلف الخلفاء كثيراً، كما أنها تأتي في كثير من الأحيان دون ترتيب مسبق، وقد اشتهر عن الخلفاء الراشدين الأربعة عملهم بهذه الطريقة، وكان وجود الخليفة في المدينة المنورة خلال عصور الخلفاء الثلاثة الأول مما يساعد الخليفة نظراً لكثرة الوافدين إلى المدينة للزيارة، وخصوصاً أثناء موسم الحج^(٣).

٣ - وجود أناس من أهل البلاد يكتبون إلى الخليفة:

فقد استقبل عثمان رضى الله عنه الكتب التي أرسلها بعض الرعية من الأمصار إلى المدينة بما فيها من شكاوى، فقد استقبل كتاباً أرسله أهل الكوفة إليه، وكذلك كتاباً أرسله أهل مصر إليه، كما استقبل كتاباً أخرى أرسلها أناس من الشام، وقد اطلع عثمان على ما في هذه الكتب وعالج ما فيها^(٤).

٤ - إرسال المفتشين إلى الولايات:

بعث عثمان رضى الله عنه العديد من المفتشين إلى بعض الولايات للاطلاع على أحوالها ومعرفة ما يشاع عن ولاته من ظلم الرعية، وقد جاء أولئك المفتشون بتقارير وافية عن أحوال أولئك الولاة^(٥)، فقد أرسل عمار بن ياسر إلى مصر، ومحمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأسامة بن زيد إلى البصرة، وعبد الله بن عمر إلى الشام،

(١، ٢) الولاية على البلدان (٢١٦/١) نقلاً عن تاريخ الطبرى.

(٣) المصدر نفسه (١٢٢/٢).

(٤ - ٥) المصدر نفسه (٢١٧/١).

بالإضافة إلى إرساله رجالاً آخرين إلى أماكن أخرى^(١).

٥ - السفر إلى الولايات والاطلاع على أحوالها مباشرة:

كان عثمان رضى الله عنه يزور مكة في موسم الحج ويطلع على أحوالها، ويقابل الولاة بها وحجاج الأمصار، ويسأل عن أخبارهم وأحوالهم.

٦ - طلب الموفدين من الولايات لسؤالهم عن أمرائهم وولاتهم:

كان الخلفاء الراشدون في كثير من الأحيان يطلبون من الولاة أن يبعثوا إليهم بأناس من أهل البلاد ليسألوهم، وقد تكرر ذلك من عمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم، أما أبو بكر فكان مشغولاً بأمور جهادية منعه من ذلك، كما كان لقصر مدة خلافته دور في قلة هذه الحوادث^(٢).

٧ - استقدام الولاة وسؤالهم عن أحوال بلادهم:

وقد اشتهرت هذه الطريقة خلال عصر الخلفاء الراشدين الأربعة، وقد كانت الاتصالات المستمرة قائمة بين الخليفة عثمان وبين ولاته لبحث مختلف شئون الدولة، ومن أهم هذه الاتصالات الاجتماع الذي عقده عثمان مع ولاته في المدينة، حيث دعا ولاية البصرة والكوفة والشام ومصر وغيرهم، ودعا كبار الصحابة وعقد معهم اجتماعاً بحث فيه بؤادر الفتنة التي بدأت تظهر، وتعرف على آراء أولئك الولاة في الفتنة وكيفية علاجها فقد أدلى كل والٍ من هؤلاء برأيه في علاج تلك الظاهرة^(٣).

٨ - المراسلة مع الولاة:

وطلب التقارير منهم عن أحوال رعيّتهم وأحوال بلادهم، وقد اشتهرت هذه الطريقة خلال عصور الخلفاء الراشدين الأربعة، وكانت بالأحرى أهم الطرق خلال عصر أبي بكر الصديق وعلى بن أبي طالب رضى الله عنهما^(٤).

(١) المصدر نفسه (١/٢١٧).

(٢) الولاية على البلدان (٢/١٢٢).

(٣) المصدر نفسه (٢/١٢٣).

(٤) الولاية على البلدان (٢/١٢٢).

هذه أهم الأساليب التي اتبعها عثمان في متابعة ومراقبة ولايته، وقد كان رضى الله عنه حريصاً على قيام الولاية بواجباتهم، وفي حالة وقوع أى مخالفة منهم، فإنه يودبهم على ذلك الخطأ إذا وصل إلى علمه، وإذا ثبت عليه ارتكابه شرع في عقوبته دون النظر إلى حسن ظنه في العامل، ومن ذلك جلده للوليد بن عقبة حد الخمر بعد اكتمال شروطه وبغض النظر عن صدق الشهود من عدمه^(١)، وقام بعد جلده بعزله عن ولاية الكوفة^(٢)، وقد درج عثمان رضى الله عنه أن يكتب إلى أهل الأمصار عن تعيين والٍ جديد عليهم ليوصيهم به كما أوصاه بهم، وكذلك كان يكتب في كثير من الأحيان إلى العامة في الأمصار ناصحاً، حتى يساعد الولاية في تسيير أمور الرعية، ومن ذلك الكتاب الذى أرسله عثمان إلى الأمصار يقول فيه: أما بعد فإنى آخذ العمال بموافاتي في كل موسم، وقد سلطت الأمة منذ وليت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا يرفع على شئ ولا على أحد من عمالي إلا أعطيته، وليس لى ولا لعمالي حق قبل الرعية إلا متروك لهم فيا من ضرب سراً وشتم سراً... من ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم فيأخذ بحقه حيث كان منى أو من عمالي... أو تصدقوا فإن الله يجزى المتصدقين، فلما قرئ في الأمصار أبكى الناس ودعوا لعثمان^(٣).

ثالثاً: حقوق الولاية،

استقر في عهد الخلفاء الراشدين بأن للولاية حقوقاً مختلفة يتصل بعضها بالرعية، وبعضها بالخليفة، بالإضافة إلى حقوق أخرى متعلقة ببيت المال، وكل هذه الحقوق الأدبية أو المادية تهدف بالدرجة الأولى إلى إعانة الولاية على القيام بواجباتهم وخدمة المصلحة العامة، ومن أهم هذه الحقوق:

١ - الطاعة في غير معصية الله:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ

(١) الولاية على البلدان (١٢٦/٢).

(٢) الولاية على البلدان (٢١٧/١).

(٣) تاريخ الطبرى (٣٤٩/٥).

تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ [النساء: ٥٩]

قال القرطبي: لما تقدم إلى الولاية في الآية المتقدمة وبدأ بهم فأمرهم بأداء الأمانات، وأن يحكموا بين الناس بالعدل، تقدم في هذه الآية فأمر الرعية بطاعته جل وعلا أولاً وهي امتثال أوامره واجتناب نواهيه، ثم بطاعة رسوله ثانياً فيما أمر به ونهى عنه، ثم بطاعة الأمراء ثالثاً، على قول الجمهور وأبى هريرة وابن عباس وغيرهم^(١)، وفي العهد الراشدي خصوصاً والمجتمع الإسلامي عموماً، الشريعة فوق الجميع، يخضع لها الحاكم والمحكوم، ولهذا فإن طاعة الحكام مقيدة دائماً بطاعة الله ورسوله، كما قال رسول الله ﷺ «لا طاعة في المعصية، إنما الطاعة في المعروف»^(٢).

٢ - بذل النصيحة للولاية:

من منطلق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو الأساس الذي تقره الأمة بأكملها، والذي وردت الأوامر به من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحدثت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على وجه العموم، ومنها ما خص الولاية به، حيث أمرت الأحاديث النبوية ببذل النصيحة لهم، وقد دأب الخلفاء الراشدون الأربعة على الكتابة لولاتهم باستمرار يبذلون لهم النصيحة، والنصوص الواردة في هذه كثيرة يصعب حصرها^(٣).

٣ - يجب على الرعية للوالي إيصال الأخبار الصحيحة إليه:

والصدق في ذلك سواء ما يخص أحوال العامة، أو ما يخص أخبار الأعداء أو ما كان متعلقاً بعمال الوالي وموظفيه، والعجلة في ذلك قدر المستطاع خصوصاً ما كان متعلقاً بالأمور الحربية وأخبار الأعداء وما يتعلق بخيانات العمال وغير ذلك، من منطلق الاشتراك في المسؤولية مع الوالي في مراعاة المصلحة العامة للأمة^(٤).

(١) تفسير القرطبي (٥/٢٥٩).

(٢) البخاري، كتاب الأحكام رقم ٧١٤٥.

(٣) الولاية علو البلدان (٢/٥٦).

(٤) الولاية على البلدان (٢/٥٧).

٤ - مؤازرة الوالى فى موقفه:

وعندما اندلعت الفتنة وطالب أصحابها من عثمان عزل بعض ولاته، رفض عثمان ذلك، وكان هذا التعضيد يخدم الهدف العام للدولة الإسلامية ويمنع الاضطراب، ولا يعنى ذلك عدم الالتفات إلى الشكاوى ومؤازرة الولاية بدون تحقق، بل إن هذا التعضيد من الخلفاء إنما يأتى بعد تحقق وتثبت من تلك الشكايات، وبعد محاسبة دقيقة قد تتطلب إرسال لجان خاصة من بعض الصحابة للتحقيق فى تلك القضايا، وكما أن المؤازرة للوالى واجبة من قبل الخليفة، فهى كذلك واجبة من قبل الرعية، وأن على الناس احترامهم وتقديرهم^(١). وإن كان عثمان رضى الله عنه قد عزل بعض الولاية فذلك لما رآه من مصلحة الرعية.

٥ - احترامهم بعد عزلهم:

ومن ذلك ما فعله عثمان مع أبى موسى الأشعرى، وعمرو بن العاص رضى الله عنهما بل نلاحظ أن عثمان استشار عمرو بن العاص فى مسائل الدولة الكبرى بعد عزله، وهذا احترام فائق من عثمان رضى الله عنه لمن عزلهم من الولاية.

٦ - مرتبات الولاية:

ومن حقوق الولاية مرتباتهم التى يعيشون عليها، ومبدأ الأرزاق والرواتب للعمال متفق عليه بين الخلفاء الراشدين اقتداء بما فعله الرسول ﷺ، ولئن كانت الروايات قد اقتصرت على ذكر مرتبات بعض العمال فقط، فإن المفهوم أن جميع العمال كانت لهم مرتبات خلال عصور الراشدين، ومعظم الروايات التى وردت فى هذا الموضوع كانت تركز بالدرجة الأولى على عصر عمر بن الخطاب، حيث ورد ذكره مقدار أرزاق بعض الولاية فى عصره، وقد مضى عثمان وعلى رضى الله عنهما على سيرة من سبقهما من الخلفاء فى فرض الأرزاق للعمال والولاية، إلا أن عصر عثمان رضى الله عنه كان على ما يبدو أكثر توسعاً فى بذل الأعطيات للناس عموماً ومن ضمنهم الولاية، نظراً لزيادة الدخل فى بيت المال نتيجة الفتوح الواسعة التى قام بها ولاية

(١) الولاية على البلدان (٥٨/٢).

عثمان في المشرق وفي أرمينية وإفريقية وغيرها، بل إن عثمان رضى الله عنه كان يعطى مكافآت مقطوعة للعمال خاصة وبارزة، فقد أعطى لعبد الله بن سعد بن أبي السرح خمس الخمس من الغنيمة جزاء فتوحه في شمال إفريقية حيث قال له: إن فتح الله عليك غداً إفريقية فلك ما آفاه الله على المسلمين خمس الخمس من الغنيمة. نفلاً^(١)، وعلى كل حال فإن إعطاء الأرزاق للعمال وإغناءهم عن الناس كان مبدأ إسلامياً فرضه رسول الله ﷺ وسار عليه الخلفاء الراشدون من بعده، حتى أغنوا العمال عن أموال الناس، وفرغوهم للعمل ولمصلحة الدولة^(٢).

رابعاً، واجبات الولاية،

١ - إقامة أمور الدين، ومن أبرز تلك الواجبات:

أ - نشر الدين الإسلامى بين الناس:

حيث اختص ذلك العصر بفتوحات عظيمة اقتضت من الولاية العمل على نشر الدين في البلاد المفتوحة مستعينين بمن معهم من الصحابة، وقد كان الولاية يقومون بهذه المهمة مع وجود من يساعدهم في بداية الفتوح في عهد أبى بكر رضى الله عنه، ثم بدأت الأمصار تعتمد على معلمين وفقهاء قدموا لهذه المهمة بعد التوسع وبناء الأمصار في عهد عمر، وقد تأكد وجود المعلمين بعد ذلك خلال الفترة الأخيرة من خلافة عمر، وخلال فترة خلافة عثمان وعلى، وذلك لكثرة السكان في الأمصار وكثرة طلاب العلم واتشغال الولاية بأمور مختلفة، وتوسع الولايات حيث كانت تتبع الولاية الواحدة العديد من الأمصار التي كان الناس فيها بحاجة إلى فقهاء ومعلمين^(٣).

ب - إقامة الصلاة:

كان الخليفة نفسه طيلة عصر الخلفاء الراشدين الأربعة هو الذى يقيم صلاة الجمعة والجماعة والأعياد في البلد الذى يقيم فيه ويخطب في الناس الجمعة والأعياد

(١) تاريخ الطبرى (٥/٢٥٢).

(٢) الولاية على البلدان (٢/٦٤).

(٣) المصلى نفسه (٢/٦٦).

والمناسبات الأخرى، وكذلك نوابه يقومون بهذه المهمة في أمصارهم، وطيلة عهد الخلفاء الراشدين كان الولاية يخطبون في الناس بأنفسهم ويؤمنونهم في الصلاة^(١).

جـ - حفظ الدين وأصوله:

كان الخلفاء الراشدون بعد وفاة الرسول ﷺ يشعرون بعظم الواجب الملحق عليهم في حفظ الدين على أصوله الصحيحة التي نزلت على رسول الله ﷺ، وكانوا يعملون جاهدين في إحياء سنة الرسول ﷺ والقضاء على البدع، والعمل على احترام دين الله واحترام رسوله ﷺ، وردّ كيد من يحاولون اللبس على هذا الدين، وقد عمل عثمان رضي الله عنه على كتابة المصحف الشريف وإرسال نسخ منه إلى الأمصار، وأمر ولاته بإحراق ما لدى الناس من مصاحف أخرى من قبيل المحافظة على أهم أصول الدين وهو القرآن الكريم^(٢)، وقد بذل ولاية عثمان جهوداً كبيرة في محاربة السبئية الذين جاءوا بآراء غريبة على الإسلام وضيقوا عليهم وطاردهم^(٣)، وعلى العموم فإن المحافظة على الدين واحترامه كان من أهم الواجبات الموكلة إلى الولاية^(٤).

د - تخطيط وبناء المساجد:

حينما وصل الرسول ﷺ إلى قباء قام ببناء أول المساجد في الإسلام، وبعد وصوله إلى المدينة بدأ الرسول بناء مسجده فيها، وحينما كان الرسول يبعث بالولاية إلى البلدان كان هؤلاء الولاية يقومون ببناء المساجد فيها، واستمر الخلفاء الراشدون بعد ذلك في بناء المساجد في البلدان والأمصار التي فتحها المسلمون، وإن كان الولاية لم يقوموا بتأسيس جميع هذه المساجد فإن لهم دوراً في إنشاء المساجد الرئيسية في معظم البلدان التابعة لولاياتهم وخصوصاً الجوامع منها^(٥).

(١) المصدر نفسه (٦٧/٢).

(٢) تاريخ المدينة (٩٩٦/٣ - ٩٩٩).

(٣) عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة، ص ٢١٤.

(٤ - ٥) الولاية على البلدان (٦٩/٢).

هـ- تيسير أمور الحج:

كان الولاية على البلدان في صدر الإسلام مسئولين عن تيسير أمور الحج في ولاياتهم وتأمين سلامة الحجاج منها، فقد كان الولاية يعينون الأمراء على قوافل الحج، ويحددون لهم أوقات السفر حيث لا يغادر الحجاج بلادهم إلا بإذن الوالي، ولم يكتف بعض الأمراء بأمور الترتيب بل نجد منهم من عمل على تأمين المياه في الأماكن التي يسلكها الحجاج من ولايته، فهذا عبد الله بن عامر بن كريز أجرى المياه في طريق حجاج البصرة حينما كان عاملاً عليها لعثمان بن عفان حيث أوجد المياه في الطريق من البصرة إلى مكة^(١)، وأكد الفقهاء بعد ذلك أن تيسير الحجاج عمل من مهام الوالي على بلده، يقول الماوردي: أما تيسير الحجاج فداخلة في أحكام إمارته لأنه من جملة المعونات التي تنسب إليه^(٢).

و- إقامة الحدود الشرعية:

إن إقامة الحدود على المخالفين لأوامر الله وسنة رسوله ﷺ واجب ديني ملقى على الولاية، وهو من أهم الأمور الموكلة إليهم سواء منها الحدود المتعلقة بمن يتعرض لمنافع المسلمين العامة أو من يتعرض بالضرر لأقوام معينين^(٣)، وقد قام عثمان وولايته بإقامة الحدود الشرعية في عهده رضي الله عنه.

٢- تأمين الناس في بلادهم:

المحافظة على الأمن في الولاية من أعظم الأمور الموكلة إلى الوالي، وفي سبيل تحقيق ذلك فإنه يقوم بالعديد من الأمور أهمها إقامة الحدود على العصاة والفساق^(٤)، مما يحد من الجرائم التي تهدد حياة الناس وممتلكاتهم، وبالتالي تقلل الحوادث الأمنية من القتل أو السرقة أو قطع الطريق وما إلى ذلك، بل الأمر أيضاً يشمل ما يليق به

(١) الولاية على البلدان (١/١٩٢).

(٢) الأحكام السلطانية، ص ٣٣.

(٣) السياسة الشرعية، لابن تيمية، ص ٦٦.

(٤) الولاية على البلدان (٢/٧١).

الناس من أقوال ضد بعضهم البعض من قذف وغيره فإن إقامة الحد فيها يمنع من الاعتداء الأدبي على الناس في أعراضهم ومحارمهم، ولم يقتصر الأمر على تأمين الناس بعضهم من بعض، بل إن العمال وبأمر من الخلفاء يعملون على تأمين رعاياهم من الحشرات والهوام كالعقارب وغيرها، يقول البلاذري: كتب عامل نصيبين إلى معاوية وهو عامل عثمان على الشام والجزيرة يشكو إليه أن جماعة من المسلمين ممن معه أصيبوا بالعقارب فكتب إليه يأمره أن يوظف على أهل كل خيز من المدينة عدة من العقارب مسماة في كل ليلة ففعل وكانوا يأتونه بها فيأمر بقتلها^(١).

٣- الجهاد في سبيل الله:

إن السمة العامة لعهد الخلفاء الراشدين أن الولاية هم قادة الجهاد في تلك البلدان، كما أن الولاية في عهد عثمان رضي الله عنه كان لهم دور كبير في الفتوح ومنهم عبد الله بن عامر بن كريز، والمغيرة بن شعبة، وأبو موسى الأشعري الذين واصلوا الفتوح في المشرق، ومثل عبد الله بن سعد بن أبي السرح الذي واصل الفتوح في شمال إفريقيا، ومعاوية بن أبي سفيان الذي واصل الفتوح في نواحي أرمينية وبلاد الروم، وهكذا فإننا نرى أن الأمراء في عهد الخلفاء الراشدين كانوا مع إدارتهم لبلادهم مجاهدين لنواحي العدو، ولم يمنعهم ذلك من القيام بأعمالهم الموكلة إليهم، ولا شك أن الجهاد كان مصحوباً بعمليات معينة تخدم الشؤون العامة له، وقد تحدثت المصادر التاريخية عن أهم هذه الأعمال التي جرت من قبل الأمراء منها:

أ- إرسال المتطوعين إلى الجهاد:

فقد كان ولاية اليمن والبحرين ومكة وعمان يبعثون بالمجاهدين خلال عهد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم^(٢).

ب- الدفاع عن الولاية ضد الأعداء:

كان ولاية الشام يدافعون الروم طيلة عهد الخلفاء الراشدين، وكذلك الحال عند

(١) فتوح البلدان، ص ١٨٣.

(٢) الولاية على البلدان (٢/٧٢).

ولادة العراق الذين دافعوا الفرس حتى تمكنوا من قتل آخر ملوكهم فى عصر الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه .

ج - تحصين البلاد:

كان عثمان رضى الله عنه يأمر بتحصين السواحل وشحنها وإقطاع القطائع لمن ينزلها من المسلمين للمساعدة فى شحنها بالرجال^(١).

د - تتبع أخبار الأعداء:

فقد قام الولاة بتتبع أخبار الأعداء وتوجيه الضربات الموجهة إليهم ، واستطاعوا أن يخترقوا صفوفهم ويزرعوا عيوناً تابعة لهم .

هـ - إمداد الأمصار بالخيول:

كانت الخيل ذات أهمية خاصة فى الجهاد، وقد اهتم المسلمون بتربيتها منذ أيام الرسول ﷺ واعتنوا بها عناية خاصة، وقد وضع عمر سياسة عامة فى الدولة لتوفير الخيل اللازمة للجهاد فى الأمصار الإسلامية حسب حاجتها^(٢)، وسار عثمان رضى الله عنه على نفس السياسة العمرية فى اهتمامه بالخيول، فقد كانت هذه الخيول مجهزة للدفاع الفورى عن الدولة الإسلامية .

و - تعليم الغلمان وإعدادهم للجهاد:

اهتم الخلفاء الراشدون بتربية الأولاد وتعليمهم ما يفيدهم فى حياتهم الجهادية مستقبلاً .

ز - متابعة دواوين الجند:

سار عثمان رضى الله عنه على نهج السياسة العمرية فى اهتمامه بدواوين الجند، وقد اهتم رضى الله عنه اهتماماً خاصاً بدواوين الأمصار لاعتقاده بأن أهل الأمصار أحوج الناس للضبط، خصوصاً القرية من الأعداء وهى الأمصار التى تحتاج إلى

(١) للولاية على البلدان (٧٧/٢).

(٢) للولاية على البلدان (٧٤/٢).

الجنود باستمرار، وقد كان الولاية على البلدان مسئولين مباشرة عن دواوين الجند رغم وجود بعض الموظفين الآخرين الذين يتولون مهمتها، ولكن باعتبار أن هؤلاء الولاية هم أمراء الحرب فقد كانت مسئوليتهم عن الدواوين في بلدانهم كمستولية الخليفة باعتبارهم نواباً^(١).

ج - تنفيذ المعاهدات:

إن الفتح الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين صاحبها مراسلات مع الأعداء، ومعاهدات ومصالحات كثيرة بين المسلمين وأهل البلاد المفتوحة، وقد كان الأمراء على البلدان بصفتهم قادة الجند مسئولين مباشرة عن عقد مثل هذه المصالحات وعن تنفيذها^(٢).

٤ - بذل الجهد في تأمين الأرزاق للناس:

اتبع الخلفاء الراشدون منذ عصر أبي بكر الصديق رضي الله عنه طريقة جديدة لتوزيع الاعطيات على المسلمين من موارد بيت المال المختلفة، وقد كانت في البداية غير محدودة بأوقات معينة، ولكن في عهد عمر رضي الله عنه تغيرت بعد وضعه للدواوين في الأمصار المختلفة، حيث بدأ توزيع الاعطيات يأخذ شكلاً دورياً منتظماً، سار عليه عثمان رضي الله عنه، ولم يكف الخلفاء وولاتهم في العهد الراشدي بتأمين الطعام ومراقبة الأسواق فقط، بل إن السكن وتوزيعه كان من المهام الموكلة لأمراء البلدان، كما كان الأمراء يشرفون على تقسيم البيوت في المدن المفتوحة^(٣).

٥ - تعيين العمال والموظفين:

كان تعيين العمال والموظفين في الوظائف التابعة للولاية في كثير من الأحيان من مهام الوالي؛ حيث إن الولاية في الغالب تتكون من بلد رئيسي إضافة إلى بلدان وأقاليم أخرى تابعة للولاية، وهي بحاجة إلى تنظيم أمورها، فكان الولاية يعينون من

(١) المصدر نفسه (٧٥/٢).

(٢) المصدر نفسه (٧٧/٢).

(٣) الولاية على البلدان (٧٩/٢).

قبلهم عمالاً وموظفين فى تلك المناطق، وفى عصر عثمان رضى الله عنه أصبح هؤلاء العمال التابعون للدولة يحكمون مناطق كبيرة، نظراً لتوسع الولايات نتيجة الفتوح وانضمام أقاليم كبيرة بأكملها إلى ولايات كانت محددة فى السابق كالبصرة والكوفة والشام وغيرها، وبالتالي فإن توزع العمال وإداراتهم وتنظيمهم، كان مهمة كبيرة من المهام التى يقوم بها ولاة البلدان.

٦ - رعاية أهل اللفة:

كانت رعاية أهل اللفة واحترام عهودهم والقيام بحقوقهم الشرعية، ومطالبتهم بما عليهم للمسلمين من واجبات، وتتبع أحوالهم، وأخذ حقوقهم ممن يظلمهم انطلاقاً من الأوامر الشرعية فى هذا الجانب من واجبات الوالى^(١).

٧ - مشاورة أهل الرأى فى ولايته:

سار الخلفاء على نهج الرسول ﷺ فى مشاورة أهل الرأى من الصحابة؛ حيث كانوا يعقدون مجالس لكبار الصحابة، يستشيرونهم فى مختلف الأمور^(٢)، كما كانوا يأمرهم ولاتهم باستشارة أهل الرأى فى بلادهم، وكان الولة يطبقون ذلك ويعقدون مجالس للناس لأخذ آرائهم^(٣).

٨ - النظر فى حاجة الولاية العمرانية:

اشتهر عن الخلفاء الراشدين وولاتهم عنايتهم بحاجة السكان فى النواحي العمرانية والزراعية، وفى عهد عثمان رضى الله عنه قام عبد الله بن عامر واليه على البصرة بحفر الآبار والعيون ليس فى ولاية البصرة فحسب، بل فى أماكن أخرى عديدة^(٤).

٩ - مراعاة الأحوال الاجتماعية لسكان الولاية:

كان الولة من منطلق تعاليم الإسلام الشاملة يراعون هذا الجانب بكل ما فيه من تعليمات، إلا أن ولاة ذلك العصر، ويتوجه من الخلفاء الراشدين، قاموا ببعض

(١ - ٢) المصدر نفسه (٢/ ٨٠).

(٣) الولاية على البلدان (٢/ ٨٠).

الأعمال الاجتماعية التي يصعب أن يقوم بها من هم في مثل منصبهم، كما حرص الخلفاء على أن ينزلوا الناس على منازلهم، وأن يحترم الولاة أهل الشرف والسابقة في الإسلام، ومن ذلك أن عامل عثمان على الكوفة كتب إليه يشكو من غلبة الأعراب والروادف على أهل الشرف والبلاء والسابقة في الإسلام^(١)، فكتب إليه عثمان: أما بعد ففضل أهل السابقة والقدمة عن فتح الله عليه تلك البلاد وليكن من نزلها بسببهم تبعاً لهم، إلا أن يكونوا ثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء، واحفظ لكل منزلته، وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحق فإن المعرفة بالناس بها يصاب العدل^(٢).

١٠ - أوقات عمل الوالي:

اشتهر عن الوليد بن عقبة والي عثمان على الكوفة أنه لم يكن لداره باب، وأنه كان يستقبل الناس في جميع الأوقات، وهذا يدل على تمتع الناس بحرية مراجعة الأمير من غير حرج متى ما أرادوا ذلك لحاجة^(٣) فقد كان للوالي قسم تابع لبيته مفتوح للناس متى أرادوا المجيء إليه مفصول عن أهله وأولاده.

(١) المصدر نفسه (٨٢/٢). وتاريخ الطبري (٢٨٠ / ٥).

(٢، ٣) الولاية على البلدان (٨٢/٢).

المبحث الثالث

حقيقة ولاية عثمان رضى الله عنه

يكثُر المؤرخون من الحديث عن محابة عثمان أقاربه، وسيطرتهم على أزمة الحكم فى عهده، حتى أثاروا عليه نقمة كثير من الناس، فثاروا ناقمين عليه إطلاقه يد ذوى قرياه فى شئون الدولة^(١)، وأقارب عثمان الذين ولاهم رضى الله عنه أولهم معاوية والثانى عبد الله بن أبى السرح، والثالث الوليد بن عقبة، والرابع سعيد بن العاص، والخامس عبد الله بن عامر، هؤلاء خمسة ولاهم عثمان وهم من أقاربه، وهذا فى زعمهم مطعن عليه، فلنتظر أولاً من هم ولاية عثمان رضى الله عنه؟ هم أبو موسى الأشعري، والقعقاع بن عمرو، وجابر المزني، وحبيب بن مسلمة، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وأبو الأعور السلمي، وحكيم بن سلامة، والأشعث بن قيس، وجريو بن عبد الله البجلي، وعيينة بن النحاس، ومالك بن حبيب، والنسير العجلي، والسائب بن الأقرع، وسعيد بن قيس، وسلمان بن ربيعة، وخنيس بن حبيش، والأحنف بن قيس، وعبد الرحمن بن ربيعة، ويعلى بن منية، وعبد الله بن عمرو الحضرمي، وعلى بن ربيعة بن عبد العزى، هؤلاء هم ولاية عثمان رضى الله عنه، فلو أخذنا إحصائية لوجدنا أن عدد الولاية ستة وعشرون والياً، ألا يصح أن يكون خمسة من بنى أمية يستحقون الولاية وبخاصة إذا علمنا أن النبی ﷺ كان يولى بنى أمية أكثر من غيرهم، ثم يقال بعد ذلك إن هؤلاء الولاية لم يكونوا كلهم فى وقت واحد، بل كان عثمان رضى الله عنه قد ولى الوليد بن عقبة ثم عزله فولى مكانه سعيد بن العاص، فلم يكونوا خمسة فى وقت واحد، وأيضاً لم يتوف عثمان إلا وقد عزل أيضاً سعيد بن العاص، فعندما تُوفى عثمان لم يكن من بنى أمية من الولاية إلا ثلاثة وهم معاوية وعبد الله بن سعد بن أبى السرح، وعبد الله بن عامر بن كريز

(١) الدولة الأموية المفترى عليها، ص ١٥٩.

فقط، عزل عثمان الوليد بن عقبة وسعيد بن العاص، ولكنه عزلهما من أين؟ من الكوفة التي عزل منها عمرُ سعد بن أبي وقاص، والكوفة التي لم ترض بوالٍ أبدًا، إذا عَزَلَ عثمان رضى الله عنه لأولئك الولاية لا يعتبر مطعنًا فيهم بل مطعن في المدينة التي وُلِّوا عليها^(١).

إن بنى أمية كان رسول الله ﷺ يستعملهم في حياته، واستعملهم بعده من لا يُتهم بقرابة فيهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما، ولا نعرف قبيلة من قبائل قريش فيها عمال لرسول الله ﷺ أكثر من بنى عبد شمس لأنهم كانوا كثيرين، وكان فيهم شرف وسؤدد، فاستعمل النبي ﷺ عتّاب بن أسيد بن أبي العاص على مكة، وأبا سفيان بن حرب على نجران، وخالد بن سعيد على صدقات بنى مذحج، وأبان بن سعيد على بعض السرايا ثم على البحرين، فعثمان رضى الله عنه لم يستعمل إلا من استعمله النبي ﷺ ومن جنسهم وقبيلتهم، وكذلك أبو بكر وعمر بعده فقد ولى أبو بكر يزيد ابن أبي سفيان في فتوح الشام، وأقره عمر، ثم ولى عمر بعده أخاه معاوية^(٢).

والسؤال الذى يطرح نفسه أثبت هؤلاء كفاءتهم أم لا؟ وستأتى شهادات أهل العلم في أولئك الولاية الذين ولاهم عثمان رضى الله عنه بإذن الله تعالى.

إن عثمان خليفة راشد يُقْتَدَى به، وأفعاله تشكل سوابق دستورية في هذه الأمة، فكما أن عمر سن لمن بعده التحرج عن تقرب الأقربين، فإن عثمان سن لمن بعده تقرب الأقربين إذا كانوا أهل كفاءة، ومن تتبع سيرة عثمان لا يشك في كفاءتهم الإدارية، وكل ما أنكر على عثمان لا يخرج عن دائرة المباح^(٣).

إن الولاية الذين ولاهم عثمان رضى الله عنه من أقاربه قد أثبتوا الكفاءة والمقدرة في إدارة شئون ولاياتهم، وفتح الله على أيديهم الكثير من البلدان، وساروا في الرعية سيرة العدل والإحسان ومنهم من تقلد مهام الولاية قبل ذلك في عهد الصديق

(١) حقة من التاريخ، ص ٧٥.

(٢) منهاج السنة (٣/ ١٧٥، ١٧٦).

(٣) الأساس في السنة (٤/ ١٦٧٥).

والفاروق رضى الله عنهما^(١)، ولتنظر إلى أقوال أهل العلم فى أولئك الولاة:.

أولاً: معاوية بن أبى سفيان بن حرب الأموى،

ذكر المترجمون لهذا الصحابى الكريم فضائل جمّة، وإليك شيئاً منها:

١ - من القرآن الكريم:

اشترك معاوية رضى الله عنه فى غزوة حنين، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٦]

ومعاوية رضى الله عنه من الذين شهدوا غزوة حنين، وكان من المؤمنين الذين أنزل الله سكينته عليهم مع النبى ﷺ^(٢)

٢ - من السنة:

دعاء الرسول ﷺ لمعاوية رضى الله عنه، ومن ذلك قوله ﷺ «اللهم اجعله هاديًا^(٣) مهديًا^(٤)، واهد به^(٥)» وقوله ﷺ «اللهم علم معاوية الكتاب والحساب، وقه العذاب^(٦)» وقال رسول الله ﷺ «أول جيش من أمتى يغزون البحر قد أوجبوا^(٧)»، قالت أم حرام: قلت: يا رسول الله أنا فيهم؟ قال: «أنت فيهم». ثم قال النبى ﷺ «أول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر^(٨) مغفور لهم». فقلت - أى أم حرام -: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: «لا^(٩)» قال المهلب^(١٠) «فى هذا الحديث

(١) تحقيق مواقف الصحابة من الفتنة (١/ ٤١٧).

(٢) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، خالد الغيث، ص ٢٣.

(٣) هاديًا: للناس، أو دالاً على الخير.

(٤) مهديًا: أى مهديًا فى نفسه.

(٥) صحيح سنن الترمذى للألبانى (٣/ ٢٣٦).

(٦) موارد الظمآن (٧/ ٢٤٩) إسناده حسن.

(٧) أوجبوا: أى فعلوا فعلاً وجبت لهم به الجنة. فتح البارى (٦/ ١٢١).

(٨) مدينة قيصر: يعنى القسطنطينية.

(٩) البخارى رقم ٢٩٢٤.

(١٠) المهلب بن أحمد الأندلسى، مصنف شرح صحيح البخارى توفى ٤٣٥ هـ.

منقبة لمعاوية؛ لأنه أول من غزا البحر» (١).

٣- ثناء أهل العلم على معاوية رضي الله عنه:

أ- ثناء عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عنه:

قيل لابن عباس رضي الله عنهما: هل لك في أمير المؤمنين معاوية، فإنه ما أوتر إلا بواحدة، قال: إنه فقيه (٢). وما يناسب المقام ذكر بعض المسائل الفقهية التي أثرت عن معاوية رضي الله عنه، ومن تلك المسائل ما يلي:

- أثر عنه رضي الله عنه أنه أوتر بركعة.

- أثر عنه رضي الله عنه الاستسقاء بمن ظهر صلاحه (٣).

- أنه يجزئ إخراج نصف صاع من البر في زكاة الفطر (٤).

- استحباب تطيب البدن لمن أراد الإحرام (٥).

- جواز بيع وشراء دور مكة (٦).

- التفريق بين الزوجين بسبب العنة (٧). (٨)

- وقوع طلاق السكران.

- عدم قتل المسلم بالكافر قصاصاً.

- حبس القاتل حتى يبلغ ابن القتل (٩).

(١) فتح الباري (٦/ ١٢٠).

(٢) فتح الباري (٧/ ١٣٠).

(٣) المغنى لابن قدامة (٣/ ٣٤٦).

(٤) زاد المعاد (٢/ ١٩).

(٥) المغنى (٥/ ٧٧).

(٦) المصدر السابق (٦/ ٣٦٦).

(٧) العنة: هي عجز الرجل عن إتيان زوجته، القاموس المحيط، ١٥٧٠.

(٨) مرويات خلافة معاوية، ص ٢٨.

(٩) المصدر نفسه، ص ٢٩.

ب- ثناء عبد الله بن المبارك على معاوية رضى الله عنه:

قال عبد الله بن المبارك: معاوية عندنا محنة، فمن رأيناه ينظر إليه شزراً، اتهمناه على القوم، يعنى الصحابة^(١).

ج- ثناء أحمد بن حنبل:

سئل الإمام أحمد - رحمه الله -: ما تقول رحمك الله فيمن قال: لا أقول إن معاوية كاتب الوحى، ولا أقول إنه خال المؤمنين فإنه أخذها بالسيف غضباً^(٢)؟ قال أبو عبد الله: هذا قول سوء ردىء تجانبون هؤلاء القوم، ولا يجالسون، ونين أمرهم للناس^(٣).

د- ثناء القاضي ابن العربى على معاوية رضى الله عنه:

تحدث ابن العربى عن الخصال التى اجتمعت فى معاوية رضى الله عنه فذكر منها: ... قيامه بحماية البيضة، وسد الثغور، وإصلاح الجند، والظهور على العدو، وسياسة الخلق^(٤)، وقد علق محب الدين الخطيب على هذا النص بقوله: وقد بلغ من همته - يعنى معاوية - وعظيم عنايته بذلك أن أرسل يهدد ملك الروم وهو فى معمرة القتال مع على فى صفين، وقد بلغه أن ملك الروم اقترب من الحدود فى جنود عظيمة^(٥)، وفى ذلك يقول ابن كثير: وطمع فى معاوية ملك الروم بعد أن كان قد أخشاه وأذله، وقهر جنده ودحاهم، فلما رأى ملك الروم اشتغال معاوية بحرب على تدانى إلى بعض البلاد فى جنود عظيمة وطمع فيه، فكتب معاوية إليه: والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يا لعين، لأصطلحن أنا وابن عمى عليك، ولأخرجنك من جميع بلادك، ولأضيغن عليك الأرض بما رحبت، فعند ذلك خاف ملك الروم، وبعث يطلب الهدنة^(٦).

(١) المصدر نفسه، ص ٢٩.

(٢) مرويات خلافة معاوية، ص ٢٨.

(٣) السنة للخلال، تحقيق عطية الزهرانى (٢/٤٣٤).

(٤) العواصم من القواصم، ص ٢١٠، ٢١١.

(٥) مرويات خلافة معاوية، ص ٣١.

(٦) البداية والنهاية (٨/١١٩).

هـ - ثناء ابن تيمية على معاوية رضي الله عنه:

قال عنه ابن تيمية: ... فإن معاوية ثبت عنه بالتواتر أنه أمره النبي ﷺ، كما أمر غيره، وجاهد معه، وكان أميناً عنده يكتب له الوحي، وما اتهمه النبي ﷺ في كتابة الوحي، وولاه عمر بن الخطاب، الذي كان من أخبر الناس بالرجال، وقد ضرب الله الحق على لسانه وقلبه، ولم يتهمه في ولايته^(١).

هـ - ثناء ابن كثير عليه:

قال عنه ابن كثير: وأجمعت الرعايا على بيعته في سنة إحدى وأربعين... فلم يزل مستقلاً بالأمر في هذه المدة إلى هذه السنة التي كانت فيها وفاته، والجهاد في بلاد العدو قائم، وكلمة الله عالية، والغنائم ترد إليه من أطراف الأرض، والمسلمون معه في راحة وعدل، وصفح وعفو، وقال أيضاً: كان حليماً^(٢)، وقوراً، رئيساً، سيداً في الناس، كريماً، عادلاً شهماً^(٣)، وقال عنه أيضاً: كان جيد السيرة، حسن التجاوز، جميل العفو، كثير السر، رحمه الله تعالى^(٤).

٤ - روايته للحديث:

يعد معاوية رضي الله عنه من الذين نالوا شرف الرواية عن رسول الله ﷺ، ومرد ذلك إلى ملازمته لرسول الله ﷺ بعد فتح مكة، لكونه صهره وكاتبه رضي الله عنه، هذا وقد روى معاوية رضي الله عنه مائة وثلاثة وستين حديثاً عن رسول الله ﷺ، اتفق له البخاري ومسلم على أربعة أحاديث، وانفرد البخاري بأربعة، ومسلم بخمسة^(٥)، وكانت سيرة معاوية رضي الله عنه مع الرعية في ولايته من خير سير الولاية مما جعل الناس يحبونه، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ قال: خيار أئمتكم

(١) الفتاوى (٤/٤٧٢)، والبدية والنهاية (٨/١٢٢)، وسير أعلام النبلاء (٣/١٢٩).

(٢) أفرد ابن أبي الدنيا، وأبو بكر بن أبي عاصم تصنيفاً في حلم معاوية.

(٣) البدية والنهاية (٨/١١٨).

(٤) المصدر نفسه (٨/١٢٦).

(٥) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص ٣٣.

- حكامكم - الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم - تدعون لهم - ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم^(١)، وأختم حديثي عن معاوية رضي الله عنه بما قاله القاضي أبو بكر ابن العربي: فعمر ولاء وجمع له الشامات كلها وأقره عثمان، بل إنما ولاء أبو بكر الصديق؛ لأنه ولي أخاه يزيد، واستخلفه يزيد، فأقره عمر، لتعلقه بولاية أبي بكر لأجل استخلاف واليه له، فتعلق عثمان بعمر وأقره، فانظر إلى هذه السلسلة ما أوثق عراها^(٢). وثبت أن رسول الله ﷺ استكتبه... فيكون سند ولايته الأعمال في الدولة الإسلامية، لم يكن لأحد قبله، ولم يكن لأحد بعده حيث اجتمع على توليته، رسول الله ﷺ، ومن بعده خلفاؤه الثلاثة، ثم صالحه وأقر له بالخلافة الحسن بن علي سبط رسول الله ﷺ^(٣).

ثانياً: عبد الله بن عامر بن كريز

هو عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشي العبشمي^(٤).

ولد في عهد رسول الله ﷺ وذلك في السنة الرابعة للهجرة^(٥)، وعندما اعتمر الرسول الكريم ﷺ في السنة السابعة للهجرة عمرة القضاء، ودخل مكة حمل إليه عبد الله بن عامر، قال ابن حجر:.. فتلمظ وتشاءب، فتفل رسول الله ﷺ في فيه، وقال هذا ابن السلمية؛ قالوا: نعم، فقال: هذا أشبهنا، وجعل يتفل في فيه، ويعود فجعل يتلع ريق النبي ﷺ، فقال: إنه لمسقى، فكان لا يعالج أرضاً إلا ظهر له الماء^(٦).

لم يتول عبد الله بن عامر منصباً إدارياً أو عسكرياً إلى أن أصبح والياً على البصرة

(١) مسلم، كتاب الإمامة رقم ٦٥.

(٢) العواصم من القواصم، ص ٨٢.

(٣) المدينة المنورة، فجر الإسلام والعصر الراشدي (٢/٢١٦).

(٤) البداية والنهاية (٨/٩١).

(٥) تهذيب التهذيب (٥/٢٧٢).

(٦) سير أعلام النبلاء (٣/١٩)، تهذيب التهذيب (٥/٢٧٣)، وآسد الغابة (٣/٢٩٣) رقم (٣٠٣١).

سنة ٢٩هـ/ ٦٤٩م، وهو ابن خال الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه، لأن أم عثمان هي أروى بنت كرز بن ربيعة، وكانت أم عبد الله بن عامر من بنى سليم^(١).

ولما عين لولاية البصرة، كان عمره أربعاً أو خمساً وعشرين^(٢)، وظل والياً على البصرة حتى مقتل الخليفة عثمان رضى الله عنه عندما تجهز بجيش كبير، وحمل ما عنده من الأموال فسار إلى مكة حيث وافى الزبير، ورجع منها إلى البصرة فشهد موقعة الجمل، ولم يحضر موقعة صفين. على الرغم من أن القلقشندى ذكر أنه كان فى التحكيم مع معاوية بصفين^(٣)، وفى خلافة معاوية تولى إمارة البصرة لمدة ثلاث سنوات ثم عزله عنها، فأقام بالمدينة، ومات بها سنة سبع وخمسين للهجرة^(٤)، وفى رواية ابن قتيبة، أنه توفى بمكة ودفن بعرفات عام تسع وخمسين^(٥). وأشاد ابن سعد به قائلاً: كان عبد الله شريفاً، سخيّاً كريماً، كثير المال والولد، محباً للعمران^(٦)، وقال عنه ابن حجر: كان جواداً كريماً ميموناً... جريئاً شجاعاً^(٧)، وكان يعتبر من أجود أهل البصرة^(٨). ومن أجود أهل الإسلام^(٩)، وكان لعبد الله بن عامر، أثر حميد فى الفتوحات، فقد تمكن من القضاء على آمال الفرس بشكل تام، عندما قضى على آخر رمق من الأمل الفارسى القديم، وذلك بقضائه على آخر ملوكهم يزدجرد بن شهريار بن كسرى، وخرزاد مهر أخى رستم اللذين تزعما المعارضة الفارسية ضد المسلمين.

وإضافة إلى براءة عبد الله بن عامر فى الشئون الإدارية والعسكرية، فإنه كان

(١) الطبقات (٣١/٥)، وتهذيب التهذيب (٢٧٢/٥).

(٢) البداية والنهاية (٩١/٨).

(٣) مجلة المؤرخ العربى رقم ٢١، ص ١٢٨.

(٤) سير أعلام النبلاء (٢١/٣).

(٥) المعارف ص ٣٢١.

(٦) مجلة المؤرخ العربى، رقم ٢١، ص ١٢٩.

(٧) تهذيب التهذيب (٢٧٢/٥).

(٨) العقد الفريد (٢٩٣/١)، (٢٩٤).

(٩) صبح الأعشى (١/ ٤٥٠ - ٤٥١).

مهتمًا بالمعارف الإسلامية، ويروى أنه روى حديثًا عن النبي ﷺ، وقال ابن قتيبة: لم يرو عن رسول الله ﷺ إلا حديثًا واحدًا^(١)، غير أنه لم يكن له رواية في الكتب الستة^(٢)، أما الحديث النبوي الذي رواه، فقد أورد ابن قانع، وابن منده عن طريق مصعب الزبيري: حدثني أبي عن جدي مصعب بن ثابت عن حنظلة بن قيس عن عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: من قتل دون ماله فهو شهيد^(٣).

• إصلاحاته الاقتصادية في البصرة:

يقترب باسم عبد الله بن عامر عدد من الإصلاحات في البصرة، لا تقل أهمية عن إنجازاته العسكرية الفذة المتمثلة في انتصاراته العديدة على المجوس، وتبعه لفلولهم المنهزمة وقضائه على آمال يزدجرد، فقد كانت إصلاحاته الاقتصادية عملة في عنايته بسوق البصرة، فقد اشترى هذا السوق من ماله ووهبه لأهلها^(٤)، وكان السوق يتوسط البصرة، بدليل ما ذكره خليفة بن خياط، من أن السوق قائم على ضفاف النهر الذي يتوسط البصرة، وهذا اختيار جيد؛ لأنه يجعل السوق مركزًا مهمًا في وسط المدينة، ولعل من أبرز أعماله الإصلاحية في البصرة في ميدان الري، وقد اهتم ابن عامر بهذه المسألة اهتمامًا كبيرًا، وذكر ابن قتيبة أن ابن عامر احتفر بالبصرة نهريْن أحدهما في الشرق والآخر يعرف بأمر عبد الله وهو منسوب إلى أم عبد الله بن عامر^(٥)، وأمر عبد الله بن عامر زياد بن أبي سفيان بحفر الأبله، وكان زياد واليًا على الديوان وبيت المال من قبل عبد الله بن عامر، وكان يستخلفه في مكانه عند توجهه للفتوح^(٦)، وذكر خليفة بن خياط أن زيادًا احتفر نهر الأبله حتى انتهى إلى موضع الجبل، والذي

(١) (٢) المعارف، ص ٣٢١.

(٣) الحاكم في المستدرک (٦٣٩/٣) إسناده ضعيف وله ما يقويه في الباب.

(٤) الطبقات الكبرى (٧٣/٥). ومجلة المؤرخ العربي هي العنقدة في ترجمتي لعبد الله بن عامر، حيث استفدت من الأستاذ محمد حمادى جزاءه الله خيرًا.

(٥) مجلة المؤرخ العربي رقم ٢١، محمد حمادى، ص ١٣٤.

(٦) فتوح البلدان للبلاذرى، ص ٣٥١.

تولى حفره لزياد عبد الرحمن بن أبي بكر^(١)، فلما فتح عبد الرحمن الماء جعل يركض فرسه والماء يكاد يسبقه^(٢)، وحفر عبد الله بن عامر حوضاً نسب إلى أمه، وهو حوض أم عبد الله بن عامر بالبصرة منسوب إليها^(٣)، وذكر البلاذري أن عبد الله ابن عامر حفر نهرًا، تولى أمر حفره له نافذ مولا، فغلب عليه فقيل نهر نافذ^(٤)، وهناك نهر مرة لابن عامر، تولى حفره له مرة مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فغلب على ذكره^(٥)، وهناك نهر الأساورة الذي حفره لهم عبد الله بن عامر^(٦)، ويذكر البلاذري قنطرة قرة بالبصرة فيقول: قنطرة قرة نسبة إلى قرة بن حيان الباهلي، وكان عندها نهر قديم ثم اشترته أم عبد الله بن عامر، فتصدقت به مغيًا لأهل البصرة^(٧).

مما تقدم، يتبين لنا أن عبد الله بن عامر كان مهتمًا بحفر الأنهار من أجل ازدهار الزراعة، التي هي عماد الحياة الاقتصادية، إضافة إلى موقع البصرة الاستراتيجي بالنسبة إلى طرق التجارة، وأهميتها العسكرية كقاعدة للفتوحات الإسلامية في المشرق، ويمكن أن نلاحظ مدى رغبة عبد الله بن عامر في الإصلاح من خلال قوله: لو تركت لخرجت المرأة في حاجتها على دابتها، ترد كل يوم على ماء وسوق، حتى توافي مكة^(٨).

وفي الحقيقة أن إصلاحاته هذه لا تقل عن الفتوحات في المشرق التي قام بها، فقد كانت البصرة هي القاعدة العسكرية للخلافة في فتوحاتها ببلاد المشرق، وأشار الدكتور صالح العلي إلى أن الفتوح الواسعة أدت إلى ازدياد دخل البصرة وانتشار الرخاء الاقتصادي فيها، مما شجع التجار ورجال الأعمال على التقاطر إليها، وبذلك

(١) تاريخ خليفة بن خياط (١/١٤٢).

(٢) فتوح البلدان، ص ٣٥١.

(٣) مجلة المؤرخ العربي رقم ٢١، عبد الله بن عامر، ص ١٣٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٣٥. وفتوح البلدان ص ٣٥٤.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٥٦. وفتوح البلدان ص ٣٥٤.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٣٦.

(٧) فتوح البلدان، ص ٣٥٣ - ٣٥٤.

(٨) المعارف لابن قتيبة، ص ٣٢١.

بدأت الحياة المدنية تنمو سريعاً في البصرة^(١)، لقد كانت الحالة المالية لإمارة البصرة جيدة جداً، نتيجة للفتوح الواسعة في المشرق، والنشاط الاقتصادي التجارى للبصرة، واستقرار الأمن فيها، وكان عبد الله بن عامر رجلاً متواضعاً فاتحاً باباً لجميع الناس حتى إنه عاقب الحاجب وأمره ألا يغلق باباً ليلاً ولا نهاراً^(٢)، وفي الحقيقة أصبح ابن عامر ذا شهرة واسعة بالبصرة، قال ابن سعد: كان الناس يقولون: قال ابن عامر وفعل ابن عامر^(٣)، ونتيجة لأعماله الإصلاحية وسيرته الحميدة، فقد ازداد حب الأمة له^(٤).

وظل ابن عامر عليها إلى أن قتل الخليفة عثمان رضى الله عنه^(٥).

فهذا عبد الله بن عامر أحد ولادة عثمان، فهو الذى شق نهر البصرة، وأول من اتخذ الحياض بعرفات وأجرى إليها العين^(٦)، وهو الرجل الذى له من الحسنات والمحبة فى قلوب الناس ما لا ينكر كما يقول ابن تيمية^(٧)، وقال فيه الذهبي: وكان من كبار أمراء العرب وشجعانهم وأجوادهم، وكان فيه رفق وحلم^(٨).

ثالثاً، الوليد بن عقبة؛

هو الوليد بن عقبة بن أبى معيط بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، الأمير أبو وهب الأموى، له صحبة قليلة^(٩)، وهو أخو عثمان لأمه.

كان الوليد بن عقبة من رجال الدولة الإسلامية على عهد أبى بكر وعمر اللذين كانا يتخيران للأعمال ذوى الكفاءة والأمانة من الرجال، وكان ذلك من أعظم أسباب

(١) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية، ص ٣٠ - ٣١.

(٢) مجلة المؤرخ العربى المجلد ٢١، عبد الله بن عامر، محمد حمادى، ص ١٣٨.

(٣) الطبقات (٣٣/٥).

(٤) مجلة المؤرخ العربى، عبد الله بن عامر، محمد جاسم حمادى، ص ١٣٨.

(٥) ٦، ٥، البداية والنهاية (٩١/٨).

(٦) منهاج السنة (١٨٩/٣)، ١٩٠.

(٧) سير أعلام النبلاء (٢١/٣).

(٨) المصدر نفسه (٤١٢/٣)، ٤١٣.

ذلك الانتشار السريع على أوسع نطاق للإسلام على عهديهما، وأنه كان محل ثقة واعتماد الخليفين، وعن وسد إليه الأمور المهمة لما كان يريان فيه من الكفاءة وصدق الإيمان^(١)، وأول عمل له في خلافة الصديق أنه كان موضع السر في الرسائل الحربية التي دارت بين الخليفة وقائده خالد بن الوليد في وقعة المذار مع الفرس ١٢ هـ^(٢) ثم وجهه مدداً إلى قائده عياض بن غنم الفهري^(٣)، وفي سنة ١٣ هـ كان الوليد يلي لأبي بكر صدقات قضاعة، ثم لما عزم الصديق على فتح الشام كان الوليد عنده بمنزلة عمرو ابن العاص في الحرمة والثقة والكرامة فكتب إلى عمرو بن العاص وإلى الوليد ابن عقبة يدعوهم لقيادة الجهاد، فسار ابن العاص بلواء الإسلام نحو فلسطين وسار الوليد بن عقبة قائداً إلى شرق الأردن^(٤)، ثم رأينا الوليد في سنة ١٥ هـ على عهد عمر أميراً على بلاد بني تغلب وعرب الجزيرة^(٥)، وكان في ولايته هذه يحمي ظهور المجاهدين في بلاد الشام لئلا يؤتوا من خلفهم، وانتهاز الوليد فرصة ولايته على هذه الجهة التي كانت لا تزال مليئة بالنصارى فكان من جهاده الحربي وعمله الإداري داعياً إلى الله يستعمل أساليب الحكمة والموعظة الحسنة لحمل نصارى إياد وتغلب على الدخول في الإسلام^(٦).

وبهذا الماضي المجيد جاء الوليد في خلافة عثمان فتولى الكوفة له وكان من خير ولايتها عدلاً ورفقاً وإحساناً، وكانت جيوشه مدة ولايته على الكوفة تسير في آفاق الشرق فاتحة موفقة، كما شهد له بذلك بظهر الغيب قاضي من أعظم قضاة الإسلام في التاريخ علماً وفضلاً وإنصافاً وهو التابعي الجليل الإمام الشعبي^(٧)، فقد أثنى على غزوه وإمارته بقوله حين ذكر له غزو مسلمة بن عبد الملك^(٨): كيف لو أدركتم الوليد

(١) فصل الخطاب في مواقف الأصحاب، ص ٧٨.

(٢) تاريخ الطبري (٤/١٦٨).

(٣) المصدر نفسه (٤/١٩٤).

(٤) فصل الخطاب في مواقف الأصحاب، ص ٧٨.

(٥) تاريخ الطبري (٥/٢٨، ٢٩).

(٦، ٧) فصل الخطاب في مواقف الأصحاب، ص ٧٨.

(٨) مسلمة بن عبد الملك بن مروان أحد القادة الفاعلين توفي ١٢٠ هـ.

وغزوه وإمارته، إنه كان ليغزو فيتهدى إلى كذا وكذا، ما نقص ولا انتقص عليه أحد حتى عزل عن عمله^(١)، وقد كان الوليد رضي الله عنه أحب الناس إلى الناس وأرفقهم بهم، وقد أمضى خمس سنين وليس في داره باب^(٢)، وقد قال عثمان رضي الله عنه: ما وليت الوليد لأنه أخي، وإنما وليته لأنه ابن أم حكيم البيضاء عمة رسول الله ﷺ وتوأمة أبيه، والولاية اجتهد وقد عزل عمر سعد بن أبي وقاص وقدم أقل منه درجة^(٣).

والمستعرض لسيرة هذا الصحابي الجليل والبطل الإسلامي العظيم الذي كان محل ثقة الخلفاء الراشدين الثلاثة لا يرتاب، فإنه أهل للولاية، وإنما تساوره الشكوك في ثبوت ما قيل فيه من نزول الآية فيه وتسميته فاسقاً، وشربه للخمر، والأمر يحتاج إلى تحقيق وإليك بحث هذين الأمرين^(٤).

هل ثبت بأن الوليد نزلت فيه الآية: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ﴾؟

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَبَيِّنُوا أَنْ تُصَيِّبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٢٦].

يتناقل الرواة في ذلك قصة تقول: (إن رسول الله ﷺ بعث الوليد بن عتبة إلى بنى المصطلق مصدقاً، فأخبر عنهم أنهم ارتدوا، وأبوا في أداء الصدقة، وذلك أنهم خرجوا إليه فها بهم ولم يعرف ما عندهم، فأنصرف عنهم، وأخبر بارتدادهم، فبعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد وأمره أن يشبث فيهم، فأخبروه أنهم متمسكون بالإسلام، ونزلت الآية^(٥)، وقد جاءت روايات عديدة، وليس للقصة سند موصول صحيح^(٦)، وأقل ما يوصف به سند القصة أنه ضعيف، وإذا قبلوا الأسانيد الضعيفة في فضائل الأعمال التي لا تحمل حراماً، ولا تحرم حلالاً، فإننا لا نقبل السند

(١) التمهيد والبيان، ص ٤٠.

(٢) تاريخ الطبري (٢٥١/٥).

(٣) المواسم من القواصم، ص ٨٦.

(٤) فصل الخطاب في مواقف الأصحاب، ص ٧٩.

(٥، ٦) المدينة النبوية فجر الإسلام (١٧٦/٢).

الضعيف في قصة الوليد؛ لأنه يحل حراماً، وهو وصف رجل صحب الرسول ﷺ - ولو يوماً - بأنه فاسق... وكيف نقبل السند الضعيف والآية نفسها تحث على الثبوت في قبول الأخبار، فهذه الآية وضعت أصل علم الرواية...^(١).

إن قصة الوليد بن عقبة، فيما نسبوه إليه، لا تقبل فيها إلا الأخبار الصحيحة السند والمتن، لأنها تصفه بالفسق، وهذا مطعن لا يتساهل في قبوله إذا وصف به رجل من عرض الناس في العصر الحديث بعد خمسة عشر قرناً من عصر الدعوة، فكيف نتساهل في نسبتها إلى رجل عاش في العهد النبوي، وفي عهد الخلفاء الراشدين، وأوكلوا إليه أعمالاً ذات خطر؟

والقصة تمثل جزءاً من تاريخ صدر الإسلام، وتتصل أجزاء القصة وحوادثها بالعقيدة الإسلامية، وأخبار هذا الجانب من التاريخ الإسلامي، لا يتساهل في قبولها، كما يتساهل في قبول الأخبار التي تتصل بالعمران المدني، ثم إن الوليد بن عقبة من مسلمة الفتح... وكثيراً ما توجه المطاعن إلى إسلام هذه الفئة من الناس، ويزعم بعض المؤرخين أنهم أسلموا مكرهين، ولم يدخل الإيمان إلى قلوبهم، وهو زعم باطل بلا ريب^(٢)، وأخبار الوليد بن عقبة، تزيد الرواة فيها، ولعبت بها الأهواء المذهبية والسياسية، ودخلها الوضع، وكانت ميداناً لتسابق أهل القصة في اختبار القدرة على الوضع، وإثبات عبقرتهم الأدبية المُنَجَّحة^(٣).

ومما يعكر على رواية إرسال الوليد بن عقبة لجمع صدقات بني المصطلق، ويعارضها حديث موصول السند إلى رجال ثقات أن الوليد بن عقبة كان يوم الفتح صغيراً ومن كان في سنه لا يرسله النبي ﷺ عاملاً، فعن فياض بن محمد الرقي، عن جعفر بن برقان، عن ثابت بن الحجاج الكلابي، عن عبد الله الهمداني (أبي موسى) عن الوليد بن عقبة قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة، جعل أهل مكة يأتونه بصبيانهم فيمسح على رؤوسهم ويدعو لهم فجاء بي إليه، وإني مطيب بالخلوق،

(١) المصدر نفسه (١٨٢/٢).

(٢، ٣) المدينة المنورة فجر الإسلام (١٧٣/٢).

ولم يمسح على رأسى، ولم يمنعه من ذلك إلا أمى خلقتى بالخلق، فلم يمسنى من أجل الخلق^(١).

إن القصة لعبت بها الأهواء المذهبية، فالوليد، أموى عثمانى، والذي أقحم اسم الوليد فى قصة سبب نزول الآية: شيعى رافضى (محمد بن السائب الكلبي) قال عنه ابن حجر كان يعد من شيعة أهل الكوفة. وقال ابن حجر: كان بالكوفة كذابان، أحدهما الكلبي، والآخر السدي^(٢). واختاره لهذه القصة؛ لأنها تتصل بجمع الصدقات، والوليد عمل على صدقات قضاة فى عهد أبى بكر، وعمل على صدقات تغلب فى الجزيرة فى زمان عمر، وكتب الشيعة تعيب عثمان بن عفان بسبب قصة الوليد^(٣)، ونحن لا ننكر أن تكون الآية نزلت فى سياق قصة بنى المصطلق، ولكن الذى ننكره أن يكون الوليد هو الموصوف بالفاسق فى الآية، ذلك أن متطوق الآية: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ﴾ بصيغة التنكير، يدل على الشمول لأن النكرة إذا وقعت فى سياق الشرط، عمت كما نعم إذا وقعت فى سياق النفي^(٤).

• حد الوليد بن عقبة فى الخمر:

وأما حد الوليد فى الخمر فقد ثبت فى الصحيحين، أن عثمان حده بعدما شهدت عليه الشهود، فهو ليس مأخذاً على عثمان، بل كان من مناقب عثمان رضى الله عنه أن أقام عليه الحد وعزله عن الكوفة، حيث ذكر البخارى هذه الحادثة فى (باب مناقب عثمان)^(٥)، وكان على رضى الله عنه يقول: إنكم وما تعيرون به عثمان كالطاعن نفسه ليقول ردء^(٦)، ما ذنب عثمان فى رجل قد ضربه بفعله وعزله عن عمله، وما ذنب عثمان فيما صنع عن أمرنا^(٧)، ثم إن تلك الحادثة لم تطرأ فى عهد عثمان

(١) مسند أحمد (٣٢/٤).

(٢) المدينة المنورة فجر الإسلام (١٧٩/٢).

(٣) (٤) المصدر نفسه (١٨٠/٢).

(٥) البخارى، كتاب مناقب عثمان.

(٦) الرداء هو العون. تاريخ الطبرى (٢٧٨/٥).

(٧) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (٤٢١/١).

فحسب، بل لها سابقة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث ذكر أن قدامة ابن مظهر - له صحبة - شرب الخمر، وهو أمير على البحرين من قبل عمر فحده وعزله^(١).

وقد ذكر بعض المؤرخين أنه لم يثبت على الوليد شربه للخمر، قال الحافظ في الإصابة: ويقال إن بعض أهل الكوفة تعصبوا عليه فشهدوا عليه بغير الحق^(٢)، وقد أشار إلى هذا ابن خلدون فقال: وما زالت الشائعات - أي على عمال عثمان من قبل المشاغبين - تنمو، ورمى الوليد بن عقبة وهو على الكوفة بشرب الخمر وشهد عليه جماعة منهم وحده عثمان وعزله^(٣)، وما حكاه الطبري ببعض تفصيل: إن أبناء لأبي زينب وأبي مورع وجندب بن زهير نقبوا على ابن الحيسمان داره وقتلوه، فشهد عليه بذلك أبو شريح الخزاعي الصحابي وابنه - وكان جاراً لابن الحيسمان - فاقتص منهم الوليد فأخذ الآباء على أنفسهم أن يكيّدوا للوليد، وأخذوا يترقبون حركاته فتزل به أبو زيد الشاعر، وكان نصرانياً من أخواله بنى تغلب، وأسلم على يد الوليد وكان الضيف متهماً بشرب الخمر، فأخذ بعض السفهاء يتحدثون بذلك في الوليد للملازمة أبا زيد، ووجد أبو زينب وأبو مورع خير فرصة يغتتمونها، فسافرا إلى المدينة وتقدما إلى عثمان شاهدين على الوليد بشرب الخمر وأنها وجداه يقى الخمر. فقال عثمان: ما يقى الخمر إلا شاربها. فجيء بالوليد من الكوفة فحلف لعثمان وأخبره خبرهم، فقال عثمان: نقيم حدود الله ويؤء شاهد الزور بالنار فاصبر يا أخى^(٤).

قال محب الدين الخطيب: وأما الزيادة التي وردت في رواية مسلم من أنه أتى بالوليد وقد صلى الصبح ركعتين ثم قال أريدكم، وفي بعض طرق أحمد أنه صلى أربعاً، فلم تثبت في شيء من شهادة الشهود، فهي من كلام حزين الراوى للقصة ولم يكن حزين من الشهود ولم يروها عن شاهد ولا عن إنسان معروف، ولا كان

(١) العواصم من القواصم، ص ٩٣.

(٢) الإصابة (٣/٦٣٨).

(٣) تاريخ ابن خلدون (٢/٤٧٣). وفصل الخطاب في مواقف الأصحاب، ص ٨١.

(٤) تاريخ الطبري (٥/٢٧٧).

فى الكوفة فى وقت الحادث المزعوم فلا اعتداد بهذا الجزء من كلامه^(١) ، هذا هو والى عثمان على الكوفة الوليد بن عقبة، المجاهد الفاتح، العادل المظلوم الذى كان منه لائمه كل ما استطاعه من عمل طيب، ثم رأى بعينه كيف يغى المبتلون على الصالحين وينفذ باطلهم فيهم، فاعتزل الناس بعد مقتل عثمان فى ضيعة له منقطعة عن صخب المجتمع، وهى تبعد خمسة عشر ميلاً عن بلدة البرقة من أرض الجزيرة التى كان يجاهد فيها ويدعو الناس للإسلام فى خلافة عمر^(٢)، واعتزل جميع الحروب التى كانت أيام على ومعاوية رضى الله عنهما إلى أن توفى بضيعته ودفن بها فى عام ٦١هـ، وقيل إنه توفى فى أيام معاوية^(٣).

زابعاً: سعيد بن العاص؛

هو سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، القرشى، الأموى^(٤). وقال أبو حاتم: له صحبة. ولى الكوفة بعد الوليد بن عقبة، كان من فصحاء قريش؛ ولهذا ندبه عثمان فيمن نذب لكتابة القرآن، فعن أنس بن مالك قال: ... فأمر عثمان زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها (أى المصحف) فى المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش^(٥)، وقد أقيمت عربية القرآن على لسان سعيد بن العاص؛ لأنه كان أشبههم لهجة برسول الله ﷺ، أدرك من الحياة النبوية تسع سنين، وقتل أبوه يوم بدر مشركاً، قتله على بن أبى طالب^(٦)، وأقرأ معى هذا الخبر الذى يدل على قوة إيمانه: حيث روى أن عمر بن الخطاب قال لسعيد بن العاص: لم أقتل أباك، وإنما قتلت خالى العاص بن هشام: فقال سعيد: لو قتلتك لكنت على الحق، وكان على الباطل، فأعجب عمر بجوابه:

(١) المواضع من القواصم، ص ٩٦، ٩٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٤.

(٣) البداية والنهاية (٢١٦/٨).

(٤) البداية والنهاية (٨٧/٨).

(٥) البخارى، كتاب فضائل القرآن رقم ٤٩٨٧.

(٦) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢١١/٢).

وفى أيام ولايته الكوفة غزا طبرستان ففتحها، وغزا جرجان، وكان فى عسكره حذيفة وغيره من الصحابة^(١)، وكان مشهوراً بالكرم والبر، حتى إذا سأل السائل وليس عنده ما يعطيه كتب له بما يريد أن يعطيه مسطوراً^(٢)، وكان رحمه الله يحب جمع شمل المسلمين ويكره الفتنة، ويفر منها، ولأه عثمان الكوفة، بعد الوليد بن عقبة، ووفد إلى المدينة مرة، وعندما عاد إلى الكوفة جند أهل الشغب جنودهم ومنعوه من دخولها، فعاد ولزم المدينة... وهؤلاء الذين منعوه من العودة إلى الإمارة، كان منهم قتلة عثمان، ومع ذلك اعتزل الجمل وصفين، وحث أهل الجمل على القعود عن الخروج^(٣)، هذه هى سيرته، كرم وشجاعة، وبر، وجهاد وفصاحة أشبه ما تكون بفصاحة النبي ﷺ، وكان قد أُملى على زيد بن ثابت هذا المصحف الذى تقرأه اليوم... فتأمل هذه المناقب الثابتة له بالرواية الصحيحة، وقارنها بما يذكرون من مثالبه التى لا سند لها، وتأمل فيمن أشاعها، فتظن أنها ملفقة لأنها تجمع فى الرجل النقيضين: الكرم والبخل، والبر والتوحش، والفهم والجهل، والجهاد والنكوص، وهذا لا يعقل اجتماعه فى رجل سوى^(٤)، يزعم الرواة - بلا إسناد - أنه عندما ولى سعيد الكوفة بعد الوليد كان بعض الموالى يقول رجزاً:

يا ويلنا قد عُزل الوليد

وجاءنا مجوعاً سعيد

ينقص فى الصاع ولا يزيد^(٥)

وهذا رجز مصنوع، وقصة موضوعة بلا شك^(٦)؛ لأن الموالى فى سنة ٣٠ هـ - أى: العبيد، من أسرى الحروب - لم يكونوا يحسنون العربية، بله قول الشعر، ولأن

(١) المدينة المنورة. فجر الإسلام (٢/ ٢١١).

(٢) الإصابة ترجمة رقم ٣٢٦٨.

(٣) الطبقات (٥/ ٣٤).

(٤) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢١٢).

(٥) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٧٩).

(٦) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢١٢).

سعيد بن العاص المشهور بالكرم والبر، لا يمكن أن يوصف بأنه (مجوع) وإذا مدح الناس والشعراء الوليد لكرمه، فإن سعيداً ضرب المثل بكرمه^(١)، فكان يقال له: عكة العسل، وقال فيه الفرزدق يذكر كرمه:

تري الغر الجحاجح في قریش إذا ما الأمر في الحدثان عالا
قياما ينظرون إلى سعيد كأنهم يرون به هلالا^(٢)

وإذا قال الموالى هذا الرجز في أول مجيء سعيد إلى الكوفة، فكيف عرف الموالى سياسة سعيد، وهل جاء مجوعاً أم جاء مشبعاً؟ والغريب أن الرواة يسوقون هذا الخبر في سياق ينقض بعضه بعضاً حيث يقولون: فولى عثمان سعيد بن العاص الكوفة فسار فيهم سيرة عادلة، فكان بعض الموالى يقول:.. الرجز^(٣)، فكيف تكون السيرة عادلة، ويوصف بأنه جوع الموالى؟! فقد كان الخير كثيراً يسع الجميع، ويفيض، والسيرة العادلة تجعل الخير يعم^(٤)، ورحم الله المؤرخين القدماء، فقد كانوا حسنى الظن بالقراء، فجمعوا في كتبهم الروايات المتناقضة، وحسبوا أن القراء في جميع العصور يستطيعون تمييز الغث من السمين، وعذرهم بأنهم كانوا يؤلفون لأهل عصرهم، وما عرفوا أن القرون التالية ستحفل بمن يحتطب بليل^(٥)، فقد روى ابن سعد في ترجمة سعيد - بلا إسناد - يقول: قالوا: فلما قدم سعيد الكوفة - والياً - قدمها شاباً مترفاً ليست له سابقة، فقال: لا أصعد المنبر حتى يطهر، فأمر به فغسل.. وقال على المنبر: إنما هذا السواد بستان لأغيلة من قریش. فشكوه إلى عثمان^(٦)، وهذا كلام لا يصح؛ لأنه غير مستند، ولأن سعيد بن العاص الذي قاد جيوش الجهاد وفتح الفتوح لا يكون كما وصف القائلون.. ثم إن ابن سعد يروى قوله سعيد هذه على لسان الأشتر مالك بن الحارث عندما منع سعيد بن العاص من

(١) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/٢١٢).

(٢) البداية والنهاية (٨/٨٨).

(٣) تاريخ الطبرى (٥/٢٧٩).

(٤، ٥) فجر المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/٢١٣).

(٦) المصدر نفسه (٢/٢١٣)، والطبقات (٥/٣٢).

دخول الكوفة، بعد سنوات من ولايته حيث قال الأشر: هذا سعيد بن العاص قد أناكم يزعم أن هذا السواد بستان لأغيلمه من قریش، والسواد مساقط رؤوسكم ومراكز رماحكم، وفيء آبائكم^(١).

ومالك بن الحارث الملقب بـ (الأشر) صاحب فتنة، كان من رؤساء الخوارج الذين حاصروا عثمان وقتلوه، ولا يستغرب من هؤلاء أن يختلقوا الأقوال للإثارة كره الناس. وإذا كانت هذه الجملة قد قيلت فإن الذين قالوها هم الخارجون على الخلافة؛ لأنهم فهموا هذا الفهم السقيم بسبب تتابع الأمراء على العراق، وبخاصة الكوفة، من قریش، ولأن العصبية القبلية واضحة في هذه المقولة^(٢)، وقد قال الإمام الذهبي فيه: وكان أميراً شريفاً، جواداً، مدحاً، حليماً، وقوراً، ذا حزم وعقل، يصلح للخلافة - الولاية -^(٣). وأما قول المخالفين والذين طعنوا في عثمان رضي الله عنه بأنه استعمل سعيد بن العاص على الكوفة وظهر منه ما أدى إلى أن أخرجه أهل الكوفة^(٤)، فمجرد إخراج أهل الكوفة له لا يدل على ذنب يوجب ذلك، فمن عرف الكوفة وسبر أحوالها، عرف كثرة تشكى أهلها من ولاتهم بلا مبرر شرعي ولأنفه الأسباب، حتى قال فيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أعياني وأعضل بي أهل الكوفة، ما يرضون أحداً ولا يرضى بهم، ولا يصلحون ولا يصلح عليهم»^(٥)، وفي رواية: أعياني أهل الكوفة، فإن استعملت عليهم ليتاً استضعفوه، وإن استعملت عليهم شديداً شكوه^(٦)، بل إنه دعا عليهم فقال: اللهم إنهم قد لبسوا على قلبس عليهم^(٧).

وقد كان سعيد بن العاص رجلاً حكيماً، فقد قال: لجلسي على ثلاث: إذا دنا رحبت به، وإذا جلس أوسعت له، وإذا حدث أقبلت عليه، وقال لابنه: يا بني أجز

(١) المصدر نفسه (٢/٢١٤).

(٢) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/٢١٤).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/٤٤٧).

(٤) تاريخ الطبري (٥/٢٧٩).

(٥) المعرفة والتاريخ، للفسوي (٢/٧٥٤).

(٦) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (١/٤٢٣).

(٧) المنهاج لابن تيمية (٣/١٨٨).

لله المعروف إذا لم يكن ابتداء من غير مسألة، فأما إذا أنك الرجل تكاد ترى دمه في وجهه، أو جاءك مخاطراً لا يدري أتعطيه أم تمنعه، فوالله لو خرجت له من جميع مالك ما كافأته، وقال أيضاً: يا بني لا تمازح الشريف فيحقد عليك ولا الدنيا فتتهون عليه، ودخلت عليه ذات يوم امرأة من العابدات وهو أمير الكوفة فأكرمها وأحسن إليها، فقالت: لا جعل الله لك إلى لثيم حاجة، ولا زالت المنية في أعناق الكرام، وإذا أزال عن كريم نعمة جعلك سبياً لردها عليه، ولما حضرت سعيداً الوفاة جمع بينه وقال لهم: لا يفقدن أصحابي غير وجهي، وصلوهم بما كنت أصلهم به، وأجروا عليهم ما كنت أجرى عليهم، واكفوهم مؤنة الطلب، فإن الرجل إذا طلب الحاجة اضطربت أركانه، وارتعدت فرائضه مخافة أن يرد، فوالله لرجل يتملص على فراشه يراكم موضعاً لحاجته أعظم منة عليكم مما تعطونه، ثم أوصاهم بوصايا كثيرة، وكانت وفاته ٥٨ هـ وقيل ٥٧ هـ، وقيل ٥٩ هـ (١).

خامساً: عبد الله بن سعد بن أبي السرح.

درج المؤرخون - في الغالب - إذا ذكروا اسم عبد الله بن أبي السرح وتولية عثمان له على ولاية مصر على أن يقولوا: لقد ولي عثمان على مصر عبد الله بن أبي السرح أخاه من الرضاعة (٢)، وإيراد عبارة (أخاه من الرضاعة) مقرونة بالتولية تعتبر إيحاء من بعض المؤرخين باتهام عثمان رضي الله عنه، وأنه لهذه الأخوة من الرضاعة ولاء على مصر. وهذا الذي يراه المؤرخ، غير صحيح، ولكي نرد على هؤلاء وعلى ما يغمزون به أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه نستعرض جهود فارس بنى عامر بن لؤي (٣) - عبد الله بن سعد - فقد كان على خبرة ودراية تامة بأحوال مصر ونواحيها نتيجة اشتراكه مع جيش عمرو في فتحها، ونتيجة ولايته على بعض النواحي أثناء خلافة عمر، فقد كان على صعيد مصر (٤)، وكذلك أول خلافة عثمان، مما أهله لأن

(١) البداية والنهاية (٨/ ٩٠).

(٢) انظر: الكامل، لابن الأثير (٣/ ٨٨).

(٣) فصل الخطاب في مواقف الأصحاب، ص ٧٧.

(٤) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة، ص ٤١٨.

يصبح واليًا عامًا على مصر، فكان أقوى المرشحين لتلك الولاية بعد عمرو بن العاص نتيجة لتلك الخبرات، ويبدو أن عبد الله بن سعد تمكن من ضبط خراج مصر حتى زاد ما كان يجمعه من الخراج على ما كان يجمعه عمرو بن العاص قبله، ولعل مرد ذلك إلى اتباع عبد الله بن سعد لسياسة جديدة في المصروفات اختلفت عن سياسة عمرو، وبالتالي زادت أموال الخراج المتوفرة في مصر^(١)، وقد قام عبد الله بن سعد أثناء ولايته بالجهاد في عدة مواقع، فكانت له فتوح مختلفة لها شأن عظيم، فكان من غزواته غزو إفريقية سنة ٢٧هـ وفتوحه فيها، وقتله ملكها جرجير وكان يصاحبه في تلك الغزوات مجموعة من الصحابة منهم عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وغيرهم، وانتهت الغزوة بصلح مع بطريق إفريقية على تأدية الجزية للمسلمين^(٢)، وقد عاد ابن أبي السرح إلى إفريقية مرة أخرى ووطد فيها الإسلام وذلك في سنة ٣٣هـ^(٣)، كما كان من أهم أعمال عبد الله بن سعد بن أبي السرح غزوة لبلاد النوبة وتسمى غزوة الأساودة أو غزوة الحبشة عند بعض المؤرخين، وقد وقعت هذه الغزوة سنة إحدى وثلاثين للهجرة، وقد دار قتال شديد بين أجناد المسلمين وجنود النوبة، وأصيب مجموعة من المسلمين نظرًا لإجادة أهالي النوبة للرمي، وقد انتهت تلك الغزوة بصلح وقعه عبد الله بن سعد مع أهالي النوبة بوضع جزية محددة عليهم^(٤)، ويعتبر عبد الله بن سعد بحق أول قائد مسلم تمكن من اقتحام النوبة، وقاتل أهلها وفرض عليهم الجزية واستقرت الحال على ذلك في أيامه بين أهل النوبة والمسلمين. كذلك من أهم أعمال عبد الله بن سعد العسكرية غزوة ذات الصواري، وقد انتصر فيها المسلمون على الروم، وقد كانت ولاية عبد الله بن سعد على مصر محمودة على العموم لدى المصريين ولم يروا منه ما يكرهون، يقول عنه المقرئى: ومكث أميرًا مدة ولاية عثمان رضى الله عنه كلها محمودًا في ولايته^(٥).

(١) الولاية على البلدان (١/ ١٨٠).

(٢) فتوح مصر وأخبارها، ص ١٨٣، والولاية على البلدان (١/ ١٨٠).

(٣) النجوم الزاهرة (١/ ٨٠).

(٤) الولاية على البلدان (١/ ١٨١)، وفتوح مصر وأخبارها، ص ١٨٨.

(٥) الخطط (١/ ٢٩٩).

وقال فيه الذهبي: ولم يتعد ولا فعل ما ينقم عليه، وكان أحد عقلاء الرجال وأجوادهم^(١)، وقد كانت ولاية مصر في أول أمرها هادئة مستقرة إلى أن تمكن مثيرو الفتنة من أمثال عبد الله بن سبأ من الوصول إليها وإثارة الناس فيها فكان لهم وللمتأثرين بهم دور كبير في مقتل عثمان رضى الله عنه، كما أن الأحوال في مصر نفسها اضطربت نتيجة طرد الوالى الشرعى لها واستيلاء أقوام آخرين على الأمور بطريقة غير شرعية. وقد تمكنوا خلال تلك الفترة من بث الكراهية في قلوب الناس لخليفتهم عثمان نتيجة مكاييد قاموا بها وأكاذيب لفقوها ونشروها^(٢)، سيأتى الحديث عنها بإذن الله تعالى. ولما وقعت الفتنة بمقتل عثمان رضى الله عنه اغتزلها عبد الله بن سعد وسكن عسقلان، أو الرملة في فلسطين. وروى البغوى بإسناد صحيح، عن يزيد بن أبى حبيب قال: خرج ابن أبى السرح إلى الرملة - بفلسطين - فلما كان عند الصبح قال: اللهم اجعل آخر عملى الصبح، فتوضأ ثم صلى، فسلم عن يمينه، ثم ذهب يسلم عن يساره، فقبض الله روحه^(٣).

سادساً: مروان بن الحكم ووالده:

كان مروان بن الحكم من أنخص أقرباء عثمان به، وأوثقهم صلة بمركز الخلافة، والصقهم بالأحداث التى عصفت بالوحدة الإسلامية، فى عهد عثمان رضى الله عنه، فكان منه بمنزلة كاتم سر الدولة، أو حامل ختم الملك^(٤)، ولم يكن مروان بالتأكيد المستشار الأوحد للخليفة الذى كان يستشير كبار الصحابة وصغارهم ولم يكن بمعزل عن قادة الرأى فى مجتمع الإسلام، وكذلك لم يكن مروان الوزير الذى تجمعت تحت يده سلطات الدولة، إنما كان كاتباً للخليفة، وهى وظيفة تستمد أهميتها من قرب صاحبها من أذن الخليفة وخائمه، أما ادعاء توريطه عثمان وإثارة الناس عليه لتنقل الخلافة بعد ذلك إلى بنى أمية، فافتراض لا دليل عليه، ولم تنتقل الخلافة إلى بنى

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٤).

(٢) الولاية على البلدان (١/ ١٨٦).

(٣) الإصابة ترجمة ٤٧١١، وسير أعلام النبلاء (٣/ ٣٥).

(٤) عثمان بن عفان، لصاديق عرجون، ص ١١٧.

أمية إلا بعد أهوال جسام لم يكن لمروان فيها دور خطير، ثم إن عثمان لم يكن ضعيف الشخصية حتى يتمكن منه كاتبه إلى الحد الذي يتصوره الرواة^(١). ولا ذنب لمروان بن الحكم إن كان في حياة الرسول ﷺ لم يبلغ الحلم باتفاق أهل العلم، بل غايته أن يكون له عشر سنين أو قريب منها، وكان مسلماً، يقرأ القرآن ويتفقه في الدين، ولم يكن قبل الفتنة معروفاً بشيء يعاب فيه، فلا ذنب لعثمان في استكتابه. وأما الفتنة فأصابت من هو أفضل من مروان^(٢)، بل إن خبر طرد النبي ﷺ لأبيه ضعيف سنداً ومتناً، وتعقبه شيخ الإسلام ابن تيمية، فأوضح تفاهته وضعفه^(٣)، وعرف عن مروان بن الحكم العلم والفقه والعدل، فقد كان سيداً من سادات شباب قريش لما علا نجمه أيام عثمان بن عفان، وقد شهد له الإمام مالك بالفقه، واحتج بقضائه وفتاواه في مواطن عديدة من كتاب الموطأ، كما وردت في غيره من كتب السنة المتداولة في أيدي الأئمة المسلمين يعملون بها^(٤)، وكان الإمام أحمد يقول: يقال كان عند مروان قضاء، وكان يتتبع قضايا عمر بن الخطاب^(٥)، وكان مروان من أقرأ الناس للقرآن، كما كان له رواية للحديث الشريف حيث روى عن بعض مشاهير الصحابة، وروى عنه بعضهم، كما روى عنه بعض التابعين^(٦)، وكان حريصاً على تحرى السنة والعمل بها، روى الليث ابن سعد، فقيه مصر، بسنده قال: شهد مروان جنازة فلما صلى عليها انصرف، فقال أبو هريرة رضي الله عنه: أصاب قيراطاً وحرم قيراطاً (أي الأجر والثواب، كما ورد في حديث شريف)^(٧)، فأخبر بذلك مروان فأقبل يجرى حتى بدت ركبته، فقعده حتى أذن له^(٨)، وجاء في مقدمة فتح الباري: مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية ابن عم عثمان بن عفان، يقال له رؤية - يعني

(١) الدولة الأموية المقتدى عليها، لحمدى شاهين، ص ١٦٠.

(٢) منهاج السنة (٣/ ١٩٧).

(٣) المصدر نفسه (٣/ ١٩٥، ١٩٦).

(٤) الدولة الأموية المقتدى عليها، ص ١٦٩.

(٥، ٦) البداية والنهاية (٨/ ٢٦٠).

(٧) المصدر نفسه (٨/ ٢٦٠). والسند رقم ٤٤٥٣، ٤٦٥٠.

(٨) الدولة الأموية المقتدى عليها، ص ٢٠٠، والبدية والنهاية (٨/ ٢٦٠).

رؤية الرسول ﷺ - فإن ثبتت، فلا يعرج على من تكلم فيه^(١). وكان يقول ابن كثير: وهو صحابي عند طائفة كثيرة؛ لأنه ولد في حياة النبي ﷺ^(٢)، وقد ولي مروان المدينة لمعاوية بن أبي سفيان، فكان شديداً على أهل الفسوق بها، حرباً على مظاهر الترف والتخث^(٣)، عادلاً مع رعيته، حذراً من مجاملة ذوى قرياه، أو من يحاول منهم استغلال نفوذه، فقد لطم أخوه عبد الرحمن بن الحكم مولى لأهل المدينة يعمل حناطاً - أثناء فترة ولاية مروان على المدينة - فشكا الحناط إلى مروان، فأثنى بأخيه عبد الرحمن، وأجلسه بين يدي الحناط، وقال له: الطمه، فقال الحناط: والله ما أردت هذا وإنما أردت أن أعلمه أن فوقه سلطاناً ينصرني عليه، وقد وهبتها لك، فقال: لست أقبلها منك، فخذ حقك، فقال: والله لا أطمه، ولكن أهبها لك، ولست والله لا طمه، فقال مروان: لست والله قابلاً، فإن وهبتها فهبها لمن لطمك أو لله عز وعلا، قال: قد وهبتها لله تعالى: فقال عبد الرحمن شعراً يهجو أخاه مروان لذلك^(٤).

إن هذه الصورة المشرفة عن علم مروان وعدله وفقهه، وتدينه، تكاد تختلف تماماً عن تلك الصورة الكريهة التي يقدمها عنه معظم المؤرخين والرواة، الذين اجتهدوا لتشويه حياة الرجل، فلما حانت وفاته اجتهدوا أيضاً لتشويهها، فزعموا أن امرأته - أم خالد بن يزيد بن معاوية - خنته بوسادتها، أو دست له السم، لما سب ابنها - بزعمهم - أمام جماعة من الناس، وهذه القصة مع ما تحتويه من عناصر متناقضة تبدو لأول وهلة وكأنها أسطورة اخترعتها مخيلات عجائز القوم ثم رددتها الألسن، إما حباً في الثرثرة، أو لتنال من سمعة هذه الأسرة الرفيعة المكانة، حسداً لما وصلت إليه من مجد^(٥)، فهل كان موته طبيعياً، أم مات بإصابة الطاعون، أم خنته زوجته؟ إن

(١) فتح الباري (٢/١٦٤). وأباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، ص ٢٥٤.

(٢) البداية والنهاية (٨/٢٥٩).

(٣) الدولة الأموية المفترى عليها، ص ٢٠٠.

(٤) الدولة الأموية المفترى عليها، ص ٢٠٠.

(٥) عبد الملك بن مروان، د. الرئيس، ص ١٢.

تناقض الروايات دليل على أن الحقيقة غير معروفة، والروايات التي تزعم أن زوجته هي التي اغتالته مباشرة أو بالواسطة (عن طريق بعض جواربها)، غير مقبولة أو معقولة، فهذه الزوجة سيدة شريفة من بيت عبد شمس، وزوجها قريبها، وهو خليفة، وهي كانت زوجة خليفة، وأم خليفة (وهو معاوية بن يزيد بن معاوية) وهو عمل، لا تقدم النساء الشريقات عليه، ثم إننا لم نر أى أثر لهذا الاغتيال فلم يحدث فى الأسرة أى خلاف، ولا مطالبة بالثأر، وظل خالد على مكانته عند عبد الملك، كما أن الدافع لا يكفى بحال لارتكاب جريمة القتل^(١)، وذكر عن بعض أهل العلم أنه قال: كان آخر كلام تكلم به مروان: وجبت الجنة لمن خاف النار، وكان نقش خاتمه العزة لله، وقيل: أمنت بالعزير الرحيم^(٢)، وقال ابن القيم: أحاديث ذم الوليد، وذم مروان بن الحكم كذب^(٣).

سابعاً، هل جامل عثمان أحداً من أقاربه على حساب المسلمين؟

لو كان عثمان رضى الله عنه أراد أن يجامل أحداً من أقاربه على حساب المسلمين لكان ربيبه محمد بن أبى حذيفة أولى الناس بهذه المجاملة، ولكن الخليفة أبى أن يوليه شيئاً ليس كفوّاً له بقوله: يا بنى، لو كنت رضىاً ثم سألتنى العمل لاستعملتك، ولكن لست هناك^(٤)، ولم يكن ذلك كراهية له، ولا نفوراً منه، وإلا لما جهزه من عنده وحمله وأعطاه حين استأذن فى الخروج إلى مصر^(٥)، وأما استعمال الأحداث فكان لعثمان رضى الله عنه فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فقد جهز جيشاً لغزو الروم فى آخر حياته واستعمل عليه أسامة بن زيد رضى الله عنهما^(٦)، وعندما توفى الرسول ﷺ تمسك الصديق رضى الله عنه بإنفاذ هذا الجيش، لكن بعض الصحابة رغبوا فى تغيير أسامة بقائد أحسن منه، فكلّموا عمر فى ذلك ليكلّم أبا بكر، فغضب

(١) الدولة الأموية المفترى عليها، ص ٢٠١.

(٢) البداية والنهاية (٨/٢٦٢).

(٣) المنار المنيف، ص ١١٧، وفصل الخطاب فى مواقف الأصحاب، ص ٧٧.

(٤) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/٢٤٧).

(٥) المصدر نفسه (١/٢٤٧)، وتاريخ الطبرى (٥/٤١٦).

(٦) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/٤٢٧)، وتاريخ الطبرى (٥/٤١٦).

أبو بكر لما سمع هذه المقالة وقال لعمر: يا عمر، استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أعزله^(١)، ويجيب عثمان بنفسه على هذه المآخذ أمام الملاء من الصحابة بقوله: ولم أستعمل إلا مجتمعاً، محتلماً، مرضياً، وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنهم، وهؤلاء أهل بلدهم وقد ولي من قبلي أحدث منهم، وقيل لرسول الله ﷺ بما قيل لي في استعماله لأسامة، أذلك؟ قالوا: نعم يعييون للناس ما لا يفسرون^(٢)، ويقول على رضى الله عنه: ولم يول - أى عثمان - إلا رجلاً سويّاً عدلاً، وقد ولي رسول الله ﷺ عتاب بن أسيد على مكة وهو ابن عشرين سنة^(٣).

لم يكن ولاية الأمصار في عهد عثمان رضى الله عنه جاهلين بأمر الشرع، ولم يكونوا من المفرطين في الدين، وإذا كانت لهم ذنوب، فلهم حسنات كثيرة، ومع ذلك فإن سيئات وذنوب هؤلاء كانت تعود عليهم، ولم يكن لها تأثير في المجتمع المسلم، وقد تبعنا آثار هؤلاء الولاية أيام ولايتهم، ووجدناها عظيمة الفائدة للإسلام والمسلمين، وقد اهتدى على يدى ولاية عثمان مئات الألوف إلى الإسلام، وبسبب فتوحاتهم انضم إلى ديار الإسلام أقاليم واسعة، ولو لم يكن عند هؤلاء من الشجاعة والدين، ما يحثهم على الجهاد، ما قادوا الجيوش إلى الجهاد، وفيه مظنة الهلاك، وفيه ترك الراحة ومتاع الدنيا، وقد تبعنا سيرة هؤلاء الولاية، فوجدنا لكل واحد منهم فتحاً أو فتوحاً في الجهات التي تجاور ولايته، مع مناقب وصفات حسنة تؤهله للقيادة^(٤).

إن الذي يرجع إلى الصحيح الممحص من وقائع التاريخ، ويتتبع سيرة الرجال الذين استعان بهم أمير المؤمنين ذو النورين رضوان الله عليهم، وما كان لجهادهم من جميل الأثر في تاريخ الدعوة الإسلامية، بل ما كان لحسن إدارتهم من عظيم النتائج في هناء الأمة وسعادتها، فإنه لا يستطيع أن يمنع نفسه من الجهر بالإعجاب والفخر

(١) تاريخ الطبرى (٤٦/٥).

(٢) المصدر نفسه (٣٥٥/٥).

(٣) البداية والنهاية (١٨٧/٧).

(٤) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢١١/٢).

كلما أمعن فى دراسة ذلك الدور من أدوار التاريخ الإسلامى^(١).

إن عثمان وولاته انشغلوا بمداغمة الأعداء وجهادهم وردهم ولم يمنعهم ذلك من توسيع رقعة الدولة الإسلامية ومد نفوذها فى مناطق جديدة، وقد كان للولاية تأثير مباشر فى أحداث الفتنة حيث كانت التهمة موجهة إليهم وأنهم اعتدوا على الناس، ولكننا لم نلمس حوادث معينة يتضح فيها هذا الاعتداء المزعوم والمشاع، كما اتهم عثمان بتولية أقاربه وقد دحضنا تلك الفرية، وهكذا نرى أن عثمان لم يأل جهداً فى نصيح الأمة وفى تولية من يراه أهلاً للولاية، ومع هذا فلم يسلم عثمان وولاته من اتهامات وجهت إليهم من قبل أصحاب الفتنة فى حينها، كما أن عثمان رضى الله عنه لم يسلم من كثير من الباحثين الذين يطلقون أحكاماً لا تعتمد على التحقيق، أو عثمان وخصوصاً الباحثين المحدثين الذين يطلقون أحكاماً لا تعتمد على التحقيق، أو على وقائع محددة، يعتمدون فيها على مصادر موثوقة، فقد تورط الكثير منهم فى الروايات الضعيفة والرافضية وبنوا أحكاماً باطلة وجائرة فى حق الخليفة الراشد عثمان ابن عفان، مثل طه حسين فى كتابه «الفتنة الكبرى»، وراضى عبد الرحيم فى كتابه «النظام الإدارى والحربى»، وصبحى الصالح فى كتابه «النظم الإسلامية»، ومولوى حسين فى كتابه «الإدارة العربية»، وصبحى محمصانى فى كتابه «تراث الخلفاء الراشدين فى الفقه والقضاء»، وتوفيق اليوزيكى فى كتابه «دراسات فى النظم العربية والإسلامية»، ومحمد الملحم فى كتابه «تاريخ البحرين فى القرن الأول الهجرى»، ويدوى عبد اللطيف فى كتابه «الأحزاب السياسية فى فجر الإسلام»، وأنور الرفاعى فى كتابه «النظم الإسلامية»، ومحمد الرئيس فى كتابه «النظريات السياسية»، وعلى حسنى الخربوطلى فى كتابه «الإسلام والخلافة»، وأبى الأعلى المودودى فى كتابه «الملك والخلافة»، وسيد قطب فى كتابه «العدالة الاجتماعية»، وغيرهم.

لقد كان عثمان رضى الله عنه بحق الخليفة المظلوم الذى إفتري عليه خصومه الأولون ولم يتصفه المتأخرون^(٢).

(١) حاشية المتقى من منهاج الاعتدال، ص ٣٩٠.

(٢) الولاية على البلدان (١/ ٢٢٢ إلى ٢٣٢).

المبحث الرابع

حقيقة العلاقة بين أبى ذر الغفارى وعثمان بن عفان رضى الله عنهما

أولاً، مجمل القصة:

إن مبغضى عثمان بن عفان رضى الله عنه كانوا يشنعون عليه أنه نفى أباً ذر رضى الله عنه إلى الربذة، وزعم بعض المؤرخين أن ابن السوداء (عبد الله بن سبأ) لقي أباً ذر فى الشام وأوحى إليه بمذهب القنعة والزهد، ومواساة الفقراء، ووجوب إتفاق المال الزائد عن الحاجة، وجعله يعيب معاوية، فأخذ عباد بن الصامت إلى معاوية وقال له: هذا والله الذى بعث إليك أباً ذر. فأخرج معاوية أباً ذر من الشام^(١)، وقد حاول أحمد أمين أن يوجد شبهاً بين رأى أبى ذر؛ ورأى مزدك الفارسى، وقال بأن وجه الشبه جاء من أن ابن سبأ كان فى اليمن، وطوف فى العراق وكان الفرس فى اليمن والعراق قبل الإسلام، فمن المحتمل القريب أن يكون قد تلقى هذه الفكرة من مزدكية العراق، واعتنقها أبو ذر حسن النية فى اعتقادها^(٢)، وكل ما قيل فى قصة أبى ذر، مما يشنع به على عثمان بن عفان باطل لا يبنى على رواية صحيحة، وكل ما قيل حول اتصال أبى ذر رضى الله عنه بابن السوداء باطل لا محالة^(٣)، والصحيح أن أباً ذر رضى الله عنه نزل فى الربذة باختياره، وأن ذلك كان بسبب اجتهاد أبى ذر فى فهم آية خالف فيها الصحابة، وأصر على رأيه، فلم يوافق أحد عليه، فطلب أن ينزل بالربذة^(٤) التى كان يغدو إليها زمن النبى ﷺ، ولم يكن نزوله بها نفيًا قسريًا، أو

(١) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢١٦، ٢١٧).

(٢) فجر الإسلام، ص ١١٠.

(٣) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢١٧).

(٤) كانت منزلاً فى الطريق بين العراق ومكة.

إقامة جبرية، ولم يأمره الخليفة بالرجوع عن رأيه لأن له وجهًا مقبولاً، لكنه لا يجب على المسلمين الأخذ به^(١)، وأصح ما روى في قصة أبي ذر رضي الله عنه ما رواه البخاري في صحيحه عن زيد بن وهب قال: مررت بالربذة، فإذا أنا بأبي ذر رضي الله عنه فقلت له: ما أنزلك منزلك هذا؟ قال: كنت بالشام، فاختلفت أنا ومعاوية في: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْيَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤] قال معاوية: نزلت في أهل الكتاب، فقلت: نزلت فينا وفيهم، فكان بيني وبينه في ذلك، وكتب إلى عثمان يشكوني، فكتب إلى عثمان أن أقدم المدينة، فقدمتها، فكثرت على الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك، فذكرت ذلك لعثمان، فقال لي: إن شئت فكننت قريباً، فذاك الذي أنزلني هذا المنزل، ولو أمروا على حبشياً لسمعت وأطعت^(٢)، وقد أشار هذا الاثر إلى أمور مهمة منها:

١ - سأل زيد بن وهب، ليتحقق عما أشاعه مِبْغِضُ عثمان: هل نفاه عثمان أو اختار أبو ذر المكان؟ فجاء سياق الكلام أنه خرج بعد أن كثر الناس عليه يسألونه عن سبب خروجه من الشام. وليس في نص الحديث أن عثمان أمره بالذهاب إلى الربذة، بل اختارها بنفسه، ويؤيد هذا ما ذكره ابن حجر عن عبد الله بن الصامت قال: دخلت مع أبي ذر على عثمان فحسر رأسه، فقال: والله ما أنا منهم - يعني الخوارج - فقال: إنما أرسلنا إليك لتجاورنا بالمدينة، فقال: لا حاجة لي في ذلك، ائذن لي بالربذة قال: نعم^(٣).

٢ - قوله: «كنت بالشام»: بين السبب في سكناه الشام ما أخرجه أبو يعلى عن طريق زيد بن وهب: حدثني أبو ذر، قال: قال لي رسول الله ﷺ، إذا بلغ البناء - أي المدينة - سلعاً، فارتحل إلى الشام، فلما بلغ البناء سلعاً قدمت الشام فسكنت بها^(٤).

(١) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/٢١٧).

(٢) البخاري، كتاب الزكاة، باب ما أدى زكاته، رقم ١٤٠٦.

(٣) فتح الباري (٣/٢٧٤).

(٤) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/٢١٩).

وفى رواية قالت أم ذر: والله ما سير عثمان أباً ذر - تعنى الربذة - ولكن رسول الله ﷺ قال: إذا بلغ البناء سلماً، فاخرج منها^(١).

٣ - إن قصة أبي ذر فى الماء جاء من اجتهاده فى فهم الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣٤﴾ يوم يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ فَذَوْقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥]. وروى البخارى عن أبي ذر ما يدل على أنه فسر الوعيد: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا...﴾ الآية وكان يخوف الناس به، فعن الأحنف بن قيس قال: جلست إلى ملا من قریش فى مسجد المدينة، فجاء رجل خشن الشعر والثياب والهيئة، حتى قام عليهم، فسلم ثم قال: بشر الكانزين برضف^(٢) يُحْمَى عليه فى نار جهنم ثم يوضع على حكمة ثدى أحدهم، حتى يخرج من نغضى^(٣) كتفه، ويوضع على نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه، يتزلزل^(٤)، ثم ولى فجلس إلى سارية، وتبعته وجلست إليه وأنا لا أدري من هو، فقلت له: لا أرى القوم إلا قد كرهوا الذى قلت. قال: إنهم لا يعقلون شيئاً. واستدل أبو ذر رضى الله عنه بقول رسول الله ﷺ: ما أحب أن لى مثل أحد ذهباً، أنفقه كله، إلا ثلاثة دنائير^(٥).

٤ - وقد خالف جمهور الصحابة أباً ذر، وحملوا الوعيد على مانعى الزكاة، واستدلوا على ذلك بالحديث الذى رواه أبو سعيد الخدرى، قال: قال النبى ﷺ: ليس فيما دون خمس أواق صدقة، وليس فيما دون خمس ذود صدقة، وليس فيما دون خمسة أوسق صدقة^(٦). وقال الحافظ ابن حجر: ومفهوم الحديث أن ما زاد على

(١) سير أعلام النبلاء (٧٢/٢) صحيح الإسناد.

(٢) الرضف: الحجارة المحمأة واحدها رصفة.

(٣) نغض: العظم الدقيق الذى على طرف الكتف أو على أعلى الكتف.

(٤) يتزلزل: يضطرب ويتحرك.

(٥) البخارى، كتاب الزكاة رقم ١٤٠٧.

(٦) البخارى، كتاب الزكاة رقم ١٤٠٥.

الخمسة ففيه صدقة، ومقتضاه أن كل مال أخرجت منه الصدقة، فلا وعيد على صاحبه، فلا يسمى ما يفضل بعد إخراجه الصدقة كتركاً^(١). وقال ابن رشد: فإن ما دون الخمس لا تجب فيه الزكاة وقد عفى عن الحق فليس بكنز قطعاً، والله قد أثنى على فاعل الزكاة، ومن أثنى عليه في واجب حق المال لم يلحقه ذم من جهة ما أثنى عليه فيه، وهو المال^(٢)، قال الحافظ: ويتلخص أن يقال: ما لم تجب فيه الصدقة لا يسمى كتركاً؛ لأنه معفو عنه، فليكن ما أخرجت منه الزكاة كذلك؛ لأنه عفى عنه بإخراج ما وجب منه فلا يسمى كتركاً^(٣).

وقال ابن عبد البر: والجمهور على أن الكنز المذموم ما لم تؤد زكاته، ويشهد له حديث أبي هريرة رضى الله عنه مرفوعاً: إذا أدبت زكاة مالك، فقد قضيت ما عليك... ولم يخالف في ذلك إلا طائفة من أهل الزهد كأبي ذر^(٤).

٥ - ولعل مما يفسر مذهب أبي ذر في الإنفاق، ما رواه الإمام أحمد عن شداد بن أوس، قال: كان أبو ذر يسمع الحديث من رسول الله ﷺ فيه الشدة ثم يخرج إلى قومه، يسلم لعله يشدد عليهم، ثم إن رسول الله ﷺ يرخص فيه بعد، فلم يسمعه أبو ذر فيتعلق أبو ذر بالأمر الشديد^(٥).

٦ - قوله: إن شئت تنحيت فكنت قريباً، يدل على أن عثمان طلب من أبي ذر أن يتنحى عن المدينة برفق، ولم يأمره، ولم يحدد له المكان الذي يخرج إليه، ولو رفض أبو ذر الخروج ما أجبره عثمان على ذلك، ولكن أبا ذر كان مطيعاً للخليفة؛ لأنه قال في نهاية الحديث: لو أمروا على حبشياً لسمعت وأطعت^(٦)، ومما يدل على أنه يمقت الفتنة والخروج على الإمام المبايع، ما رواه ابن سعد في أن ناساً من أهل الكوفة قالوا لأبي ذر وهو بالربذة: إن هذا الرجل فعل بك وفعل، هل أنت ناصب له راية - يعنى

(١) فتح الباري (٣/٢٧٢).

(٢، ٣) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/١٠٧).

(٤) فتح الباري (٣/٢٧٣).

(٥) المسند (٥/١٢٥).

(٦) البخاري، رقم ١٤٠٦.

مقاتلة ؟ فقال : لا ، لو أن عثمان سيزنى من المشرق إلى المغرب لسمعت وأطعت^(١) .
 ٧ - والسبب في تنحي أبي ذر عن المدينة ، أو طلب عثمان منه ذلك ، أن الفتنة بدأت تطل برأسها في الأقاليم ، وأشاع المبغضون الأقاويل الملفقة ، وأرادوا أن يستفيدوا من إنكار أبي ذر متعلقاً برأيه ومذهبه ، ولا يريد أن يفارقه ، فرأى عثمان رضى الله عنه تقديم دفع المفسدة على جلب المصلحة ؛ لأن في بقاء أبي ذر بالمدينة مصلحة كبيرة من بث علمه في طلاب العلم ، ومع ذلك فرجع عند عثمان دفع ما يتوقع من المفسدة من الأخذ بمذهبه الشديد في هذه المسألة .

٨ - قال أبو بكر بن العربي : كان أبو ذر زاهداً ، ويرى الناس يتسعون في المراكب والملابس حين وجدوا فينكر ذلك عليهم ، ويريد تفريق جميع ذلك من بين أيديهم ، وهو غير لازم ، فوقع بين أبي ذر ومعاوية كلام بالشام ، فخرج إلى المدينة فاجتمع إليه الناس ، فجعل يسلك تلك الطرق فقال له عثمان لو اعتزلت . معناه أنك على مذهب لا يصلح لمخالطة الناس . . . ومن كان على طريقة أبي ذر فحاله يقتضى أن ينفرد بنفسه ، أو يخالط الناس ويسلم لكل أخذ حاله عما ليس بحرام في الشريعة ، فخرج زاهداً فاضلاً ، وترك جلة فضلاء ، وكل على خير وبركة وفضل ، وحال أبي ذر أفضل ، ولا تمكن لجميع الخلق ، فلو كانوا عليها لهلكوا فسبحان مرتب المنازل^(٢) .

وقال ابن العربي : ووقع بين أبي الدرداء ومعاوية كلام ، وكان أبو الدرداء زاهداً فاضلاً قاضياً لهم (في الشام) ، فلما اشتد في الحق وأخرج طريقة عمر بن الخطاب في قوم لم يحتملوها ، عزلوه ، فخرج إلى المدينة وهذه كلها مصالح لا تقدح في الدين ، ولا تؤثر في منزلة أحد من المسلمين بحال ، وأبو الدرداء وأبو ذر بريئان من كل عيب ، وعثمان برىء أعظم براءة ، وأكثر نزاهة ، فمن روى أنه نفى وروى سبياً فهو كله باطل^(٣)

(١) الطبقات (٤/٢٢٧) .

(٢) المواسم من القواصم ، ص ٧٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٧٩ .

٩ - ولم يقل أحد من الصحابة لأبى ذر إنه أخطأ في رأيه، لأنه مذهب محمود لمن يقدر عليه، ولم يأمر عثمان أبا ذر بالرجوع عن مذهبه، وإنما طلب منه أن يكف عن الإنكار على الناس ما هم فيه من المناع الحلال...، ومن روى أن عثمان نهى أبا ذر عن الفتيا مطلقاً، لم تصل روايته إلى درجة الخبر الصحيح^(١). والذي صح عند البخارى أن أبا ذر قال: لو وضعتهم الصمصامة على هذه - وأشار إلى قفاه - ثم ظننت أنى أنفذ كلمة سمعتها من النبى ﷺ قبل أن تحيزوا على؛ لأنفذتها^(٢)، وفى البخارى، لم يرو أن عثمان نهى أبا ذر عن الفتيا؛ لأن نهى الصحابى عن الفتيا دون تحديد الموضوع، أمر ليس بالهين^(٣).

١٠ - ولو كان عثمان نهاه عن الفتيا مطلقاً، لاختار له مكاناً لا يرى فيه الناس، أو حبسه فى المدينة، أو منعه دخول المدينة، ولكن أذن له بالنزول فى منزل يكثر مرور الناس به؛ لأن الربذة كانت منزلاً من منازل الحاج العراقى، وكان أبو ذر يتعاهد المدينة، يصلى فى مسجد رسول الله ﷺ، وقال له عثمان: لو تنحيت فكنت قريباً. والربذة ليست بعيدة عن المدينة، وكان يجاورها حمى الربذة الذى ترعى فيه إبل الصدقة، ولذلك يروى أن عثمان أقطعه صرمة من إبل الصدقة، وأعطاه مملوكين، وأجرى عليه رزقاً. وكانت الربذة أحسن المنازل فى طريق مكة^(٤)، وبعد أن ذكر الإمام الطبرى الأخبار التى تفيد اعتزال أبى ذر من تلقاء نفسه قال: وأما الآخرون فإنهم رويوا فى سبب ذلك أشياء كثيرة وأموراً شنيعة كرهت ذكرها^(٥).

إن الحقيقة التاريخية تقول إن عثمان رضى الله عنه لم ينف أبا ذر رضى الله عنه إنما استأذنه، فأذن له، ولكن أعداء عثمان رضى الله عنه كانوا يشيعون عليه بأنه نفاه، ولذلك لما سأل غالب القطان، الحسن البصرى: عثمان أخرج أبا ذر؟ قال الحسن: لا، معاذ الله^(٦)، وكل ما روى فى أن عثمان نفاه إلى الربذة، فإنه ضعيف الإسناد لا

(١) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢٢٣).

(٢) البخارى، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل (١/ ٢٩).

(٣) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢٢٤).

(٤) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٨٦).

(٥) المصدر نفسه (٥/ ٢٨٨).

(٦) تاريخ المدينة، ابن شبة، ص ١٠٣٧ إسناده صحيح.

يخلو من علة قاذحة، مع ما فى منته من نكارة لمخالفته للمرويات الصحيحة والحسنة، التى تبين أن أبا ذر استأذن للخروج إلى الربذة وأن عثمان أذن له^(١)، بل إن عثمان أرسل يطلبه من الشام، ليجاوره بالمدينة، فقد قال له عندما قدم من الشام: إنا أرسلنا إليك لخير، لتجاورنا بالمدينة^(٢). وقال له أيضاً: كن عندى تغدو عليك وتروح اللقاح^(٣)، أفمن يقول ذلك له ينفيه^(٤)؟ ولم تنص على نفيه إلا رواية رواها ابن سعد، وفيها بريدة بن سفيان الأسلمى، الذى قال عنه الحافظ ابن حجر: ليس بالقوى وفيه رفض. فهل تقبل رواية رافضى تتعارض مع الروايات الصحيحة والحسنة^(٥)؟، واستغل الرافضة هذه الحادثة أبشع استغلال، فأشاعوا أن عثمان رضى الله عنه نفى أبا ذر إلى الربذة، وأن ذلك مما عيب عليه من قبل الخارجين عليه أو أنهم سوغوا الخروج عليه^(٦)، وعاب عثمان رضى الله عنه بذلك ابن المطهر الحلى الرافضى المتوفى سنة ٧٢٦هـ بل زاد أن عثمان رضى الله عنه ضرب أبا ذر ضرباً وجيعاً^(٧)، ورد عليه شيخ الإسلام ابن تيمية ردّاً جامعاً قوياً^(٨)، وكان سلف هذه الأمة يعلمون هذه الحقيقة، فإنه لما قيل للحسن البصرى: عثمان أخرج أبا ذر؟ قال: لا، معاذ الله^(٩)، وكان ابن سيرين إذا ذكر له أن عثمان رضى الله عنه سير أبا ذر، أخذه أمر عظيم، ويقول: هو خرج من نفسه، ولم يسيره عثمان^(١٠)، وكما تقدم فى الرواية الصحيحة الإسناد - أن أبا ذر رضى الله عنه لما رأى كثرة الناس عليه خشى الفتنة، فذكر ذلك لعثمان كأنه يستأذنه فى الخروج، فقال له عثمان رضى الله عنه: إن شئت تنحيت فكنت قريباً^(١١).

(١) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١١٠).

(٢) تاريخ المدينة ص ١٠٣٦ - ١٠٣٧ إسناد حسن.

(٣) الطبقات، لابن سعد (٤/ ٢٢٦ - ٢٢٧).

(٤، ٥) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١١١).

(٦) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١١١).

(٧) منهاج السنة لابن تيمية (٦/ ١٨٣).

(٨) المصدر نفسه (٦/ ٢٧١، ٣٥٥).

(٩) تاريخ المدينة، ١٠٣٧ إسناد صحيح.

(١٠) المصدر نفسه، ١٠٣٧ إسناد صحيح.

(١١) البخارى، كتاب الزكاة رقم ١٤٠٦.

ثانياً، بطلان تأثير ابن سبأ على أبي ذر رضى الله عنه:

كتب سعيد الأفغانى فى كتابه عائشة والسياسة، فعظم دور ابن سبأ فى الفتنة، ونسب إليه كل المؤامرات والفتن والملاحم الواقعة بين الصحابة، ويرى أن هذه المؤامرة المحكمة سهر عليها أبالسة خبيرون، وسددوا خطاها وتعهدوها حتى آتت ثمارها فى جميع الأقطار، ولهذا كتب هذا العنوان (ابن سبأ البطل الخفى المخيف)^(١)، ويبدو التهويل من شأن ابن سبأ عند الأفغانى حينما يصفه بأنه رجل على غاية من الذكاء وصدق الفراسة، والنظر البعيد، والحيلة الواسعة، والنفاذ إلى نفسية الجماهير^(٢)، ويقطع بأنه أحد أبطال جمعية تلمودية سرية غايتها تقويض الدولة الإسلامية^(٣)، ويكاد يقرر بأنه يعمل لصالح دولة الروم التى انتزع المسلمون منها لفترة قريبة قطرين مهمين هما مصر، والشام عدا ما سواهما من بلاد أخرى على البحر المتوسط، ويستغرب نشاط ابن سبأ إلى شتى المجالات الدينية والسياسية والحربية^(٤).

وهو يرى أن ابن سبأ كان موفقاً كل التوفيق فى لقاءه مع أبى ذر، وفى تفصيل هذه المقالة التى ركبها على مزاج أبى ذر، وأن الذى ساعده على ذلك فهمه الجيد لأمزجة الناس، واستخباراته الصادقة المنظمة^(٥)، وهذا الزعم - أى فى تأثير ابن سبأ على أبى ذر رضى الله عنه - لا أساس له من الصحة من عدة وجوه:

أ - حينما أرسل معاوية إلى عثمان رضى الله عنه يشكو إليه أمر أبى ذر لم تكن منه إشارة إلى تأثير ابن سبأ عليه، واكتفى أن قال: إن أبا ذر قد أعضل بى وقد كان من أمره كيت وكيت^(٦).

ب - ذكر ابن كثير الخلاف الواقع بين أبى ذر ومعاوية بالشام فى أكثر من موضع فى كتابه، ولم يرد ابن سبأ فى واحد منها^(٧).

ج - وفى صحيح البخارى ورد الحديث الذى يشير إلى أصل الخلاف بين أبى ذر ومعاوية، وليس فيه الإشارة من قريب أو بعيد إلى ابن سبأ^(٨).

(١ - ٥) عائشة والسياسة، ص ٦٠.

(٦) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٨٥).

(٧) البداية والنهاية (٧/ ١٧٠، ١٨٠).

(٨) البخارى رقم ١٤٠٦.

د - وفي أشهر الكتب التي ترجمت للصحابة ترد محاوراة معاوية لأبى ذر، ثم نزوله الربذة، ولكن شيئاً من تأثير ابن سبأ على أبى ذر لا يذكر^(١).

هـ - بل ورد الخبر فى الطبرى هكذا: فأما العاذرون معاوية فى ذلك - يعنى إشخاص معاوية أبا ذر إلى المدينة - فذكروا فى ذلك قصة ورود ابن السوداء الشام ولقياه أبا ذر... إلخ^(٢). وهذا الخبر الذى أورده الطبرى، ساقط وكاذب، تكذبه وقائع التاريخ الزمنية، وإليك البيان:

* يذكرون أن ابن سبأ أسلم فى عهد عثمان، وكان يهودياً من اليمن، وبدأ نشاطه المخرب فى الحجاز، ولكنهم لم يذكروا أنه التقى أحداً، أو التقاه أحد فى الحجاز.

* كان أول ظهوره فى البصرة، بعد أن تولى عبد الله بن عامر عليها بثلاث سنوات، وعبد الله بن عامر جاء بعد أبى موسى الأشعرى سنة ٢٩ هـ وبهذا يكون ظهوره فى البصرة ٣٢ هـ، وقد طرده ابن عامر من البصرة يوم عرفة.

* قالوا: إنه توجه إلى الكوفة، فباض وفرخ، وحرص على معاوية، ولا بد أنه مكث زمناً فى الشام ليتعرف على أحوال الرجال، ويضع خطته ليث دعوته فيهم، ولنفتراض جدلاً أنه عرف أمره فى الشام فى أواخر سنة ٣٣ هـ، فماذا تقول أيها القارئ إذا عرفت أن الروايات الصحيحة تقول: إن أبا ذر كانت مناظرته لمعاوية سنة ٣٠ هـ، وأنه رجع إلى المدينة، وتوفى بالربذة سنة ٣١ هـ أو سنة ٣٢ هـ، ومعنى هذا أن ابن سبأ ظهر فى البصرة فى وقت كان فيه أبو ذر ميتاً، فكيف وأين التقاة^(٣)؟

إن أبا ذر رضى الله عنه لم يتأثر لا من قريب ولا من بعيد بأراء عبد الله بن سبأ اليهودى، وقد أقام بالربذة حتى توفى، ولم يحضر شيئاً مما وقع فى الفتنة^(٤)، ثم هو قد روى حديثاً من أحاديث النهى عن الدخول فى الفتنة^(٥).

(١) عبد الله بن سبأ وأثره فى أحداث الفتنة، ص ٥١.

(٢) تاريخ الطبرى (٢٨٥/٥).

(٣) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢٢٥/٢).

(٤) أحداث الفتنة الأولى بين الصحابة فى ضوء قواعد الجرح والتعديل، د. عبد العزيز دخان، ص

ثالثاً، وفاة أبي ذر رضي الله عنه وضم عثمان عياله إلى عياله،

في غزوة تبوك قيل لرسول الله ﷺ: قد تخلف أبو ذر، وأبطأ به بعيره. فقال: دعوه فإن يك في خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه، وتلوّم^(١) أبو ذر على بعيره، فلما أبطأ عليه، أخذ متاعه فحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً، ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازل، فنظر ناظر من المسلمين فقال رسول الله ﷺ: كن أبا ذر^(٢). فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذر، فقال رسول الله ﷺ: رحم الله أبا ذر، يمشى وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده^(٣)، ومضى الزمان وجاء عهد عثمان، وأقام أبو ذر في الربرة، فلما حضرته الوفاة أوصى امرأته وغلّامه: إذا مت فاغسلاني وكفّناني، ثم احملاني فضعاني على قارعة الطريق، فأول ركب يمرون بكم فقولوا: هذا أبو ذر، فلما مات فعلوا به كذلك، فطلع ركب فما علموا به حتى كادت ركائبهم تطأ سريره، فإذا ابن مسعود في رهط من أهل الكوفة، فقال: ما هذا؟ فقليل: جنازة أبي ذر، فاستهل ابن مسعود ييكى، فقال: صدق رسول الله ﷺ: يرحم الله أبا ذر، يمشى وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده^(٤)، فغسلوه وكفنوه وصلّوا عليه ودفنوه، فلما أرادوا أن يرتحلوا قالت لهم ابنته: إن أبا ذر يقرأ عليكم السلام وأقسم ألا تركبوا حتى تأكلوا ففعلوا، وحملوهم حتى أقدموهم إلى مكة، ونعوه إلى عثمان رضي الله عنه فضم ابنته إلى عياله^(٥)، وجاء في رواية... فلما دفناه دعتنا إلى الطعام، وأردنا احتمالها، فقال ابن مسعود: أمير المؤمنين قريب، نستأمره، فقدمنا مكة فأخبرناه الخبر، فقال: يرحم الله أبا ذر، ويغفر له نزوله الربرة، ولما صدر خرج، فأخذ طريق الربرة، فضم عياله إلى عياله، وتوجه نحو المدينة، وتوجهنا نحو العراق^(٦).

(١) تلوّم على بعيره: تمهل.

(٢) كن أبا ذر: لفظه الأمر ومعناه الدعاء: أرجو الله أن تكون أبا ذر.

(٣) السيرة النبوية، لابن هشام (٤/١٧٨).

(٤) السيرة النبوية، لابن هشام (٤/٤٧٨).

(٥) التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، ص ٨٧، ٨٨.

(٦) تاريخ الطبري (٥/٣١٤).

الفصل السادس

أسباب فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه

المبحث الأول

أهمية دراسة وقائع فتنة مقتل عثمان وما ترتب عليها من أحداث، والحكمة من إخباره ﷺ بوقوعها

أولاً: أهمية دراسة وقائع فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه وما ترتب عليها
من أحداث فى الجمل وصفين وغيرهما،

ورد عن كثير من السلف والعلماء الأمر بالتوقف عن الخوض فى تفاصيل ما وقع
بين الصحابة، وإيكال أمرهم إلى الله الحكيم العدل، مع الترضى عنهم، واعتقاد أنهم
مجتهدون، مأجورون إن شاء الله، والحذر من الطعن فيهم والوقوع فى أعراضهم، لما
يجر ذلك من الطعن فى الشريعة، إذ هم حملتها وحاملوها إلينا، ومن ذلك ما روى
عن عمر بن عبد العزيز أنه سئل عن أهل صفين، فقال: تلك دماء طهر الله منها يدي
فلا أحب أن أخضب لسانى فيها^(١)، وسئل أحدهم عن ذلك فقال، متمثلاً بقوله
تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[البقرة: ١٣٤] .

وهذا النهى معلل، علته الخوف مما ذكرناه من الطعن فيهم والوقوع فى أعراضهم
وما يستوجب ذلك من غضب الله ومقته، فإذا انتفت هذه العلة، فالظاهر أنه لا حرج
فى ذلك، إذا كان الكلام والبحث فى تفاصيل ما وقع بينهم لا يؤدى إلى الطعن فيهم

(١) حلية الأولياء (١١٤/٩)، وعون المعبود (٢٧٤/١٢).

مطلقاً، فلا بأس من دراسة ذلك والتعمق في أسبابه ودوافعه وتفصيلاته الدقيقة ونتائجه ونداعياته على مجتمع الصحابة، ثم على من بعدهم، وقد كتب بعض العلماء عن الفتنة، أمثال ابن كثير والطبري وغيرهم حول أحداث تلك الفترة الحرجة من تاريخ الإسلام، وفصلوا، وفصلوا في قضايا كثيرة تتعلق بتلك الفتنة، ومنهم من ذهب إلى حد تخطيط أحد الطرفين، أو كليهما، اعتماداً على روايات ونصوص كثيرة اختلط فيها الصحيح بغيره^(١)، وهناك أسباب تدعو علماء أهل السنة وطلاب العلم منهم للغوص في أعماق فتنة الهرج التي وقعت في صدر الإسلام والبحث عن تفاصيلها ومن هذه الأسباب:

١ - أن المؤلفات المعاصرة التي تناولت أحداث الفتنة بين الصحابة والتابعين انقسمت إلى ثلاثة أنواع:

أ - مصنفات تربي أصحابها على موائد الفكر الغربي، الحاقدة على التاريخ الإسلامي، أو الجاهل بالتاريخ الإسلامي، فلم يروا فيه شيئاً جميلاً، فراحوا يطعنون في الصحابة والتابعين بطريقة تخدم أهداف أعداء الإسلام، وخصومه، الذين قاموا لدراسة أحداث تلك الفتنة وتفصيلها، وإعطائها تفسيرات تطعن في جموع الصحابة، وتضرب الإسلام في أصوله وتجعل من هذه الأحداث صراعاً سياسياً، على مناصب وكراس، تخلى فيه الصحابة عن إيمانهم وتقواهم وصدقهم مع الله، وانقلبوا إلى طلاب دنيا، وعشاق رعامه، لا يهمهم أن تراق الدماء، وتزهق الأرواح وتسلب الأموال، وتستباح الحرمات إذا كان في ذلك ما يحقق لهم ما يريدون من الرياسة والزعامة، ومن تولى كبر هذه الفرية، طه حسين في (الفتنة الكبرى)^(٢) الذي هو بحق فتنة كبرى على عقول الناشئة من أبناء المسلمين، فقد راح طه حسين يشنع على الصحابة ويشكك في نياتهم، ويتهمهم باتهامات مغرضة لخدمة أهداف أعداء الإسلام والمسلمين^(٣)، وقد تأثر الكثير بمنهجه ويبدو أن أمثال هؤلاء اعتمدوا على

(١) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، د. عبد العزيز دخان، ص ٧٩.

(٢) انظر: الفتنة الكبرى (عثمان)، على وينو.

(٣) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ٨٠.

الروايات التاريخية التي أوردها المؤرخون كالطبري وابن عساكر وغيرهما، والتي اختلط فيها الغث بالسمين، والكذب بالصدق، وأخذوها دون مراعاة لمنهج هؤلاء في مصنفاتهم، وهذا خطأ كبير^(١)، وقد تأثرت هذه الكتابات بالفكر الرافضي والكتابات الشيعية الرافضية للتاريخ الإسلامي^(٢)، فقد تعتمد الروافض الإساءة في كتاباتهم للتاريخ الإسلامي، كما في روايات وأخبار الكلبي^(٣)، وأبي مخنف^(٤)، ونصر بن مزاحم المنقري^(٥)، والتي توجد حتى عند الطبري في تاريخه، لكن الطبري يذكرها مسندة لهؤلاء فيعرف أهل العلم حالها^(٦)، وكما في كتابات المسعودي في مروج الذهب، واليعقوبي في تاريخه.. وقد أشار الأستاذ محب الدين الخطيب في حاشية العواصم إلى أن التدوين التاريخي إنما بدأ بعد الدولة الأموية وكان للأصابع الباطنية والشعبوية المتلغفة برداء التشيع دور في طمس معالم الخير فيه وتسويد صفحاته الناصعة^(٧).

ويظهر هذا الكيد لمن تدبر كتاب العواصم من القواصم لابن العربي مع الحاشية الممتازة التي وضعها العلامة محب الدين الخطيب، لقد سود شيوخ الروافض آلاف الصفحات بسبب أفضل قرن عرفته البشرية، وصرفوا أوقاتهم وجهودهم لتشويه تاريخ المسلمين^(٨) وكانت هذه المادة (الرافضية) الكبيرة والتي تمجدها في كتب التاريخ التي وضعها الروافض، أو شاركوا في بعض أخبارها، وتراها في كتب الحديث عندهم

(١) أحداث وأحاديث فتنه الهرج، ص ٨١.

(٢) محمد بن السائب الكلبي، قال ابن حبان: كان سبياً من أولئك الذين يقولون: إن علياً لم يمت وإنه راجع إلى الدنيا. توفي سنة ١٤٦ هـ. ميزان الاعتدال (٣/٥٥٨). وابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (٧/٢٧٠، ٢٧١).

(٤) لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف الأزدي من أهل الكوفة، قال ابن عدي: شيعي محترق صاحب أخبارهم توفي سنة ١٥٧ هـ له تصانيف كثيرة منها الردة، الجمل، صفين وغيرها..

(٥) نصر بن مزاحم بن سيار المنقري الكوفي قال الذهبي: رافضي جلد وتركوه، توفي سنة ٢١٢ هـ، ومن كتبه: وقعة صفين، وهو مطبوع والجمل ومقتل الحسين، ميزان الاعتدال (٤/٢٥٣).

(٦) أصول مذهب الشيعة الإمامية، لناصر الفقاري (٣/١٤٥٧).

(٧) المصدر نفسه (٣/١٤٥٨).

(٨) أصول مذهب الشيعة الإمامية (٣/١٤٥٩).

كالكافى، والبحار، وفى ما كتبه شيوخهم فى القديم كإحقاق الحق، وفى الحديث ككتاب الغدير هذه المادة السوداء المظلمة الكريهة الشائنة هى المرجع لما كتبه أعداء المسلمين من المستشرقين وغيرهم، وجاء ذلك الجيل المهزوم روحياً، والذي يرى فى الغرب قدوته، وأمثولته من المستغربين فتلقف ما كتبه الأقلام الاستشراقية وجعلها مصدره ومنهله وتبنى أفكارهم ونشر شبهاتهم فى ديار المسلمين، وكان لذلك أثره الخطير فى أفكار المسلمين وثقافتهم، وكان الرفض هو الأصل فى هذا الشر كله، وإن دراسة آراء المستشرقين وصلتها بالتشيع لهى موضوع مهم يستحق الدراسة والتتبع، لقد بدأت استفادة العدو الكافر من شبهات الروافض، وأكاذيبهم ومفترياتهم على الإسلام والمسلمين منذ عهد الإمام ابن حزم (ت ٤٥٦هـ)^(١).

ب - مصنفات لبعض علماء هذه الأمة من المعاصرين، وهى مفيدة إجمالاً، ولكن طريقة عرضهم للأحداث وتفسيرهم لمواقف بعض الصحابة والتابعين فيها كثير من عدم الإنصاف مثل ما كتبه أبو الأعلى المودودى - رحمه الله - فى كتابه (الخلافه والملك) وما دونه الشيخ محمد أبو زهرة - فى كتابيه (تاريخ الأمم الإسلامية) و(الإمام زيد بن على) فالكتابان مشحونان بكثير من التحامل على مقام بعض الصحابة والطعن على خلفاء بنى أمية، وتنقصهم، وتجردهم من أية خصلة حميدة، أو عمل صالح^(٢)، ويبدو أن أمثال هؤلاء العلماء لم يحققوا فى الروايات التاريخية، فتورطوا فى الروايات الرافضية الشيعية وبنوا عليها تحليلاتهم واستنتاجاتهم غفر الله لنا ولهم.

ج - مصنفات حاول أصحابها أن يسلخوا فيها منهج علماء الجرح والتعديل فى نقد الروايات التاريخية وعرضها على أصول منهج المحدثين من حيث السند والمتن من أجل تمييز صحيحها من سقيمها، وسليمها من عليها.

وفى هذه المؤلفات محاولة جيدة، وجهد مشكور للوقوف فى وجه هذا الزيف، وتفسير الأحداث التفسير الصحيح الذى لا يتعارض مع فضل الصحابة وإيمانهم

(١) أصول مذهب التشيع (٣/١٤٥٩).

(٢) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ٨١.

وجهادهم^(١)، ومن هذه المؤلفات الجيدة، ما كتبه الدكتور يوسف العث، فى تاريخ الدولة الأموية، وما كتبه محب الدين الخطيب، تعليقاً على كتاب: العواصم من القواصم لأبى بكر بن العربى، وما كتبه صادق عرجون فى كتابه عثمان بن عفان، وما سطره الدكتور سليمان بن حمد العودة فى كتابه: عبد الله بن سبأ وأثره فى أحداث الفتنة فى صدر الإسلام، وما كتبه محمد أمحزون فى كتابه: تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة، وما كتبه الدكتور أكرم العمرى فى كتابه الخلافة الراشدة^(٢)، وما كتبه عثمان الخميس فى كتابه حقبة من التاريخ، وما كتبه الدكتور محمد حسن شراب فى كتابه المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدى، وما قام به محب الدين من تحقیقات نافعة وتعليقات صائبة على كتاب العواصم من القواصم والمتقى وغيرها من الكتب والبحوث والرسائل التى سارت على نفس المنهج، فقد ظهر من هذا البيان شدة الحاجة إلى وجود مؤلفات ومصنفات ترد على هذه المزاعم والأخطاء، ولا يتم الرد على هؤلاء المزيفين للتاريخ الإسلامى ومقام الصحابة إلا بمحاولة دراسة تفاصيل تلك الأحداث، وغرلة الأخبار والروايات الواردة بميزان الجرح والتعديل، والتصحيح والتضعیف^(٣)، وقد جاء عن ابن تيمية قوله: لكن إذا ظهر مبتدع، يقدر فيه بالباطل، فلا بد من الذب عنهم، وذكر ما يبطل حجته بعلم وعدل^(٤) وقد ذهب الإمام الذهبى رحمه الله فى هذا مذهباً آخر، فهو يدعو إلى إحراق هذه الكتب التى فيها هذا الكذب والتشويه لمقام الصحابة. قال رحمه الله: كما تقرر الكف عن كثير مما وقع بين الصحابة وقتالهم - رضى الله عنهم أجمعين - وما زال يمر بنا ذلك فى الدواوين والكتب والأجزاء ولكن أكثر ذلك منقطع وضعیف، وبعضه كذب، وهذا فيما بأيدينا وبين علمائنا فينبغى طيه وإخفاؤه، بل إعدامه لتصفو القلوب وتتوفر على حب الصحابة والترضى عنهم^(٥)، وقد أفادنا الذهبى فى كلامه فائدة كبيرة، وهو

(١) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ٨١.

(٢) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ٨٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٨٣.

(٤) منهاج السنة (٣/١٩٢).

(٥) سير أعلام النبلاء (١٠/٩٢).

تصريحه بكون أكثر ما ينقل من ذلك فى الكتب والدواوين كذباً وزوراً واقتراء على مقام الصحابة رضى الله عنهم، إلا أن اقتراح الذهبى بحرق تلك المؤلفات لم يعد ممكناً فقد انتشرت هذه الكتب، وتولت طباعتها كثير من دور النشر، وكثير من ذوى النيات السيئة، فلم يبق إلا وضعها موضع الدراسة وبيان ما فيها من عوار وخطأ وكذب حفظاً لأجيال المسلمين من انحراف السلوك والعقيدة^(١).

٢ - تظهر أهمية دراسة فتنه مقتل عثمان رضى الله عنه، وما ترتب عليها من أحداث لمعرفة أسباب الفتنة الحقيقية، سواء كانت هذه الأسباب داخلية أو خارجية، ومعرفة نصيب كل سبب من هذه الأسباب فيما حدث، وهل هناك أسباب يمكن إدراجها فى هذا السبيل؟.

إن الذى يقرأ طرفاً مما كتب عن هذه الفتنة يحس أن مؤامرة كبرى، جرى التخطيط لها، وتعاون المجوس والنصارى واليهود والمتأفقون على تنفيذها، ففضية تأمر الأعداء ترافق الأمة الإسلامية فى كل مراحل تاريخها الطويل^(٢).

إلا أن هذه المؤامرة ما كانت لتنجح، لولا وجود عوامل ضعف داخلية ساهمت فى التمكين لنجاح هذه المؤامرة، ألا يضحى دراسة عهد الصحابة - والحالة هذه - واجباً من الواجبات فى سبيل معرفة أسباب ضعف الأمة الإسلامية وتحديد مكامن الداء التى أوتيت منها، والاستفادة من ذلك فى إصلاح حاضر هذه الأمة، وتجنبها هذه المزالق فى مستقبل حياتها؟، أم كتب عليها أن تظل ترزأ تحت ثقل أدوائها من الداخل وكيد أعدائها من الخارج^(٣).

إن ما وقع من أحداث جسام فى فتنه مقتل عثمان رضى الله عنه وما ترتب عليها من أحداث تحتاج لدراسة عميقة ومتأنية لكى نستخرج من تلك الحقبة التاريخية دروساً وعبراً نستضىء بها فى جاضرنا ولكى نسترشد بها فى سعينا الجاد لإعادة الخلافة

(١) أحداث وأحاديث فتنه الهرج، ص ٨٤.

(٢) أحداث وأحاديث فتنه الهرج، ص ٨٣.

(٣) المصلى نفسه، ص ٨٥.

الراشدة على منهاج النبوة حتى تسعد البشرية بدين الله وشرعه وتخرج من شقاوتها وتعاستها وضنكها بسبب بعدها عن شرع الله تعالى.

ثانياً: الحكمة من إخباره ﷺ بوقوعها:

لقد أخبر النبي ﷺ في كثير من أحاديثه بأن هذه الأمة ستختلف وستقاتل، وتعددت الأحاديث التي تشير إلى ذلك بإجمال أو بتفصيل، وتنوعت أساليب الإخبار عن ذلك من ذكر لأسباب الفتن، أو لنتائجها، أو لبعض أحداثها، ووقائعها، أو لمن يثيرونها، وغير ذلك، وكان كثير من هذا البيان والتوضيح منه ﷺ جواباً لأسئلة الصحابة الكرام الذين كانوا يطرحونها عليه، وهم يشاهدون ويتذوقون النعمة العظيمة التي آفأها الله عليهم، وهي نعمة الأخوة ووحدرة الصف واجتماع الكلمة، فراحوا يسألون فيما إذا كانت هذه النعمة ستدوم أم تزول، ولما كان رسول الله ﷺ يعلم بالوحي أنها لن تدوم كما هي، أحب أن يريهم على الاستعداد لهذه المحن والفتن حتى يحسنوا التصرف يوم يقدر الله لهذه الفتنة أن تقع، فيسعوا إلى علاجها في وقتها ومن خلال النظر في جملة الأحاديث الواردة في ذكر الفتن نلمح الحكم التالية^(١):

١ - أن النبي ﷺ وهو يذكر هذه الفتن والوقائع يريد أن يري الأمة على الاستعداد لها، حتى تحسن التصرف يوم تقع هذه الفتن، فتسعى إلى علاجها في وقتها.

٢ - أن في هذه الأحاديث إشارات إلى من يثيرونها، وأنها أحياناً تكون من قوم ظاهري الإيمان والتشدد، ولكن عقولهم منحرفة، وقلوبهم ملتوية، وهم في جملة حالهم غير مدركين ولا فاقهين^(٢).

٣ - أن هذه الفتنة تكشف المنافقين، وتصلقل قلوب المؤمنين، فيزدادون إيماناً، ويتحفظون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو نوع من الابتلاء تصلقل به النفوس وتتعود المجاهدة، وتتعرف الخير فتأمر به، والشر فتنتهى عنه^(٣).

(١) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ٦٨.

(٢) الوحدة الإسلامية، لمحمد أبو ذهرة، ص ١٣٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٣٦ - ١٣٧.

٤ - أن الإخبار عن هذه الفتن يحمل في مضمونه تحذيراً شديداً من الوقوع فيها، أو ملازمة شيء منها، ذلك أن المؤمنين من هذه الأمة - من الصحابة وغيرهم - حين يسمعون خبر النبي ﷺ بأن منهم من سيحدث منه القتل، ومنهم من سيتعلق بالدنيا، ومنهم من سترك الجهاد، ومنهم، ومنهم... تتحرك في نفوسهم مشاعر المواجهة لهذه الفتنة، ويقول كل واحد منهم، لعل أنجو، ويصبح الموقف منها الخوف على الدوام أن يقع في تلك المهالك على غفلة والخوف - في هذا الباب - من أعظم سبل النجاة^(١).

قال ابن تيمية رحمه الله، بعد أن أورد عدة أحاديث مرفوعة في وقوع هذا الخلاف والاختلاف في هذه الأمة: وهذا المعنى محفوظ عن النبي ﷺ، من غير وجه، يشير إلى أن التفرقة والاختلاف لا بد من وقوعها في الأمة، وكان يحذر أمته، لينجو من شاء الله له السلامة^(٢).

٥ - أن الإخبار عن هذه الفتن أدق في تحديد سبل النجاة منها، فإن الإنسان مهما بالغت في تحذيره من خطر يهدده - دون أن تحدد له هذا الخطر، أو تبين له كيفية الوقوع فيه - قد لا يتصور الطريقة التي سيحدث بها، ولا يستبين طبيعة المشكلة التي سيواجهها، وقد يقع في المحذور دون أن يعرف أنه المقصود بالتحذير^(٣).

٦ - أن الإخبار عن تلك الفتن اقترن في بعض الأحاديث بذكر أسبابها، أو بيان نتائجها، أو موقف المسلم منها، وهذا ينفع المسلم - أو الأمة كلها - في نبذ أسباب الفتن، أو الحكم على وقائع معينة من خلال النظر في نتائجها، أو اتخاذ الموقف السليم منها ابتداءً.

٧ - ثم إن فيها دليلاً واضحاً على صدق رسالة محمد ﷺ ونبوته، يزداد به إيمان الصحابة الذين سمعوا الحديث، ثم رأوا تأويله في مواقفهم بعد مدة، ويزداد به إيمان

(١) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ٦٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٠. واقتفاء الصراط (١/١٢٧).

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٠.

المؤمن - كل مؤمن - فى كل عصر ومصر، وهو يعيش وقائع الفتن والاختلافات التى أخبر النبى ﷺ بوقوعها^(١).

وقد جمع الدكتور عبد العزيز صغير دخان أحاديث الفتنة وقام بدراستها وبيان صحيحها من ضعيفها فى كتابه أحداث وأحاديث فتنة الهرج ثم استخرج من الأحاديث الصحيحة معانى دلت عليها تلك الأحاديث منها:

١ - أن الفتنة سنة الله عز وجل فى الأمم، وفى هذه الأمة إلى قيام الساعة وهى فتن كقطع الليل المظلم، عمياء صماء، بكماء، من سعى فيها هلك فى الدنيا والآخرة، ومن كف يده أفلح، لا يكاد يبصر فيها أحد موقفه إلا من أحياء الله بالعلم وزوده بالتقوى، وهده إلى ما اختلف فيه من الحق بإذنه^(٢).

٢ - وفى هذه الأحاديث أن فتنة القتال بين المسلمين أمر واقع لا محالة، ولا سبيل لإنكاره واستغرابه بدءاً بما وقع بين الصحابة والتابعين، ومروراً بالعصور الإسلامية إلى اليوم، ولكن الواجب هو معرفة أسباب هذا القتال لتلافيها، أو السعى فى إطفاء نار الفتنة حينما تشب فى ديار المسلمين، وألا ينبغى أن يقف المسلم منها موقف المتفرج.

٣ - ومن رحمة الله بهذه الأمة أن يكفر عنها ذنوبها فى الدنيا، وليس القتل والفتن التى تنزل ساحتها والزلازل التى تصيبها إلا كفارة لهذه الذنوب.

٤ - وفى بعض هذه الأحاديث إشارة واضحة وصريحة إلى أن منبت معظم هذه الفتن من قبل المشرق، وكذلك كان الواقع، فإن الفتنة الأولى بدأ تحريكها فى الكوفة والبصرة، وفتنة الجمل كانت هناك.

٥ - وفى الفتنة يبيع قوم دينهم بعرض من الدنيا يسير، وتتحكم فيهم الشهوات والشبهات، ويصير أهل الإسلام الصحيح غرباء فى سلوكهم وتصرفاتهم، ويصبح المتمسك بدينه أشبه ما يكون بالذى يقبض على الجمر، أو على الشوك، صابراً

(١) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ٧٠.

(٢) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ٣٤٥.

محتسباً ما يصيبه من الألم والذي في سبيل دينه وما يعتقد أنه حق.

٦ - وفي الفتنة، يحفظ الله طائفة من الناس، فلا تلتبس بالفتنة، ولا تلتطخ أيديهم من دماء المسلمين، يسعون في إصلاح ذات البين، والدعوة إلى مبادئ الإسلام الصحيحة من رحمة وأخوة وسيكون موقفهم غريباً بدون شك وسط الجموع الهائجة، والأهواء المستحكمة^(١).

٧ - وفي الفتنة يلعب اللسان دوراً أخطر من السيف، بل إن اللسان يكون غالباً منشأ الفتن والبلايا، قرب كلمة شر مسمومة انطلقت، فأشعلت النار في القلوب، وهيجت ما كان مستكنّاً في النفوس، وشحذت العواطف، وكانت سبباً في فتن ضارية^(٢).

٨ - وفي الفتنة ينقص العلم، إما بموت العلماء أو بسكونتهم واعتزالهم إثارةً للسلامة، أو لانصراف الناس عنهم لسبب من الأسباب، ويسود عندها الجهل، ويتخذ الناس رؤساء جهالاً، فيفتوا بغير علم، فيضلوا ويضلوا، ويسود الرويضة وهو النافه من الناس، ويستعلى السفهاء منهم^(٣).

٩ - وفي هذه الأحاديث أن الله عز وجل ضمن لرسوله ﷺ ألا يهلك هذه الأمة بالسنين والمجاعات، وألا يسلط عليها عدواً فيتمكن منها دائماً، مهما كانت قوة هذا العدو وإمكاناته، وجبروته، ولكن الأمر الذي لم يضمنه الله لرسوله ﷺ هو ألا تختلف هذه الأمة، وسيكون هذا هو الباب الذي يدخل منه العدو الخارجي، إذ إن الأمة إذا اختلفت فيما بينها وقتل بعضها بعضاً، ضعفت عوامل القوة فيها، وتمكن منها عدوها، فعبث بخيراتها ومقدراتها، ولن يرفع عنها حتى تعود إلى تحقيق القوة في نفسها بالوحدة، وجمع الكلمة، والاحتكام إلى شرع الله^(٤).

١٠ - وفي الأحاديث أن وقوع الفتنة واستمرارها مظنة ظهور فرق المنحرفين عن هدى الإسلام، وتمكن أهل الباطل وظهورهم.

(١) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨.

(٢ - ٤) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ٣٤٨.

١١ - وفي الفتنة تتغير أخلاق الناس، وتتبدل، ويزهد الناس في العمل الصالح، ومشاريع الخير، ويلقى بين الناس العداوة والبغضاء والحقد، ويختلط الأمر على الناس.

١٢ - وفي الأحاديث أن هذه الفتنة يسبقها أمن واستقرار وصلاح أحوال الناس المادية والأمنية، حتى يسير الراكب بين العراق ومكة لا يخاف إلا ضلال الطريق، ويظهر هذا في عهد عثمان رضي الله عنه، فقد كان عهد أمن واستقرار وتدفق الأموال والخيرات، ثم حدثت فتنة الهرج، فقوض ذلك كله، حتى تبدل الحال من الأمن إلى الخوف.

١٣ - وفي الفتنة يقتل خيار الناس وذوو العقول والرأى فيهم، ويبقى رجزة من الناس لا تعرف معروفًا ولا تنكر منكراً^(١)، هذه بعض المعاني من أحاديث الفتن.

(١) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ٣٤٩، ٤٥٠.

المبحث الثانى

أسباب فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه

قال الإمام الزهرى: ولى عثمان اثنتى عشرة سنة أميراً للمؤمنين، أول ست سنين منها لم ينقم الناس عليه شيئاً، وإنه لأحب إلى قریش من عمر بن الخطاب؛ لأن عمر كان شديداً عليهم، أما عثمان فقد لان لهم ووصلهم، ثم حدثت الفتنة بعد ذلك، وقد سُمى المؤرخون المسلمون الأحداث فى النصف الثانى من ولاية عثمان ٣٠ - ٣٥ هـ (الفتنة) التى أدت إلى استشهاد عثمان رضى الله عنه^(١) كان المسلمون فى خلافة أبى بكر وعمر وصدراً من خلافة عثمان، متفقين لا تنازع بينهم، ثم حدثت فى أواخر خلافة عثمان أموراً أوجبت نوعاً من التفرق، وقام قوم أهل الفتنة والظلم، فقتلوا عثمان، فتفرق المسلمون بعد مقتل عثمان^(٢).

وقد كان المجتمع الإسلامى فى خلافة الصديق والفاروق والنصف الأول من خلافة عثمان يتصف بالسماة الآتية:

١ - أنه - فى عمومته - مجتمع مسلم بكامل معنى الإسلام، عميق الإيمان بالله واليوم الآخر، مطبق لتعاليم الإسلام بجدية واضحة، والتزام ظاهر، وبأقل قدر من المعاصى وقع فى أى مجتمع فى التاريخ، فالدين بالنسبة إليه هو الحياة، وليس شيئاً هامشياً يقف الناس إليه بين الحين والحين، إنما هو حياة الناس وروحهم، ليس فقط فيما يؤدونه من شعائر تعبدية يحرصون على أدائها على وجهها الصحيح، وإنما من أخلاقياتهم، وتصوراتهم واهتماماتهم، وقيمهم، وروابطهم الاجتماعية، وعلاقات الأسرة، وعلاقات الجوار، والبيع والشراء والضرب فى مناكب الأرض، والسعى وراء

(١) طبقات ابن سعد (٣٩/١)، ٤٧. والبداءة والنهاية (٧/١٤٤، ١٤٩)، والخلفاء الراشدين للخالدى،

ص ١١٢.

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/٢٠).

الأرزاق، وأمانة التعامل، وكفالة القادرين لغير القادرين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والرقابة على أعمال الحكام والولاة ولا يعنى هذا بطبيعة الحال أن كل أفراد المجتمع هم على هذا الوصف، فهذا لا يتحقق فى الحياة الدنيا، ولا فى أى مجتمع من البشر، وقد كان فى مجتمع الرسول ﷺ - كما ورد فى كتاب الله - منافقون يتظاهرون بالإسلام وهم فى دخيلة أنفسهم من الأعداء، وكان فيه ضعاف الإيمان، والمعوقون، والمتأقلون والمبطوثون، والخائفون، ولكن هؤلاء جميعاً لم يكن لهم وزن فى ذلك المجتمع، ولا قدرة على تحويل مجراه؛ لأن التيار الدافق هو تيار أولئك المؤمنين الصادقى الإيمان المجاهدين فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، الملتزمين بتعاليم هذا الدين^(١).

٢ - أنه المجتمع الذى تحقق فيه أعلى مستوى للمعنى الحقيقى (للأمة)، فليست الأمة مجرد مجموعة من البشر جمعتهم وحدة اللغة، ووحدة الأرض، ووحدة المصالح، فتلك هى الروابط التى تربط البشر فى الجاهلية، فإن تكونت منهم أمة فهى أمة جاهلة، أما الأمة بمعناها الربانى - فهى الأمة التى تربط بينها رابطة العقيدة - بصرف النظر عن اللغة والجنس واللون، ومصالح الأرض القريبة وهذه لم تتحقق فى التاريخ كما تحققت فى الأمة الإسلامية، فالأمة الإسلامية هى أمة لا تقوم على عصبية الأرض ولا الجنس ولا اللون ولا المصالح الأرضية، إنما هو رباط العقيدة، يربط بين العربى والحبشى والرومى والفارسى، يربط بين أهل البلاد المفتوحة، والأمة الفاتحة على أساس الأخوة الكاملة فى الدين، ولئن كان معنى الأمة قد حققته هذه الأمة أطول فترة عرفتها الأرض، فقد كانت فترة صدر الإسلام أزهى فترة تحققت فيها معانى الإسلام كلها، بما فيها معنى الأمة، على نحو غير مسبوق^(٢).

٣ - أنه مجتمع أخلاقى، يقوم على قاعدة أخلاقية واضحة مستمدة من أوامر الدين وتوجيهاته، وهى قاعدة لا تشمل علاقات الجنسيتين وحدها، وإن كانت هذه من

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامى، ص ١٠٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠١.

أبرز سمات هذا المجتمع، فهو خال من التبرج، ومن فوضى الاختلاط وخال من كل ما يخدش الحياء من فعل أو قول أو إشارة وخال من الفاحشة إلا القليل الذى لا يخلو منه مجتمع على الإطلاق، ولكن القاعدة الأخلاقية أوسع بكثير من علاقات الجنسين، فهى تشمل السياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر والتعبير، فالحكم قائم على أخلاقيات الإسلام، وعلاقات الناس فى المجتمع قائمة على الصدق والأمانة والإخلاص والتعاون والحب، لا غمز ولا لمز ولا نيمة ولا قذف للأعراض^(١).

٤ - أنه مجتمع جاد، مشغول بمعالى الأمور لا بسفاسفها، وليس الجد بالضرورة عبوساً وصرامة، ولكنه روح تبعث الهممة فى الناس وتحث على النشاط والعمل والحركة، كما أن اهتماماته أعلى وأبعد من واقع الحس القريب، وليست فيه سمات المجتمع الفارغة المترهلة، التى تتسكع فى البيوت وفى الطرقات، تبحث عن وسيلة لقتل الوقت من شدة الفراغ^(٢).

٥ - أنه مجتمع مجند للعمل، فى كل اتجاه تلمس فيه روح الجندية واضحة لا فى القتال فى سبيل الله فحسب، وإن كان القتال فى سبيل الله قد شغل حيزاً كبيراً من حياة هذا المجتمع، ولكن فى جميع الاتجاهات، فالكل متأهب للعمل فى اللحظة التى يطلب منه فيها العمل، ومن ثم لم يكن فى حاجة إلى تعبئة عسكرية ولا مدنية، فهو معبأ من تلقاء نفسه بدافع العقيدة وبتأثير شحتها الدافعة لبذل النشاط فى كل اتجاه^(٣).

٦ - أنه مجتمع متعبد، تلمس فيه روح العبادة واضحة فى تصرفاته ليس فقط فى أداء الفرائض، والتطوع بالنوافل ابتغاء مرضات الله، ولكن فى أداء الأعمال جميعاً، فالعمل فى حسه عبادة، يؤديه بروح العبادة، الحاكم يسوس رعيته بروح العبادة، والمعلم الذى يعلم القرآن ويفقه الناس فى الدين يعلم بروح العبادة والتاجر الذى يراعى الله فى بيعه وشرائه يفعل ذلك بروح العبادة، والزوج يراعى بيته بروح العبادة والزوجة تراعى بيتها بروح العبادة، تحقيقاً لتوجيه رسول الله ﷺ: كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته^(٤).

(١ - ٤) كيف نكتب التاريخ الإسلامى، ص ١٠٢.

هذه من أهم سمات عصر الصديق وعهد الخلفاء الراشدين - بصفة عامة - إلا أن تلك السمات كانت أقوى كلما اقتربنا من عهد النبوة، وتضعف كلما ابتعدنا عن عصر النبوة، وهذه السمات جعلته مجتمعاً مسلماً فى أعلى آفاقه، وهى التى جعلت هذه الفترة المثالية فى تاريخ الإسلام، كما أنها هى التى ساعدت فى نشر هذا الدين بالسرعة العجيبة التى انتشر بها، فحركة الفتح ذاتها من أسرع حركات الفتح فى التاريخ كله، بحيث شملت فى أقل من خمسين عاماً أرضاً تمتد من المحيط غرباً إلى الهند شرقاً، وهى ظاهرة فى ذاتها تستحق التسجيل والإبراز، وكذلك دخول الناس فى الإسلام فى البلاد المفتوحة بلا قهر ولا ضغط، وقد كانت تلك السمات التى اشتمل عليها المجتمع المسلم هى الرصيد الحقيقى لهذه الظاهرة، فقد أحب الناس الإسلام لما رأوه مطبقاً على هذه الصورة العجيبة الوضاعة، فأحبوا أن يكونوا من بين معتقيه^(١).

إن دراسة هذه الفترة من التاريخ ينبغى أن تترك انطباعات لا يمحو فى نفس الدارس. انطباعاً بأن الإسلام دين واقعى قابل للتطبيق فى عالم الواقع بكل مثالياته، فهى ليست مثاليات معلقة فى الفضاء لمجرد التأمل، أو التمنى، ولكنها مثاليات واقعية، فى تناول التطبيق إذا حاولها الناس بالجدية الواجبة، وأعطوها حقها من الجهد، ثم انطباعاً بأن ما حدث مرة يمكن أن يحدث مرة أخرى؛ لأن البشر هم البشر، وقد استطاع البشر دائماً أن يحاولوا الصعود مرة أخرى وسيصعدون حين يعزمون وسينالون على ذلك النصر والتمكين^(٢)، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

ومن الأمور التى تساعد المسلمين على العودة إلى الخلافة الراشدة معرفة العوامل والأسباب التى أدت إلى زوالها لكى نعمل على اجتنابها، والاحذ بالأسباب التى

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامى، ص ١٠٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٣، ٣٠٤.

جعلها الله سبباً في إكرام الأمة بها، ولذلك نريد أن نفصل في أسباب فتنة مقتل عثمان لأهميتها وإليك أهم هذه الأسباب:

أولاً: الرخاء وأثره في المجتمع:

كان رسول الله ﷺ يرى ما يعانيه أصحابه من شظف العيش وفقر الحال، فكان يصبرهم، ثم يخبرهم أن هذا الحال الذي هم عليه لن يدوم طويلاً، حتى تفتح عليهم خزائن الدنيا وخيراتها، وحذرهم من الاشتغال بذلك عن العمل الصالح والجهاد في سبيل الله، وما يمكن أن يجره ذلك عليهم من التقاتل على الدنيا ومتاعها الزائل^(١)، وقد فقه عمر بن الخطاب هذا التحذير فكان من سياسته حماية المسلمين من غوائل فتنة المال، وزخارف الدنيا، فاجتهد في منع المسلمين من التوسع في بلاد العجم، ولولا ظهور مصلحة أخرى راجحة في توسعهم لبقى المنع قائماً، إلا أن هذا التراجع من عمر لم يشمل كبار الصحابة والمهاجرين والأنصار الذين كانوا بالمدينة إذ بقي المنع في حقهم^(٢)، ولا شك أن الذي فعله عمر كان يدل على إحساسه وخوفه من انتشار المسلمين في أرض تزرخ بألوان الخيرات والأرزاق؛ فتستولى الدنيا على قلوبهم، وتفسد عليهم آخرتهم^(٣)، فلما جاء عهد عثمان وتوسعت الفتوحات شرقاً وغرباً، وبدأت الأموال تتقاطر على بيت المال من الغنائم والأسلاب، وامتلات أيدي الناس بالخيرات والأرزاق^(٤)، وغنى عن الإشارة أن النعم والخيرات وتلك الواردات من الفتوح سيكون لها أثرها على المجتمع، إذ تجلب الرخاء وما يترتب عليه من انشغال الناس بالدنيا والافتتان بها، كما أنها مادة للتنافس والبغضاء، خاصة بين أولئك الذين لم يصقل الإيمان نفوسهم، ولم تهذبهم التقوى من أعراب البادية، وجفاتها، ومن مسلمة الفتوحات وأبناء الأمم المترفة الدخلاء في الإسلام الذين جروا شوطاً بعيداً في زخارف الدنيا وبهجتها، واتخذوها غاية يتنافسون فيها، وقد أدرك عثمان هذه الظاهرة وأنذر بما سيؤول إليه أمر الأمة من التبدل والتغير في كتابه الموجه إلى الرعية: فإن أمر

(١) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ٥٥٩.

(٢ - ٤) المصدر نفسه، ص ٥٦٥.

هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاثة فيكم: تكامل النعم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم للقرآن^(١).

أما تكامل النعم فيتحدث الحسن البصرى - وهو شاهد عيان - عن حالة المجتمع، ووفور الخيرات، وإدراج الأموال، وما آكل إليه أمر الناس من البطر وعدم الشكر، فيقول: أدركت عثمان على ما نعموا عليه، قلما يأتى على الناس يوم إلا وهم يقتسمون فيه خيراً يقال لهم: يا معشر المسلمين اغدوا على أعطيائكم فيأخذونها وافرة، ثم يقال لهم اغدوا على السمن والعسل، فالأعطيات جارية، والأرزاق دارة، والعدو متقى وذات البين حسن، والخير كثير... والأخرى كان السيف مغمداً على أهل الإسلام فسلوه على أنفسهم فوالله ما زال مسلولاً إلى يوم الناس هذا، وإيم الله إنى لأراه سيفاً مسلولاً إلى يوم القيامة^(٢).

وأما بلوغ أولاد المسلمين من السبايا فيتمثل فيما آكل إليه أمر هؤلاء من الدعة والترف، وكان أول منكر ظهر بالمدينة حين فاضت الدنيا وانتهى وسع الناس طيران الحمام والرمى على الجلاهقات^(٣) فاستعمل عليها عثمان رجلاً من بنى ليث سنة ثمان^(٤)، فقصها وكسر الجلاهقات^(٥)، وحدث بين الناس النشو بتناولهم النبيذ، فأرسل عثمان رضى الله عنه رجلاً يطوف عليهم بالعصا ليمنعهم من ذلك، وعندما اشتد ذلك شكاهم عثمان رضى الله عنه إلى الناس، فأجمعوا على أن يجلدوا فى النبيذ، فأخذ نفر منهم فجلدوا ثم جعل عثمان لا يأخذ أحداً على شر أو شهر سلاحاً إلا نفاه من المدينة، فضج أبأؤهم من ذلك^(٦)، وقام عثمان فى المدينة فقال: (إن الناس تبلغنى عنهم هنات وهنات، وإنى لا أكون أول من فتح بابها ولا أدار راحتها «أى

(١) تاريخ الطبرى (٢٤٥/٥).

(٢) البداية والنهاية (٢٢٤/٧).

(٣) قوس البندق الذى يرمى به.

(٤) أى فى السنة الثامنة من خلافته.

(٥) تاريخ الطبرى (٤١٥/٥).

(٦) المصدر نفسه. (٤١٦/٥).

الفتنة» ألا وإنى رام نفسى بزمام وملجمها بلجام، فأقودها وأكبعها^(١) بلجامها، ومنا ولكم طرف الحبل، فمن اتبعنى حملته على الأمر الذى يعرف، ومن لم يتبعنى فمن خلف منه وعزاء منه، ألا وإن لكل نفس يوم القيامة سائقاً وشهيداً، سائق يسوقها على أمر الله وشاهد يشهد عليها بعملها، فمن كان يريد الله بشيء فليشتر ومن كان يريد الدنيا فقد خسر^(٢)، وهكذا لما قام عثمان الرجل التقى والخليفة الراشد بواجبه، وكانت إجراءاته تعزيرية تجاه أبناء الأغنياء الذين بدءوا نوعاً من حياة الترف وفساد الأخلاق، انضم أولئك المنحرفون إلى صف الناقمين من الرعايا.

وبالنسبة لقراءة الأعراب والأعاجم القرآن، فيظهر فى شكل واضح فى تكوين طبقة فى المجتمع المسلم تتعلم القرآن لا رغبة فى الثواب، وإنما رغبة فى الجعل الذى جعله الخليفة تشجيعاً وتأليفاً^(٣)، ويجب أن نلاحظ أن هذا التغيير بدأ أثره يظهر أولاً على أطراف الدولة الإسلامية، ثم أخذ يزحف إلى عاصمة الخلافة، مما دفع عثمان رضى الله عنه إلى تذكير المسلمين فى خطبه بضرورة الحذر من التهالك على الدنيا وحطامها، فكان مما قاله فى أحد خطبه:

إن الله إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطكموها لتركوا إليها، إن الدنيا تفتنى، وإن الآخرة تبقى، ولا تبطرنكم الفانية، ولا تشغلنكم عن الباقية، ... واحذروا من الله الغير، والزموا جماعتكم، لا تصيروا أحزاباً^(٤)، ثم قرأ:

﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وأذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴿١٠٢﴾ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ [آل عمران: ١٠٣، ١٠٤].

وفى مثل هذه الظروف، والخيرات وافرة، فاضت الدنيا على المسلمين وتفرغ الناس

(١) أى من الكبح المنع.

(٢) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/ ٣٦١).

(٣) الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة، ص ٣٩٢.

(٤) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ٥٦٧.

بعد أن فتحوا الأقاليم وأطمأنوا، فأخذوا ينقمون على خليفتهم^(١).

ومن هنا يعلم أثر الرخاء في تحريك الفتنة، ومن هنا أيضاً يمكن فهم مقالة عثمان رضى الله عنه لعبد الرحمن بن ربيعة - له صحبة - وهو على الباب^(٢) - إن الرعية قد أبطر كثيراً منهم البطنة، فقصر بهم ولا تقتحم بالمسلمين فإنى خاش أن يبتلوا^(٣). وفى آخر خطبة لعثمان رضى الله عنه وهو يعظ المسلمين بعد أن فتحت الدنيا عليهم قال: **الا لا تبطرنكم الغاية ولا تشغلنكم عن الباقية...** واحذروا أحداث الدهر المغير، والزموا جماعتكم، ولا تفرقوا شيعاً وأحزاباً^(٤).

ثانياً، طبيعة التحول الاجتماعى فى عهد عثمان رضى الله عنه،

حدثت تغيرات اجتماعية عميقة، ظلت تعمل فى صمت وقوة لا يلحظها كثير من الناس، حتى ظهرت على ذلك الشكل العنيف المتفجر بدءاً من النصف الثانى من خلافة عثمان، وبلغت قمة فورانها فى التمرد الذى أدى إلى استشهاد عثمان رضى الله عنه^(٥).

لما توسعت الدولة الإسلامية عبر حركة الفتوح حصل تغير فى تركيبة المجتمع والاختلالات فى نسيجه؛ لأن هذه الدولة بتوسعها المكاني والبشرى ورثت ما على هذه الرقعة الواسعة من أجناس، واللوان، ولغات، وثقافات، وعادات، ونظم، وأفكار، ومعتقدات، وفنون أدبية وعمرانية، ومظاهر، وظهرت على سطح هذا النسيج ألوان مضطربة وخروقات غير منتظمة، ورقع غير منسجمة مما صيرت المجتمع غير متجانس فى نسيجه التركيبى وبالذات فى الأمصار الكبرى المؤثرة: البصرة، والكوفة، والشام، ومصر، والمدينة، ومكة، فقد كانت الأمصار الكبيرة - بمواقعها وأهميتها - تدفع بجيوش الفتوح، وتستقبلها وهى عائدة وقد نقص عددها بالموت

(١) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/٣٦٢).

(٢) المقصود بالباب منطقة فى جهات أذربيجان تسمى الدر البند. معجم البلدان (١/٣٠٣).

(٣) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/٣٦٢).

(٤) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/٣٦٢).

(٥) الدولة الأموية المفترى عليها، ص ١٦٦

والقتل، وتستقبل بدلاً عنهم أو أكثر منهم أعداداً وفيرة من أبناء المناطق المفتوحة، فرس، وترك، وروم، وقبط، وكرد، وبربر، وكان أكثرهم من الفرس أو من النصارى العرب أو غيرهم أو من اليهود^(١)، وأكثر سكان هذه الأمصار الكبيرة هم من شاركوا في حركة الفتح الإسلامي ثم استقروا في هذه الأمصار، وكان أغلب هؤلاء من القبائل العربية من جنوبها وشمالها وشرقها والذين لم يكونوا - عادة - من الصحابة، وبمعنى أدق ليسوا بما تلقوا التربية الكافية على يد رسول الله ﷺ أو على أيدي الجليل الأول من الصحابة إما لانشغالهم بالفتوح أو لقلة الصحابة، وقد حصلت تغيرات في نسيج المجتمع البشري المكون من جيل السابقين وسكان البلاد المفتوحة والأغراب، ومن سبقت لهم ردة، واليهود والنصارى، وفي تكوين نسيج المجتمع الثقافي، وفي بسطة عيش المجتمع وفي ظهور لون جديد من الانحرافات، وفي قبول الشائعات^(٢).

١ - المتغيرات في نسيج المجتمع البشري:

أ - لقد تكون هذا النسيج من قطاعات عدة، قطاع الأسبقين ممن بقى من الصحابة ومن الذين نالوا قسطاً وفيراً من رعاية الصحابة، ولكن هذا القطاع وذاك ظل يتناقص إما عن طريق الموت والقتل في ميادين الفتوح، وإما عن طريق تفرقهم في الأمصار مما جعلهم أقل القطاعات حضوراً، وكانوا موزعين في البلدان المفتوحة والأمصار الكبيرة المستحدثة كالبصرة والكوفة، والشام، ومصر، وبعضهم في الجزيرة العربية يخرجون منها ثم يعودون إليها مرة أخرى^(٣).

ب - سكان المناطق المفتوحة، وكانوا يشكلون الأكثرية بالنسبة للقادمين إليهم مع حركة الفتوح، فقد ظل القادمون قلة، وإن كان لهم حضور فعلى في إدارة البلد أو التأثير السلوكي والأخلاقي والفكري واللغوي، إلا أنهم رغم ذلك يعتبرون قلة، وظل هذا القطاع - قطاع سكان المناطق المفتوحة - مقتصرًا في استقراره - غالبًا - على مناطقهم ومع هذا فقد تنقل بعضهم في المناطق الأخرى من بلدان الدولة الإسلامية،

(١) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٣٧٩.

(٢، ٣) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٣٨٠.

بل استقر بعضهم فى الأمصار الكبيرة وفى عاصمة الدولة أيضاً، إما على شكل ما عرف بالسبى، أى يستقرون تابعين لمواليهم، وإما على شكل تنقل تجارى ومعرفى وإدارى حيث لا يوجد قانون يمنعهم من ذلك، إن لم يكونوا يلقبون التشجيع والدعم^(١) وقد كان الأعاجم الذين جاءوا من البلاد المفتوحة من أسرع الناس إلى الفتنة؛ ذلكم لأن أغلب الأعاجم من الأمم المتوترة، والشعوب المقهورة، فتكثر مسارعتهن للفتن لأسباب كثيرة منها:

* جهلهم، وحادثة عهد أكثرهم بالكفر، والملك والعز الذى كانوا عليه، ثم سلبوه.

* قلة فقههم فى الدين، بسبب العجمة وغيرها.

* العصبية، وكراهية العرب.

* أن طوائف منهم دخلت الإسلام ظاهراً وخوفاً من السيف أو الجزية، وأضمرُوا للإسلام والمسلمين الشر والكيد، فيسارعون إلى كل فتنة.

* طمع أهل الأهواء فيهم للأسباب المذكورة وتحريضهم لهم^(٢).

ج - أولئك الأعراب عرفوا بأنهم من سكان البادية وهم مثل بقية الناس منهم المسلم التقى، ومنهم الكافر والمنافق إلا أنهم كما قال الله عنهم: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٧]. وذلك لأنهم أقسى قلوباً وأغلظ طبعاً وأجفى قولاً، ولصفاتهم هذه فهم جديرون وأخلق بهم ألا يعلموا حدود ما أنزل الله من الشرائع والأحكام والجهاد^(٣)، فهم من أسرع الناس فى الفتنة، ولمسارعتهم فيها له أسباب منها:

* قلة فقههم فى الدين.

(١) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٣٨٠.

(٢) دراسات فى الأهواء والفرق والبدع، ناصر العقل ص ١٦١.

(٣) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٣٨٠، نقلاً عن الشوكانى فتح القدير (٢/ ٣٩٥ -

* سرعة اغترار الواحد منهم بما يتعلمه من القرآن، فيظن أنه صار عالمًا بقليل من العلم.

* جفاؤهم للعلماء، وترك التلقى عنهم، والاقتداء بهم.

* تمكن العصبية القبلية من نفوسهم.

* تغيير أهل المطامع بهم، واستغلال سذاجتهم وجهلهم.

* حدة طباعهم ونفورهم من المدنية والخلطة، وإساءة الظن بالآخرين ممن لا يعرفونهم، وهذا من طباع الأعراب في كل زمان ومكان.

* تشدهم في الدين، وتنطعهم بلا علم، ولذلك صار غالب الخوارج من هذا الصنف^(١).

وخرج من هؤلاء الأعراب رجال عرفوا (بالقراء) وقد اختلف مفهوم (القراء) هذا عن منطوقه، فالمنطوق يقصد به جماعة ممن تخصصوا بقراءة القرآن، إلا أن المفهوم ومن خلال الواقع أنتج دلالات أخرى، فمنهم من كان - على طريقة الخوارج - يفهمون القرآن بطريقتهم الخاصة، ومنهم من كان زاهدًا لا يفقه حقيقة ما يقرأ ولم يستطع التأقلم مع واقع المجتمع^(٢)، وهؤلاء القراء الجهلة يسارعون للفتن وذلك لأسباب منها:

* الشدة في نزعة الدين عندهم مع قلة الفقه في الدين، مما يورث غيرة على الدين بغير علم ولا بصيرة؛ فتجرفهم الأهواء والعواطف باسم الغيرة على الدين، دون نظر في العواقب، ولا فقه لقواعد الشرع كدرء المفسد، وجلب المصالح.

* الاغترار بما يحصله الواحد منهم من الآيات والأحاديث دون فقه ولا بصيرة، فيتوهم أنه صار من أهل العلم، الذين يحلون ويعقدون في مصالح المسلمين.

* تعاليهم على العلماء والأئمة، وظنهم أنهم وصلوا درجة الاستغناء عنهم وعن

(١) دراسات في الأهواء والفرق والبدع، ص ١٦١.

(٢) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٣٨١.

فقههم وعلمهم، تحت شعار هم رجال ونحن رجال.

* اتخاذهم رؤساء جهالاً من بينهم دون العلماء والأئمة.

* ولأن أهل الأهواء ورؤوس البدع والفتن - وغالبهم من الدهاة - يفزعون إلى القراء فيغوونهم، ويستدرجونهم، ويستغلون نزعة التدين فيهم، ويستثيرون غيرتهم، بلا بصيرة.

* جهلهم بقواعد الاستدلال وأحكام الفتن^(١).

د - وفصيل أو قطاع آخر في نسيج المجتمع الإسلامي وهو ممن سبقت لهم ردة، وكانت حياتهم في الإسلام قصيرة وانتماءهم إليه ضرورة، ولا نفى أن منهم من زكى وصلح وكان من الفضلاء إلا أن منهم من لم يتذوق حلاوة الإسلام فظل - رغم انتسابه للإسلام - يعيش بعقليته السابقة، ونفسيته التي عاشها قبل الإسلام الفعلية القبلية تناوشه العصبية وكأن الإسلام لم يدخل فيهم أو أنهم ظنوا عدم التناقض بين ما يعرفونه من إسلام وما يتعاملون به في الواقع من دوافع قبلية^(٢).

لقد شكلت طوائف من المرتدين عنصرًا ساهم في تهيئة أجواء الفتنة، والمرتدون كانوا على عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ولكن الشيء الجديد هو اختلاف سياسة عثمان رضي الله عنه عن الخليفين قبله، تجاههم فأبو بكر رضي الله عنه يكسب إلى عماله: ألا يستعينوا بمرتد في جهاد العدو، ويؤكد على خالد بن الوليد، وعياض ابن غنم ألا يغزو معهم أحد قد ارتد حتى يرى رأيهم فيهم، فلم تشهد أيامه^(٣) مرتدًا. ويقول الشعبي: كان أبو بكر رضي الله عنه لا يستعين في حروبه بأحد من أهل الردة حتى مات^(٤)، ولذلك كان بعض من ارتد، وحسن إسلامهم بعد ذلك، يستحيون من مواجهة أبي بكر رضي الله عنه، فطليحة بن خويلد - مثلاً - يذهب إلى مكة معتمرًا،

(١) دراسات في الأهواء والفرق والبدع، ص ١٦٣.

(٢) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٣٨١.

(٣) عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة، ص ١٥٥.

(٤) البداية والنهاية (٢/٣٤٧).

وما استطاع مقابلة أبي بكر حتى مات^(١)، وفي خلافة عمر رضي الله عنه تخف هذه السياسة، تجاه المرتدين، فيندب أهل الردة ليرمى بهم الشام والعراق^(٢)، وقد كان في مسيرة جيش سعد بن أبي وقاص في القادسية قيس بن مكشوح المرادي وعمرو بن معد يكرب كان يحمس الناس ويحرك مشاعرهم، وهذا كله كان بعد أذن عمر لأهل الردة في الغزو^(٣)، ولكن هذا التجاوز عن سياسة أبي بكر عند عمر يصحبه نوع من الحذر والحيلة، ولا ينفك عن الضوابط والشروط المقيدة، فأهل الردة لا يولون على مائة، ولهذا اضطر سعد أن يبعث قيس بن المكشوح في سبعين رجلاً فقط، في أثر الأعاجم ثاروا بهم في ليلة الهرير^(٤)، ويأتى عثمان رضي الله عنه فيتجاوز سياسة التقييد التي فرضها الخليفةان قبله، تجاه المرتدين ويرتئى أن عامل الزمن - الذي مضى على عهد الردة - كاف لأن يتخلص من كان قد ارتد من رواسيها، ويجتهد عثمان فيستعمل أهل الردة استصلاحاً لهم، فلم يصلحهم ذلك، بل زادهم فساداً وجعل قائلهم يتمثل قول القائل:

وكنتم وعمرًا كالمسمن كلبه فتخدشه أنيابه وأظافره^(٥)

وكانت من نتائج استعمال عثمان لأهل الردة في الكوفة أن تبدل أهلها وأصيب قائدهم عبد الرحمن بن ربيعة في غزوه للترك، وهو الذي كان يقاتلهم في عهد عمر فيفرون منه ويقولون: ما اجتراً علينا هذا الرجل ومعه ملائكة تمنعه من الموت^(٦)، وتظهر الآثار بشكل واضح في الفتنة التي انتهت بقتل عثمان، وذلك حينما نجد من أسماء المتهمين في دم عثمان رجالاً يتسبون إلى قبائل كانت في عداد المرتدين أمثال، سودان بن حمران السكوني وقتيرة بن فلان السكوني، وحكيم بن جبلة العبدى^(٧).

(١) التاريخ الإسلامي (٩/٥٩).

(٢) ٣، عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة، ص ١٥٦.

(٤) تاريخ الطبري (٤/٣٨٢).

(٥) عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة، ص ١٥٧.

(٦) تاريخ الطبري (٥/١٤٦).

(٧) عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة، ص ١٥٧.

هـ - اليهود والنصارى، وكان بعضهم - وهم كثير - قد خرج أو أخرج من جزيرة العرب فاستقروا فى الأمصار الكبيرة، ومنها الكوفة والبصرة، وكان اليهود خاصة - حسب طبعهم - ظلوا فى تلك الأمصار المطلة على ميادين الفتوح يمارسون مهنتهم المشهورة المزدوجة، السيطرة المالية بوسائلهم المختلفة، والتأمر على قطع اليد التى تمد لهم المساعدة^(١)، وسيأتى الحديث عن دور اليهود بإذن الله تعالى.

٢ - تكوينات نسيج المجتمع الثقافى:

فإلى جوار هذا الخليط البشرى كان هناك خليط آخر لا يقل خطره - إن لم يفق الخليط البشرى - ألا وهو الخليط الثقافى، حيث تدفقت الثقافات والأفكار والنظم والعقائد مع تلك الأعداد البشرية التى انضمت إلى محتويات المجتمع الإسلامى، فصارت تشكل حملاً ضخماً على عاتقه، وما (زاد الطين بلة)، أنه بالرغم من اندماج المسلمين فى نسيج البلدان المفتوحة، حيث عاشوا فى أوساطهم، وتزوجوا منهم، وتعلموا لغاتهم، ولبسوا ملابسهم، ومارسوا عاداتهم، إلا أنه بالرغم من ذلك فقد كان تأثيرهم فى أهل البلد المفتوح محدوداً فى هذه الفترة المبكرة^(٢)، فلم ينل أهالى هذه البلاد المفتوحة حظاً وافراً من التربية ولم تشبع بروح الإسلام كما هو حال الصحابة من المهاجرين والأنصار، وكذلك القبائل العربية التى اختلطت بأهالى البلاد المفتوحة، وإذا كان الإسلام قد تمكن من صهر هذه القبائل المختلفة فى بوتقة لفترة معينة، إلا أنه مما يجب أن يوضع فى الحسبان أن عملية التعليم والتربية التى كانت تقودها القاعدة الصلبة من المهاجرين والأنصار لم تكن قادرة على استيعاب هذه الأفواج الكبيرة واحتوائها، فالموالى لم يتخلصوا من كل الأفكار والعادات التى كانوا عليها فى جاهليتهم، ويرجع ذلك إلى عدم التوازن بين حركة التوسع الأفقى فى فتح البلدان وبين التوسع الرأسى فى تعليم الناس وتفقيهم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ على أن حركة الجهاد لا بد أن يصحبها ويتبعها الدعاة والمعلمون ليفقهوا الناس فى دينهم، حتى لا يختل ميزان التربية، وتحدث الخلخلة فى الصف الإسلامى، وتوسع الفجوة

(١، ٢) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٣٨١.

بين الفاتحين وسكان الأراضي المفتوحة، مما يتسبب في حدوث ظواهر سلبية تؤثر في تماسك الصف الإسلامي ووحدته السياسية والفكرية^(١)، ولم يمكن تفادي هذا الجانب السلبي رغم وجود البذل والحماس في ميدان التعليم والتربية الإسلامية، حيث كان التوسع في الأرض سريعاً وواسعاً فقد فتحت العراق وما وراءها وبلاد الشام في سنوات قليلة معدودة، فلم يكن في مقدرة الطاقة البشرية في ميدان التربية والتعليم استيعاب الأعداد الهائلة من سكان تلك المناطق وتعليمها^(٢)، ومن أسباب ذلك أن الصحابة الذين كان من المفروض أن يقوموا بهذه الأمانة قد قتل معظمهم في ميادين الجهاد، ولم يبق إلا أفراد قليلون متفرقون تجمع حولهم المسلمون الذين يحبون أن يتعلموا، فظهرت طبقة التابعين، ولأن معظمهم مخلصون فقد كانوا في مقدمة ميادين الجهاد فقتل أيضاً منهم من قتل^(٣)، كما لم يكن الزمن كافياً لترسيخ التعاليم الإسلامية في نفوس كثير منهم، مما ساعد مع غيره من العوامل - على وجود خلخلة فكرية وظواهر سلبية دخيلة على النهج الإسلامي، مما كان له الأثر في عدم استقرار الدولة، وظهر ذلك جلياً في السنوات الأخيرة من عهد عثمان رضي الله عنه^(٤).

٣ - ظهور جيل جديد:

فقد حدث في المجتمع تغير أكبر، ذلك أن جيلاً جديداً من الناس ظهر، وأخذ يحتل مكانه في المجتمع، وهو غير جيل الصحابة، جيل يعيش في عصر غير العصر الذي كانوا يعيشون فيه، ويتصف بما لا يتصفون به، فهو جيل^(٥)، يعتبر في مجموعه أقل من الجيل الأول الذي حمل على كتفه عبء بناء الدولة وإقامتها، فقد تميز الجيل الأول من المسلمين بقوة الإيمان والفهم السليم لجوهر العقيدة الإسلامية، والاستعداد التام لإخضاع النفس لنظام الإسلام المتمثل في القرآن والسنة، وكانت هذه الميزات أقل ظهوراً في الجيل الجديد الذي وجد نتيجة للفتوحات الواسعة، وظهرت فيه المطامع

(١، ٢) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (١/٣٥٨).

(٣) اليمن في صدر الإسلام للشجاع، ص ٣٣٤.

(٤) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (١/٣٥٩).

(٥) الدولة الأموية، يوسف العش، ص ١٣٢.

الفردية، وبعثت فيه العصبية للأجناس والأقوام وبعضهم وهم يحملون رواسب كثيرة من رواسب الجاهلية التي كانوا عليها. ولم ينالوا من التربية الإسلامية على العقيدة الصحيحة السليمة مثل ما نال الرعيل الأول من الصحابة رضي الله عنهم على يد رسول الله ﷺ، وذلك لكثرتهم وانشغال الفاتحين بالحروب والفتوحات الجديدة^(١)، فالصحابة كانوا أقل فتناً من سائر من بعدهم، فإنه كلما تأخر العصر عن النبوة كثر التفرق والخلاف^(٢).

كان الجيل الجديد لا يرضى بالواقع الذي كان يتسم به جيل الذين سبقوه، فقد اعتاد على غير ما اعتادوا عليه، فتكونت عقلية جديدة ومفهوم جديد للحياة، وهو مفهوم قد ابتعد عن العقلية التي كانت سائدة في عصر الراشدين الأولين، فأصبح لا يفهم تلك العقلية، ولا يستطيع تشربها، ولا يسعه أن يذعن لحكمها^(٣)، ولذلك انضم المنحرفون من الجيل الجديد لدعاة الفتنة.

٤ - استعداد المجتمع لقبول الشائعات:

وهكذا ندرك من خلال هذا الخليط غير المتجانس في نسج المجتمع أنه صار مهيباً للهزات، مستعداً للاضطراب، قابلاً لتلقى الإذاعات والأقاويل والشائعات^(٤)، وهذا ما يعبر عنه بوضوح ابن تيمية قائلاً: ولهذا لما كان الناس في زمن أبي بكر وعمر اللذين أمر المسلمون بالاقتداء بهما كما قال رسول الله ﷺ: اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر... أقرب عهداً بالرسالة وأعظم إيماناً وصلاحاً، وأئمتهم أقوم بالواجب، وأثبت في الطمأنينة لم تقع فتنة إذ كانوا في حكم القسط (أي النفوس المطمئنة)، ولما كان في آخر خلافة عثمان وخلافة على كثر القسم الثالث (أهل النفس اللوامة التي تخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً) فصار فيهم شهوة وشبهة مع الإيمان والدين، وصار ذلك في بعض الولاة، وبعض الرعايا، ثم كثر (هذا القسم الذي

(١) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (١/٣٥٦).

(٢) ذو النورين عثمان بن عفان، مال الله، ص ٩٩.

(٣) الدولة الأموية، يوسف العش، ص ١٣٣.

(٤) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٣٨٢.

خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً) بعد فتنات الفتنة التي سببها ما تقدم من عدم تحييص التقوى والطاعة في الطرفين، واختلاطهما بنوع من الهوى، والمعصية في الطرفين، وكل منهم متأول، وأنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأنه مع الحق والعدل، ومع هذا التأويل نوع من الهوى، ففيه نوع من الظن، وما تهوى الأنفس، وإن كانت إحدى الطائفتين أولى بالحق من الأخرى^(١)، ويوضح هذا الواقع بدقة أكثر ذلك الحوار الذى دار بين أمير المؤمنين على بن أبى طالب وأحد أتباعه، قال الرجل: ما بال المسلمين يختلفوا عليك ولم يختلفوا على أبى بكر وعمر؟ قال على: لأن أبا بكر وعمر كانا واليين على مثلى، وأنا اليوم وال على مثلك^(٢)، وكان أمير المؤمنين عثمان ابن عفان مدرّكاً لما يدور فى وسط المجتمع حيث قال فى رسالته إلى الأمراء: أما بعد، فإن الرعية قد طعنت فى الانتشار، ونزعت إلى الشر، وأعداها على ذلك ثلاث: دنيا مؤثرة، وأهواء مُسرّعة، وضغائن محمولة، يوشك أن تنفر فتُغيّر^(٣).

ثالثاً: مجيء عثمان بعد عمر رضى الله عنهما:

كان مجيء عثمان رضى الله عنه مباشرة بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه واختلاف الطبع بينهما مؤدياً إلى تغير أسلوبهما فى معاملة الرعية، فبينما كان عمر قوياً الشكيمة، شديد المحاسبة لنفسه، ولمن تحت يديه، كان عثمان ألين طبعاً وأرق فى المعاملة، ولم يكن يأخذ نفسه أو يأخذ الناس بما يأخذهم به عذر حتى يقول عثمان نفسه: يرحم الله عمر، ومن يطيق ما كان عمر رضى الله عنه يطيق^(٤)، لكن الناس وإن رغبوا فى الشوط الأول من خلافته؛ لأنه لآن معهم وكان عمر رضى الله عنه شديداً عليهم حتى أصبحت محبته مضرب المثل.

فقد أنكروا عليه بعد ذلك ويرجع هذا إلى نشأة عثمان فى لطفه ولين عريكته ورقة طبعه ودمائة خلقه، مما كان له بعض الأثر فى مظاهر الفرق عند الأحداث بين عهده

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٨/١٤٨، ١٤٩).

(٢) مقدمة ابن خلدون، ص ١٨٩.

(٣) التمهيد والبيان، ص ٦٤.

(٤) تاريخ الطبرى (٥/٤١٨).

وعهد سلفه عمر بن الخطاب، وقد أدرك عثمان ذلك حين قال لأقوام سجنهم: أتدرون ما جراكم على؟ ما جراكم على إلا حلمي^(١).

وحين بدت نوايا الخارجين وقد ألزمهم عثمان الحجة في رده على المآخذ التي أخذوها عليه أمام الملأ من الصحابة والناس، أبى المسلمون إلا قتلهم، وأبى عثمان إلا تركهم لحلمه ووداعته قائلاً: بل نغفو ونقبل، ولنبصرهم بنجدها، ولا نحاد أحداً حتى يركب حداً أو يبدي كفرًا^(٢).

رابعاً: خروج كبار الصحابة من المدينة:

كان عمر رضي الله عنه قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلا بإذن وأجل، فشكوه فبلغه، فقام فقال: ألا إني قد سنت الإسلام سن البعير، يبدأ فيكون جذعاً، ثم ثنيًا، ثم ريعياً، ثم سدسياً، ثم بازلاً^(٣)، ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان، ألا فإن الإسلام قد بزل، ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عبادته، ألا فأما وابن الخطاب حى فلا، إني قائم دون شعب الحرة، آخذ بحلّاقيم^(٤) قريش وحجزها أن يتهافروا في النار^(٥)، لقد كان عمر يخاف على هؤلاء الصحابة من انتشارهم في البلاد المفتوحة وتوسعهم في القطاع والضباع، فكان يأتيه الرجل من المهاجرين وهو عن حبس في المدينة فيستأذنه في الخروج فيجيبه عمر: لقد كان لك في غزوك مع رسول الله ﷺ ما يبلغك، وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك^(٦)، وأما عثمان فقد سمح لهم بالخروج ولأن معهم.

يقول الشعبي: فلما ولي عثمان خلى عنهم فاضطربوا في البلاد وانقطع إليهم الناس، فكان أحب إليهم من عمر^(٧)، فكان من نتائج هذا التوسع أن اتخذ رجال من

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٢٥٠).

(٢) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (١/ ٣٦٤).

(٣) البازل: الذي انشق نابه بدخوله في التاسعة، ٤١٣.

(٤) الحلّاقيم: جمع حلقوم.

(٥) تاريخ الطبري (٥/ ٤١٣).

(٦، ٧) تاريخ الطبري (٥/ ٤١٤).

قريش أموالاً في الأمصار، وانقطع إليهم الناس^(١)، وفي رواية: فلما ولي عثمان لم يأخذهم بالذي كان يأخذهم عمر فانساحوا في البلاد، فلما رأوها ورأوا الدنيا ورأهم الناس انقطع إليهم من لم يكن له طول ولا مزية في الإسلام، فكان مغموماً (مغموراً) في الناس، وصاروا أوزاعاً إليهم وأملوهم، وتقدموا في ذلك فقالوا: يملكون فنكون قد عرفناهم، وتقدمنا في التقريب والانقطاع إليهم، فكان ذلك أول وهن دخل في الإسلام، وأول فتنة كانت في العامة ليس إلا ذلك^(٢).

خامساً: العصبية الجاهلية:

يقول ابن خلدون: لما استكمل الفتح واستكمل للملة الملك، ونزل العرب بالأمصار في حدود ما بينهم وبين الأمم من البصرة والكوفة والشام ومصر، وكان المختصون بصحبة الرسول ﷺ والاقتراء بهديه وآدابه المهاجرين والأنصار وقريشاً وأهل الحجاز، ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم، وأما سائر العرب من بنى بكر بن وائل وعبد القيس وسائر ربيعة والأزد وكندة وتميم وقضاعة وغيرهم فلم يكونوا في تلك الصحبة بمكان إلا قليل منهم. وكانت لهم في الفتوحات قدم فكانوا يرون ذلك لأنفسهم مع ما يدين به فضلاؤهم من تفضيل أهل السابقة ومعرفة حقهم، وما كانوا فيه من الذهول والدهش لأمر النبوة وتردد الوحي وتنزل الملائكة، فلما انحصر ذلك العباب، وتنوسى الحال بعض الشيء وذل العدو واستفحل الملك، كانت عروق الجاهلية تنبض، ووجدوا الرياسة عليهم من المهاجرين والأنصار وقريش وسواهم، فأنتفت نفوسهم منه، ووافق ذلك أيام عثمان فكانوا يظهر الطعن في ولاته بالأمصار، والمواخذة لهم باللحظات والخطوات، والاستبطاء عليهم بالطاعات، والتجنى بسؤال الاستبداد منهم والعزل، ويفيضون في النكير على عثمان، وفشت المقالة في ذلك في أتباعهم، وتناولوا بالظلم في جهاتهم، وانتهت الأخبار بذلك إلى الصحابة بالمدينة، فارتابوا وأفاضوا في عزل عثمان وحمله على عزل أمراءه، وبعث إلى الأمصار من يأتيه بالخبر... فرجعوا إليه فقالوا: ما أكرنا شيئاً ولا أنكره أعيان المسلمين ولا عوامهم^(٣)

(١، ٢) تاريخ الطبري (٥/٤١٤).

(٣) تاريخ ابن خلدون (٢/٤٧٧).

سادساً: توقف الفتوحات،

حين توقفت الفتوح في أواخر عهد عثمان أمام حواجز طبيعية أو بشرية لم تتجاوزها، سواء في جهات فارس وشمالي بلاد الشام أم في جهة إفريقية، توقفت الغنائم على إثرها، فتساءل الأعراب، أين ذهبت الغنائم القديمة؟ أين ذهبت الأراضي المفتوحة التي يعدونها حقاً من حقوقهم^(١)، وانتشرت الشائعات الباطلة التي اتهمت عثمان رضى الله عنه بأنه تصرف في الأراضي الموقوفة على المسلمين وفق هواه وأنه أقطع منها لمن شاء من الناس، وقد كان لها أثر ووقع على الأعراب، خاصة وأن معظمهم بقى بدون عمل يقضون شطراً من وقتهم في الطعام والنوم، والشرط الآخر بالخوض في سياسة الدولة والحديث عن تصرفات عثمان التي كانت تهولها السبئية، وقد أدرك أحد عمال عثمان هذا الأمر وهو عبد الله بن عامر، فأشار على الخليفة حيث طلب من عماله - وهم وراؤه ونصحاؤه - أن يجتهدوا في آرائهم ويشيروا عليه، فأشار عليه أن يأمر الناس بالجهاد ويجمهرهم في المغازي حتى لا يتعدى هم أحدهم قمل فروة رأسه ودبرة دابته^(٢)، وفي ذلك الجو من الحديث والفكر عند أفراد تعودوا الغزو ولم يفقهوا من الدين شيئاً كثيراً يمكن أن يتوقع كل سوء، ويكفى أن يحرك هؤلاء الأعراب وأن يوجهوا توجيهاً، فإذا هم يثرون ويحدثون القلاقل والفتن، وهذا ما حدث بالفعل، فإن الأعراب - بسبب توقف الفتوحات - ساهموا في بؤادر الفتنة الأولى، وكانوا سبباً من أسباب اندلاعها^(٣).

سابعاً: المفهوم الخاطئ للورع:

الورع في الشريعة طيب؛ وهو أن يترك ما لا بأس به مخافة مما فيه بأس، وهو في الأصل ترفع عن المباحات في الله والله، والورع شيء شخصي يصح للإنسان أن يطالب به نفسه، ولكن لا يصح أن يطالب به الآخرين، ومن أخطر أنواع الورع:

(١) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (١/ ٣٤٤).

(٢) تاريخ الطبرى (٢/ ٣٤٠).

(٣) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة، ص ٣٥٣.

الورع الجاهل الذى يجعل المباح حراماً أو مفروضاً، وهذا الذى وقع فيه أصحاب الفتنة^(١)، فقد استغل أعداء الإسلام يومها مشاعرهم هذه ونفخوا فيها، فرأوا فيما فعله عثمان من المباحات أو المصالح، خروجاً على الإسلام وتغييراً لسنة من سبقه، وعظمت هذه المسائل فى أعين الجهلة فاستباحوا - أو أعانوا من استباح - دم الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضى الله عنه وفتحوا على المسلمين باب الفتنة إلى اليوم، وهذا الورع الجاهل نلاحظه اليوم فى تصرفات بعض المسلمين الذين يصرون على تكيف أحكام الإسلام وفق ما يشتهون أو يكرهون، أو وفق عاداتهم وتقاليدهم

ثامناً: طموح الطامحين،

وجد فى الجيل الثانى من أبناء الصحابة رضى الله عنهم من يعتبر نفسه جديراً بالحكم والإدارة، ووجد أمثال هؤلاء أن الطريق أمامهم مغلق، وفى العادة أنه متى وجد الطامحون الذين لا يجدون لطموحهم متنفساً، فإنهم يدخلون فى كل عملية تغيير، ومعالجة أمر هؤلاء غاية الأهمية^(٢).

تاسعاً: قآمر الحاقدين،

لقد دخل فى الإسلام منافقون متورون اجتمع لهم من الحقد والذكاء والدهاء ما استطاعوا به أن يدركوا نقاط الضعف التى يستطيعون من خلالها أن يوجدوا الفتنة، ووجدوا من يستمع إليهم بأذان صاغية، فكان من آثار ذلك ما كان^(٣)، فقد عرفنا سابقاً وجود يهود ونصارى وفرس وهؤلاء جميعاً معروف باعث غيظهم وحقدهم على الإسلام والدولة الإسلامية.. ولكننا هنا نضيف من وقع عليه حد أو تعزيز لأمر ارتكبه فى وسط الدولة، وعاقبه الخليفة أو ولاته فى بعض الأمصار وبالذات البصرة والكوفة ومصر والمدينة، فاستغل أولئك الحاقدون من يهود ونصارى وفرس وأصحاب الجرائم مجموعات من الناس كان معظمهم من الأعراب، ممن لا يفقهون هذا الدين

(١) الأساس فى السنة (٤/١٦٧٦).

(٢) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ٥١٧.

(٣) (٤، ٣) الأساس فى السنة (٤/١٦٧٦).

على حقيقته، فتكونت لهؤلاء جميعاً طائفة وصفت من جميع من قابلهم بأنهم أصحاب شر، فقد وصفوا: بالغوغاء من أهل الأمصار، ونزاع القبائل، وأهل المياه وعبيد المدينة^(١)، وبأنهم ذؤبان العرب^(٢)، وأنهم حثالة الناس ومتفقون على الشر^(٣)، وسفهاء عديمو الفقه^(٤)، وأراذل من أوباش القبائل^(٥)، فهم أهل جفاء، وهمج، ورعاع من غوغاء القبائل، وسفلة الأطراف الأراذل^(٦)، وأنهم آلة الشيطان^(٧)، وقد تردد في المصادر اسم عبد الله بن سبأ الصنعاني اليهودي ضمن هؤلاء الموتورين الخاقدين، وأنه كان من اليهود ثم أسلم، ولم ينقب أحد عن نواياه فتنتقل بين البلدان الإسلامية باعتباره أحد أفراد المسلمين^(٨)، وسيأتى الحديث عنه فى مبحث مستقل بإذن الله.

عاشراً: التدبير المحكم لإثارة المآخذ ضد عثمان رضى الله عنه:

كان المجتمع مهيمًا لقبول الأقاويل والشائعات نتيجة عوامل وأسباب متداخلة، وكانت الأرض مهيأة، ونسيج المجتمع قابلاً لتلقى الحروقات، وأصحاب الفتنة أجمعوا على الطعن فى الأمراء بحجة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى استمالوا الناس إلى صفوفهم، ووصل الطعن إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه نفسه باعتباره قائد الدولة، وإذا ما حصرنا الدعاوى التى روجت ضد الخليفة. وطعنوه بها فيمكننا تصنيفها إلى مجموعات خمس:

١ - مواقف شخصية له قبل توليه الخلافة (تغيبه عن بعض الغزوات والمواقع).

٢ - سياسته المالية: الأعطيات، الحمى.

(١)، (٢) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٣٩٢

(٣) الطبقات (٧١/٣) هذا وصف ابن سعد.

(٤) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٣٩٢

(٥) شذرات الذهب (٤٠/١) هذا وصف ابن العماد.

(٦) شرح صحيح مسلم (١٤٨/١٥)، (١٤٩).

(٧) تاريخ الطبرى (٣٢٧/٥).

(٨) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة.

٣ - سياسته الإدارية النافذة: تولية أقربائه، طريقته فى التولية.

٤ - اجتهادات خاصة به أو بمصلحة الأمة (إنعام الصلاة بمنى، جمع القرآن، الزيادة فى المسجد).

٥ - معاملته لبعض الصحابة: عمار، أبى ذر، ابن مسعود^(١).

وقد بينت موقف عثمان فى كل ما وجه إليه فى موضعه ولم يبق إلا عمار رضى الله عنه وسيأتى الحديث عنه بإذن الله. وقد حدث تزايد فى إبراز المطاعن على عثمان رضى الله عنه سواء فى عهده وما واجهوه بها وردة عليها فى حينه، أو ما تقول عليه فيما بعد عند الرواة والكتاب فإنها لم تصح ولم تصل إلى حد أن تكون سبباً فى قتله^(٢).

إن المآخذ السابق ذكرها والمدونة فى تاريخ الطبرى وغيره من كتب التاريخ والمروية عن طريق المجاهيل والإخباريين الضعفاء، خاصة الرافضة، كانت وما تزال بلية عظمى على الحقائق فى سير الخلفاء والأئمة، خاصة فى مراحل الاضطرابات والفتن، وقد كان مع الأسف لسيرة عثمان أمير المؤمنين رضى الله عنه من ذلك الحظ الوافر، فرواية الحوادث ووضع الأباطيل على المنهج الملتوى بعض ما نال تلك السيرة النيرة من تحريف المنحرفين وتشويه الغالين بغية التأليب عليه أو التشهير به، وقد أدرك عثمان رضى الله عنه بنفسه ذلك عندما كتب إلى أمرائه: أما بعد، فإن الرعية طعنن فى الانتشار ونزعت إلى الشر أعداها على ذلك ثلاث: دنيا مؤثرة، وأهواء متسرعة، وضغائن محمولة^(٣)، وقال ابن العربى عن تلك المآخذ جملة: قالوا متعدين متعلقين برواية كذابين، جاء عثمان فى ولايته بمظالم ومناكير. . هذا كله باطل سنداً ومتناً^(٤).

وقد بين ابن تيمية بأن عثمان رضى الله عنه ليس معصوماً، فقال: والقاعدة الكلية

(١) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٣٩٤.

(٢) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٤٠٠.

(٣) التمهيد والبيان، ص ٦٤.

(٤) العواصم من القواصم، ص ٦١ - ٦٣.

فى هذا أن لا نعتقد أن أحداً معصوم بعد النبى ﷺ، بل الخلفاء وغير الخلفاء يجوز عليهم الخطأ، والذنوب التى تقع منهم قد يتوبون منها، وقد تكفر عنهم بحسناتهم الكثيرة، وقد يتلون أيضاً بمصائب يكفر الله بها، وقد يكفر عنهم بغير ذلك، فكل ما ينقل عن عثمان غايته أن يكون ذنباً أو خطأ، وعثمان رضى الله عنه قد حصلت له أسباب المغفرة من وجوه كثيرة منها سابقته وإيمانه وجهاده وغير ذلك من طاعته، وقد ثبت أن النبى ﷺ شهد له، بل بشره بالجنة على بلوى تصيبه^(١)، ومنها أنه تاب من عامة ما أنكروه عليه، وأنه ابتلى ببلاء عظيم فكفر الله به خطاياها، وصبر حتى قتل شهيداً مظلوماً وهذا من أعظم ما يكفر الله به الخطايا^(٢).

الحادى عشر: استخدام الأساليب والوسائل المهيجة للناس:

وأهم هذه الأساليب، إشاعة الأراجيف حيث ترددت كلمة الإشاعة والإذاعة كثيراً، والتحريض، والمناظرة والمجادلة للخليفة أمام الناس، والظعن على الولاة، واستخدام تزوير الكتب واختلافها على لسان الصحابة رضى الله عنهم، عاتشة وعلى وطلحة والزبير، والإشاعة بأن على بن أبى طالب رضى الله عنه الأحق بالخلافة، وأنه الوصى بعد رسول الله ﷺ، وتنظيم فرق فى كل من البصرة والكوفة ومصر أربع فرق من كل مصر مما يدل على التدبير المسبق، وأوهموا أهل المدينة أنهم ما جاءوا إلا بدعوة الصحابة، وصعدوا الأحداث حتى وصل إلى القتل^(٣)، وإلى جوار هذه الوسائل... استخدموا مجموعة من الشعارات منها، التكبير، ومنها أن جهادهم هذا ضد المظالم، ومنها أنهم لا يقومون إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنها المطالبة باستبدال الولاة وعزلهم، ثم تطورت المطالبة إلى خلع عثمان، إلى أن غادوا فى جراتهم وطالبوا بل سارعوا إلى قتل الخليفة وخاصة حينما وصلهم الخبر بأن أهل

(١) مسلم، كتاب فضائل الصحابة (٤/١٨٦٧، ١٨٦٩).

(٢) ذو النورين عثمان بن عفان، محمد مال الله، ص ٦٣.

(٣) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٤٠١، كتاب الإنقاذ من دعاوى الإنقاذ للتاريخ الإسلامى، رد على حسن بن فرحان المالكي، للدكتور/ سليمان بن حمد العودة، وقد ذكر فى رده الطرق التى عرضت على الألبانى - رحمه الله - وحكم عليها.

الأمصار قادمون لنصرة الخليفة، فزادهم حماسهم المحموم لتضييق الخناق على الخليفة، والتشوق إلى قتله بأي وسيلة^(١)؛

الثاني عشر: أثر السبئية في أحداث الفتنة،

١ - السبئية حقيقة أم خيال:

أجمع القدماء على وجوده بلا استثناء - عبد الله بن سبأ -، وخالف في ذلك قلة من المعاصرين أكثرهم من الشيعة، وحجة من أنكروه أنه من إبداع مخيلة سيف بن عمر التميمي، وذلك لانتقاد بعض علماء الرجال له في مجال رواية الحديث إلا أن العلماء يعدونه حجة في الأخبار علماً بأنه وردت روايات كثيرة عند ابن عساكر تذكر عبد الله بن سبأ وليس (سيف بن عمر) من الرواة، وقد حكم الشيخ الألباني على بعضها بأنها صحيحة من حيث السند، هذا غير الروايات الكثيرة عن ابن سبأ في كتب الشيعة سواء في كتب الفرق أو الرجال أو الحديث عندهم وليس فيها عمر هذا لا من قريب ولا من بعيد.

وقد شكك بعض الباحثين في عبد الله بن سبأ^(٢)، وقالوا بأنه شخصية وهمية، وأنكروا وجوده، بدون حجة أو برهان، وأضاف الذين أنكروا شخصية ابن سبأ هم طائفة من المستشرقين، وفئة من الباحثين العرب، وغالبية الشيعة المعاصرين، ومن العجيب أن هؤلاء المستشرقين وذبولهم من الرفض والمستغربين في عصرنا أنكروا شخصية عبد الله بن سبأ، وأنه شخصية وهمية لم يكن لها وجود، فأين بلغ هؤلاء من قلة الحياء والجهل، وقد ملأت ترجمته كتب التاريخ والفرق، وتناقلت أفعاله الرواة وطبقت أخباره الآفاق، لقد اتفق المؤرخون والمحدثون وأصحاب كتب الفرق والملل والنحل والطبقات والأدب والأنساب الذين تعرضوا للسبئية على وجود شخصية

(١) المصدر نفسه، ص ٤٠٢.

(٢) عبد الله بن سبأ الملقب بابن السوداء، يهودي من صنعاء، أظهر إسلامه في زمن عثمان بن عفان، ظهر له نشاط ملحوظ في الشام والعراق ومصر خاصة، يرسم خططاً ويدلي بآراء هدامة ليلفت المسلمين عن دينهم وطاعة خليفتهم، ويوقع بينهم الفرقة والخلاف، تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (٢٨٤/١).

عبد الله بن سبأ الذى ظهر فى كتب أهل السنة، كما ظهر فى كتب الشيعة شخصية تاريخية حقيقية، ولهذا فإن أخبار الفتنة ودور ابن سبأ فيها لم تكن قصراً على تاريخ الإمام الطبرى.

واستناداً إلى روايات سيف بن عمر التميمي فيه، وإنما هى أخبار منتشرة فى روايات المتقدمين، وفى ثنايا الكتب التى رصدت أحداث التاريخ الإسلامى، وآراء الفرق والنحل فى تلك الفترة، إلا أن ميزة تاريخ الإمام الطبرى على غيره أنه أغزرها مادة وأكثرها تفصيلاً لا أكثر، ولهذا فإن التشكيك فى هذه الأحداث بلا سند وبلا دليل إنما يعنى الهدم لكل تلك الأخبار، والتسفيه بأولئك المخبرين والعلماء، وتزييف الحقائق التاريخية، فمتى كانت المنهجية ضرباً من ضروب الاستتاج العقلى المحض فى مقابل النصوص والروايات المتضافرة؟ وهل تكون المنهجية فى الضرب صفحاً والإعراض عن المصادر الكثيرة المتقدمة والمتأخرة التى أثبتت لابن سبأ شخصية واقعية^(١)؟ وقد جاء ذكر ابن سبأ فى كتب أهل السنة كثيراً منها:

- جاء ذكر السبئية على لسان أعشى همدان^(٢)، المتوفى عام ٨٣هـ وقد هجا المختار ابن أبى عبيد الثقفى وأنصاره من أهل الكوفة بعدما فرَّ مع أشراف قبائل الكوفة إلى البصرة بقوله:

شهدت عليكم أنكم سبئية وأنى بكم يا شرطة الكفر عارف^(٣)

وهناك رواية عن الشعبى المتوفى عام ١٠٣هـ (٧٢١م) تفيد أن أول من كذب عبد الله بن سبأ^(٤)، وتحدث ابن حبيب^(٥) المتوفى عام ٢٤٥هـ (٨٦٠م) عن ابن سبأ

(١) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/ ٧٠).

(٢) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث الهمداني: المعروف بأعشى همدان: شاعر فارسي أحد الفقهاء القراء، لكنه قال الشعر وعرف به، قال الذهبي: شاعر مفوه شهير، كان متعبداً فاضلاً قتل عام ٨٣هـ.

(٣) ديوان أعشى همدان، ص ١٤٨.

(٤) تاريخ دمشق، لابن عساكر (٩/ ٣٣١).

(٥) محمد بن حبيب بن أمية الهاشمي عالم بالأنساب والأخبار واللغة والشعر توفي عام ٢٤٥هـ، تاريخ بغداد (٢/ ٢٧٧).

حينما اعتبره أحد أبناء الحبشيات^(١) كما روى أبو عاصم خشيش بن أصرم المتوفى سنة ٢٥٣ هـ خبر إحراق على رضي الله عنه لجماعة من أصحاب ابن سبأ في كتابه الاستقامة^(٢) ويعتبر الجاحظ^(٣) المتوفى سنة ٢٥٥ هـ من أوائل من أشار إلى عبد الله بن سبأ^(٤) ولكن روايته ليست أقدم رواية عن ابن سبأ كما يرى الدكتور جواد على^(٥).

وخبر إحراق على بن أبي طالب رضي الله عنه لطائفة من الزنادقة تكشف عنه الروايات الصحيحة في كتب الصحاح والسنن والمسانيد^(٦)، ولفظ الزنادقة ليس غريباً عن عبد الله بن سبأ وطائفته، يقول ابن تيمية: إن مبدأ الرفض إنما كان من الزنديق عبد الله بن سبأ^(٧) ويقول الذهبي: عبد الله بن سبأ من غلاة الزنادقة، ضال مضل^(٨)، ويقول ابن حجر: عبد الله بن سبأ من غلاة الزنادقة... وله أتباع يقال لهم السبئية معتقدون الإلهية في على بن أبي طالب، وقد أحرقهم على بالنار في خلافته^(٩) ويوجد لابن سبأ ذكر في كتب الجرح والتعديل، يقول ابن حبان المتوفى ٣٥٤ هـ وكان الكلبي - محمد بن السائب الإخباري - سبئياً، من أصحاب عبد الله بن سبأ، من أولئك الذين يقولون: إن علياً لم يموت، وإنه راجع إلى الدنيا قبل قيام الساعة... وإن رأوا سحابة قالوا: أمير المؤمنين فيها^(١٠)...، كما أن كتب الأنساب هي الأخرى تؤكد نسبة (السبئية) إلى عبد الله بن سبأ، ومنها على سبيل المثال كتاب

(١) المحبر، لابن حبيب، ص ٣٠٨، عبد الله بن سبأ، العودة (ص ٥٣).

(٢) هو خشيش بن أصرم بن الأسود النسائي، ترجم له الذهبي، تذكرة الحفاظ (٢/ ٥٥١)، وشذرات الذهب (٢/ ١٢٩).

(٣) هو عمرو بن بحر بن محبوب الكاتب، من أئمة الأدب والعلم توفي عام ٢٥٥ هـ. وفيات الأعيان (٣/ ٤٧٠).

(٤) البيان والتبيين (٣/ ٨١).

(٥) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٢٩٠)، عبد الله بن سبأ، للعودة ص ٥٣.

(٦) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٢٩٠).

(٧) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٨٣).

(٨) ميزان الاعتدال للذهبي (٢/ ٤٢٦).

(٩) لسان الميزان (٣/ ٢٩٠، ٣٨٩).

(١٠) المجروحين (٢/ ٢٥٣).

(الأنساب للسمعاني)^(١) المتوفى عام ٥٦٢ هـ^(٢)، وعرف ابن عساكر المتوفى عام ٥٧١ هـ ابن سبأ بقوله: عبد الله بن سبأ الذي تنسب إليه السبئية، وهم الغلاة من الرفضية، أصله من اليمن، كان يهودياً وأظهر الإسلام^(٣)، ولم يكن سيف بن عمر هو المصدر الوحيد لأخبار عبد الله بن سبأ، إذ أورد ابن عساكر في تاريخه روايات لم يكن سيف فيها، وهي تثبت ابن سبأ وتؤكد أخباره^(٤)، ويذكر شيخ الإسلام ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ أن أصل الرفض من المنافقين الزنادقة، فإنه ابتداع ابن سبأ الزنديق، وأظهر الغلو في على يدعو الإمامة والنص عليه، وادعى العصمة له^(٥)، ويشير الشاطبي^(٦) المتوفى عام ٧٩٠ هـ إلى أن بدعة السبئية من البدع الاعتقادية المتعلقة بوجود إله مع الله - تعالى الله - وهي بدعة تختلف عن غيرها من المقالات^(٧)، وفي خطط المقرئ المتوفى عام ٨٤٥ هـ، أن عبد الله بن سبأ قام في زمن علي محدثاً القول بالوصية والرجعة والتناسخ^(٨).

وأما المصادر الشيعية التي ذكرت ابن سبأ: فقد روى الكشي عن محمد بن قولويه قال: حدثني سعد بن عبد الله، قال: حدثني يعقوب بن يزيد، ومحمد بن عيمن، عن علي بن مهزيار، عن فضالة بن أيوب الأزدي عن أبان بن عثمان قال: سمعت أبا عبد الله يقول: لعن الله عبد الله بن سبأ، إنه ادعى الربوبية في أمير المؤمنين، وكان والله أمير المؤمنين عبداً طائعاً، الويل لمن كذب علينا، وإن قوماً يقولون فينا ما لا نقول في أنفسنا نبرأ إلى الله منهم^(٩) والرواية من حيث السند صحيحة^(١٠).

(١) عبد الكريم بن محمد السمعاني توفي عام ٥٦٢ هـ، وتذكرة الحفاظ (٤/١٣١٦).

(٢) الأنساب (٢٤/٧).

(٣) تاريخ دمشق (٩/٣٢٨، ٣٢٩).

(٤) تحقيق مواقف الصحابة (١/٢٩٨).

(٥) مجموع الفتاوى (٤/٤٣٥).

(٦) إبراهيم بن موسى، محمد الغرناطي توفي عام ٧٩٠ هـ.

(٧) الاعتصام (٢/١٩٧).

(٨) المواعظ والاعتبار (٢/٢٥٦ - ٣٥٧).

(٩) رجال الكشي (١/٣٢٤).

(١٠) عبد الله بن سبأ الحقيقة المجهول، لمحمد علي المعلم (ص ٣٠).

وفي كتاب (الخصال) أورد القمى الخبر نفسه، ولكن موصولا بسند آخر، وأما صاحب روضات الجنات فقد ذكر ابن سبأ عنده على لسان الصادق المصدوق الذى لعن ابن سبأ لانهامه بالكذب والتزوير وإذاعة الأسرار والتأويل^(١). وقد ذكر الدكتور سليمان العودة فى كتابه مجموعة من النصوص التى تزخر بها كتب الشيعة ومروياتهم عن عبد الله بن سبأ، فهى أشبه ما تكون بوثائق مسجلة تدين من حاول إنكار ابن سبأ أو التشكيك فيه من متأخري الشيعة بحجة قلة أو ضعف المصادر التى حكى أخباره^(٢).

إن شخصية ابن سبأ حقيقة تاريخية لا لبس فيها فى المصادر السنية والشيعة المتقدمة والمتأخرة على السواء، وهى كذلك أيضاً عند غالبية المستشرقين أمثال: يوليوس فلهاورن^(٣)، وفان فولتن^(٤)، وليفى ديلافيدا^(٥)، وجولد تسهير^(٦)، ورينولد نكلسن^(٧)، ودوايت روندلسن^(٨)... على حين يبقى ابن سبأ محل شك أو مجرد خرافة عند فئة قليلة من المستشرقين أمثال: كيتانى وبرنارد لويس^(٩) وفريد لندر المتأرجح^(١٠) علماً بأننا لا نعتد بهم فى أحداث تاريخنا.

ومن استقرأ المصادر، سواء القديمة والمتأخرة، عند السنة والشيعة، يتأكد له بأن وجود ابن سبأ كان وجوداً حقيقياً تؤكد الروايات التاريخية، وتفيض فيه كتب العقائد، وذكرته كتب الحديث، والرجال، والأنساب، والأدب، واللغة، وسار على هذا النهج كثير من المحققين والباحثين المحدثين، ويبدو أن أول من شكك فى وجود

(١) عبد الله بن سبأ، العودة ص (٦٢).

(٢) الخوارج والشيعة، يوليوس فلهاورن، ص ١٧٠.

(٣) السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات، ص ٨٠، فان فولتن.

(٤) تحقيق مواقف الصحابة (٣١٢/١).

(٥) العقيدة والشرعة الإسلامية، جولد تسهير، ص ٢٢٩.

(٦) تاريخ العرب الأدبى فى الجاهلية وصدر الإسلام، ص ٢٣٥.

(٧) عقيدة الشيعة، ص ٥٨.

(٨) أصول الإسماعيلية، ص ٨٦.

(٩) تحقيق مواقف الصحابة (٣١٢/١).

ابن سبأ بعض المستشرقين، ثم دعم هذا الطرح الغالبية من الشيعة المحدثين، بل وأنكر بعضهم وجوده البتة، ويرز من الباحثين العرب المعاصرين من أعجب بآراء المستشرقين، ومن تأثر بكتابات الشيعة المحدثين ولكن هؤلاء جميعاً ليس لهم ما يدعمون به شكهم وإنكارهم إلا الشك ذاته والاستناد إلى مجرد الظنون والفرضيات^(١)، ومن أراد التوسع في معرفة المراجع والمصادر السنية والاستشراقية والشيعة التي ذكرت ابن سبأ فليراجع، تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة للدكتور محمد أمحزون، وعبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام، للدكتور سليمان بن حمد العودة.

٢ - دور عبد الله بن سبأ في تحريك الفتنة:

في السنوات الأخيرة من خلافة عثمان رضى الله عنه بدت في الأفق سمات الاضطراب في المجتمع الإسلامي نتيجة عوامل التغيير التي ذكرناها، وأخذ بعض اليهود يتحينون فرصة الظهور مستغلين عوامل الفتنة ومتظاهرين بالإسلام واستعمال التقية ومن هؤلاء عبد الله بن سبأ الملقب بابن السوداء، وإذا كان ابن سبأ لا يجوز التهويل من شأنه كما فعل بعض المغالين في تضخيم دوره في الفتنة^(٢) فإنه كذلك لا يجوز التشكيك فيه أو الاستهانة بالدور الذي لعبه في أحداث الفتنة، كعامل من عواملها، على أنه أبرزها وأخطرها، إذ إن هناك أجواء للفتنة مهدت له، وعوامل أخرى ساعدته، وغاية ما جاء به ابن سبأ آراء ومعتقدات ادعاها واخترعها من قبل نفسه وافتلعها من يهوديته الحاقلة وجعل يروجها لغاية ينشدها وغرض يستهدفه؛ وهو الدس في المجتمع الإسلامي بغية النيل من وحدته، وإذكاء نار الفتنة، وغرس بذور الشقاق بين أفرادها، فكان ذلك من جملة العوامل التي أدت إلى قتل أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه وتفرق الأمة شيعاً وأحزاباً^(٣)، وخلاصة ما جاء به أن أتى بمقدمات صادقة وبني عليها مبادئ فاسدة راجت لدى السذج والغلاة وأصحاب

(١) تحقيق مواقف الصحابة (١/٣١٢).

(٢) مثال سميد الأفغانى في كتابه (عائشة والسياسة).

(٣) تحقيق مواقف الصحابة (١/٣٢٧).

الأهواء من الناس، وقد سلك في ذلك مسالك ملتوية لبس فيها على من حوله حتى اجتمعوا عليه، فطرق باب القرآن بتأوله على زعمه الفاسد حيث قال: لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع، ويكذب بأن محمداً يرجع، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا مَعَادٌ﴾ [القصص: ٨٥] فمحمّد أحق بالرجوع من عيسى^(١)، كما سلك طريق القياس الفاسد من ادعاء إثبات الوصية لعلي رضي الله عنه بقوله: إنه كان ألف نبي، ولكل نبي وصي، وكان علي وصي محمد ثم قال: محمد خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء^(٢)، وحينما استقر الأمر في نفوس أتباعه انتقل إلى هدفه المرسوم، وهو خروج الناس على الخليفة عثمان رضي الله عنه فصادف ذلك هوى في نفوس بعض القوم حيث قال لهم: من أظلم من لم يعجز وصية رسول الله ﷺ ووثب على وصي رسول الله ﷺ وتناول أمر الأمة: ثم قال لهم بعد ذلك: إن عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصي رسول الله ﷺ فانهضوا في هذا الأمر فحركوه، وابدؤوا بالطمع على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعواهم إلى هذا الأمر^(٣)، وبث دعائهم، وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولانهم ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون، فيقرأ أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة، وأوسعوا الأرض إذاعة، وهم يريدون غير ما يظهرون، ويسرون غير ما يبدون، فيقول أهل مصر: إنا لفي عافية مما ابتلى به هؤلاء، إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فقالوا: إنا لفي عافية مما فيه الناس^(٤).

ويظهر من هذا النص الأسلوب الذي تبعه ابن سبأ، فهو أراد أن يوقع في أعين الناس بين اثنين من الصحابة، حيث جعل أحدهما مهضوم الحق وهو علي، وجعل

(١) تاريخ الطبري (٣٤٧/٥).

(٢) المصدر نفسه (٣٤٨/٥).

(٣) المصدر نفسه (٣٤٨/٥).

(٤) تاريخ الطبري (٣٤٨/٥).

الثاني مغتصباً وهو عثمان ثم حاول بعد ذلك أن يحرك الناس - خاصة في الكوفة - على أمرائهم باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فجعل هؤلاء يثورون لأصغر الحوادث على ولايتهم، علماً بأنه ركز في حملته هذه على الأعراب الذين وجد فيهم مادة ملائمة لتنفيذ خطته، فالقراء منهم استهواهم عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأصحاب المطامع منهم هيج أنفسهم بالإشاعات المغرضة المفتراة على عثمان: مثل تحيزه لأقاربه وإغداق الأموال من بيت مال المسلمين عليهم، وأنه حمى الحمى لنفسه، إلى غير ذلك من التهم والمطاعن التي حرك بها نفوس الغوغاء ضد عثمان رضى الله عنه، ثم إنه أخذ يحض أتباعه على إرسال الكتب بأخبار سيئة مفاجئة عن مصرهم إلى بقية الأمصار وهكذا يتخيل الناس في جميع الأمصار أن الحال بلغ من السوء ما لا مزيد عليه والمستفيد من هذه الحال هم السبئية؛ لأن تصديق ذلك من الناس يفيدهم في إشعال شرارة الفتنة داخل المجتمع الإسلامى^(١)، هذا وقد شعر عثمان رضى الله عنه بأن شيئاً ما يحاك في الأمصار وأن الأمة تمخض بشر فقال: والله إن رجى الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها^(٢).

على أن المكان الذى رقع فيه ابن سبأ هو في مصر، وهناك أخذ ينظم حملته ضد عثمان رضى الله عنه، ويحث الناس على التوجه إلى المدينة لإثارة الفتنة بدعوى أن عثمان أخذ الخلافة بغير حق، ووثب على وصى رسول الله ﷺ يقصد علياً^(٣)، وقد غشهم بكتب ادعى أنها وردت من كبار الصحابة حتى إذا أتى هؤلاء الأعراب المدينة المنورة واجتمعوا بالصحابة لم يجدوا منهم تشجيعاً، حيث تبرءوا مما نسب إليهم من رسائل تؤلب الناس على عثمان^(٤)، ووجدوا عثمان مقدراً للحقوق، بل وناظرهم فيما نسبوا إليه، ورد عليهم افتراءهم وفسر لهم صدق أعماله حتى قال أحد هؤلاء الأعراب وهو مالك الأشتر النخعى: لعله مكر به وبكم^(٥)، ويعتبر الذهبى أن عبد الله

(١) الدولة الأموية، يوسف العش، ص ٦٨. وتحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٣٠).

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٥٠).

(٣) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٣٠). وتاريخ الطبرى (٥/ ٣٤٨).

(٤) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٣٠). وتاريخ الطبرى (٥/ ٣٦٥).

(٥) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٣١).

ابن سبأ المهيج للفتنة بمصر، وبأذر بذور الشقاق والنقمة على الولاة ثم على الإمام - عثمان - فيها^(١)، ولم يكن ابن سبأ وحده، وإنما كان عمله ضمن شبكة من المتآمرين وأخطبوطاً من أساليب الخداع والاحتيال والمكر وتجنيد الأعراب والقراء وغيرهم، ويروى ابن كثير أن من أسباب تألب الأحزاب على عثمان ظهور ابن سبأ، وذهابه إلى مصر وإذاعته بين الناس كلاماً اخترعه من عند نفسه، فافتتن به بشر كثير من أهل مصر^(٢).

إن المشاهير من المؤرخين والعلماء من سلف الأمة وخلفها يتفقون على أن ابن سبأ ظهر بين المسلمين بعقائد وأفكار وخطط سبئية ليلفت المسلمين عن دينهم وطاعة إمامهم، ويوقع بينهم الفرقة والخلاف، فاجتمع إليه من غوغاء الناس ما تكونت به الطائفة السبئية المعروفة التي كانت عاملاً من عوامل الفتنة المنتهية بمقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه والذي يظهر من خطط السبئية أنها كانت أكثر تنظيمًا، إذ كانت بارعة في توجيه دعايتها ونشر أفكارها لامتلاكها ناصية الدعاية، والتأثير بين الغوغاء والرعاع من الناس، كما كانت نشيطة في تكوين فروع لها سواء في البصرة أم الكوفة أم مصر، مستغلة العصبية القبلية، و متمكنة من إثارة مكامن التذمر عند الأعراب والعبيد والموالي، عارفة بالمواضع الحساسة في حياتهم وبما يريدون^(٣).

* * *

(١) المصدر نفسه (٣٣٨/١).

(٢) البداية والنهاية (١٦٧/٧، ١٦٨).

(٣) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة، ص ٣٣٩.

الفصل السابع

مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه

المبحث الأول

اشتعال الفتنة

لجح الموتورون الحاقدون الكاذبون فى إزاحة الوليد بن عقبة عن ولاية الكوفة، وعين عثمان رضى الله عنه سعيد بن العاص والياً جديداً على الكوفة، وعندما وصل سعيد إلى ولايته صعد المنبر، وبعدما حمد الله وأثنى عليه، قال: والله لقد بعثت إليكم وإنى لكاره، ولكنى عندما أمرنى عثمان، لم أجِدْ بداً من التنفيذ، ألا وإن الفتنة قد أطلعت رأسها فيكم، ووالله لأضربن وجهها، حتى أقمعها، أو تغلبنى وإنى رائد نفسى اليوم^(١)، واطلع سعيد على أحوال الكوفة، وعرف توجهات الناس فيها، وأدرك تعمق الفتن فيها، وضلوع مجموعة من الخوارج والموتورين والحاقدين وأعداء الإسلام فى التآمر والكيد والفتنة وسيطرة الرعاع والغوغاء والأعراب على الرأى فيها^(٢)، وكتب سعيد رسالة إلى أمير المؤمنين عثمان يخبره فيها بالأوضاع المتردية فى الكوفة، ومما قال فيها: إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم، وقد غلبَ فيها أهل الشرف، والسابقة، والقدمة، والغالب على تلك البلاد روادف ردفتم، وأعراب لحت حتى ما ينظر فيها إلى ذى شرف وبلاء...! فرد عليه عثمان رضى الله عنه برسالة، طلب منه فيها إعادة ترتيب أوضاع أهلها، وتصنيفهم على أساس السبق والجهاد، وتقدير أهل العلم والصدق والجهاد على غيرهم، ومما قال له فيها: فضل أهل السابقة

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٨٠).

(٢) الخلفاء الراشدون، للخالدى، ص ١٢٢.

والقدمة، ممن فتح الله على أيديهم تلك البلاد واجعل الذين نزلوا البلاد بعد فتحها من الأعراب تبعاً لأولئك السابقين المجاهدين، إلا أن يكون السابقون تناقلوا عن الجهاد والحق، وتركوا القيام به، وقام به من بعدهم! واحفظ لكل إنسان منهم منزلته، وأعظمهم جميعاً قسطهم بالحق، فإن المعرفة بالناس يتحقق بها العدل بينهم^(١)، وقام سعيد بتنفيذ توجيهات عثمان رضي الله عنه وأخبر الخليفة بما فعل، وجمع عثمان أهل الحل والعقد في المدينة، وأبلغهم بأوضاع الكوفة، ورسوخ الفتنة فيها، وإجراءات سعيد بن العاص لمواجهتها فقالوا: أصبت بما فعلت، ولا تسعف أهل الفتنة بشيء، ولا تقدمهم على الناس، ولا تطعمهم فيما ليسوا له بأهل، فإنه إذا تولى الأمور من ليس أهلاً لها، لم يقم بها بل يفسدها. فقال عثمان لهم: يا أهل المدينة، إن الناس قد تحركوا للفتنة، فاستعدوا لمواجهتها، واستمسكوا بالحق، وسوف أخبركم بأخبارها وأنقلها لكم أولاً بأول^(٢).

أولاً: تأذي أصحاب الأهواء من الإصلاح:

تأذي الرعاع وأجلاف الأعراب من تقديم أصحاب السابقة والجهاد والبلاء والعلم والتقوى في المجالس والرئاسة والاستشارة، وصاروا يعيرون على الولاة تقديم هؤلاء عليهم واستشارتهم دونهم ويعتبرونه تمييزاً، وجفوة وإقصاء لهم، واستغل الحاقدون الموتورون هذا الأمر في نفوسهم، وغرسوا فيهم كره الخليفة والدولة ورفض أعمال الوالي سعيد بن العاص، ونشر الإشاعات ضده بين الناس، ورفض عامة الناس في الكوفة كلام الموتورين الخارجين، فسكت هؤلاء الحاقدون، وصاروا يخفون شبهاتهم ولا يظهرونها، لرفض معظم المسلمين لها ولكنهم كانوا يسرون بها إلى من يؤيدهم من الأعراب أو الغوغاء أو المعاقبين المغررين^(٣)، وكان أعداء الإسلام الموتورون من اليهود والنصارى والمجوس يتآمرون على الإسلام والمسلمين، وينشرون الإشاعات الكاذبة ضد الخليفة والولاة، ويستثمرون الأخطاء التي تصدر عن بعضهم في تهيج

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٢٨٠).

(٢) المصدر نفسه (٥/ ٢٨١).

(٣) الخلفاء الراشدون، للخالدي، ص ١٢٤.

العامه ضدهم، ويزيدون عليها الكثير من الافتراءات والتزويرات، وهم يهدفون من ذلك إلى نشر الفوضى وتعميق الفرقة بين المسلمين، وذلك لتغذية غيظهم وحقدهم على الإسلام الذى قضى على أديانهم الباطلة وهدم نظام الحكم الإسلامى، الذى حطم دولهم، وقضى على جيوشهم، وجند هؤلاء الأعداء لتحقيق أهدافهم المتوثرين من الرعاع والسذج والبلهاء، والتف حولهم الحاقدون ممن أدبهم أو حدهم أو عززهم الخليفة أو أحد ولاته ونظم هؤلاء الأعداء (جمعية سرية) خبيثة، جعلوا أعضائها هؤلاء الذين استجابوا لهم، وجعلوا لهم أتباعاً فى المدن الكبيرة؟ والأقاليم العديدة، وكونوا شبكة اتصالات سرية بينهم^(١)، وكانت أهم فروع جمعيتهم الخبيثة فى: الكوفة، والبصرة، ومصر ولهم بعض العناصر فى المدينة المنورة، والشام^(٢).

ثانياً: عبد الله بن سبأ اليهودى على رأس العصاية:

أوصى ابن سبأ أتباعه المجرمين فى جمعيته السرية الخبيثة، المنتشرين فى بلاد المسلمين، فقال لهم: انهضوا فى هذا الأمر، فحرّكوه وابدؤوا بالظعن على أمرائكم وولاتكم الذين يعينهم الخليفة، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لتستميلوا الناس إليكم، وادعوهم إلى هذا الأمر^(٣)، ويثّ عبد الله بن سبأ دعائه فى الأمصار، وكاتب أتباعه الذين أفسدهم فى الأمصار وضمهم إليه، وكاتبوه، وتحرك أتباعه فى البلدان بدعوتهم، ودعوا مؤيديهم فى السر إلى ما هم عليه من الخروج على الولاة والخليفة والعمل على عزل عثمان عن الخلافة، وكانوا فى الظاهر يظهرون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليؤثروا فى الناس، ويستميلوهم ويخدعوهم، وصار أتباع ابن سبأ يؤلفون الأكاذيب، والافتراءات عن عيوب أمرائهم وولاتهم، وينشرونها فى كتب يرسلها بعضهم إلى بعض فى الأمصار، وصار أهل كل مصر منهم يكتبون كتباً بهذه الأكاذيب إلى أهل مصر آخرين، فيقرأ أهل كل مصر تلك الكتب المزورة على الناس عندهم فيسمع الناس عندهم عن عيوب وأخطاء الوالى فى ذلك البلد،

(١) الخلفاء الراشدون، للخالدى، ص ١٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٤.

(٣) تاريخ الطبرى (٣٤٨/٥).

فيقولون: إنا لفي عافية مما ابتلى به المسلمون في ذلك البلد ويصدقون ما يسمعون! وبذلك أفسد السبتيون في الأرض، وأفسدوا المسلمين، ومزقوا كلمتهم، وزعزعوا أخوتهم ووحدتهم، وهيجوا الناس على الولاة والأمراء ونشروا الافتراءات ضد الخليفة عثمان نفسه، وكانوا بهذه الجرائم المنظمة والمدروسة بمهارة، يريدون غير ما يظهرون، ويسرون غير ما يعلنون، ويهدفون إلى عزل عثمان والقضاء على دولة الإسلام^(١).

توجه ابن سبأ إلى الشام ليفسد بعض أهلها، ويؤثر فيهم، ولكنه لم ينجح في هدفه الشيطاني، فقد كان له معاوية رضي الله عنه بالمرصاد^(٢)، ودخل البصرة ليجند الاتباع له من المارقين أو الحاقدين أو الرعاع البلهاء، وكان والي البصرة عبد الله بن عامر بن كريز، وكان حازماً عادلاً صالحاً، ولما وصل ابن سبأ البصرة، نزل عند رجل خبيث من أهلها كان لصاً فاتكاً، هو حكيم بن جبلة^(٣).

وبلغ عبد الله بن عامر أن رجلاً غريباً نازل على حكيم بن جبلة وكان حكيم بن جبلة رجلاً لصاً، وعندما كانت تعود جيوش الجهاد إلى البصرة، كان حكيم يتخلف عنها، ليسعى في أرض فارس فساداً، ويغير على أرض أهل الذمة، ويعتدى على أرض المسلمين، ويأخذ منها ما يشاء، فشكاه أهل الذمة والمسلمون إلى عثمان، فكتب عثمان إلى عبد الله بن عامر، وقال له: احبس حكيم بن جبلة في البصرة، ولا تتركه يخرج منها حتى تأنس منه رشداً، فحبسه ابن عامر في بيته، وكان لا يستطيع أن يخرج من البصرة، وبينما كان اللص ابن جبلة تحت الإقامة الجبرية في بيته، نزل عليه اليهودي عبد الله بن سبأ، واستغل ابن سبأ زعارة^(٤) ابن جبلة وانحرافه وحفده ولؤمه، فجنده لصالحه، وصار ابن جبلة هو رجل ابن سبأ في البصرة، وصار ابن جبلة يقدم لابن سبأ أمثاله من المنحرفين والموتورين، فيغرس ابن سبأ في نفوسهم أفكاره، ويجندهم بجمعيته السرية. ولما علم ابن عامر بابن سبأ، استدعاه، وقال له: ما أنت؟ قال ابن سبأ: أنا رجل من أهل الكتاب، رغب في الإسلام فأسلم، ورغب

(١)، (٢) الخلفاء الراشدون، للخالدي، ص ١٢٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٨.

(٤) الأزعر: سبي الخلق.

فى جوارك فأقام عندك. قال ابن عامر: ما هذا الكلام الذى يبلغنى عنك؟ اخرج عنى، أخرجه ابن عامر من البصرة، فغادرها ابن سبأ، بعد أن ترك فيها رجالاً وأتباعاً له، وجعل فيها فرعاً لحزبه السبئى اليهودى، ذهب ابن سبأ إلى الكوفة، فوجد فيها رجالاً من المنحرفين، جاهزين لاستقباله، فجندهم لجماعته وحزبه، ولما علم به سعيد ابن العاص أخرجه من الكوفة، فتوجه إلى مصر، فأقام فيها، وعشش فيها وباض، وفرخ فيها وأفسد، واستمال أناساً هناك من الرعاع والبلهاء، ومن الحاقدين والموتورين، ومن العصاة والمذنبين، وكان ابن سبأ يرتب الاتصالات السرية بين مقره فى مصر، وبين أتباعه فى المدينة والبصرة والكوفة، ويتحرك رجاله بين هذه البلدان^(١)، واستمرت جهود ابن سبأ وأعوانه حوالى ست سنوات، حيث بدؤوا أعمالهم الشيطانية سنة ثلاثين، ونجحوا فى آخر سنة خمس وثلاثين فى قتل الخليفة عثمان، واستمر إفسادهم طيلة خلافة على رضى الله عنه، وقرر (السبئون) أن تكون بداية الفتنة فى الكوفة^(٢).

ثالثاً: أهل الفتنة يفسدون فى مجلس سعيد بن العاص؛

فى يوم من أيام سنة ثلاث وثلاثين جلس سعيد بن العاص، فى مجلسه العام، وحوله عامة الناس، وكانوا يتحدثون ويتناقشون فيما بينهم، فتسلل هؤلاء الخوارج من السبئيين إلى المجلس، وعملوا على إفساده، وعلى إشعال نار الفتنة.

جرى كلام وحوار فى المجلس بين سعيد بن العاص، وبين أحد الحضور، وهو (خنيس بن حبيش الأسدى)، واختلف على أمر، وكان سبعة من الخوارج، أصحاب الفتنة جالسين: منهم جندب الأزدى، الذى قتل ابنه السارق بسبب تورطه فى قضية قتل، ومنهم الأشتر النخعى، وابن الكواء، وصعصعة بن صوحان، فاستغل أصحاب الفتنة المناسبة، وقاموا بضرب خنيس الأسدى فى المجلس، ولما قام أبوه يساعده، وينقله، ضربه، وحاول سعيد منهم من الضرب، فلم يمتنعوا، وأغمى على الرجل

(١) الخلفاء الراشدون، للخالدى، ص ١٢٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٠.

وابنه من شدة الضرب، وجاء بنو أسد للأخذ بثأر آبائهم، وكادت الحرب تقع بين الفريقين، ولكن سعيداً تمكن من إصلاح الأمر^(١)، ولما علم عثمان بالحادثة طلب من سعيد بن العاص أن يعالج الموضوع بحكمة، وأن يضيق على الفتنة ما استطاع.

ذهب الخوارج المفتونون إلى بيوتهم، وصاروا ينشرون الإشاعات، ويذيعون الافتراءات والأكاذيب ضد سعيد، وضد عثمان، وضد أهل الكوفة ووجوهها، فاستاء أهل الكوفة منهم، وطلبوا من سعيد أن يعاقبهم، فقال لهم سعيد: إن عثمان قد نهانى عن ذلك، فإذا أردتم ذلك فأخبروه، وكتب أشرف أهل الكوفة وصلحاؤهم إلى عثمان رضي الله عنه بشأن هؤلاء النفر، وطلبوا منه إخراجهم من الكوفة، ونفيهم عنها، فهم مفسدون مخربون فيها، فأمر عثمان واليه سعيد بن العاص بإخراجهم من الكوفة، وكانوا بضعة عشر رجلاً، وأرسلهم سعيد إلى معاوية في الشام بأمر عثمان، وكتب عثمان إلى معاوية بشأن هؤلاء فقال له: إن أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفرًا خلقوا للفتنة، فرعهم، وأخفهم وأذهبهم وأقم عليهم، فإن آتست منهم رشداً فاقبل منهم^(٢)، ومن الذين تم نفيهم إلى الشام، الأشر النخعي، وجندب الأزدي، وصعصعة بن صوحان، وكميل بن زياد وعمير بن ضابئ، وابن الكواء^(٣).

رابعاً: أهل الفتنة منفيون عند معاوية:

لما قدموا على معاوية رحب بهم وأنزلهم كنيسة تسمى مريم، وأجرى عليه بأمر عثمان ما كان يجري عليهم بالعراق، وجعل لا يزال يتغدى ويتعشى معهم. فقال لهم يوماً: إنكم قوم من العرب لكم أسنان والسنة، وقد أدركتم بالإسلام شرقاً وغلبتم الأمم، وحويتم مراتبهم وموارثهم، وقد بلغني أنكم نقيتم قريشاً، وإن قريشاً لو لم تكن لعدتم أذلة كما كنتم^(٤).

كان عثمان رضي الله عنه يدرك أن معاوية للمعضلة فله من فصاحته وبلاغته، وله:

(١) تاريخ الطبري (٣٢٣/٥).

(٢) تاريخ الطبري (٣٢٤/٥).

(٣) الخلفاء الراشدون، ص ١٣١.

(٤) تاريخ الطبري (٣٢٤/٥).

من حلمه وصبره، وله من ذكائه ودهائه، ما يواجه به الفتن، ومن أجل ذلك ما إن تقع المعضلة حتى يرسلها لابن أبي سفيان كي يحلها، وفعلاً بذل معاوية رضى الله عنه ما بوسعه من أجل إقناع هؤلاء النفر، أكرمهم أولاً، وخالطهم وجالسهم وعرف سرائرهم من خلال هذه المجالسة قبل أن يحكم عليهم بما نقلوا عنهم، وبعد أن أزال الوحشة عنهم وأزال الكلفة بينه وبينهم، لاحظ أن النعرة القبلية هي التي تحركهم، وأن شهوة الحكم والسلطة هي التي تثيرهم، فكان لا بد أن يلج عليهم من زاويتين اثنتين:

الأولى: أثر الإسلام في عزة العرب.

الثانية: دور قريش في نشر الإسلام وتحمل أعبائه.

فإن كان للإسلام أثر في تكوينهم، فلا بد أن يرعوا لهذا الحديث، بعد هذا وضع أمامهم صورة لوضع العرب، وقد انقلبوا بالإسلام أمة واحدة تخضع لإمام واحد، وودعوا حياة الفوضى وسفك الدماء، والقبلية المنتنة^(١).

ويتابع معاوية حديثه معهم فيقول: إن أئمتكم لكم إلى اليوم جنة^(٢) فلا تشدوا عن جنتكم، وإن أئمتكم اليوم يصيرون لكم على الجور، ويحتملون منكم المؤونة والله لنتهين أو ليتلينكم الله بمن يسومكم، ثم لا يحمدكم على الصبر ثم تكونون شركاءهم فيما جررتهم على الرعية في حياتكم وبعد موتكم، فقال رجل من القوم: أما ما ذكرت من قريش، فإنها لم تكن أكثر العرب، ولا أمنعها في الجاهلية فتحوفنا، وأما ما ذكرت من الجنة، فإن الجنة إذا اخترقت خلص إلينا. فقال معاوية: عرفتكم الآن، علمت أن الذى أغراكم على هذا قلة العقول وأنت خطيب القوم ولا أرى لك عقلاً. أعظم عليك أمر الإسلام، وأذكرك به، وتذكرنى الجاهلية؟ وقد وعظتك وترعّم لما يجنك أنه يخترق، ولا ينسب ما يخترق إلى الجنة، أخزى الله أقواماً أعظموا أمرهم ورفعوا إلى خليفتمكم^(٣).

(١) معاوية بن أبي سفيان، لمير الغضبان، ص ١٠١.

(٢) جنة: وقاية.

(٣) تاريخ الطبرى (٣٢٤/٥).

وعرف معاوية أن الإشارة العابرة لن تقنعهم، لا بد من شرح مسهب لواقع قريش أولاً فقال: افقهوا ولا أظنكم تفقهون أن قريشاً لم تعز في جاهلية ولا في إسلام إلا بالله عز وجل لم تكن أكثر العرب ولا أشدهم، ولكنهم كانوا أكرمهم أحساباً، وأمحصهم أنساباً، وأعظمهم أخطاراً، وأكملهم مروءة ولم يمتنعوا في الجاهلية والناس يأكل بعضهم بعضاً، إلا بالله الذي لا يستذل من أعز، ولا يوضع من رفع، هل تعرفون عرباً أو عجماً أو سوداً أو حمراً إلا قد أصابه الدهر في بلده وحرمة بدولة، إلا ما كان من قريش، فإنه لم يردهم أحد بكيد إلا جعل الله خده الأسفل، حتى أراد الله أن ينقذ من أكرم وتابع دينه من هوان الدنيا وسوء مرد الآخرة فارتضى لذلك خير خلقه، ثم ارتضى له أصحاباً، فكان خيارهم قريشاً، ثم بنى هذا الملك عليهم، وجعل هذه الخلافة فيهم، ولا يصلح ذلك إلا عليهم، فكان الله يحوطهم وهم على دينه، وقد حاطهم الله في الجاهلية من الملوك الذين كانوا يدينونكم؟ أف لك ولأصحابك، ولو أن متكلماً غيرك تكلم، ولكنك ابتدأت، فأما أنت يا صعصة فإن قريتك شر قرى عربية، أنتنها نبثاً، وأعمقها وادياً، وأعرفها بالشر، وألأمها جيراناً، لم يسكنها شريف قط ولا وضع إلا سبباً بها، وكانت عليه هجنة، ثم كانوا أقبح العرب القاباً، والامة أصهاراً نزاع^(١) الأمم، وأنتم جيران الخط وفعلة فارس، حتى أصابتكم دعوة النبي ﷺ ونكبتك دعوته، وأنت نزع شطير^(٢) في عمان، لم تسكن البحرين فتشركهم في دعوة النبي ﷺ، فأنت شر قومك، حتى إذا أبرزك الإسلام، وخلطك بالناس، وحملك على الأمم التي كانت عليك، أقبلت تبغي دين الله عوجاً، وتترع إلى اللأمة والذلة ولا يضع ذلك قريشاً، ولن يضرهم، ولن يمنعهم من تأدية ما عليهم، إن الشيطان عنكم غير غافل، قد عرفكم بالشر من بين أمتكم، فأغرى بكم الناس، وهو صارعكم، لقد علم أنه لا يستطيع أن يرد بكم قضاء الله، ولا أمراً أراد الله، ولا تدركون بالشر أمراً إلا فتح الله عليكم شركاً منه وأخزى ثم قام وتركهم، فتذا مروا، فتقاصرت إليه أنفسهم^(٣).

(١) النزاع: جمع نزع وهو الغريب.

(٢) الشطير: الغريب.

(٣) تاريخ الطبري (٥/٣٢٦).

وبذلك بذل معاوية كل طاقاته الفكرية والثقافية والسياسية لإقناعهم.

- عرض لهم أولاً أمر قريش فى الجاهلية والإسلام.

- تناول قبائل هؤلاء النفر، ووضعها فى الجاهلية، حيث كانت تعاني سوء المناخ وفتن المنبت من الناحية الطبيعية، ثم الذلة والتبعية لفارس من الناحية السياسية، إلى أن أكرمها الله بالإسلام فعزت بعد ذل، وارتقت بعد هوان.

- تناول معاوية رضى الله عنه صعصة بن صوحان خطيب القوم، وكيف تلكأ عن تلبية نداء الرسالة، وقد دخل قومه بها، ثم عاد وانضم إلى الإسلام، ورفع الإسلام ثانية بعد انحدار.

- كشف معاوية رضى الله عنه مخططات صعصة وأصحابه وكيف ييغون الفتنة، وييغون دين الله عوجاً.

وإن الشيطان هو وكر هذه الفتنة، ومحرك هذا الشر، وبذلك ربط تاريخ الأمة بالله ثم بالإسلام والعقيدة، ثم كشف عن زيف هؤلاء النفر، وفضحهم عن آخرهم، وأبان عن مخططاتهم وصلتها بدعوى الجاهلية^(١).

- جلسة أخرى:

ثم أتاهم القابلة فتحدث عندهم طويلاً ثم قال: أيها القوم ردوا على خير، أو اسكتوا وتفكروا، وانظروا فيما ينفعكم وينفع أهليكم، وينفع عشائركم، وينفع جماعة المسلمين، فاطلبوه تعيشوا ونعش بكم.

قال صعصة: لست بأهل لذلك، ولا كرامة لك أن تطاع فى معصية الله. معاوية: أليس ما ابتدأتكم به أن أمرتكم بتقوى الله، وطاعته، وطاعة نبيه ﷺ، وأن تعتصموا بحبله جميعاً ولا تفرقوا، قالوا: بل أمرت بالفرقة وخلاف ما جاء به النبي ﷺ، قال: إني آمركم الآن إن كنت فعلت فأتوب إلى الله وأمركم بتقواه وطاعته وطاعة نبيه ﷺ، ولزوم الجماعة وكرامة الفرقة، وأن توقروا أئمتكم، وتدلوهم على كل حسن ما

(١) معاوية بن أبى سفيان، للفضبان، ص ١١١.

قدرتم وتعظموهم في لين ولطف في شيء إن كان منهم. صعبعة: فإننا نأمرك أن تعتزل عملك فإن من المسلمين من هو أحق به منك. قال معاوية: من هو؟ قالوا: من كان أبوه أحسن قدمًا من أبيك وهو بنفسه أحسن قدمًا منك في الإسلام. قال معاوية: والله إن لي في الإسلام قدمًا، ولغيري كان أحسن قدمًا مني، ولكنه ليس في زمانى أحد أقوى على ما أنا فيه مني، ولقد رأى ذلك عمر بن الخطاب، فلو كان غيري أقوى مني لم يكن لي عند عمر هوادة ولا لغيري، ولم يحدث من الحدث ما ينبغي لي أن أعتزل عملي، ولو رأى ذلك أمير المؤمنين وجماعة المسلمين لكتب بخط يده فاعتزلت عمله، ولو قضى الله أن يفعل ذلك لرجوت أن لا يعزم له على ذلك إلا هو خير. فمهلاً فإن في ذلك وأشباهه ما يتمنى الشيطان ويأمر، ولعمري لو كانت الأمور تقضى على رأيكم وأمانيتكم ما استقامت الأمور لأهل الإسلام يوماً ولا ليلة، ولكن الله يقضيها ويدبرها وهو بالغ أمره، فعاودوا الخير وقولوه. قالوا: لست لذلك أهلاً. قال معاوية: أما والله إن الله سطوات ونقمات، وإنى لخائف عليكم أن تتابعوا في مطاوعة الشيطان حتى تحلكم مطاوعة الشيطان ومعصية الرحمن دار الهوان من نعم الله في عاجل الأمر والخزى الدائم في الآجل، فوثبوا عليه فأخذوا بلحيته ورأسه فقال: مه إن هذه ليست بأرض الكوفة، والله لو رأى أهل الشام ما صنعتم بي وأنا أمامهم ما ملكت أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم؛ فلعمري إن ضنيحكم لي شبه بعضه بعضاً ثم قام من عندهم فقال: والله لا أدخل عليكم مدخلاً ما بقيت^(١)، هذه المحاولة الأخيرة التي بذل فيها معاوية أمير الشام كل جهده، واستعمل حلمه وثقافته وأعصابه كي يثنيهم عن الفتنة، إنه يدعوهم إلى تقوى الله وطاعته، والاستمسك بالجماعة، والابتعاد عن الفرقة، وإذ بهم يرفعون عقيرتهم قائلين: ليس لك أن تطاع في معصية الله^(٢). ويحلمه الكبير، وصدره الواسع عاد فذكرهم بأنه لا يأمرهم إلا بطاعة الله، وعلى حد زعمهم فهو يتوب من المعصية إن وقعت، ثم يعود لدعوتهم إلى الطاعة والجماعة والابتعاد عن تفريق كلمة الأمة، ولو كان الوعظ يجدى معهم لأمكن أن

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٣٣٠، ٣٣١).

(٢) المصدر نفسه (٥/ ٣٣٠).

تتأثر قلوبهم لهذه المعاملة، وهذا اللطف، وهذا الحلم، لكنهم اعتبروا ذلك ضعفاً وتهاوناً منه، خاصة وهو يوجههم إلى أن يستعملوا الأسلوب الهادئ في العظة واللين في النصيح، فوجدوا المجال رحباً أن يكشفوا عن مكنون قلوبهم. فقالوا: فإننا نأمرك أن تعتزل عملك فإن في المسلمين من هو أحق به منك وانتبه معاوية انتباهاً مفاجئاً إلى ما يكون، فأحب أن يتعرف جانباً غامضاً عليه، لعل في هذا التعرف ما يوصله إلى من يحركهم، ويثبت في ذهنهم الأراجيف المغرضة، ولكنهم أخفوا ما يكون، واكتفوا بالإشارة إلى أنهم يحبون أن يدع العمل لمن هو أفضل منه، ولمن أبوه أفضل من أبيه، ثم تحلم عليهم أكثر فأكثر، رغم الأسلوب الفج الذي سلكوه معه، وهم يأمرونه بأن يعتزل العمل وهنا نجد لمعاوية جواباً مستفيضاً عن وجهة نظره في الحكم والإمارة والقيادة، وقد لخص معاوية إجابته في ست نقاط أساسية ومهمة:

١ - هي أن له قدماً وسابقة في الإسلام، فهو حامى ثغر الشام منذ وفاة أخيه يزيد ابن أبى سفيان رضى الله عنهما.

٢ - أن هناك في المسلمين من هو أفضل منه وأكرم، وأحسن سابقة وأكثر بلاء، وهو يرى أنه أقوى من يحمى هذا الثغر الإسلامى العظيم - الشام - فمنذ أن تولاه تمكن من ضبطه وسياسته، وفهم نفسيات أهله حتى أحبوه.

٣ - إن الميزان الحساس والمعيار الدقيق الذى يقيم الولاة هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى لا تأخذه فى الله لومة لائم، فلو وجد من معاوية شططاً أو انحرفاً أو ضعفاً لعزله، ولما أبقى عليه يوماً واحداً، فقد عمل له طيلة خلافته، كما ولاه من قبل رسول الله ﷺ على بعض عمله، واستخدمه كاتباً بين يديه، وولاه أبو بكر الصديق من بعده ولم يطعن فى كفاءته أحد.

٤ - إن اعتزال العمل يجب أن يستند لأسباب موجبة للاعتزال، فما هى الحجة التى يقدمها دعاة الفتنة ليتم الاعتزال على أساسها؟.

٥ - إن الذى يقرر العزل عن العمل أو البقاء فى الإمارة ليس هؤلاء الأدعياء، إن ذلك من حق أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه، وهو الذى له الحق فى تعيين الولاة وعزلهم.

٦ - إن أمير المؤمنين عثمان يوم يقرر عزل معاوية، فهو واثق أن أمره خير كله، ولا غضاضة في ذلك فهو أمير مأمور وهو أمر خليفة المسلمين^(١).

كان ختام الجلسة مؤسفاً أشد الأسف، مؤلماً أشد الألم، لقد حذرهم نقمة الله وغضبه، وحذرهم مهاوى الشيطان ومنزلقاته وحذرهم فرقة الكلمة ومعصية الإمام وحذرهم الانقياد إلى أهوائهم وغرورهم، فماذا كان منهم مقابل ذلك؟ وثبوا عليه، وأخذوا برأسه ولحيته، وعندئذ رجروهم وقمعهم ووجه لهم كلاماً قاسياً مبطناً بالتهديد، وعرف أن هؤلاء يستحيل أن ينصاعوا للحق، فلا بد من إبلاغ أمرهم لأمر المؤمنين عثمان رضي الله عنه وكشف هوياتهم وخطرهم ليرى فيهم أمير المؤمنين رأياً آخر^(٢).

- كتاب معاوية إلى عثمان رضي الله عنهما بشأن أهل الفتنة من الكوفة:

كتب معاوية إلى عثمان رضي الله عنهما قائلاً: بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان، أما بعد يا أمير المؤمنين، فإنك بعثت إلى أقواماً يتكلمون بالسنة الشياطين وما يعملون عليهم، ويأتون الناس - زعموا - من قبل القرآن فيشبهون على الناس، وليس كل الناس يعلم ما يريدون، وإنما يريدون فرقة، ويقربون فتنة، قد أثقلهم الإسلام وأضجرهم وتمكنت رقى الشيطان من قلوبهم؛ فقد أفسدوا كثيراً من الناس ممن كانوا بين ظهرائهم من أهل الكوفة، ولست آمن إن أقاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم وفجورهم فارددهم إلى مصر، فلتكن دارهم في مصرهم الذي نجم فيه نفاقهم^(٣).

خامساً: رجوع أهل الفتنة إلى الكوفة ثم نفيهم إلى الجزيرة:

كتب عثمان إلى سعيد بن العاص بالكوفة، فردهم إليه، فلم يكونوا إلا أطلق السنة منهم حين رجعوا. وكتب سعيد إلى عثمان يضح منهم، فكتب عثمان إلى سعيد أن سيرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وكان أميراً على حمص^(٤).

(١) معاوية بن أبي سفيان، صحابي كبير وملك مجاهد، ص ١١٤ إلى ١١٧.

(٢) معاوية بن أبي سفيان، للغضبان، ص ١١٧، ١١٨.

(٣، ٤) تاريخ الطبري (٢٣١/٥).

فلما وصلوا إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، استدعاهم، وكلمهم كلاماً شديداً، وكان مما قاله لهم: يا آله الشيطان! لا مرحباً بكم ولا أهلاً لقد رجع الشيطان محسوراً خائباً، وأنتم ما زلتُم نَشيطون في الباطل! خَسِرَ اللهُ عبد الرحمن إن لم يؤدبكم، ويخزكم، يا معشر من لا أدري من أنتم: أعرب أم عجم لن تقولوا لى كما كنتم تقولون لسعيد ومعاوية، أنا ابن خالد بن الوليد، أنا ابن من قد عجمته العاجمات، أنا ابن فاقى الردة والله لأذلكم، وأقامهم عبد الرحمن بن خالد عنده شهراً كاملاً، وعاملهم بمتهى الحزم والشدة، ولم يلن معهم كما لان سعيد ومعاوية، وكان إذا مشى مشوا معه، وإذا ركب ركبوا معه، وإذا غزا غزوا معه، وكان لا يدع مناسبة إلا ويذلهم فيها، وكان إذا قابل زعيمهم (صعصعة بن صوحان) يقول له يا ابن الخطيئة: هل تعلم أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر، وأن من لم يصلحه اللين أصلحته الشدة، وكان يقول لهم: لماذا لا تردون على كما كنتم تردون على سعيد في الكوفة، وعلى معاوية بالشام؟ لماذا لا تخاطبونى كما كنتم تخاطبونهما؟

ونفع معهم أسلوب عبد الرحمن بن خالد، وأخرسهم حزمه وشدته وقسوته، وأظهروا له التوبة والندم. وقالوا له: نتوب إلى الله ونستغفره، أقلنا أقالك الله، وسامحنا سامحك الله! بقى القوم فى الجزيرة عند عبد الرحمن بن خالد، وأرسل عبد الرحمن أحد زعمائهم وهو الأشتر النخعى إلى عثمان ليخبره بتوبتهم وصلاحتهم وتراجعهم عما كانوا عليه من الفتنة فقال عثمان للأشتر: احلل أنت ومن معك حيث شئتم، فقد عفوت عنكم. قال الأشتر: نريد أن نبقى عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وذكر له من فضل عبد الرحمن وحزمه، فأقاموا عند عبد الرحمن فى الجزيرة مدة، أظهروا فيها التوبة والاستقامة والصلاح^(١)، وسكت أصحاب الفتنة فى الكوفة إلى حين، وكان هذا فى شهور سنة ثلاث وثلاثين، بعدما تم نفي رؤوس الفتنة إلى معاوية فى الشام، ثم عبد الرحمن بن خالد، فرأى أصحاب الفتنة فى الكوفة أن المصلحة تقتضى أن يسكتوا إلى حين^(٢).

(١) تاريخ الطبرى (٣٢٧/٥).

(٢) الخلفاء الراشدون، للخالدى، ص ١٣٤.

١ - أهل الفتنة بالبصرة يفترون على أشج عبد القيس:

أما أهل الفتنة بالبصرة يزعمون حكيم بن جبلة، فقد كانوا ضد أهل الفضل فيها، وتآمروا وكذبوا عليهم وكان من أفضل وأتقى أهل البصرة (أشج عبد القيس) واسمه عامر بن عبد القيس، وكان زعيماً لقومه، وقد وفد على رسول الله ﷺ، وتعلم منه، ومدحه رسول الله ﷺ بقوله: «إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة»^(١) وكان عامر بن عبد القيس من قادة الجهاد في القادسية وغيرها، وكان مقيماً في البصرة، وكان على قسط كبير من الصلاح والتقوى، فكذب الخارجون عليه، واتهموه بالباطل، فسيره عثمان إلى معاوية بالشام، ولما كلمه معاوية رضي الله عنه وعامله، عرف براءته وصدقه، وكذب الخوارج واقتراءهم عليه، وكان الذي تولى الكذب على عامر بن عبد القيس هو (حمران بن أبان) وهو رجل عاص بدون دين، حيث تزوج امرأة في أثناء عدتها! ولما علم عثمان بذلك فرق بينهما، وضربه ونكل به لمعصيته، ونفاه إلى البصرة، وهناك التقى مع زعيم السبئيين فيها، اللص حكيم بن جبلة^(٢).

٢ - ابن سبأ يحدد سنة أربع وثلاثين للهجرة للتحرك:

وفي سنة أربع وثلاثين - السنة الحادية عشرة من خلافة عثمان أحكم عبد الله بن سبأ اليهودي خطته، ورسم مؤامراته، ورتب مع جماعته السبئيين الخروج على الخليفة وولاته، فقد اتصل ابن سبأ اليهودي من وكر مؤامراته في مصر بالشياطين من حزبه في البصرة والكوفة والمدينة، واتفق معهم على تفاصيل الخروج، وكاتبهم وكاتبوه، وراسلهم وراسلوه، وكان ممن كاتبهم وراسلهم، السبئيون في الكوفة، وقد كانوا بضعة عشر رجلاً منهم منفيين في الشام، ثم في الجزيرة عند عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد، وبعد نفى أولئك الخارجيين، كان زعيم السبئيين الحاقدين في الكوفة يزيد ابن قيس^(٣)، وقد خلت الكوفة في سنة أربع وثلاثين من وجوها وأشرافها؛ لأنهم

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، رقم (٢٥). وقال النووي في شرحه: أما الحلم فهو العقل، وأما الأناة فهي الثبوت وترك العجلة.

(٢) تاريخ الطبري (٣٣٣/٥، ٣٣٤).

(٣) الخلفاء الراشدون، للبخاري، ص ١٣٥.

توجهوا للجهاد فى سبيل الله ، ولم يبق إلا الرعاع والغوغاء ، الذين أثر فيهم السبثيون والمنحرفون ، وشحنوهم بأفكارهم الخبيثة ، وهيجوهم ضد والى عثمان على الكوفة سعيد بن العاص رضى الله عنه^(١) .

٣ - أوضاع أهل الكوفة عند تحرك أهل الفتنة:

قال الطبرى عن أوضاع الكوفة سنة أربع وثلاثين: وفد سعيد بن العاص إلى عثمان فى سنة إحدى عشرة من إمارة عثمان وقد بعث سعيد قبل خروجه الأشعث ابن قيس إلى أذربيجان وسعيد بن قيس إلى الرى ، والنسير العجلي إلى همدان ، والسائب بن الأقرع إلى أصبهان ، ومالك بن حبيب إلى ماه ، وحكيم بن سلامة إلى الموصل ، وجريز بن عبد الله إلى قرقيسيا ، وسلمان بن ربيعة إلى الباب ، وعتيبة بن النهاس إلى حلوان ، وجعل على الحرب القعقاع بن عمرو التميمى ، وكان نائبه بعد خروجه عمرو بن حريث ، وبذلك خلت الكوفة من الوجوه والرؤساء ، ولم يبق فيها إلا منزوع أو مفتون^(٢) ، وفى هذا الجو خرج زعيم السبثيين فى الكوفة (يزيد بن قيس) بعد اتفاق مع شيطانه ابن سبأ فى مصر ، وخرج معه أهل الفتنة الذين انضموا إلى جمعية ابن سبأ السرية ، والغوغاء الذين تأثروا بها^(٣) .

٤ - القعقاع بن عمرو التميمى يقضى على التحرك الأول:

خرج يزيد بن قيس فى الكوفة ، وهو يريد خلع عثمان ، فدخل المسجد وجلس فيه ، وتجمع عليه فى المسجد السبثيون ، الذين كان ابن السوداء يكتبهم من مصر ، ولما تجمع الخارجون فى المسجد ، علم بأمرهم القعقاع بن عمرو أمير الحرب ، فألقى القبض عليهم ، وأخذ رعيهم يزيد بن قيس معه ، ولما رأى يزيد شدة القعقاع وبقظته وبصيرته ، لم يجاهره بهدفهم وخطتهم فى الخروج على الخليفة عثمان وخلعه ، وأظهر له أن كل ما يريد هو وجماعته عزل الوالى سعيد بن العاص ، والمطالبة بوال آخر

(١) الخلفاء الراشدون ، للخالدى ، ص ١٣٥ .

(٢) تاريخ الطبرى (٥/٣٣٧) .

(٣) الخلفاء الراشدون ، للخالدى ، ص ١٣٦ .

مكانه، فاستجيب لطلبهم ولذلك أطلق الققعاق سراح الجماعة لما سمع كلام يزيد. ثم قال ليزيد: لا تجلس لهذا الهدف في المسجد، ولا يجتمع عليك أحد، واجلس في بيتك، واطلب ما تريد من الخليفة، وسيحقق لك ذلك^(١).

٥ - يزيد بن قيس يكاتب أهل الفتنة عند عبد الرحمن بن خالد:

جلس يزيد بن قيس في بيته، واضطر إلى تعديل خطته في الخروج والفتنة، واستأجر هذا السبئي (يزيد بن قيس) رجلاً، وأعطاه دراهم وبغلاً، وأمره أن يذهب بسرعة وكتمان إلى السبئيين من أهل الكوفة الذين نفاهم عثمان بن عفان إلى الشام ثم إلى الجزيرة، وهم مقيمون عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد هناك، وقد أظهروا له التوبة والندم، وقال يزيد لإخوانه الشياطين في كتابه: إذا وصلكم كتابي هذا فلا تضعوه من أيديكم، حتى تأتوا إلى، فقد راسلنا إخواننا في مصر - وهم السبئيون هناك - واتفقنا معهم على الخروج، ولما قرأ الأشر كتاب يزيد خرج فوراً للكوفة، ولحق به وإخوانه الخارجون وفقدهم عبد الرحمن بن خالد فلم يجدهم، فأرسل جماعة في طلبهم، فلم يدركوهم، واتصل يزيد بن قيس بجماعته مرة ثانية، واتصل جماعته بالرعا والغوغاء في الكوفة، وتجمعوا في المسجد، ودخل عليهم الأشر النخعي في المسجد، وعمل على إثارتهم وتهيجهم، ودفعهم للشورة والخروج وكان مما قال لهم: لقد جئكم من عند الخليفة عثمان، وتركت واليكم سعيد بن العاص عنده، وقد اتفق عثمان وسعيد على إنقاص عطائكم، وتخفيض أموالكم من مائتي درهم إلى مائة درهم، وقد كذب الأشر فيما قال، ولم يتحدث عثمان وسعيد بذلك، ولكنه كيد السبئيين في نشر الأكاذيب والافتراءات لتهيج العامة، واستخف الأشر بكلامه الناس في المسجد، وأثر في الرعا والغوغاء وهيجهم، وكانت ضجة كبيرة في المسجد، وصار يكلمه عقلاء المسلمين من وجوههم وأشرفهم وصالحهم، وأنقيائهم، كآبي موسى الأشعري وعبد الله بن مسعود، والققعاق بن عمرو، فلم يسمع لهم، ولم يستجب لهم^(٢). وصاح يزيد بن قيس في الغوغاء والرعا داخل المسجد

(١) تاريخ الطبري (٣٣٧/٥).

(٢) تاريخ الطبري (٣٣٨/٥)، والخلفاء الراشدون، للخالدي، ص ١٣٨.

وخارجه، وقال: إني خارج إلى طرق المدينة، لأمنع سعيد بن العاص من دخول الكوفة، ومن شاء أن يخرج معي لمنع سعيد من الدخول، والمطالبة بوال مكانه فليفعل فاستجاب لندائه السبتيون والرعا، وخرج معه حوالى ألف منهم^(١).

٦ - القعقاع بن عمرو يرى قتل قادة أهل الفتنة:

ولما خرج السبتيون والغوغاء طلباً للفتنة والتمرد وإحداث القلاقل، بقى فى المسجد وجوه المسلمين وأشرافهم وحلماؤهم، فصعد المنبر نائب الوالى عمرو بن حريث وطالب المسلمين بالأخوة والوحدة ونهاهم عن التفرق والاختلاف والفتنة والخروج، ودعاهم إلى عدم الاستجابة للخارجيين والمتمردين^(٢)، فقال القعقاع بن عمرو: أترد السيل عن عبابه، فاردد الفرات عن أدراجه، هيهات، لا والله لا تسكن الغوغاء إلا المشرفية^(٣)، ويوشك أن تنتضى، ثم يعجون عجيج العتدان^(٤)، ويتمنون ما هم فيه فلا يرد عليهم أبداً، فاصبر، فقال: أصبر، وتحول إلى منزله^(٥).

٧ - أهل الفتنة يمنعون سعيد بن العاص من دخول الكوفة:

سار يزيد بن قيس ومعه الأشر النخعي بالألف من الخارجيين إلى مكان على طريق المدينة، يسمى (الجرعة) وبينما كانوا معسكرين فى الجرعة، طلع عليهم سعيد بن العاص عائداً من عند عثمان، فقالوا له: عد من حيث أتيت، ولا حاجة لنا بك، ونحن نمنعك من دخول الكوفة، وأخبر عثمان أننا لا نريد والياً علينا، ونريد من عثمان أن يجعل أبا موسى الأشعري والياً مكانك، قال لهم سعيد: لماذا خرجتم ألقاً لتقولوا لى هذا الكلام؟ كان يكفيكم أن تبعثوا رجلاً إلى أمير المؤمنين بطلبكم، وأن توقفوا لى رجلاً فى الطريق ليخبرنى بذلك، وهل يخرج ألف رجل لهم عقول لمواجهة رجل واحد^(٦)؟

(١) المصدر نفسه (٣٣٨/٥).

(٢) الخلفاء الراشدون، للخالدي، ص ١٣٩.

(٣) نوع من السيوف. تنتضى: انتضى السيف أى أخرجه من غمده.

(٤) العتود: الجدى الذى استكرش، وقيل الحولى من أولاد الماعز.

(٥، ٦) تاريخ الطبرى (٣٣٨/٥).

رأى سعيد بن العاص أن من الحكمة عدم مواجهتهم، وعدم تأجيج نار الفتنة، بل محاولة إخمادها، أو تأجيل اشتعالها على الأقل، وهذا رأى أبى موسى الأشعري، وعمرو بن حريث، والقعقاع بن عمرو في الكوفة^(١)، وعاد سعيد بن العاص إلى عثمان وأخبره خبر القوم الخوارج. قال له عثمان: ماذا يريدون؟ هل خلعوا يدًا من طاعة؟ وهل خرجوا على الخليفة؟ وأعلنوا عدم طاعتهم له؟ قال له سعيد: لا لقد أظهروا أنهم لا يريدونني واليًا عليهم، ويريدون واليًا آخر مكاني، قال له عثمان: من يريدون واليًا؟ قال سعيد بن العاص: يريدون أبا موسى الأشعري. قال عثمان: قد عينا وأثبتنا أبا موسى واليًا عليهم، ووالله لن نجعل لأحد عذرًا، ولن نترك لأحد حجة، ولنصبرن عليهم كما هو مطلوب منا، حتى نعرف حقيقة ما يريدون، وكتب عثمان إلى أبى موسى بتعيينه واليًا على الكوفة^(٢).

وقبل وصول كتاب عثمان رضي الله عنه بتعيين أبى موسى واليًا، كان في مسجد الكوفة بعض أصحاب رسول الله ﷺ، وقد حاولوا ضبط الأمور وتهذئة العامة، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك؛ لأن السببيين والحاقدين سيطروا على الرعاع والغوغاء، وهيجوهم، فلم يعودوا يسمعون صوت عقل أو منطق، وكان في مسجد الكوفة وقت التمرد والفتنة اثنان من أصحاب رسول الله ﷺ، هما حذيفة بن اليمان، وأبو مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري البدرى، وكان أبو مسعود غاضبًا لتمرده وثورته الرعاع، وخروجهم إلى الجرعة، وعزلهم الوالى سعيدًا، وعصيانهم له، وهى أول مرة تحصل، بينما كان حذيفة بعيد النظر، يتعامل مع الحدث بموضوعية وتفكير^(٣). قال أبو مسعود لحذيفة: لن يعودوا من الجرعة سالمين، وسيرسل الخليفة جيشًا لتأديبهم، وستسفك فيها دماء كثيرة، فرد عليه حذيفة قائلاً: والله سيعودون إلى الكوفة، ولن يكون هناك اشتباك أو حرب، ولن تسفك هناك دماء وما أعلم من هذه الفتن اليوم شيئًا، إلا وقد علمته من رسول الله ﷺ وهو حى، حيث أخبرنا عن هذه الفتن التى نراها اليوم قبل

(١) الخلفاء الراشدون، للخالدي، ص ١٤٠.

(٢) تاريخ الطبرى (٣٣٩/٥).

(٣) الخلفاء الراشدون، ص ١٤١.

وفاته، ولقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن الرجل يصبح على الإسلام، ثم يمسي وليس معه من الإسلام شيء، ثم يقاتل المسلمين، فيرتد وينكص قلبه ويقتله الله غداً، وسيكون هذا فيما بعد^(١)، لقد كان حذيفة بن اليمان رضي الله عنه متخصصاً في علم الفتن، وتعامل مع فتن السبئيين في الكوفة وغيرها، وفق ما سمعه وعلمه من رسول الله ﷺ، واستحضر ما حفظه من تلك الأحاديث، ففهم حقيقة ما يجري حوله، ولم يستعده ولم يستغربه وحاول الإصلاح ما أمكنه^(٢).

٨ - أبو موسى الأشعري يهدئ الأمور وينهى عن العصيان:

قام أبو موسى الأشعري رضي الله عنه بتهذئة الأمور ونهى الناس عن العصيان. وقال لهم: أيها الناس، لا تخرجوا في مثل هذه المخالفة، ولا تعودوا لمثل هذا العصيان، الزموا جماعتكم والطاعة، وإياكم والعجلة، اصبروا فكأنكم بأمير^(٣). فقالوا: فصل بنا، قال: لا، إلا على السمع والطاعة لعثمان بن عفان، قالوا: على السمع والطاعة لعثمان^(٤).

وما كانوا صادقين في ذلك، لكنهم كانوا يخفون أهدافهم الحقيقية عن الآخرين، وكان أبو موسى يصلى بالناس إلى أن جاءه كتاب عثمان بتعيينه والياً على الكوفة، ولما هدأت الأمور في الكوفة إلى حين، في سنة أربع وثلاثين، عاد حذيفة بن اليمان إلى أذربيجان والباب يقود جيوش الجهاد هناك، وعاد العمال والولاة إلى أعمالهم في مناطق فارس^(٥).

٩ - كتاب عثمان إلى الخارجيين في الكوفة:

كتب عثمان بن عفان إلى الخارجيين من أهل الكوفة كتاباً، يبين فيه الحكمة من استجابته لطلبهم في عزل سعيد، وتعيين أبي موسى بدله، وهي رسالة ذات دلالات

(١) تاريخ الطبري (٣٤٢/٥).

(٢) حذيفة بن اليمان، لإبراهيم العلي، ص ٨٦. والخلفاء الراشدون، للخالدي ص ١٤١.

(٣) أي: يأتيكم من قبل أمير المؤمنين عثمان.

(٤) تاريخ الطبري (٣٣٩/٥).

(٥) الخلفاء الراشدون، للخالدي، ص ١٤٢.

هامة، وتبين طريقة عثمان في مواجهة هذه الفتن، ومحاولته تأجيل اشتعالها ما استطاع، مع علمه اليقيني أنها قادمة، وأنه عاجز عن مواجهتها، فهذا ما علمه من رسول الله ﷺ قال لهم عثمان في رسالته: أما بعد، فقد أمرت عليكم من اخترتم، وأعفيتكم من سعيد، والله لأفرشن لكم عرضي، ولأبدلن لكم صبري، ولأستصلحنكم بجهدي، وأسألوني كل ما أحببت، عما لا يعصى الله فيه، فسأعطيكم لكم، ولا شيئاً كرهتموه لا يعصى الله فيه إلا استعفيتم منه، أنزل فيه عند ما أحببتكم، حتى لا يكون لكم على حجة، وكتب بمثل ذلك في الأمصار^(١)، رضى الله عن أمير المؤمنين عثمان، ما كان أصلحه، وأوسع صدره، وكم ظلمه السبئيون والخارجيون الحاقدون، وكذبوا وافتروا عليه^(٢).

(١) تاريخ الطبرى (٣٤٣/٥).

(٢) الخلفاء الراشدون، للخالد، ص ١٤٣.

المبحث الثانى

سياسة عثمان رضى الله عنه فى التعامل مع الفتنة

من خلال النصوص التاريخية فى العديد من المصادر يتضح أن عثمان قد واجه الفتنة بعدد من الأساليب وهى:

أولاً: رأى بعض الصحابة بأن يرسل عثمان لجان تفتيش وتحقيق:

اهتز محمد بن مسلمة وطلحة بن عبيد الله وغيرهما لما سمعوا من الإشاعات التى بثها عبد الله بن سبأ فى الأمصار فدخلوا على أمير المؤمنين عثمان على عجل، وقالوا: يا أمير المؤمنين آياتيك عن الناس الذى يأتينا؟ قال: لا والله ما جاءنى إلا السلامة. قالوا: فإننا قد أتاننا، وأخبروه بما تنهى لسمعهم عن الفتنة التى تموج بها الأمصار الإسلامية، وعن الهجوم الشرس على ولاته فى كل صقع. وقال: أنتم شركائى وشهود المؤمنين، فأشيروا على؟ قالوا: نشير عليك أن تبعث رجالاً ممن تثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليك بخبرهم^(١)، فقام عثمان بإجراء شديد عظيم، وتخير نفرًا من الصحابة، لا يختلف اثنان فى صدقهم وتقواهم وورعهم، ونصحهم، اختار محمد بن مسلمة الذى كان عمر يأتمنه على محاسبة ولاته والتفتيش عليهم فى الأقاليم، وأسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ وابن حبه، وأمير الجيش الذى أوصى النبى ﷺ بإنفاذه فى آخر عهده بالدنيا، فقال ﷺ: «أنفذوا بعث أسامة» وعمار بن ياسر، السباق إلى الإسلام، والمجاهد العظيم، وعبد الله بن عمر، التقى الفقيه الورع، فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأسامة إلى البصرة، وعمارًا إلى مصر، وابن عمر إلى الشام، وكانوا على رأس جماعة، فأرسلهم إلى تلك الأمصار الكبيرة، فمضوا جميعًا إلى عملهم الشاق المضنى الخطير العظيم ثم عادوا جميعًا عدا عمار بن

(١) تاريخ الطبرى (٣٤٨/٥).

ياسر الذي استبطاً في مصر ثم عاد وقدموا بين يدي أمير المؤمنين ما شاهدوه وسمعوه وسألوا الناس عنه (١)، وكان ما جاء به هؤلاء واحداً في كل الأمصار، وقالوا: أيها الناس، ما أنكرنا شيئاً، ولا أنكر المسلمون، إلا أن أمراءهم يقسطون بينهم، ويقومون عليهم (٢). وأما ما روى من اتهام عمار بن ياسر رضي الله عنه - بالتأليب على عثمان - رضي الله عنه، فإن أسانيد الروايات التي تتضمن هذه التهمة ضعيفة، لا تخلو من علة، كما أن في متونها نكارة (٣).

رجع مفتشو الأمصار واتضح بأنه ليس هناك ما يوجب على الخليفة أن يعزل واحداً من ولاته، والناس في عافية وعدل وخير ورحمة واطمئنان، وأمير المؤمنين يعدل في القضية، ويقسم بالسوية، ويرعى حق الله وحقوق الرعية، وما يثار هو شكوك وأراجيف وأكاذيب ييشها الحاقدون في الظلمات لكي لا يعرف مصدرها، ولكن الخليفة البار الراشد العظيم لم يكتف بهذا، بل كتب إلى أهل الأمصار (٤).

ثانياً: كتب إلى أهل الأمصار كتاباً شاملاً بمثابة إعلان عام لكل المسلمين،

أما بعد: فإني آخذ العمال بموافاتي في كل موسم، وقد سلطت الأمة منذ وليت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يرفع على شيء ولا على أحد من عمالي إلا أعطيته، وليس لي ولعمالي حق قبل الرعية إلا متروك لهم، وقد رفع إلى أهل المدينة أن أقواماً يشتمون، وآخرون يضربون، فيا من ضرب سراً، وشتم سراً، من ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم فليأخذ بحقه حيث كان، مني أو من عمالي أو تصدقوا فإن الله يجزي المتصدقين فلما قرئ في الأمصار أبكى الناس، ودعوا لعثمان وقالوا: إن الأمة لثمخض بشر (٥).

فهل تريد الدنيا أن تسمع بحزم وعزم أعلى وأشمخ من هذا الحزم والعزم من رجل راد سنه عن اثنتين وثمانين سنة، وهو في هذه الفورة والقوة من المتابعة والتقيب عن

(١) عثمان بن عفان الخليفة الشاكر الصابر، ص ٢١٠.

(٢) تاريخ الطبري (٣٤٨/٥).

(٣) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١١٧/١).

(٤، ٥) تاريخ الطبري (٣٤٩/١).

المظالم؟ أم هل يريد الناس أن يروا عدلاً أرفع وأسمى من هذا العدل والإنصاف، حتى إن حق أمير المؤمنين الشخصى متروك لرعيته، ما دام حق الله قائماً وحدوده مرعية؟ نعم عند عثمان، الذى لم يقف عند ذلك، ولم يكتف بأن أرسل أمناءه للتفتيش عن أحوال الناس، وكتابته من ثم إلى أهل الأمصار بأن يأتوا موسم الحج ليرفعوا شكاتهم - إن كانت لهم - أمام جموع الحجيج، ولم يكتف عثمان بذلك كله، بل بعث إلى عمال الأمصار أنفسهم ليواجهوا الناس عندما يرفعون مظالمهم - إن وجدت - ثم ليسألهم أمير المؤمنين عما يتناقله الناس، وليشيروا عليه بالرأى الناصح السديد الرشيد^(١).

ثالثاً: مشورة عثمان لولاية الأمصار:

بعث عثمان رضى الله عنه إلى ولاية الأمصار واستدعاهم على عجل: عبد الله بن عامر، ومعاوية بن أبى سفيان، وعبد الله بن سعد، وأدخل معهم فى المشورة سعيد ابن العاص، وعمر بن العاص - وهم من الولاة السابقين - وكانت جلسة مغلقة وخطيرة جرت فيها الأبحاث التالية التى تقرر خطة العمل الجديدة فى ضوء الأخبار المتناهية إلى المدينة عاصمة دولة الإسلام^(٢)، قال عثمان: ويحكم ما هذه الشكاية؟ وما هذه الإذاعة؟ إني والله لخائف أن يكون مصدوقاً عليكم وما يعصب^(٣) هذا إلا بى فقالوا له: ألم تبعث؟ ألم يرجع إليك الخير عن القوم ألم يرجعوا ولم يشافهم أحد بشيء، لا والله ما صدقوا ولا بروا ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً وما كنت لتأخذ به أحداً فيضمنك على شيء، وما هى إلا إذاعة لا يحل الأخذ بها، ولا الانتهاء إليها. قال: فأشيروا على فقال سعيد بن العاص: هذا أمر مصنوع يصنع فى السر، فيلقى به غير ذى معرفة، فيخبر به، فيتحدث به فى مجالسهم قال: فما دواء ذلك؟ قال: طلب هؤلاء القوم، ثم قتل هؤلاء الذين يخرج هذا من عندهم.

وقال عبد الله بن سعد: خذ من الناس الذى عليهم إذا أعطيتهم الذى لهم: فإنه

(١) عثمان بن عفان الخليفة الشاكر الصابر، ص ٢١٢.

(٢) معاوية بن أبى سفيان، ص ١٢٦.

(٣) يعصب بى: يناط بى.

خير من أن تدعهم. قال معاوية: قد وليت قومًا لا يأتيك عنهم إلا الخير، والرجلان أعلم بناحيتهما، قال: فما الرأي؟ قال: حسن الأدب، قال: فما ترى يا عمرو؟ قال: أرى أنك قد لنت لهم، وتراضيت عنهم وزدتهم عما كان يصنع عمر، فأرى أن تلزم طريقة صاحبك فتشد في موضع الشدة وتلين في موضع اللين. إن الشدة تنبغى لمن لا يألو الناس شرًا، واللين لمن يخلف الناس بالنصح، وقد فرشتها جميعًا للين، وقام عثمان فحمد الله وأثنى عليه وقال: كل ما أشرتم به على قد سمعت، ولكل أمر باب يؤتى منه، إن هذا الأمر الذي يخاف على هذه الأمة كائن، وإن بابه الذي يغلق عليه فيكفكف به اللين والمؤاتاة والمتابعة، إلا في حدود الله تعالى ذكره، التي لا يستطيع أحد أن ييادى بعيب أحدها، فإن سده شيء فرفق، فذاك والله ليفتحن، وليست لأحد على حجة حق، وقد علم الله أني لم آل الناس خيرًا، ولا نفسي. ووالله إن رحي الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها، فكفكفوا الناس وهبوا لهم حقوقهم واغتفروا لهم، وإذا تعوطيت حقوق الله فلا تُدْهِنُوا فيها^(١).

لقد خالف عثمان رضي الله عنه رأى أخيه عمرو باتباع الشدة ولم يخالفه في اتباع سنة صاحبيه قرحى الفتنة دائرة ولا تعالج بالعنف لأن العنف هو الذي يدير هذه الرحي، ولن يرضى أمير المؤمنين أن يكون صاحبها، (فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها) وكان واضحًا صريحًا رضي الله عنه فيما لا هوادة فيه وهي حدود الله فلا مدهانة فيها وما غير ذلك فالرفق أولى والمغفرة أفضل ولا بد من تأدية الحقوق كلها^(٢).

وقد جاءت روايات بسند فيه ضعيف ومجهولون تشوه العلاقة بين عمرو بن العاص وعثمان رضي الله عنهما، وساهمت روايات ساقطة في مسخ صورة عمرو بن العاص رضي الله عنه وتحويل علاقته بعثمان رضي الله عنه إلى علاقة فاتك خطط لقتل أميره ثم عاد بانتهازية ليطالب بدمه^(٣)، وهذه الرواية ضعيفة ومرفوضة عند أهل التاريخ وأهل الحديث^(٤)، وقد جاء في رواية بسند فيها ضعفاء ومجهولون أيضًا بأن

(١) تاريخ الطبري (٣٥١/٥).

(٢) عمرو بن العاص الأمير المجاهد، للغضيان، ص ٤٤٧.

(٣، ٤) المصدر نفسه، ص ٤٤٨.

عمرو بن العاص قال: يا عثمان إنك قد ركبت الناس بمثل بنى أمية فقلت وقالوا وزغت وزاغوا، فاعتدل أو اعتزل فإن أبيت فاعتزم عزماً وامض قدماً^(١)، وجاء فى نفس الرواية أن عبد الله بن عامر قال: أرى لك أن تجمرهم فى هذه البعوث حتى يهيم كل رجل منهم قمل فروة رأسه ودبر دابته وتشغلهم عن الإرجاف بك^(٢).

إن عثمان رضى الله عنه منع الولاة من التنكيل بمثيرى الشغب، حبسهم أو قتلهم وقرر أن يعاملهم بالحسنى واللين^(٣)، وطلب من عماله أن يعودوا إلى أعمالهم، وفق ما أعلنه لهم من أسلوب مواجهة الفتنة التى كان كل بصير يرى أنها قادمة^(٤).

١ - اقتراحان لمعاوية يرفضهما عثمان رضى الله عنهما:

قبل أن يتوجه معاوية بن أبى سفيان إلى الشام، أتى إلى عثمان وقال له: يا أمير المؤمنين: انطلق معى إلى الشام، قبل أن يهجم عليك من الأمور والأحداث ما لا قبل لك بها.

قال عثمان: أنا لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشيء ولو كان فيه قطع خيط عنقى. قال له معاوية: إذن أبعث لك جيشاً من أهل الشام، يقيم فى المدينة، لمواجهة الأخطار المتوقعة ليدافع عنك وعن أهل المدينة. قال عثمان: لا حتى لا أقتر على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق، بجند تسكنهم ولا أضيق على أهل الهجرة والنصرة. قال له معاوية: يا أمير المؤمنين والله لتُغتالنَّ أو لتغزين. قال عثمان: حسبي الله ونعم الوكيل^(٥).

لكأنما معاوية رضى الله عنه كان يعلم أن وراء تلك الفتن والشائعات يدأ خبيثة تخطط لهدف مرهوب ليس دونه ضرب الخليفة والخلافة؛ لكن عثمان الخليفة الراشد كان له رأى آخر، فهو يريد أن يسير مع هؤلاء لآخر الطريق حتى لا يترك لهم حجة

(١)، (٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٤٠).

(٣) خلافة عثمان، د. السلمي، ص ٧٧.

(٤) الخلفاء الراشدون، للخالدى، ص ١٥١.

(٥) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٥٣).

عند الله ولا عند الناس، فيفضحهم في الدنيا والآخرة وتلك مصابرة عظيمة من هذا الإمام العادل العظيم^(١).

٢ - عثمان يخترق صفوف المتآمرين بعد مجيئهم للمدينة:

كان أمير المؤمنين عثمان من البقطة والوعى ما يجعله يحقق بقلم استخباراته مع هؤلاء المتآمرين؛ حيث بث في صفوفهم رجلين من المسلمين كانا قد عوقبا من الخليفة ليظمن المتآمرين إليهم، فقد أرسل عثمان رجلين، مخزومياً وزهرياً فقال: انظرا ما يريدون واعلما علمهم، وكانا عما نالهما من عثمان أدب فاصطبرا للحق ولم يضطغنا^(٢) فلما رأوهما باثوهما وأخبروهما بما يريدون فقالا: من معكم على هذا من أهل المدينة؟ قالوا: ثلاثة نفر، فقالا: هل إلا؟ قالوا: لا. قالوا: فكيف تريدون أن تصنعوا؟ وشرح هؤلاء القوم للرجلين أبعاد المؤامرة كاملة والخطوة المقترحة، وقالوا: نريد أن نذكر له أشياء قد زرعتها في قلوب الناس ثم نرجع إليهم فتزعم لهم أنا قررناه بها فلم يخرج ولم يتب، ثم نخرج كأننا حجاج حتى نقدم فنحيط به فنخلعه فإن أبى قتلناه وكانت إياها فرجعا إلى عثمان فضحك، وقال: اللهم سلم هؤلاء فإنك إن لم تسلمهم شقوا. فأرسل إلى الكوفيين والبصريين ونادى: الصلاة جامعة! وهم عنده في أصل المنبر، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى أحاطوا بهم، فحمد الله وأثنى عليه، وأخبرهم خبر القوم، وحقيقة ما يريدون، من تأكر الشبهات عليه تمهيداً للخروج عليه وخلعه أو قتله، وقام الرجلان اللذان حادثا السبئيين، فشهدا بما أخبروهما به. فقال المسلمون جميعاً في داخل المسجد، اقتلهم يا أمير المؤمنين؛ لأنهم يريدون الخروج على أمير المؤمنين، وتقريب كلمة المسلمين، ورفض عثمان رضي الله عنه دعوة الصحابة لقتلهم؛ لأنهم مسلمون - في الظاهر - من رعيته، ولا يرضى أن يقال: عثمان يقتل مسلمين مخالفين له؛ ولذلك رد عثمان بن عفان على تلك الدعوة قائلاً: لا نقتلهم، بل نغفو ونصفح، ونبصرهم بجهدنا، ولا نقتل أحداً من المسلمين، إلا إذا ارتكب حداً يوجب القتل، أو أظهر ردة وكفراً^(٣).

(١) عثمان بن عفان الخليفة، الشاكر الصابر، ص ٢١٤.

(٢) اضغن فلان على فلان: حقد عليه.

(٣) تاريخ الطبري (٣٥٤/٥، ٣٥٥).

رابعاً: إقامة الحجّة على المتمردين:

ثم دعا عثمان القوم السبّيين إلى عرض ما عندهم من شبهات وإظهار ما يروونه من أخطاء وتجاوزات ومخالفات، وقع هو فيها، وكانت جلسة مصارحة ومكاشفة فى المسجد على رأى ومسمع من الصحابة والمسلمين، فتكلم السبّيون وعرضوا الأخطاء التى ارتكبها عثمان - على حدّ زعمهم - وقام عثمان رضى الله عنه بالبيان والإيضاح وقدم حججه وأدّله فيما فعل، والمسلمون المنصفون يسمعون هذه المصارحة والمحاسبة والمكاشفة، وأورد عثمان ما أخذه عليه، ثم بين حقيقة الأمر، ودافع عن حسن فعله وأشهد معه الصحابة الجالسين فى المسجد^(١).

١ - قال: قالوا: إني أتممت الصلاة فى السفر، وما أتمها قبلى رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر، لقد أتممت الصلاة لما سافرت من المدينة إلى مكة، ومكة بلد فيه أهلى، فأنا مقيم بين أهلى ولست مسافراً أليس كذلك؟ فقال الصحابة: اللهم نعم.

٢ - وقالوا: إني حميت حمى، وضيق على المسلمين، وجعلت أرضاً واسعة، خاصة لرعى إبلى!

ولقد كان الحمى قبلى لإبل الصدقة والجهاد، حيث جعل الحمى كل من رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وأنا زدت فيه لما كثرت إبل الصدقة والجهاد، ثم لم تمنع ماشية فقراء المسلمين من الرعى فى ذلك الحمى، وما حميت لما شيتى! ولما وليت الخلافة كنت من أكثر المسلمين إبلاً وغنماً، وقد أنفقتها كلها، وما لى الآن ثاغية ولا راغية، ولم يبق لى إلا بعيران، خصصتهما لحجى! أليس كذلك؟ فقال الصحابة: اللهم نعم.

٣ - وقالوا: إني أبقيت نسخة واحدة من المصاحف، وحرقت ما سواها، وجمعت الناس على مصحف واحد! ألا إن القرآن كلام الله، من عند الله، وهو واحد، ولم أفعل سوى أن جمعت المسلمين على القرآن، ونهيتهم عن الاختلاف فيه، وأنا فى فعلى هذا تابع لما فعله أبو بكر، لما جمع القرآن! أليس كذلك؟ فقال الصحابة: اللهم نعم!

(١) الخلفاء الراشدون، للخالدي، ص ١٥٤، ١٥٥.

٤ - وقالوا: إني رددت الحكم بن أبي العاص إلى المدينة، وقد كان رسول الله ﷺ نفاه إلى الطائف! إن الحكم بن أبي العاص مكى، وليس مدنيًا، وقد سيره رسول الله ﷺ من مكة إلى الطائف، وأعادته الرسول ﷺ إلى مكة بعدما رضى عنه، فالرسول ﷺ سيره إلى الطائف، وهو الذي رده وأعادته! أليس كذلك؟ فقال الصحابة: اللهم نعم.

٥ - وقالوا: إني استعملت الأحداث، ووليت الشباب صغار السن! ولم أول إلا رجلاً فاضلاً محتملاً مرضياً، وهؤلاء الناس أهل عملهم، فسلوهم عنهم. ولقد ولي الذين من قبلى من هم أحدث منهم وأصغر منهم سنًا، ولقد ولي رسول الله ﷺ أسامة بن زيد، وهو أصغر ممن وليته، وقالوا لرسول الله ﷺ أشد عما قالوا لى أليس كذلك؟ قال الصحابة: اللهم نعم! إن هؤلاء الناس يعييون للناس ما لا يفسرونه ولا يوضحونه.

٦ - وقالوا: إني أعطيت عبد الله بن سعد بن أبي سرح ما أفاء الله به، وإنما أعطيته خمس الخمس، وكان مائة ألف، لما فتح إفريقية، جزاء جهاده وقد قلت له: إن فتح الله عليك إفريقية، فلك خمس الخمس من الغنيمة نفلًا، وقد فعلها قبلى أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ومع ذلك قال لى الجنود المجاهدون: إنا نكره أن تعطيه خمس الخمس - ولا يحق لهم الاعتراض والرفض - فأخذت خمس الخمس من ابن سعد ورددته على الجنود، وبذلك لم يأخذ ابن سعد شيئًا! أليس كذلك؟ قال الصحابة: اللهم نعم.

٧ - وقالوا: إنى أحب أهل بيتى وأعطيتهم! فأما حبى لأهل بيتى، فإنه لم يحملنى على أن أميل معهم إلى جور وظلم الآخرين، بل أحمل الحقوق عليهم وآخذ الحق منهم وأما إعطاؤهم فأنى أعطيتهم من مالى الخاص، وليس من أموال المسلمين؛ لأنى لا أستحل أموال المسلمين لنفسى، ولا لأحد من الناس. ولقد كنت أعطى العطية الكبيرة الرغبة من صلب مالى، أزمان رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما، وأنا يومئذ شحيح حريص، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتى، وفنى عمرى، وجعلت مالى الذى لى لأهلى وأقاربى، قال الملحدون ما قالوا؟ وإنى والله ما أخذت

من مصر من أمصار المسلمين مالا ولا فضلا، ولقد رددت على تلك الأمصار الأموال، ولم يحضروا إلى المدينة إلا الأخماس من الغنائم، ولقد تولى المسلمون تقسيم تلك الأخماس، ووضعها في أهلها! ووالله ما أخذت من تلك الأخماس وغيرها فلساً فما فوقه، وإننى لا أكل إلا من مالى، ولا أعطى أهلى إلا من مالى.

٨ - وقالوا: إني أعطيت الأرض المفتوحة لرجال معينين، وإن هذه الأرضين المفتوحة، قد اشترك في فتحها المهاجرون والأنصار وغيرهم من المجاهدين، ولما قسمت هذه الأراضي على المجاهدين الفاتحين منهم من أقام بها واستقر فيها، ومنهم من رجع إلى أهله في المدينة أو غيرها، وبقيت تلك الأرض ملكاً له، وقد باع بعضهم تلك الأراضي، وكان ثمنها في أيديهم! وبذلك أورد عثمان رضى الله عنه أهم الاعتراضات التي أثبت عليه، وتولى توضيحها، وبيان وجه الحق فيها^(١).

وترى من ذلك الدفاع المحكم الذى دافع به عثمان بن عفان رضى الله عنه وساجل الصحابة فيه وذاكرهم إياه صورة لما كان يجرى من النقد المر العنيف له رضى الله عنه، وما كان يشيعه السبثيون من قالة سوء وما يعملون على ترويجه من باطل مزيف، فقد أجمل رضى الله عنه ذكر الاعتراضات التي كانوا يعترضون بها عليه، وبين وجه الحق فيما يفعل، وأنه كان على بينة من أمره، وعلى حجة من دينه، ولكنهم مغرضون لا يريدون رشاداً، ولا ييغون سداداً، فمجادلته لهم مجادلة رجل مخلص مع آخر يتربص به الدوائر، ويتسقط هفواته لينفذ أغراضاً، ويلقى في نفوس الناس عنه إغراضاً ومن كان شأنه كذلك لا تقنعه الحجة، ولا يهديه الدليل، ومن يضل الله فلا هادى له^(٢).

وقد سمع كلامه وتوضيحه زعماء أهل الفتنة الذين بجانب المنبر، كما سمعه الصحابة الكرام، ومن معهم من المسلمين الصالحين، وتأثر المسلمون بكلام عثمان وبيانه وتوضيحه، وصدقوه فيما قال، وازدادوا له حباً، أما السبثيون دعاء الفتنة

(١) العواصم من القواصم، ص ٦١ إلى ١١١. وتاريخ الطبرى (٣٥٥/٥، ٣٥٦). والخلفاء الراشدون،

للخالدى، ص ١٥٨. والفتنة لأحمد عرموش، ص ١٠ - ١٤.

(٢) تاريخ الجدل، لمحمد أبو زهرة، ص ٩٨، ٩٩.

والفرقة، فلم يتأثروا بذلك، ولم يتراجعوا؛ لأنهم لم يكونوا باحثين عن حق، ولا راغبين في خير، إنما كان هدفهم الفتنة، والكيد للإسلام والمسلمين، وقد أشار الصحابة والمسلمون على عثمان بقتل أولئك السبئيين (زعماء الفتنة) بسبب ما ظهر من كذبهم وتزويرهم، وحقدهم، بل أصروا عليه في قتلهم، لينخلص المسلمون من شرهم، وتستقر بلاد المسلمين، ويقضى على الفتنة التي يثيرها هؤلاء وأتباعهم، ولكن عثمان كان له رأى آخر، وتحليل مغاير، فآثر أن يتركهم، ورأى عدم قتلهم، محاولة منه لتأخير وقوع الفتنة، ولم يتخذ عثمان ضد السبئيين القادمين من مصر والكوفة والبصرة أى إجراء مع علمه بما يخططون ويريدون، وتركهم يغادرون المدينة ويعودون إلى بلادهم^(١).

خامساً: الاستجابة لبعض مطالبهم:

الاستجابة لبعض مطالبهم فى خلع بعض الولاة وتولية من طلبوا توليته، فهذه الأساليب كافية فى المعالجة وإقامة الحق والعدل، لو كانت الأمور تسير فى وضعها الطبيعى، لكن الواقع أن وراء هذه الشكاوى والإثارات أموراً خفية، وأحقاداً جاهلية، تسعى لإثارة الفتنة بين المسلمين وتفريق وحدتهم، ووقع ما أخبر به النبى ﷺ من استشهاد عثمان رضي الله عنه^(٢).

سادساً: ضوابط التعامل مع الفتن عند عثمان رضي الله عنه:

إن المتأمل فى هدى عثمان رضي الله عنه فى تعامله مع الفتنة التى وقعت فى عهده يمكنه أن يستنبط بعض الضوابط التى تعين المسلم فى مواجهته للفتن ومن هذه الضوابط:

١ - التثبت:

فقد أرسل لجان تفتيش للأمصار واستمع لأهلها، واستطاع أن يخترق جماعة السبئيين ويقف على حقيقة أمرهم، ولم يستعجل فى إصداره للأحكام عليهم.

(١) الخلفاء الراشدون، للخالدى، ص ١٥٨، ١٥٩.

(٢) خلافة عثمان، للسلمى، ص ٧٨.

٢ - لزوم العدل والإنصاف:

فقد اتضح هذا الضابط فى كتبه للأمصار وطلب ممن ادعى أنه شتم أو ضرب من الولاة فليواف الموسم فليأخذ بحقه حيث كان، منه أو من عماله^(١)؟

٣ - الحلم والأناة:

ويتضح هذا الضابط فى كتابه لأهل الكوفة عندما طلبوا عزل سعيد بن العاص وتعيين أبى موسى الأشعرى وقد جاء فى هذا الكتاب: . . . والله لأفرشنكم عرضى، ولأبذلن لكم صبرى، ولأستصلحنكم بجهدى، فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يعصى الله فيه إلا سألتموه، ولا شيئاً كرهتموه لا يعصى الله فيه إلا استعفيتم منه^(٢)؟

٤ - الحرص على ما يجمع، ونبذ ما يفرق بين المسلمين:

ولذلك جمع الناس على مصحف واحد كما مر معنا، وعندما عرض عليه الأشر النخعى عروضاً ثلاثة يأتى تفصيلها بإذن الله قال عثمان: . . . وإن قتلتمونى، فلم أرتكب ما يوجب قتلى، والله لئن قتلتمونى فإنكم لا تتحابون بعدى أبداً، ولا تصلون جميعاً بعدى أبداً، ولا تقاتلون العدو جميعاً بعدى^(٣)؟

٥ - لزوم الصمت والحذر من كثرة الكلام:

من خلال سيرة عثمان رضى الله عنه، تتضح صفة قلة كلامه إلا فيما ينفع من علم أو نصح أو توجيه أو رد اتهامات باطلة، وقد كان رضى الله عنه كثير الصمت قليل الكلام.

٦ - استشارة العلماء الربانيين:

فقد كان رضى الله عنه يستشير علماء الصحابة، كعلی، وطلحة، والزبير، ومحمد ابن مسلمة، وابن عمر، وعبد الله بن سلام رضى الله عنهم جميعاً، فالعلماء هم

(١) تاريخ الطبرى (٣٤٩/٥).

(٢) تاريخ الطبرى (٣٤٣/٥).

(٣) البداية والنهاية (١٨٤/٧).

صمام الأمان، والملجأ في الخطوب المدلهمة والفتن المظلمة؛ لأنهم أبصر الناس بحالها، وأعرفهم بمآلها، فمن التجأ إليهم وجد الفهم السليم والنظر الصحيح والموقف الشرعي الواضح^(١).

٧- الاسترشاد بأحاديث رسول الله ﷺ في الفتن:

إن منهج عثمان رضي الله عنه أثناء الفتنة ومسلكه مع المتمردين الذين خرجوا عليه لم تفرضه عليه مجريات الأحداث ولا ضغط الواقع، بل كان منهجاً نابعاً من مشكاة النبوة حيث أمره رسول الله ﷺ بالصبر والاحتساب وعدم القتال حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً، وقد وفى ذو النورين رضي الله عنه بوعده وعهده لرسول الله ﷺ طوال أيام خلافته حتى خر شهيداً مضرجاً بدمائه الطاهرة الزكية^(٢).

وقد قال محب الدين الخطيب: الذي يدل عليه مجموع الأخبار عن مواقف عثمان من أمر الدفاع عنه أو الاستسلام للأقدار، هو أنه كان يكره الفتنة، ويتقى الله في دماء المسلمين إلا أنه صار في آخر الأمر يود لو كانت لديه قوة راجحة يهابها البغاة، فيرتدعون عن بغيتهم بلا حاجة إلى استعمال السلاح للوصول إلى هذه النتيجة، وقبل أن تبلغ الأمور مبلغها عرض عليه معاوية أن يرسل إليه قوة من جند الشام تكون رهن إشارته، فأبى أن يضيق على أهل دار الهجرة بجند يساكنهم، وكان لا يظن أن الجرأة تبلغ بفريق من إخوانه المسلمين إلى أن يتكالبوا على دم أول مهاجر إلى الله في سبيل دينه.

فلما تذاوب عليه البغاة واعتقد أن الدفاع عنه تسفك فيه الدماء جزافاً، عزم على كل من له عليهم سمع وطاعة أن يكفوا أيديهم وأسلحتهم عن مزالق العنف.

والأخبار بذلك مستفيضة في مصادر أوليائه وشائتيه، على أنه لو ظهرت في الميدان قوة منظمة ذات هبة تقف في وجوه الثوار، وتضع حداً لغطرستهم وجاهليتهم، لارتاح عثمان لذلك وسر به، مع ما هو مطمئن إليه من أنه لن يموت إلا شهيداً^(٣).

(١) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ٧٢٨.

(٢) استشهاد عثمان ووقعة الجمل، ص ١١٦.

(٣) العواصم من القواصم، ص ١٣٨.

المبحث الثالث

احتلال أهل الفتنة للمدينة

أولاً، قدوم أهل الفتنة من الأمصار:

اتفق أهل الفتنة فيما بينهم على القيام بخطوتهم العملية النهائية في مهاجمة عثمان في المدينة، وحمله على التنازل عن الخلافة، وإلا يقتل، وقرروا أن يأتوا من مراكزهم الثلاثة: مصر والكوفة والبصرة في موسم الحج، وأن يغادروا بلادهم مع الحجاج، وأن يكونوا في صورة الحجاج، وأن يعلنوا للآخرين أنهم خارجون للحج، فإذا وصلوا المدينة تركوا الحجاج يذهبون إلى مكة لأداء مناسك الحج، واستغلوا فراغ المدينة من معظم أهلها - المشغولين بالحج - وقاموا بمحاصرة عثمان؛ تمهيداً لخلعه أو قتله^(١)، وفي شوال سنة خمس وثلاثين كان أهل الفتنة على مشارف المدينة^(٢)، فقد خرج المتمردون من مصر في أربع فرق، لكل فرقة أمير، ولهؤلاء الأمراء أمير ومعهم شيطانهم عبد الله بن سبأ، وأمراء الفرق الأربعة هم: عبد الرحمن بن عديس البلوي، وكنانة بن بشر التجيبي، وسودان بن حمران السكوني، وقتيرة بن فلان السكوني، وأمير هؤلاء الأمراء هو الغافقي بن حرب العكي وكان عدد الفرق الأربعة ألف رجل، وخرج المتمردون من الكوفة ألف رجل، في أربع فرق، وأمراء فرقهم هم، زيد بن صوحان العبدى، والأشتر النخعي، وزباد بن النضر الحارثي، وعبد الله ابن الأصم، وأمير متمردى الكوفة هو عمرو بن الأصم، وخرج متمردو البصرة ألف رجل، في أربع فرق، وأمراء فرقهم هم: حكيم بن جبلة العبدى، وذريح بن عباد العبدى، ويشر بن شريح القيسي، وابن المحرش بن عبد الحنفى، وأمير متمردى البصرة هو حرقوض بن زهير السعدى، وكان عبد الله بن سبأ يسير مع هؤلاء مزهواً مسروراً، بنجاح خطته اليهودية الشيطانية، وكان أهل الفتنة من مصر يريدون على بن

(١، ٢) الخلفاء الراشدون، للخالدي، ص ١٥٩.

أبى طالب خليفة، وكان أهل الفتنة من الكوفة يريدون الزبير بن العوام خليفة، وكان أهل الفتنة من البصرة يريدون طلحة بن عبيد الله^(١)، وهذا العمل منهم كان بهدف الإيقاع بين الصحابة رضوان الله عليهم، وهو ما ذهب إليه الإمام الأجرى حيث قال: وقد برأ الله عز وجل على بن أبى طالب رضى الله عنه وطلحة والزبير رضى الله عنهم من هذه الفرق وإنما أظهروا ليموهوا على الناس وليوقعوا بين الصحابة، وقد أعاد الله الكريم الصحابة من ذلك^(٢).

وبلغ خبر قدومهم عثمان رضى الله عنه قبل وصولهم، وكان فى قرية خارج المدينة فلما سمعوا بوجوده فيها، اتجهوا إليه فاستقبلهم فيها، ولم تصرح لنا الروايات باسم هذه القرية، ويحدد المدائنى، تاريخ قدومهم بليلة الأربعاء هلال ذى القعدة^(٣)، وكان أول من وصل المصريين، فقالوا لعثمان: ادع بالمصحف فدعا به، فقالوا: افتح السابعة، وكان يسمون سورة يونس بالسابعة - فقرأ حتى أتى هذه الآية: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَدْنَى لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٧]. فقالوا له: قف، أرايت ما حميت من الحمى؟ الله أذن لك أم على الله تفتري؟ فقال: امضه نزلت فى كذا وكذا، فأما الحمى فإن عمر حماه قبلى لإبل الصدقة، فلما وليت رادت إبل الصدقة فزدت فى الحمى لما زاد من إبل الصدقة، امضه، قال: فاجعلوا يأخذونه بالآية، فيقول: امضه نزلت فى كذا فما يزيدون، فأخذوا ميثاقه وكتبوا عليه شرطاً، وأخذ عليهم ألا يشقوا عصا، ولا يفارقوا جماعة ما أقام لهم شرطهم، ثم رجعوا راضين^(٤).

• على بن أبى طالب يرسله عثمان للمفاوضة مع أهل الفتنة من الأمصار:

ونزل القوم فى ذى المروة، قبل مقتله بما يقارب شهراً ونصفاً، فأرسل عثمان إليهم علياً رضى الله عنه ورجلاً آخر لم تسمه الروايات والتقى بهم على رضى الله عنه

(١) تاريخ الطبرى (٣٥٧/٥).

(٢) استشهاد عثمان ووقعة الجمل، لخالد الغيث، ص ١١٨.

(٣) فتنة مقتل عثمان، د. محمد الغلبان (١٢٧/١).

(٤) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١٢٨/١).

فقال لهم: تعطون كتاب الله وتعتبون من كل ما سخطتم، فوافقوا على ذلك^(١)، وفي رواية أنهم شادوه، وشادهم مرتين أو ثلاثاً، ثم قالوا: ابن عم رسول الله ﷺ، ورسول أمير المؤمنين يعرض عليكم كتاب الله فقبلوا^(٢)، فاصطلحوا على خمس: على أن المنفى يقلب، والمحزوم يعطى، ويوفر الفىء، ويعدل فى القسم، ويستعمل ذو الأمانة والقوة، وكتبوا ذلك فى كتاب، وأن يرد ابن عامر على البصرة، وأن يبقى أبو موسى على الكوفة^(٣)، وهكذا اصطاح عثمان رضى الله عنه مع كل وفد على حدة ثم انصرفت الوفود إلى ديارها^(٤).

• الكتاب المزعوم بقتل وفد أهل مصر:

وبعد هذا الصلح وعودة أهل الأمصار جميعاً راضين تبين لمشعل الفتنة أن خطتهم قد فشلت، وأن أهدافهم الدينية لم تتحقق، لذا خططوا تخطيطاً آخر يذكى الفتنة ويحييها ويقتضى تدمير ما جرى من صلح بين أهل الأمصار، وعثمان رضى الله عنه وبرز ذلك فيما يأتى: فى أثناء طريق عودة أهل مصر، رأوا راكباً على جمل يتعرض لهم، ويفارقهم - يظهر أنه هارب منهم - فكانه يقول: خذونى فقبضوا عليه، وقالوا له: ما لك؟ فقال: أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر، ففتشوه فإذا هم بالكتاب على لسان عثمان رضى الله عنه وعليه خاتمه إلى عامله، فتحوا الكتاب فإذا فيه أمر بصلبهم أو قتلهم أو تقطيع أيديهم وأرجلهم، فرجعوا إلى المدينة حتى وصلوها^(٥)، ونفى عثمان رضى الله عنه أن يكون كتب هذا الكتاب، وقال لهم: إنهما اثنتان: أن تقيموا رجلين من المسلمين أو يمين بالله الذى لا إله إلا هو ما كتبت ولا أملت، ولا علمت، وقد يكتب الكتاب على لسان الرجل وينقش الخاتم، فلم يصدقوه^(٦).

وهذا الكتاب الذى زعم هؤلاء المتمردون البغاة المنحرفون أنه من عثمان، وعليه خاتمه يحمل غلامه على واحد من إبل الصدقة إلى عامله بمصر ابن أبى سرح، يأمر

(١) تاريخ دمشق ترجمة عثمان، ص ٣٢٨. وتاريخ خليفة، ص ١٦٩ - ١٧٠.

(٢) ٤ - ٢) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/١٢٩).

(٥) تاريخ الطبرى (٥/٣٧٩).

(٦) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (٥/١٣٢). والبداية والنهاية (٧/١٩١).

فيه بقتل هؤلاء الخارجين هو كتاب مزور مكذوب على لسان عثمان، وذلك لعدة أمور:

١ - أن حامل الكتاب المزور قد تعرض لهؤلاء المصريين ثم فارقهم وكرر ذلك مراراً، وهو لم يفعل ذلك إلا ليلفت أنظارهم إليه، ويشير شكوكهم فيه، وكأنه يقول لهم: معي شيء مهم بشأنكم! وإلا فلو كان من عثمان لخافهم حامل الكتاب المزعوم، ولأبعد عنهم وأسرع إلى وإلى مصر ليضع بين يديه الأمر، فينفذه.

٢ - كيف علم العراقيون بالأمر وقد اتجهوا إلى بلادهم، وفصلتهم عن المصريين، الذين أمسكوا بالكتاب المزعوم - مسافة شاسعة، فالعراقيون في الشرق والمصريون في الغرب، ومع ذلك عادوا جميعاً في آن واحد، كأنما كانوا على ميعاد؟ لا يعقل هذا إلا إذا كان الذين زوروا الكتاب واستأجروا ركباً ليحمله ويمثل الدور في (البويب) أمام المصريين، قد استأجروا ركباً آخر انطلق إلى العراقيين ليخبرهم بأن المصريين قد اكتشفوا كتاباً بعث به عثمان لقتل المنحرفين المصريين!! وهذا ما احتج به على ابن أبي طالب رضي الله عنه فقد قال: كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر، وقد سرتهم مراحل ثم طويتم نحونا^(١)، بل إن علياً يجزم: هذا والله أمر أبرم بالمدينة^(٢).

٣ - كيف يكتب عثمان إلى ابن أبي سرح بقتل هؤلاء، وابن أبي سرح كان عقب خروج المتمردين من مصر متجهين إلى المدينة كتب إلى الخليفة يستأذنه بالقدوم عليه، وقد تغلب على مصر محمد بن أبي حذيفة، وفعلاً خرج ابن أبي سرح من مصر إلى العريش وفلسطين فالعقبة، فكيف يكتب له عثمان بقتلهم، وعنده كتابه الذي يستأذنه به منه بالقدوم عليه؟

٤ - أن عثمان رضي الله عنه قد نهى عن قتل المتمردين عندما حاصروه، وأبى على الصحابة أن يدافعوا عنه، ولم يأمر بقتال الخارجين دفاعاً عن نفسه - كما سيأتي تفصيله إن شاء الله - فكيف يكتب مثل هذا الكتاب المزور وقد خرجوا عنه من المدينة

مظهرين التوبة والإنابة.

٥ - تخلف حكيم بن جبلة والأشتر النخعي - بعد خروج المتمردين - في المدينة، يشير إشارة واضحة إلى أنهما هما اللذان افتعلا الكتاب، إذ لم يكن لهما أى عمل بالمدينة ليتخلفا فيها، وما مكثا إلا لمثل هذا الغرض، فهما صاحبا المصلحة في ذلك^(١)؛ وربما كان ذلك بتوجيه من عبد الله بن سبأ، ولم يكن لعثمان رضى الله عنه في ذلك أية مصلحة، وكذلك ليس لمروان بن الحكم أية مصلحة، والذين يتهمون مروان في هذا إنما ينسبون إلى الخليفة الغفلة عن مهامه، وأن في ديوان الخلافة من يجرى الأمور ويقضى بها دون علمه، وبذلك يبرئون ساحة أولئك المجرمين الناقمين الغادرين، ثم لو أن مروان زور الكتاب لكان أوصى حامل ذلك الكتاب أن يتعد عن أولئك المنحرفين، ولا يتعرض لهم في الطريق حتى يأخذوه وإلا لكان متآمراً معهم على عثمان، وهذا محال

٦ - إن هذا الكتاب المشتم ليس أول كتاب يزوره هؤلاء المجرمون، بل زوروا كتباً على لسان أمهات المؤمنين، وكذلك على لسان على وطلحة والزبير، فهذه عائشة رضى الله عنها تتهم بأنها كتبت إلى الناس تأمرهم بالخروج على عثمان فتنفى وتقول: لا والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت لهم سوداء في بيضاء حتى جلست مجلسي هذا^(٢).

ويعقب الأعمش فيقول: فكانوا يرون أنه كتب على لسانها^(٣)، ويتهم الوافدون علياً بأنه كتب إليهم أن يقدموا عليه بالمدينة، فينكر ذلك عليهم ويقسم: والله ما كتبت إليكم كتاباً^(٤)، كما ينسب إلى الصحابة بكتابة الكتب إلى أهل الأمصار بأمرهمم بالقدوم إليهم، فدين محمد قد فسد وترك، والجهاد في المدينة خير من الرباط في الثغور البعيدة^(٥)، ويعلق ابن كثير على هذا الخبر قائلاً: وهذا كذب على

(١) عثمان بن عفان الخليفة الشاكر الصابر، ص ٢٢٧.

(٢) تحقيق مواقف الصحابة (١/٣٣٤).

(٣) تاريخ خليفة بن خياط، ص ١٦٩.

(٤، ٥) تحقيق مراقف الصحابة (١/٣٣٥).

الصحابه، وإنما كتبت كتب مزورة عليهم، فقد كتب من جهة علي وطلحة والزبير إلى الخوارج - قتلة عثمان - كتب مزورة عليهم أنكروها، وكذلك زور هذا الكتاب على عثمان أيضاً، فإنه لم يأمر به، ولم يعلم به^(١)، ويؤكد كلام ابن كثير ما رواه الطبري وخليفة من استنكار كبار الصحابة - علي وعائشة والزبير - أنفسهم لهذه الكتب في أصح الروايات^(٢)، إن الأيدي المجرمة التي زورت الرسائل الكاذبة على لسان أولئك الصحابة، هي نفسها التي أوقدت نار الفتن من أولها إلى آخرها، ورتبت ذلك الفساد العريض، وهي التي زورت وروجت على عثمان تلك الأباطيل، وأنه فعل وفعل، ولقنتها للناس، حتى قبلها الرعاع، ثم زورت على لسان عثمان ذلك الكتاب، ليذهب عثمان ضحية إلى ربه شهيداً سعيداً، ولم يكن عثمان الشهيد هو المجنى عليه وحده في هذه المؤامرة السبئية اليهودية، بل الإسلام نفسه كان مجنياً عليه قبل ذلك، ثم التاريخ المشوه المحرف، والأجيال الإسلامية التي تلقت تاريخها مشوهاً هي كذلك ممن جنى عليهم الخبيث اليهودي، وأعدائه من أصحاب المطامع والشهوات والحقد الدفين، أما أن للأجيال الإسلامية أن تعرف تاريخها الحق، وسير رجالها العظام؟ بل ألم بأن لمن يكتب في هذا العصر - من المسلمين - أن يخاف الله ولا يتجرأ على تجريح الأبرياء قبل أن يحقق ويدقق حتى لا يسقط كعبا سقط غيره^(٣).

ثانياً: بدء الحصار ورأى عثمان في الصلاة خلف أئمة الفتنة،

لم تفصل الروايات الصحيحة كيفية بدء الحصار، ووقوعه ولعل الأحداث التي سبقته تلقى شيئاً من الضوء على كيفية بدئه، فبينما كان عثمان رضي الله عنه يخطب الناس ذات يوم إذا برجل يقال له أعين^(٤)، يقاطعه ويقول له: يا نعثل^(٥)، إنك قد بدلت، فقال عثمان رضي الله عنه من هذا؟ فقالوا: أعين، قال عثمان: بل أنت أيها

(١) البداية والنهاية (١٧٥/٧).

(٢) تحقيق مواقف الصحابة (١/٣٣٥).

(٣) عثمان بن عفان الخليفة الشاكر الصابر، ص ٢٢٨، ٢٢٩.

(٤) أعين بن ضبيعة بن ناجية بن غفال التميمي الحنظلي النرمي.

(٥) هو لقب أطلقه الخوارجون على عثمان رضي الله عنه، وهذا اللقب أطلق من باب التنقيص.

العبد، فوثب الناس إلى أعين، وجعل رجل من بنى ليث يزعمهم عنه حتى أدخله الدار^(١)، وكان رجوع المتمردين الثانى، وقبل اشتداد الحصار كان عثمان رضى الله عنه يتمكن من الخروج للصلاة ودخول من شاء إليه، ثم منع الخروج من الدار حتى إلى الصلاة الفريضة^(٢)، فكان يصلى بالناس رجل من المحاصرين، من أئمة الفتنة، حتى إن عبيد الله بن عدى ابن الخيار تخرج من الصلاة خلفه، فاستشار عثمان فى ذلك، فأشار عليه أن يصلى خلفه، وقال له: الصلاة أحسن ما يعمل الناس، فإذا أحسن الناس فأحسن معهم، وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم^(٣)، وفى بعض الروايات الضعيفة أن الذى كان يصلى بالناس هو أميرهم الغافقى^(٤)، ولا صحة لما روى الواقدى من أن علياً رضى الله عنه أمر أيوب الأنصارى أن يصلى بالناس فصلى بهم أول الحصر، ثم صلى على رضى الله عنه بهم العيد وما بعده^(٥)، وإضافة إلى شدة ضعف إسناد هذه الرواية، فلو كان الذى يصلى بالناس هو على، أو أبو أيوب الأنصارى رضى الله عنهما لما تخرج عبيد الله بن عدى بن الخيار من الصلاة خلفهما^(٦).

ثالثاً: المفاوضات بين عثمان ومحاصريه:

وبعد أن تم الحصار، وأحاط الخارجون بدار عثمان رضى الله عنه، وطلبوا منه خلع نفسه أو يقتلوه^(٧)، ورفض عثمان رضى الله عنه خلع نفسه، وقال: لا أخلع سربالاً سربلنيه الله^(٨)، يشير إلى ما أوصاه به رسول الله ﷺ، بينما كان قلة من الصحابة - رضوان الله عليهم - يرون خلاف ما ذهب إليه وأشار عليه بعضهم بأن

(١) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/١٤٣)، وتاريخ دمشق ترجمة عثمان، ٢٤٧، إسناده حسن. وزعمهم: كفهم.

(٢) تاريخ دمشق، ترجمة عثمان ٣٤١ - ٣٤٢، إسناده حسن.

(٣) البخارى، كتاب الصلاة رقم ١٩٢.

(٤) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/١٤٥).

(٥) تاريخ الطبرى (٥/٤٤٤).

(٦) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/١٤٥).

(٧) الطبقات، لابن سعد (٣/٦٦). وتاريخ خليفة الخياط، ص ١٧١.

(٨) التمهيد، ص ٤٦ - ٤٧.

يخلع نفسه ليعصم دمه، ومن هؤلاء المغيرة بن الأخنس رضي الله عنه، لكنه رفض ذلك^(١).

١ - ابن عمر يبحث عثمان على عدم التنازل عن منصب الخلافة:

دخل ابن عمر على عثمان رضي الله عنه أثناء حصاره فقال له عثمان رضي الله عنه: انظر إلى ما يقول هؤلاء، يقولون اخلعها ولا تقتل نفسك، فقال ابن عمر رضي الله عنه: إذا خلعتها أمخلد أنت في الدنيا؟ فقال عثمان رضي الله عنه: لا، قال فإن لم تخلعها هل يزيدون على أن يقتلوك؟ قال عثمان: لا، قال فهل يملكون لك جنة أو ناراً؟ قال: لا، قال فلا أرى لك أن تخلع قميصاً قمصكه الله فتكون سنة كلما كره قوم خليفتهم أو إمامهم قتلوه^(٢).

رضي الله عن عبد الله بن عمر، ما كان أبعد نظره، إنه لا يريد أن يسن عثمان سنة سيئة للخلفاء - وحاشا لعثمان أن يفعل - فلو تنازل عثمان لهؤلاء الخوارج السبيين، وخلع نفسه، لصار الخلفاء العوبة وملهاة بأيدي الطامعين أو المغرضين، وبذلك تهتز صورة الخليفة، وتزول هيئته عند الناس، ولقد سن عثمان سنة حسنة لمن بعده بمشورة ابن عمر وغيره من الصحابة رضوان الله عليهم، حيث صبر واحتسب، فلم يتنازل عن الخلافة، ولم يسفك دماء المسلمين^(٣).

إن الاستجابة لمطالب المتمردين - وهم فئة قليلة من الأمة، ليسوا من أهل الحل والعقد، ولا من رجالات الإسلام وفقهاء الشريعة ستكون لها آثار خطيرة على مسيرة الأمة، وهيبة الخلافة، وعلاقة الراعي بالرعية، وكان ثمن دفع هذه الآثار السيئة أن دفع الخليفة حياته، وهو يعلم بمصيره، ويستسلم له وهو أمر ثقيل على النفس ولكنه قدم مصالح الأمة على مصلحته الشخصية، مما يكشف عن قوة وعزيمة، وشجاعة ومضاء، ويرد به على تلك التهم التي وجهت إليه من ضعف في هذه الصفات، فإنه

(١) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/١٤٧).

(٢) فضائل الصحابة (١/٤٧٣) إسناده صحيح.

(٣) الخلفاء الراشدون، للبخاري، ص ١٧٩.

رضى الله عنه كان قادراً بإذن الله على كبح الفتنة، ولكنه قدر حدوث مفاصد تغلب على مصلحة كبجها، فأعرض عن ذلك درءاً لها، وبذلك يعلم خطأ العقاد عندما قال بأن قتل عثمان: لا يوصف بأكثر من أنه (مشاغبة دهماء) لم تجد من يكبحها^(١)، فإن في ذلك غمزاً في شخصية وشجاعة عثمان رضى الله عنه، وهى حقاً فتنة دهماء، ولكن عدم كبجها يعد منقبة لعثمان رضى الله عنه لما فيه من تضحية في سبيل الله، رجاء تحصيل مصلحة للأمة، وعملاً بوصية رسول الله ﷺ^(٢).

٢ - تواعد المحاصرين له بالقتل:

وبينما كان عثمان رضى الله عنه فى داره، والقوم أمام الدار محاصروها دخل ذات يوم مدخل الدار، فسمع تواعد المحاصرين له بالقتل، فخرج من المدخل، ودخل على من معه فى الدار ولونه ممتقع فقال: إنهم ليتواعدوننى بالقتل آنفاً، فقالوا له: يكفيكم الله يا أمير المؤمنين فقال: ولم يقتلوننى؟ وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يحل دم امرئ مسلم إلا فى إحدى ثلاث: رجل كفر بعد إيمانه، أو زنى بعد إحصائه، أو قتل نفساً بغير نفس، فوالله ما زنت فى جاهلية ولا فى إسلام قط، ولا تمنيت أن لى بدينى بدلاً منذ هدانى الله، ولا قتلت نفساً، فقيم يقتلوننى^(٣)؟

ثم أشرف على المحاصرين، وحاول تهدئة ثورتهم وثنيتهم عن خروجهم على إمامهم، مضمناً كلامه الرد على ما عابوه به، وكشف الحقائق التى لبسها القوم، عسى أن يفيق المغرر بهم ويعودوا إلى رشدهم، فطلب من المحاصرين أن يخرجوا له رجلاً يكلمه، فأخرجوا له شاباً يقال له: صعصعة بن صوحان، فطلب عثمان رضى الله عنه أن يبين له ما نقموه عليه^(٤).

(١) ذو النورين عثمان بن عفان، ص ١٢٢.

(٢) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/١٤٩).

(٣) المسند (٦٣/١) وقال أحمد شاعر (٤٥٢): إسناده صحيح.

(٤) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/١٥٠).

٣ - إقامة عثمان الحجة على زيف استدلال صمصعة:

قال صمصعة: أخرجنا من ديارنا بغير حق إلا أن قلنا ربنا الله، فقال له عثمان رضي الله عنه: اتل أي: استدل بالقرآن فقرا: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]. فقال عثمان: ليست لك، ولا لأصحابك، ولكنها لي ولأصحابي فقرا عثمان الآية التي استدل بها صمصعة، وما بعدها مما يفسرها ويبين زيف استدلال صمصعة بها فتلا: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بغير حقٍ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكِنَّ اللَّهَ عَظِيمٌ يُدْرِكُ الْأَشْيَاءَ بِحُسْنِ الْبَصَرِ إِنَّ اللَّهَ لَفَوْيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ [الحج: ٣٩ - ٤١]. فأفهم عثمان رضي الله عنه الناس الآيات فهما صحيحا كما نزلت، ميئا سبب نزولها، وفيمن نزلت، وعلى ما تدل، لئلا يلبس عليهم من قرأ القرآن، وهو لا يعرف معناه ويستدل به على ما يضاد مراده^(١)، كما أن نفى عثمان لمن نفاه إنما هو عمل بالآية التي تلى الآية التي استدل بها صمصعة، فإنها تأمر من مكنته الله في الأرض، أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وعثمان خليفة، ونفيهم أمر بالمعروف ونهى عن المنكر لما قاموا به من تعد على بعض المسلمين، ومن محاولات لإثارة الفتنة^(٢).

٤ - تذكير عثمان رضي الله عنه الناس بفضائله:

وبعد أن رد عثمان رضي الله عنه على هؤلاء، ذكر الناس بمكانته وبععض فضائله مناشداً من يعلمها أو سمعها من رسول الله ﷺ لبيئها للناس، فقد قال: أنشد الله من شهد رسول الله ﷺ يوم حراء إذ اهتز الجبل فركله بقدمه ثم قال: اسكن حراء ليس عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد وأنا معه^(٣)، فانتشد له رجال. ثم قال: أنشد الله

(١) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١٥١/١).

(٢) المصدر نفسه (١٥٢/١).

(٣) روى مسلم نحوه، كتاب فضائل الصحابة حديث (٢٤١٧)، ولفظ أنه ﷺ كان على جبل حراء =

من شهد رسول الله يوم بيعة الرضوان إذ بعثنى إلى المشركين إلى أهل مكة فقال: هذه يدى وهذه يد عثمان، فبايع لى، فانتشد له رجال. ثم قال: أنشد الله من شهد رسول الله ﷺ قال: من يوسع لنا لهذا البيت فى المسجد بيت له فى الجنة. فابتعته من مالى فوسعت به المسجد، فانتشد له رجال. ثم قال: أنشد الله من شهد رسول الله ﷺ يوم جيش العسرة قال: من ينفق اليوم نفقة متقبلة؟ فجهزت نصف الجيش من مالى، فانتشد له رجال. ثم قال: أنشد الله من هد رومة يباع ماؤها ابن السبيل فابتعتها من مالى فأبعتها ابن السبيل قال: فانتشد له رجال^(١)، وعن أبى ثور الفهمى يقول: قدمت على عثمان فينا أنا عنده فخرجت فإذا بوفد أهل مصر قد رجعوا، فدخلت على عثمان فأعلمته، قال: فكيف رأيتمهم؟ فقلت: رأيت فى وجوههم الشر، وعليهم ابن عديس البلوى، فصعد ابن عديس منبر رسول الله ﷺ فصلى بهم الجمعة، وتنقص عثمان فى خطبته، فدخلت على عثمان فأخبرته بما قال فيهم، فقال: كذب والله ابن عديس، ولولا ما ذكر ما ذكرت، إني رابع أربعة فى الإسلام، ولقد أنكحنى رسول الله ﷺ ابنته ثم توفيت، فأنكحنى ابنته الأخرى، ولا زينة ولا سرقت فى جاهلية ولا إسلام، ولا تغنيت ولا تمنيت منذ أسلمت، ولا مست فرجى يمينى منذ بايعت بها رسول الله، ولقد جمعت القرآن على عهد رسول الله، ولا أتت على جمعة إلا وأنا أعتق فيها رقبة منذ أسلمت، إلا أن لا أجدها فى تلك الجمعة، فأجمعها فى الجمعة الثانية^(٢).

ولما رأى عثمان رضى الله عنه إصرار المتبردين على قتله، حذرهم من ذلك ومن مغبته، فاطلع عليهم من كوة^(٣)، وقال لهم: أيها الناس، لا تقتلونى واستعقبونى، فوالله لئن قتلتمونى لا تقاتلوا جميعاً أبداً، ولا تجاهدون عدواً أبداً، لتختلفن حتى

= بمكة هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير - وفى رواية سعد بن أبى وقاص رضى الله عنهم، تنحرك فقال ﷺ: «اسكن حراء فما عليك إلا نبى أو صديق أو شهيد» وهو من معجزاته ﷺ.

(١) المسند (٥٩/١) وقال أحمد شاكر (٤٢٠): إسناده صحيح.

(٢) المعرفة والتاريخ (٤٨٨/٢). وخلافة عثمان بن عفان، للسلمى، ص ٩١.

(٣) الكوة: الخرق فى الحائط.

تصيروا هكذا، وشبك بين أصابعه^(١)، وفي رواية أنه قال: أيها الناس لا تقتلونني فإني وإلّا وأخ مسلم، فوالله إن أردت إلا الإصلاح ما استطعت، أصبت أو أخطأت، وإنكم إن تقتلونني لا تصلوا جميعاً أبداً، ولا تغزوا جميعاً أبداً، ولا يقسم فيكم بينكم^(٢)، وقال أيضاً: فوالله لئن قتلوني لا يحابون بعدى أبداً، ولا يقاتلون بعدى عدواً أبداً^(٣)، وقد تحقق ما حذرهم منه، فبعد قتله وقع كل ما قاله رضي الله عنه وفي ذلك يقول الحسن البصري: فوالله إن صلى القوم جميعاً إن قلوبهم لمختلفة^(٤).

رابعاً: دفاع الصحابة عن عثمان رضي الله عنه ورفضه لذلك:

أرسل عثمان رضي الله عنه إلى الصحابة رضي الله عنهم يشاورهم في أمر المحاصرين وتوعدهم إياه بالقتل، فكانت مواقفهم كالآتي:

١ - علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

فقد أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن علياً أرسل إلى عثمان فقال: إن معي خمسمائة دارع، فأذن لي فأمنعك من القوم، فإنك لم تحدث شيئاً يستحل به دمك، فقال: جزيت خيراً، ما أحب أن يهراق دم في سببي^(٥).

٢ - الزبير بن العوام رضي الله عنه:

عن أبي حبيبة^(٦)، قال: بعثني الزبير إلى عثمان - وهو محاصر - فدخلت عليه في يوم صائف، وهو على كرسي، وعنده الحسن بن علي، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، فقلت: بعثني إليك الزبير بن العوام وهو يقرئك السلام ويقول لك: إني على طاعتي، لم أبدل ولم أنكث، فإن شئت دخلت الدار معك، وكنت رجلاً من القوم، وإن شئت أقمت، فإن بني عمرو بن عوف وعدوني أن

(١) الطبقات (٧١/٣). وتاريخ ابن خياط، ص ١٧١ إسناده صحيح.

(٢) الطبقات (٦٧/٣ - ٦٨). وفتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١٥٦/١).

(٣) تاريخ ابن خياط، ص ١٧١. وفتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١٥٧/١) إسناده حسن.

(٤) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١٥٧/١).

(٥) تاريخ دمشق، ص ٤٠٣.

(٦) هو أبو حبيبة مولى الزبير بن العوام، روى عن الزبير، وسمع أبا هريرة وعثمان محصور.

يصبحوا على بابي، ثم يمضون على ما أمرهم به، فلما سمع - يعنى عثمان - الرسالة قال: الله أكبر الحمد لله الذى عصم أخى، أقرئه السلام، ثم قل له: أحب إلى وعسى الله أن يدفع بك عني، فلما قرأ الرسالة أبو هريرة قام فقال: ألا أخبركم ما سمعت أذنأى من رسول الله ﷺ؟ قالوا: بلى قال: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: تكون بعدى فتن وأمور فقلنا، فأين المنجى منها يا رسول الله؟ قال: إلى الأمين وحزبه، وأشار إلى عثمان بن عفان، فقام الناس فقالوا: قد أمكتنا البصائر، فأذن لنا فى الجهاد؟ فقال: أعزم على من كانت لى عليه طاعة ألا يقاتل^(١).

٣ - المغيرة بن شعبة رضى الله عنه:

فقد ورد أن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه دخل عليه - وهو محاصر - فقال: إنك إمام العامة، وقد نزل بك ما ترى وإنى أعرض عليك خصالاً ثلاثاً، اختر إحداهن: إما أن تخرج فتقاتلهم، فإن معك عدداً وقوة، وأنت على الحق وهم على الباطل، وإما أن تخرق باباً سوى الباب الذى هم عليه، فتقعد على رواحلك فتلحق بمكة، فإنهم لن يستحلوك بها، وإما أن تلحق بالشام فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية، فقال عثمان: إما أن أخرج فأقاتل، فلن أكون أول من خلف رسول الله ﷺ فى أمته بسفك الدماء، وإما أن أخرج إلى مكة فإنهم لن يستحلوني، فإننى سمعت رسول الله ﷺ يقول: يلحد رجل من قريش بمكة يكون عليه نصف عذاب العالم، ولن أكون أنا، وإما أن ألحق بالشام فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية فلن أفارق دار هجرنى ومجاورة الرسول ﷺ^(٢).

٤ - عبد الله بن الزبير رضى الله عنه:

عزم الصحابة رضى الله عنهم على الدفاع عن عثمان رضى الله عنه، ودخل بعضهم الدار، ولكن عثمان رضى الله عنه عزم عليهم بشدة، وشدد عليهم فى الكف عن القتال دفاعاً عنه مما حال بين رغبتهم الصادقة فى الدفاع عنه وبين تحقيقها، وكان

(١) فضائل الصحابة (١/٥١١ - ٥١٢) إسناده صحيح.

(٢) البداية والنهاية (٧/٢١١).

من ضمن أولئك عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما فقد قال لعثمان رضي الله عنه: قاتلهم فوالله لقد أحل الله لك قتالهم، فقال عثمان: لا والله لا أقاتلهم أبداً^(١).

وفى رواية: يا أمير المؤمنين، إنا معك في الدار عصابة مستبصرة، ينصر الله بأقل منها، فأذن لنا، فقال عثمان رضي الله عنه: أنشد الله رجلاً أهرق في دمه^(٢) ثم أمره على الدار، وقال: من كانت لي عليه طاعة فليطع عبد الله بن الزبير^(٣).

٥ - كعب بن مالك، وزيد بن ثابت الأنصاريان رضي الله عنهما:

حدث كعب بن مالك رضي الله عنه الأنصار على نصرة عثمان رضي الله عنه وقال لهم: يا معشر الأنصار كونوا أنصار الله مرتين، فجاءت الأنصار عثمان ووقفوا بابه، ودخل زيد بن ثابت رضي الله عنه وقال له: هؤلاء الأنصار بالباب، إن شئت كنا أنصار الله مرتين^(٤)، فرفض القتال وقال: لا حاجة لي في ذلك كفوا^(٥).

٦ - الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

وجاء الحسن بن علي - رضي الله عنهما - وقال له: اخترط سيفي؟ قال له: لا، أبرأ^(٦) الله إذا من دمك، ولكن ثم^(٧) سيفك وارجع إلى أبيك^(٨).

٧ - عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما:

ولما رأى الصحابة أن الأمر استفحل، وأن السيل بلغ الزبي^(٩)، عزم بعضهم على

(١) الطبقات ابن سعد (٧٠/٣) إسناده صحيح.

(٢) المصدر نفسه (٧٠/٣) وتاريخ ابن خياط، ص ١٧٣.

(٣) المصدر نفسه (٧٠/٣) إسناده صحيح إلى عبد الله بن الزبير.

(٤) الطبقات ابن سعد (٧٠/٣)، وفتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/١٦٢).

(٥) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/١٦٢).

(٦) هكذا في الأصل ولعلها (أبرأ إلى الله).

(٧) هكذا في الأصل والشم هو: إصلاح الشيء وإحكامه، لسان العرب (٧٩/١٢) ويحتمل أن تكون

مصحفة من شم، والشم هو: إعادة السيف.

(٨) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/١٦٢). والمصنف لابن أبي شيبة (٢٢٤/١٥).

(٩) بلغ الماء الزبي أو الربي، ويروى بلغ السيل الزبي أو الربي، والزبي: جمع زبية الأسد، وهي حفرة =

الدفاع عنه دون استشارته، فدخل بعضهم الدار مستعداً للقتال، فقد كان ابن عمر معه فى الدار، متقلداً سيفه لابساً درعه ليقاتل دفاعاً عن عثمان رضى الله عنه، ولكن عثمان عزم عليه أن يخرج من الدار خشية أن يتقاتل مع القوم عند دخولهم عليه فيقتل. كما لبسه مرة أخرى^(١).

٨ - أبو هريرة رضى الله عنه:

ودخل الدار على عثمان رضى الله عنه يقول: يا أمير المؤمنين طاب أمضرب^(٢)، فقال له: يا أبا هريرة أسرك أن تقتل الناس جميعاً وإياي؟ قال: لا، قال: فإنك والله إن قتلت رجلاً واحداً فكأنما قتل الناس جميعاً، فرجع ولم يقاتل، وفى رواية: أن أبا هريرة كان متقلداً سيفه حتى نهاء عثمان^(٣).

٩ - سليط بن سليط:

قال: نهانا عثمان رضى الله عنه عن قتالهم، ولو أذن لنا لضربناهم حتى نخرجهم من أقطارها^(٤).

ويقول ابن سيرين: كان مع عثمان رضى الله عنه فى الدار سبعمائة، لو يدهم لضربوهم - إن شاء الله - حتى يخرجوهم من أقطارها، منهم ابن عمر، والحسن بن على، وعبد الله بن الزبير، ويقول أيضاً: لقد قتل عثمان - يوم قتل - وإن الدار لغاصة، منهم ابن عمر وفيهم الحسن بن على فى عنقه السيف، ولكن عثمان عز عليهم ألا يقاتلوا^(٥).

وبذلك يظهر زيف ما اتهم به الصحابة مهاجرين وأنصاراً من تخاذل عن نصرة

= تحفر له فى مكان مرتفع ليصطاد، فإذا بلغ الماء فهو المجهف، الربا جمع ربة وهذا المثل يضرب فى الشر الفظيع، المستقى فى أمثال العرب للزمخشري (١٤/٢).

(١) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١٦٣/١).

(٢) الميم بدل اللام، فأصلها (الضرب) وهى لغة لبعض أهل اليمن.

(٣) تاريخ خليفة بن خياط، ص ١٦٤.

(٤) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١٦٥/١).

(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر، ترجمة عثمان، ص ٣٩٥.

عثمان رضي الله عنه، وكل ما روى في ذلك، فإنه لا يسلم من علة إن لم تكن عللاً قاذحة في الإسناد والمتن جميعاً^(١).

١٠ - عرض بعض الصحابة على عثمان مساعدته في الخروج إلى مكة:

ولما رأى بعض الصحابة إصرار عثمان رضي الله عنه على رفض قتال المحاصرين، وأن المحاصرين مصرون على قتله، لم يجدوا حيلة لحمايته سوى أن يعرضوا عليه مساعدته في الخروج إلى مكة هرباً من المحاصرين، فقد روى أن عبد الله بن الزبير، والمغيرة بن شعبة، وأسامة بن زيد، عرضوا عليه ذلك، وكان عرضهم متفرقاً، فقد عرض كل واحد منهم عليه ذلك على حدة، وعثمان رضي الله عنه يرفض كل هذه العروض^(٢).

• الأسباب التي دعت عثمان إلى منع الصحابة من القتال:

يظهر للباحثين من خلال روايات الفتنة أن هناك أسباباً خمسة هي:

١ - العمل بوصية رسول الله ﷺ التي سار به، وبينها عثمان رضي الله عنه يوم الدار، وأنها عهدٌ عهدٌ به إليه وأنه صابر نفسه عليه^(٣).

٢ - ما جاء في قوله: لن أكون أول من خلف رسول الله ﷺ في أمته بسفك الدماء، أي كره أن يكون أول من خلف رسول الله ﷺ في أمته بسفك دماء المسلمين^(٤).

٣ - علمه بأن البغاة لا يريدون غيره، فكره أن يتوقى بالمؤمنين، وأحب أن يقيهم بنفسه^(٥).

٤ - علمه بأن هذه الفتنة فيها قتله، وذلك فيما أخبره بها رسول الله ﷺ عند تبشيره إياه بالجنة على بلوى تصيبه، وأنه سيقتل مصطبراً بالحق معطيه في فتنة،

(١)، (٢) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/١٦٦).

(٣) فضائل الصحابة (١/٦٠٥) إسناده صحيح.

(٤) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/١٦٧). و(المستدرك ١/٣٩٦) أحمد شاكر.

(٥) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/١٦٧) وإسناد الرواية فيه ضعف.

والدلائل تدل على أن أوانها قد حان، وأكد ذلك تلك الروايات التي رآها ليلة قتله فقد رأى رسول الله ﷺ، وقال له أفطر عندنا القابلة، ففهم رضى الله عنه أن موعد الاستشهاد قد قرب.

٥ - العمل بمشورة ابن سلام رضى الله عنه له إذ قال له: الكف الكف فإنه أبلغ لك في الحجة^(١).

وتحقق إخبار النبي ﷺ، بأن عثمان رضى الله عنه سوف يقتل وذلك فيما رواه عبد الله بن حوالة رضى الله عنه^(٢) عن النبي ﷺ قال: من نجا من ثلاث فقد نجا - ثلاث مرات - موتى والدجال وقتل خليفة، مصطبر بالحق معطيه^(٣).

وفيما تقدم يتبين هدوءه في التفكير رضى الله عنه وأن شدة البلوى لم تحل بينه وبين ذلك التفكير الصحيح، والرأى السليم، فقد تضافرت الأسباب لتحديد هذا الموقف المسالم في قتال الخارجين عليه، ولا شك أنه رضى الله عنه كان على الحق في مواقفه التي اتخذها، لما صح عن النبي ﷺ أنه أشار إلى وقوع هذه الفتنة، وشهد لعثمان، وأصحابه أنهم على الحق فيها^(٤).

قال ابن تيمية - رحمه الله -: ومن المعلوم بالتواتر أن عثمان كان من أكف الناس عن الدماء، وأصبر الناس عن من نال من عرضه، وعلى من سعى في دمه فحاصروه وسعوا في قتله، وقد عرف إرادتهم لقتله، وقد جاء المسلمون ينصرونه، ويشيرون عليه بقتالهم، وهو يأمر الناس بالكف عن القتال ويأمر من يطيعه أن لا يقاتلهم... وقيل له: تذهب إلى مكة، فقال: لا أكون ممن ألد في الحرم، ف قيل له: تذهب إلى الشام، فقال: لا أفارق دار هجرتي، ف قيل له: فقاتلهم فقال: لا أكون أول من خلف محمداً في أمته بالسيف، فكان صبر عثمان حتى قتل من أعظم فضائله عند المسلمين^(٥).

(١) الطبقات (٧١/٣) إسناده حسن.

(٢) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١٦٨/١)، إسناده حسن أو صحيح.

(٣) المسند (٤١٩/٤) (٣٤٦/٥)، تحقيق: أحمد شاكر.

(٤) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١٦٨/١). انظر الأحاديث الصحيحة التي ذكرتها في فضائله وإخبار النبي ﷺ عن قتله في هذا الكتاب.

(٥) منهاج السنة (٢٠٢/٣ - ٢٠٣).

خامساً: موقف أمهات المؤمنين وبعض الصحابييات:

١ - أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها:

كان موقف السيدة أم المؤمنين، أم حبيبة من المواقف البالغة الخطر في هذه الأحداث، وهو موقف كان من الخطورة بحيث كادت رضي الله عنها أن تقتل فيه، ذلك أنه لما حوَّصر عثمان رضي الله عنه ومنع عنه الماء، سرح عثمان ابنا لعمر بن حزم الأنصاري - من جيران عثمان - إلى على بأنهم قد منعونا الماء فإن قدرتم أن ترسلوا إلينا شيئاً من الماء فافعلوا. وإلى طلحة وإلى الزبير وإلى عائشة وأزواج النبی ﷺ فكان أولهم إجماعاً له على وأم حبيبة^(١)، وكانت أم حبيبة معنية بعثمان، كما قال ابن عساکر، وكان هذا طبيعياً منها حيث النسب الأموي الواحد، جاءت أم حبيبة، فضربوا وجه بغلتها، فقالت: إن وصايا بني أمية إلى هذا الرجل، فأحييت أن ألقاه فأسأله عن ذلك كيلا تهلك أموال أيتام وأرامل. قالوا: كاذبة، وأهروا لها وقطعوا جبل البغلة بالسيف، فندت^(٢)، بأم حبيبة، فتلقاها الناس وقد مالت راحلتها، فتعلقوا بها، وأخذوها وقد كادت تقتل، فذهبوا بها إلى بيتها^(٣)، ويبدو أنها رضي الله عنها أمرت ابن الجراح، مولاهما أن يلزم عثمان رضي الله عنه، فقد حدثت أحداث الدار، وكان ابن الجراح حاضراً^(٤).

٢ - صفية زوجة رسول الله ﷺ:

وما فعلته السيدة أم حبيبة فعلت مثله السيدة صفية رضي الله عنها، فلقد روى عن كنانة^(٥)، قال: كنت أقود بصفية لترد على عثمان، فلقيها الأشر^(٦)، فضرب وجه بغلتها حتى مالت: فقالت: ذروني، لا يفضحنى هذا! ثم وضعت خشباً من منزلها

(١) دور المرأة السياسي، أسماء محمد، ص ٣٤٠.

(٢) ند البعير ونحوه نداء، وندوداً: نعر وشرد.

(٣) تاريخ الطبري نقلاً عن دور المرأة السياسي، ص ٣٤٠.

(٤) تاريخ المدينة (٢/٢٩٨).

(٥) كنانة بن عدى بن ربيعة بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف العبدشمي.

(٦) دور المرأة السياسي، ص ٣٤٠.

إلى منزل عثمان تنقل عليه الطعام والماء^(١).

٣ - عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها:

ولما حدث ما حدث للسيدة أم حبيبة أعظمه الناس جدًا، فخرجت عائشة رضى الله عنها من المدينة وهى ممثلة غيظًا على المتمردين، وجاءها مروان بن الحكم فقال: أم المؤمنين، لو أقمت كان أجدر أن يراقبوا هذا الرجل: فقالت: أتريد أن يصنع بى كما صنع بأم حبيبة، ثم لا أجد من يمنعنى! لا والله، لا أعير^(٢)، ولا أدرى إلام يسلم أمر هؤلاء^(٣)، ورأت رضى الله عنها أن خروجها ربما كان معيّنًا فى فض هذه الجموع كما سيتضح من الرواية الآتية بعد، وتجهزت أمهات المؤمنين إلى الحج هربًا من الفتنة، على أن خروجهن لم يكن تنزهًا عن ملابس الفتنة وحسب، ولم يكن هربًا محضًا، وإنما كان محاولة منهن لتخليص عثمان رضى الله عنه من أيدي هؤلاء المفتونين، الذين كان منهم محمد بن أبى بكر، أخو السيدة عائشة رضى الله عنها، الذى حاولت أن تستبّعه معها إلى الحج فأبى، ولقد دلل على هذه المحاولة منها أن استبّاعها له، ورفضه كانا لافتين للنظر حتى إن حظلة الكاتب^(٤)، قد هاله رفض محمد لأن يتبع أم المؤمنين، وقارن بين هذا الرفض وبين متابعتها لأهل الأمصار، قائلاً: يا محمد تدعوك أم المؤمنين فلا تتبعها وتدعوك ذؤبان^(٥) العرب إلى ما لا يحل فتتبعهم، فأبى، فقالت السيدة عائشة: أما والله لو استطعت أن يحرمهم الله ما يجولون لأفعلن^(٦). وهذا القول منها، بعدما حاولته مع أخيها، دليل على أنها قد بدأت محاولتها لفض الثائرين عن عثمان، ولإثارة الرأى العام عليهم منذ بدأ تفكيرها فى الذهاب إلى مكة، وهذا هو ما أكد عليه الإمام ابن العري، قال: إنه يروى أن

(١) سير أعلام النبلاء (٢/٢٣٧).

(٢) أعير: من العار. ولقد يبدى هذا التعبير أن الحالة التى وضع فيه الغوغاء السيدة أم حبيبة كانت شديدة الإيلام.

(٣) تاريخ الطبرى (٥/٤٠١).

(٤) حظلة بن ربيع التميمى، كان يكتب الوحى لرسول الله ﷺ فسمى الكاتب.

(٥، ٦) تاريخ الطبرى (٥/٤٠١).

تغييبهم - تغييب أمهات المؤمنين مع عدد من الصحابة - كان قطعاً للشغب بين الناس، رجاء أن يرجع الناس إلى أمهاتهم، وأمهات المؤمنين، فيرعوا حرمة نبيهم (١) ويستمعوا إلى كلمتهن التي طالما كانوا يقصدونها من كل الآفاق (٢).

أى أن خروجهم كان نوعاً من التفريق لهذه الجموع، حيث كان معروفاً عند الناس التماس رأيهن، وفتاواهن، وكُنَّ رضوان الله عليهن لا يتصورن أن يصل الأمر بهؤلاء الناس إلى قتل الخليفة رضي الله عنه (٣).

٤ - مواقف للصحابيات:

أ - وقد حاولت أسماء بنت عميس نفس المحاولة التي حاولتها أم المؤمنين عائشة، فبعثت إلى ابنها، محمد بن أبي بكر، ومحمد بن جعفر (٤) فقالت: إن المصباح يأكل نفسه ويضيء للناس، فلا تأثما في أمر تسوقانه إلى من لا يأثم فيكما، فإن هذا الأمر الذي تحاولون اليوم لغيركم غداً، فاتقوا أن يكون عملكم اليوم حسة عليكم، فلجاً وخرجاً مغضبين يقولان: لا ننسى ما صنع بنا عثمان، وتقول: ما صنع بكما! ألا ألزمكما الله (٥)، وقيل: الحديث كان بين ليلي بنت أسماء وأخويها (٦).

وهي في ذلك تشير إلى أنه لما جاء أهل الأمصار، وكروا راجعين إلى المدينة، بعدما كانوا ناظروا عثمان رضي الله عنه فناظرهم، وأقام عليهم الحجة، فأظهروا أنهم راجعون إلى بلادهم، ثم ما لبثوا أن عادوا بدعوى أن عثمان رضي الله عنه بعث رسلاً في قتل أناس كان منهم حسب دعواه: محمد بن أبي بكر (٧)، ولعل هذا هو ما يشير إليه محمد بن أبي بكر في قوله: لا ننسى ما صنع بنا عثمان، وقد نفى عثمان

(١) العواصم من القواصم، ص ١٥٦.

(٢) دور المرأة السياسي، ص ٣٤٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٤٣.

(٤) محمد بن جعفر بن أبي طالب، أمه أسماء بنت عميس الخثعمية، ولد بأرض الحبشة، شهد صفين مع علي، وكان مع أخيه محمد بمصر لما قتل.

(٥) ٦، تاريخ الطبري (٢٠٢/٥).

(٧) دور المرأة السياسي، ص ٣٤٣.

رضي الله عنه نسبة هذا الكتاب إليه، وقال: إما أن تقيموا شاهدين علىّ بذلك، وإلا فيميني: أني ما كتبتُ ولا أمرتُ، وقد يكتب على لسان الرجل ويُضرب على خطه، ويُنقش على خاتمته^(١).

لقد كانت السيدة أسماء رضي الله عنها واعية بما يجري من تدبير خفي لزعة أحوال المسلمين، وتنحية عثمان رضي الله عنه عن الخلافة، وهكذا فإن موقفها رضي الله عنها، من ابنها، ووضوح الأمر عندها على هذا النحو الذي جعلها لا تتأثر في مقام الأمومة، ولا تبدو إلا مُحِقّة للحق في هذا الموقف الواضح، هذا الموقف لا يستهان به ولا شك، وهو يعد صورة جلية لعدالة هؤلاء الصحابة الكرام^(٢).

ب- الصعبة بنت الحضرمي:

ولما اشتد حصار عثمان رضي الله عنه طلبت الصعبة بنت الحضرمي من ابنها طلحة ابن عبيد الله أن يكلم عثمان كي يردعه عن إصراره على إسلامه نفسه دون مدافعة من الصحابة، واستنصار بأهل الأمصار، فقد خرجت الصعبة بنت الحضرمي، وقالت لابنها طلحة بن عبيد الله: إن عثمان اشتد حصره، فلو كلمته حتى تردعه^(٣)، والرواية يبدو منها إشفاق الصعبة على عثمان رضي الله عنه، كما يبدو منها كذلك عناية أم عبد الله بن رافع بالأمر، ومتابعتها لما يجري من أحداث الفتنة^(٤)، وهي التي روت عن الصعبة بنت الحضرمي الحادثة^(٥).

هذا هو الموقف العام لنساء المسلمين فقد كان موقفًا معتدلاً وقادراً على النظر السليم في المسألة رغم الغيوم التي كانت ملتبسة بها، وهو على كل حال كان هذا موقف الصحابة جميعاً رضي الله عنهم وأرضاهم^(٦).

(١) العواصم من القواصم، ص ١٢٠.

(٢) دور المرأة السياسي، ص ٣٤٤.

(٣ - ٥) دور المرأة السياسي، ص ٣٤٥.

(٦) المصدر نفسه، ص ٣٤٥، ٣٤٦.

سادساً، من حج بالناس ذلك العام؟ وهل طلب عثمان من الولاة نصرته؟

١ - من حج بالناس ذلك العام (٣٥هـ)؟:

استدعى عثمان عبد الله بن عباس رضي الله عنهم، وكلفه أن يحج بالناس هذا الموسم، فقال له ابن عباس: دعني أكن معك وبجانبك يا أمير المؤمنين، في مواجهة هؤلاء، فوالله إن جهاد هؤلاء الخوارج أحبُّ إلى من الحج قال له: عزمت عليك أن تحج بالمسلمين فلم يجد ابن عباس أمامه إلا أن يطيع أمير المؤمنين وكتب عثمان كتاباً مع ابن عباس، ليقرأ على المسلمين في الحج، بين فيه قصته مع الخوارج عليه، وموقفه منهم، وطلباتهم منه^(١)، وهذا نص خطاب عثمان رضي الله عنه للمسلمين في موسم الحج عام ٣٥هـ: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عثمان أمير المؤمنين إلى المؤمنين والمسلمين، سلام عليكم، إني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو، أما بعد، إني أذكركم بالله جلَّ وعزَّ الذي أنعم عليكم وعلمكم الإسلام، وهداكم من الضلالة، وأنقذكم من الكفر، وأراكم البيئات وأوسع عليكم من الرزق، ونصركم على العدو، وأسبغ عليكم نعمته، فإن الله عزَّ وجلَّ يقول وقوله الحق: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٢) ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٠٣) وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٢ - ١٠٥].

وقال وقوله الحق: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّتِي وَافَقَكُمْ بِهَ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [المائدة: ٧].

(١) الخلفاء الراشدون، للبخاري، ص ١٦٧، ١٦٨.

وقال وقوله الحق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (٦) وأعلموا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَنَعْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَّا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ [الحجرات: ٦ - ٨].

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

وقال وقوله الحق: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التين: ١٦].

وقال وقوله الحق: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَفْضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَاهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَتَكَاتَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يُلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيَبْئِنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسَّالُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ [النحل: ٩١ - ٩٦].

وقال وقوله الحق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وقال وقوله الحق: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ

بَعْدَ خَوْفِهِمْ أَمَّا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٠٠﴾
[النور: ١٥٥]

وقال وقوله الحق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَكَ إِنَّمَا يُدْعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْ أَجْرٍ أَعْظَمًا﴾ [الفتح: ١٠٠].

أما بعد، فإن الله - عزَّ وجلَّ - رضى لكم السمع والطاعة والجماعة، وحذرکم المعصية والفرقة والاختلاف، ونبأكم ما قد فعله الذين من قبلكم، وتقدم إليكم فيه ليكون له الحجة عليكم إن عصيتموه، فاقبلوا نصيحة الله - عزَّ وجلَّ - واحذروا عذابه، فإنكم لن تجدوا أمة هلكت إلا من بعد أن تختلف، إلا أن يكون لها رأس يجمعها، ومتى ما تفعلوا ذلك لا تقيموا الصلاة جميعاً، وسلط عليكم عدوكم، ويستحل بعضكم حرمة بعض، ومتى يفعل ذلك لا يقيم الله سبحانه دين، وتكونوا شيعاً، وقد قال الله جلَّ وعزَّ لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَاءً لِّسْتِ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩] وإنى أوصيكم بما أوصاكم الله وأحذرکم عذابه، فإن شيعياً - عليه السلام - قال لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ۝٨٩﴾ وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ [هود: ٨٩ - ٩٠].

أما بعد، فإن أقواماً ممن كان يقول في هذا الحديث، أظهروا للناس أنما يدعون إلى كتاب الله عزَّ وجلَّ والحق، ولا يريدون الدنيا، ولا متازعة فيها، فلما عرض عليهم الحق إذا الناس في ذلك شتى، منهم أخذ للحق، ونازع عنه حين يعطاه، ومنهم تارك للحق ونازل عنه في الأمر، يريد أن يبتز به غير الحق، طال عليهم عمرى وراث عليهم^(١)، أملهم الإمرة، فاستعجلوا القدر، وقد كتبوا إليكم أنهم قد رجعوا بالذى أعطيتهم، ولا أعلم أنى تركت من الذى عاهدتهم عليه شيئاً، كانوا زعموا أنهم يطلبون الحدود، فقلت: أقيموها على من علمتم تعداها فى أحد، أقيموها على من

(١) راث: أبطأ.

ظلمكم من قريب أو بعيد، قالوا: كتاب الله يُتلى، فقلت: فليقله من تلاه غير غال فيه بغير ما أنزل الله في الكتاب. وقالوا: المحروم يرزق والمال يوفى لِيُسْتَن فيهِ السنة الحسنة، ولا يُعتدى في الخمس ولا في الصدقة، ويؤمّر ذو القوة والأمانة، وترد مظالم الناس إلى أهلها، فرضيت بذلك واصطبرت له، كتبت إليكم وأصحابي الذين رعموا في الأمر، استعجلوا القدر ومنعوا منى الصلاة، وحالوا بيني وبين المسجد، وابتزوا ما قدروا عليه بالمدينة، كتبت إليكم كتابي هذا، وهم يخبرونني إحدى ثلاث: إما يَقيِدونني بكل رجل أصبته خطأ أو صواباً، غير متروك منه شيء، وإما أعزل الأمر فيؤمّرون آخر غيري، وإما يرسلون إلى من أطاعهم من الأجناد وأهل المدينة فيتبرّون من الذي جعل الله سبحانه عليهم من السمع والطاعة. فقلت لهم: أما إقادتني من نفسي فقد كان من قبلي خلفاء تخطئ وتصيب فلم يُستفد^(١) من أحد منهم، وقد علمت أنما يريدون نفسي، وأما أن أتبرأ من الإمامة فإن يكُلبوني^(٢) أحب إلى من أن أتبرأ من عمل الله عزّ وجلّ وخلافته، وأما قولكم: يرسلون إلى الأجناد وأهل المدينة فيتبرّون من طاعتني فلست عليكم بوكيل، ولم أكن استكرهتهم من قبل على السمع والطاعة، ولكن أتوها طائعين، يتغنون مرضاة الله عزّ وجلّ وإصلاح ذات البين، ومن يكن منكم يبتغي الدنيا فليس بنائل منها إلا ما كتب الله عزّ وجلّ له، ومن يكن إنما يريد وجه الله والدار الآخرة وصلاح الأمة وابتغاء مرضاة الله عزّ وجلّ والسنة الحسنة التي استن بها رسول الله ﷺ والخليفتان من بعده رضى الله عنهما، فإنما يعجزى بذلكم الله، وليس بيدي جزاؤكم، ولو أعطيتكم الدنيا كلها لم يكن في ذلك ثمن لدينكم، ولم يُغن عنكم شيئاً، فاتقوا الله واحتسبوا ما عنده، فمن يرض بالنكث منكم فإنني لا أرضاه له، ولا يرضى الله سبحانه أن تنكثوا عهده، وأما الذي يخبرونني فإنما كله التزع والتأمر، فملكنت نفسي ومن معي، ونظرت حكم الله وتغيير النعمة من الله سبحانه، وكرهت سنة السوء وشقاق الأمة وسفك الدماء، فإنني أنشدكم الله وبالإسلام ألا تأخذوا إلا الحق وتعطوه مني وترك البغي على أهله،

(١) استفاد الحاكم: سأل أن يقيد الفاعل بالقتل.

(٢) كلبه: ضربه بالكلاب، والكلاب: الحديدية التي على خلف الراكض.

وخذوا بيننا بالعدل كما أمركم الله عزَّ وجلَّ، فإنني أنشدكم الله سبحانه الذي جعل عليكم العهد والمؤازرة في أمر الله سبحانه قال وقوله الحق: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، فإن هذه معذرة إلى الله ولعلكم تذكرون، أما بعد، فإنني لا أبرئ نفسي: ﴿وَمَا أَبرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣]، وإن عاقبت أقواماً فما أبتغي بذلك إلا الخير، وإنني أتوب إلى الله عزَّ وجلَّ من كل عمل عملته، وأستغفره إنه لا يغفر الذنوب إلا هو، إن رحمة ربي وسعت كل شيء، إنه لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الضالون، وإنه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون، وأنا أسأل الله عزَّ وجلَّ أن يغفر لي ولكم، وأن يؤلف قلوب هذه الأمة على الخير، ويكره إليها الفسق، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته أيها المؤمنون والمسلمون. قال ابن عباس: فقرأت هذا الكتاب عليهم قبل التروية^(١) بمكة يوم.

٢ - هل طلب عثمان رضي الله عنه من الولاة نصرته؟

يزعم سيف بن عمر في روايته عند الطبري أن عثمان - لما حصر - كتب إلى عماله على الأمصار يستمدهم فبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهري على رأس جيش، وكذا فعل عبد الله بن سعد في مصر فأرسل معاوية بن حديج، وخرج من أهل الكوفة القعقاع بن عمرو على رأس قواته^(٢)، وهذا الزعم لا يتفق مع منهج عثمان في مواجهة الفتنة ومن إثارة العافية والكف، ولا يتفق مع ثقته بالقتل، ولا يتفق مع ما لجأ إليه من صرف المدافعين عنه من كبار الصحابة وأبنائهم، بل عبيده ومواليه الذين نهاهم أشد النهي عن القتال، بل جعل العتق نصيب من يكف يده منهم ولا يقاتل كما سوف نرى. . ولكن الذي يمكن تصويره هو أنه كما بادر جماعة من الصحابة إلى الدفاع عن عثمان دون أن يطلب منهم ذلك ورغم محاولاته العديدة لصرفهم، فإنه قد بادرت جماعات كثيفة من أجناد المسلمين في الأمصار للدفاع عن الخليفة المظلوم من تلقاء أنفسهم وتوجيه من أمرائهم، ولا يصح أن نظن أن رجلاً مثل معاوية في قرابته

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٤٢٥ - ٤٣١).

(٢) المصدر نفسه (٥/ ٣٧٩، ٣٨٠).

من عثمان كان سيسعه - لو أراد - أن يتقاعس عن السير إليه أو تسيير الجنود إليه، ولا يمكن أن نفترض أن رجالاً مثل أنصار عثمان بمصر - وعلى رأسهم معاوية بن حديج ومسلمة بن مخلد وغيرهما من أبطال المسلمين - كانوا سياتظرون قابعين حتى يقتل الخليفة ثم يتحركون للثأر له، ويعرضون نحورهم للقتل فى سبيله، بل الذى يمكن تصوّره وافتراضه أن جنوداً من الأمصار قد تحركت بالفعل نحو المدينة لنجدة الخليفة دون أن يطلب منها نجدة^(١).

٣ - آخر خطبة خطبها عثمان رضى الله عنه:

كان آخر لقاء عام لعثمان مع المسلمين بعد أسابيع من الحصار، حيث دعا الناس، فاجتمعوا له جميعاً، المحارب الطارئ من السبئين والمسلم المقيم من أهل المدينة، وكان فى مقدمة القادمين: على وطلحة والزبير، فلما جلسوا أمامه قال لهم: إن الله عزَّ وجلَّ إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطكم الدنيا لتركوا إليها، وإن الدنيا تفنى، والآخرة تبقى، فلا تبطرنكم الفانية، ولا تشغلنكم عن الباقية، وآثروا ما يبقى على ما يفنى، فإن الدنيا منقطعة، وإن المصير إلى الله، واتقوا الله عزَّ وجلَّ، فإن تقواه جنة ووقاية من بأسه وانتقامه، والزموا جماعتكم، ولا تصيروا أحزاباً، قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣] ثم قال للمسلمين: يا أهل المدينة: إنى أستودعكم الله، وأسأله أن يحسن عليكم الخلافة من بعدى، وإنى والله لا أدخل على أحد بعد يومى هذا، حتى يقضى الله فى قضاءه، ولأدعن هؤلاء الخوارج وراء بابى، ولا أعطيهم شيئاً، يتخذونه عليكم دخلاً فى دين أو دنيا، حتى يكون الله هو الصانع فى ذلك ما أحب، وأمر أهل المدينة بالرجوع وأقسم عليهم، فرجعوا إلا الحسن ومحمد وابن الزبير وأشباهاً لهم، فجلسوا على باب عثمان عن أمر آبائهم، وثاب إليهم ناس كثير، ولزم عثمان الدار^(٢)، حتى أتاها أجله.

(١) الدولة الإسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين، ص ٢٧٨، ٢٧٩.

(٢) تاريخ الطبرى (٣٩٩/٥، ٤٠٠).

سابعاً: استشهاد عثمان رضي الله عنه:

وفضلاً عن تحرك جيوش الأمصار منها لنجدة الخليفة فقد كانت أيام الحج تنقضي سريعاً وتوشك جماعات من هؤلاء أن تزحف إلى المدينة لنجدة الخليفة، وبخاصة مع وجود عبد الله بن عباس وعائشة وغيرهما من المدافعين عن عثمان، وقدمت الأخبار إلى المتمردين بأن أهل الموسم يريدون نصرة عثمان، فلما أتاهاهم ذلك مع ما بلغهم من نفور أهل الأمصار إليهم أعلقهم الشيطان وقالوا: لا يُخرجنا عما وقعنا فيه إلا قتل هذا الرجل فيشتغل بذلك الناس عنا^(١).

١ - آخر أيام الحصار وفيه الرؤيا:

وفي آخر أيام الحصار - وهو اليوم الذي قتل فيه - نام رضي الله عنه، فأصبح يحدث الناس ليقتلني القوم^(٢)، ثم قال: رأيت النبي ﷺ في المنام، ومعه أبو بكر وعمر، فقال النبي ﷺ: يا عثمان أفطر عندنا، فأصبح صائماً، وقتل من يومه^(٣).

٢ - صفة قتله:

هاجم المتمردون الدار فتصدى لهم الحسن بن علي وعبد الله بن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص ومن كان من أبناء الصحابة أقام معهم، فنشب القتال فناداهم عثمان: الله الله، أنتم في حلٍّ من نصرتي، فأبوا، ودخل غلمان عثمان لينصروه، فأمرهم ألا يفعلوا، بل إنه أعلن أنه من كف يده منهم فهو حر^(٤)، وقال عثمان في وضوح وإصرار وحسم - وهو الخليفة الذي تجب طاعته: أعزم على كل من رأى أن عليه سمعاً وطاعة إلا كف يده وسلاحه^(٥)، ولا تبرير لذلك إلا بأن عثمان كان واثقاً من استشهاده بشهادة النبي ﷺ له بذلك؛ ولذلك أراد

(١) المصدر نفسه (٤٠٢/٥).

(٢) الطبقات، لابن سعد (٧٥/٣). وفتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١٧٢/١).

(٣) الطبقات (٧٥/٣) الخبر حسن لغيره، وفتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١٧٥/١).

(٤) الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، ص ٢٨٢. والبداية والنهاية (١٩٠/٧).

(٥) العواصم من القواصم، ص ١٣٣.

ألا تراق بسببه الدماء، وتقوم بسببه فتنة بين المسلمين^(١)، وكان المغيرة بن الأخنس بن شريف فيمن حج ثم تعجل في نفر حجوا معه، فأدرك عثمان قبل أن يقتل، ودخل الدار يحمى عنه وقال: ما علمنا عند الله إن تركناك ونحن نستطيع ألا ندعهم حتى نموت؟ فأقدم المتمردون على حرق الباب والسقيفة، فثار أهل الدار وعثمان يصلون حتى منعوهم وقاتل المغيرة بن الأخنس والحسن بن علي ومحمد بن طلحة وسعيد بن العاص، ومروان بن الحكم وأبو هريرة، فأبلىوا أحسن البلاء وعثمان يرسل إليهم في الانصراف دون قتال، ثم ينتقل إلى صلاته، فاستفتح قوله تعالى: ﴿طه﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٣﴾ [طه: ١ - ٣] وكان سريع القراءة فما أزعجه ما سمع، ومضى في قراءته ما يخطئ وما يتعتع، حتى إذا أتى إلى نهايتها قبل أن يصلوا إليه ثم عاد فجلس وقرا: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وأصيب يومئذ أربعة من شبان قريش وهم الحسن بن علي، وعبد الله بن الزبير، ومحمد بن حاطب، ومروان بن الحكم^(٢)، وقتل المغيرة بن الأخنس، ونيار بن عبد الله الأسلمي^(٣)، وزياد الفهري واستطاع عثمان أن يقنع المدافعين عنه، وألزمهم بالخروج من الدار، وخلى بينه وبين المحاصرين، فلم يبق في الدار إلا عثمان وآله، وليس بينه وبين المحاصرين مدافع، ولا حام من الناس، وفتح رضى الله عنه باب الدار^(٤).

وبعد أن خرج من في الدار عن كان يريد الدفاع عنه، نشر رضى الله عنه المصحف بين يديه، وأخذ يقرأ منه وكان إذ ذاك صائماً، فإذا برجل من المحاصرين - لم تسمه الروايات - يدخل عليه، فلما رآه عثمان رضى الله عنه قال له: بيني وبينك كتاب الله^(٥) فخرج الرجل وتركه، وما إن ولى حتى دخل آخر، وهو رجل من بنى سدوس، يقال

(١) الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، ص ٢٨٣.

(٢) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/١٦٩)، رواية صحيحة. وتاريخ الطبرى (٤٠٤/٥).

(٣) الخلفاء الراشدون، للخالدي، ص ١٨٤، ١٨٥. والبداية والنهاية (٧/١٩٦).

(٤) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/١٨٨).

(٥) تاريخ الطبرى (٤٠٥/٥، ٤٠٦).

له الموت الأسود فخنقه قبل أن يضربه بالسيف، فقال: والله ما رأيت شيئاً أليّن من خنقه، لقد خنقته حتى رأيت نفسه مثل الجان^(١)، تردد في جسده ثم أهوى إليه بالسيف، فاتقاه عثمان رضي الله عنه بيده فقطعها، فقال عثمان: أما والله إنها لأول كف^(٢) خطت المفصل^(٣)، وذلك أنه كان من كتبة الوحي، وهو أول من كتب المصحف من إملاء رسول الله ﷺ فقتل رضي الله عنه والمصحف بين يديه، وعلى أثر قطع اليد انتضح الدم على المصحف الذي كان بين يديه يقرأ منه، وسقط على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]^(٤).

وفي رواية: إن أول من ضربه رجل يسمى رومان اليماني، ضربه بصولجان، ولما دخلوا عليه ليقتلوه أنشد قائلاً:

أرى الموت لا يبقى عزيزاً ولم يدع
لعاد ملاداً في البلاد ومرتقى
وقال أيضاً:

بيت أهل الحصن والحصن مغلق ويأتي الجبال في شماريخها^(٥) العلى^(٦)
ولما أحاطوا به قالت امرأته نائلة بنت الفرافصة: إن تقتلوه أو تدعوه فقد كان يحيى
الليل بركة يجمع فيها القرآن^(٧)، وقد دافعت نائلة عن زوجها عثمان وانكبت عليه
واتقت السيف بيدها، فتعمدها سودان بن حمران ونضج أصابعها فقطع أصابع يدها،
وولّت، فغمز أوراكاها^(٨).

ولما رأى أحد غلمان عثمان رضي الله عنه الأمر، راعه قتل عثمان رضي الله عنه،
وكان يسمى (نجيح) فهجم نجيح على سودان بن حرام فقتله، ولما رأى قتيرة بن فلان

(١) تاريخ ابن خياط، ص ١٧٤، ١٧٥، إسناده صحيح أو حسن.

(٢) تاريخ الطبري (٣٩٨/٥).

(٣) المصدر نفسه (٣٩٨/٥) الخبر له طرق عديدة بمجموعها يرتقى إلى درجة الحسن لغيره.

(٤) شماريخها: رموسها (لسان العرب ٣/٣١).

(٥) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١٩١/١). والبداية والنهاية (١٩٢/٧).

(٦) الطبقات (٧٦/٣). وفتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١٩١/١).

(٧) تاريخ الطبري (٥/٤٠٦، ٤٠٧).

السكونى نجيحاً قد قتل سودان، هجم على نجيح فقتله، وهجم غلام آخر لعثمان رضى الله عنه اسمه (صبيح) على قتيبة بن فلان فقتله، فصار فى البيت أربعة قتلى، شهيدان، ومجرمان، وأما الشهيدان: فعثمان رضى الله عنه وغلامه نجيح، وأما المجرمان، فسودان وقتيبة السكونيان، ولما تمّ قتل عثمان رضى الله عنه نادى مناد القوم السبئين قائلاً: إنه لم يحل لنا دم الرجل ويحرم علينا ماله، إلا إن ماله حلال لنا، فانهبوا ما فى البيت، فعاث رعا السبئين فى البيت فساداً، وانهبوا كل ما فى البيت حتى نهبوا ما على النساء، وهجم أحد السبئين، ويدعى كلثوم التجيبى على امرأة عثمان رضى الله عنه نائلة رضى الله عنها ونهب الملاة التى عليها، ثم غمز وركبها، وقال لها: ويح أمك من عجيذة ما أملك، فرآه غلام عثمان رضى الله عنه (صبيح) وسمعه وهو يتكلم فى حق نائلة هذا الكلام الفاحش، فعلاه بالسيف فقتله^(١)، وهجم أحد السبئين على الغلام فقتله، وبعدما أتم السبئون نهب دار عثمان، تنادوا وقالوا: اذركوا بيت المال، وإياكم أن يسبقكم أحد إليه، وخذوا ما فيه، وسمع حراس بيت المال أصواتهم، ولم يكن فيه إلا غرارتان من طعام فقالوا: انجوا بأنفسكم فإن القوم يريدون الدنيا، واقتحم السبئون بيت المال وانهبوا ما فيه^(٢).

حقوق الخوارج السبئون مرادهم، وقتلوا أمير المؤمنين، وتوقف كثير من أتباعهم من الرعا والغوغاء بعد قتل عثمان ليفكروا، وما كانوا يظنون أن الأمر سينتهى بهم إلى قتله، لقد استغفلهم شياطينهم السبئون، واستغلوهم فى الشغب على عثمان، أما أن يقتلوه فهذا ما استفظعوه واستشنعوه، وأسقط فى أيدي هؤلاء الغوغاء، وحصل لهم كما حصل لبنى إسرائيل لما عبدوا العجل، ندم بعضهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلُمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ۝١٤٨﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿[الاعراف: ١٤٨، ١٤٩]﴾^(٣).

(١) المصدر نفسه (٥/ ٤٠٧).

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٤٠٧).

(٣) البداية والنهاية (٧/ ١٩٧، ١٩٨).

وحزن الصالحون في المدينة لمقتل خليفتهم وصاروا يسترجعون ويبيكون، لكن ماذا يفعلون؟ وجيوش الخوارج السبئيين تحتل المدينة، وتعيث فيها فساداً، وتمنع أهلها من فعل أي شيء؟ وكان الحاكم الفعلي للمدينة هو أمير خوارج مصر (الغافقي بن حرب العكي) وكان معهم شيطانهم للخطط (عبد الله بن سبا) وهو فرح مسرور لما وصل إليه من أهداف ومآرب يهودية شيطانية، وعلّق كبار الصحابة على مقتل عثمان^(١).

أ - الزبير بن العوام رضي الله عنه: لما علم بمقتل عثمان قال: رحم الله عثمان إنا لله وإنا إليه راجعون، فقيل له: إن القوم نادمون، فقال: دبروا ودبروا، ولكن كما قال الله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّريبٍ﴾ [سبا: ٥٤].

ب - طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه: لما علم بمقتل عثمان قال: رحم الله عثمان، إنا لله وإنا إليه راجعون، فقيل له: إن القوم نادمون. قال: تبّأ لهم، وقرأ قوله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [٤٩] ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٤٩، ٥٠].

ج - علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لما علم بمقتل عثمان قال: رحم الله عثمان، إنا لله وإنا إليه راجعون، قيل له: إن القوم نادمون. فقرأ قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٦] ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر: ١٦، ١٧].

د - سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: ولما علم سعد بن أبي وقاص بذلك قال: رحم الله عثمان، ثم تلا قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [١٠٣] ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [١٠٤] ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ [١٠٥] ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَآخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٦]. ثم قال سعد: اللهم

(١) الخلفاء الراشدون للمخالد، ص ١٩٠. البداية والنهاية (١٩٧/٧).

اندمهم واخزهم واخذلهم، ثم خذهم^(١)، واستجاب الله دعوة سعد - وكان مستجاب الدعوة - فقد أخذ كل من شارك في قتل عثمان، مثل عبد الله بن سبأ، والغافقى، والأشتر، وحكيم بن جبلة، وكنانة التجيبى، حيث قتلوا فيما بعد^(٢).

ثامناً: تاريخ قتله، وسنه عند استشهاده وجنازته والصلاة عليه ودفنه:

١ - تاريخ قتله:

إن في تحديد السنة التي قتل فيها عثمان رضى الله عنه شبه إجماع من المؤرخين، فلم يقع خلاف في أنه كان في السنة الخامسة بعد الثلاثين من الهجرة، إلا ما روى عن مصعب بن عبد الله من أنه كان من السنة السادسة والثلاثين^(٣)، وهو قول شاذ مخالف للإجماع فمن قال بالقول الأول جمع غفير منهم؛ عبد الله بن عمرو بن عثمان، وعامر بن شرحبيل الشعبي، ونافع مولى ابن عمر، ومخرمة بن سليمان وغيرهم كثير^(٤)، ولم يختلف المؤرخون في الشهر الذي قتل فيه وأنه ذو الحجة إلا أنه اختلف في تحديد ما بعد ذلك من اليوم والساعة والذي ترجح لدى من أقوال العلماء الكثيرة أنه استشهد في (١٨/١٢/٣٥هـ)^(٥)، وأما عن تحديد اليوم الذي قتل فيه من أيام الأسبوع ففيه ثلاثة أقوال والذي ترجح لدى من هذه الأقوال قول الجمهور، وهو يوم الجمعة؛ لأنه قول الجمهور ولم يخالفه قول أقوى منه^(٦)، وكان وقت قتله صبيحة يوم الجمعة، وهو ما ذهب إليه الجمهور ولم يخالف بأقوى منه^(٧).

٢ - سنه عند استشهاده:

اضطربت الروايات في سنه عند استشهاده والخلاف في ذلك قديم، حتى إن

(١) تاريخ الطبرى (٤٠٧/٥، ٤٠٨). والبداية والنهاية (١٨٩/٧).

(٢) الخلفاء الراشدون للبخارى، ص ١٩٢.

(٣) تاريخ الطبرى (٤٣٥/٥، ٤٣٦).

(٤) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١٩٣/١، ١٩٤).

(٥) تاريخ الطبرى (٤٣٥/٥).

(٦) المصدر نفسه (٤٣٦/٥).

(٧) المصدر نفسه (٤٣٧/٥).

الطبرى - رحمه الله - يقول: اختلف السلف قبلنا فى قدر مدة حياته^(١)، والذي أميل إليه أنه توفى وستة اثنان وثمانون (٨٢ سنة) وهو قول الجمهور ويترجح هذا القول لعدة أسباب، منها:

أ - أن نتيجة مقارنة سنة ولادته مع سنة استشهاده تؤيد هذا القول؛ فإنه ولد فى السنة السادسة بعد عام الفيل، واستشهد فى السنة الخامسة والثلاثين بعد الهجرة، فطرح تاريخ مولده من تاريخ استشهاده يتبين لنا سنّه عند استشهاده.

ب - إنه قول الجمهور، ولم يخالفه قول أقوى منه^(٢).

٣ - جنازته والصلاة عليه ودفنه:

قام نفر من الصحابة فى يوم قتله بغسله وكفنوه وحملوه على باب، ومنهم حكيم ابن حزام، وحويطب بن عبد العزى، وأبو الجهم بن حذيفة، وبنار بن مكرم الأسلمى، وجبير بن مطعم، والزبير بن العوام، وعلى بن أبى طالب وجماعة من أصحابه ونسائه، منهن أمراتاه نائلة وأم البنين بنت عتبة بن حصين، وصبيان، وصلى عليه جبير بن مطعم وقيل الزبير بن العوام، وقيل حكيم بن حزام، وقيل مروان بن الحكم، وقيل المسور بن مخرمة^(٣)، والذي ترجح عندى أن الذى صلى عليه الزبير بن العوام لرواية الإمام أحمد فى مسنده، فقد بينت تلك الرواية أن الزبير بن العوام رضى الله عنه، صلى على عثمان ودفنه، وكان أوصى إليه^(٤)، وقد دفن رضى الله عنه ليلاً وقد أكد ذلك ما رواه ابن سعد والذهبي حيث ذكرا أنه دفن بين المغرب والعشاء^(٥)، رضوان الله عليه، وأما ما رواه الطبرانى من طريق عبد الملك بن الماجشون، قال: سمعت مالكا يقول: قتل عثمان رضى الله عنه، فأقام مطروحاً على

(١) تاريخ الطبرى (٤٣٨/٥).

(٢) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (٢٠٤/١).

(٣) البداية والنهاية (١٩٩/٧).

(٤) الموسوعة الحديثية مسند الإمام أحمد (٥٥٥/١) رجال الإسناد ثقات إلا أنه منقطع.

(٥) الطبقات (٨٧/٣). وتاريخ الإسلام (عهد الخلفاء)، ص ٤٨١.

كناسة بنى فلان ثلاثاً^(١)، فالرواية السابقة ضعيف سندها، وباطل متنها فأما السند ففيه علتان:

- أ - ضعف عبد الملك بن الماجشون الذى كان يروى المناكير عن الإمام مالك .
 ب - أن هذه الرواية مرسله حيث إن الإمام مالكا لم يدرك مقتل عثمان رضى الله عنه، لأنه لم يولد إلا سنة ٩٣ هـ^(٢).

وأما متن هذه الرواية فباطل، وفيه يقول ابن حزم: من قال إنه رضى الله عنه أقام مطروحا على مزبلة ثلاثة أيام فكذب بحت، وإفك موضوع، وتوليد من لا حياء فى وجهه . . ولقد أمر رسول الله ﷺ برمى أجساد قتلى الكفار من قريش يوم بدر فى القليب، وألقى التراب عليهم، وهم شر خلق الله تعالى، وأمر عليه السلام أن يحفر أخاديد لقتلى يهود قريظة، وهم شر من وارثه الأرض، فمؤارة المؤمن والكافر فرض على المسلمين، فكيف يجوز لذى حياء فى وجهه أن ينسب إلى على وهو الإمام ومن بالمدينة من الصحابة أنهم تركوا رجلاً ميتاً بين أظهرهم على مزبلة ثلاثة أيام لا يوارونه^(٣).

إنه لا يدخل فى عقل أى إنسان سليم من داء الرفض أنهم يتركون إمامهم ملقى دون دفن ثلاثة أيام مهما كانت قوة أولئك الفجرة الذين جاءوا لحصاره وقتله، فالصحابة كما وصفهم ربهم لا يخافون فى الله لومة لائم، وإنما تلك الروايات التى شوهدت كتب التاريخ من دس الروافض^(٤).

٤ - براءة محمد بن أبى بكر الصديق من دم عثمان رضى الله عنه:

إن قاتل عثمان رضى الله عنه رجل مصرى، لم تفصح الروايات عن اسمه، وبينت أنه سدوسى الأصل، أسود البشرة، لقب بد(جبله) لسواد بشرته كما لقب أيضاً

(١) المعجم الكبير (٨٧/١). واستشهد عثمان، ص ١٩٤.

(٢) التهذيب، ابن حجر (٤٠٨/٦).

(٣) الفصل (٤/ ٢٣٩، ٢٤٠).

(٤) عقيدة أهل السنة (١٠٩١/٣).

ب (الموت الأسود) وذهب محب الدين الخطيب إلى أن القاتل: هو عبد الله بن سبأ، حيث قال: ومن الثابت أن ابن سبأ كان مع ثوار مصر عند مجيئهم من الفسطاط إلى المدينة، وهو في كل الأدوار التي مثلها كان شديد الحرص على أن يعمل من وراء ستار، فلعل ب (الموت الأسود) اسم مستعار له أراد أن يرمز به إليه، ليتمكن من مواصلة دسائسه لهدم الإسلام^(١)، وقد يشهد له: أن ابن سبأ أسود البشرة، فقد صح عن علي رضي الله عنه أنه وصفه بالخبث، وسواد البشرة، وذلك في قوله: الخبيث الأسود^(٢).

وأما ما يتعلق بتهمة محمد بن أبي بكر بقتل عثمان بمشاقصه، فهذا باطل، وقد جاءت روايات ضعيفة في ذلك، كما أن متونها شاذة، لمخالفتها للرواية الصحيحة التي تبين أن القاتل هو رجل مصري^(٣)، وقد ذكر الدكتور يحيى اليعحي عدة أسباب ترجح براءة محمد بن أبي بكر من دم عثمان، منها:

أ - أن عائشة رضي الله عنها خرجت إلى البصرة للمطالبة بقتلة عثمان، ولو كان أخوها منهم ما حزن عليه لما قتل فيما بعد، وسيأتي تفصيله عند حديثنا عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه بإذن الله تعالى.

ب - لعن علي رضي الله عنه لقتلة عثمان رضي الله عنه وتبرؤه منهم، يقتضي عدم تقربهم وتوليئتهم وقد ولَّى محمد بن أبي بكر مصر فلو كان منهم ما فعل ذلك.

ج - ما أخرجه ابن عساكر بسنده عن محمد بن طلحة بن مصرف قال: سمعت كنانة مولى صفية بنت حيى قال: شهدت مقتل عثمان وأنا ابن أربع عشرة سنة، قالت: هل أئدى محمد بن أبي بكر بشيء من دمه؟ فقال: معاذ الله، دخل عليه، فقال عثمان: يا ابن أخي لست بصاحبي، فخرج، ولم يند من دمه بشيء^(٤).

(١) المواسم من القواصم، نقلاً عن فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/٢٠٧).

(٢) لسان الميزان (٣/٢٩٠).

(٣) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/٢٠٩).

(٤) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري، ٢٤٣.

ويشهد لهذا ما أخرجه خليفة بن خياط والطبرى بإسناد رجاله ثقات عن الحسن البصرى - وكان ممن حضر يوم الدار^(١)؛ أن ابن أبى بكر أخذ بلحيته فقال عثمان: لقد أخذت منى مأخذاً أو قعدت منى مقعداً ما كان أبوك ليقعده فخرج وتركه^(٢).

وبهذا يتبين لنا براءة محمد بن أبى بكر الصديق من دم عثمان، براءة الذئب من دم يوسف، كما تبين أن سبب تهمة هو دخوله عليه قبل القتل^(٣)، وقد ذكر ابن كثير - رحمه الله - أنه لما كلمه عثمان رضى الله عنه استحى، ورجع، وتندم، وغطى وجهه وحاجز دونه فلم تفد محاجزته^(٤).

* * *

(١) مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى، ص ٢٤٤. وتهذيب الكمال (٩٧/٦).

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٤٤.

(٣) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (٢٠٩/١).

(٤) البداية والنهاية (١٩٣/٧).

المبحث الرابع

موقف الصحابة رضي الله عنهم من مقتل عثمان رضي الله عنه

شوهت بعض كتب التاريخ موقف الصحابة من فتنه مقتل عثمان؛ وذلك بسبب الروايات الرافضية التي ذكرها كثير من المؤرخين، فالمتتبع لأحداث الفتنة في تاريخ الإمام الطبري، وكتب التاريخ الأخرى من خلال الروايات، أبي مخنف، والواقدي، وابن أعثم، وغيرهم من الإخباريين، يشعر أن الصحابة هم الذين كانوا يحركون المؤامرة ويشيرون الفتنة، فأبو مخنف ذو الميول الشيعية لا يتورع في اتهام عثمان بأنه الخليفة الذي كثرت سقطاته فاستحق ما استحقه، ويظهر طلحة في مرويته كواحد من الثائرين على عثمان والمؤيدين ضده، ولا تختلف روايات الواقدي عن روايات أبي مخنف، فعمرو بن العاص يقدم المدينة ويأخذ في الطعن على عثمان، وقد كثرت الروايات الرافضية التي تتهم الصحابة بالتآمر ضد عثمان رضي الله عنه وأنهم هم الذين حركوا الفتنة وأثاروا الناس، وهذا كله كذب وزور^(١)، وخلافًا للروايات الرافضية والموضوعة والضعيفة، فقد حفظت لنا كتب المحدثين - بحمد الله - الروايات الصحيحة التي يظهر فيها الصحابة من المؤازرين لعثمان والمنافحين عنه، المتبرئين من قتله، والمطالبين بدمه بعد مقتله، وبذلك يستبعد أي اشتراك لهم في تحريك الفتنة أو إثارتها^(٢).

إن الصحابة جميعًا رضي الله عنهم أبرياء من دم عثمان رضي الله عنه ومن قال خلاف ذلك فكلامه باطل لا يستطيع أن يقيم عليه أي دليل ينهض إلى مرتبة الصحة، ولذلك أخرج خليفة في تاريخه عن عبد الأعلى بن الهيثم، عن أبيه، قال: قلت

(١) تحقيق مواقف الصحابة (١٤/٢ - ١٨).

(٢) المصدر نفسه (١٤/٢ - ١٨).

للحسن: أكان فيمن قتل عثمان أحد من المهاجرين والأنصار؟ قال: لا كانوا أعلاجاً^(١)، من أهل مصر. وقال الإمام النووي: ولم يشارك في قتله أحد من الصحابة، وإنما قتله همج ورعاع من غوغاء القبائل سفلة الأطراف والأراذل، تحزبوا وقصدوه من مصر، فعمّزت الصحابة الحاضرون عن دفعهم فحصبوه حتى قتلوه رضى الله عنه^(٢).

وقد وصفهم الزبير رضى الله عنه بأنهم غوغاء من الأمصار، ووصفتهم السيدة عائشة بأنهم نزاع القبائل^(٣)، ووصفهم ابن سعد بأنهم حثالة الناس متفقون على الشر^(٤)، ووصفهم ابن تيمية بأنهم خوارج مفسدون وضالون باغون معتدون^(٥)، ووصفهم الذهبي بأنهم رؤوس شر وجفاء^(٦)، ووصفهم ابن العماد الحنبلي في الشذرات بأنهم أراذل من أوياش القبائل^(٧).

ويشهد على هذا الوصف تصرف هؤلاء الرعاع منذ الحصار إلى قتل الخليفة رضى الله عنه ظلماً وعدواناً، فكيف يمنع الماء عنه والطعام وهو الذى طالما دفع من ماله الخاص ما يروى ظمأ المسلمين بالمجان^(٨)، وهو الذى ساهم بأموال كثيرة عندما يلّم بالناس مجاعة أو مكروه، وهو الدائم العطاء عندما يصيب الناس ضائقة أو شدة من الشدائد^(٩)، حتى إن علياً رضى الله عنه يصف هذا الحال وهو يؤنب المحاصرين بقوله: يا أيها الناس، إن الذى تفعلونه لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين، فلا تمنعوا عن هذا الرجل الماء ولا المادة - الطعام - فإن الروم وفارس لتأسر وتطعم

(١) العليج: كل جاف شديد من الرجال.

(٢) شهيد الدار عثمان بن عفان، ص ١٤٨.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٤٨/١٥)، كتاب فضائل الصحابة.

(٤) تحقيق مواقف الصحابة (٤٨١/١)، طبقات ابن سعد (٧١/٣).

(٥) منهاج السنة (١٨٩/٣ - ٢٠٦).

(٦) دول الإسلام للذهبي (١٢/١).

(٧، ٨) انظر: تحقيق مواقف الصحابة (٤٨٢/١)، البخارى كتاب مناقب عثمان (٢٠٢/٤). وشذرات

الذهب (٤٠/١).

(٩) التمهيد والبيان، ص ٢٤٢.

وتسقى^(١)، لقد صحت الأخبار وأكدت حوادث التاريخ على براءة الصحابة من التحريض على عثمان أو المشاركة في الفتنة ضده^(٢).

• وإليك أقوال الصحابة في البراءة من دم عثمان:

أولاً: ثناء أهل البيت على عثمان رضي الله عنه وبراءتهم من دمه:

١ - موقف السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها:

أ - عن فاطمة بنت عبد الرحمن الشكرية عن أمها؛ أنها سألت عائشة، وأرسلها عمها فقال: إن أحد بنيك يقرئك السلام ويسألك عن عثمان بن عفان، فإن الناس قد أكثروا فيه. فقالت: لعن الله من لعنه، فوالله لقد كان قاعداً عند نبي الله ﷺ وإن رسول الله ﷺ مسند ظهره إليّ، وإن جبريل عليه السلام ليوحى إليه القرآن وأنه ليقول: اكتب عثمان فما كان الله لينزل تلك المنزلة إلا كريماً على الله ورسوله^(٣).

ب - وعن مسروق عن عائشة قالت حين قتل عثمان: تركتموه كالثوب النقي من الدنس، ثم قربتموه تذبحونه. كما يذبح الكبش، فقال لها مسروق: هذا عملك، أنت كتبت إلى الناس تأمرينهم بالخروج إليه، قالت عائشة: لا والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت إليهم بسوءاء في بيضاء حتى جلست مجلسي هذا^(٤). وقد مر معنا كذب السبئيين وأنهم كتبوا رسائل لأهل الأمصار ونسبوا كذباً وزوراً للسيدة عائشة رضي الله عنها.

ج - ولما سمعت بموت عثمان في طريق عودتها من مكة إلى المدينة رجعت إلى مكة ودخلت المسجد الحرام، وقصدت الحجر فتسترت فيه، واجتمع الناس إليها، فقالت: أيها الناس إن الغوغاء من أهل الأمصار، وأهل المياه، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا أن

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٤٠٠).

(٢) تحقيق مواقف الصحابة (١٨/٢).

(٣) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٧٨). السند (٦/ ٢٥٠، ٢٦١)، والبداية والنهاية (٧/ ٢١٩).

(٤) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/ ٣٩١). وتاريخ خليفة، ص ١٧٦، إسناده صحيح إلى عائشة رضي الله عنها.

عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس الإرب^(١)، واستعمال من حدثت سنه، وقد استعمل أسنانهم قبله، ومواضع من الحمى حماها لهم، وهى أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها، فتابعهم، ونزع لهم عنها استصلاحاً لهم، فما لم يجدوا حجة ولا غدرًا خلجوا^(٢)، وبادروا بالعدوان، ونبا فعلهم عن قولهم، فسفكوا الدم الحرام، واستحلوا البلد الحرام، وأخذوا المال الحرام، واستحلوا الشهر الحرام، والله لإصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم، فنجاة^(٣) من اجتماعكم عليه حتى ينكل^(٤) بهم غيرهم، ويشرد^(٥) من بعدهم، والله، لو أن الذى اعتدوا به عليه كان ذنبًا لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه، أو الثوب من درنه إذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء^(٦).

وعلى العكس من الصورة الطيبة التى نفهمها من الروايات السابقة الموثقة للعلاقة بين أم المؤمنين عائشة وعثمان، فإنه تبقى عند الطبرى وغيره روايات أخرى صورت العلاقة بين عائشة وعثمان على صورة متناقضة تمامًا لما انتهينا إليه، وشوهت الدور الرائع الناصع، الواعى، الذى قامت به رضى الله عنها، دفاعاً عن حرمان الله عز وجل، ودفعاً عن عثمان رضى الله عنه، وفهماً لالاعيب السبئية^(٧).

إن الروايات التى جاءت فى العقد الفريد وفى الأغانى وتاريخ البعقوبى وتاريخ المسعودى، وأنساب الأشراف، وما انتهت إليه من استدلالات فى شأن الدور السياسى للسيدة عائشة رضى الله عنها فى حياة عثمان بن عفان رضى الله عنه، إن جميع ما يؤدى إليه من استدلالات تدين الموقف السياسى للسيدة عائشة رضى الله عنها لا يعتد بها لمخالفتها للروايات الصحيحة، وقيامها على روايات واهية^(٨)، فأغلبها روايات غير

(١) الأرب: الحاجة والذهاء والفطنة والعقل.

(٢) خلجوا: تحركوا واضطربوا.

(٣) نجاة: اطلبوا النجاة باجتماعكم عليهم.

(٤) ينكل بهم غيرهم: حتى يردعهم ويروع بهم غيرهم.

(٥) يشرد: يفرق، ويبدد جمعهم.

(٦) تاريخ الطبرى (٥/٤٧٣، ٤٧٤).

(٧) دور المرأة السياسى فى عهد النبى ﷺ والخلفاء الراشدين، ص ٣٥٢.

(٨) انظر: أيضاً فى هذه الاستدلالات الباطلة، للعقاد (الصديقة بنت الصديق)، ص ١١٦ - ١٢٤.

مسندة، والمسند مجروح الإسناد، لا يحتج بروايته، هذا إلى فساد متونها إذا ما قورنت بالروايات الأخرى الأكثر صحة وقرباً بالحقيقة^(١).

وقد قامت السيدة أسماء محمد أحمد زيادة بدراسة الأسانيد والمتون للروايات التي تحدثت عن الدور السياسى للسيدة عائشة فى أحداث الفتنة، ونقدت الروايات القائلة بالخلاف السياسى بين عائشة وعثمان عند الطبرى وغيره وبينت زيفها وكذبها، ثم قالت: وكان الأخرى بنا أن نعرض عن ذكرها جميعاً - كما ذكرت آنفاً - لعدم وصولها إلينا من طريق معتمد، بل الطرق التى وصلت منها رُمى أصحابها بالتشنيع والكذب والرفض، لكننا عرضنا لها، لشيوعها فى أغلب الدراسات الحديثة، وللتدليل على سقوطها فهى روايات - كما اتضح لنا - حاولت خلق تاريخ لا وجود له أصلاً من الخلاف والتكر بين عثمان وعائشة وبين عثمان والصحابة جميعاً^(٢)، ولو صح أن عائشة اتفقت مع المتبردين على التحريض على عثمان رضى الله عنه لكان من المتوقع أن يكون عندها نوع من التماس العذر لهؤلاء المتبردين، لكن لم يصح عنها رضى الله عنها شيء من هذا، وإنه لو صح شيء من هذه الروايات فى وصف موقف السيدة عائشة رضى الله عنها من مقتل عثمان، فهى روايات كفيفة بإسقاط العدالة عن عائشة رضى الله عنها، وعن الصحابة الذين اشتركوا معها، وهو ما لا نقبل به للخبر الصادق عن الله ورسوله فى تقرير عدالتهم التى كانت كافية لدحض هذه الروايات لكننا توقفنا أمام الروايات، تأكيداً منا على سقوط هذه الروايات، ومن بعدها الاستدلالات القائمة عليها، حتى تجتمع الأدلة الدينية، والعلمية، والتاريخية، فى صعيد واحد يؤكد بعضها بعضاً^(٣).

٢ - على بن أبى طالب رضى الله عنه:

كان على رضى الله عنه وآل البيت يجلونه ويعترفون بحقه فكان:

أ - أول من بايعه بعد عبد الرحمن بن عوف على بن أبى طالب^(٤)، وعن قيس بن

(١) دور المرأة السياسى، ص ٣٧٠.

(٢) دور المرأة السياسى، ص ٣٧١.

(٣) البخارى، كتاب فضائل الصحابة، رقم ٣٧٠٠.

عباد قال: سمعت علياً رضى الله عنه وذكر عثمان فقال: هو رجل قال له رسول الله ﷺ: «ألا أستحي ممن تستحي منه الملائكة»^(١).

ب - وقد شهد رضى الله عنه له بالجنة، فعن النزال بن سبرة، قال: سألت علياً عن عثمان؟ فقال: ذاك امرؤ يدعى فى الملأ الأعلى ذا النورين كان ختن رسول الله ﷺ على إبتيه ضمن له بيت فى الجنة^(٢).

ج - وكان رضى الله عنه طائعاً معترفاً بإمامته وخلافته لا يعصى له أمراً فقد روى ابن أبى شيبة بإسناده عن ابن الحنفية عن علي: قال: لو سيرنى عثمان إلى صرار لسمعت وأطعت^(٣)، والصرار: هو الخيط الذى تشد به التوady على أطراف الناقة لئلا يرضعها ولدها^(٤)، وفيه دليل على مدى اتباعه وطاعته لعثمان رضى الله عنهما^(٥).

د - ولما جمع عثمان رضى الله عنه الناس على قراءة واحدة، بعد استشارة الصحابة رضوان الله عليهم وإجماعهم على ذلك، قال على رضى الله عنه: لو وليت الذى ولى، لصنعت مثل الذى صنع^(٦).

هـ - ولقد أنكر على رضى الله عنه قتل عثمان وتبرأ من دمه وكان يقسم على ذلك فى خطبه وغيرها أنه لم يقتله ولا أمر بقتله ولا مالا ولا رضى وقد ثبت ذلك عنه بطرق تفيد القطع^(٧)، خلافاً لما تزعمه الرافضة من أنه كان راضياً بقتل عثمان رضى الله عنهما^(٨)، وقال الحاكم بعد ذكر بعض الأخبار الواردة فى مقتله رضى الله عنه:

(١) مسلم، كتاب فضائل الصحابة، رقم ٢٤٠١.

(٢) العقيدة فى أهل البيت بين الإفراط والتفريط، ص ٢٢٧. المختصر من كتاب الموافقة بين أهل البيت والصحابة للزمخشري، مخطوط بمكتبة المخطوطات بالجامعة الإسلامية. للمخطوطة: قد طبعت عن طريق دار الحديث أخيراً.

(٣) السنة للخلال (١/٣٢٥) رقم ٤١٦ إسناده صحيح.

(٤) لسان العرب (٤/٤٥١).

(٥) العقيدة فى أهل البيت بين الإفراط والتفريط، ص ٢٢٧.

(٦) السنن للبيهقي (٢/٤٢).

(٧) البداية والنهاية (٧/٢٠٢).

(٨) العقيدة فى أهل البيت بين الإفراط والتفريط، ص ٢٢٩. حق اليقين لعبد الله شبر (ص ١٨٩).

فأما الذي ادعته المبتدعة من معونة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فإنه كذب وزور فقد تواترت الأخبار بخلافه^(١)، وقال ابن تيمية: وهذا كله كذب على علي رضي الله عنه وافترأ عليه، فعلى رضي الله عنه لم يشارك في دم عثمان رضي الله عنه، ولا أمر ولا رضي وقد روى عنه ذلك وهو الصادق البار^(٢)، وقد قال علي رضي الله عنه: اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان^(٣)، وروى الحاكم بإسناده عن قيس ابن عباد قال: سمعت علياً رضي الله عنه يوم الجمل يقول: اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان، ولقد طاش عقلي يوم قتل عثمان، وأنكرت نفسي وجاءوني للبيعة، فقلت والله إني لأستحي من الله أن أبايع قوماً قتلوا رجلاً قال فيه رسول الله ﷺ: «ألا أستحي ممن تستحي منه الملائكة»، وإني لأستحي من الله أن أبايع وعثمان قتيل على الأرض لم يدفن بعد فانصرفوا، فلما دفن رجع الناس فسألوني البيعة فقلت اللهم إني مشفق مما أقدم عليه ثم جاءت عزيمة فبايعت فلقد قالوا: يا أمير المؤمنين فكأنما صدع قلبي، وقلت: اللهم خذ مني لعثمان حتى ترضى^(٤). وروى الإمام أحمد بسنده عن محمد بن الحنفية قال: بلغ علياً أن عائشة تلعن قتلة عثمان في المريد^(٥)، قال: فرفع يديه حتى بلغ بهما وجهه فقال: وأنا ألعن قتلة عثمان لعنهم الله في السهل والجبل قال مرتين أو ثلاثاً^(٦)، وروى ابن سعد بسنده عن ابن عباس أن علياً قال: والله ما قتلت عثمان ولا أمرت بقتله، ولكنني نهيت، والله ما قتلت عثمان ولا أمرت ولكني غلبت، قالها ثلاثاً^(٧)، وجاء عنه أيضاً أنه قال رضي الله عنه: من تبرأ من دين عثمان فقد تبرأ من الإيمان والله ما أعنت على قتله ولا أمرت ولا رضيت^(٨).

(١) المستدرك (٣/١٠٣).

(٢) منهاج السنة (٤/٤٠٦).

(٣) العقيدة في أهل البيت، ص ٢٣٠، إسناده حسن، الطبقات (٣/٣) رواه من طرق كلها صحيحة.

(٤) المستدرك (٣/٩٥). حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٥) موضع قرب البصرة بينهما نحو ثلاثة أميال.

(٦) فضائل الصحابة (١/٥٥٥) رقم ٧٣٣. إسناده صحيح.

(٧) الطبقات (٣/٨٢). والبداية والنهاية (٧/٢٠٢).

(٨) الرياض النضرة، ص ٥٤٣.

و - وقال على رضى الله عنه عن عثمان رضى الله عنه: ... كان أوصلنا للرحم وأتقانا للرب تعالى (١).

ز - عن أبى عون قال: سمعت محمد بن حاطب قال: سألت علياً عن عثمان فقال: هو من الذين آمنوا ثم اتقوا ثم آمنوا ثم اتقوا ولم يختم الآية (٢).

ح - عن عميرة بن سعد قال: كنا مع على رضى الله عنه على شاطئ الفرات، فمرت سفينة مرفوع شراعها فقال على: يقول الله عز وجل: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الرحمن: ٢٤] والذي أنشأها فى بحر من بحاره ما قتلت عثمان ولا مالأت على قتله (٣).

ط - وروى الإمام أحمد فى مسنده عن محمد بن حاطب قال: سمعت علياً يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] منهم عثمان (٤)، وقال على رضى الله عنه: إنما وهنت يوم قتل عثمان (٥)، وقد اعتنى الحافظ ابن عساكر بجمع الطرق الواردة عن على رضى الله عنه فى تبرئته من دم عثمان وقسمه على ذلك فى الخطب وغيرها، وكذا قسمه أنه لم يرض بذلك، وثبت ذلك عنه من طرق تفيد القطع عند كثير من أئمة الحديث (٦).

٣- ابن عباس رضى الله عنه:

روى الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس أنه قال: لو اجتمع الناس على قتل عثمان لرموا بالحجارة كما رمى قوم لوط (٧)، وقال رضى الله عنه فى مدح عثمان وذم من يتقصه: رحم الله أبا عمرو، كان والله أكرم الخفدة وأفضل البررة، هجاءاً

(١) صفة الصفوة (٣٠٦/١).

(٢) فضائل الصحابة (٥٨٠/١) إسناده صحيح.

(٣) المصدر نفسه (٥٥٩/١، ٥٦٠) إسناده لغيره رقم ٣٧٩.

(٤) المصدر نفسه (٥٨٠/١) رقم ٧٧١ إسناده صحيح.

(٥) المتظم فى تاريخ الملوك والأمم (٦١/٥).

(٦) انظر: البداية والنهاية (١٩٣/٧).

(٧) فضائل الصحابة (٥٦٣/١) رقم ٧٤٦.

بالأسحار، كثير الدموع عند ذكر النار نهائياً عند كل مكرمة سباقاً إلى كل منحة، حبيباً أياً وفياً، صاحب جيش العسرة، ختن رسول الله ﷺ، فأعقب الله على من يلعنه لعنة اللاعنين إلى يوم الدين^(١).

٤ - زيد بن علي رحمه الله:

روى ابن عساكر بإسناده إلى السدي، قال: أتيت - أي زيد - وهو في بارق حي من أحياء الكوفة فقلت له: أنتم سادتنا وأنتم ولاة أمورنا فما تقول في أبي بكر وعمر؟ فقال: توليهم، وكان يقول البراءة من أبي بكر وعمر وعثمان البراءة من علي، والبراءة من علي البراءة من أبي بكر وعمر وعثمان^(٢).

٥ - علي بن الحسين رحمه الله:

وقد ثبت عن علي بن الحسين البراءة من قول الرافضة في أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فقد روى أبو نعيم بسنده عن محمد بن علي عن أبيه علي بن الحسين أنه قال: جلس قوم من أهل العراق فذكروا أبا بكر وعمر فتالوا منهما، ثم ابتدأوا في عثمان فقال لهم: أخبروني أنتم من المهاجرين الأولين: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصَرُونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ أَوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]؟ قالوا: لا، قال: فأنتم من الذين ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]؟ قالوا: لا. فقال لهم: أما أنتم فقد أقررتهم وشهدتكم على أنفسكم أنكم لستم من هؤلاء ولا من هؤلاء، وأنا أشهد أنكم لستم من الفرقة الثالثة الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]. فقوموا عني لا بارك الله فيكم، ولا قرب دوركم أنتم مستهزئون

(١) العقيدة في أهل البيت، ص ٢٣٤. مروج الذهب للمسعودي (٣/ ٦٤).

(٢) العقيدة في أهل البيت، ص ٣٣٥. وتهذيب تاريخ دمشق (٦/ ١٢).

بالإسلام، ولستم من أهله^(١).

ثانياً: موقف عمار بن ياسر رضي الله عنه:

جاء في الروايات التاريخية التي تحمل في طياتها غثاً وسميناً أن هناك خلافاً بين عمار وعثمان رضي الله عنهما وقد خطم بعضها بأسانيد، وأخرى لا خطام لها ولا زمام، ولم أجد من أغنى فيه بحثاً وتحليلاً إلا لماماً، والتعرض لمثل هذا الموضوع الذي يمسُّ كرامة أظهر خلق الله وأحبهم إليه وإلى نبيه، لا يمكن معه الاعتماد على روايات تسرح في أعراض الصحابة كما تشاء وتفرح من غير زمام أو خطام^(٢)، ومن التهم الساقطة التي ساقتها الروايات الضعيفة:

١ - ضرب عمار بن ياسر:

تعتبر الروايات التي تحدثت عن ضرب عثمان لعمار من أشهر الروايات في هذا الموضوع وأكثرها، ولقد تفنن واضعوها في ذكر الأساليب التي استخدمها عثمان رضي الله عنه بالضرب، وفي ذكر ما نتج عنه، وهي مع فساد أسانيدها تحمل نكارة شديدة في متونها^(٣)، يقول القاضي أبو بكر بن العربي في عواصمه ضمن تفنيده لما نسب إلى عثمان رضي الله عنه من افتراءات: وأما ضربه لابن مسعود رضي الله عنه ومنعه عطاءه، فزور، وضربه لعمار رضي الله عنه إفك مثله، ولو فتق أمعاءه ما عاش أبداً، وقد اعتذر عن ذلك العلماء بوجوه أنه لا ينبغي أن يشتغل بها؛ لأنها مبنية على باطل، ولا يبنى حق على باطل، ولا نذهب الزمان في عمالة الجهال، فإن ذلك لا آخر له^(٤).

إن أخلاق عثمان رضي الله عنه في سنه وإيمانه وحيائه ولين عريكته ورقة طبعه وسابقتها وجليل مكانته في الإسلام أجل من أن تنزل به إلى هذا الدرك من التصرف

(١) العقيلة في أهل البيت، ص ٢٣٦. والبداية والنهاية (١١٢/٩)، والجامع لأحكام القرآن (٣١/١٨) - (٣٢).

(٢، ٣) عمار بن ياسر، لأسامة أحمد سلطان، ص ١٢٢.

(٤) العواصم من القواصم، ص ٨٢ - ٨٤.

مع رجل من أجلاء أصحاب النبي ﷺ، يعرف له عثمان سابقته وفضله مهما كان بينهما من اختلاف في الرأي، أفيرضى عثمان لنفسه - وهو الذي أبى على الناس أن يقاتلوا دونه، ورضى بالموت صابراً محتسباً حقناً لدماء المسلمين واثقاً للفتنة العامة - أفيرضى أن يصنع بعمار - وهو أعلم بسابقته وفضله في الإسلام - ما ذكرت الروايات المزعومة بأنه أمر غلمانه بأن يضربوه حتى أغمى عليه، ثم يقوم عثمان في هذه الحال فيطأه في بطنه؟ ثم هل ترضى أخلاق عثمان وحيأؤه بأن يدعو بدعوة الجاهلية، فيعير عماراً بأمة سمية، وهي من أهل السابقة والفضل، وعثمان يعرف شرف انتساب عمار إلى أمه سمية رضي الله عنها، أول شهيدة في الإسلام؟

كلا إن الأخبار الصحيحة والموثوقة لا يوجد فيها ما يدنى عثمان رضي الله عنه من هذا الأسلوب المنحط في الزجر والتأديب، علاوة على أن أخلاقه وطبيعته وسيرته تستبعد ذلك تماماً، وما لا شك فيه أن عرض أمثال تلك الروايات الموضوعة على ما عرف من مواقف وأخلاق أولئك الأئمة الأعلام، والأخذ بالاعتبار بمقاييس ذلك العصر ومعاييره لهو أصدق ميزان في النقد لكشف دخائل الوضعيين والمفتريين^(١).

٢ - اتهام عمار بالمساهمة في الفتنة وإثارة الشغب ضد عثمان:

اعتمد المؤرخون في نسبة هذه الافتراءات إلى عمار رضي الله عنه على روايات لم تسلم إحداها من الطعن في صحة أسانيدھا أو في استقامة متونها وتتنوع التهم المنسوبة إلى عمار رضي الله عنه في تحريكه لأمر الفتنة، وتحريضه على عثمان، وسعيه بين العامة للتمرد عليه، فمنها ما ذكر من إرسال عثمان رضي الله عنه له إلى مصر لاستجلاء ما يحدث فيها مما نقل إليه من ثمرد العامة هناك، وأن السبئين استطاعوا استقطاب عمار والتأثير عليه وهذا الخبر الذي يرويه الطبري^(٢) فيه شعيب بن إبراهيم التميمي الكوفي راوية كتب سيف، فيه جهالة، وقال عنه الراوى: ليس بالمعروف وله أحاديث وأخبار، وفيها بعض النكارة، وفيها ما فيها من تحامل على

(١) الخليفة المفترى عليه عثمان بن عفان، ص ١٤ - ٤١. وعمار بن ياسر، ص ١٣٧.

(٢) تاريخ الطبري (٣٤٨/٥).

السلف^(١)، ورواه عمر بن شبة فى تاريخ المدينة وفيه شيخ عمر: على بن عاصم، قال عنه ابن المدينى: كان على بن عاصم كثير الغلط، وإذا رُد عليه لم يرجع، وكان معروفاً فى الحديث، ويروى أحاديث منكراً^(٢)، وقال يحيى بن معين: ليس بشيء^(٣)، وقال مرة: كذاب ليس بشيء^(٤)، وقال النسائى: متروك الحديث^(٥)، وقال البخارى: ليس بالقوى عندهم يتكلمون فيه^(٦)، وهناك من تطف بالكلام عليه، وقال عنه ابن حجر: صدوق يخطئ ويصبر، ورمى بالتشيع^(٧)، وخبر هذا حال إسناده لا يمكن الاطمئنان إليه، لا سيما ما عرف عن عمار رضى الله عنه من الورع الذى يربأ به عن الانغماس فى مثل تلك الأحوال التى ما عهدنا مرتاداً لها إلا سبياً يهودياً حاقداً، ومعاذ الله أن يصل الحال بصحابى من صحابة النبى ﷺ إلى هذا المستوى. يقول خالد الغيث: وهذا الخبر يعارضه ما ثبت من عدالة الصحابة رضوان الله عليهم، هذا فضلاً عن عدم وروده من طريق صحيح^(٨).

ومن الروايات الباطلة فى هذا الباب ما نسب إلى سعيد بن المسيب، وفيها أن الصحابة بمجملهم نقموا على عثمان رضى الله عنه مع من نقم، وحنقوا عليه، وخاصة أبا ذر وابن مسعود، وعمار بن ياسر رضى الله عنهم^(٩)، وأفة هذه الرواية أن فيها تدليساً ليس من النوع الممكن إقراره والتجاوز عنه، فقد أسقط منها راوٍ متهم بالوضع والكذب وهو إسماعيل بن يحيى بن عبيد الله، ولذلك جاء تضعيف علماء الحديث لهذه الرواية، وبيان زيفها عند ترجمتهم لمحمد بن عيسى بن سميع راوى الخبر عن ابن أبى ذئب، يقول الإمام البخارى عن ابن سميع، يقال إنه لم يسمع من

(١) استشهاد عثمان ووقعة الجمل، ص ٣٠.

(٢) سير أعلام النبلاء (٩/٢٥٣).

(٣) المصدر نفسه (٩/٢٥٥).

(٤) المصدر نفسه (٩/٢٥٧).

(٥، ٦) المصدر نفسه (٩/٢٥٥).

(٧) تقريب التهذيب، ص ٤٠٣.

(٨) استشهاد عثمان ووقعة الجمل، ص ٨٦.

(٩) تاريخ دمشق (٣٩/٤١٥). وعمار بن ياسر، ص ١٤٤.

ابن أبي ذئب هذا الحديث، يعنى حديثه عن الزهرى فى مقتل عثمان، ويقول ابن حبان: إن ابن سميع لم يسمع حديثه من ابن أبي ذئب، وإنما سمعه من إسماعيل بن يحيى، فدلّس عنه، وقال الحاكم: أبو محمد - يعنى ابن سميع - روى عن ابن أبي ذئب حديثاً منكراً، وهو حديث مقتل عثمان، ويقال: كان فى كتابه عن إسماعيل بن يحيى عن ابن أبي ذئب فأسقطه، وإسماعيل ذاهب الحديث^(١)، ويقول الدكتور يوسف العش: والرواية المنسوبة إلى سعيد بن المسيب يجب استبعادها، فهى بعد التحرى تظهر موضوعة، فقد نص الحاكم النيسابورى أن أحد رجال سندها قد أسقط من السند رجلاً واهياً، وأنها منكرة، والواقع أنها لا تنبئ عن الاحترام الذى يكتنه سعيد بن المسيب للصحابة فى أقواله الأخرى الصحيحة^(٢).

٣ - براءة عمار من دم عثمان رضى الله عنهما:

ومما يروى فى ذلك اتهام مسروق وأبى موسى رضى الله عنهما لعمار بذلك عند قدومه مع الحسن لاستنفار أهل الكوفة، وهذه الرواية قد وهى إسناده بشعيب المجهول، وسيف المعلول، كما أن الرواية التى فى صحيح البخارى لا تذكر شيئاً من ذلك، فزيادتها لا تحتمل القبول، لا سيما مع طعننا فى صحابى مثل عمار بن ياسر المجار - على لسان النبى ﷺ - من الشيطان^(٣)، والملئء إلى المشاش من الإيمان^(٤).

وقد بين العلماء بطلان مثل هذا الاتهام الذى لم يختص بعمار فحسب، بل تعداه إلى مجموعة أخرى من أجلة الصحابة، يقول ابن كثير: أما ما يذكره بعض الناس من أن بعض الصحابة أسلمه ورضى بقتله، فهذا لا يصح عن أحد من الصحابة، بل كلهم كرهه ومقته وسب من فعله^(٥)، ويقول القاضى أبو بكر بن العربى: فهذا أشبه

(١) تحقيق مواقف الصحابة (١٦/٢ - ١٨). والتاريخ الكبير للبخارى (١/٢٠٣). والتهذيب (٩/٣٩١)، وتهذيب التهذيب (٩/٣٩٢).

(٢) الدولة الأموية (٣٩).

(٣) البخارى، رقم (٣٧٤٣).

(٤) عمار بن ياسر، ص ١٤٧.

(٥) البداية والنهاية (٧/٢٠٧).

ما روى فى الباب، وبه يتبين - وأصل المسألة سلوك سبيل أهل الحق - أن أحداً من الصحابة لم يسع عليه، ولا قعد عنه، ولو استنصر ما غلب ألف أو أربعة آلاف غرباء عشرين ألفاً بلديين أو أكثر من ذلك ولكنه ألقى بيده إلى المصيبة^(١)، ويقول: وقد انتدبت المردة والجهلة إلى أن يقولوا: إن كل فاضل من الصحابة كان عليه مشاغباً مؤلماً، وبما جرى عليه راضياً، واخترعوا كتاباً فيه فصاحة وأمثال كتب عثمان به مستعصخاً إلى على، وذلك كل مصنع، ليوغروا قلوب المسلمين على السلف الماضين والخلفاء الراشدين، فالذى يُنخل من ذلك أن عثمان مظلوم محدود بغير حجة، وأن الصحابة بُرء من دمه بأجمعهم؛ لأنهم أتوا إرادته، وسلموا له رأيه فى إسلام نفسه^(٢).

ثالثاً: براءة عمرو بن العاص من دم عثمان:

لما أحيط بعثمان رضى الله عنه خرج عمرو بن العاص من المدينة متوجهاً إلى الشام وقال: والله يا أهل المدينة ما يقيم بها أحد فيدركه قتل هذا الرجل إلا ضربه الله عزَّ وجلَّ بذل، ومن لم يستطع نصره فليهرب فصار وسار معه ابنه عبد الله ومحمد وخرج بعده حسان بن ثابت وتتابع على ذلك ما شاء الله^(٣)، وعندما جاء الخبر عن مقتل عثمان رضى الله عنه وبأن الناس بايعوا على بن أبى طالب قال عمرو: أنا أبو عبد الله تكون حرب من حك فيه قرحة نكأها، رحم الله عثمان ورضى الله عنه وغفر له، فقال سلامة بن زنباع الجذامى: يا معشر العرب إنه قد كان بينكم وبين العرب باب فاتخذوا باباً إذ كسر الباب فقال عمرو: وذاك الذى نريد ولا يصلح الباب إلا أشاف^(٤) تخرج الحق من حافرة البأس ويكون الناس فى العدل سواء ثم تمثل عمرو بن العاص بهذه الأبيات:

فيا لهف نفسى على مالك أيصرف مالك حفظ القدر

(١) العواصم من القواصم، ص ١٢٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٢.

(٣) تاريخ الطبرى، نقلاً عن عمرو بن العاص، للغضبان، ص ٤٦٤.

(٤) أشاف: جمع أشفى وهو المثقب.

أنزع من الحر^(١) أودى بهم فأعذرهم أم بقومى سكر

ثم ارتحل راجلاً باكيًا ويقول: يا عثماناه! أنعى الحياء والدين حتى قدم دمشق^(٢).

هذه هي الصورة الصادقة عن عمرو رضي الله عنه والمتالية مع شخصيته وخط حياته وقربه من عثمان أما الصورة التي تمسخه إلى رجل مصالح وصاحب مطامع وراغب دنيا فهي الرواية المتروكة الضعيفة رواية الواقدي عن موسى بن يعقوب^(٣) وقد تأثر بالروايات الضعيفة والسقيمة مجموعة من الكتاب والمؤرخين، فأهروا بعمره إلى الحضيض كالذي كتبه محمود شيت خطاب^(٤)، وعبد الخالق سيد أبو راية^(٥)، وعباس محمود العقاد الذي يتعالى عن النظر في الإسناد ويستخف بقارئه ويظهر له صورة معاوية وعمرو رضي الله عنهما بأنهما: ... انتهازيان صاحباً مصالح ولو أجمع الناقدون التاريخيون على بطلان الروايات التي استند إليها في تحليله فهذا لا يعنى للعقاد شيئاً، فقد قال بعد أن ذكر روايات ضعيفة واهية لا تقوم بها حجة: ... وليقل الناقدون التاريخيون ما بدا لهم أن يقولوا في صدق هذا الحوار، وصحة هذه الكلمات، وما ثبت نقله ولم يثبت منه سنده ولا نصه فالذي لا ريب فيه ولو أجمعت التواريخ قاطبة على نقضه أن الاتفاق بين الرجلين، كان اتفاق مساومة ومعاونة على الملك والولاية وأن المساومة بينهما كانت على النصيب الذي آل على كل منهما ولولاه لما كان بينهما اتفاق^(٦).

إن شخصية عمرو بن العاص رضي الله عنه الحقيقية، أنه رجل مبادئ غادر المدينة حين عجز عن نصره عثمان، ويكى عليه بكاءً مرّاً حين قتل، فقد كان من أقرب أصحابه وخلاته ومستشاريه، وكان يدخل في الشورى - في عهد عثمان - من غير

(١) الحر: جمع حرة وهي الظلمة الشديدة.

(٢) تاريخ الطبري، نقلاً عن عمرو بن العاص، للغضبان، ص ٤٨١.

(٣) عمرو بن العاص، للغضبان، ص ٤٨١.

(٤) سفراء النبي ﷺ، ص ٥٠٨.

(٥) عمرو بن العاص، لعبد الخالق سيد أبو راية، ص ٣١٦.

(٦) عمرو بن العاص، للعقاد، ص ٢٣١ - ٢٣٢.

ولاية ومضى إلى معاوية رضي الله عنهما ليتعاونوا معاً على حرب قتلة عثمان والثأر للخليفة الشهيد^(١)، لقد كان مقتل عثمان كافياً لأن يحرك كل غضبه على أولئك المجرمين السفاكين وكان لا بد من اختيار مكان غير المدينة للثأر من هؤلاء الذين تجرؤوا على حرم رسول الله ﷺ وقتلوا خليفته على أعين الناس، وأى غرابة أن يغضب عمرو لعثمان؟ وإن كان هناك من يشك في هذا الموضوع فمداره على الروايات المكذوبة التي تصور عمراً كل همه السلطة والحكم^(٢).

رابعاً: من أقوال الصحابة في الفتنة:

١ - أنس بن مالك رضي الله عنه:

قيل لأنس بن مالك رضي الله عنه: إن حباً على وعثمان لا يجتمعان في قلب، فقال أنس: كذبوا، لقد اجتمع حبهما في قلوبنا^(٣).

٢ - حذيفة بن اليمان رضي الله عنه:

عن خالد بن الربيع قال: سمعنا بوجع حذيفة، فركب إليه أبو مسعود الأنصاري رضي الله عنه في نفر فيهم إلى المدائن، قال: ثم ذكر قتل عثمان، فقال اللهم إني لم أشهد، ولم أقتل، ولم أرض^(٤). وأخرج أحمد بن حنبل عن ابن سيرين عن حذيفة قال: لما بلغه قتل عثمان، قال: اللهم إنك تعلم براءتي من دم عثمان، فإن كان الذين قتلوه أصابوا، فإني بريء منهم، وإن كانوا أخطأوا فقد تعلم براءتي من دمه، وستعلم العرب لئن كانت أصابت بقتله لحلبنا بذلك لبناً، وإن كانت أخطأت بقتله لتحتلبن بذلك دمًا، فاحتلبوا بذلك دمًا، ما رفعت عنهم السيوف ولا القتل^(٥)، وروى ابن عساكر عن جندب بن عبد الله - له صحبة - أنه لقي حذيفة فذكر له أمير المؤمنين عثمان، فقال: أما إنهم سيقتلونه! قال: قلت فأين هو؟ قال: في الجنة، قلت: فأين

(١) عمرو بن العاص، للفضبان، ص ٤٨٩، ٤٩٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٩٢.

(٣) تحقيق مواقف الصحابة (٢/٢٥). والتلهيب لابن حجر (٧/١٤١).

(٤) المصدر نفسه (٢/٢٧).

(٥) المصدر نفسه (٢/٢٨).

قاتلوه؟ قال: في النار^(١).

٣ - أم سليم الأنصارية رضي الله عنها:

قالت أم سليم الأنصارية رضي الله عنها لما سمعت بقتل عثمان: رحمه الله أما إنه لن يحلبوا بعده إلا دمًا^(٢).

٤ - أبو هريرة رضي الله عنه:

وعن أبي مريم قال: رأيت أبا هريرة يوم قتل عثمان وله صغيرتان وهو ممسك بهما وهو يقول: قتل والله عثمان على غير وجه الحق^(٣).

٥ - أبو بكر رضي الله عنه:

روى ابن كثير في البداية والنهاية عن أبي بكر رضي الله عنه قال: لأن آخر من السماء إلى الأرض أحبُّ إليَّ من أن أشرك في قتل عثمان^(٤).

٦ - أبو موسى الأشعري رضي الله عنه:

عن أبي عثمان النهدي قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: إن قتل عثمان رضي الله عنه لو كان هديًا لاحتلبت به الأمة لبنًا، ولكنه كان ضللاً فاحتلبت به دمًا^(٥).

٧ - سمرّة بن جندب رضي الله عنه:

روى ابن عساكر بإسناده إلى سمرّة بن جندب رضي الله عنه قال: إن الإسلام كان في حصن حصين، وإنهم ثلموا في الإسلام ثلثة بقتلهم عثمان، وإنهم شرطوا أشربة، وإنهم لم يسدّوا ثلمتهم أو لا يسدّونها إلى يوم القيامة وإن أهل المدينة كانت فيهم الخلافة فأخرجوها ولم تعد فيهم^(٦).

(١) تحقيق مواقف الصحابة (٢/٢٨)، تاريخ دمشق (ص ٣٨٨).

(٢) البداية والنهاية (٧/١٩٥).

(٣، ٤) تحقيق مواقف الصحابة (٢/٣١)، تاريخ دمشق (ص ٤٩٣).

(٥) تاريخ المدينة (٤/١٢٤٥).

(٦) تحقيق مواقف الصحابة (٢/٣١)، تاريخ دمشق (ص ٣٨٨).

٨ - عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه:

وأخرج أبو نعيم فى (معركة الصحابة) بسنده إلى عبد الله بن عمرو بن العاص قال: عثمان بن عفان ذو النورين قتل مظلوماً أوتى كفلين من الأجر^(١).

٩ - عبد الله بن سلام رضى الله عنه:

قال رضى الله عنه: لا تقتلوا عثمان فإنكم إن فعلتم لم تصلوا جميعاً^(٢) أبداً. وفى رواية: والله لا تهرقون محجماً من دم - أى: من دم عثمان - إلا ازددت به من الله بُعداً^(٣).

١٠ - الحسن بن على رضى الله عنهما:

عن طلق بن خشاف قال: انطلقنا إلى المدينة ومعنا قُرط بن خيثمة، فلقينا الحسن ابن على فقال له قرط: فيم قتل أمير المؤمنين عثمان؟ فقال: قتل مظلوماً^(٤).

١١ - سلمة بن الأكوع رضى الله عنه:

وعن يزيد بن أبى عبيدة قال: لما قتل عثمان خرج سلمة بن الأكوع - وهو بدرى - من المدينة قبل الرّيدة فلم يزل بها حتى كان قبيل أن يموت^(٥).

١٢ - عبد الله بن عمر رضى الله عنه:

فعن أبى حازم قال: كنت عند عبد الله بن عمر بن الخطاب فذكر عثمان، فذكر فضله ومناقبه وقربته حتى تركه أنقى من الزجاجة، ثم ذكر على بن أبى طالب، فذكر فضله وسابقتها وقربته حتى تركه أنقى من الزجاجة، ثم قال: من أراد أن يذكر هذين فليذكرهما هكذا أو فليدع^(٦)، وقال ابن عمر رضى الله عنهما أيضاً: لا تسبوا عثمان فإننا كنا نعدّه من خيارنا^(٧).

(١) معرفة الصحابة (٢٤٥/١). والمعجم الكبير (٤٦/١).

(٢) تحقيق مواقف الصحابة (٣٤/٢). فضائل الصحابة وإسناده صحيح.

(٣) الطبقات (٨١/٣).

(٤، ٥) تاريخ المدينة (١٢٤/٤).

(٦) تاريخ المدينة (١٢٤/٤).

(٧) تحقيق مواقف الصحابة (٣٧٩/٢). فضائل الصحابة وإسناده صحيح.

خامساً: أثر مقتل عثمان في حدوث فتن أخرى:

لقد كانت فتنه قتل عثمان سبباً في حدوث كثير من الفتن الأخرى، وألقت بظلالها على أحداث الفتن التي تلتها، فتغيرت قلوب الناس، وظهر الكذب، وبدأ الخط البياني للانحراف عن الإسلام في عقيدته وشريعته^(١)، وكان مقتل عثمان من أعظم الأسباب التي أوجبت الفتن بين الناس، وبسببه تفرقت الأمة إلى اليوم^(٢)، تفرقت القلوب وعظمت الكروب، وظهرت الأشرار وذل الأخيار، وسعى في الفتنة من كان عاجزاً عنها، وعجز عن الخير والصلاح من كان دأبه إقامته، فبايعوا أمير المؤمنين على ابن أبي طالب رضي الله عنه وهو أحق الناس بالخلافة حيثُذ، وأفضل من بقي، لكن القلوب متفرقة، ونار الفتنة متوقدة فلم تنفق الكلمة ولم تنتظم الجماعة، ولم يتمكن الخليفة وخيار الأمة من كل ما يريدونه من الخير، ودخل في الفرقة والفتنة أقوام^(٣).

وبدأ ضعف الفتوحات تدريجياً خلال السنين الأخيرة من خلافة عثمان، عندما بدأت الفتن تضرب بلاد الإسلام ومركز الخلافة ثم توقفت عندما قتل عثمان واستمرت متوقفة - بل تراجعت في بعض الأماكن - إلى بداية عهد معاوية، حيث استقرت أحوال المسلمين فانطلقت الفتوحات شرقاً وغرباً وشمالاً^(٤).

سادساً: الظلم والاعتداء على الآخرين من أسباب الهلاك في الدنيا والآخرة:

إن الظلم والاعتداء على الآخرين بغير حق من أسباب الهلاك في الدنيا والآخرة، كما قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا هُمَ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩] وإن المتبع لأحوال أولئك الخارجين على عثمان رضي الله عنه المعتدين عليه يجد أن الله تعالى لم يمهلهم، بل أذلهم وأخزاهم وانتقم منهم فلم ينج منهم أحد^(٥).

(١) أحداث وأحاديث فتنه الهرج، ص ٥٩٠.

(٢) (٣، ٢) مجموع الفتاوى (١٦٢/٢٥).

(٤) أحداث وأحاديث فتنه الهرج، ص ٥٩١.

(٥) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (٤٨٣/١).

روى خليفة بن خياط فى تاريخه بإسناد صحيح إلى عمران بن الحذير قال: إن لا يكن عبد الله بن شقيق حدثنى: أن أول قطرة قطرت من دمه - يعنى عثمان - على ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، فإن أبا حُرَيْث ذكر أنه ذهب وسُهِلَ النميرى، فأخرجوا إليه المصحف، فإذا القطرة على ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ فإنها فى المصحف ما حُكَّتْ، وفى تاريخ ابن عساکر عن محمد بن سيرين قال: كنت أطوف بالكعبة، فإذا رجل يقول: اللهم اغفر لى، وما أظن أن تغفر لى، قلت: يا عبد الله، ما سمعت أحداً يقول ما تقول، قال: كنت أعطيت الله عهداً إن قدرت أن ألطم وجه عثمان إلا لطمته، فلما قُتِلَ وُضِعَ على سريره فى البيت، والناس يجيئون، فيصلون عليه، فدخلت كأنى أصلى عليه، فوجدت خلوة، فرفعت الثوب عن وجهه، فلطمت وجهه، وسجّيته وقد يست يمينى، قال محمد بن سيرين: رأيتها يابسة كأنها عود^(١)، ولو لم يكن من آثار ظلم هؤلاء الحاقدين إلا سلُّ المسلمين السيف عليهم إلى يوم القيامة لكفى بذلك رادعاً لهم، ولكل من سار فى فلکهم، قال القاسم بن محمد: مر على رضى الله عنه على رجلين بالمدينة بعدما قتل عثمان، وقبل بيعته وهما يقولان: قتل ابن بيضاء، ومكانه من الإسلام والعرب، ثم والله ما انتطح فيه عتران فقال على: ما قُلتما؟ فأعادا عليه فقال: بلى والله؟ ورجال بعد رجال، وكتائب بعد كتائب أو يخرج ابن مريم^(٢).

سابعاً: تأثر المسلمين لمقتل عثمان رضى الله عنه، وما قيل من أشعار:

كان وقع المصيبة على نفوس المؤمنين عظيماً، فجللهم الحزن وفاضت مآقيهم بالدموع، ولهجت ألسنتهم بالشّاء على عثمان رضى الله عنه، والترحم عليه، وقام حسان بن ثابت رضى الله عنه يرثى أمير المؤمنين ويكثر التّفجع لمقتله، ويهجو قاتليه، وَيَقْرَعُهُمْ بما كسبت أيديهم^(٣) فيقول:

(١) سير الشهداء دروس وعبر، للسّجاني ص ٦٧. تاريخ دمشق (ص ٤٥٨)، وتحقيق مواقف الصحابة (١/٤٨٥).

(٢) تحقيق مواقف الصحابة (١/٤٨٥).

(٣) سير الشهداء، للسّجاني، ص ٦٢.

أتركتم غزو الدُّروب وراءكم
 فلبس هدى المسلمين هديتُم
 إن تُقدِّموا نجعل قري سرواتكم
 أو تدبروا فلبس ما سافرتم
 وكان أصحاب النبي عشيَّة
 أبكى أبا عمرو لحسن بلائه
 وقال حسان أيضاً:

ماذا أردتم من أخى الدين باركت
 قتلتم ولى الله فى جوف داره
 فهلا رعيتم ذمة الله بينكم
 ألم يك فيكم ذا بلاء ومصداق
 فلا ظفرت أيمان قوم تبايعوا
 وقال حسان أيضاً:

من سره الموت صرفاً لا مزاج له
 مستشعري حلق الماذى^(٥) قد شُفِّعتْ
 صبراً فدى لكم أمى وما ولدت
 فليأت مأسدة فى دار عثمانا
 قبل المخاطم^(٦) بيض زان أبدانا
 قد ينفع الصبر فى المكروه أحيانا

(١) مذود: آلة الذود.

(٢) تاريخ الطبرى (٥/٤٤٥).

(٣) الأديم المقدد: الجلد اليابس.

(٤) البداية والنهاية (٧/٢٠٥).

(٥) الماذى: خالص الحديد.

(٦) المخاطم: الأنوف.

فقد رضىنا بأهل الشام نافرة
 إني لمنهم وإن غابوا وإن شهدوا
 لتسمعن^(١) وشيكاً فى ديارهم
 وقال أيضاً:

إن تُمسِ دارُ ابنِ أروى منه خاوية
 فقد يصادف باغى الخير حاجته
 يا أيها الناس أبدوا ذات أنفسكم
 قوموا بحق ملكِ الناس تعترفوا
 فيهم حبيب شها بالمولت يقدمهم
 وقال كعب بن مالك رضى الله عنه:

ويحُ لأمر قد أتانى رائع
 قتل الإمام له النجوم خواضع
 يا لهف نفسى إذ تولوا غدوة
 ولّوا ودلّوا فى الضريح أخاهم
 من نائلٍ أو سؤدد وحمالة
 كم من يتيم كان يجبرُ عظمه
 فرجتها عنه برحمتك بعدما
 ما زال يقبلهم ويرأب ظلمهم

وبالأمير وبالإخوان إخوانا
 ما دمت حياً وما سُميتُ حسّانا
 الله أكبر يا ثارات عثمان^(٢)
 باب صريع وياب محرق خربُ
 فيها ويهوى إليها الذكر والحسبُ
 لا يستوى الصدق عند الله والكذب
 بغرة عَصَب من خلفها عَصَبُ
 مستلثماً قد بدا فى وجهه الغضب^(٣)

هدّ الجبال فأنغضت برجوف
 والشمس بازغة له بكسوف
 بالنعش فوق عواتق وكثوف
 ماذا أجنّ ضريحه المسقوف^(٣)
 سبقت له فى الناس أو معروف
 أمس بمنزلة الضياع يطوف
 كادت وأيقن بعدها بحتوف
 حتى سمعت برنة التلهيف

(١) تاريخ الطبرى (٤٤٧/٥).

(٢) حبيب بن مسلمة الفهرى، تاريخ الطبرى (٤٤٦/٥).

(٣) التمهيد والبيان، ص ٢١٠.

أمسى مقبماً بالبيع وأصبحوا متفرقين قد أجمعوا بحفوف^(١)
النار موعدهم بقتل إمامهم عثمان صهر في البلاد عفيف
جمع الجمالة^(٢) بعد حلم راجح والخير فيه مبين معروف
يا كعب لا تنفك تبكي هالكاً ما دمت حياً في البلاد تطوف
وقال كعب أيضاً:

فكف يديه ثم أغلق بابه وأيقن أن الله ليس بغافل
وقال لأهل الدار لا تقتلوهم عفا الله عن كل امرئ لم يقاتل
فكيف رأيت الله صبّ عليهم العداوة والبغضاء بعد التواصل؟
وكيف رأيت الخير أدبر بعهده عن الناس إدبار النعام الجوافل؟^(٣)
وقال راعي الإبل النميري في ذلك:

عشية يدخلون بغير إذن على متوكل أوفى وطابا
خليل محمد ووزير صدق ورابع خير من وطئ الترابا^(٤)

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

(١) التمهيد والبيان، ص ٢١١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢١١.

(٣) البداية والنهاية (٢٠٥/٧).

(٤) أي - خير من وطئ التراب في أمة محمد ﷺ بعد رسول الله ﷺ ثم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان.

البداية والنهاية (٢٠٦/٧).

الخلاصة

١ - كان رضى الله عنه فى أيام الجاهلية من أفضل الناس فى قومه؛ فهو عريض الجاه ثرى شديدا الحياء عذب الكلمات، فكان قومه يحبونه أشد الحب ويوقرونه، لم يسجد فى الجاهلية لصنم قط، ولم يقترب فاحشة قط، فلم يشرب الخمر فى الجاهلية.

٢ - كان عثمان قد ناهز الرابعة والثلاثين من عمره حين دعاه أبو بكر الصديق إلى الإسلام، ولم يعرف عنه تلك أو تلعم، بل كان سباقا أجاب على الفور دعوة الصديق فكان بذلك من السابقين الأولين.

٣ - فرح المسلمون بإسلام عثمان فرحا شديدا وتوثقت بينه وبينهم عرى المحبة وأخوة الإيمان، وأكرمه الله تعالى بالزواج من بنت رسول الله ﷺ رقية.

٤ - إن سنة الابتلاء ماضية فى الأفراد والجماعات والشعوب والأمم والدول، وقد مضت هذه السنة فى الصحابة الكرام وتحملوا من البلاء ما تنوء به الرواسى الشامخات، وبذلوا أموالهم ودماءهم فى سبيل الله، وبلغ بهم الجهد ما شاء الله أن يبلغ، ولم يسلم أشراف المسلمين من هذا الابتلاء، فقد أودى عثمان وعذب فى سبيل الله تعالى على يدى عمه الحكم بن أبى العاص.

٥ - منذ اليوم الذى أسلم فيه عثمان لزم النبى ﷺ حيث كان، ولم يفارقه إلا للهجرة بإذنه، أو فى مهمة من المهام التى يندب لها، ولا يغنى فيها أحد غناه، شأنه فى هذه الملازمة شأن الخلفاء الراشدين جميعا، كأنما هى خاصة من خواصهم رشحهم لها ما رشحهم بعد ذلك للخلافة متعاقبين.

٦ - كان ذو النورين على صلة وثيقة بالدعوة الكبرى من ستنها الأولى، فلم يفته من أخبار النبوة الخاصة والعامة فى حياة النبى ﷺ، ولم يفته شىء بعدها من أخبار الخلافة فى حياة الشيخين، ولم يفته بعبارة أخرى شىء مما نسميه اليوم بأعمال التأسيس فى الدولة الإسلامية.

٧ - كان المنهج التربوي الذي تربي عليه عثمان بن عفان وكل الصحابة الكرام هو القرآن الكريم، المنزل من عند رب العالمين.

٨ - إن الرافد القوي الذي أثر في شخصية عثمان بن عفان وصقل مواهبه، وفجر طاقته، وهذب نفسه هو مصاحبته لرسول الله ﷺ وتلمذه على يديه في مدرسة النبوة، ذلك أن عثمان رضى الله عنه لازم الرسول ﷺ في مكة بعد إسلامه كما لازمه في المدينة بعد هجرته، فقد نظم عثمان نفسه، وحرص على التلمذة في حلقات مدرسة النبوة في فروع شتى من المعارف والعلوم على يد معلم البشرية وهاديها، والذي أدبه ربه فأحسن تأديبه.

٩ - لم يكن عثمان بن عفان رضى الله عنه ممن تخلفوا عن بدر لتقاعس منه أو هروب ينشده، كما يزعم أصحاب الأهواء ممن طعن عليه بتغيبه عن بدر، فهو لم يقصد مخالفة الرسول ﷺ؛ لأن الفضل الذي حازه أهل بدر في شهود بدر طاعة الرسول ﷺ ومتابعته، وعثمان رضى الله عنه خرج فيمن خرج مع رسول الله ﷺ فردّه ﷺ للقيام على ابنته فكان في أجل فرض لطاعته لرسول الله وتخلفه، وقد ضرب له بسهمه وأجره فشاركهم في الغنيمة والفضل والأجر لطاعته الله ورسوله وانقياده لهما.

١٠ - في الحديبية ذكر المحب الطبرى اختصاص عثمان بعدة أمور منها: اختصاصه بإقامة يد النبی الکریمه مقام يد عثمان لما بايع الصحابة وعثمان غائب، واختصاصه بتبليغ رسالة رسول الله ﷺ إلى من بمكة أسيراً من المسلمين، وذكر شهادة النبی ﷺ لعثمان بموافقه في ترك الطواف لما أرسله في تلك الرسالة.

١١ - قبل رسول الله ﷺ شفاعة عثمان بن عفان في عبد الله بن أبي السرح في فتح مكة.

١٢ - من حياة عثمان رضى الله عنه الاجتماعية في المدينة: زواجه من أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ، بعد وفاة رقية بنت رسول الله، ووفاة عبد الله بن عثمان ثم وفاة أم كلثوم رضى الله عنهما.

١٣ - من مساهمته الاقتصادية في بناء الدولة: شراء بئر رومة بعشرين ألف درهم،

وجعلها عثمان رضى الله عنه للغنى والفقر وابن السبيل، وتوسعة المسجد النبوى، وإنفاقه الكبير على جيش العسرة.

١٤ - وردت أحاديث كثيرة فى فضل عثمان رضى الله عنه، منها ما ورد فى فضله مع غيره ومنها ما ورد فى فضله وحده، وقد أخبر رسول الله ﷺ عن الفتنة التى يقتل فيها عثمان.

١٥ - كان عثمان رضى الله عنه من الصحابة وأهل الشورى الذين يؤخذ رأيهم فى أمهات المسائل فى عهد الصديق؛ فهو ثانى اثنين فى الخطوة عند الصديق، فعمر ابن الخطاب للحزم والشدائد وعثمان للرفق والأناة، وكان عمر وزير الخلافة الصديقية وكان عثمان أمينها العام، وناموسها الأعظم وكتبها الأكبر.

١٦ - كان عثمان ذا مكانة عند عمر، فكانوا إذا أرادوا أن يسألوا عمر عن شىء رمّوه بعثمان، وبعدد الرحمن بن عوف، وكان عثمان يسمى الرديف - والرديف بلسان العرب هو الذى يكون بعد الرجل - والعرب تقول ذلك للرجل الذى يرجونه بعد رئيس، وكانوا إذا لم يقدر هذان على عمل شىء ثلثوا بالعباس.

١٧ - من أفضل أعمال عبد الرحمن عزله نفسه من الأمر وقت الشورى، واختياره للأمة من أشار به أهل الحل والعقد، فنهض فى ذلك أتم نهوض على جمع الأمة على عثمان.

١٨ - هناك أباطيل شيعية وأكاذيب رافضية دست فى التاريخ الإسلامى فى قصة الشورى وتولية عثمان الخلافة، وقد تلقفها المنشرقون وقاموا بتوسيع نشرها، وتأثر بها الكثير من المؤرخين والمفكرين والمحدثين، ولم يمحصوا الروايات ويحققوا فى سندها ومتنها، فانتشرت بين المسلمين.

١٩ - جاءت الأدلة الكثيرة التى تشير وتنبه إلى أحقية عثمان رضى الله عنه بالخلافة ولا نزاع عند المتعسكين بالكتاب والسنة فى ذلك، وقد أجمع أصحاب رسول الله ﷺ وكذا من جاء بعدهم ممن سلك سبيلهم من أهل السنة والجماعة على أن عثمان بن عفان رضى الله عنه أحق الناس بخلافة النبوة بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنهما.

٢٠ - عندما بويج عثمان رضى الله عنه بالخلافة قام فى الناس خطيباً وأعلن عن نهجه السياسى مبيناً أنه سيتقيد بالكتاب والسنة وسيرة الشيخين، كما أنه أشار فى خطبته إلى أنه سيسوس الناس بالحلم والحكمة إلا فيما استوجبوه من الحدود، ثم حذرهم من الركون إلى الدنيا والافتتان بحطامها خوفاً من التنافس والتباغض والتحاسد بينهم، مما يفضى بالأمة إلى الفرقة والخلاف.

٢١ - إن شخصية ذى النورين تعتبر شخصية قيادية وقد اتصف رضى الله عنه بصفات القائد الربانى؛ من العلم، والقدرة على التوجيه والتعليم، والحلم، والسماحة، واللين، والعفو، والتواضع، والحياء، والعفة، والكرم، والشجاعة، والحزم، والصبر، والعدل، والعبادة، والخوف، والبكاء، والمحاسبة، والزهد والشكر، وتفقد أحوال الناس، وتحديد الاختصاصات، والاستفادة من أهل الكفاءات.

٢٢ - إن معرفة صفات الخلفاء الراشدين ومحاولة الاقتداء بهم، خطوة صحيحة لمعرفة صفات القادة الربانيين الذين يستطيعون أن يقودوا الأمة نحو أهدافها المرسومة بخطوات ثابتة.

٢٣ - قامت سياسة عثمان المالية على الأسس العامة التالية: تطبيق سياسة مالية عامة إسلامية، عدم إخلال الجباية بالرعاية، أخذ ما على المسلمين بالحق لبيت مال المسلمين، وأخذ ما على أهل الذمة لبيت مال المسلمين بالحق، وإعطاؤهم ما لهم وعدم ظلمهم، وتخلق عمال الخراج بالأمانة والوفاء، وتفادى أية انحرافات مالية يسفر عنها تكامل النعم لدى العامة.

٢٤ - كانت النفقات فى عهد عثمان تصرف على: صرف مرتبات الولاة، ومرتبات الجند، وعلى الحج، وإعادة بناء المسجد النبوى، وتمويل توسعة المسجد الحرام، وإنشاء أول أسطول بحرى، وتمويل الساحل من الشعبية إلى جدة، وحفر الآبار، والإنفاق على المؤذنين، وغيرها من الأمور.

٢٥ - اتهم عثمان رضى الله عنه من قبل الغوغاء والخوارج بإسرافه فى بيت المال وإعطائه أكثره لأقاربه، وقد ساند هذا الاتهام حملة دعائية باطلة قادها السبئيون وتلقفها الشيعة الروافض ضده إلى يومنا هذا، وتسربت فى كتب التاريخ،

وتعامل معها المفكرون والمؤرخون على كونها حقائق، وهى باطلة لم تثبت لأنها مختلفة.

٢٦ - يعتبر عهد ذى النورين امتداداً للعهد الراشدى الذى تتجلى أهميته بصلته بالعهد النبوى وقربه منه، فكان العهد الراشدى عامة، والجانب القضائى فيه خاصة، امتداداً للقضاء فى العهد النبوى، مع المحافظة الكاملة والتامة على جميع ما ثبت فى العهد النبوى، وتطبيقه بحذافيره وتنفيذه بنصه ومعناه.

٢٧ - كانت خطة عثمان فى الفتوحات تتسم بالحسم والعزم وتمثلت فى الآتى: إخضاع المتمردين من الفرس والروم، وإعادة سلطان الإسلام إلى هذه البلاد، واستمرار الجهاد والفتوحات فيما وراء هذه البلاد لقطع المدد عنهم، وإقامة قواعد ثابتة يربط فيها المسلمون لحماية البلاد الإسلامية، وإنشاء قوة بحرية عسكرية لافتتقار الجيش الإسلامى إلى ذلك.

٢٨ - كانت معسكرات الإسلام ومسالحه (ثغوره) فى عهد عثمان هى عواصم أقطاره الكبرى، فمعسكر العراق، الكوفة والبصرة، ومعسكر الشام فى دمشق بعد أن خلع الشام كله لمعاوية بن أبى سفيان، ومعسكر مصر وكان مركزه القسطنطينية، وكانت هذه المعسكرات تقوم بحماية دولة الإسلام ومواصلة الفتوحات ونشر الإسلام.

٢٩ - من أشهر قادة الفتوحات فى عهد عثمان رضى الله عنه: الأحنف بن قيس، وسليمان بن ربيعة، وعبد الرحمن بن ربيعة، وحبيب بن مسلمة.

٣٠ - كانت معركة ذات الصواري من مظاهر تفوق العقيدة الصحيحة الصلبة على الخبرة العسكرية والتفوق فى العدد والعدد، فلقد كان الروم هم أهل البحر منذ القدم، وقد مروا بتجارب طويلة فى الحروب البحرية، بينما كان المسلمون حديثي عهد بركوب البحر والقتال البحرى.

٣١ - من أهم الدروس والعبر والفوائد فى فتوحات عثمان بن عفان رضى الله عنه: تحقيق وعد الله للمؤمنين بالنصر والتمكين، التطور فى فنون الحرب والسياسة، ركوب المسلمين البحر، جمع المعلومات عن الأعداء، الحرص على وحدة

الكلمة في مواجهة العدو.

٣٢ - يظهر من قصة جمع القرآن في عهد عثمان رضى الله عنه مدى فهم الصحابة رضى الله عنهم لآيات النهى عن الاختلاف، حيث إن الله نهى عن الاختلاف وحذر منه، فلعمق فهمهم لهذه الآيات ارتعد حذيفة رضى الله عنه عندما سمع بوادر الاختلاف في قراءة القرآن، فرحل فوراً إلى المدينة النبوية وأخبر عثمان رضى الله عنه بما رأى وبما سمع، وفي مدة قصيرة حسم عثمان الأمر وأغلق باب الخلاف.

٣٣ - إن الأخذ بالأسباب نحو تأليف قلوب المسلمين وتوحيد صفهم من أعظم الجهاد، وهذه الخطوة مهمة في إعزاز المسلمين وإقامة دولتهم، وتحكيم شرع ربهم، وهذا من فقه الخلفاء الراشدين، ويتجلى في أبهى صورة في جمع عثمان رضى الله عنه للأمة على مصحف واحد.

٣٤ - كانت أقاليم الدولة الإسلامية في عهد عثمان رضى الله عنه كلاً من: مكة، والمدينة، والبحرين واليمامة، واليمن وحضرموت، والشام، وأرمينية، ومصر، والبصرة، والكوفة.

٣٥ - اتخذ عثمان رضى الله عنه أساليب متنوعة لمراقبة عماله والاطلاع على أخبارهم منها: حضوره لموسم الحج، سؤال القادمين من الأمصار والولايات، إرسال المفتشين إلى الولايات، استقدام الولاة وسؤالهم، وغير ذلك من الأساليب.

٣٦ - من حقوق الولاة في العهد الراشدى: الطاعة في غير معصية الله، بذل النصيحة للولاة، إيصال الأخبار الصحيحة إليهم، احترامهم بعد عزلهم، وإعطاؤهم مرتباتهم.

٣٧ - من واجبات الولاة في العهد الراشدى: إقامة أمور الدين، تأمين الناس في بلادهم، الجهاد في سبيل الله، بذل الجهد في تأمين الأرزاق للناس، تعيين العمال والموظفين، رعاية أهل اللمة، مشاورة أهل الرأى في ولايتهم، النظر في حاجة الولاية العمرانية، مراعاة الأحوال الاجتماعية لسكان الولاية.

٣٨ - إن عثمان خليفة راشد يقتدى به، وأفعاله تشكل سوابق دستورية في هذه الأمة،

فكما أن عمر سن لمن بعده التخرج عن تقريب الأقربين، فإن عثمان سن لمن بعده تقريب الأقربين إذا كانوا في كفاءتهم الإدارية، وكل ما أنكر على عثمان لا يخرج عن دائرة المباح.

٣٩ - إن الولاة الذين ولاهم عثمان رضى الله عنه من أقاربه قد أثبتوا الكفاءة والمقدرة في إدارة شئون ولاياتهم، وفتح الله على أيديهم الكثير من البلدان، وساروا في الرعية سيرة العدل والإحسان، ومنهم من تقلد مهام الولاية في عهد الصديق والفاروق رضى الله عنهما.

٤٠ - إن الذى يرجع إلى الصحيح المحض من وقائع التاريخ، ويتبع سيرة الرجال الذين استعان بهم أمير المؤمنين عثمان، وما كان لجهادهم من جميل الأثر في تاريخ الدعوة الإسلامية، بل ما كان لحسن إدارتهم من عظيم النتائج في هناء الأمة وسعادتها؛ فإنه لا يستطيع أن يمنع نفسه من الجهر بالإعجاب والفخر كلما أمعن في دراسة ذلك الدور من أدوار التاريخ الإسلامى.

٤١ - إن عثمان رضى الله عنه لم يسلم من كثير من الباحثين في كتاباتهم غير المنصفة وغير المحققة عن عهد عثمان، وقد تورط الكثير منهم في الروايات الضعيفة والرافضية وبنوا أحكاماً باطلة وجائرة في حق عثمان، مثل طه حسين في كتابه الفتنة الكبرى، وراضى عبد الرحيم في كتابه النظم الإسلامية، ومحمد الرئيس في كتابه النظريات السياسية، وعلى حسين الخربوطلى، في كتابه الإسلام والخلافة، وأبى الأعلى المودودى في كتابه الملك والخلافة، وسيد قطب في كتابه العدالة الاجتماعية، وغيرهم لقد كان عثمان رضى الله عنه بحق الخليفة المظلوم الذى افترى عليه خصومه الأولون ولم ينصفه المتأخرون.

٤٢ - إن الحقيقة التاريخية تقول: إن عثمان رضى الله عنه لم ينف أباً ذر رضى الله عنه، إنما استأذنه فأذن له، ولكن أعداء عثمان رضى الله عنه كانوا يشيعون عنه بأنه نفاه.

٤٣ - إن أباً ذر رضى الله عنه لم يتأثر لا من قريب ولا من بعيد بأراء عبد الله بن سبأ اليهودى، وقد أقام بالريذة حتى توفى، ولم يحضر شيئاً مما وقع من الفتن.

٤٤ - من أسباب فتنه مقتل عثمان رضى الله عنه أمور عدة، منها: الرخاء وأثره في المجتمع، طبيعة التحول الاجتماعي في عهد عثمان رضى الله عنه، مجيء عثمان بعد عمر رضى الله عنهما، خروج كبار الصحابة من المدينة، العصية الجاهلية، توقف الفتوحات، المفهوم الخاطئ للورع، طموح الطامحين، تأمر الحاقدين، التدبير للحكم لإثارة المآخذ ضد عثمان، استخدام الأساليب المهيجة للناس، دور عبد الله بن سبأ في الفتنة.

٤٥ - كانت بداية اشتعال الفتنة بالكوفة، وقد تم نفي رجالها إلى الشام، ثم استقر أمرهم عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بالجزيرة، ثم رجعوا إلى الكوفة بعد مكاتبة يزيد بن قيس لهم بالمجيء للكوفة.

٤٦ - كانت سياسة عثمان رضى الله عنه في التعامل مع الفتنة قائمة على الحلم والتأني والعدل، وقد اتخذ عدة أساليب لمواجهة منها: إرسال لجان تفتيش وتحقيق، كتب إلى أهل الأمصار كتاباً شاملاً بمثابة إعلان عام لكل المسلمين، مشورة عثمان لولاة الأمصار، إقامة الحججة على المتمردين، الاستجابة لبعض مطالبهم.

٤٧ - إن التأمل في هدى عثمان رضى الله عنه في تعامله مع الفتنة التي وقعت في عهده، يمكنه أن يستنبط بعض الضوابط التي تعين المسلم لمواجهة للفتن، ومن هذه الضوابط: الثبوت، لزوم العدل والإنصاف، الحلم والأناة، الحرص على ما ينفع ونبد ما يفرق بين المسلمين، لزوم الصمت والحذر من كثرة الكلام، استشارة العلماء الربانيين، الاسترشاد بأحاديث رسول الله ﷺ في الفتن.

٤٨ - يظهر للباحثين أن هناك أسباباً دعت عثمان رضى الله عنه إلى منع الصحابة من القتال، وهي: العمل بوصية الرسول ﷺ التي سار بها وبينها عثمان رضى الله عنه يوم الدار، وأنها عهد عهد به إليه وأنه صابر نفسه عليه، كره أن يكون أول من خلف رسول الله ﷺ في أمته بسفك دماء المسلمين، علمه بأن البغاة لا يريدون غيره فكره أن يتوقى بالمؤمنين وأحب أن يقيمهم بنفسه، علمه بأن هذه الفتنة فيها قتله، وذلك فيما أخبره بها رسول الله ﷺ عند تبشيره إياه بالجنة

على بلوى نصيبه، وأنه سيقتل مصطبراً بالحق معطيه فى فتنة، العمل بمشورة ابن سلام رضى الله عنه له، إذ قال له: الكف الكف فإنه أبلغ لك فى الحجة.

٤٩ - إن قاتل عثمان رضى الله عنه رجل مصرى، لم تفصح الروايات عن اسمه، وأما ما يتعلق بتهمة محمد بن أبى بكر بقتل عثمان بمشاقصه، فهذا باطل، والروايات بذلك روايات ضعيفة، كما أن متونها شاذة لمخالفتها للروايات الصحيحة التى تبين أن القاتل هو رجل مصرى.

٥٠ - إن الصحابة جميعاً رضى الله عنهم أبرياء من دم عثمان رضى الله عنه، وقد صحت الأخبار وأكدت الحوادث والتاريخ على براءة الصحابة من التحريض على عثمان أو المشاركة فى الفتنة ضده، كما أوردنا ذلك بالروايات الصحيحة.

٥١ - إن عثمان رضى الله عنه كان متيقظاً، ولم تنطل عليه المؤامرة ولا أهدافها، بل استطاع أن يخترق صفوف المتمردين ويكشف مخططاتهم كاملاً، وواجه بشجاعة فائقة، وكره أن يكون أول من يسل السيف فى المسلمين، وأثر أن يفدى الأمة بنفسه، وهذه قمة التضحية والإيثار.

٥٢ - كانت فتنة مقتل عثمان سبباً فى حدوث كثير من الفتن الأخرى، وألقت بظلالها على أحداث الفتن التى تليها، فتغيرت قلوب الناس، وظهر الكذب وبدأ الخط البيانى للانحراف عن الإسلام فى عقيدته وشريعته.

٥٣ - إن الظلم والاعتداء على الآخرين بغير حق من أسباب الهلاك فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿وَلَيْكَ الْقُرْآنُ أَهْلِكُنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩] وإن المتبع لأحوال أولئك الخارجين على عثمان رضى الله عنه المعتدين عليه يجد أن الله تعالى لم يهملهم، بل أذلهم وأخزاهم، وانتقم منهم فلم ينج منهم أحد.

٥٤ - كان وقع المصيبة على نفوس المسلمين عظيماً، فذهلت عقولهم، وجللهم الحزن وفاضت مآقيهم بالدموع، ولهجت ألسنتهم بالثناء على عثمان والترحم عليه، وقام حسان بن ثابت رضى الله عنه يرثى أمير المؤمنين ويكثر التفجع لمقتله، ويهجو قاتليه بقصائد مبكية حزينة، حفظها لنا التاريخ، ولم تهملها الليالى،

ولم تفصلها عنا حواجز الزمن، ولا أسوار القرون.

٥٥ - وبعد فهذا ما يسره الله لى من جمع وترتيب وتحليل تضمنتها فصول هذا الكتاب (عثمان بن عفان رضى الله عنه شخصيته وعصره) فما كان فيه من صواب فهو محض فضل الله علىّ فله الحمد والمنة، وما كان فيه من خطأ فاستغفر الله تعالى وأتوب إليه والله ورسوله برىء منه، وحسبى أنى كنت حريصاً على بيان الحقائق والبراهين والأدلة التى تبين حقيقة الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضى الله عنه وأدعو الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب إخوانى المسلمين، وأن يذكرنى من يقرؤه فى دعائه فإن دعوة الأخ لأخيه فى ظهر الغيب مستجابة إن شاء الله تعالى، وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

ويقول الشاعر:

إن تجدد عيياً فدد الخلالا جلّ من لا عيب فيه وعلا

ويقول الشاعر:

أبعد الخير على أهل الكسل	اطلب العلم ولا تكسل، فما
تشتغل عنه بمال وحوك	احتفل للفقّه فى الدين ولا
يعرف المطلوب يحقر ما بذل	واهجر النوم وحصله فمن
كل من سار على الدرب وصل	لا تقل قد ذهبت أربابه

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

كتبه الفقير إلى عفو ربه

ومغفرته ورحمته ورضوانه

على محمد محمد الصلابى

٨ ربيع الثانى ١٤٢٣هـ

٢٠٠٢/٦/١٨م

تعريف ببعض المناطق التي ذكرت في البحث^(١)

- ١ - طبرستان: منطقة تقع جنوب بحر قزوين عاصمتها مدينة همدان، جاء اسمها من جمع كلمة طبر التي تعنى فى اللغة الفارسية الفأس مع زنان التي تعنى النساء.
- ٢ - أذربيجان: أصل الكلمة أتروياتن، التي تعنى أرض النار، وتقع هذه المنطقة غرب بحر قزوين، عاصمتها مدينة أردبيل.
- ٣ - أرمينيا: صقع كبير يقع شرق آسيا الصغرى جنوب البحر الأسود، جاءت تسميتها من سكانها الأرمن وهم قبائل هندوأوروبية اعتنقوا النصرانية فى بداية القرن الرابع الميلادى، بعد ذلك تحولوا إلى المذهب المنوفىستى (أصحاب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح عليه السلام)، كان سكانها قد قاوموا الفتح الإسلامى لبلادهم ويقروا محافظين على ديانتهم النصرانية.
- ٤ - طخارستان: إقليم يقع جنوب غرب بلاد ما وراء النهر، عاصمتها بلخ، تقع غالبية أراضيها حالياً ضمن أفغانستان، أهم مراكزها اليوم قندز وخوست.
- ٥ - خراسان: معناها مشرق الشمس تقع شرق الهضبة الإيرانية، عاصمتها مرو.
- ٦ - سجستان: منطقة تقع جنوب إقليم خراسان، عاصمتها بست، جاء اسمها من سكنة قوم فيها يدعون بالسাকা (الإسكيثيين)، أما الترجمة الحرفية لها فتعنى أرض الكلاب على أساس أن سك تعنى الكلاب فى اللغة الفارسية، وآستان المنطقة، وحالياً تدعى سيستان.
- ٧ - بلاد ما وراء النهر: وهى الأراضى الواقعة ما بين نهري جيحون (آموداريا) وسيحون (سرداريا)، ومن مدنها بخارى وسمرقند وطشقند، وحالياً تقع ضمن جمهوريات تركمنستان وأوزبكستان وطاجيكستان.

(١) التعريف بهذه المناطق قام به الدكتور فرست مرعى الدهوكى جزاء الله خيراً.

٨ - جرجان: إقليم يقع شرق بحر قزوين، وكان اسمها سابقاً إقليم باكتريا حيث بشر فيه زرادشت بدعوته.

٩ - خوزستان: إقليم يقع جنوب غرب الهضبة الإيرانية يحاذي العراق العربي، قصبتها الأهواز، أطلق عليه العرب اسم إقليم عربستان، سيطر عليه الشاه رضا بهلوي سنة ١٩٢٥م بعد أن اعتقل حاكمها العربي الشيخ خزعل الكعبي، وهي مشهورة بالنفط.

المصادر والمراجع

- ١ - أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، إبراهيم شعوط، بيروت، المكتب الإسلامى، ط ٥، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ٢ - أثر التشيع على الروايات التاريخية، د. عبد العزيز نور ولى، دار الخضير، المدينة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- ٣ - أحداث وأحاديث الفتنة الأولى، عبد العزيز صغير دخان، تحت الطبع.
- ٤ - الأحكام السلطانية، أبو الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردى، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
- ٥ - أدب صدر الإسلام، واضح الصمد.
- ٦ - الأدب فى الإسلام فى عهد النبوة وخلافة الراشدين، د. نايف معروف، دار النفائس، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- ٧ - الأساس فى السنّة وفقهها والسيرة النبوية، سعيد حوى، دار السلام، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- ٨ - أسد الغابة فى معرفة الصحابة، لعز الدين بن الاثير، أبى الحسن بن على بن محمد الجزرى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- ٩ - أشهر مشاهير الإسلام، رفيق العظم، دار الرائد العربى، بيروت، لبنان، الطبعة السادسة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ١٠ - أصول الإسماعيلية، لويس برنارد، ترجمه إلى العربية خليل أحمد جلّو، جاسم محمد الرجب، بغداد مكتبة المثنى ١٣٦٧هـ - ١٩٤٧م.
- ١١ - أصول مذهب الشيعة الإمامية، ناصر بن عبد الله الغفارى، دار الرضا للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- ١٢ - أضواء البيان فى تاريخ القرآن، صابر حسن محمد أبو سليمان، دار عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

- ١٣ - أعلام المسلمين لخالد البيطار.
- ١٤ - الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، لأبي ربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، عالم الكتب، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- ١٥ - الأموال لأبي عبيد.
- ١٦ - أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من الميلاد إلى الاستشهاد، د. أحمد السيد يعقوب السيد يوسف الرفاعي، دار الفضيلة، القاهرة.
- ١٧ - الأمين ذو النورين، محمود شاكر، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- ١٨ - الأنساب، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، بيروت: الناشر محمد أمين دمج، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- ١٩ - أوليات الفاروق، د. غالب عبد الكافي القرشي، المكتب الإسلامي بيروت، مكتبة الحرمين - الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ٢٠ - الإبانة في أصول الديانة، لأبي الحسن الأشعري، طبعة الجامعة الإسلامية ١٩٧٥م.
- ٢١ - الإتقان للسيوطي، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ٢٢ - إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء، محمد الخضري، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- ٢٣ - الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية نشأتها وتطورها، الدكتور سليمان بن صالح بن سليمان آل كمال، جامعة أم القرى، معهد البحوث وإحياء التراث.
- ٢٤ - إرشاد العباد للاستعداد ليوم المعاد، عبد العزيز محمد السلمان، مطابع الخالد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
- ٢٥ - الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

- ٢٦ - الانتسراح ورفع الضيق بسيرة أبى بكر الصديق، د. على محمد الصلابي، مكتبة الصحابة، الشارقة، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.
- ٢٧ - الاجتهاد فى الفقه الإسلامى، عبد السلام السليمانى، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمغرب، طبعة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.
- ٢٨ - استشهاد عثمان ووقعة الجمل فى مرويّات سيف بن عمر فى تاريخ الطبرى دراسة نقدية، د. خالد بن محمد الغيث، دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ.
- ٢٩ - الاستيعاب فى معرفة الأصحاب، لأبى عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر، دار الجليل، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.
- ٣٠ - الاعتصام، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي.
- ٣١ - اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، لتقى الدين ابن تيمية، تحقيق: د. ناصر العقل، طبع مطابع العبيكان الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ.
- ٣٢ - البحرين فى صدر الإسلام وأثرها فى حركة الخوارج، عبد الرحمن عبد الكريم النجم، دار الحرية بغداد ١٩٧٣ م.
- ٣٣ - البداية والنهاية، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقى، دار الريان، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- ٣٤ - البيان والتبيين، للجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، دار الخانجي بمصر، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م.
- ٣٥ - تاريخ الدعوة الإسلامية فى زمن الرسول والخلفاء الراشدين، د. جميل عبد الله المصرى، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- ٣٦ - تاريخ ابن خلدون.
- ٣٧ - تاريخ ابن خلدون، دار النفائس، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م.
- ٣٨ - تاريخ الأمم والملوك لأبى جعفر الطبرى، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

- ٣٩ - تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ٤٠ - التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، د. عبد العزيز عبد الله الحميدى، دار الدعوة، الإسكندرية، دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- ٤١ - تاريخ التشريع الإسلامي للخضري، محمد الخضري، المكتبة التجارية الكبرى، مطبعة السعادة، الطبعة السادسة ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م.
- ٤٢ - تاريخ الجدل، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، ١٩٣٤م.
- ٤٣ - تاريخ العرب الأدبي في الجاهلية وصدر الإسلام، نكلسن، رينولد، ترجمة صفاء خلوصى، بغداد: مطبعة المعارف ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م.
- ٤٤ - تاريخ القضاء في الإسلام، د. محمد الزحيلي، دار الفكر دمشق، دار الفكر المعاصر لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- ٤٥ - تاريخ القضاى، كتاب عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف للإمام القاضى محمد بن سلام بن جعفر الشافعى، مطبوعات جامعة أم القرى.
- ٤٦ - تاريخ المدينة، أبو زيد عمر بن شبة النميرى البصرى، تحقيق: محمود شلتوت، نشر السيد حبيب محمود أحمد، المدينة ١٣٩٣هـ.
- ٤٧ - تاريخ اليعقوبى دار بيروت للطباعة والنشر طبعة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- ٤٨ - تاريخ اليمن السياسى فى العصر الإسلامى، حسن سليمان محمود، الطبعة الأولى، بغداد ١٩٦٩م.
- ٤٩ - تاريخ خليفة بن خياط، أبو عمر خليفة بن خياط بن أبى هبيرة الليثى، تحقيق: أكرم ضياء العمرى، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، ودار القلم، بيروت ١٣٩٧هـ.
- ٥٠ - تاريخ دمشق، ابن عساكر، ترجمة عثمان رضى الله عنه، تحقيق: سكيئة الشهابى، نشر المجلس العلمى بدمشق ١٩٨٤م.
- ٥١ - تبصير المؤمنين بفقہ النصر والتمكين فى القرآن الكريم، على الصلابى، دار الصحابة، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.

٥٢ - التبيين فى أنساب القرشيين، موفق الدين أبى محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسى، حققه محمد نايف الدليمى، عالم الكتب، الطبعة الثانية.

٥٣ - تجريد أسماء الصحابة، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى، - تصحيح صاحبة عبد الحكيم شرف الدين، طبعة شرف الدين الكتبى وأولاده بومباى، الهند ١٣٨٩هـ.

٥٤ - تحفة الأحوذى بشرح سنن الترمذى، محمد عبد الرحمن المباركفورى، تصحيح عبد الرحمن محمد عثمان، مطبعة الاعتماد، نشر محمد عبد المحسن الكتبى.

٥٥ - تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة من روايات الطبرى والمحدثين، تأليف د. محمد أمحزون، دار طيبة، مكتبة الكوثر، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٥٦ - تذكرة الحفاظ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى، بيروت، دار إحياء التراث.

٥٧ - التربية القيادية، منير الغضبان، دار الوفاء، المنصورة، مصر، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٥٨ - تفسير القرطبى، لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى، القرطبى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان ١٩٦٥م.

٥٩ - التفوق والنجابة على نهج الصحابة، حمد بن بيلة بن مرهان العجمى، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى.

٦٠ - تقريب التهذيب، لابن حجر.

٦١ - التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان، محمد بن يحيى بن أبى بكر المالىقى الأندلسى، حققه د. محمود يوسف زايد، دار الثقافة الدوحة، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٦٢ - التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة فى القرن الأول الهجرى، صالح العلى، الطبعة الثانية، دار الطليعة، بيروت ١٩٦٩م.

- ٦٣ - تهذيب ابن عساكر، دار إحياء التراث العربى، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ٦٤ - تهذيب التهذيب، أحمد بن على بن حجر، دار صادر، بيروت.
- ٦٥ - جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلى، مكتبة طيبة، المدينة المنورة، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- ٦٦ - الجرح والتعديل، أبو محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الدكن، الهند ١٣٧٢هـ.
- ٦٧ - جمهرة أنساب العرب، على بن أحمد بن حزم الأندلسى، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، ١٣٨٢م.
- ٦٨ - جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين، د. محمد السيد الوكيل، دار المجتمع، الطبعة الخامسة ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
- ٦٩ - حذيفة بن اليمان، إبراهيم العلى، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- ٧٠ - حروب الإسلام فى الشام فى عهود الخلفاء الراشدين - محمد أحمد باشميل - الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- ٧١ - حروب الردة وبناء الدولة الإسلامية، أحمد سعيد بن سالم، دار المنار، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- ٧٢ - الحضارة العربية فى الإسلام، د. واضح الصمد، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس - لبنان.
- ٧٣ - حقبة من التاريخ، عثمان الخميس، دار الإيمان، الإسكندرية.
- ٧٤ - الحكمة فى الدعوة إلى الله، سعيد القحطانى، مؤسسة الجريسي، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- ٧٥ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبى نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، دار الكتب العلمية بيروت.
- ٧٦ - الحراج لأبى يوسف، منشورات مكتبة الرياض الحديثة، بدون تاريخ الطبع.

- ٧٧- الحراج وصناعة الكتابة، أبو الفتح قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، شرح وتحقيق: د. محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد، بغداد ١٩٨١م.
- ٧٨- الخلافة الراشدة والدولة الأموية من فتح الباري، يحيى بن إبراهيم اليحيى، دار الهجرة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- ٧٩- الخلافة بين التنظير والتطبيق، محمود المرداوي، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م.
- ٨٠- خلافة عثمان بن عفان، د. محمد بن صامل السلمي، مكتبة سالم، العزيزية، جامعة أم القرى، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- ٨١- الخلافة والخلفاء الراشدون بين الشورى والديمقراطية، المستشار سالم البهنساوي، مكتبة المنار الإسلامية، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- ٨٢- الخلفاء الراشدون أعمال وأحداث، د. أمين قضاة، دار الفرقان، الأردن، طبعة الفرقان الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- ٨٣- الخلفاء الراشدون بين الاستخلاف والاستشهاد، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥م.
- ٨٤- الخلفاء الراشدون، حسن أيوب، دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- ٨٥- الخلفاء الراشدون، عبد الوهاب النجار، دار القلم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- ٨٦- الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب، عبد الرحمن عبد الكريم العاني، د. حسن فاضل زغبين، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد طبعة ١٩٨٩م.
- ٨٧- الخوارج والشيعة، يوليوس فلهاوزن.
- ٨٨- دراسات في الأهواء والفرق والبدع، وموقف السلف منها، د. ناصر بن عبد الكريم العقل، مركز دار إشبليا، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- ٨٩- دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، د. عبد الرحمن الشجاع، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩م، دار الفكر المعاصر - صنعاء.

- ٩٠ - الدراهم المضروبة على الطراز الساساني للخلفاء الراشدين في المتحف العراقي، مجلة المسكوكات، مديرية الآثار العامة بغداد ١٩٦٩م، وداد على القزاز.
- ٩١ - دماء على قميص عثمان بن عفان، دار البشير، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
- ٩٢ - الدوحة النبوية، د. فاروق حمادة، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- ٩٣ - دور المرأة السياسي في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين، تأليف: أسماء محمد أحمد زيادة، دار السلام بمصر، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
- ٩٤ - الدولة الأموية المفتري عليها، دراسة الشبهات ورد المفتریات، د. حمدى شاهين، دار القاهرة للكتاب، ٢٠٠١م.
- ٩٥ - الدولة الأموية، يوسف العش، دار الفكر، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.
- ٩٦ - الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، د. حمدى شاهين، دار القاهرة.
- ٩٧ - الدولة والسيادة، د. فتحى عبد الكريم، مكتبة وهبة بمصر، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- ٩٨ - الدين الخالص، محمد صديق حسن القنوجى البخارى، تحقيق: محمد زهرى النجار، مكتبة الفرقان.
- ٩٩ - ديوان أعشى همدان، عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث، تحقيق: د. حسن عيسى أبو ياسين، الرياض، دار العلوم، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ١٠٠ - ذات الصواري، شوقي أبو خليل، دار الفكر، الطبعة الرابعة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- ١٠١ - ذو النورين عثمان بن عفان، محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م بيروت - لبنان.
- ١٠٢ - ذو النورين عثمان بن عفان، محمد مال الله، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨٩م.
- ١٠٣ - الرد على الرافضة لأبى حامد محمد المقدسى، تحقيق: عبد الوهاب خليل الرحمن، الدار السلفية، بمبای الهند، طبعة أولى ١٤٠٣هـ.

- ١٠٤ - الرقة والبكاء، موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة، دار القلم، دمشق،
الدار الشامية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- ١٠٥ - الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، أبو القاسم السهيلي،
تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة، طبعة ١٣٨٧هـ.
- ١٠٦ - الرياض النضرة في مناقب العشرة، لأبي جعفر أحمد الشهير بالمحب الطبري،
المكتبة القيمة، القاهرة.
- ١٠٧ - زاد المعاد في هدى خير العباد، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن القيم،
تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت، ط ١٣، ١٤٠٦هـ.
- ١٠٨ - الزهد للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار
الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.
- ١٠٩ - سفراء النبي ﷺ، محمود شيث خطاب، مؤسسة الريان، ودار الأندلس
الخضراء، بجدة، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٩٦م.
- ١١٠ - سنن أبي داود، الإمام أبو داود، تحقيق: وتعليق عزت الدعاس، سوريا
١٣٩١هـ.
- ١١١ - سنن ابن ماجه، الحافظ أبو عبد الله محمد بن زيد القزويني، دار الفكر.
- ١١٢ - سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، دار الفكر ١٣٩٨هـ.
- ١١٣ - السنن الكبرى، للحافظ أحمد بن الحسين البيهقي، طبع دار المعارف، بيروت
لبنان، توزيع مكتبة المعارف، الرياض.
- ١١٤ - السنّة والبدعة، عبد الله باعلوي الحضرمي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية،
بيروت، طبعة دار القلم الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- ١١٥ - السنّة، أبو بكر أحمد بن محمد الخلال، تحقيق: د. عطية الزهراني، دار
الراية، الرياض، ط ١، ١٤١٠هـ.
- ١١٦ - السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات، فان فولتن ترجمة حسن إبراهيم
حسن، ومحمد زكي إبراهيم، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط ٢ ١٣٨٥هـ -
١٩٦٥م.

- ١١٧ - السياسة الشرعية في إصلاح الراعى والرعية، تقى الدين أحمد بن تيمية، دار المعرفة بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٦٩م.
- ١١٨ - السياسة المالية لعثمان بن عفان، قطب إبراهيم محمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م.
- ١١٩ - سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، الطبعة الثانية مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٢هـ.
- ١٢٠ - سير الشهداء دروس وعبر، عبد الحميد بن عبد الرحمن السحبياني، دار الوطن، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- ١٢١ - السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط ٣، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- ١٢٢ - السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، د. مهدي رزق الله أحمد، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- ١٢٣ - السيرة النبوية لابن هشام، دار إحياء التراث، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- ١٢٤ - السيرة النبوية، دروس وعبر، مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي، بيروت - لبنان، الطبعة التاسعة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- ١٢٥ - السيرة النبوية، عرض وقائع وتحليل أحداث، د. علي محمد الصلابي، دار الصحابة، الشارقة، طبعة أولى ٢٠٠١م.
- ١٢٦ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب، أبو الفلاح عبد الحى بن أحمد بن محمد الحنبلي، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر.
- ١٢٧ - شرح صحيح مسلم، للإمام النووي، بيروت، دار الفكر، طبعة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- ١٢٨ - الشرف والتسامي بحركة الفتح الإسلامي، د. علي محمد الصلابي، مكتبة الصحابة، الشارقة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- ١٢٩ - شعراء الخلفاء، نبال تيسير الخماش.

- ١٣٠ - شهيد الدار عثمان بن عفان، أحمد الخروف، دار البيارق، دار عمار، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- ١٣١ - الصارم المسلول على شاتم الرسول، لتقى الدين ابن تيمية.
- ١٣٢ - صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، أبو العباس أحمد بن على القلقشندى، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، القاهرة بدون تاريخ، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية.
- ١٣٣ - صحيح البخارى، لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى، دار الفكر، الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- ١٣٤ - صحيح التوثيق فى سيرة وحياة ذى النورين، مجدى فتحى السيد، دار الصحابة بطنطا، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- ١٣٥ - صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلى، دار النفائس، ط ٣، ١٤٠٨هـ - ١٩٩٨م.
- ١٣٦ - صحيح النسائى للألبانى، مكتب التربية العربى لدول الخليج، الرياض، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ١٣٧ - صحيح سنن ابن ماجه، للألبانى، مكتب التربية العربية لدول الخليج، الرياض، ط ٣، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ١٣٨ - صحيح سنن الترمذى، محمد ناصر الدين الألبانى، مكتب التربية العربى لدول الخليج، الرياض، ط ١، ١٤٠٨هـ.
- ١٣٩ - صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربى، بيروت - لبنان الطبعة الثانية ١٩٧٢م.
- ١٤٠ - الصديقة بنت الصديق، للعقاد، مطبعة المعارف، مصر ١٩٤٣م.
- ١٤١ - صفة الصفوة للإمام أبى الفرج ابن الجوزى، دار المعرفة، بيروت.
- ١٤٢ - صلاح الأمة فى علو الهمة، د. سيد بن حسين العفانى، دار الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- ١٤٣ - الصواعق المحرقة فى الرد على أهل البدع والزندقة، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حجر الهيتمى، دار الكتب العلمية بيروت.

- ١٤٤ - الطبقات الكبرى، محمد بن سعيد بن منيع الهاشمي، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.
- ١٤٥ - عائشة والسياسة، سعيد الأفغاني، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.
- ١٤٦ - عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام، سلمان بن حمد العودة، دار طيبة، الرياض، الطبعة الثالثة ١٤١٢هـ.
- ١٤٧ - عبد الله بن مسعود، عبد الستار الشيخ، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- ١٤٨ - عبد الملك بن مروان والدولة الأموية، ضياء الدين الريس مطابع سجل العرب، الطبعة الثالثة، سنة ١٩٦٩م.
- ١٤٩ - عثمان بن عفان، الخليفة الشاكر الصابر، عبد الستار الشيخ، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
- ١٥٠ - عثمان بن عفان، صادق عرجون، الدار السعودية، الطبعة الثالثة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- ١٥١ - عثمان بن عفان، محمد حسنين هيكل.
- ١٥٢ - العشرة المبشرون بالجنة، محمد صالح عوض، مؤسسة المختار، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- ١٥٣ - عصر الخلافة الراشدة، الدكتور أكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- ١٥٤ - عصر الخلفاء الراشدين، د. عبد الحميد بخيت، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية ١٩٦٥م.
- ١٥٥ - عقائد الشيعة، رونلدسن، دوايت تعريب (ع، م) القاهرة، مكتبة الخانجي ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م.
- ١٥٦ - العقد الفريد، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب، دار الفكر، بيروت.

- ١٥٧ - عقيدة السلف وأصحاب الحديث ضمن الرسائل المنيرية، للشيخ إسماعيل الصابوني، نشر محمد أمين دمج، بيروت، ١٩٧٠ م.
- ١٥٨ - عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام، الدكتور ناصر بن علي عايض حسن الشيخ، مكتبة الرشد، الرياض.
- ١٥٩ - العقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط، د. سليمان بن سالم بن رجاء السحيمي، مكتبة الإمام البخاري، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
- ١٦٠ - العقيدة والشريعة الإسلامية، جولد تسهير، أجناس ترجمة د. محمد يوسف موسى وآخرون، القاهرة، دار الكتب الحديثة.
- ١٦١ - عمار بن ياسر، رجل للحنة وميزان الفتنة، أسامة أحمد سلطان، المكتبة المكية، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.
- ١٦٢ - عمدة القاري شرح صحيح البخاري.
- ١٦٣ - عمرو بن العاص الأمير المجاهد، د. منير محمد الغضبان، جامعة أم القرى، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ.
- ١٦٤ - عمرو بن العاص، عبد الخالق سيد أبو رابية، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- ١٦٥ - عمرو بن العاص، محمود العقاد، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية ١٩٦٩ م.
- ١٦٦ - العواصم من القواصم، القاضي أبو بكر بن العربي، تحقيق: محب الدين الخطيب، إعداد محمد سعيد مبيض، دار الثقافة قطر، الدوحة، الطبعة الثانية ١٩٨٩ م.
- ١٦٧ - غزوة الحديبية لأبي فارس، دار الفرقان، عمان، الأردن.
- ١٦٨ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق: الأستاذ محب الدين الخطيب، دار الريان، القاهرة، ط ١، ١٤٠٧ هـ.
- ١٦٩ - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد علي الشوكاني، دار الفكر للطباعة والنشر ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
- ١٧٠ - الفتنة الكبرى، عثمان، طه حسين، دار المعارف بمصر ١٩٤٧ م.

- ١٧١ - الفتنة الكبرى، على وبنوه، طه حسين، دار المعارف بمصر ١٩٦٦م.
- ١٧٢ - فتنة مقتل عثمان، د. محمد عبد الله الغبان، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- ١٧٣ - الفتنة، أحمد عرموش.
- ١٧٤ - فتوح البلدان، لأبي العباس، أحمد بن يحيى البلاذري، مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ١٧٥ - فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحكم، نسخة عن طبعة لندن ١٣٣٩هـ - ١٩٢٠م، نشر مكتبة المثنى بغداد.
- ١٦٧ - فرائد الكلام للخلفاء الكرام، قاسم عاشور، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- ١٧٧ - فصل الخطاب في مواقف الأصحاب، محمد صالح الغرسي، دار السلام، مصر، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- ١٧٨ - الفصل في الملل والأهواء والنحل، لأبي محمد بن حزم الظاهري، مكتبة الخانجي، مصر.
- ١٧٩ - فضائل الصحابة، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- ١٨٠ - فقه الأولويات محمد الركيلى، المعهد العالمى للفكر الإسلامى، هيرندن، فيرجينيا ١٤١٦هـ - ١٩٩٧م، الطبعة الأولى.
- ١٨١ - فقه الخلافة وتطورها لتصبح عصبة أمم شرقية، د. عبد الرزاق أحمد السنهورى، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- ١٨٢ - الفكر الإسلامى بين المثالية والتطبيق، كامل الشريف.
- ١٨٣ - فيض القدير للمناوى.
- ١٨٤ - قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية، محمود شيث خطاب، دار الأندلس الخضراء، دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

- ١٨٥ - قادة فتح السند وأفغانستان، محمود شيث خطاب، دار الأندلس الخضراء، دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- ١٨٦ - قادة فتح بلاد المغرب، محمود شيث خطاب، دار الفكر، الطبعة السابعة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- ١٨٧ - القاموس المحيط، للفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان.
- ١٨٨ - القواعد الفقهية: مفهومها، تطورها، دراسة مؤلفاتها، أدلتها، تطبيقاتها، على أحمد الندوي، بيروت، القلم، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- ١٨٩ - القيود الواردة على سلطة الدولة، عبد الله الكيلاني، دار البشير، عمان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- ١٩٠ - الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن أبي المكارم الشيباني المعروف بابن الأثير، تحقيق: علي شيري، دار إحياء دار التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٩م.
- ١٩١ - الكامل في اللغة والآداب، لأبي العباس محمد بن يزيد، الناشر البابي الحلبي، مصر، طبعة ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م، مؤسسة الرسالة.
- ١٩٢ - كتاب الإمامة والرد على الرافضة لأبي نعيم الأصبهاني، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الثالثة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- ١٩٣ - الكفاءة الإدارية في السياسة الشرعية، د. عبد الله قادري، دار المجتمع، جدة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- ١٩٤ - كيف نكتب التاريخ الإسلامي؟ محمد قطب، دار الوطن السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.
- ١٩٥ - لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت.
- ١٩٦ - لسان الميزان، أحمد بن علي بن حجر، حيدرآباد الدكن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ١٣٣١هـ - ١٩١٢م.
- ١٩٧ - ليبيا من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، د. صالح مصطفى مفتاح الزيني، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، الطبعة الثالثة ١٩٩٤م.

- ١٩٨ - مبادئ الاقتصاد الإسلامى، سعاد إبراهيم صالح، دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- ١٩٩ - المجروحين من المحدثين، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي، تحقيق: إبراهيم محمود زايد، حلب دار الوعى.
- ٢٠٠ - مجلة البحوث الإسلامية، العدد العاشر.
- ٢٠١ - مجلة المؤرخ العربى، رقم ٢١.
- ٢٠٢ - مجمع الأمثال للميداني، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م.
- ٢٠٣ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين على بن أبى بكر الهيثمى، بتحرير الحافظين: العراقى وابن حجر، دار الكتاب العربى، بيروت ط ٣، ١٤٠٢هـ.
- ٢٠٤ - مجموعة الفتاوى، تقى الدين أحمد بن تيمية الحرّانى، دار الوفاء، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- ٢٠٥ - مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة، محمد حميد الله، دار النفائس، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- ٢٠٦ - المدينة المنورة، فجر الإسلام والعصر الراشدى، محمد محمد حسن شرّاب، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- ٢٠٧ - مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى، يحيى إبراهيم البحى، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.
- ٢٠٨ - مرويات العهد المكي، عادل عبد الغفور.
- ٢٠٩ - مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، خالد الغيث، دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- ٢١٠ - المستدرك على الصحيحين، لآبى عبد الله محمد بن عبد الله النيسابورى، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
- ٢١١ - مسند الإمام أحمد، المكتب الإسلامى، بيروت، لبنان.
- ٢١٢ - المعارف لابن قتيبة.

- ٢١٣- معاوية بن أبي سفيان، صحابي كبير، وملك مجاهد، منير محمد الغضبان، دار القلم دمشق، الطبعة الثالثة ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- ٢١٤- معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.
- ٢١٥- معجم الطبراني الكبير، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.
- ٢١٦- معرفة الصحابة لأبي نعيم المتوفى سنة ٤٣٠هـ تحقيق: محمد راضي بن حاج عثمان، مكتبة الدار في المدينة النبوية، ومكتبة الحرمين في الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
- ٢١٧- المعرفة والتاريخ للفسوي، لأبي يوسف الفسوي، تحقيق: أكرم ضياء العمري، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٣٩٤هـ.
- ٢١٨- المغازي، محمد عمر الواقدي، تحقيق: د. مارسدن جونس، عالم الكتب بيروت، ط ٣، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- ٢١٩- المغني، موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة، تحقيق: د. عبد الله التركي، د. عبد الفتاح الخلو، دار هجر القاهرة، ط ٢، ١٤١٢هـ.
- ٢٢٠- المنار المنيف في الصحيح والضعيف، القاهرة، مطبعة السنة المحمدية.
- ٢٢١- مناقب الشافعي للبيهقي، تحقيق: أحمد صقر، مكتبة دار التراث، طبع دار النصر طبعة أولى ١٣٩١هـ.
- ٢٢٢- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٢٢٣- منهاج السنة لابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة.
- ٢٢٤- منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب، دار الشروق، ط ٥، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ٢٢٥- منهج الرسول في غرس الروح الجهادية في نفوس أصحابه، د. السيد محمد نوح، نشرته جامعة الإمارات العربية المتحدة، ط ١، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
- ٢٢٦- موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان، تحقيق: حسين الداراني عبده كوشك، دار الثقافة العربية، دمشق، ط ١، ١٤١١هـ.

- ٢٢٧ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط للمقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر تقي الدين أبي العباس المقريزي.
- ٢٢٨ - موسوعة التاريخ الإسلامي، أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الرابعة عشرة ١٩٩٦م.
- ٢٢٩ - الموسوعة الحديثية. مسند الإمام أحمد، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، بالسعودية، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- ٢٣٠ - موسوعة فقه عثمان بن عفان، الدكتور محمد رؤاس قلعبجي، دار النفائس طبعة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م.
- ٢٣١ - ميزان الاعتدال في نقد الرجال، محمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: علي البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٨٢هـ.
- ٢٣٢ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، بدون تاريخ.
- ٢٣٣ - نساء أهل البيت، أحمد خليل جمعة، دار ابن كثير، دمشق، سوريا.
- ٢٣٤ - نشأة الفقه الاجتهادي وأطواره، محمد السائس، مطبعة الأزهر ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م مجمع البحوث بالأزهر المؤتمر الرابع.
- ٢٣٥ - نظام الأراضي في صدر الدولة الإسلامية، محمد حسن أبو يحيى، دار عمار، عمان، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ٢٣٦ - نظام الحكم في الإسلام، عارف أبو عيد، دار النفائس، الأردن، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- ٢٣٧ - نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، ظافر القاسمي، دار النفائس، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ٢٣٨ - نظام الحكم في عهد الخلفاء الراشدين، حمد محمد الصمد، المؤسسة الجماعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.
- ٢٣٩ - نظام الخلافة في الفكر الإسلامي، الدكتور مصطفى حلمي، دار الدعوة، الإسكندرية.

- ٢٤٠ - النظم الإسلامية، صبحى الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة ١٩٨٩م.
- ٢٤١ - النظم الإسلامية، وقائع ندوة أبو ظبي، مكتب التراث العربى لدول الخليج، طبعة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ٢٤٢ - نهاية الأرب فى فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
- ٢٤٣ - الهجرة فى القرآن الكريم، أحزمى سامعون جزولى، مكتبة الرشد الرياض، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- ٢٤٤ - وجوب التعاون بين المسلمين للسعدى، دار المعارف، الرياض، طبعة ١٤٠٢هـ.
- ٢٤٥ - الوحدة الإسلامية، محمد أبو زهرة.
- ٢٤٦ - وفيات الأعيان وأنباء الزمان، لابن خلكان أبى العباس شمس الدين أحمد، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- ٢٤٧ - ولاية مصر، أبو يوسف محمد يوسف الكندى، تحقيق: د. حسين نصار، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.
- ٢٤٨ - ولاية الشرطة فى الإسلام، د. نمر الحميدانى، دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- ٢٤٩ - الولاية على البلدان فى عصر الخلفاء الراشدين، د. عبد العزيز إبراهيم العمرى الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.
- ٢٥٠ - اليمن فى صدر الإسلام، د. عبد الرحمن الشجاع، دار الفكر، دمشق.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٣
المقدمة	٥

الفصل الأول

ذو النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه بين مكة والمدينة

المبحث الأول: اسمه ونسبه وكنيته وألقابه وصفته وأسرته ومكانته فى الجاهلية	١٣
أولاً: اسمه ونسبه وكنيته وألقابه	١٣
ثانياً: أسرته	١٥
ثالثاً: مكانته فى الجاهلية	١٧
رابعاً: إسلامه	١٨
خامساً: زواجه من رقية بنت رسول الله ﷺ	٢٠
سادساً: ابتلاؤه وهجرته إلى الحبشة	٢١
المبحث الثانى: حياة عثمان رضى الله عنه مع القرآن الكريم	٢٥
المبحث الثالث: ملازمته للنبي ﷺ فى المدينة	٣٠
أولاً: عثمان رضى الله عنه فى ميادين الجهاد مع رسول الله ﷺ	٣١
١ - عثمان وغزوة بدر	٣٢
٢ - عثمان وغزوة أحد	٣٣
٣ - فى غزوة غطفان (ذى إمر)	٣٤
٤ - فى غزوة ذات الرقاع	٣٥
٥ - فى بيعة الرضوان	٣٥
٦ - شفاعة عثمان بن عفان فى عبد الله بن أبى السرح فى فتح مكة	٣٩
٧ - غزوة تبوك	٤٠
ثانياً: من حياته الاجتماعية فى المدينة	٤٢
١ - زواجه من أم كلثوم	٤٢
٢ - وفاة عبد الله بن عثمان	٤٣
٣ - وفاة أم كلثوم رضى الله عنها	٤٣
ثالثاً: من مساهمته الاقتصادية فى بناء الدولة	٤٤

الصفحة

الموضوع

- ٤٤ ١ - بئر رومة
- ٤٥ ٢ - توسعة المسجد النبوى
- ٤٦ ٣ - العسرة وعثمانها المعطاء
- ٤٧ المبحث الرابع: من أحاديث الرسول ﷺ فى عثمان بن عفان
- ٤٧ أولاً: فيما ورد فى فضائله مع غيره
- ٤٧ ١ - افتتح له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه
- ٤٧ ٢ - اسكن أحد فليس عليك إلا نبى وصديق وشهيدان
- ٤٨ ٣ - اهدأ فما عليك إلا نبى أو صديق أو شهيد
- ٤٨ ٤ - حياء عثمان رضى الله عنه
- ٤٨ ٥ - استحياء الملائكة من عثمان
- ٤٩ ٦ - أصدقها حياء عثمان
- ٤٩ ثانياً: إخبار رسول الله عن الفتنة التى يقتل فيها عثمان
- ٤٩ ١ - من نجا من ثلاث فقد نجا
- ٥٠ ٢ - يقتل فيها هذا المقتنع يومئذ
- ٥٠ ٣ - هذا يومئذ على الهدى
- ٥٠ ٤ - تهيج فتنة كالصياصى، فهذا ومن معه على الحق
- ٥٠ ٥ - هذا يومئذ وأصحابه على الحق والهدى
- ٥٠ ٦ - عليكم بالأمين وأصحابه
- ٥١ ٧ - فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه
- ٥١ ٨ - إن رسول الله ﷺ عهد إلى عهدك وإنى صابر نفسى عليه
- ٥٣ المبحث الخامس: ذو النورين فى عهد الصديق والفاروق
- ٥٣ أولاً: فى عهد الصديق
- ٥٣ ١ - من أهل الشورى فى مسائل الدولة العليا
- ٥٤ ٢ - أزمة اقتصادية فى عهد الصديق
- ٥٦ ثانياً: فى عهد الفاروق
- ٥٧ ١ - الديوان
- ٥٧ ٢ - التاريخ
- ٥٧ ٣ - أرض الخراج
- ٥٨ ٤ - حجه مع أمهات المؤمنين

الفصل الثانى

استخلاف ذى النورين ومنهجه فى الحكم وأهم صفاته الشخصية

- المبحث الأول: استخلاف ذى النورين ٥٩
- أولاً: الفقه العمرى فى الاستخلاف ٥٩
- ١ - العدد الذى حدده للشورى وأسمائهم ٦٠
- ٢ - طريقة اختيار الخليفة ٦٠
- ٣ - مدة الانتخابات أو المشاورة ٦١
- ٤ - عدد الأصوات الكافية لاختيار الخليفة ٦١
- ٥ - الحكم فى حال الاختلاف ٦٢
- ٦ - جماعة من جنود الله ترافق الاختيار وتمنع الفوضى ٦٢
- ٧ - جواز تولية المفضل مع وجود الأفضل ٦٢
- ٨ - جمع عمر بين التعيين وعدمه ٦٣
- ٩ - الشورى ليست بين الستة فقط ٦٣
- ١٠ - أهل الشورى أعلى هيئة سياسية ٦٣
- ثانياً: وصية عمر رضى الله عنه للخليفة الذى بعده ٦٤
- ١ - الحرص على تقوى الله وخشيته ٦٦
- ٢ - الناحية السياسية ٦٦
- ٣ - الناحية العسكرية ٦٧
- ٤ - الناحية الاقتصادية والمالية ٦٧
- ٥ - الناحية الاجتماعية ٦٨
- ثالثاً: منهج عبد الرحمن بن عوف فى إدارة الشورى ٦٩
- ١ - اجتماع الرهط للمشاورة ٦٩
- ٢ - عبد الرحمن يدعو إلى التنازل ٦٩
- ٣ - تفويض ابن عوف بإدارة عملية الشورى ٧٠
- ٤ - الاتفاق علىبيعة عثمان ٧٠
- ٥ - حكمة عبد الرحمن بن عوف فى تنفيذ خطة الشورى ٧١
- رابعاً: إبطال رافضية دست فى قصة الشورى ٧٣
- ١ - اتهام الصحابة بالمحاباة فى أمر المسلمين ٧٤

الصفحة

الموضوع

- ٢ - حزب أموى وحزب هاشمى ٧٥
- ٣ - أقوال نسبت زوراً أو بهتاناً لعلى رضى الله عنه ٧٥
- ٤ - اتهام عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ٧٦
- خامساً: أحقية خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ٧٦
- سادساً: انعقاد الإجماع على خلافة عثمان ٨٠
- سابعاً: حكم تقديم على عثمان رضى الله عنه ٨٤
- المبحث الثانى، منهج عثمان بن عفان فى الحكم ٨٦
- أولاً: كتب عثمان إلى عماله وولاته وأمرأه الجند وعامة الناس ٨٧
- ١ - أول كتاب كتبه عثمان إلى جميع ولاته ٨٧
- ٢ - كتابه إلى قادة الجنود ٨٨
- ٣ - كتابه إلى عمال الخراج ٨٩
- ٤ - كتابه إلى العامة ٩٠
- ثانياً: المرجعية العليا للدولة ٩٠
- ١ - المصدر الأول: كتاب الله ٩١
- ٢ - المصدر الثانى: السنة المطهرة ٩١
- ٣ - الاقتداء بالشيخين ٩١
- ثالثاً: حق الأمة فى محاكمة الخليفة ٩٢
- رابعاً: الشورى ٩٣
- خامساً: العدل والمساواة ٩٤
- سادساً: الحريات ٩٤
- سابعاً: الاحتساب ٩٥
- ١ - إنكاره على لبس الثوب المعصر ٩٥
- ٢ - إنكاره على قاصدات العمرة والحج وهن فى العدة ٩٥
- ٣ - أمره بذبح الحمام ٩٥
- ٤ - احتسابه على اللعب بالنرد ٩٦
- ٥ - إخراجهم من يراه على شر أو يشهر سلاحاً من المدينة ٩٦
- ٦ - ضربه لمن استخف بعمّ النبى ﷺ ٩٦
- ٧ - نهيه عن الخمر؛ لأنها أم الخبائث ٩٦

الصفحة

الموضوع

٩٧	٨ - من خطب عثمان فى المجتمع ومن حكمه
٩٧	أ - خطبة فى الاستعداد ليوم المعاد
٩٧	ب - التذكير بمكارم الأخلاق
٩٨	ج - من حكمه التى سارت بين الناس
٩٩	٩ - عثمان رضى الله عنه والشعر والشعراء
١٠٢	المبحث الثالث: أهم صفاته
١٠٢	أولاً: العلم والقدرة على التوجيه والتعليم
١٠٧	ثانياً: الحلم
١٠٧	ثالثاً: السماحة
١٠٨	رابعاً: اللين
١٠٨	خامساً: العفو
١٠٩	سادساً: التواضع
١١٠	سابعاً: الحياء والعفة
١١٠	ثامناً: كرمه
١١١	تاسعاً: شجاعته
١١٢	عاشرًا: الحزم
١١٣	الحادية عشرة: الصبر
١١٤	الثانية عشرة: العدل
١١٥	الثالثة عشرة: عبادته
١١٥	الرابعة عشر: خوفه من الله وبكاؤه ومحاسبته لنفسه
١١٦	الخامسة عشرة: زهده
١١٦	السادسة عشرة: الشكر
١١٦	السابعة عشرة: تفقد أحوال الناس
١١٨	الثامنة عشرة: تحديد الاختصاصات
١١٨	التاسعة عشرة: الاستفادة من أهل الكفاءات

الفصل الثالث

المؤسسة المالية والقضائية فى عهد عثمان رضى الله عنه

الصفحة

الموضوع

- أولاً: السياسة المالية التى أعلنها عثمان عندما تولى الحكم ١٢٠
- ١ - نية عثمان بن عفان تطبيق سياسة مالية عامة ١٢١
- ٢ - عدم إخلال الجباية بالرعاية ١٢٢
- ٣ - أخذ ما على المسلمين بالحق لبيت مال المسلمين ١٢٤
- ٤ - إعطاء المسلمين ما لهم من بيت المال بالحق ١٢٤
- ٥ - عدم ظلم أهل الذمة ١٢٤
- ٦ - عدم ظلم اليتيم ١٢٦
- ٧ - تخلق عمال الخراج بالأمانة والوفاء ١٢٦
- ٨ - أثر تكامل النعم على مسار الأمة ١٢٧
- ٩ - المقارنة بين السياسة العمرية والعثمانية ١٢٧
- ثانياً: توجيهات عثمانية توضح للناس قواعد زكاتهم ١٢٨
- ثالثاً: خمس الغنائم ١٣١
- رابعاً: الإيرادات العامة من الجزية فى عهد عثمان رضى الله عنه ١٣٥
- خامساً: الإيرادات العامة من الخراج والعشور فى عهد عثمان ١٣٩
- سادساً: سياسة عثمان بن عفان فى إقطاع الأرض ١٤٠
- سابعاً: سياسة عثمان فى حى الأرض ١٤٢
- ثامناً: أنواع النفقات العامة فى عهد عثمان ١٤٣
- ١ - نفقات الخليفة ١٤٣
- ٢ - صرف مرتبات الولاة من بيت المال ١٤٤
- ٣ - الإنفاق من بيت المال على مرتبات الجند ١٤٤
- ٤ - الإنفاق العام على الحج من بيت المال ١٤٤
- ٥ - تمويل إعادة بناء المسجد النبوى من بيت المال ١٤٤
- ٦ - تمويل توسعة المسجد الحرام من بيت المال ١٤٥
- ٧ - الإنفاق على إنشاء أول أسطول بحرى ١٤٥
- ٨ - الإنفاق على تحويل الساحل من الشعبية إلى جدة ١٤٦
- ٩ - تمويل حفر الآبار من بيت مال المسلمين ١٤٦
- ١٠ - الإنفاق على المؤذنين من بيت المال ١٤٦
- ١١ - تمويل أهداف الإسلام العليا ١٤٧

الموضوع	الصفحة
تاسعاً: استمرار نظام الاعطيات فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه	١٤٧
عاشراً: أثر تدفق الأموال على الحياة الاجتماعية والاقتصادية	١٤٨
الحادية عشرة: عثمان وأقاربه والعطاء من بيت المال	١٤٩
المبحث الثانى، المؤسسة القضائية وبعض الاجتهادات الفقهية	١٥٣
• ابن عمر يعتذر عن القضاء	١٥٥
• دار القضاء	١٥٥
• أشهر القضاة فى خلافة عثمان	١٥٥
أولاً: فيما يتعلق بالقصاص والحدود والتعزير	١٥٦
١ - أول قضية واجهت عثمان رضى الله عنه: قضية قتل	١٥٦
٢ - قتل اللصوص	١٥٨
٣ - رجل قتل تاجراً لماله	١٥٨
٤ - عقوبة الساحر	١٥٩
٥ - جناية الأعمى	١٥٩
٦ - جناية المقتلين على بعضهما	١٥٩
٧ - الجناية على الحيوان	١٥٩
٨ - الجناية على الصائل	١٦٠
٩ - استتابة المرتد وحثه	١٦٠
١٠ - إنى قتلت فهل لى من توبة؟	١٦٠
١١ - حد الخمر	١٦١
١٢ - إقامة الحد على أخيه من أمه: الوليد بن عقبة	١٦١
١٣ - سرقة الغلام	١٦٢
١٤ - الحبس تعزيراً	١٦٢
١٥ - حد القذف بالتعريض	١٦٢
١٦ - عقوبة الزنا	١٦٢
١٧ - التعزير بالنفى والطرء	١٦٣
١٨ - دفع الناس عن جنازة العباس	١٦٣
ثانياً: فى العبادات والمعاملات	١٦٤
١ - إتمام عثمان الصلاة بمنى وعرفات	١٦٤

- ٢ - زاد الأذان الثاني يوم الجمعة ١٦٧
- ٣ - اغتساله كل يوم منذ أسلم ١٦٨
- ٤ - سجود التلاوة ١٦٨
- ٥ - صلاة الجمعة في السواحل ١٦٨
- ٦ - استراحة عثمان في الخطبة ١٦٨
- ٧ - جعل القنوت قبل الركوع ١٦٩
- ٨ - أعلم الناس بأحكام الحج ١٦٩
- ٩ - النهى عن الإحرام قبل الميقات ١٦٩
- ١٠ - سفر المعتدة للحج والعمرة ١٦٩
- ١١ - النهى عن متعة الحج ١٧٠
- ١٢ - أكل لحم الصيد ١٧٠
- ١٣ - كراهية الجمع بين القرابة في الزواج ١٧١
- ١٤ - في الرضاعة ١٧١
- ١٥ - في الخلع ١٧١
- ١٦ - يجب الإحداد على المعتدة لوفاة زوجها ١٧١
- ١٧ - لا تنكحها إلا نكاح رغبة ١٧٢
- ١٨ - طلاق السكران ١٧٢
- ١٩ - هبة الوالد لولده ١٧٣
- ٢٠ - الحجر على السفه ١٧٣
- ٢١ - الحجر على المفلس ١٧٤
- ٢٢ - تحريم الاحتكار ١٧٤
- ٢٣ - ضوال الإبل ١٧٤
- ٢٤ - توريث المرأة المطلقة في مرض الموت ١٧٥
- ٢٥ - توريث المطلقة ما لم تنقض عدتها ١٧٦
- ٢٦ - توريث الحمل ١٧٦

الفصل الرابع

الفتوحات في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه

- ١٨٠ - المبعث الأول، فتوحات عثمان في المشرق

الموضوع	الصفحة
أولاً: فتوحات أهل الكوفة: أذربيجان ٢٤هـ	١٨٠
ثانياً: مشاركة أهل الكوفة في إحباط تحركات الروم	١٨١
ثالثاً: غزو سعيد بن العاص طبرستان: ٣٠هـ	١٨٢
رابعاً: هروب ملك الفرس (يزدجرد) إلى خراسان	١٨٣
خامساً: مقتل (يزدجرد) ملك الفرس ٣١هـ	١٨٣
سادساً: تعاطف النصارى مع (يزدجرد) بعد مقتله	١٨٥
سابعاً: فتوحات عبد الله بن عامر ٣١هـ	١٨٦
ثامناً: غزو الباب وبلنجر سنة اثنتين وثلاثين	١٨٧
١ - مقتل يزيد بن معاوية	١٨٨
٢ - ما أحسن حمرة الدماء فى بياضك	١٨٨
٣ - ما أحسن لمع الدماء على الثياب	١٨٨
٤ - إن هؤلاء يموتون كما تموتون	١٨٨
٥ - صبرك آك سلمان	١٨٩
تاسعاً: أول اختلاف وقع بين أهل الكوفة وأهل الشام ٣٢هـ	١٩٠
عاشراً: فتوحات ابن عامر سنة اثنتين وثلاثين	١٩٠
الحادية عشرة: القتال بين جيش الأحنف وأهل طخارستان والجوزجان، والطالقان والفاريان	١٩٢
الثانية عشرة: صلح الأحنف مع أهل بلخ ٣٢هـ	١٩٣
الثالثة عشرة: لأجعلن شكرى لله على ذلك أن أخرج محرماً معتمراً من موقفى هذا	١٩٤
الرابعة عشرة: هزيمة (قارن) فى خراسان	١٩٤
الخامسة عشرة: من قادة فتح بلاد المشرق فى عهد عثمان: الأحنف بن قيس	١٩٦
المبحث الثالث، الفتوحات فى الشام	٢٠٤
أولاً: فتوحات حبيب بن مسلمة الفهرى	٢٠٤
ثانياً: أول من أجاز الغزو البحرى: عثمان بن عفان	٢٠٥
ثالثاً: غزوة قبرص	٢٠٦
رابعاً: الاستسلام وطلب الصلح	٢٠٨
خامساً: عبد الله بن قيس قائد الأسطول الإسلامى فى الشام	٢٠٩

الموضوع	الصفحة
سادساً: القبارصة ينقضون الصلح	٢١٠
سابعاً: ما أهون الخلق على الله إذا هم عصوه	٢١١
ثامناً: عبادة بن الصامت يقسم غنائم قبرص	٢١٢
المبحث الثالث: فتوحات الجبهة المصرية	٢١٣
أولاً: ردع المتمردين في الإسكندرية	٢١٣
ثانياً: فتح بلاد النوبة	٢١٦
ثالثاً: فتح إفريقية	٢١٧
رابعاً: بطول عبد الله بن الزبير في فتح إفريقية	٢٢٠
خامساً: معركة ذات الصواري	٢٢٤
• أين وقعت هذه المعركة؟	٢٢٥
• أحداث المعركة	٢٢٦
• نتائج ذات الصواري	٢٢٩
سادساً: أهم الدروس والعبر والفوائد في فتوحات عثمان رضي الله عنه	٢٣٠
١- تحقيق وعد الله للمؤمنين	٢٣٠
٢- التطور في فنون الحرب والسياسة	٢٣١
٣- بدء التجنيد الإلزامي في عهد عمر واستمراره في عهد عثمان	٢٣١
٤- اهتمام عثمان بحدود الدولة الإسلامية	٢٣٢
٥- قسمة الغنائم بين أهل الشام والعراق	٢٣٤
٦- الحرص على وحدة الكلمة في مواجهة العدو	٢٣٥
٧- شرط ما يحتاج إليه الجنود في بنود الصلح	٢٣٥
٨- جمع المعلومات عن الأعداء	٢٣٦
٩- عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي من قادة الفتوح في عهد عثمان	٢٣٦
١٠- سلمان بن ربيعة الباهلي من قادة الفتوح في عهد عثمان	٢٣٨
١١- حبيب بن مسلمة الفهري من قادة الفتوح في عهد عثمان	٢٤٠
المبحث الرابع: أعظم مفاخر عثمان جمع الأمة على مصحف واحد	٢٤٣
أولاً: المراحل التي مرت بها كتابة القرآن الكريم	٢٤٣
١- المرحلة الأولى: في العهد النبوي	٢٤٣
٢- المرحلة الثانية: في عهد أبي بكر رضي الله عنه	٢٤٤

الموضوع	الصفحة
● بعض نتائج جمع القرآن الكريم فى المرحلة الثانية	٢٤٥
● المقومات الأساسية لزيد بن ثابت للقيام بهذه المهمة	٢٤٦
● الفرق بين المکتوب فى العهد النبوى، وعهد الصديق	٢٤٧
٣- المرحلة الثالثة فى جمع القرآن: فى عهد عثمان بن عفان	٢٤٧
● الباحث على جمع القرآن فى عهد عثمان	٢٤٧
ثانيًا: استشارة جمهور الصحابة فى جمع عثمان	٢٤٩
ثالثًا: الفرق بين جمع الصديق وجمع عثمان رضى الله عنهما	٢٥٠
رابعًا: هل المصاحف العثمانية مشتملة على جميع الأحرف السبعة؟	٢٥٢
خامسًا: عدد المصاحف التى أرسلها عثمان رضى الله عنه إلى الأمصار	٢٥٣
سادسًا: موقف عبد الله بن مسعود من مصحف عثمان	٢٥٤
سابعًا: فهم الصحابة لآيات النهى عن الاختلاف	٢٥٦
الفصل الخامس	
مؤسسة الولاية فى عهد عثمان رضى الله عنه	
المبحث الأول: أقاليم الدولة فى عهد عثمان وسياسه مع الولاية	٢٥٩
أولًا: مكة المكرمة	٢٥٩
ثانيًا: المدينة النبوية	٢٦٠
ثالثًا: البحرين واليمامة	٢٦٠
رابعًا: اليمن وحضرموت	٢٦١
خامسًا: ولاية الشام	٢٦٢
سادسًا: أرمينية	٢٦٣
سابعًا: ولاية مصر	٢٦٤
ثامنًا: ولاية البصرة	٢٦٦
تاسعًا: ولاية الكوفة	٢٦٩
المبحث الثانى: سياسة عثمان مع الولاية وحقوقهم وواجباتهم	٢٧٥
أولًا: سياسة عثمان مع الولاية	٢٧٥
ثانيًا: أساليب عثمان لمراقبة عماله والاطلاع على أخبارهم	٢٧٦
١ - حضوره لموسم الحج	٢٧٧
٢ - سؤال القادمين من الأمصار والولايات	٢٧٧

الصفحة

الموضوع

- ٢٧٧ ٣ - وجود أناس من أهل البلاد يكتبون إلى الخليفة
- ٢٧٧ ٤ - إرسال المفتشين إلى الولايات
- ٢٧٨ ٥ - السفر إلى الولايات والاطلاع على أحوالها مباشرة
- ٢٧٨ ٦ - طلب الموفدين من الولايات لسؤالهم عن أمرائهم وولاتهم
- ٢٧٨ ٧ - استقدام الولاة وسؤالهم عن أحوال بلادهم
- ٢٧٨ ٨ - المراسلة مع الولاة
- ٢٧٩ ثالثاً: حقوق الولاة
- ٢٧٩ ١ - الطاعة في غير معصية الله
- ٢٨٠ ٢ - بذل النصيحة للولاة
- ٢٨٠ ٣ - يجب على الرعية للوالى إيصال الأخبار الصحيحة إليه
- ٢٨١ ٤ - مؤازرة الوالى في موقفه
- ٢٨١ ٥ - احترامهم بعد عزلهم
- ٢٨١ ٦ - مرتبات الولاة
- ٢٨٢ رابعاً: واجبات الولاة
- ٢٨٢ ١ - إقامة أمور الدين
- ٢٨٤ ٢ - تأمين الناس في بلادهم
- ٢٨٥ ٣ - الجهاد في سبيل الله
- ٢٨٧ ٤ - بذل الجهد في تأمين الأرزاق للناس
- ٢٨٧ ٥ - تعيين العمال والموظفين
- ٢٨٨ ٦ - رعاية أهل الذمة
- ٢٨٨ ٧ - مشاورة أهل الرأي في ولايته
- ٢٨٨ ٨ - النظر في حاجة الولاية العمرانية
- ٢٨٨ ٩ - مراعاة الأحوال الاجتماعية لسكان الولاية
- ٢٨٩ ١٠ - أوقات عمل الوالى
- ٢٩٠ المبحث الثالث: حقيقة ولاية عثمان رضى الله عنه
- ٢٩٢ أولاً: معاوية بن أبى سفيان بن حرب الأموى
- ٢٩٦ ثانياً: عبد الله بن عامر بن كريز
- ٣٠٠ ثالثاً: الوليد بن عقبة

الصفحة

الموضوع

- ٣٠٦ رابعاً: سعيد بن العاص
- ٣١٠ خامساً: عبد الله بن سعد بن أبي السرح
- ٣١٢ سادساً: مروان بن الحكم والده
- ٣١٥ سابعاً: هل جامل عثمان أحدكم من أقاربه على حساب المسلمين؟
- ٣١٨ المبحث الرابع: حقيقة العلاقة بين أبي ذر الغفاري وعثمان بن عفان
- ٣١٨ أولاً: مجمل القصة
- ٣٢٥ ثانياً: بطلان تأثير ابن سبأ على أبي ذر رضى الله عنه
- ٣٢٧ ثالثاً: وفاة أبي ذر رضى الله عنه وضم عثمان عياله إلى عياله
- الفصل السادس**
- أسباب فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه**
- المبحث الأول: أهمية دراسة وقائع فتنة مقتل عثمان وما ترتب عليها من أحداث،
- ٣٢٨ والحكمة من إخباره ﷺ بوقوعها
- أولاً: أهمية دراسة وقائع فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه وما ترتب عليها من
- ٣٢٨ أحداث فى الجمل وصفين وغيرهما
- ٣٣٤ ثانياً: الحكمة من إخباره ﷺ بوقوعها
- ٣٣٩ المبحث الثانى: أسباب فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه
- ٣٤٣ أولاً: الرخاء وأثره فى المجتمع
- ٣٤٦ ثانياً: طبيعة التحول الاجتماعى فى عهد عثمان رضى الله عنه
- ٣٤٧ ١ - المتغيرات فى نسيج المجتمع البشرى
- ٣٥٢ ٢ - تكوينات نسيج المجتمع الثقافى
- ٣٥٣ ٣ - ظهور جيل جديد
- ٣٥٤ ٤ - استعداد المجتمع لقبول الشائعات
- ٣٥٥ ثالثاً: مجيء عثمان بعد عمر رضى الله عنهما
- ٣٥٦ رابعاً: خروج كبار الصحابة من المدينة
- ٣٥٧ خامساً: العصية الجاهلية
- ٣٥٨ سادساً: توقف الفتوحات
- ٣٥٨ سابعاً: المفهوم الخاطى للورع
- ٣٥٩ ثامناً: طموح الطامحين

الصفحة

الموضوع

- ٣٥٩ تاسعاً: تأمر الحاقدين
 ٣٦٠ عاشرًا: التدبير المحكم لإثارة المآخذ ضد عثمان رضى الله عنه
 ٣٦٢ الحادى عشر: استخدام الأساليب والوسائل المهيجة للناس
 ٣٦٣ الثانى عشر: أثر السبئية فى إحداث الفتنة
 ٣٦٣ ١ - السبئية حقيقة أم خيال
 ٣٦٨ ٢ - دور عبد الله بن سبأ فى تحريك الفتنة
 الفصل السابع

مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه

- المبحث الأول: اشتعال الفتنة
 ٣٧٢ أولاً: تأذى أصحاب الأهواء من الإصلاح
 ٣٧٣ ثانياً: عبد الله بن سبأ اليهودى على رأس العصاة
 ٣٧٤ ثالثاً: أهل الفتنة يفسدون فى مجلس سعيد بن العاص
 ٣٧٦ رابعاً: أهل الفتنة منفيون عند معاوية
 ٣٧٧ خامساً: رجوع أهل الفتنة إلى الكوفة ثم نفهم إلى الجزيرة
 ٣٨٣ ١ - أهل الفتنة بالبصرة يفترون على أشج عبد القيس
 ٣٨٥ ٢ - ابن سبأ يحدد سنة أربع وثلاثين للهجرة للتحرك
 ٣٨٥ ٣ - أوضاع أهل الكوفة عند تحرك أهل الفتنة
 ٣٨٦ ٤ - القعقاع بن عمرو التميمى يقضى على التحرك الأول
 ٣٨٦ ٥ - يزيد بن قيس يكاتب أهل الفتنة عند عبد الرحمن بن خالد
 ٣٨٧ ٦ - القعقاع بن عمرو يرى قتل قادة أهل الفتنة
 ٣٨٨ ٧ - أهل الفتنة يمنعون سعيد بن العاص من دخول الكوفة
 ٣٨٨ ٨ - أبو موسى الأشعرى يهدئ الأمور وينهى عن العصيان
 ٣٩٠ ٩ - كتاب عثمان إلى الخارجيين فى الكوفة
 ٣٩٠ المبحث الثانى: سياسة عثمان رضى الله عنه فى التعامل مع الفتنة
 ٣٩٢ أولاً: رأى بعض الصحابة بأن يرسل عثمان لجان تفتيش وتحقيق
 ٣٩٢ ثانياً: كتب إلى أهل الأمصار كتاباً شاملاً بمثابة إعلان عام لكل المسلمين
 ٣٩٣ ثالثاً: مشورة عثمان لولاة الأمصار
 ٣٩٤ ١ - اقتراحان لمعاوية يرفضهما عثمان رضى الله عنهما
 ٣٩٦

الصفحة

الموضوع

- ٣٩٧ ٢ - عثمان يخترق صفوف المتأمرين بعد مجيئهم للمدينة
- ٣٩٨ رابعاً: إقامة الحجّة على التمردين
- ٤٠١ خامساً: الاستجابة لبعض مطالبهم
- ٤٠١ سادساً: ضوابط التعامل مع الفتن عند عثمان رضى الله عنه
- ٤٠١ ١ - الثبوت
- ٤٠٢ ٢ - لزوم العدل والإنصاف
- ٤٠٢ ٣ - الحلم والأناة
- ٤٠٢ ٤ - الحرص على ما يجمع، ونيل ما يفرق بين المسلمين
- ٤٠٢ ٥ - لزوم الصمت والحذر من كثرة الكلام
- ٤٠٢ ٦ - استشارة العلماء الربانيين
- ٤٠٣ ٧ - الاسترشاد بأحاديث رسول الله ﷺ فى الفتن
- ٤٠٤ المبحث الثالث: احتلال أهل الفتنة للمدينة
- ٤٠٤ أولاً: قدوم أهل الفتنة من الأمصار
- ٤٠٥ • عثمان يرسل على للمفاوضة مع أهل الفتنة من الأمصار
- ٤٠٦ • الكتاب المزعوم بقتل وفد أهل مصر
- ٤٠٩ ثانياً: بدء الحصار ورأى عثمان فى الصلاة خلف أئمة الفتنة
- ٤١٠ ثالثاً: المفاوضات بين عثمان ومحاصريه
- ٤١١ ١ - ابن عمر يحد عثمان على عدم التنازل عن منصب الخلافة
- ٤١٢ ٢ - توعد المحاصرين له بالقتل
- ٤١٣ ٣ - إقامة عثمان الحجّة على زيف استدلال صعبصبة
- ٤١٣ ٤ - تذكير عثمان رضى الله عنه الناس بفصائله
- ٤١٥ رابعاً: دفاع الصحابة عن عثمان رضى الله عنه ورفضه لذلك
- ٤١٥ ١ - على بن أبى طالب رضى الله عنه
- ٤١٥ ٢ - الزبير بن العوام رضى الله عنه
- ٤١٦ ٣ - المغيرة بن شعبه رضى الله عنه
- ٤١٦ ٤ - عبد الله بن الزبير رضى الله عنه
- ٤١٧ ٥ - كعب بن مالك، وزيد بن ثابت الأنصاريان رضى الله عنهما
- ٤١٧ ٦ - الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه

الموضوع	الصفحة
٧ - عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما	٤١٧
٨ - أبو هريرة رضى الله عنه	٤١٨
٩ - سليط بن سليط	٤١٨
١٠ - عرض بعض الصحابة على عثمان مساعدته فى الخروج إلى مكة ...	٤١٩
• الأسباب التى دعت عثمان إلى منع الصحابة من القتال	٤١٩
خامساً: موقف أمهات المؤمنين وبعض الصحابيات	٤٢١
١ - أم حبيبة بنت أبى سفيان رضى الله عنها	٤٢١
٢ - صفية زوجة رسول الله ﷺ	٤٢١
٣ - عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها	٤٢٢
٤ - مواقف للصحابيات	٤٢٣
أ - أسماء بنت عميس	٤٢٣
ب - الصعبة بنت الحزرمي	٤٢٤
سادساً: من حج بالناس ذلك العام؟ وهل طلب عثمان من الولاة نصرته؟	٤٢٥
١ - من حج بالناس ذلك العام (٣٥هـ)؟	٤٢٥
٢ - هل طلب عثمان رضى الله عنه من الولاة نصرته؟	٤٢٩
٣ - آخر خطبة خطبها عثمان رضى الله عنه	٤٣٠
سابعاً: استشهاد عثمان رضى الله عنه	٤٣١
١ - آخر أيام الحصار وفيه الرؤيا	٤٣١
٢ - صفة قتله	٤٣١
ثامناً: تاريخ قتله، وسنه عند استشهاد وجنازته والصلاة عليه ودفنه	٤٣٦
١ - تاريخ قتله	٤٣٦
٢ - سنه عند استشهاد	٤٣٦
٣ - جنازته والصلاة عليه ودفنه	٤٣٧
٤ - براءة محمد بن أبى بكر الصديق من دم عثمان رضى الله عنه	٤٣٨
المبحث الرابع: موقف الصحابة رضى الله عنهم من مقتل عثمان رضى الله عنه	٤٤١
أولاً: ثناء أهل البيت على عثمان رضى الله عنه وبراءتهم من دمه	٤٤٣
١ - موقف السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها	٤٤٣
٢ - على بن أبى طالب رضى الله عنه	٤٤٥

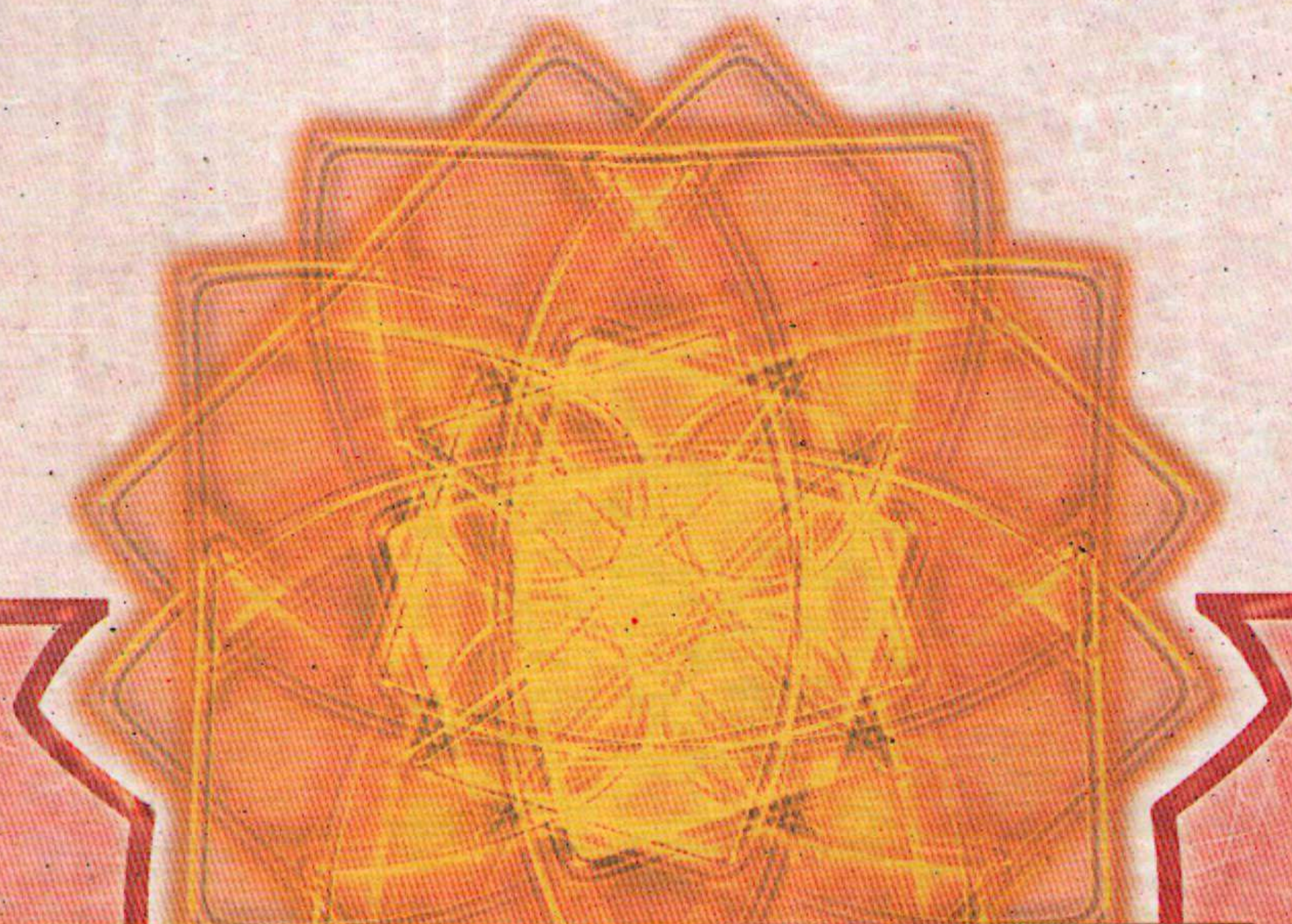
- ٣- ابن عباس رضى الله عنه ٤٤٨
- ٤- زيد بن على رحمه الله ٤٤٩
- ٥- على بن الحسين رحمه الله ٤٤٩
- ثانيًا: موقف عمار بن ياسر رضى الله عنه ٤٥٠
- ١- ضرب عمار بن ياسر ٤٥٠
- ٢- اتهام عمار بالمساهمة فى الفتنة وإثارة الشغب ضد عثمان ٤٥١
- ٣- براءة عمار من دم عثمان رضى الله عنهما ٤٥٣
- ثالثًا: براءة عمرو بن العاص من دم عثمان ٤٥٤
- رابعًا: من أقوال الصحابة فى الفتنة ٤٥٦
- ١- أنس بن مالك رضى الله عنه ٤٥٦
- ٢- حذيفة بن اليمان رضى الله عنه ٤٥٦
- ٣- أم سليم الأنصارية رضى الله عنها ٤٥٧
- ٤- أبو هريرة رضى الله عنه ٤٥٧
- ٥- أبو بكر رضى الله عنه ٤٥٧
- ٦- أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه ٤٥٧
- ٧- سمرّة بن جندب رضى الله عنه ٤٥٧
- ٨- عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه ٤٥٨
- ٩- عبد الله بن سلام رضى الله عنه ٤٥٨
- ١٠- الحسن بن على رضى الله عنهما ٤٥٨
- ١١- سلمة بن الأكوع رضى الله عنه ٤٥٨
- ١٢- عبد الله بن عمر رضى الله عنه ٤٥٨
- خامسًا: أثر مقتل عثمان فى حدوث فتن أخرى ٤٥٩
- سادسًا: الظلم والاعتداء على الآخرين من أسباب الهلاك فى الدنيا والآخرة ٤٥٩
- سابعًا: تأثير المسلمين لمقتل عثمان رضى الله عنه، وما قيل من أشعار ٤٦٠
- الخلاصة** ٤٦٤
- تعريف ببعض المناطق التى ذكرت فى البحث ٤٧٤
- المصادر والمراجع ٤٧٦
- فهرس الموضوعات ٤

منتدى اقرأ الثقافي

www.iqra.forumarabia.com

تاريخ الإسلام في مصر

3



خلف الجامع الأزهر - بجوار بيت الهرأوى
القاهرة - تليفون وفاكس: ٥١٤٧٢٤٨
ت: ٥١٤٧١٧٩ محمول: ٠١٢/٧٤١٨٣٤٨

